الفرقان والقرآن

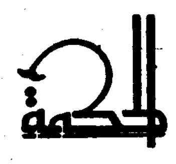
قراءة إسلامية معاصرة

ضمن الثوابت العلمية والضوابط المنهجية

وهي مقدمات للتفسير العلمي للقرآن الكريم

تأليف

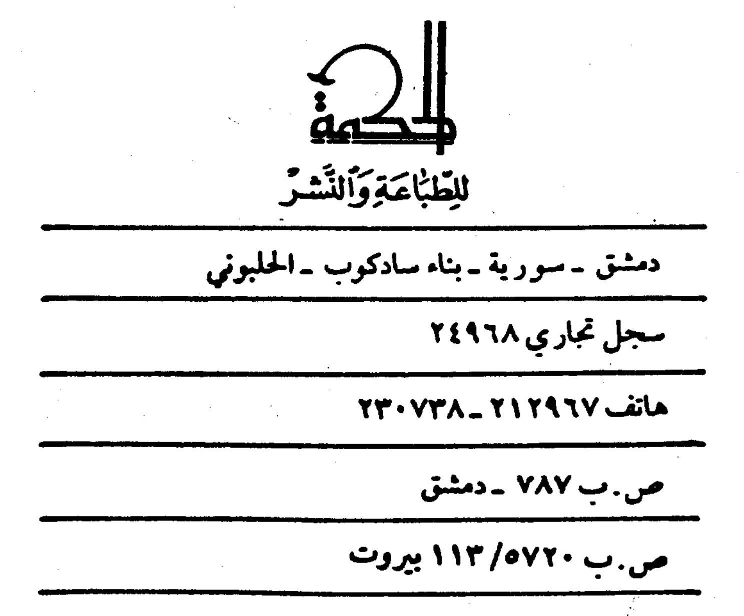
الشيخ خالد عبد الرحمن العك





الطبعة الثانية

١٤١٦ ـ ١٩٩٦



الفرقان والقرآن

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه أستعين

المقدمة:

إنّ الحمدَ لله، نحمَدُهُ ونستعينُهُ ونستغفِرُهُ، ونعُوذُ بالله مِن شُرورِ أنفسِنَا، ومِن سيّئاتِ أعمالِنَا، مَنْ يهدِهِ الله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ لهُ. وأشهدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاّ الله وحدَهُ لاشريكَ لهُ، وأشهدُ أنّ محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ ﷺ.

﴿ياأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ، ولا تَمُوتُنَّ إلاّ وأنتُمْ مُسْلِمُون﴾ [سورة آل عمران/ ١٠٢].

﴿ياأيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمُ الّذِي خلقَكُمْ مِنْ نفسٍ وَاحِدَةٍ وخَلَقَ منهَا زَوْجَها، وبَثَّ منهُمَا رِجَالاً كثيراً ونِسَاءً، واتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ، إنّ الله كانَ عليكم رقيباً﴾ [سورة النساء/ ١].

﴿ياأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وقُولُوا قولاً سديداً يُصْلِحْ لكُمْ أعمَالَكُمْ، ويَغْفِرْ لكُمْ ذُنُوبَكُمْ، ومَنْ يُطِعِ الله ورَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عظِيماً﴾ [سورة الأحزاب/ ٧٠ـ٧١].

أمّا بَعْدُ: «فإنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله، وخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمّدٍ ﷺ، وشرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُها، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِيْ النَّارِ». [سنن الترمذي ج٢/ ١٧/ بإسناد صحيح].

هذه أبحاثٌ مِنْ هَدْيِ الفُرقَانِ والقُرآنِ لتمييزِ الحقِّ عن البَاطل، والهُدَى عن الضّلال، في «القِرَاءَةِ المُعَاصِرَةِ» التي اتخذتْ اتّجاهاً جديداً في فهم القرآنِ الكريم، وتوجيهِ معانيهِ، وتأويل آياتِهِ، على أساسٍ جَدَلِي فلسفي، وفي المقابل لهذا الاتّجاهِ هناكَ «قراءةٌ معاصرةٌ لآياتِ القرآنِ العظيمِ، ضمنَ الثّوابتِ العلميّةِ والضّوابطِ المنهجيّة» قامتْ لإظهارِ مافي القرآنِ العظيم من الحقَائقِ الكونيّةِ ـ إلى جانبِ الحقائقِ الدّينيّةِ فيه؛ من عقيدةٍ وشريعةٍ ـ كانَ لابدَّ من بيانِ الأصالةِ التي اتّسمتْ بها، والقواعدِ التي التزمتْ بها، والأصولِ التي تمسّكتْ بها، والثّوابتِ التي دارتْ حولَها؛ حتى أتتْ بأصحِّ النّتائج العلميّة الرّصينة السّليمة، وقدّمتْ للأمّةِ أبْدَعَ ماتوصَّلَ إليهِ العلمُ الحديثُ في الكشفِ عن الإشاراتِ القرآنيةِ إلى نظامِ الكونِ وقوانينهِ، مِمّا يزيدُ في إيمانِ المؤمنينَ يقيناً على يقينِهم، وتصديقاً على تصديقِهم، وثباتاً على ثباتهم، وإجلالاً واحتراماً لعلماء هذه

الأُمّة الَّذين قَدَّمُوا للإسلامِ كلَّ غالٍ ورخيصٍ في سبيلِ خدمتهِ ورعايتِه، ونشرِ هدايتِه!.

وعلى النّقِيض مِنْ هذا الموقف الأصيل الكريم، كان هناك موقف المعاند المكابر الجاحد، لِما في القرآن العظيم من الحقائق العلمية والثّوابت اليقينيّة، حيثُ قدّمَ في «الكتابِ والقرآنِ القراءةَ المعاصرة» التي أقامَها على أسلوبِ جَدَلي فلسفيٍّ عَقِيمٍ، غَيَّرَ من خلالِها جميعَ الثّوابتِ الإسلاميّة، وحرّفَ كلَّ المعاني القرآنيّة، وأبطلَ عامّةَ المصطلحات الشّرعية، حيثُ جرّدَ كلَّ ذلك عن أصالتِهِ، وأعطَاهُ تسمياتٍ مبتدعةً، ومعانٍ مخترعةً؛ فحرَّفَ وزيّفَ، وبدّلَ وغيَّرَ، كلُّ هذا تحتَ دعوَى المعاصرة، فكانتْ أبحاثُهُ عاملَ شكوكٍ واضطرابٍ واختلالٍ وجَدَلٍ، تُثَارُ حولَ الآيات القرآنيّة، والقضايا الإسلاميّة، والأحكام الشرعيّة، مع الانتقاص والتّنكّر لجميعِ علماءِ الأُمّةِ الإسلاميةِ قديماً وحديثاً، والطّعن فيهم..

ولو أُتيح لأصحاب «الجَدَلِ الفلسفي» عن طريق «القراءة المعاصرة» تغييرَ الثّوَابت في القرآن والإسلام؛ لأمكن تغييرُ الحقائق حسبَ الآراء والاتجاهات في كلِّ عصر.. وهذا يعني: أنْ لابقاءَ للحقائق، وبالتّالي لابقاءَ للوجُود.. فلا وجُودَ بلا حقائق!!؟..

ولو أُتيحِ «للمُعَاصَرَة» التّنكُّرُ للأصالة؛ فلنْ يَبْقى للحياةِ ضابطٌ ولا رابطٌ.. ولنْ تستقيمَ الحياةُ بدُونِ الضَّوَابطِ والرَّوابطِ!؟..

فلا بُدَّ للمتغيّرات من ثَوَابت تضبطُها وتُحْكِمُ سيرَهَا.. كما لابُدَّ للمُعَاصَرَةِ من أصَالةٍ تَسْتَنِدُ إليها لتسدِيدِهَا وإصلاحِ شأنِهَا..

ولو أبطلَ المسلمون ذلك في علومِهم ومعارِفِهم وثقافتِهم؛ لأصبَحُوا شيئاً آخَرَ.. غيرَ الإسلامِ!!؟؟..

ولعظيمِ شأنِ القرآنِ الكريم، ولجليلِ مقام الإسلام الرَّفيع، يتوجّبُ علينا نحنُ المسلمين القيامُ بخدمةِ ورعايةِ وصَوْنِ وحفظِ مافي القرآنِ والإسلام من الحقائق الثوابت، وذلك على الصَّعِيْدَيْنِ: صَعِيْدِ الإثْبَاتِ.. وصَعِيْدِ النَّفْي..

فنُثبتُ للقرآنِ والإسلامِ جميعَ ثوابتِهِمَا التي أجمعَ على ثبوتِها جميعُ الأُمّةِ الإسلاميّة عبرَ تاريخها، من غير تحريفٍ ولا تزييفٍ ولاتبديلٍ ولاتعطيلٍ!!..

وننفِي عن القرآنِ والإسلام جميعَ ماأُلصِقَ بهمَا من معانٍ زائفةٍ، وتأويلاتٍ محرّفةٍ، واصطلاحاتٍ مبتدعَةٍ، وتسمياتٍ مستحدَثةٍ، وأنْ ننزّهَهُ عن عَبَثِ العَابِثين، وأنْ نَصُونَهُ عن جَدَلِ المُجَادِلين، لِما ثَبَتَ عن رسولِ الله ﷺ أنّهُ قالَ: «الجِدَالُ في القرآنِ كُفرٌ» [صحيح الجامع الصغير].

قالَ الله تباركَ وتعالى: ﴿تبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقانَ علَى عَبْدِهِ ليكونَ للعَالَمِينَ نَذِيْراً﴾ [سورة الفرقان/ ١]، فسَمَّى القرآنَ «فُرْقاناً» لِما فيه مِنْ فارقٍ بينَ الحقِّ والبَاطِلِ، والهُدَى والضَّلال!! . .

وكما حرَّمَ رسولُ الله ﷺ الجدَالَ في القرآن، كذلك حرَّمَ الله تعالى الإصغَاء إلى الذين يُلْحِدُون في آياتِ الله تعالى أو يكفرون بها أو يستهزئون، ففي سورة النساء آية ١٤٠/ يقول الله تعالى: ﴿وقَدْ نَزَّلَ عليكُمْ في الكِتَابِ أَنْ إذا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بِها فلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حتّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُمْ، إنَّ اللهَ جامِعُ المُنَافِقِينَ والكَافِرِينَ في جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾، وقال سبحانه في سورة الأعراف آية١٨٠ : ﴿. . وذَرُوا الَّذين يُلْحِدُونَ في أسْمَائِهِ سَيُجْزَوْن ماكانُوا يعملُون﴾.

فللقرآنِ جَلاَلَتُهُ وقدسيتُهُ، فيجبُ على جميعِ المسلمين عدمُ الإصغاءِ لأهلِ الجَدَلِ، في القرآن، كما يجبُ عليهم عدمُ قراءَةِ كُتُبِهم، أو النَّظرُ في شُبُهَاتِهِمُ التي يُثيرونَها حولَ حقائقِ القرآنِ الكريم، ومايذكرونه من نظريات أسطورية خرافية، كالتي زعموها «أنَّ البشر كان من المملكة الحيوانية، ثم تطوّر إلى رتبة الإنسان»!؟ . .

قالَ رسُولُ الله ﷺ فيما رواه البخاري في كتاب الاعتصام، ومسلم في كتاب الإيمان: «مَامِنْ نَبِيٍّ إلاّ أُوتِيَ مِنَ الآياتِ مَاعَلى مِثْلِهِ آمَنَ البَشَرُ، وإنّما كانَ الَّذي أُوتِيتُهُ وَحْياً أَوْحَاهُ الله إليَّ، فَأَرْجُو أنْ أكونَ أكثرَهُمْ تَابعاً يومَ القِيَامَةِ»!!! . . فهذا الوحيُ هو القرآنُ العظيمُ الّذي لايأتيهِ البَاطِلُ من بينِ يديهِ ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ!!! . .

نعم! هذا هو القرآنُ العظيمُ أخي المسلم - بينَ يديك - فاستَمْسِكْ بهِ، وآمِنْ بما فيهِ، واعملْ بأوامِرِهِ، واجتنِبْ نواهِيهِ، وتخلَّقْ بأخلاقِهِ، وصَدِّقْ بحقائقِهِ، وسلِّمْ لله فيهِ مالا علمَ لك، واتَّبِعْ نُورَهُ، وسِرْ على هِدَايَتِهِ، تَكُنْ مِنَ الَّذِينَ أنعمَ الله عليهم مِنَ النَّبِيِّين، والصِّدِّيقين، والشُّهداءِ والصَّالحِين!! . .

والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وقد أتَتِ الأبحاثُ في «الفُرْقَانِ والقُرآنِ» في هذا الكتاب ضمنَ خطّةٍ منهجيّةٍ أُلَخِّصُهَا فيمايلي:

التمهيد: ويشتمل على الأمور التالية:

١ ـ القراءةُ في القُرآن والفُرقان..

٢ ـ القرآنُ العظيم: ذلك الكتابُ لاريبَ فيه..

٣ ـ الإسلامُ خاتم الأديان، الباقي على الدوام..

٤ ـ العلمُ في الإسلام..

٥ ـ الإسلامُ ودعوَى التّطوّر..

٦ ـ الأصالة والمعاصرة.

٧ ـ التراث الإسلامي فكرٌ حيٌّ.

٨ ـ الثوابت والمتغيّرات في دائرة العلوم الإسلامية.

٩ ـ التحذير من خطورة القراءة المعاصرة على منهج الصراع الجدلي الفلسفي.

١٠ـ قراءة أصولية للمنهج الجدلي الفلسفي.

١١ـ المنهج العلمي في تفسير آيات الكون والحياة.

المدخل العام إلى خصائص القرآن العظيم

وهو يشتمل على الخصائص الفريدة التالية:

١ ـ إعجاز القرآن العظيم!.

٢ ـ وقوع التّحدّي بالقرآنِ العظيم!.

٣ ـ لغة القرآن البليغة!.

٤ ـ نظم القرآن المحكم وأسلوبه العذب!.

٥ ـ تأثير القرآن العظيم في نفوس المؤمنين!.

٦ ـ معارف القرآن العظيم الشّاملة!.

٧ ـ وفاءُ القرآن العظيم بحاجات البشر!.

٨ ـ تأييد القرآن العظيم للحقائق العلمية!.

٩ ـ سهولة فهم القرآن العظيم مع علوّ مطالبه!.

الفصل الأوّل

مكانة القرآن العظيم في فصاحته وبلاغته وإعجازه وعظمته

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التّالية:

التمهيد: وجوب إدراك وجوه إعجاز القرآن العظيم.

البحث الأوّل: فصاحة القرآن العظيم وبلاغته.

البحث الثاني: وجوه إعجاز القرآن العظيم.

البحث الثالث: إعجاز النّظم القرآني: جزالته، وتناسقه.

البحث الرابع: إعجاز الأسلوب القرآني الفريد.

البحث الخامس: عظمة القرآن ووحدته الموضوعية.

البحث السادس: إعجاز القرآن في إيقاظ العقل البشري وتحريره من الضلال.

البحث السابع: أسلوب التّحدّي في القرآن لإثبات الوحدانية وصدق النّبوّة.

البحث الثامن: الإعجاز التشريعي للقرآن العظيم.

البحث التاسع: الإعجاز الغيبي في القرآن العظيم.

الفصل الثاني

المنهج القرآني الفريد في عرض العقيدة وإثبات التوحيد

ويشمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:

البحث الأول: منهج القرآن في عرض العقيدة «منهج للفكر ودعوة للتدبّر».

البحث الثاني: أهمية عقيدة التوحيد في الدِّين والحياة.

البحث الثالث: أثر عقيدة التوحيد في حياة الإنسان.

البحث الرابع: الأسلوب الميسّر في عرض العقيدة الإسلامية.

البحث الخامس: فهمُ الإسلام عقيدةً وشريعةً.

البحث السادس: أمثال القرآن الكريم.

البحث السابع: أقسام القرآن الكريم.

البحث الثامن: جَدَل القرآن الكريم.

البحث التاسع: قصص القرآن الكريم.

الفصل الثالث

تاريخ تفسير القرآن العظيم في مراحله الأولى ومنهج الصّحابة فيه

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:

المدخل إلى أبحاث هذا الفصل: بيان القرآن الكريم في صدر الإسلام.

التمهيد: أهمية التفسير وحاجة المسلمين إليه.

البحث الأول: تاريخ مراحل تفسير السّلف.

البحث الثاني: القرآن الكريم وتهيّب الصحابة في تفسيره.

البحث الثالث: مصادر تفسير الصحابة للقرآن الكريم.

البحث الرابع: التّفسير والصّحابة المفسّرُون.

البحث الخامس: منهج ابن عباس في التفسير أنموذج في منهج السلف في التفسير.

الفصل الرابع

مراحل التفسير العلمي والموضوعي

القرآن العظيم

وهو يشتمل على الأبحاث التالية:

البحث الأول: أثر القرآن العظيم في العلوم الكونيّة.

البحث الثاني: دعوة القرآن العظيم إلى التّفكّر في الأنفس والآفاق.

البحث الثالث: التفسير العلمي بين المنهج القديم والمنهج الجديد.

البحث الرابع: التفسير العلمي في رحاب إعجاز القرآن العلمي.

البحث الخامس: الآيات الكونيّة في القرآن العظيم.

البحث السادس: التّعريف بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

البحث السابع: نشأة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

البحث الثامن: التفسير الموضوعي بين الماضي والحاضر.

البحث التاسع: ألوان التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

الفصل الخامس

تاريخ تفسير القرآن العظيم بعد نشوء العلوم المستحدثة والمنقولة إلى كتب التفسير

وهو يشتمل على الأبحاث التّالية:

التمهيد: نبذة تاريخية عن نشوء علم التّفسير وتطوّره.

البحث الأول: أثر نشأة الفِرَق على مسيرة التفسير.

البحث الثاني: أثْر العلوم الفلسفية على مسيرة التفسير.

البحث الثالث: أثر الفلسفة الصّوفية على مسيرة التفسير.

البحث الرابع: أثر العلوم العقلية على مسيرة التفسير.

البحث الخامس: أثر منهج الإمام الرّازي في التفسير.

البحث السادس: أثر منهج الإمام الألوسي في التفسير.

البحث السابع: تفسير المنار وبيان منهجه ومايُؤخذ عليه.

البحث الثامن: تفسير المراغي وبيان منهجه مع مناقشة بعض تفسيراته.

البحث التاسع: مناقشة علمية لتفسير الشيخ محمد عبده لسورة «الفيل».

البحث العاشر: الإعجاز العلمي ودلالته في تفسير القرآن الكريم.

البحث الحادي عشر: الآيات الكونيّة في القرآن وسلطان العقل.

الفصل السادس

أثر شيخ الإسلام تقيّ الدِّين ابن تيمية في علم التفسير وأصوله، وفي الكشف عن تأثير الفلسفة وعلم الكلام على بعض علماء المسلمين

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التّالية:

البحث الأول: قواعد التفسير وأصوله.

البحث الثاني: التأويل والتفسير.

البحث الثالث: حكم تفسير القرآن بالرأي.

البحث الرابع: حكم ترجمة معاني القرآن لغير العرب.

البحث الخامس: أثر علم الكلام على بعض علماء الإسلام.

البحث السادس: لمحات من تاريخ نقض مذاهب الفلاسفة والمتكلّمين.

الفصل السابع

أخطار المناهج المنحرفة في تفسير القرآن الكريم

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:

التمهيد: رعاية الله تعالى لكتابه ولسنّة رسوله ﷺ.

البحث الأول: الكشف عن الاتّجاهات المنحرفة في التفسير.

البحث الثاني: تطرّف المنهج الفلسفي في تفسير الآيات المتشابهات.

البحث الثالث: انحراف المنهج الفلسفي الصوفي في التفسير.

البحث الرابع: انحراف أصحاب المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن الكريم.

البحث الخامس: انحراف المتطرّفين في التفسير العلمي للقرآن الكريم.

البحث السادس: انحراف مدّعي التجديد في تفسير القرآن الكريم.

البحث السابع: انحراف أصحاب القراءة المعاصرة للقرآن الكريم.

البحث الثامن: معالم الانحراف في فهم القرآن والإسلام.

البحث التاسع: مَاذا يعني التجديد في الإسلام.

البحث العاشر: التجديد في الإسلام ضمن الثوابت العلمية والضوابط المنهجية.

البحث الحادي عشر: ثوابت العقيدة الإسلاميّة عصمة من كلّ ضلال.

فهذه الأبحاث التي بلغتْ فوقَ الثّمانين! قدْ جَاءَتْ بحمدِ الله تعالى ضمنَ دراسة منهجية، وقراءة إسلامية معاصرة، لجميع أنواع التفسير والتأويل، وبيان أقسام الإعجاز القرآني، وغير ذلك ممّا هو داخل في علوم القرآن الكريم؛ لتكون الميزان والمقياس لجميع الدّراسات والأبحاث عن أيِّ وجه من أوجه التفسير والتأويل؛ لبيان وُجُوهِ الخطر في «القراءة المعاصرة للكتاب والقرآن» التي خرجت عن جميع الثوابت العلمية والضوابط المنهجية في الإسلام. نسألُ الله تعالى الحفظَ والسلامةَ من كلِّ انحرافٍ عن منهجِ الحقِّ والصراطِ المستقيمِ، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

الشيخ خالد عبد الرحمن العك
غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين

دمشق في ١٥ شعبان/ ١٤١٣هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

القِرَاءَة فِي القُرآنِ والفُرقَانِ:

قال الله تعالى: ﴿إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ. فإذَا قَرَأْنَاهُ فاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة/ ١٧ـ١٩].

﴿وبالحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ بالحَقِّ نَزَلَ وماأَرْسَلْنَاكَ إلاَّ مُبَشِّراً ونَذِيراً. وقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلَى مُكْثٍ ونَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [الإسراء/ ١٠٥ـ١٠٦].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل/ ٩٨].

﴿وإِذَا قُرِئَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وأَنْصِتُوا لَعلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٠٤].

قَالَ في لِسَانِ العَرَبِ [ج١/ ١٢٨ـ١٢٩]:

«القُرْآنُ: التَّنْزِيلُ، قَرَأَهُ يَقْرَؤُهُ، قَرْءاً وقِرَاءَةً وقُرْآناً، فَهُوَ مَقْرُوءٌ. ويُسَمَّى كَلامُ الله تعالى الَّذِي أَنْزَلَهُ على نَبِيِّهِ ﷺ: كِتَاباً وقُرْآناً وفُرْقَاناً. ومَعْنَى القُرْآنِ مَعْنَى الجَمْعِ، وسُمِّيَ قُرْآناً لأَنَّهُ يَجْمَعُ السُّوَرَ فَيَضُمُّهَا. وقَوْلُهُ تعالى: ﴿إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ﴾ أي جَمْعَهُ وقِرَاءَتَهُ ﴿فإذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أيْ قِرَاءَتَهُ. قال عبدالله بن عباس: فإذا بَيَّنَّاهُ لَكَ بِالْقِرَاءَةِ، فَاعْمَلْ بِمَا بَيَّنَّاهُ لَكَ.

قَالَ ابنُ الأثير: تكرَّرَ في الحَدِيثِ ذِكْرُ القِرَاءَةِ والاقْتِرَاءِ والقَارِئِ والقُرْآنِ. والأصلُ في هذه اللَّفظةِ الجمعُ، وكلُّ شيءٍ جمعتَهُ فقدْ قَرَأْتَهُ. وسُمِّيَ القرآن [قرآناً] لأَنَّهُ جمَعَ القِصَصَ والأَمْرَ والنَّهْيَ والوَعْدَ والوَعِيدَ، والآياتِ والسُّوَرَ بَعْضَها إلى بَعْضٍ». وقَدْ خُصَّ لفظ «القُرْآن» بالكِتَابِ المُنَزَّلِ علَى رَسُولِ الله ﷺ، فَصَارَ كَالعَلَمِ، كَما أَنَّ التَّوراةَ لِما أُنْزِلَ على موسَى عليه السلام، والإنجيلَ علَى عيسَى عليه السلام. وتَسْمِيَةُ «الكِتَابِ» قُرْآناً مِنْ بَيْنِ كُتُبِ الله لكونِهِ جامِعاً لِثَمَرةِ كُتُبِهِ؛ بل لجمعِهِ ثمرةَ جَمِيعِ العُلُومِ، كَما في قولِ الله تعالى: ﴿.. وتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف/ ١١١] وقولِه تعالى: ﴿.. تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل/ ٨٩].

والقِرَاءَةُ: ضَمُّ الحُروفِ والكلِمَاتِ بعضِهَا إلى بعضٍ في التَّرْتِيلِ. والقِرَاءَةُ: البَحْثُ

والدِّرَاسَةُ، ومنه: تَقَرَّأْتُهُ تفهمتُهُ. وقَارَأْتُهُ: دَارَسْتُهُ.

وقال في لِسَانِ العربِ [ج١٠/ ٣٠٢-٣٠٣]:

«الفُرْقَانُ: القُرْآنُ. وكُلُّ مَافُرِقَ بِهِ بينَ الحَقِّ والبَاطِلِ؛ فهو فُرْقَانٌ، ولهذا قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وهَارُونَ الفُرْقَانَ﴾.. والفُرْقَانُ: مِنْ أَسْمَاءِ القُرْآنِ: أيْ أَنَّهُ فَارِقٌ بينَ الحَقِّ والبَاطِلِ والحَلاَلِ والحَرَامِ. والفُرْقَانُ: الحُجَّةُ. والفُرْقَانُ: النَّصْرُ، وفي التَّنْزِيلِ: ﴿ومَاأَنْزَلْنَا علَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ﴾ وهو يومُ بَدْرٍ؛ لأنَّ الله تَعالى أظهرَ مِنْ نَصْرِهِ ماكانَ بينَ الحَقِّ والبَاطِلِ. والفُرْقَانُ: التّوراة؛ عَنَى بِهِ أَنَّهُ يُفَرِّقُ بينَ الحَقِّ والبَاطِلِ. [وجميعُ كُتبِ الله تعالَى فُرْقَانٌ] لأَنَّهُ تَعالَى فَرَقَ بكلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بينَ الحَقِّ والبَاطِلِ».

والفُرْقَانُ: اسمُ سُورةٍ في القُرْآنِ [رقمها٢٥]، تميّزت بميّزاتٍ عظيمةٍ! منها: توضيحُ الفَارِقِ بينَ الحقِّ والبَاطِلِ، وبينَ الخيرِ والشّرِ، وبينَ ماهو إسلامٌ لله تعالى وخضوعٌ لأمره ونهيِهِ، وبينَ ماهو عِنَادٌ وتكبّرٌ عن اتّباعِ سبيلِ الله القويم في أمور هذه الدنيا.

فَوُرُودُهَا في قَضَايَا الحَقِّ والبَاطِلِ إبرازٌ للحدّ الحاسم بينَ كلِّ ماهو حقٌّ، وكلِّ ماهو باطلٌ!!. ولها دَلاَلَةٌ أكبرُ من ذلكَ، فهي تعني قوّةَ هذا التَّفْرِيْقِ، وشِدَّةَ هَذا الفَصْلِ: بينَ الحقِّ والبَاطلِ، فيظهرُ الحقُّ بقوّتِهِ وسُلْطانِهِ وحُجّتِهِ وبُرْهَانِهِ!! ويظهرُ الباطلُ بزيفِهِ وتزويرِهِ وبُهْتَانِهِ!!. هَذا هُوَ المَفْهُومُ من كلمةِ «الفُرْقَانِ» في «القُرْآنِ»!!!.

ولهذا قالَ الله تعالى في أوّلِ سُورةِ «الفُرْقانِ»: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ علَى عَبْدِهِ لِيَكُوْنَ للعَالَمِيْنَ نَذِيْراً﴾!!!.

وعلى هَذا تَقُومُ الدِّرَاسَاتُ القرآنيةُ واسْتِقْرَاءَاتُهَا البَيَانِيَّةُ في البَحْثِ والتَّفْصِيلِ في جميعِ قَضَايَاهَا الكُلِّيَّةِ والجُزْئِيَّةِ، والعَامَّةِ والخَاصَّةِ، والأَصْلِيَّةِ والفَرْعِيَّةِ. وهَذا الفُرْقَانُ: هو جَميعُ الثَّوَابتِ وكَافَّةُ الضَّوَابِطِ الَّتِي يَقُومُ عليهَا الإِسْلاَمُ؛ فهُوَ القَائدُ فيها، والمُوَجِّهُ لها! وهو الميزانُ المستقيمُ الذي تُوزنُ فيه كُلُّ القَضَايَا والاعتباراتِ، والأفكارِ والنّظريّاتِ، والآرَاءِ والاجتهاداتِ!!..

وهُنَا تَأتِي معنَا القراءاتُ الهَادِفَةُ حولَ أَهَمِّ قَضَايَا العصر في: القرآنِ، والإسلامِ، والأصالةِ، والثّوابت، والمُتَغيّرَاتِ، والمنهجِ العلمي في تفسيرِ آياتِ الكونِ والحياةِ، ثم النظرِ في جَدلِ أهلِ البَاطِلِ في آياتِ القرآنِ.

وهذا تمهيدٌ لفصولِ هذا الكتابِ وأبحاثِهِ...

القرآن العظيم: ذلك الكتاب لاريب فيه!!

١ ـ القرآن العظيم: خَاتَمُ الكُتُبِ السماويةِ المنزّلة بالوحي من ربّ العَالَمِين على الأنبياء والمرسلين، أنزله الله تبارك وتعالى على عبدِهِ ورسولِهِ «محمد بن عبدالله» منجّماً على ثلاثٍ وعشرين سنة، ابتداءً بآية ﴿اقْرَأْ باسْمِ ربِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وانتهاءً بآية ﴿اليومَ أكملتُ لكُمْ دِينَكُمْ..﴾ وهو المعجزةُ الباقية الدّائمة على مدى الدُّهور، فقد تحدّى الله تبارك وتعالى العَرَبَ والعَالَمِينَ جميعاً بأنْ يأتُوا بمثله فعجزوا، ثم تحدّاهم بعشرِ سور مثلِهِ، فعجزوا، ثم تحدّاهم بسورةٍ واحدةٍ مثلِهِ، فعجزوا عن ذلك كلَّ العجز!! ومازال التّحدّي به قائماً!! وسيظلُّ دائماً أبَد الدّهر!!..

وهذا القرآنُ منزّلٌ من عندِ الله بلفظه ومعناه، وليس من كلام النّبيّ ﷺ في شيء، وبرهان ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وإنَّهُ لتنزيلُ ربِّ العَالَمِين. نزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ علَى قلبِكَ لتكونَ مِنَ المنذِرِين، بلسَانٍ عربيٍّ مبينٍ﴾ [الشعراء/ ١٩٥].

ويتميّزُ القرآنُ العظيم بذاتيّةٍ خاصّةٍ في نظمِهِ ومنهجه ودَلَالَاتِهِ ومعانيهِ!! فلا شيءَ في كُتُبِ أهلِ الأرضِ تُمَاثِلُهُ أو تُضَاهِيهِ في أيِّ شيءٍ في خصائصهِ أو إعجازِهِ!!..

ولقد تكفّلَ الله تبارَكَ وتعالى ببيَانِهِ وحفظِهِ، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إنّ علينَا بيَانَهُ﴾ [القيامة/ ١٩]، وقال سبحانه: ﴿إنّا نحنُ نزَّلْنَا الذِّكرَ وإنّا لهُ لَحَافِظُون﴾ [الحجر/ ٩]، وهو خَاتَمُ الكُتُبِ الإلٰهيّة، والمهيمنُ عليها، يشهدُ لها بالصّحة والثّبات فيما كانت عليه في عُهودِها الأولى، ويُقيم الحُجَّةَ في إنكارِ ماتحرَّفَ منها أو تبدَّلَ، فلا تغيبُ عنه أُصولُها ولافُرُوعُها!!..

٢ ـ لقد جَدَّدَ الله تبارَكَ وتعالى في القرآنِ العظيم دعوةَ الرّسَالاتِ والنُّبُوَّاتِ في أصولها، باعتبارها جميعاً من مشكاةٍ واحدةٍ، تدعو إلى توحيدِ الله تعالى في أُلُوهيّته: أنْ لامعبودَ بحقٍّ إلاّ الله تعالى وحدَهُ لاشريكَ له!!..

فكان هذا التّجديدُ مُشَرِّفاً للأمّة التي حملتْ رسالتَهُ، ورَافِعاً لِشَأْنِها، وحافظاً لكرامتِها، ومُثَبِّتاً لِدَعَائِمِها، وسَيِّداً لِمَسِيرَتِهَا، ومُوَجِّهاً لانْطِلاقَتِها!!..

قالَ رَسُولُ الله ﷺ فيما رواه الشيخان في صحيحيهما [البخاري/ ٤٩٨١/ ومسلم/ ٢٣٩] من رواية أبي هريرة رضي الله عنه ـ «مَامِنَ الأنبياءِ مِنْ نبيٍّ إلاّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مامِثْلُهُ آمَنَ عليهِ البَشَرُ، وإنّما كانَ الَّذِي أُوتِيْتُ وَحْياً أوحَى الله إليَّ، فأَرْجُو أنْ أكُونَ أكْثَرَهُمْ تَابِعاً يومَ القِيَامَةِ»!!.

فهذا الوحيُ الّذي أُوتيهِ رسولُ اللهﷺ: هو كتابُ الله تبارَكَ وتَعالى فيهِ نَبَأُ مَنْ قبلكم، وخبرُ مَنْ بعدَكم، وحَكَمُ مابينكُمْ، هُوَ الفَصْلُ ليسَ بالهزلِ، مَنْ تركَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله، ومَن ابْتَغَى الهُدَى في غيرِهِ أضَلَّهُ الله، فهو حَبْلُ الله المتين، ونورُهُ المبينُ، والذّكرُ الحكيمُ، وهو الصِّراطُ المستقيمُ، وهو الذي لاتزيغُ به الأهواءُ، ولاتلتبسُ به الألسنةُ، ولاتتشَعّبُ معه الآراءُ، ولايشبَعُ منه العلماءُ، ولايَخْلَقُ من كثرةِ الرَّدِّ، ولاتنقضي عَجَائِبُهُ، وهو الّذي لم تَنْتَهِ الجنُّ أنْ سَمِعَتْهُ أنْ قَالُوا: ﴿إنّا سَمِعْنَا قُرْآناً عجباً يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فآمَنّا بهِ﴾ [سورة الجن/ ١-٢]، مَنْ عَلِمَ بهِ سَبَقَ، ومَنْ قالَ بِهِ صَدَقَ، ومَنْ حكمَ بِهِ عَدَلَ، ومَنْ عملَ بِهِ أُجِرَ، ومَنْ دَعَا إليهِ هَدَى إلى صِرَاطٍ مستقيمٍ!!.

فالقرآنُ العظيم بهذا المفهوم العميق، والدَّلاَلاَتِ الواضحة، كانَ ولازَالَ وسيبقَى المعجزة الخالدة الدّائمة في اللّفظ والمضمُون، فقد كانت معجزات الأنبياء السّابقين متفوّقة عاليةً على تحدّيات عصورهم وأُمَمِهم.. أمّا القرآنُ فهو معجزةُ خاتَم الأنبياءِ والمرسلين المتفوِّقةُ العَاليةُ السَّاميةُ الخالدةُ البَاقيةُ القائمةُ على البشرية وعلى العَالَمِين!! على مَرِّ العُصُورِ وكرِّ الدُّهُور!!..

٣ ـ وإعجازُ القرآن العظيم: بَيَانِيٌ وعلْمِيٌّ، ولقد تَوَالَى ذلك على تَوَالِي الأجيال، حيث كان الشُغْلَ الشّاغِلَ لعقولِ العلماء والمفكّرين والبَاحثين، في جميع الدَّلاَلات العلمية، والمستجدّات العصرية، فكانَ ولازالَ السّابقَ المتقدِّمَ أمامَ جميع الحقائق الكونية، وله فيها الرِّيَادَةُ والقِيَادَةُ، حيث يضعُ «العلمَ» في مقدِّمة أمور الحياة، فبلغتْ آياتُه في «مادّة العلم ومشتقاته» في ثمانمائةٍ وسبعين/ ٨٧٠/ آية!!..

والعلمُ الذي يُرسّخ القرآنُ العظيمُ دعائمه: هو العلمُ بمفهومه الشّامل التّامّ الكامل الذي ينتظمُ تحتَهُ كلُّ مايتّصلُ بالحياةِ.. فقد دَعَا إلى النَّظرِ في الكونِ لاستكشافِ كائناتِهِ، وللتّعرّف على أنظمتهِ وقوانينِهِ.. فهو بهذا يملكُ الرِّيَادَةَ والقِيَادَةَ في الكونِ والحياةِ!!..

ولهذا نجدُ القرآنَ العظيمَ يفتحُ آفاقَ البحثِ والاستكشافِ أمامَ أصحابِ المؤهّلاتِ العلمية، ضمنَ الثّوابتِ والضّوابط التي دَلَّ عليها، كما نجدُهُ يُغلقُ المَنَافِذَ أمامَ أصحابِ الأهواءِ من العَابثين والمَارقين.. ولهذا حَذَّرهم أشدَّ التّحذيرِ في تماديهم في تأويلِ آياتهِ تأويلاً لايحتملُهُ نظمُهُ ولاتشيرُ إليه دَلاَلاَتُهُ ولايتّفِقُ مع هدايتِهِ، وجعلَهُ من «تحريفِ الكَلِمِ عن مَوَاضِعِهِ»، ولقد جعلَ الله سبحانه سُنّةَ رسولِهِ ﷺ الضّابطَ لبيانِ القرآنِ العظيمِ، فكلُّ نَهجٍ يُخالفُ سُنّةَ رسولِهِ ﷺ فهو باطلٌ مَرْدُودٌ ومَرْفُوض..

٤ ـ للقرآنِ العظيم أسلوبُهُ الخاصُّ ونهجُهُ المتميّزُ في الدّعوةِ والإقناع، فله في مخاطبة الفطرة طريقةٌ مُحْكَمَةٌ فائقةُ التّأثير، فإذا وَجّهَ خطابَهُ للعقل قدّم إليه الدليل والبرهان فيما يدعُوهُ إليه، وإذا وَجّهَ خطابَهُ للقلبِ قدمَ إليه اليَقِينَ والسَّكينةَ والطّمأنينةَ، وهو في جميع ذلك بعيدٌ كلّ البُعْدِ عن التعقيد، فأسلوبُهُ سهلٌ ممتنعٌ، وبراهينُهُ مألوفةٌ للعقول، وحججهُ قريبةٌ للنفوس، وآياتُهُ محبَّبة للقلوب!!..

كما له أسلوبُهُ الفريدُ في التّرغيب والتّرهيب، فرَغَّبَ الطّائعين فيما أعدَّه الله تعالى لهم في دار النّعيم، كما رَهَّبَ الفاسقين والظالمين والكافرين بما أعدَّه الله تعالى لهم في دار الجحيم.

٥ ـ كما كان للقرآن العظيم في أولِ عهدهِ النّزولُ منجّماً، ممّا ترك في نفوسِ سَلفِ هذه الأمةِ من آثارِ اليقينِ والثّقةِ والثّباتِ، ممّا جعلَ قَرْنَهُمْ خيرَ القُرُون!!..

ولاريبَ أنّ أسلوبَ الاقناع أقوى وأرسخُ في حالاتِ المناسباتِ ومستجدّاتِ الأحداثِ، ممّا لولم يكنْ نُزولُ القرآن الكريم مفرّقاً في مناسباتها، فإنّ التعليمَ والتّوجيهَ والإرشادَ على مراحل أوقعُ في النفوس وأيسرُ عليها، من أن يكون جملةً واحدة.

وهذا ماغَدَت عليه الدعوةُ الإسلاميةُ في مراحلها في تأصيل الإسلام في شُعُوبِ الأرض وأُمَمِها، وهذه طريقةٌ مباركةٌ نافعةٌ مؤثّرة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ!!..

٦ ـ إنّ عظمةَ القرآن العظيم تتجلّى في جميع حقائقه، فكلّما توسّعتْ معارفُنا بها ازْدَدْنَا يقيناً ورسُوُخاً فيها، ولهذا كان الواجبُ على جميع المسلمين دائماً وأبداً التّزوّدَ منها، فهي الأصلُ لجميع حقائق الحياة وما فيها!!..

ولقد كان أصلُ القواعد التي أمسكت العالم الإسلامي من أن ينهار أمام زلازل الفتن وأهوال الانقسامات وفظائع التجزئات التي مُنيَ بها ـ وعلى الأخص ماحدث بعد القضاء على الخلافة العثمانية ـ بقاءَ حقائق القرآن العظيم والسّنّة المُطهّرة، حيث كان بقاءُ الإسلام ببقائها، ورسوخُه برسوخها، ودَيْمُومتُهُ بأبديَّتِهَا، حتّى يرثَ الله الأرضَ وماعليها!!..

٧ ـ ولقد واجه القرآنُ العظيمُ ـ في الآونة الأخيرة ـ حملةً مسعورةً، يحمل لواءَها المستشرقون، والمبشّرون، والمتخرِّجُون على أيديهم، من أصحاب الفلسفات المعاصرة، والحركات المشبوهة، والدعوات المغرضة، التي تتستّر بستار التّديّن والتّعبّد والتّزهد، وعلى الأخص أصحاب القراءة المعاصرة، الذين يُثيرون الشّبهاتِ ويغرسون الشكوكَ في دراساتِهم عن القرآن والإسلام، حيث شَحنُوها بآلاف الأغاليط المنطقية السّفسطائية،

بغيةَ تغيير المعالم الإسلامية، وتطوير المفاهيم القرآنية، وتحديث المصطلحات الشرعية، فكانت جميعُها تبوءُ بالفشل وخيبة الأمل!!..

ويبقى القرآنُ العظيم قائماً بالتّحدّي في ثبات نصّه وسلامة آياته وصحة معانية، مهما حاول أهلُ الشّبهات من الكيد والدّسّ والتأويل الباطل..

الإسلام خاتم الأديان الباقي على الدوام

١ ـ الإسلام: هو دينُ ربِّ العالمين، أوحَى بِهِ من عندهِ إلى عبدهِ ورسولهِ ﷺ، وجعلَ شعارَهُ التوحدَ الخالصَ، فيقومُ الإسلامُ على توحيدِ الله تعالى في ربوبيّتِهِ وألوهيّتِهِ وفي أسمائه وصفاته.

٢ ـ والتّوحيد هو: الإيمانُ بأنّ الله تعالى ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ، وأنّه الخالق وحده، والمدبّرُ له وحده، فلا شريك له فيه ولامعين. وأنّه تبارك وتعالى هو الإله المعبودُ، وهو المستحقّ للعبادة والتّأليهِ وحده لاشريك له، وأنّه سبحانه المتّصف بصفات الكمال ونُعُوت الجلال، وله الأسماء الحُسْنَى.

٣ ـ ولقد أتى بيانُ هذا التّوحيد في منهج الكتاب العزيز والسّنّة النبويّة المطهرة؛ ففي إثبات توحيد الرُّبُوبيّة أقامَ سبحانه الحُجَّةَ في إثباتِ توحيدِ ألوهيّتِهِ، فمَنْ كان خالقاً كان وحده المستحق للألوهية والعبادة، ﴿قُلْ مَنْ ربُّ السّمواتِ السّبعِ وربُّ العرشِ العظيمِ؟ سيَقُولُونَ لله﴾ [المؤمنون/٨٦]، ﴿ولَئِنْ سألتَهُمْ مَنْ خلقَهُمْ؟ لَيَقُولُنَّ الله﴾ [الزخرف/٨٧]، ﴿ولَئِنْ سألتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّمواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيزُ العليمُ﴾ [الزخرف/٩]، فإذا كانت جميعُ الفِطَرِ تُقِرُّ بوحدانيّةِ رُبُوبيّته؛ بأنّ لاخَالقَ لهم وللكونِ والحياةِ إلاّ الله، كان لاَزِمُ ذلك الإِقْرَارُ بوحدانية أُلوهيّته، فلايعبدون إلاّ الله ولايُطيعُون إلاّ الله ولايخشَون إلاّ الله. فتوحيدُ الرّبُوبيّة لاَزِمُهُ توحيدُ الأُلُوهيّة، وتوحيدُ الأُلوهيّة متضمّنٌ لتوحيدِ الرُّبُوبيّةِ؛ بمعنى أنّ من كان مستحقاً للعبادة والتّأليهِ كان هو الرّبَّ الخالقَ سبحانه وتعالى.

٤ ـ وتوحيد الأُلُوهيّة: إفرادُ الله تعالى وَحْدَهُ بالعبادة والطاعة، وهذا ماجاءت به

رُسُل الله تعالى جميعاً، قال الله تعالى: ﴿وماأرسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ إلاّ نُوحِي إليهِ أنَّهُ لاَإلَه إلاّ أنَا فاعْبُدونِ﴾ [الأنبياء/ ٢٥]، ﴿ولقَدْ بعثنَا في كلِّ أُمّةٍ رَسُولاً أنِ اعبُدُوا الله واجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ﴾ [النحل/٣٦]، وهذا مادَعَا إليه رسولُ الله ﷺ: ﴿ياأيُّها النّاسُ اعْبُدُوا ربَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة/ ٢١].

٥ ـ وهذا ماتوجهتْ إليه دعوتُهُ ﷺ إلى توحيد الله تعالى في العبادةِ والطّاعةِ، والمحبّة والرّجاء والخوف منه سبحانه وتعالى، وهذا أكملُ صورِ توحيدِ الله تعالى، فلا أحدَ يستحقُّ العبادَة بحقّ إلاّ الله تعالى، وكذا لاأحدَ يستحقُّ الطاعةَ بحقٍّ إلاّ الله تعالى، ولاأحدَ يستحقُّ المحبّةَ بحقٍّ إلاّ الله تعالى، وكذا لاأحدَ يستحقُّ أن يُرْتَجَى وأن يُخاف منه بحقّ إلاّ الله تعالى. فهذا هو التّوحيد التّامُّ الكامل!!.

٦ ـ وهذا التوحيد هو توحيد جميع الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى فيهم: ﴿ويَدْعُونَنَا رَغَباً ورَهَباً وكانُوا لنَا خَاشِعين﴾ [الأنبياء/ ٩٠]، وهم القدوةُ الصّالحةُ والأسوةُ الحسنةُ في ذلك، قال الله تعالى: ﴿وجَعَلْنَاهُمْ أئمّةً يَهْدُونَ بأمْرِنَا وأوحينَا إليهِم فعلَ الخيراتِ وإقَامَ الصّلاةِ وإيتاءَ الزّكَاةِ وكانُوا لنَا عَابِدين﴾ [الأنبياء/ ٧٣]، فأثبتَ الله تعالى لهم العبادَةَ بأنواعها: المحبّة، والرّجاء، والخوف، وفعل الخيرات، وإقام الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، والخشية له سبحانه وتعالى.

٧ ـ والطّاعةُ لاتكونُ إلاّ بالانقياد والخضوع لله المعبود سبحانه وتعالى، وذلك يستلزم اتّباعَ الكتاب والسّنّة، فمَنْ كانتْ طاعتُهُ على غير هديهما كانت وهماً لاحقيقة لها، فالله سبحانه لايُرضيهِ إلاّ ماشرعَهُ لنَا في كتابه الحكيم وفي سنّة رسوله الكريم ﷺ.

٨ ـ وأمّا توحيد الله تعالى في أسمائه وصفاته: فهو اعتقادُ أنّ الله وَصَفَ نفسَهُ بصفات الكمال، وسمّى نفسَهُ بأسماء الجلال؛ فنُثبِتُ له سبحانه من الصّفات ماأثبته لنفسِهِ في كتابِهِ وسنّةِ رسوله، وأنْ ننزّهه عمّا نَفَاه سبحانه عن نفسِهِ ونفَاهُ عنه رسولهُ ﷺ.

٩ ـ فتوحيدُ الله تعالى في صفاته وأسمائه: هو إثباتُ ماثبتَ في القرآنِ والسّنّة من الأسماء والصّفاتِ، من غير تشبيهٍ ولاتمثيلٍ ولاتأويلٍ ولاتعطيلٍ، فمجمل هذا: إثباتٌ للصّفات بلاكيف، وتنزيه للذّات بلاتعطيل، قال الله تعالى: ﴿ليسَ كمثلِهِ شيءٌ وهو السّميعُ البصيرُ﴾ [الشورى/ ١١].

١٠ـ فالإسلام يقومُ على توحيدِ الله تعالى، والإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين،

والكتب المنزّلة السّابقة، والإيمان بالملائكة، وباليوم الآخر، وماأعدَّ الله تعالى فيه لأهل طاعته من النعيم المقيم، وماأعدّه فيه لأعدائه من العذاب المقيم في الجحيم.

١١ـ وقد جاء الإسلام ديناً عالمياً للبشرْ جميعاً، وجعل أساس الرابطة بين الخلق وخالقهم التوحيد الخالص، والاتصال المباشر، فلا شركاء ولا وُسَطاء ولا دُخَلَاء. كما جاءت دعوته جامعةً بين الدِّين والدّنيا، وواصلةً بين العقل والقلب، وبين الرّوح والمادّة، مستهدفة إقامةَ منهجٍ ربّانيّ وأسلوبٍ إنسانيّ!!..

١٢ـ وقد جمع الإسلام بين العقيدة والعبادة، وبين التوجيه والطاعة، وبين الشريعة والأخلاق، ثم ربطَ الكلَّ بالإيمان بالله تعالى، فجعلَ الإيمانَ بضعاً وسبعين شعبة، أعلاها قولُ لاإلَهَ إلاّ الله، وأدناهَا إماطة الأذَى عن الطريق.

ومن أبرز الدلائل على عالمية الإسلام واستحقاقه للبقاء والانتشار:

١ ـ تطابقُ جميع الفِطَر الإنسانية مع هديه وتوجيههِ وإرشاده، واستجابتها لأحكامه وشريعته.

٢ ـ قدرته على قيادة الحياة وتوجيه البشرية نحو السعادة والأمن والاستقرار.

٣ ـ طابعه الإنساني في الإخاء البشري، فيما بين أفراد الشعوب، عَدا تأسيسه لأخوة الإيمان بين جميع المؤمنين عربهم وعجمهم، وأبيضهم وأسودهم، وغنيهم وفقيرهم، وقويهم وضعيفهم.

١٣ـ ويقوم مفهومُ الإسلام أساساً على تحرير الإنسان من جميع القيود الاستعبادية الوثنيّة منها والطّاغوتيّة، وإطْلَاقه باتّجاه العبودية لخالق الكون والحياة، فهو يُحرّر البشرية من جميع العوائق الضّارّة بمصالحها ومنافعها. فهو بهذا منهج حياةٍ وتقدّمٍ ورقيٍّ مستمرٍّ.

١٤ـ وتقوم شريعة الإسلام على أسس تطبيقيةٍ مُلْزِمَةٍ للفرد والمجتمع، فلا إفراط فيه بالفرد من أجل المجتمع، ولاتفريط بالمجتمع من أجل الفرد، فجميعُ أحكامهِ متكاملة في نظام متّسق وتوازن جامع!!..

١٥ـ ولقد أحدثَ الإسلامُ رقيّاً عظيماً في إطلاقه للعقل من قيود الأوهام والخرافات، حين زوّدَهُ بعقيدةٍ صحيحةٍ قويّةٍ راسخة، وجعلَهُ يُؤمنُ عن يقينٍ بحياةٍ وراءَ هذه الحياة فيها السّعادةُ الكاملةُ والعدلُ المطلقُ والنّعيمُ المقيمُ والهناءُ الأبديّ بلاانقطاعٍ ولافناءٍ ولاامتناعٍ ولاانتقاص!!..

١٦ـ كما فتحَ الإسلام أبواب المعرفة، وأعلى شأنَ العلم والعلماء، وجعلَ العلمَ

يزكُو بالانفاق ويزدهر بالعطاء، وقد أخذَ الله تعالى المِيثاق على الَّذِينَ يعلمون أن يُبيِّنُونه للنّاس ولايكتُمُونه.

١٧ـ وفي الإسلام يلتقي الدِّينُ والعلم الحديث، حيث جاء منطلقه من دعوة الله تعالى في القرآن العظيم إلى النّظر في الكون، لاستكشاف كائناته، وللتّعرّف على أنظمته وقوانينِهِ. كما دعَا الإسلام جميع المسلمين إلى استخدام حواسّهم الظّاهرة والباطنة في التّأمّل في الكائنات، والتّنقيب عن أسرارها حسب القدرة الفكرية، وهذه دعوة إلى إعمال جميع العقول وإطلاقها من قيود التّقليد والتّبعية، وبعثها من رقود الجمود والتعطيل.

١٨ـ وقد دَعَا الإسلامُ إلى منهج جامعٍ بين العقلِ والوحي [النقل]، وجعلَ النقلَّ الصحيح نبراساً للعقل الصريح، كما جعلَ العقلَ أساسَ التكليف، وأقام للبحث قاعدة راسخة؛ هي الدليل والتجربة، وأطلق حرّية البحث في الكون، وحث على تسخير مافيه من طاقات.

١٩ـ كما جعلَ التّمسّكَ بالدّليلِ أساسَ الدِّين، وحرّمَ التقليد الأعمى والتبعية العمياء، وجعل للمجتهد المصيب أجرين، وللمجتهد المخطىء أجراً واحداً على اجتهاده، وطلب منه الرجوعَ عمّا أخطأ فيه.

٢٠ـ كما وفّقَ الإسلامُ بين سلطة الحاكم وحرية الرعيّة، وجعلهما متكاملين، وربطهما بضوابطه الثابتة حتى لايُفْسِدَ أحدُهما الآخرَ، ولايطغَى هذا على هذا.. ولايُقَصِّرُ هذا في حقِّ هذا.

٢١ـ كما وضع نظاماً اقتصادياً محكماً ومتيناً، وشجَّعَ على تثمير المال في مجالات التجارة والزراعة والصناعة، ووضع أنواعاً متعدّدة في مجال الشركة، والمزارعة والمصانعة، وضبط عمليات التّبايع والتّأجير، وتبادل المنافع، ومنع منعاً محكماً لجميع وسائل الاستغلال الربوي، وغيره من الغش والاحتكار، وأعلنَ حمايتَهُ للملكية الفردية، ودَعَا إلى توجيهها بالتعاون والتّضامن بين الغني والفقير، بعد فرض نظام الزّكاة، وتوزيع الزّكاة على مستحقيها، وكما رغّبَ في التّوسع في أداء الصّدقات، وجعل من الكفارات وسائل للإنفاق والإطعام للفقراء والمساكين، وسنّ الأضاحي والمناسك في الذبائح للتوسعة عليهم!!..

٢٢ـ وحدّدَ معالمَ علاقة الرجلِ بالمرأة، وضبط ذلك بآداب الاحتشام والحياء، وجعل الرابطة الزوجية حياةً مباركةً سويّةً، وسوّى المرأةَ في المسؤولية والحقوق

والواجبات في موازاة ذلك عند الرجل، وجعل للرجال على النّساء درجةً. وجعل الجميعَ أفرادَ المجتمع، فهو منهم وهم إليه. فالفردُ يرعَى مصالحَ المجتمع، والمجتمعُ يرعَى مصالحَ الفردِ بلافرق. وفرضَ الإسلامُ على الدولةِ كفالةَ العاجزين والضعفاء والمحرومين.

٢٣- وجعل الرّقابةَ على أفراد المجتمع تخضع لأحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس لأحدٍ تتبّع عورات المسلمين، وأنّ الرّقابة لاتأتي من شخص لشخص، وإنّما هي رقابة الإنسانِ لربِّهِ عزّ وجلّ.

٢٤- ولقد أقرَّ الإسلامُ بالزّهد وجعل له مفهوماً متميّزاً عمّا عند الفلاسفة والرهبان، فليس الزهدُ تحريم الطيّبات، وترك الدنيا والإعراض عن الزوجات، بل الزهد عن المكروهات والمحرّمات. والزهادة السليمة هو أن تزهدَ عمّا في أيدي النّاس، كما أنه عمّا يُلهيكَ عن عبادة الله تعالى وطاعته.

٢٥- وجعلِ الإسلام لكل عملٍ أمرَ به أو رغّبَ فيه أجراً، ولكل أجرٍ جزاءً، وجعل الجزاءَ رضوانَ الله تعالى في دارِ كرامته في جنّةِ الخُلْدِ التي وَعَدَ الرحمٰنُ عبادَه بالغيب!! كما قال الله تعالى في سورة المائدة آية٩: ﴿وَعَدَ الله الّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ﴾! فلا عداء للدنيا، ولاتكالبَ عليها، ولاتعطيل لِما كرّمَ الله به الإنسانَ من قوى التفكير والإرادةِ والعملِ، وجعل حِفْظَ الدنيا وتنميةَ ثرواتها أصلاً من أصول المعاملات الشرعية! وكذلك دَعَا الإسلامُ إلى الأخذ بالأسباب الموصلة إلى تحقيق المقاصد الحسنة الشريفة، فإنّ الله تعالى ربط الأسبابَ بالمسبّبَات، قال الله تعالى في سورة الكهف آية٨٤ ﴿إنّا مكّنّا لهُ في الأرضِ وآتيناهُ مِنْ كلّ شيءٍ سبباً فأتْبَعَ سبباً﴾.

٢٦- ولقد أولى الإسلامُ الفطرة رعايةً فائقةً، ودَعَا إلى نقائها، ونهى عن إفسادها، سواء بالتعاليم الغربية الضّارّة، أو بأخلاق الجاهلية المألوفة، ونهى عن التقليد الأعمى للآباء والأمراء والشيوخ، ودَعَا إلى طلب الدليل من الكتاب والسّنّة الثابتة عن رسول الله ﷺ، فهما أصل الدّين والعقيدة والشريعة والأخلاق والآداب. ورغب في الفقة في الدين ومعرفة الدليل، والمسلم لايأنف أن يبحث عن الحقيقة، وهو لايتعصب لرأي أو مذهب إذا رأى الدليل في غيره، فهو يدورُ مع الدليل حيث دارَ، ويسيرُ مع الحق حيث سَارَ!..

٢٧- وجمعَ الإسلامُ بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وبين السّماء والأرض في

نظام الكون، والدنيا والآخرة في نظام الدِّين، والروح والجسد في نظام خلق الإنسان، والعبادة والعمل في نظام الحياة، وسلكها جميعاً في نظام موحد هو «الطريق إلى الله تعالى»!!..

٢٨ـ وأعطى الإسلامُ المرأةَ حقَّ المساواة وحقَّ التعامل، وللمرأة في الإسلام الخيار في مزاولة الأعمال التي تناسب أنوثتها؛ من تجارة، وصناعة، وزراعة، ورغب لها تعلم الطبابة لمعالجة بنات جنسها، كما رغب لها طلب العلم، والتعليم. وخوّلها تولّي إجراء العقود والمعاملات، وأن تملك من كلِ أنواع المُلْك المباح، واختصّ المرأة بنصيبٍ من الميراث يتوافق مع حال مسؤوليتها المادّية؛ وجعلها مكفولةً للعيش قبل الزواج وبعده، ولاتُحْرَمُ المرأةُ من ممارسة حقوقها إلاّ إذا خشي عليها الأذى أو الضرر أو الفتنة.

٢٩ـ ومنعَ الإسلامُ من إكراه المرأة على الزواج ممّن لاترغب به، كما منحها حقَّ المهر، وشرطَ في زواجها الكُفْءَ لها، فمَنْ كانت صالحةً تقيّةً، لايصلح لها الفاسقُ الفاجرُ، وهذا من إكرام الإسلام لها!!..

٣٠ـ والإسلامُ يصنعُ من المرأة الصّالحة حصناً للإنسان حين أقرَّ لها حرّيّتَها ومسؤوليّتها في البيت والزوج والأبناء، وجعلها بذلك من أقوى الحواجز التي تحمي الأسرة من التّصدّع، وحمَى الإسلامُ الأمومَةَ والأُنُوثةَ في جميعِ مراحلها، كما وضعَ الطّلاقَ خَلَاصاً لها ممّا لايُطَاق. وكذلك رعى الإسلام حقوقَ الطفولة قبل الميلاد وبعده، فأوصى باختيار الزوجة الصالحة، وأوجب على الوالدين حُسْنَ رعاية أبنائهما، من اختيار الأسماء الحسنة لهم، وتربيتهم التربية الفاضلة، وتعليمهم ماينفعهم في دينهم ودنياهم، وتزويجهم إذا بلغوا الحلم. وجعل للوالدين حقَّ الطّاعة فيما لامعصية لله فيه. وفرضَ على الأبناء برَّ الوالدين وإن كانَا أو كان أحدهما على غير الإسلام، أو على غير صلاح ولاتقوى لله تعالى، فمصاحبتُهما في الدنيا بالمعروف فرضٌ من فرائض الله تعالى.

٣١ـ وأوجبَ الإسلامُ حقوقَ الجوار وحقوق الخَدَم والأجراء، وامتدّت الحقوق إلى الحيوان.

٣٢ـ وكرَّمَ الله تعالى الإنسانَ وجعله بالإسلام سيّداً لايذلُّ ولايخضع إلاّ لخالقه سبحانه. فالمسلمُ بإسلامهِ يدعُو إلى الله تعالى وينشرُ دعوتَهُ في الأرض، ويأخذ بيد الشّاردين والضّالّين إلى الهداية والرّشاد والسّدَاد.

٣٣ـ وأقرَّ الإسلامُ الإنسانَ على ميوله وعواطفه، ووضع لها الضّوابط، وأمره بالقصد فيها، ونهاه عن الإسراف فيها، وجعل لذلك سُبلاً مشروعةً في إطار الزواج.. وفرّقَ الإسلامُ بين حريّة السّلوك وتنظيم السّلوك، وبيّن أنّ مقوّمات الأدب والخُلُق ليست قيوداً بقدر ماهي وسائلُ حمايةٍ، والالتزامُ بالفضائل!..

٣٤ـ وحمَى الإسلامُ جميعَ المسلمين من التّدخل الأجنبي، وسعى إلى تحرير الشعوب من الاستعباد والظلم والاستبداد؛ ليخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد سبحانه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

٣٥ـ وحمَى الإسلامُ الثرواتِ من الهدرِ والتّفريطِ، ووجّه أصحاب الأموال إلى تنميتها بالتجارة والصناعة والزراعة، وجعل المالَ وسيلةً لاغاية، وأثبت أنّ المالَ مالُ الله تعالى، والإنسان مستخلف فيه للانتفاع به، ولتوجيه شؤون المعيشة، وحثَّ الإسلامُ الأغنياءَ على الصدقات فوق أداء الزكاة، وطالب القادرين على الكسبِ بالإنفاق على الأهل والأقارب الفقراء.

٣٦ـ ويرمي الإسلامُ إلى تداول المال بين النّاس، فحرّم تداوله بين طائفة الأغنياء فحسب، بل جعله دائرا بين الجميع، وقد قيّد في تشريعه حقَّ التّصرّف بالانفاق بمنع الغش والرّبا والقمار والاحتكار، كما حرّم كنز الذهب والفضّة، وحرّم أكلَ أموال النّاس بالباطل. وأحلَّ البيع بجميع وجوهه، وحرّم الرِّبَا بجميع وجوهه.

٣٧ـ وجعل الإسلامُ السّلْمَ والسّلاَمَ من أهم ضروراتِ الحياة، كما جعلَ الأَمْنَ من أهم ضرورات المجتمع، فعاقبَ المجرمين بأشدّ العقوبات حرصاً على سلامة النّاس في أعراضهم وأموالهم ودمائهم.

٣٨ـ ووضع الإسلامُ الحربَ في آخرِ الاعتباراتِ حالَ الدعوةِ إلى توحيدِ الله تعالى وإلى طاعتهِ سبحانه، فإذا قامتِ الموانعُ البشريةُ دونَ هذه الغاية الكريمة فرضَ القتالَ جهاداً في سبيل الله عزّ وجلَّ، لإعلاءِ دينِه، ولإذلالِ الكفرِ. ومَنْ دخلَ في عَهْدِ الذّمّةِ ألزمَهُ الإسلامُ الجزيّةَ، وفرضَ له الحمايةَ والأَمْنَ على نفسِهِ ودينِهِ وعرضِهِ ومالِهِ. وأسقط الجزيةَ عن الأطفال والنساء والشيوخ العاجزين الفقراء، وكذلك الرهبان فلا جزية عليهم.

٣٩ـ أقامَ الإسلامُ للبشرية منهجَ حياةٍ متكاملة، ووضع لها نظاماً يرسم كافّة علاقات الأفراد مع بعضهم البعض، وعلاقات الأفراد بالأُسْرَةِ والمجتمع، وامتدَّ منهجُهُ إلى جميع مناحي الحياة: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدولية، فوضع لها القواعدَ

المتينة، والضّوابطَ المحكمة، وجعل رأسَ كلِّ أمرٍ فيها طاعةَ الله تعالى، وإقامةَ العدل، وقمعَ الظلم!..

٤٠ـ وجعلَ الإسلامُ الأخلاقَ على أساس التَّقْوَى، والتَّقوى تعني اتقاءَ كلِّ ماحرَّمَ الله تعالى، كما تعني كفَّ الظلم والأذى والإضرار والإفساد، ولقد كانت التقوى ولازالت أساسَ رفعة المسلمين وسرَّ سعادتهم ومصدرَ ازدهارِ حضارتِهم، حتى إذا ماضَعُفُوا فيها أو تقَاعَسُوا عنها كان ذلك سبب ضعفهم وهزيمتهم وفشلهم وتقهقرهم في الحياة.

٤١ـ والإسلامُ يُحمِّلُ المسؤوليةَ في رعايةِ أحكامِه، والتّخلّقَ بأخلاقِه، ونشرَ دعوتِه، وحمايةَ ثُغُوره، والزَّودَ عن حِياضِه، لجميع المسلمين، فيفرضُ على كل مسلم من ذلك على قَدْرِ طاقتِه ووُسْعِه وقُدْرَتِه، ذكراً كان أم أنثى، غنياً أم فقيراً، عالماً أو متعلّماً. كما فرضَ على جميعِ المسلمين التّيقظَ دائماً وأبداً لاحتمالاتِ حصولِ غزوٍ على بلادهم، أو غزوٍ على أخلاقهم، أو على عقيدتهم، أو على ثقافتهم، فإنّ الأمّة ـ في هذا الزمان ـ قد مُنِيت بأعداءَ ألدّاءَ يكيدون لها ويمكرون بها ويتربّصون بها الدوائر. وأخطر مافي هذا الأمر، الأعداءُ من الدّاخل، والأخطرُ منهم جميعاً الّذين يُحرّفون القرآن باسم القرآن، ويُقوّضون الإسلام باسم الإسلام، مرّة تحت دعوَى البحث الحرّ.. وأخرى تحت دعوى القراءة المعاصرة للكتاب والقرآن.. المتحلّلة من جميع الثّوابت الشرعية والضوابط المنهجية..

فإلى حمايةِ الإسلامِ ياأهلَ الإسلامِ!!..

العلم في الإسلام

كان أول مانزلَ القرآنُ العظيم أشاد بالعلم فابتدأ بالأمرِ بـ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فبدأت آيات القرآن بالدعوة إلى القراءة، ثم القَسَم بالقلم ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وجَعلتِ القراءةَ باسم الله خالصة، ونسبتِ التّعليمَ إلى الله الّذي علّمَ بالقلَم!!.

ووَرَدَ لفظُ «العلم» ومشتقّاته في القرآن في [٨٧٠آية]، والعلمُ الذي دَعَا الإسلامُ إلى تحصيله هو علم الوحي [الكتاب والسّنّة] ثم العلم على إطلاقه، وكانت دعوة الإسلام إلى العلم مرتبطة بالنظر إلى آفاق السّماء والأرض، والتّأمّل والتدبّر والتفكّر، وإلى النظر في مبادىء الخلق، وفي أحوال الأمم التي اندثرت وماتزال بعضُ بقاياها..

ونظرةُ الإسلام إلى العلم نظرة جامعة قد أحاط بها منهجٌ كامل للمعرفة والفهم، وقد دَعَا الإسلام إلى البرهان والحجّة والتجربة، وحثّ على الاجتهاد، وجعل للمجتهد المصيب أجرين، وللمخطىء أجراً واحداً، وحرّم تعطيل العقل في طلب التقليد.

ودَعَا الإسلامُ إلى السيطرة على الحياة وإلى تملّك مواردها ومقدّراتها، ثم إلى إنمائها وتسخير مواردها وتسليكها. كما دَعَا إلى الاكتشاف والابتكار. وفتح أبواب تعمير الأرض. وأمرَ المسلمين إلى استعمال حواسّهم الظاهرة في النظر والتأمّل، كما حرّضهم على طلب العلم والمعرفة والنظر في الكون والتأمّل في الكائنات والتنقيب عن أسرار الوجود، وحثَّ حثّاً متواصلاً على العناية بتنمية العقل الإنساني، وترقية الشّخصيّة الإنسانية بالضّرب في الأرض، والسعي في مناكبها.

وقد نبغَ في الإسلام علماءُ في الطّبّ، والفلك، والكيمياء، والصيدلة، والملاحة وعلوم البحار، والجغرافيا، والرياضيات، والجبر، والهندسة، والمراصد، وصناعة الورق! ففي الطّبّ عرفوا طبيعة كثير من الأمراض، ووصفوا تشريح الجسم البشري وصفاً دقيقاً، وعرفوا العقاقير، فسجّلَ ابن البيطار / ١٤٠٠ عقارٍ/ لم تعرف اليونان منها غير / ٤٠٠/ والألف اكتشفها المسلمون، وحدَّدُوا منافعها ومضارّها. وألّف أبو القاسم الزهراوي كتابه في الطب والجراحة في/ عشرين مجلداً/ !! وأطباء الإسلام هم أوّل من فتّتَ الحصى في المثانة، وسدُّوا الشرايين النّازفة، وكتبوا في الجذام والحصبة والجدري وعدوى الطاعون، واستعملوا «البنج» في العمليات الجراحية. والأطباء المسلمون هم أول من كشف عن الدورة الدموية. كما صححوا الكثير من آراء اليونان في الطب والتشريح ووظائف الأعضاء. وقد تُرجم كتاب «القانون في الطب» لابن سينا، في خمس عشرة طبعة إلى اللاتينية والانجليزية والعبرية، وقد بحث عن العقاقير والأدوية في سبعمائة وستين نوعاً. قال الدكتور «دينستون»: إنّه يحتوي على مايزيد على مليون كلمة!! وقد عالج القرحة الدرنية، والقولينج الكبرى، والكلوي، والتهاب الرئة، والجنب، والتهاب الدماغ. وبقي هذا المرجع الطبي أساساً للمباحث الطبية في جامعات فرنسا وإيطاليا ستة قرون!! ولم تعرف جامعة «لوفان» حتى القرن السّابع عشر مرجعاً للطب والعقاقير أوفَى من كتب الرازي وابن سينا وابن الهيثم!! وعرف الطب الإسلامي التّطعيم ضدّ الجدري، واستخدموا عفن البنسلين وعيش الغراب كمراهم. أمّا طب العيون، وعلم البصريات فهو من صناعة المسلمين، وقد ظلّت تذكرة طب العيون تستخدم حتى القرن التاسع عشر، بل لقد احتلَّ المسلمون المركز الأول في مجال الطب فترةً تزيد عن خمسمائة عام!!..

كما حقّق المسلمون كسباً متقدّماً في الاكتشافات والمخترعات في جميع المجالات؛ فهم الذين اخترعوا السّاعات الدقاقة والزوالية، واكتشفوا قوانين ثقل الأجسام، وعرفوا تركيبَ النار، واستخرجوا قوّة البارود الدّافعة، واستعملوا الآلات القاصفة والقاذفة، وأتقنوا فنَّ تسقية الفولاذ، وهم أول من استخدم «البوصلة» في الملاحة، واكتشفوا الإبرة المغناطيسية التي انتقلت إلى أوروبا في القرن الثاني عشر، وكانوا أول من حاول قياس خط نصف النّهار. ووصفوا أصول علم الجبر وحساب المثلثات، وبسّطوا علم الحساب الإغريقي، وكانت علوم المسلمين في الجغرافيا والفلك هي صاحبة الفضل الأكبر في الكشف عن الأمريكيتين، وعلَّلَ المسلمون ملوحة البحر وعذوبة الأمطار والأنهار والينابيع، واستحالة الحطب في الاحتراق، واستحالة الزيت في المصباح، وصعود الهواء، وانحدار الماء، لا بالجاذبية والثقل النوعي، بل بانجذاب بعضها إلى بعض، وعرف «موسى بن شاكر» مائةَ تركيب ميكانيكي، كما علَّلُوا صعودَ الماء في العيون والفوّارات، واستعملوا «السيفون» وسمّوهُ «السحّارة» وعرفوا كثافة الذهب والرصاص، وبحثوا عن الضوء، وعن الصوت، وعلَّلُوا حدوث الصَّدَى، وكتبوا في الأوتار واهتزازاتها. كما عرفوا خاصّة الجذب في المغناطيس، وخاصّة اتجاهه. واستعملوا الرموز في الرياضيات، فسبقوا الأوروبيين إلى ذلك، ومهدوا للكشف عن «اللوغاريتمات»، وعن التكامل، والتفاضل، وأنشأوا المراصد العديدة، وهم أول من عرف الأصول التي تفضي إلى الرسم على سطح الكرة، وأول من أوجد عملياً طول الدرجة من خط نصف النهار، وقالوا باستدارة الأرض ودورانها حول الشمس وعلى محورها حول نفسها. واخترعوا لذلك الاسطرلاب الدقيقة، وحقّقُوا مواقع كثير من النجوم، وحسبوا طولَ السّنَة الشّمسيّة، وبحثوا عن كلف الشمس قبل الأوروبيين، ووضعوا جداول دقيقة عن النجوم الثوابت وصوّروها في الخرائط، وصححوا خطأ «بطليموس» وخطأ الرومان القائلين بتسطح الأرض، ورسموا خرائط بلادهم، وأكّدَ أبو الفداء أن الأرضَ كروية، وأنها في الوسط من الكواكب. وهم أول من وضع أساس الكيمياء، وقد مارسوا أعمال التقطير والترشيح والتصعيد والتبلير «البلورة» والتذويب والألغام والتكليس، وهم الذين استحضروا الكحول والقِلَى والبورق والزّرنيخ والبوتاس والأثمد وزيت الزّاج «الحامض الكبريتيك» والزّاج الأخضر، وماء الفضّة «الحامض التريك» وحجر جهنّم «نترات الفضّة» وملح البارود «نترات البوتاس» والسليماني والراسب الأحمر «اكسيد الزّئبق» وروح النشادر، وملح الطرطير، وماء الذهب والبارود، والقلويات كلها في الكيمياء معروفة باسمها العربي!! وماء الفضة لم يوصف في كتاب غربي قبل كتاب جابر بن حيان، وأول مصنع للورق بدأ في

سمرقند، ثم في بغداد في زمن الرشيد، ثم في دمشق، ودمياط، ومراكش، وصقلية، واسبانيا. والمرايا البلور بدأت في «سوريا» ومنها انتقلت إلى البندقية. وقد عرف المسلمون «الصفر» ولم يعرفه الغربيون إلاّ في القرن الثاني عشر عن طريق المسلمين، وكان استعماله في الحساب على هيئة حلقة صغيرة. ثم شرح الخوارزمي طريقة استعماله في بحث تُرجم إلى الكتب الأوروبية في الربع الأول في القرن الثاني عشر الميلادي.

وقد بَرَزَ في هذه النّهضة العلمية في الإسلام عددٌ كثير من العلماء في مقدمتهم: الرازي، وجابر بن حيان، والخوارزمي، وابن خلدون، وأبو الثناء الأصفهاني، والفرغاني، والقزويني، والزهراوي، وابن يونس، وابن ماجد، وحسني المراكشي، وعمر الخيام، والفارابي، والإدريسي، وممّا يُذكر في هذا المجال أنّ الطبيب ابن النفيس «علي بن حزم القرشي» عارض رأي جالينوس الذي ظلّ مهيمناً على عقول الأطباء أكثر من عشرة قرون، ونَقَدَ نظريتَهُ، وعارض قوله في الدّم، وقال: كيف يمكن أن ينتقل الدم من البُطين الأيمن إلى الأيسر خلال حاجز ليس له منافذ؟ وأخرج للعَالَم نظريةَ الدورة الدموية «الصغرى» إذْ قال: إنّ الدّم لا يمكن أن ينتقل من البُطين الأيمن إلى البطين الأيسر مباشرةً خلال الحاجز، وإنّما يسير من البُطين الأيمن إلى الرئة، ومن الرئة إلى البُطين الأيسر، وهذه هي «الدورة الدموية الصغرى»!! وقد ظلّت آراء ابن النفيس قائمةً حتى ترجمت كتبه إلى اللاتينيّة في عصر النهضة، وجاء «سرفيتو» و«كولمبو» فأيَّدَا ماذهب إليه ابن النفيس، وذلك في القرن السادس عشر، فهو قد سبقهما بأكثر من مائتين وخمسين سنة، أمّا «وليم هلرفي» فقد جاء بعده بأكثر من أربعمائة سنة، وقام بتجاربه في ضوء أبحاث ابن النفيس، ومَنْ تَلاه، وانتهى إلى كشف الدورة الدموية الكبرى!!..

وهكذا قدّم العلماء المسلمون «أساس» العلم الحديث، ويسَّروا فتُوحات واسعة في مختلف أرجاء العلوم وجوانبها، وقد كان كَشْفُ سُنن الكون ونواميسه على أيديهم أول الأمر، بعد أخذه واستمداده من القرآن العظيم، ثم جاءت عملية الملاحظة والتجريب، وعلى هذا الطريق سارَ العلمُ الحديث، وقد اعترف الغَربيون في صراحة ووضوح بأنّهم أخذوا هذه الطريقة من علماء الإسلام!! وكل ما وصل إليه العلم الحديث إنّما هو قائم على منهج التجربة والملاحظة والاستقراء الذي قدّمه المسلمون، ولم يبتكر الغربيون منهجاً آخر، وإنّما أحسنوا الأساليب والأدوات، ومعنى هذا أنّ نتاج العلم الحديث كله جاء عن طريق منهج القرآن غير أنّ الخلاف هو في أمر واحد، هو أنّ الغرب الكافر

حجبَ اسمَ الخالق العظيم ومقدِّر القوانين الكونية ونُظُمِهَا الثابتة، ونسبَ هذه القوانين إلى كشوف الإنسان وحده، كما أنّه اعتبر هذه القوانين والنُّظُم الكونية مستحيلة النّقض، وبذلك جهل قدرة الخالق العظيم، وذلك حين رفض الاعتراف والإيمان بعَالَم الغيب الذي تبيّنَ من بعدُ أنّ له صلة ضخمة بما وصل إليه العلم، وأنّ هناك جوانب كثيرة لم يستطع العلم أن يصل إليها، ولذلك فإنّه حين يقول بحتمية القوانين الطبيعية، إنّما يتجاهل هذه الجوانب الغيبيّة الخافية عليهم، وينسَى قدرة الله سبحانه خالق هذه القوانين وأنظمتها، وله وحده القدرة على خرقها!!..

ولقد كرّمَ الإسلامُ العلم والعلماء، ورفعَ شأنهم، وأعلى مَقَامَهُمْ! وفتحَ الأبواب للاستزادة من العلم، ومن هنا كانت انطلاقة المسلمين العلمية إلى التّقدّم في مجال الفكر والحضارة، وفي مجال اكتشاف كوامن الكون، فرحل علماء الإسلام إلى أقصى الأرض باحثين عن العلوم متنافسين فيها، وسارَ قادة المسلمين على سنّة نشر العلم وإعزاز أهله والبذل لهم وبناء المدارس وخزائن الكتب، بينما أدخلت أوروبا آنذاك علماءَهَا في زمرة المارقين من الدِّين، والخارجين عن الكنيسة، فقتلت من قال بالدورة الأرضية وكرويّتها، كما قتلت من قال بالدورة الدموية أيضاً، واعتبرت الكنيسة ذلك مروقاً من الدِّين.

ولقد شهد علماء أوربيّون بفضل علماء الإسلام، منهم «إتيان دينيه» فيقول: «لقد لبثت أوروبا ثلاثمائة سنة تقتبس من الإسلام اللّغة والعلوم»، ويقول «درابر»: «تأخُذُنَا الدهشة أحياناً عندما ننظر في كتب المسلمين، فنجد آراءً كنّا نعتقد أنّها لم تولد إلاّ في زماننا كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرّجها في كمال أنواعها، فإنّ هذا الرأي كان ممّا يعلِّمُهُ المسلمون في مدارسهم، وكانوا يذهبون إلى أبعد ممّا ذهبنا، فكان عندهم عامّاً يشمل الكائنات العضوية والمعادن، والأصل الذي بُنِيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقّي المعادن في أشكالها». ويقول «فون كريمو»: «إنّ العقل الإسلامي يبدو في ذروة نشاطه حين يكون في حقل المعرفة التجريبية، يباشر دراسته في ضوء الملاحظة والاختبار، فالعرب يُبدون نشاطاً يُثير الدهشة حين يقومون بملاحظة الظواهر وتمحيصها وجمعها وترتيب ماهَدَتْهُمْ إليه التجربة، ولمّا كانوا أصحاب ملاحظة دقيقة، وأهل تفكير مبدع أصيل، حقّقُوا في مجال الرّياضيات والفَلَكِ إنجازات رائعة»!! ويقول «سيديو»: «الحركة العلمية عند العرب تتميّز بالانتقال من المعلوم إلى المجهول، والتحقيق الدقيق في ظواهر السماء، ورفض كل حقيقة كونية لم تثبت عن طريق الملاحظة الحسّيّة، ويُؤكد الباحثون في العلم الإسلامي أنّ علماء المسلمين، فطنوا إلى ثلاثة أمور هامّة:

أولاً: فطنوا قبل الأوربيين إلى مصدر الحواس عن إدراك بعض الظواهر لفرط صغرها أو بُعْدِها، فعوّضوا قُصُورَ الحواسّ باختراع أجهزة وآلات تمدّ في قدرتها على الإدراك، وكان ابن الهيثم يستعين في دراسة انتشار الضوء وانعكاساته بآلات يقوم بصنعها، أو يشرف على صنعها، وخلف أبو القاسم الزهراوي مئات الرسوم لآلات تستخدم في الجراحة والتخثير، وترك علماء المسلمين في الفلْك مراصد مزوّدة بعشرات الرسوم والآلات والأجهزة.

ثانياً: لم يفت المسلمون الاهتداء إلى التجربة العلمية، ومعرفة دورها في البحث العلمي، فلم يكتفوا بمراقبة الظاهرة وتسجيل حالها، بل تدخّلوا في سيرها ليلاحظوا في ظروفٍ هيّئوها بأنفسِهم، وأعدُّوها بإرادتهم، وسمّاها جابر «التدريب» وسمّاها ابن الهيثم «الاعتبار».

ثالثاً: فطنوا فوق ذلك إلى أنّ الغرض من الدراسة التجريبيّة، هو وضع القوانين العامّة التي تُفسّرُ الظواهر تفسيراً علمياً.

الإسلام ودعوى التّطوّر

نشأتْ فكرة التطوّر في مجال العلوم البيولوجيّة أساساً، ولكنّها سرعان ماانْتُقلت إلى مجال الفلسفة، وأُريد بها السيطرة في مجال الفكر والثقافة. واتُخِذَتْ النظريةُ هذه لاستخدامها في معارضة الدِّين والعقيدة - وعلى الأخص الإسلام والقرآن - ومن الحقّ أنّ فكرة التّطوّر «الماديّ والمعنويّ» لايمكن أن تسير في غير نطاق واضح وإطار محدود وفَلَكٍ معلوم، وأنّ هناك استحالة علمية في أن تجري حركة التّطوّر عشوائياً في غير نظام أو قانون يحكمها، ومن هنا يبدو الفارق العميق بين حقائق العلم وبين آراء الفلسفة، وينكشف الفارق بين الاتجاه العلمي وبين أهواء القوى التي تتخذ من النظريات العلمية والفلسفية أسلحةً لتحقيق أغراض بعيدة المدى. والمفهوم العلمي الصحيح هو أنّ هناك حقائق ثابتة وعناصر تجري عليها سُنّة الحركة والتغيّر والتّطوّر، وأنّ هناك تناسقاً يجري بين أسس الثبات وعناصر التّطوّر، وأنّ هذا التناسق يجري في دائرة الثبات، وهذا المفهوم العلمي نفسه يطابق المفهوم الإسلامي في اعتبار التّطوّر ظاهرة من الظواهر الحياتية. فالنظرة الإسلامية تقرُّ بثبات الأصول العامّة مع تطوّر الجزئيات والتفاصيل والفروع.

وبالرغم من استشراء فلسفة التطوّر الاجتماعي التي دَعَا إليها «سبنسر» الذي حاول أن يُطبّقَ نظرية «دارون» على الأمور الإنسانية والأخلاق والتاريخ، فإنّ العلم كانت له وجهة نظر مختلفة تماماً. وقد كشفت الدراسات الأصلية أنّ التطور لايمكن أن يكون قانوناً أخلاقياً، وليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه، كما يقول «سبنسر» بل إنّ التطور قانون اجتماعي واقعي، ولايقتضي بتفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة، ذلك أنّ فكرة التطور الاجتماعي أُخذت من فكرة التطور الحيوي «البيولوجي» والتطور في الحياة يكون تحسّناً وارتقاءً وقد يكون انقراضاً، كذلك كشفت الأبحاث خطأ الرأي القائل بأنّ التطور والتقدّم هو الاستجابة لنزعات النفس في السلوك بالحركة في أيّ اتجاه دون رعاية لاستقامة الحركة، وبدون حاجة إلى إرادةٍ وإيمان، وهذا يُؤدّي إلى العودة إلى العصور الأولى بما فيها من تحلّل، كذلك خطأ الرأي القائل بأنّ التقدم هو إهدار الأحكام السابقة، وتقديرات الأشياء التي قرّرَها وحكمَ بها الإنسانُ في عصرٍ مضى. وهذا ماذهب إليه الدكتور المهندس «محمد شحرور» في «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة»[1] الذي أشادَ بهذه الطريقة أيّما إشادة!! وأقام دراسته في تفسير الآيات القرآنية وتأويلها على قاعدة التطوّر، ولم يكترث بالثوابت الشرعية وقواعدها، ولم يلتفت إلى أئمة المسلمين بل طعن بهم، ثم فسّرَ الأحاديث النبوية الصحيحة بأنها كانت التفاعل الأول لفهم الإسلام، ثم رفضَ قبولها في هذا العصر، وهذا من أخطر مايذهب إليه في تطوير الإسلام تطويراً عشوائياً بلا ضابط ولا رابط، فكان بذلك خارجاً عن أصول الإسلام، فإن إجماع الأمّة منعقدٌ من القرن الأول للإسلام وحتى هذا القرن أن أصل الإسلام: «القرآن والسنّة»، فمن حوّر معاني القرآن بعد تعطيل جميع الأحاديث النبوية لم يُبْقِ شيئاً من الإسلام، سوى ألفاظٍ ومعاني مستحدثة ادّعى صاحبها أنها التطوّر المعاصر للإسلام!؟..

وأمّا التّطوّر والثبات في قانون التوازن الذي يَحكم الموجودات جميعاً، لايُعارضه الإسلام، وليس هناك سبيل إلى إلغاء أحدهما، ولاسبيل إلى القول بالتّطوّر المطلق وإنكار قاعدة الثبات، ولابدّ من الرّبط بين الثبات والتّطوّر وقيام التوازن بينهما وأنّه من المستحيل عقلاً، ومن المناقضة لقوانين الوجود والحياة أن يتوقّف أحدهما، أو أن ينفصل، ولاأن يستعلي أحدهما ويسيطر، فالثبات والاستقرار هو البقاء، والتطوّر المستمر هو الفناء، وهناك ترابط بين البقاء والفناء، وبين الحركة والجمود، وبين

---

(١) ستأتي الأشارة الى هذا الكتاب بشكل أوضح فيما بعد

القديم والجديد، وبين الميت والحيّ، فالحياة ناجمة من موتٍ، والحديث منبثق من قديم، والفكر يتطوّر، ولكنّه يظلُّ ثابتَ الأصول والضوابط والمقوّمات، وبدون ذلك لايُعتبر فكراً..

وأمّا الإسلام فله ثوابت لاتتغيّر ولاتتبدّل ولاتتطوّر، فهي ثوابت باقية: فالعقيدة فيه ثوابت لاتتغير، وأحكام الحلال والحرام كذلك، والعبادات كذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك، وعلى رأس ذلك كله نصوص «القرآن والسّنّة» فهي ثوابت لاتتغيّر ولاتتبدّل ولاتتطوّر، فلم يكن هذا في الماضي ولن يكون في المستقبل.

وأمّاالأحكام الشرعية التي تُعتبر معالجات لقضايا طارئة فهي ثابتة الأصل والجوهر، متغيّرة الصورة، ففي الفقه الإسلامي يجري التغيّر بالنسبة للأحكام الفرعية دون الأصول، فالأصول فيه ثابتة ليست خاضعة للتطوّر، فالصلاة وأركانها وشروطها لاتتطوّر، والزكاة كذلك والصوم كذلك، والحج كذلك، وكذلك الحدود الشرعية في القتلِ والسّرقة والزنا، وأحكام الرّبا ثابتة لاتتغيّر، فجميع ذلك من القوى الثابتة التي لاتتأثّر بالتّطوّر والتّغيير، ولايمكن القضاء عليها، وكذلك في نظام الكون نجد القوى الثابتة، ونجد القوى التي تتحّول وتتحرّك، أمّا الأصول الثابتة فهي ليست خاضعة للتّطوّر.

هذا هو مفهومُ الإسلام!! ومفهومُ العلم متطابقٌ معه!!

وأمّا المفهوم المطروح في أسواق الفكر الغربي والذي وصل صَدَاهُ إلى الفكر المستغرب في العالم الإسلامي، فهو مفهوم فلسفي خطير، لم يقم على أساس علمي، وقد أخذ منطقه من نظرية «دارون» في التّطوّر البيولوجي، ثم نقل إلى ميدان الاجتماع والفكر، ولاشكَّ أنّه بهذه النقلة إنّما يستهدف غايةً خطيرة هي واحدة من أهداف الفلسفة المادّيّة الوثنيّة التي تحاول أن تسيطر على الفكر البشري كله، وتُفرّغَهُ من مفاهيم الإيمان والإسلام، وتدفع به بعيداً إلى نهاية خطرة نجدها واضحةً لامريةَ فيها في «بروتوكولات حكماء صهيون، أو نصوص التلمود» أو متصلاً بالمحاورات التي جرت منذ عصر النهضة في سبيل إخراج الفكر الغربي المسيحي الأصل، من مفاهيمه ودفعه إلى مجال المادّيات المغرقة، وتشكل هذه المحاولة فلسفة واضحة متكاملة تهدف إلى تدمير معاني الإيمان والأخلاق، ودفع الإنسانية كلها إلى الدمار بتحطيم شخصيتها الدينية، وزَجّها في الإباحية المعاصرة..

إنّ المزاعمَ التي انطلقت بالنظرية التي تقول بأنّ الأخلاق تتطوّر مع العصور، وأنّ

الإسلام يتطوّر مع البيئات؛ باطلةٌ مخالفةٌ كل المخالفة للحقائق العلمية الصحيحة، وهذا معارض لنواميس الكون والحياة.

ولقد كان الترويج لمذهب التّطوّر في الإسلام، على هذا النحو الذي قدمه الدكتور محمد شحرور في كتابه: «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» خروجاً به عن المجال العلمي الصّارم في ضوابطه وثوابته، إلى المجال الفلسفي الذي لايخضع لأيّ سند علمي أو عقلي، سوى خضوعه لمذهب التّطوّر الذي انطلقت منه الدعوات والفلسفات المادّيّة. وقد اعتبره المتشبثون به قاعدةً لعلوم جديدة هي مقارنات الأديان وتفسير التاريخ والنفس والأخلاق والاقتصاد والاجتماع. ومن هنا أخذت هذه الفلسفات تخضع للمناهج التي تخضع لها العلوم المادّيّة، بينما تناقض هذا مع أبسط قواعد المنطق والعقل، ولقد كان القول بالتّطوّر الحتمي سبيلاً إلى نزع القداسة عن الإسلام صاحب الثوابت الشرعية والضوابط الأخلاقية، والدعوة إلى التّحلّل والإباحية وإنكار مقوّمات الدِّين والعقيدة، على النحو الذي كشفت عنه نظريات «فرويد ودوركايم» وغيرهما.

ولقد هوجمت نظرية التّطوّر المطلق في المحيط الديني والفكري والاجتماعي هجوماً علمياً صارماً، ودُحِضتْ بمنطق عقلي واضح، لكنّ أصوات دعاتها المسرفين في استغلالها ظلت أعلى الأصوات لأنّها لم تكن منطلقة من منهج صحيح وسليم، وإنّما هي أصواتٌ يرفعها المستأجرون كلّما زِيْدَ لهم في المنح والعطاء..

بطلان نظرية التطوّر والإرتقاء التي دعا إليها دارون:

انتشرت هذه النظرية في أرجاء العالم وتكاثر عدد الذين انخدعوا بها كحقيقة علمية، حين ظنّوا أنّ النظرية قد اجتازت مرحلة الاختبار، وأنّ كلَّ محاولةٍ جديدةٍ لمناقشتها فهي عقيمة، إنّ هؤلاء يسيرون وراءَ سرابٍ بلا وعي، حين يَتَراءَى لهم أنّ الدِّينَ قد عَفَى عليه الزمن، وأنّه منافٍ للعلم. بيد أنه على عكس مايرون، فإن القائل بالتّطوّر هو الذي يتبنّى موقفاً غير علمي عندما يؤمن بنظرية لاتستند إلى حقائق، وبالتالي فإنّ مهاجمة هذه النظرية الخاوية من الحقائق ليست مهاجمة للعلم في شيء، وإنما هي لدحض الباطل الذي يريد الظهور بزيّ العلم...

وكثير من العلماء الكونيين أثبتوا أنّ نظرية التّطوّر والارتقاء قامت بدون براهين وستظل كذلك. وأمّا حقيقة «الخلق المباشر» من الله تعالى فبين يديها الملايين من البراهين. والذين قالوا بنظرية التّطوّر والارتقاء لاكنتيجة للملاحظة أو الاختبار أو

الاستدلال، ولكن لأنّ حقيقة الخلق المباشر بعيدة عن تصورهم فلا يُؤمنون بها.

يقول أحد العلماء الجولولجيين «سيرج. وداوسون»: «هذا الاعتقاد [بنظرية التطور والإرتقاء] هو نوع من الإيمان الأعمى الممتزج بالسّذاجة والخرافة».

نظرية التّطوّر والإرتقاء نظرية إغريقية:

إنّ أصحاب التّطوّر والنشوء الذين يعتبرون أنفسهم أكثر تقدّماً من الآخرين، إنّما يتقهقرون في الواقع بأفكارهم إلى أزمان غابرة بالية، ففي القرن الخامس قبل الميلاد كان هناك من يقول بنظرية التّطوّر والنشوء، فالفيلسوف الإغريقي «اميدوقليس» الذي يُسمَّى بأبي نظرية النّشوء، اعتقد بالخلق العنوي، وبأنّ الكائنات تكوّنت خلال سلسلة طويلة من عمليات المحاولة والخطأ» وقد ذهب إلى رسم هيكل نظريته «دارون» في بقاء الأقوى. كما أعلن أرسطو [ت٣٨٤ ق م]: «أنّ الإنسان هو ذرّة عملية ارتقاء طويلة ومستمرّة». ولقد قيل: إنّ الفلاسفة الإغريق إنّما استعاروا أفكارهم النشوئية من الهنود الذين ذهبوا في تعاليمهم إلى أنّ الأرواح تنتقل من حيوان إلى حيوان حتى تصل إلى الكمال في «الزفانا»، كما أن «المايانيين» الذين ترجع حضارتهم إلى القرن السادس قبل الميلاد كانوا يعتقدون أنّ إله الأمطار قد خلق الإنسان من خلال العمليات الآتية: نهراً، فسمكةً، فإنساناً. وكثير من القبائل الوثنية الهندية تعتقد بالنّشوء من الأزل، فإنّ الرسوم التي ترمز إلى أسلافهم تمثل بشكل عام حيواناً أو نباتاً، يعتقدون أنّهم قد انحدروا منه.

ونحو هذه النظريات البالية الخرافية نظرية «الدكتور شحرور في القراءة المعاصرة للكتاب والقرآن» ص٢٨٠: التي يقول فيها: «نمت الحياة وتطوّرت عن طريق البث الذي يحتوي على الطفرات الحياتية التي أدّت إلى ظهور البشر، وقد تميّز البشرُ في الظهور ككائن حي مستقل في الفترة التي ظهرت فيها الأنعام» ويقول في ص٢٨١ في خلق الإنسان من تراب: «.. بسبب الفارق الزمني الطويل بين التراب «المواد غير العضوية» وبين البشر هذه المرحلة التي أخذت مئات الملايين من السنين. وقد بيّن أنّ الانتشار في الأرض حصل في مرحلة البشر قبل نفخة الروح، وأنّ البشر كان منتشراً قبل مرحلة الأنسنة، وأنّ البشر هو الشكل المادّي الحيوي الفيزيولوجي الظاهري للإنسان، حيث أنّ الإنسان هو كائن بشري مستأنس غير مستوحش». ويقول في ص٢٨٦: «عندما بلغ البشر مرحلة متقدمة من التّطوّر العضوي والنضج أصبحَ مؤهلا لنفخة الروح، وهذا التأهيل كان في ظاهرتين رئيسيتين هما: ١ـ انتصاب الإنسان على قدميه، وتحرير اليدين... وهذه الظاهرة في الاستواء على القدمين أعطتِ الإنسان بُعْداً إضافياً، وهو تحرير اليدين من أجل ظاهرة العمل الواعي. ٢ـ نضوج جهاز صوتي

خاصّ به... بواسطة قوانين ماديّة موضوعية.. وأول هذه القوانين هو الجهاز الصوتي..» ثم يقول: «عندما أصبح البشر جاهزاً من الناحية الفيزيولوجية لعملية نفخ الروح «الأنسنة» وذلك بانتصابه على قدميه وتحرير اليدين وبوجود جهاز صوتي قادر على إصدار النغمات المختلفة..».

وقال في ص١٠٨: «.. الروح التي حوّلت البشر إلى إنسان؛ أي التي نقلت الإنسان نقلة نوعية من المملكة الحيوانية إلى كائن عاقلٍ واعٍ.. إنّ نفخة الروح هي الحلقة المفقودة عند العلماء الذين بحثوا في نشأة الإنسان. كما نرى أنّ آدم هو أبو الجنس الإنساني لا الجنس البشري، بمعنى أنّه يبدأ التاريخ الإنساني الواعي بآدم، أمّا قبل آدم فكان ثمّةَ صنفٌ من المملكة الحيوانية يدعى البشر.. لقد نفخ الله الروح في البشر فتحوّل إلى إنسان وتطوّر وتقدم..». ويقول في ص١٠٦: «.. وخيرُ مَنْ أوّل آيات خلق البشر عندي هو العالم الكبير «تشارلز داروين».. فقد كان داروين يبحث عن الحقيقة في أصل الإنسان..».

فالنظرية التي ذهب إلى تركيبها الدكتور «شحرور» مزيج من الفلسفات الإغريقية والهندية والدّاروينيّة، والظاهر البيّن الذي ساقه إلى تركيب نظريته الخيالية عدم إيمانه بالخلق المباشر الذي أثبته الله تعالى في القرآن العظيم.

قال الله تعالى في سورة صَ آية ٧١ـ٧٦: ﴿إذْ قالَ ربُّكَ للملائكةِ إنّي خَالِقٌ بشراً مِنْ طِينٍ. فإذا سوّيتُهُ ونفختُ فيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لهُ سَاجدين. فسجدَ الملائكةُ كلُّهم أجمعُون. إلّا إبليسَ استكبرَ وكانَ مِنَ الكافرين. قالَ ياإبليسُ مامنَعَكَ أن تسجدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ استكبرتَ أم كنتَ مِنَ العَالِين. قالَ أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فهذا النّصّ القرآني صريحٌ في خلق آدم خلقاً مباشراً، وكل ماهو مخالف لذلك فهو قول باطل. وإنّ الذين قالوا بالتّطوّر والارتقاء في خلق آدم لابرهان لديهم ولادليل على صحة قولهم، وغاية قولهم هو عدم تصديقهم بالخلق المباشر، فهذا الموقف لأصحاب نظرية التّطوّر موقف عنادي لاموقف علمي. وجميع الدلائل العلمية تخالف نظريتهم، بل وتكذبها!!..

ويبدو أنّهم يهوون القصص الخرافية التي تغلب عليها صفة التحوّلات الجسدية. ولكن بدلاً من التحوّلات الفورية التي تُحدثها عَصَا السّاحر في القصص الخرافية، فإنّ التحوّلات هنا تسير بسرعة القواقع، ففي كتاب «الطائر» يقول ج.و. بيب: «إنّ التغيّرات الإعجازية التي نفترض أنها قاصرة على القصص الخرافية، أمور عادية جدّاً في

نظرية النشوء والارتقاء»!!. ويقول الدكتور «ماكنير ويلسون» في منشورات أوكسفورد الطبية: إنّ نظرية النشوء لاتقل عن أيّ قصّة خرافيةٍ حافلةٍ بأغرب المخلوقات كالغيلان والقنتورات «كائنات خرافية نصفها رجل ونصفها فرس»، والسيرانات «كائنات خرافية لها رؤوس نسوة وأجساد طيور». لماذا إذن هذا التّشبّث بخرافة التّطوّر التي تمتدّ جذورها إلى الأزمان السّحيقة؟ إنّ الدافع إلى ذلك هو الإغراق في المجهول هروباً من المعلوم المعقول، أو إمعاناً في الكفر والتكذيب لِما أثبته الله تعالى في كتابه الحكيم.

ويستنتج أصحاب نظرية التّطوّر من مقارنة الهياكل العظمية والعضلات والأعصاب في كل الأنواع أنّها تنتمي جميعاً إلى أصل واحد هو الحيوان الوحيد الخلية، ومن ثمّ فإنّ هذه الخلية الواحدة ماهي إلاّ صورة مصغّرة لأيّ هيكل عظمي أو عضلة أو عصب. ومن ثمّ أيضاً تلفيقهم لعملية الارتقاء الطويلة من الخلية الواحدة إلى الإنسان. إننا لانستطيع أن ننفي التشابه بين بعض الأشكال والتكوينات، ولكنّ هذا التشابه فرضَهُ الخالق تبارك وتعالى بما أراده لبعض مخلوقاته من تشابه في طرق المعيشة والغذاء. ولكنّنا إذا قلنا بنظرية التطوّر القائلة بانحدار الإنسان من القرد «كما يزعم داروين» فإننا نستطيع أن نضيف أنّ العصفور قد انحدرَ من النسر، لأنّ كليهما مكسوٌ بالريش، وأنّ الكلب قد انحدر من الحمار لأنّ لكل منهما أربعة أرجل، وأنّ البرغوث قد انحدر من الضفدعة، والضفدعة من القنغر؛ لأنّ ثلاثتهم يستطيع القفز!!؟..

لقد تمادى بعض أصحاب نظرية التّطوّر في الدّفاع عن نظريتهم الوهمية إلى درجة اللّجوء إلى الغش. فقد استخدم «إيرنست هاكل» رسوماً للتدليل على التماثل بين الجنين البشري والحيوان. ولكنّه اعترف فيما بعد بأنّ «عدداً من رسومي كانت تزويراً محضاً.. وإنّ مئات من علماء الحيوان قد ارتكبوا نفس الخطيئة» [مجلة الجماين زيتونج ـ ميونخ].

كما أعلن العالم البيولوجي «أوستن كلارك» الأستاذ بمعهد سميثونيان» أنه «لاتوجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأنّ أيّاً من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيره.

إنّ كلَّ مرحلةٍ لها وجودها المتميّز النّاتج عن عملية خلق خاصّة ومتميّزة. لقد ظهر الإنسانُ على الأرض فجأةً، وفي نفس الشكل الذي نراه عليه الآن» [مجلّة لينرارى ديجست].

ثم يأتي الدور على النشوئي الشهير «الكونت دى نوى» ليعترف بأن كلَّ مجموعة، كلَّ فصيلة تبدو وكأنّها جاءت إلى الوجود فجأةً. إنّنا لم نعثرْ على أيّ شكل انتقالي،

ومن المستحيل أن ننسب أيّ مجموعة حديثة إلى أخرى أقدم»، ثم يُضيف متحسّراً: «إنّني ألمح كلّ العلامات المثبطة على حدوث الخلق المطلق» [الإنسان ومصيره] لماذا يصف هذه العلامات بأنّها «مثبّطة»؟ لأنّ الخلقَ الإلهي يعتبر في نظر النشوئي خرافة، ولأنّ الاعتقاد بالخالق العظيم سبحانه وتعالى بالنسبة له لعنة تصيب كبرياءه! وإنّه لأمرٌ مثبّط أن يجدَ نفسَهُ بعد سنوات طويلة من البحث وجهاً لوجهٍ أمام حقيقة الخلق المباشر!!..

الحلقة المفقودة في نظرية التّطوّر:

يقول «أنتوني ستاندن» في كتابه «العلم بقرة مقدّسة»: «إنّه لأقرب من الحقيقة أن نقول: إنّ جزءاً كبيراً من السلسلة مفقود وليس حلقة واحدة، بل إنّنا لنشك في وجود السلسلة ذاتها. إنّنا في حاجة إلى ملايين الحلقات ليربط بين الإنسان وبين أيّ نوع من القرود». وممّا يبعث على الحيرة أكثر من نقطه بداية الحياة في هذه السلسلة المفقودة!!.

وقد أغربَ الدكتور المهندس «محمد شحرور» في دعواه أنه قد وجد الحلقة المفقودة عند العلماء الذين بحثوا في نشأة الإنسان كما يزعم في كتابه «ص١٠٨» فماذا يصنع إذا كانت الحلقات المفقودة تبلغ الملايين؟!..

وعندما عجز النشوئيّون «أصحاب نظرية التّطوّر والإرتقاء» عن إثبات انحدار الإنسان من القرد الحقيقي فكروا في نسبته إلى نوع آخر من «القرد ـ الإنسان» أو «الإنسان ـ القرد» مُوهِمين بوجود صلة عائلية بينهما ولو على طريقة التخيّل.. وعندما تُمعن البحثَ في هذه النظرية فإنّك لن تكتشف سوى افتقارها إلى الأدلة، بل الأدهى من ذلك أنّك ستكتشف ميلاً أكيداً إلى اختلاق الحقائق اختلاقاً!!؟..

إنّ «إنسان جاوة» الذي اكتشفه «دوبوا» سنة ١٨٩١/ ليس سوى قطعة من جمجمةٍ بها بضعة أسنان، ثم قطعةٍ من عظمةِ فخذ وجدت على بُعْدِ خمسة عشر متراً منها. وفي المؤتمر الدولي الثالث الذي انعقد في «ليد» أثبت البروفيسور فيرشو أنّ عظمة الجمجمة قطعة من جمجمة شمبانزى، وأنّ عظمة الفخذ هي لرجلٍ، وأنّ ظروف اكتشاف هذا «الإنسان» نفسها غير مقنعة.

وأمّا «إنسان بيلتدو» فقد بُنِيَ من شظايا جمجمة، وعظمة فَكٍّ وسنّ واحدة، ويُؤكّد التّقرير الذي وضعه البروفيسور هيرديليكا عن هذه الأحجيّة العظيمة أنّ الشظايا الجمجمة هي لإنسانٍ، أمّا عظمة الفَكِّ فإنّها من بقايا شمبانزى. وأمّا أرثركيث فقد أكّدَ

أن ضمَّ هذه الشظايا يفترض أنّها لمخلوق يستحيل وجوده، مخلوق لايستطيع أن يتنفّسَ أو يأكل.

وأمّا فك «إنسان هيدلبرج» الكبير، فإنّه مماثل لفكّ الاسكيموا المعاصرين. ونفس الشيء على «إنسان بكين» الذي تحمل عظام فكّه نفس ملامح مثيلتها في أفراد قبائل «الفيدا» الذين يعيشون اليوم في جزيرة سيلان.

إنّ معظم هذه الاكتشافات هي من الناحية «الانثروبولوجية» تعتبر أحدثَ من أن تمثّل أصل الجنس البشري، فاكتشافات لعظام جمجمة مماثلة لعظام جمجمة الإنسان المعاصر يرجع عمرها إلى أبعدِ من الزمن الذي قدّره أصحاب نظرية التّطوّر أنفسهم للحلقة المفقودة المزعومة، حقيقة تسبّب لهم حيرةً أكبر!!! يقول البروفيسور «كيث»: «إنّنا لانستطيع أن ننسب الإنسان إلى أيٍّ من هذه الأنواع»!! وأمّا البروفيسور «و. برانكو» فيقول: «إنّ علم الإحاثة: الباليونتولوجيا» لايعرف للإنسان أسلافاً»!! كما يذكر «ايريك واسمان» في «البيولوجيا الحديثة ونظرية النشوء»: «إنّ البقايا المكتشفة في الحفريات لاتُؤيّد من وجهة نظر علم الوراثة أيَّ نظرية عن أصل الإنسان»!! ويُؤكّد البروفيسور «فيرشو» أنّ فكرة «القرد ـ الإنسان هي محض خرافة»!!..

فلا يفرحنّ الدكتور «شحرور» بالانتصار الوهمي لأصحاب نظرية النشوء والتّطوّر، فقد ذهبت «نظريتُه» التي بناها على نظرياتهم أدراج الأوهام والخيالات، وسقطَ زعمُهُ أنّ الإنسان بشرٌ من المملكة الحيوانية حوّلته نقلةٌ نوعيةٌ إلى إنسان!!!.. [كما في كتابه ص١٠٨].

نظرية التّطوّر والارتقاءتنقضها شهادة الصّخور:

حاول أصحاب نظرية التّطوّر والارتقاء أن يوجدوا لدى النّاس انطباعاً وهمياً بأن الجيولوجيا تؤيّد نظريتهم، [التي مؤدّاها أنّ الكائنات الحيّة البسيطة التي عاشت في أزمان ماقبل التاريخ قد تطوّرت تدريجياً إلى أشكال حيّة أكثر رقياً نراها الآن. وُجدت هذه النظرية من الأشكال الأكثر بساطة من الحفريات في أعماق طبقات الصخور، والأشكال الأكثر رقياً وجدت في طبقات الصخور الحديثة التكوين. ومن التماثل في التركيب الجسماني للثدييات الذي كشفت عنه الدراسات البيولوجية] بيدَ أنّ الحقيقة هي على عكس ذلك، فكما يقول «داروين» نفسه: «إنّ الجيولوجيا لاترينا دليلاً على عملية التدرّج» وهذا هو الاعتراض الرئيسي الذي يـواجهه كتاب أصل الأنواع: «أنّ الطبقات الأولى من البقايا، وهي مايُسمَّى بـ: «الطبقات الكمبرية» ترينا أول ظهور مفاجىء

للحياة تحت أشكالها المختلفة. وليس في هذه الطبقات مايشير إلى الارتقاء من مادّة حيّة عديمة الشكل. أمّا طبقات الصخور الأقدم والتي تُسَمَّى «ماقبل الكمبرية» فخالية تماماً من أيّ بقايا. وبينما طبقات البقايا الأولى تخص أنواعاً لازالت موجودة حتى يومنا هذا، لم يُعثر على أيّ بقايا تمثل حلقات انتقالية لتثبيت صحة نظرية النشوء والارتقاء فيما يتصل بتغيّر الأشكال.

إنّ الحياة طبقاً لِما تزعمه هذه النظرية نشأت منذ مليار ونصف مليار سنة، ولكنّ البقايا المكتشفة لاتُغطي أكثر من نصف مليار سنة. أي أن أصحاب نظرية التّطوّر والارتقاء يُغمضون أعينهم عن مليار سنة، ثم يسمّون أنفسهم «علماء»!!

والجيولوجيا أيضاً تؤكّد أنّ أشكال الحياة لاتتخطّى الحدود بين الأنواع. ويُؤكّد علم «الباليونتولوجيا» أن الوطواط الأول كان وطواطاً حقيقياً، وأنّ الحوت كان حوتاً حقيقياً، وأنّ أول طائر كان طائراً حقيقياً مكسوّاً تماماً بالرّيش. وكل هذا يأتي بنا إلى مابلغ به كلُّ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من أنّ «الله خَلَقَ كلَّ شيءٍ على نوعِهِ الذي نَرَاهُ الآن» وهذا يتعلّق بالاعتقاد الجازم الذي قامت عليه البراهين والشواهد والدلائل القاطعة على إثبات «الخلق المباشر»!! وهذا ماأثبته القرآن العظيم!!..

وأمّا الزعم القائل بتوارث الصفات المكتسبة الذي تصوّره «لامارك» فإنّه يفترض أنّ المخلوقات تكسب صفاتها بتأثير البيئة التي تعيش فيها، وأنّ هذه الصّفات قد انتقلت عبرَ الزمن إلى سلالاتها، وأنّ مرور فترة كافية من الزمن قد أتاح خلقَ أنواع جديدة.

إنّ نظرية «لامارك» لاتعدو أن تكون ضرباً من الهرطقة. لأنّ الصّفات المكتسبة لاتورث. وطبقاً لما نشرته «مجلّة لايف»: «أنّه حتى سنة ١٩٠٠ كان علماء البيولوجيا يعتقدون أنّ الصفات المكتسبة تورث، حتى أثبتَ علمُ الأجنّة العكسَ»، ولقد علّقَ «داروين» على قول «لامارك» قائلاً: «فلتحفظني السّماء من جنون لامارك» ثم اتّجه إلى فرضية بقاء الأقوى؛ أي الاختيار الطبيعي.

ماقيمة نظرية الاختيار الطبيعي لداروين؟:

يقول البروفيسور «لوك» من جامعة كمبريدج في هذا الخصوص: «إنّ الاختيار سواء كان طبيعياً أو اصطناعياً لايمكن أن يخلق شيئاً جديداً». ويُعلن «هوجو ديفرز»: «أن الاختيار الطبيعي يمكن أن يُفسّرَ بقاءَ الأقوى، ولكنّه لايستطيع تفسير وجوده أصلاً»!!!

وأكثر من هذا، فإنّ الاختيار الطبيعي حريّ بنبذ أيّ تعديلات عديمة الفائدة إذا

ماأخذنا بمقولة «داروين» من أنّ: «كلَّ التّغيّرات العديمة الفائدة يُقْضَى عليها بلا هوادة». وفي وقتنا الحاضر، فإنّ معظم النشوئيين ينبذون نظرية داروين في الاختيار الطبيعي ويأخذون بدلاً منها بنظرية التحوّلات؟!..

ولكن التحوّل يُؤدّي إلى الإنحدار بدلاً من الارتقاء!

وذلك نظراً لضخامة عدد الجينات ومكوّناتها، فإنّ كمية التّغيّرات الممكنة في كلِّ نوع هائلة، ولكنّ كل هذا لايخلق جينة جديدة، فإنّ الصفات الموجودة فقط هي التي تتطوّر. إنّ قانون «مندل» عن الوراثة يعرض تناسباً في التغيّرات، ولكنّ الكلاب تظل هي الكلاب، والقطط هي القطط، والإنسان هو الإنسان.

وغالباً ماتكون تلك التّغيّرات من صنع الإنسان واختياره الاصطناعي. فلو تركت الحيوانات التي استؤنست بواسطة الإنسان لعادت إلى حالتها الطبيعية. إنّ الجينات يمكن أن تعاني بعض التحوّلات أو التغيّرات، ولكن في حالات نادرة جداً. وهذه هي الشبهة الأخيرة التي يتعلّق بها أصحاب نظرية التّطوّر والارتقاء.

وحتى هذه الحالة فإنّ التحوّلات ليست وليدة عملية ارتقاء طويلة، وإنما نتاج قفزات مفاجئة، ترخي ستائر النسيان على البقايا والحلقات المفقودة. ولكن بعد تفجير الذّرّة أصبح من الممكن دراسة مثل هذه التحوّلات. وكانت النتيجة مخيبة لآمال أصحاب نظرية التّطوّر والارتقاء.

فالحقيقة أنّ التحوّلات لاتؤدّي إلى تحسين الأنواع، وإنّما هي تحولات ضارّة، فنحن نقرأ في مجلة «لايف»: أنّ الإشعاع الذّرّي هو كابوس عالم الأجنّة المزعج. لماذا إذن نخشى التحوّلات إذا كانت هي العنصر المحرّك في عملية التّطوّر، والعون الأساسي على تقدم الإنسان؟؟!..

من بين كل هذه التّصوّرات الخاطئة تظهر هذه الحقيقة: «إنّه من المستحيل خلقُ أنواعٍ جديدة من خلال الصفات المكتسبة، أو الاختيار الطبيعي من خلال التّحوّلات».

لقد اتفقت أبحاث «موللر» ودراسات «دونالدسون» على أنّ: «التحوّلات الصغيرة تضعف، والتّحوّلات الكبيرة تُقْتل». وبالرغم من أنّ الجينات قادرة على انتاج كثير من التّنوعات في مجموعةٍ ما، إلاّ أنّ نفس ميكانيكية هذا التنوّع تدمر أيَّ تغيّرٍ يخرج عن نطاق الحفاظ على كل نوع بكامل خصائصه كما أرادها له الخالق العظيم تبارك وتعالى!!.

فالواضح الصريح أنّ نظرية التّطوّر والارتقاء عاجزة عن التدليل على حدوث أيّ

ارتقاء تقدّمي، وإنّما على العكس من ذلك تؤدّي إلى الانحطاط والانقراض في الأشياء على ظهر الأرض!؟.

والكون والحياة لَيْسَا وليدي الصدفة؛ وإنّما خلقهما الله تبارك وتعالى، فهذه هي الحقيقة!! وهذا هو الواقع!! وهذا ماأثبته العلم!!..

آدم وحوّاء هما الأبوان للبشر جميعاً!

هذه الحقيقة يرغب أصحابُ الميول الالحادي في إنكارها، ولكن بعد أن قام البرهان على خطأ كلٍّ من الفَرَضِيَّتين القائلتين بتطوّر الإنسان من المادّة الحيّة - من المملكة الحيوانية - أو من القرد المزعوم؛ فلننظرْ ماذا ورد في مجلّة العلوم المصوّرة «Science IIIUsated»: «إنّ العلم يُؤيّد قصّة آدم وحوّاء، إلى حدٍّ مَا. إنّنا نعترف بحقيقة فكرة الأسرة البشرية ذات الأصل الواحد»، عندما تكاثر بنو البشر واختلطت الجماعات المنعزلة وتزاوجت، أنتجت خصائص عنصرية مختلفة. وبدلاً من الارتقاء إلى أعلى، تُؤكّد الحقائق أنّ الإنسان يتدهور ذهنياً وجسدياً، وبرغم تقدّم الطب فإنّ الأمراض الجسدية والعقلية تتزايد. ورغم أنّ المتوسط العام لطول العمر يتزايد تبعاً لتناقص الوفيات بين الأطفال، إلاّ أنّ مدى عمر الإنسان أقصر من مدى عمر أسلافه. وفي هذا المعنى جاء في المجلّة الطبيّة البريطانية في عدد مارس سنة ١٩٤٦: «لقد عَثَرَ الأثريون على بقايا بشرية تعود إلى زمن ماقبل الطوفان. وتدلّ هذه البقايا على طول أعمار غير عادية لأصحابها، وكان من أكثر مالفت الأنظار هو أنّ أسنانها بريت حتى وصلت إلى اللّثة من طول استعمالها. وثَمَّةَ دلائل قديمة وفيرة تؤكد أنّه قد عاش على ظهر هذه الأرض جنس من نوع أروع في كماله الجسدي وجمال عضلاته، وأكبر في حجم جمجمته من الإنسان المعاصر. وأطول منه عمراً إلى حدّ كبير».

وتزعم نظرية «التّطوّر والارتقاء» أنّ اللّغة قد تطوّرت عن الخوار والزئير، ولكنها لاتقدّم دليلاً واحداً تُؤيِّدُ به هذا الزعم. وفي مجلّة «العلوم المصوّرة»: «أنّ أقدم أشكال اللّغات الموجودة حالياً كانت أكثر تعقيداً من صيغتها المعاصرة، وغالباً مانجد أنّ لغات القبائل البدائية والبربرية أصعب تعلُّماً من اللاتينية أو الإغريقية أو السنسكريتية. فإن كان هذا هو الأمر، فإنّه من الواضح إذن أنّ الإنسان لم يبدأ بأسلوب اتّصال بسيط، ولكنّه امتلكَ من قديم الأزل لساناً ناطقاً ذرباً، أخذ يتّجه تدريجياً إلى ماهو عليه حالياً من بساطة». وحتى وقتنا هذا نجد أنّ اللّغة الإيطالية أبسط بكثير من سالفتها اللاتينية، وأنّ انجليزية اليوم هي أبسط بكثير من إنجليزيّة شكسبير.

وهذا ماجاء به القرآن العظيم: أنّ الله تعالى علَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها، كما في [سورة البقرة آية٣١]، وأنّه من هذه المفردات التي علمها آدم عليه السلام قد انبثقت جميعُ اللّغات!! والعلمُ أيّدَ صحة ماجاءت به الرسل عليهم السلام في هذا الخصوص.

وبهذا يسقطُ زَعْمُ «الدكتور شحرور» في كتابه «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» حيث يقول ص٢٨٧: «عندما أصبح البشر جاهزاً من الناحية الفيزيولوجية لعملية نفخة الروح «الأنسنة» وذلك بانتصابه على قدميه وتحرير اليدين، وبوجود جهاز صوتي قادر على إصدار نغمات».

ومن هرطقته زعمه في قول الله تعالى: ﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾ ص٢٨٨: «كان البشرُ مايزال في المملكة الحيوانية قبل الأنسنة، ولكنّه قائم على رجليه، وله جهاز صوتي قادر على التنغيم المختلف، وكان تصرّفه كالبهائم..». وزعمه في ص٢٩٠: «إنّ البشر وجد على الأرض نتيجة تطوّر استمرّ ملايين السنين..»، هكذا يزعم من غير أن يأتي ببرهان علمي يُؤيد زعمه، وهو بهذا مقلّد لمقالات النشوئيين من غير بصيرة ولاعلم!! ولإغراقه في جهالاتهم يقول ص٢٠٢: «فإذا أردنا أن نبحث عن بداية ظهور البشر نوعاً متميّزاً على سلّم التّطوّر والنشوء، فعلينا أن نبحث عن مرحلة ظهور الأنعام على نفس السُّلّم، حيث كانت غذاءً له حتى وهو في مرحلته الحيوانية»!؟..

الإنسان ليس أصله حيواناً:

هذا ماأثبته العلم، ومن قبله كتاب الله تعالى، قال الله تعالى في سورة الذاريات آية٥٦: ﴿وماخلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدُون﴾ فكما أن الجن وُجِدَت بالخلق المباشر، كذلك الإنسان وُجِد بالخلق المباشر، حيث خلق الله تعالى هذين الجنسين لغاية خاصّة ألاَ وهي «للعبادة»، فليس صحيحاً قطعاً أنّ الإنسان تطوّر عن حيوان.. بدليل قول الله تعالى في أول سورة النساء آية١: ﴿ياأيُّها النّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمُ الّذِي خلقكُمْ من نفسٍ وَاحِدَةٍ [وهي آدم] وخَلَقَ منها زَوْجَهَا [وهي حواء] وبثَّ منهُمَا رِجَالاً كثيراً ونِسَاءً..﴾ فأثبتَ أصلَ الخلق من نفسٍ واحدةٍ وهي نفس آدم عليه السلام، وبهذا يظهر كذب القول بأنّ أصل الإنسان «من المملكة الحيوانية».

وقد أثبت القرآن العظيم أصل خلق الإنسان: أنّه كان خلقاً مباشراً، كما في سورة الرحمن آية٣-٤: ﴿خَلَقَ الإنسانَ. علَّمَهُ البَيَانَ﴾، و﴿خلقَ الإنسانَ من صَلْصَالٍ كالفخار﴾ سورة الرحمن آية١٤، ﴿ولَقَدْ خَلَقْنَاالإنسانَ مِنْ صَلْصَالٍ من حمإٍ مَسْنُون﴾

سورة الحجر آية٢٦، ﴿ولَقَدْ خَلَقْنا الإنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ سورة المؤمنون آية١٢، وفي سورة التّين آية٤: ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ في أحسنِ تَقْوِيمٍ﴾، فهذه أدلّة قاطعة تثبتُ خلقَ الإنسان ممّا ذكرَ الله تعالى على أحسن تقويم، فَيبطل القول بأن أصل الإنسان حيوان!!؟..

إنّ الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يملكُ عقلاً متميّزاً عن الغريزة. وهو المخلوق الوحيد القادر على التقدّم ثقافياً على أساسٍ من المعرفة المكتسبة بالتعليم من الأجيال السابقة، بينما تبقى جميع الحيوانات عند نفْس المستوى الذهني الفطري الذي كان عليه أسلافها. وأحياناً يبدو أنّ حيواناً ما يتصرّف بحكمة أكثر ممّا لدى الإنسان، بيدَ أنّ هذه ليست حكمة واعية، فهي محدّدة جداً، وعاجزة عن التكيّف مع الظروف من خلال التفكير المنطقي. والضمير الأخلاقي والأدب الإنساني وقف على الإنسان وحده ـ رغم أنف أصحاب نظرية التّطوّر ـ وسواء كان ذلك الخُلُق أو تلك الآداب موروثةً أو مكتسبةً، أو كانت معاييرهما محكومة بالزمان والمكان، فإنّه حقيقي مثلما أنّ الرجل الذي لاخُلُقَ له ولا أدبَ، فإنه كان ولايزال معتبراً دائماً شخصاً نَاقِصاً منبوذاً في المجتمع، ومن لاضمير له يمنعه من السّفاهة والحماقة الرذيلة، فإنه يُعتبر دائماً شخصاً مريضاً مؤذياً محتقراً من المجتمع. والإنسان وحده أيضاً هو الذي يُعلّم أبناءَه الأخلاق والدين والأدب والحكمة. أمّا الحيوانات على كافّة أشكالها فلا تعلّم صغارها إلاّ ماهو غريزي لحفظ بقائها، فلا ترتقي إلى أكثر من ذلك. والإنسان وحده الذي خُصّ بالتكليف في الدِّين والعقيدة والشريعة، فهو الوحيد بين المخلوقات الأرضية يتوجه بذلك إلى الخالق العظيم بالعبادة والتعظيم، ولم نجدْ هذا في أيّ جنسٍ من أجناس الحيوانات!؟.

وهذه الحواس الخمس التي تميّز بها الإنسان، والوظائف العصبية التي خُصَّ بها من دون سائر المخلوقات، وكذا الشعور والإحساس والحياء، والبِشْر والسُّرور، كلُّ هذا يدلّ دَلَالة واضحة على أنّه مخلوق خلقاً مباشراً كما صوّره الله تعالى!!..

وهذا الدماغ الذي يعملُ العقلُ من خلاله فيما توصَّلَ إليه الإنسانُ حتى هذا الوقت من مخترعات وتقنيّات مدهشة؛ يدلُّ بشكل قاطع على أنّ الإنسان لم يتطوّر عن حيوان أبداً، وهذه الحقيقة الراسخة دونها الملايين من الأدلّة والبراهين في إثبات أصل الإنسان وأنّه ليس منحدراً أو متطوّراً عن حيوان، وأمّا الزعم الذي يزعمه أصحاب نظرية التّطوّر والإرتقاء فليس على إثباته دليلٌ علمي، ولكنّ الوهم والمكابرة في عدم التصديق بالخلق المباشر الذي أخبر به الله تبارك وتعالى في كتابه الحكيم، هو الدافع في

الإصرار على ذلك الزعم الكاذب!!؟..

إذا كان عقل الإنسان يقف مذهولاً أمام ضخامة الكون!! كما يقف مندهشاً أمام ضخامة أصغر الكائنات!! فكيف إذن يقف أمام حكمة الخالق العظيم فيما أبدعَ وكوَّنَ وخَلَقَ؟! إنّ العلم يكتشف فقط أسرار الكون... ولا يقدر على شيء سوى أن يسير وِفْقَ قوانينه وأنظمته!!..

إنّ الكهرباء التي تعتبر أساس التّقدّم التقني الحديث موجودة في سمكة «الانقليس» الكهربائية، وفراشة النّار التي تطلق إشارات ضوئية دون استعانة بمحطّة توليد كهرباء!! وبيتُ العنكبوت، وعشُّ الطير، ونفقُ القندس، وخلايا النحل المكيّفة الهواء، والنسيجُ الورقي للدبور، والقناطرُ التي يبنيها النمل؛ على أيّ مصدرٍ اعتمدتْهُ في ذلك؟ وعن أيِّ تطوّر حصلتْ عليه؟ وهذه الطيورُ المهاجرة التي تعبرُ المحيطات دونَ الاستعانة ببوصلة، وعثّةُ اللّيل التي تستخدمُ اللّاسلكي، والوطواطُ الذي يتمتّعُ بتوجيه راداريّ، هذه وغيرها من المخلوقات.. مِنْ أيِّ مصدر تلقّت ذلك؟ أو عن أيِّ نظام أو قانون تطوّرتْ عنه؟ إنّ مقولة «التّطوّر والارتقاء» من خرافات الوهم وهرطقة الخيال، التي تدعو إلى ترك ماأنزل الله تعالى في القرآن العظيم من الحقائق العلمية والكونية، لاشيءَ غيرَ ذلك!!؟..

٦ ـ الأصالة والمعاصرة

يتعرّضُ المسلمُ المعاصرُ لخطرِ مُوَاجَهَةِ فُقْدانِ الأصَالَةِ في الفكرِ والمنهج، أو التّنكُّرِ للأصَالَة بدعوَى المعاصرةِ والتّطوُّر، وبالتّالي الارتماء على منهج التجديد والحَدَاثة المستورد من الخارج. هذه الدعوات ذات الأسماء البرّاقة لايعجزُ الفكرُ الإسلامي على مواجهتها على طريقته الخاصّة التي تقوم على أساسٍ عرضها على «أصله» الأصيل وميزانه الصحيح [القرآن والسّنّة]، ذلك أنّ هناك أخطاراً تواجه الأصالة دائماً في هذا العصر بالذّات، وتختفي وَرَاءَ أساليبَ برّاقةٍ: أبرزُهَا «المعاصرةُ ـ التّطوّرُ ـ التّجديدُ ـ الحَدَاثة»، وهيَ تحملُ التّبعية والتّغريب التي تريد أن لاتتركَ معياراً ثابتاً «للإسلام، والقرآن، والسّنّة، والنّبوّة، والرسالة، والعقيدة، والشريعة» وما ينضوي تحتها من أصول العقيدة وفروع الشريعة. وأقرب مثال على المعاصرة المحرّفة المضطربة كتاب الدكتور المهندس «محمد شحرور» فيما أسماه بـ«الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة[1]». فلم يترك فيه شيئاً من المصطلحات الإسلامية إلاّ أخضعه لمتغيّرات

---

(١) سيأتي «التحذير من خطورة القراءة المعاصرة على منهج الصراع الجدلي «الفلسفي».

المعاصرة والتّطوّر، فتناول لفظ «الكتاب» فحرّف معناه وبدّلَ اصطلاحَهُ، كما تناولَ «القرآنَ» فحرّفَ معناهُ وبدّلَ في دَلاَلتِهِ، وتعرّضَ «لكلمات الله» فأحدثَ لهامعانيَ ووضعَ لها مصطلحاً لم يُعهدْ من قبلُ، وبحثَ في نزول القرآن فابتدعَ له معانيَ من صميم الخيال، وبحثَ في النّبوّة والرسالة، فقسّمها إلى أقسام: قسم هو تطوّر في المعلومات، وقسم هو تطوّر في الأحكام؛ فجعل للنّبوّة معلومات متطوّرة ـ وللرسالة أحكاماً متطوّرة ـ أمّا النّبوّة فلها قرآن لاطاعةَ فيه، فهو علوم ـ وأما الرّسالة فلها قرآن الطاعةُ فيه واجبة ضمن ثبوت النّص وتطوير المحتوَى ـ وآيات الأحكام قابلة للتّزوير وليس فيها أيُّ إعجاز، وآياتُ الأحكام ليستْ من كلام الله، وكلام الله هو الكون. . والقرآن ليس كلام الله، لأنّه عربي، فلو كان القرآن العربي كلام الله، لكان الله جنسه عربي!!؟؟. .

إلى غير ذلك من التّحريف والتّزييف في إعجاز القرآن وتأويله، ومحكمه ومتشابهه، وآيات الذكر، وآيات الكتاب، وآيات خلق البشر وتطوّر الإنسان، وآيات الجنّة والنّار، وآيات الروح، حيث وضعَ لها معانيَ مستحدثة وفق قوانين الجدل، وكذلك الوحي، وعلم الله، وقضاء الله وقدره، والأعمار والأرزاق والأعمال، قد أحدثَ لها دَلاَلاَتٍ ومصطلحاتٍ، ثم تناولَ الحُدودَ في التّشريع والعبادة، فابتدعَ وحرّفَ وابتكرَ وزيّفَ، ثم عرّجَ على الفرقان فجعله الوصايا العشر «الأخلاق»، ثم أتى على المنكر والمعروف، فطوّر مفهُومَهُمَا، وجدّدَ في دَلاَلاَتِهما.

ثم بحث في السّنّة، فجعلها التّفاعل الأول للإسلام في القرن السابع الميلادي، وهذا التفاعل غير صالح لهذا العصر، ثم أحدثَ سُنّةً للرّسالة، وسُنّةً للنّبوّة، ثم تناولَ جَمْعَ الحديث وتدوينه وفهمه، وجعل كتب الحديث النّبويّ كالأناجيل التي عند النصارى، ثم تناول أزمة الفقه الإسلامي، فوضعَ لحلّها أحدثَ النّظريات التّفاعلية، وضرب على ذلك مثلاً في نموذجٍ للفقه الجديد في دراسة موضوع المرأة، على أحدث طراز غربي متطوّر في الشكل والمضمون، وكذا الزواج والإرث ـ وزعم أنّ آيات الإرث ليست من القرآن ـ كما طوّر في مفهوم لباس المرأة وسلوكها الاجتماعي، وعلاقتها بالرجل. ثم عادَ فبحثَ تحتَ عنوان [الباب الرابع في القرآن: الشهوات الإنسانية ـ النظام الاقتصادي ـ المفاهيم الجمالية] على أسس التفسير المادي للحياة.

وهكذا يمضي في أبحاثه على تلك الوتيرة في تغريب الإسلام، وتطوير معالمه، وتحديث مصطلحاته، بما لايتركُ فيه قيمةً ثابتةً أبداً!!؟؟. .

كل ذلك تحت مظلة هذه التّسمية «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» فقضَى بالمعاصرةِ على كل ماهو ثابت في القرآن. . والإسلام. .

الأصالة هي المنطلق للمعاصرة:

إنّ الفكر الإسلامي يلتزم في انطلاقته نحو المعاصرة بالثّوابت العلمية، وبالضوابط المنهجيّة، التي أسَّسَها الإسلام على أمتن القواعد على مدى تاريخه المشرق المنير، فكانتْ ثوابتُهُ وضوابطهُ كالمنار المضيء في ظلمات اللّيل ولا زالت؛ فهي تهدينا إلى الطريق السّوي والمنهج المستقيم!!.

فالأصالة في الإسلام هي التي تدعونا إلى التزام ذلك بكلّ حزم وتصميم صيانةً لكياننا، وحفاظاً على شخصيتِنَا، وتحقيقاً لمصالِحِنَا، واستفادةً من تجاربِ الشّعوب، دونَ أن نفقد أصالتَنَا!! وهذا يعني تكامل حاضرنا المرتبط بماضينا المتصل بمستقبلِنَا؛ فليست الدعوة إلى الأصالة تستهدفُ الجمودَ ولاتقليدَ الماضي، وإنّما هي الارتباط بالنّسَب، كارتباط الفرع بالأصل. وذلك حفاظاً على ينبوعه الصّافي الذي انطلقَ منه الفكرُ الإسلامي نقيّاً طاهراً لم يختلط بأوشاب الفلسفات القديمة والمعاصرة التي شَنَأَتْهَا الآراءُ المتناقضة والمفاهيم المتعارضة، وذلك تصديقاً بأنّه مَنْ تركَ الإسلامَ ضلَّ في الظّلام..

إنّ مفهوم الأصالة في التفكير الإسلامي يختلف عنه في التفكير الغربي، فإنّ نظرة الغرب للتّطوّر ساقته إلى التّغيير الكامل، حيث لم تَعُدْ تهمُّهُ أيّ قضية في الأصالة التي ينتسب إليها، فقد فصل الكنيسة عن الدولة.. والدِّين عن الحياة.. فلم يترك له التّجدّدُ أيّ ارتباطٍ بماضيه الذي كان عليه عبئاً ثقيلاً، فهو ينظر إلى ماضيه من المنظار اللّاهوتي المتسلّط على مقدّراته..

ومن هنا كان الإحساس الغربي بالأصالة مشلولاً، لأنّ تحوّله المادّي لم يترك له تذوقاً من ماضيه اللّاهوتي من سعادة أو هناء!..

وحينما حاول بعضُ فلاسفة الغرب صياغَة أصالةٍ حديثة، ارتَدُّوا إلى صياغة الأساطير، فقد اتخذ «فرويد وسارتر وداروين» وغيرهم.. من الأساطير أصولاً لنظريات علم النفس والوجودية، والتّطوّر والارتقاء!..

أمّا الأصالة في المفهوم الإسلامي فهي دائماً بمثابة الأساس للبناء!! فالتّجدّد فيه من قوّته الذّاتيّة، جعلها علامةً على بقائه وديمومته، وذلك فيما تمثَّلُ في أصولِ «الاجتهاد» وقواعد «الاستنباط» وضوابط «التّشريع»، وهذا هو الامتداد المستمر للأصالة الإسلاميّة!!..

والأصالة الإسلامية هي ذلك التراث النقيّ والميراث الحيّ الذي يقومُ عليه الاجتهـادُ، والاستنبـاط، والتشريـعُ: هـو «القرآن العظيـم، والسّنّة النّبويّة المطهرة

الصّحيحة»!! هذان المصدران اللّذان يَمدّان الفكر الإسلامي بجميع المعطيات في الحضارة والتّقدّم والرّقيّ، وعلى كل صعيد [ولقد تقدم مايُثبتُ ذلك في الكلام عن: الإسلام خاتم الأديان الباقي على الدوام].

إنّ الدعوةَ إلى تغليب «المعاصرة» على الأصالة، إلى أن تأتي على الثّوَابت فتبدّلها، وإلى الضّوَابط فتبدِّدَها؛ دعوةٌ مسمومةٌ، ومحاولةٌ ممكُورَةٌ، يُقصدُ من ورائها القضاء على الإسلام، أو إضعافه بإيجاد أفكار جدلية متضاربة متعارضة متنافرة.

والقول بأنّ الأصالة هي «التاريخ» هو قول زائف باطل، بل الأصالة هي «القرآن العظيم والسنّة النّبويّة الصّحيحة» على منهج الأئمة المتميّز بالنّضارة والاستنارة!!..

وأمّا التّراث الإسلامي: فإنّه تلك الحصيلةُ الكبيرةُ الفخمةُ التي تركها لنا الأئمةُ الأعلام، ونمّاها لنا علماؤُنا الأبرار، على مَدَى خمسة عشر قرناً من تاريخ الإسلام؛ من نوابغ الأفكار وقرائح الأفهام ودقائق الأسرار، فهي تمثل التجديد المستمر لحركة التّقدّم والرُّقيّ في الفكر الإسلاميّ!!..

إنّ الذين يقولون: «إنّ الفقهاء والعلماء قدّموا لنا الإسلامَ تراثاً ميّتاً، وكان عِبئاً على المسلمين» إنّما يقولونه زُوراً وبُهتاناً؛ حقداً على الإسلام ومكراًبالمسلمين؛ لِيَنْسَلِخُوا عن أصالتِهِم، ولِيَذُوبُوا في صُهَارَاتِ الأجنبي التي يُوقدها في صدور وعقول عملائه الذين بثّهم بينَهُم. إن المعاصرة التي يُعلنها هؤلاء ويدعون إليها فيما قدّموه للمسلمين تحت ظلِّ هذه التّسمية: «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» إنّما يُراد منها الانسلاخ عن أصالة القرآن والإسلام، تقول الكاتبة الأمريكية المسلمة «مريم جميلة»: «إنّ البلاد الإسلامية قد وقعت فريسة مصطلحات خاطئة، ومنها مصطلح «العصرية» وقد جنَى هذا المصطلح على الإسلام جنايةً كبرى» فالعصرية أو «المعاصرة» بالمفهوم غير الإسلامي، تعني عدم الرضا بالإسلام ديناً معقولاً مفهوماً لدى شعوب الدنيا. أو أنها تصوّر الإسلام بتصوير عربيٍ غريب، بأن يُفسَّرَ الدِّينُ والعقيدةُ والشريعةُ تفسيراً جدلياً جديداً يثبتُ به أنّه ليس ثَمَّةَ تعارض بين الإسلام المعاصر والحضارة الغربية. بمعنى أنْ يبقى اسمُ الإسلام، ويُحوَّرَ مضمونه؛ هذه هي المعاصرة المحمومة التي تُحْمَلُ إلى المسلمين تحت اسم «الكتاب والقرآن»!!؟؟..

٧ ـ التّراث الإسلامي فكرٌ حيّ

لكل أُمَّةٍ تُرَاثٌ هو فكرُها وعقيدتُها وحصيلةُ خبرتها..

ولأُمَّةِ الإسلامِ تُراثُها هو نتاجُ تفكير أئمتها، وحصيلةُ اجتهاد سلفها، وخلاصةُ أفكار

علمائها، عبرَ مسيرتهم الطويلة والمستمرّة والمتواصلة مع القرآن العظيم والسّنّة الصّحيحة!! فلم يخلُ قَرْنٌ من القرون الخمسة عشر من تاريخ الإسلام، إلاّ وكان حافلاً بالعطاء الفكري المتدفق، وهو وإن تخلله فترات ركود، غير أنّ الله تبارك وتعالى يبعث على رأس كلّ مائة سنة «مَنْ يُجدِّدُ لهذه الأُمّةِ أمرَ دِينِهَا»!!! كما هو ثابت في الحديث الصحيح.

ولقد كانت العُلوم الإسلامية: من القراءات القرآنية، والرّوايات النبوية مستفيضةً في أرجاء الأمة، تُحِيطها علومُ اللغة بأنواعها، وتصحبُها علومُ القرآن والتفسير بأسرها ويرعاها أصولُ الفقه وقواعده بأجمعها، فكانت بذلك ولازالت ذات ضوابط ثابتة، وقواعد محكمة، فما أصابَها ماأصابَ علومَ أهلِ الكتابين، من التّحريف والتّزييف والتّبديل والتّغيير. فإن حصلَ لدَى أحدٍ خطأً في تَفكيرٍ أو اجتهادٍ، فإنّه سرعانَ مايجدُ مَنْ يُصلح هذا الخطأ، ولهذا نجد الفقه الإسلامي مُحَاطاً بجوانب منيعة تمنع من تفشي الخطأ في الاجتهاد، أو فشوّ خطأ المجتهدين، فالأقوالُ الضّعيفة لايُفتَى بها، والآراءُ المرجوحَةُ لااعتدادَ بها، والاجتهاداتُ المخالفةُ لنُصوص القرآن والسّنّة محكومٌ بردّها، وكذلك الأمرُ والحالُ في التّفسير والتّأويل، أو فيما سوى ذلك من الثّقافة الإسلامية، فإنّ لها معاييرَ تضبطها، وموازينَ تُقَاس بها، لاتخفى على أحدٍ من العلماء والباحثين، ولهذا كان التراث الإسلامي: من التفسير والتأويل والفقه واللغة؛ قَلّ أن تقع عليه العَوَادِي، لكثرة علمائه وفقهائه وحُفّاظه ومحدّثيه وشيوخه، فلمّا قلّ هؤلاء في هذا الزمان، كثرتْ هجماتُ العِدَا على حُرُماته، فإنّا نَرى بينَ الحين والحين مَنْ يخرجُ بتفسيرٍ منحرفٍ، أو بتأويلٍ باطلٍ، أو بقراءةٍ مزيَّفةٍ، بعضها باسم «رحمة من الرحمٰن في تفسير وإشارات القرآن» لمحمود غراب، الذي جمع فيه من الأباطيل ماالله يُخزيه به، وبعضها باسم «تأويل جزء عمّ» جمعه عبد القادر يحيى، ونسبه للمدعو «محمد أمين شيخو» الذي كان أمّيّاً لايقرأ ولايكتب. وقد حشدَ فيه جامعُه أكثَر من ثلاثمائة خطأ في اللغة والتفسير والتأويل والأحكام الشرعية. ومنها باسم «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» للدكتور المهندس محمد شحرور، الذي حشدَ تحت هذه التّسمية أكثرَ من ثلاثة آلاف أغلوطةٍ متعمَّدةٍ بأسلوبٍ فلسفي جدلي، سفسطائي، ومنهج مادّي ماركسيّ، ومفهوم غربي إلحادي. وخلاصته: «جمعٌ لمزاعم المستشرقين والمبشرين وتأويلات المنحرفين، وتجسيدٌ لأفكار الفلاسفة المعاصرين، أمثال فرويد وداروين وكانْت وهيجل وديكارت وانجلز، وسواهم من أصحاب الوجودية والإلحاد».

فهذه الكتب، وإن ظهرت بأسماءَ إسلامية، وتسمياتٍ قرآنية، فهي من الكتب

المنحرفة، لاتدخل في حيّز التّراث الإسلامي، فيما لو بقيت.. ونحن نقول هذا حفاظاً على التّراث الإسلامي من أن يدخله ماليس منه. وهذه أمانة معلّقة في أعناق العلماء المخلصين العاملين والدّعاة المصلحين والمثقفين الواعين وطلبة العلم المثابرين، يحملها في كلِّ جيلٍ كَابِرٌ عن كَابِرٍ إلى أن يرثَ الله تعالى الأرضَ ومَنْ عليها!!..

إنّ في أعناق الأجيال الحاضرة «أمانة» رعاية التراث الإسلامي، يجب أن يُؤدُّوها إلى الأجيال القادمة، بعد أن يُؤدّوا دورهم إزاءَها، ويقوموا بمسؤوليّتهم نحوها، تلك هي أمانة «الموروث الإسلامي»!! لقد قامَ أسلافُنَا بحملِ هذه الأمانة وأدائها بلا كَلَلٍ أو مَلَلٍ أو تَبَاطُءٍ أو كَسَلٍ، فذَادُوا عن حِيَاضِها ودافَعُونَ عن حُرُمَاتِها، فصدُّوا عنها كلَّ عدوان، وحفظوها من كلِّ دخيل، ودحَضُوا كلَّ تزييف، كلٌّ بقدرِ استطاعتِهم وفي حدود تحدّيات عصرهم.

هذه الأمانة اليوم بين أيدينا نحملها لمن بعدنا؛ وهي بين أيدي هذا الجيل الذي يُواجهُ مسؤولياتٍ أشدَّ خطورةً وأكثرَ عُمقاً، مع تعدّد الحركات الهدّامة من «استشراقية، وتبشيريّة، وشُعُوبيّة، وتلموديّة صهيونيّة ومادّيّة ماركسيّة، وإباحية غربيّة» وكلُّها تُعارض الأمانة وتسعَى إلى إبطال حملها، وهي تحاول جاهدةً أن تجد في صفوف الأمة ثغرة تنفذُ منها إلى دينها وعقيدتها وشرعها وأخلاقها، لتقطع الصّلة بين المسلمين والإسلام.

ومنذُ اختَتَمَ الله تباركَ وتعالى رسالتَهُ وأكملَ دينَهُ وأتمَّ نعمتَهُ على هذه الأُمّة كما قال سبحانه: ﴿اليومَ أكملْتُ لكُمْ دينَكُم وأتْمَمْتُ عليكُمْ نعمتِي ورَضِيْتُ لكُمُ الإسْلاَمَ دِيناً﴾ [سورة المائدة آية٣]، والأُمّةُ تحفظُ هذا الدِّين وتنشرُ هدايَتَهُ وتُجاهد في سبيلِهِ، وتصونُ أمَانَتَهُ، فكان جميعُ المسلمين هكذا يدافعُون عن الإسلام، وينشرونه في العَالَمِين، ويهدُون إليه الأمَم، ويكشفون عن عظمته وأسراره وأمجاده ومعطياته في عالم حالك بالظلم والظلمات، فأخرجوهم به من الظلم إلى عدله، ومن الظلمات إلى نوره، ومن الضّلالِ إلى هدايتِهِ، ومن الضّنكِ إلى سعادتِهِ، ومن الخوفِ والضَّيَاعِ إلى أمنِهِ وأمَانِهِ!!..

هكذا كانت أمانة «الموروث الإسلامي» في أيدي هذه الأُمّة على مدى تاريخ حياتها!! يقول الإمام الترمذي: «إنّا وجدنا دينَ الله مبنياً على ثلاثة أركان: على الحقِّ! والعدل! والصّدق! فالحقُّ على الجوارح، والعدل على القلوب، والصّدق على العقول»!.

فإذا افتُقِدَ العدلُ خلفَهُ الجَوْرُ، وإذا افتُقِدَ الحقُّ خلفَهُ الباطلُ، وإذا افتُقِدَ الصّدقُ خلفَهُ الكذبُ. فعلى ضوء «منهج الإسلام في ثوابته العلمية، وضوابطه المنهجية»

نستطيع أن نصل إلى أعماق الفهم في الإسلام، ومن هنا نكون قادرين على بيانه للنّاس؛ فلنقدّم «الإسلامَ بتراثه الأصيل» للعالم: نقدمه صحيحاً سليماً، كما بعثَ الله بِهِ رسولَهُ محمّداً ﷺ من غير تحريف ولاتزييف، نُقدِّمُهُ على حقيقته من خلال منهجه وعلى طريقته بالضبط والاتقان، وليس كما فعل فيه أصحابُ المناهج الضّالّة، من المشبوهين الموتورين المنبوذين القادمين من الغرب، أو العاملين لمصالحه، الذين كانوا مصدرَ التبعية والهزيمة والنكسة.

فإلى ميراثِ الإسلام أيها المسلمون: «كتاب الله تعالى وسنّة رسولهﷺ»، ففي صحيح أبي داود /٣٠٩٦/ وصحيح ابن ماجه /٢٢٣/ من رواية أبي الدّرداء رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «مَنْ سَلَكَ طريقاً يبتغي فيه علماً سهَّلَ الله له طريقاً إلى الجنّة، وإنّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَها لطالبِ العلمِ رضاً بما يصنعُ، وإن العَالِمَ ليستغفرُ لهُ مَنْ في السّمواتِ ومَنْ في الأرضِ حتّى الحِيتَانُ في الماءِ، وفضلُ العَالِم على العَابِدِ كفضلِ القمر على سائرِ الكواكبِ، وإنّ العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ، وإنّ الأنبيَاءَ لم يُوَرِّثُوا دِيناراً ولادِرْهَماً، وإنّما وَرَّثُوا العلمَ، فمَنْ أخَذَهُ أخذَ بحظٍّ وَافِرٍ»!!!..

فميراثُ النّبوّة هو مابُعِث به النبي ﷺ «القرآن العظيم والسّنّة النّبوية المطهرة» فهذا هو الإسلام الصّحيح ومنهجه الأصيل، بالأسلوب القرآني، والمنهج النّبويّ!!..

٨ ـ الثّوابت والمتغيّرات في دائرة العلوم الإسلامية

إنّ ماتقَدَّمَ معنَا في «الإسلام ودعوَى التّطوّر» يُعتبر تمهيداً لبحث «الثوابت والمتغيّرات في العلوم الإسلامية».

إنّ الثّوابت في الإسلام قد جاءتْ في نصوص القرآن العظيم لفظاً ومعنىً، وفي نصوص السّنّة النّبويّة بألفاظها المتقاربة ومعانيها المتّفقة. كما جاءتْ فيما أجمعَ عليه السّلفُ الصّالح، أو فيما اتفقَ عليه الأئمةُ، من أصول الفقه وقواعده، وأصول التفسير وقواعده، وأصول اللّغة وقواعدها.

والثوابت في الإسلام أيضاً: العقيدةُ الإسلامية، وشُعَبُ الإيمان. والعبادات الثابتة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، من الصلاة وأركانها وشروطها، وسننها ومستحبّاتها ومندوباتها. والصيام وأركانه وشروطه، وسننه ومستحبّاته ومندوباته. والزكاة وأنصابها ومصارفها، وأركانها وشروطها، والصّدقات بأنواعها. وكذا الحج بأركانه وشروطه وسننه ومستحبّاته ومندوباته. كلّ ذلك من الثوابت التي لاتتغيّر أحكامها ولاتتبدّل، ولاتخضع للمتغيّرات، سوى مايتعلّق بالمرضى والضعفاء والعاجزين..

ومن الثوابت الإسلامية أحكام الحدود والقصاص في جميع أقسامها كما ذكرها الأئمة الفقهاء. وأمّا أحكام التعزير فلا تخضع للثوابت، وإنما أحكامه اجتهادية فيما فيه مصلحة أَمْنِ الأمة وأمانها، وكذا أحكام قطاع الطريق ترتقي إلى الأشدِّ ردعاً للمجرمين.

ومن الثّوابت الإسلامية أحكام الإرث، والنّفقات، وأحكام الزواج والطلاق، وأحكام الرضاع والحضانة، وحجاب المرأة ولباسها، وضوابط اختلاطها مع الرجال.

ومن الثوابت الإسلامية: أحكام البيع والشراء وشروطه وأركانه، وكذا الشركات، والإجارات. ومعاملات الصّرف، وأحكام الدُّيون، وأحكام الذّبائح والصّيد، والنّذور والأضاحي، والأعياد.

ومن الثوابت الإسلامية المباحاتُ، وجميعُ ماأحلّه الله تعالى ورسوله ﷺ في القرآن والسّنّة. وكذا المكروهاتُ، وجميعُ المحرّمات من الشّرك والكفر والإلحاد والفسوق، والظلم والطغيان والإيذاء، والسّرقة والغصب والغش وأكل أموال النّاس بالباطل، والرّبا والمَيْسِر والقِمَار، والغيبة والنّميمة، والكذب، والخداع والمكر لغير الحرب، والرشوة، كل ذلك حرام.

ودماءُ المسلمين وأعراضُهم وأموالُهم من المحرّمات الثابتة القطعية، فلا يحل دم امرىء مسلم إلاّ بإحدى ثلاث: الثّيّبُ الزّاني، والنّفس بالنّفس، والتّارك لدينه المفارق للجماعة. هي من الثوابت التي لاتتغيّر ولاتتطوّر مهما تعاقبتِ العُصُورُ وتقلّبتِ الدّهورُ.

وجميعُ المحرّماتِ ثوابتٌ لايلحقها تطوّرٌ ولاتبديلٌ ولاتعديلٌ.

والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، والآداب والأخلاق الفاضلة والحسنة، هي من الثوابت التي لاتتطوّر مع الزمان، وكذا الخير والشر... والأمانة والخيانة... والوفاء والغدر... والعدل والجور... والصلاح والفساد... والحقّ والباطل... كلُّ ذلك من الثوابت التي لاتتطوّر مع الزمان!.. وكذا أحكام الأمن والأمان.. والجزية.. والحرب والسّلم..

وأمّا المتغيّرات من الأحكام الشرعيّة:

فهي جميع أحكام المضطرين في جميع حالات التحريم والحظر، وذلك ضمن ضوابط ثابتة أيضاً، فهي تدور في حدودٍ خاصّةٍ لاتتعدّاها. وكذا الأمرُ في دفعِ الضّررِ وصدّ الصّائل. والقاعدةُ الشرعيةُ في ذلك: الضّرُورات تُبيحُ المحظُورَات.

ومع أحكام الضّرورات أحكام المصالح المرسلة والاستحسان، فإنّها تدخل في إطار المتغيّرات والمستجدّات، على مابيّنهُ وفصَّلَهُ علماءُ الأصول. ولاندخلُ هنا في تفصيلها فإنّا نُحيلُ فيها إلى مصادر بحثها من كتب أصول الفقه والتّشريع. والمقصود هنا الإشارة إلى ماهو من الثّوابت الإسلاميةِ، والمتغيّرات الشرعية.

والثباتُ أساسٌ هامٌ في الإسلام، وقاعدةٌ راسخة في عقيدته وشريعته وأحكامه وتوجيهه وأخلاقه وآدابه، ويتمثّلُ الثّباتُ في أصدقِ صورهِ في «ثبات النّص القرآني والحديث النّبويّ»!!...

إنّ أبرز معالم الفكر الإسلامي المستمد من القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة تقوم على أساس الثبات والأفُق الواسع له، والأبعاد المتعدّدة المرتبطة بأصوله، وتبلغ قضية الثّوابت والمتغيّرات غاية الغايات في تكامل النظرة ورَحَابَةِ الأفق وسلامة القصد. فالثّوابت هي العُمُد التي تتحرّك من حولها أو في داخلها متغيّرات الحياة، وأبرزُ اعتبارٍ لمتغيّراتِ الحياة في الإسلام هي المعالجات الشرعية التي تقوم على رعاية مصالح الفرد والجماعة والمجتمع ضمن ثوابتها وحركة أبعادها لتحقيق تلك المصالح!..

إنّ ترابطَ المتغيّراتِ بالثوابتِ في منهجِ المعرفةِ الإسلاميةِ قانونٌ أصيلٌ! شأنُه في ذلك شأنُ قانونِ التكاملِ والوسطيةِ والتوازنِ، وكلها تعني التّرابط بين الأجزاء والعناصر والأقسام والأنواع، التي قد تبدو متعارضة بينما هي متكاملة مُتَلاقية، لرعاية حياة الإنسان والمحافظة على مصالحه، وتقييم شؤونه.

وأمّا المتغيّرات في نظر الغرب قبل عصر النّهضة، فكانت عديمة الجدوى، لإيمانهم بالثبات المطلق الذي قال به «أرسطو» فكانت مصالح الإنسان في يَدِ الكنيسة والمَلِك... لاتتغيّرُ ملامحُها ولاتتبدّلُ صورُها. ثم جاءت نظرية التّطوّر «البيولوجية» التي دَعَا إليها «داروين» مُنْطَلَقاً للقول بالتطوّر الاجتماعي الذي دَعَا إليه «هربرت سبنسر» ومدرسته، ثم انتقلت الفلسفة الغربية نقلةً خطيرة حين أعلنَ هيجل نظريةَ «التّغيّر المطلق» وهي النظرية التي يأخذ بها الفكر الغربي من خلال الفلسفة الماديّة في العصر الرّاهن، مضافاً إليها القول بالصراع بين المتناقضات «الصّراع الجدلي» في الحياة...

وقد حاول نقل هذه الفلسفة الماديّة، والصّراع الجدلي، إلى المعرفة الإسلامية، العديدُ ممّن تتلمذ على الفلسفة الغربية، كان من متأخّريهم الدكتور «محمد شحرور» في كتابه المُسمّى بـ«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» الذي حاول فيه تغيير الثّوابت القرآنية والحقائق الإسلامية والمصطلحات الشّرعية، على أساس الصراع الجدلي، فكانت

محاولته قائمةً على التكلّف والتمحّل وسوء التّصرف. وبـ يُنْسَجُ على شاكلته كتابٌ باسم «القرآن» و«الإسلام» قد صِيغتْ مقدّماتُهُ صياغةً مغلوطة، واستُنتجَتْ نتائجُهُ الباطلة بشكل فلسفي سُفُسْطَائي، ممّا قدّمه أعداءُ الإسلام في دراساتهم المشبوهة والمغرضة، كما هو واردٌ في كتابه المغلوط حيثُ هدفَ تقويضَ الثوابتِ القرآنية تحت اسم «القرآن»، وقصدَ تحويرَ المفاهيم الإسلامية وإبطالها، تحت اسم «الحاجة إلى فقه جديد معاصر، والحاجة إلى فهم معاصر للسنّة النّبويّة».

فما أوردَ فيه من مسائل العقيدة أو الشريعة إلاّ وأدخلَهُ دائرةَ التّطوير والتّغيير والتبديل، فلم يُبْقِ فيه من القرآن إلاّ رَسْمَهُ ولا من الإسلام إلاّ اسْمَهُ!!؟؟..

إنّ المنهج الإسلامي لن تُضيرَهُ هذه الإنحرافاتُ الدّخيلة مهما تَعدّدت أشكالها وتنوّعت أساليبها!! إنّ معاييرَهُ ثابتةٌ وموازينَهُ دائمةٌ، فبها تنكشفُ الانحرافاتُ، وبها تُفتضح الشّبهاتُ!!.

إنّ معاييرَ الحقِّ لن تكونَ باطلاً!! ومعاييرَ الخيرِ لن تكونَ شرّاً!! فلن يُصبحَ الحقُّ باطلاً، ولن يُصبحَ الشّرُّ خيراً، وإنّ كثيراً مِنَ المنحرفين والزّائغين مَنْ يُوهم نفسَهُ بالأباطيل أنّها حقائق، ويُصوّرها للنّاس على أنّها حقائق، ولكن سرعانَ ماتنكشفُ بواطِنُها الفاسدةُ، تظهرُ خفاياها الباطلة!!..

وعلى منهج الجدل بين المتناقضات كان عدم التّفرقة بين مايُسَمَّى حقّاً أو مايُسَمَّى باطلاً.. أو مايُسَمَّى حلالاً أو مايُسَمَّى حراماً.. أو مايُسَمَّى فضيلةً أو مايُسَمَّى رذيلةً.. وكان أيضاً لافرقَ بينَ علاقةٍ شرعيةٍ وغيرِ شرعيةٍ.. كما لافرقَ بين أن تعملَ المرأةُ بعملٍ شريفٍ أو أن تعملَ راقصةً.. وعلى هذا المنهج قامت «القراءة المعاصرة في الكتاب والقرآن» للدكتور «شحرور»!؟..

إنّ الثّوابت القرآنية وحقائقها هي التي فتّحَتِ العقلَ البشري إلى اكتناه الآفاق الكونية، وهي التي دعتِ الإنسانَ إلى السّيطرة والتّحكّم في الحياة، ودفعته إلى الإبداع العلمي والتّقني؛ لن تكونَ أبداً عُرْضةً للتّغيير، يتصرّفُ بها أصحابُ «جَدَلِ المتناقضات» وكذلك الأحكامُ الشرعيةُ ومعالجاتُها لقضَايَا الحياةِ والإنسانِ لن تكونَ في أيدي هؤلاء الشّاذّين الموتُورين يعبثُون بها كيف شاؤوا وكما أرادوا!!..

إنّ الثوابت الإسلامية في جميع معاييرها وقياساتها لاتذوب في متغيّرات المعايير الفلسفية الجدلية الغربية، ولا في تطوّراتها المتناقضة المضطربة!! فهي الدائمة على دوام هذا الوجود، وهي الباقية إلى أبد الدهور!! وما محاولاتُ دُعَاةِ التّطوّر الجدلي إلاّ

حبرٌ على ورقٍ... ولن تَتَغَيَّرَ حقائقُ القرآنِ وثَوابتُ الإِسلام على صعيدِ الواقع، فهي محفوظة بحفظ الله تبارك وتعالى، إلى أن يرثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها!!..

ولايُوجَدُ في الإسلام صراعٌ بينَ الدِّين والعلم:

هذه حقيقةٌ لايُنكرها إلاّ جاحدٌ مُعَاندٌ!! فلا يُوجد في الإسلام تلك المشكلة الموجودة عند غير المسلمين - وهي مشكلة تعارض الدِّين والفلسفة للعلم والعقل - فالإسلام قائم على الحقائق وبراهينها ودلائلها، والعلمُ والعقلُ قائمان على ذلك أيضاً فلا تعارض بينَ صحيح المنقولِ وصريح المعقولِ؛ هذه قضيةٌ من مسلّمات اليقينِ، وإنّ جميع معطيات العلَم في هذه الحياة لم تتعارضْ نتائجُ أبحاثِها الصّحيحةُ السّليمةُ - رغم احتمالاتِ التّوهم - مع حقائق القرآن.. وثوابت الإسلام.. فما من شيءٍ أمرَ به إلاّ وأيَّدَهُ العلمُ الصّحيحُ والعقلُ الصّريحُ!! وما مِن شيءٍ نهى عنه إلاّ وأثبتَ ضرَرَهُ العلمُ الصّحيحُ والعقلُ الصّريحُ!! وما من شيءٍ أحلَّهُ إلاّ وثبتَ نفعُهُ في العلمِ الصّحيح والعقل الصّريح!! وما من شيءٍ حرَّمه إلاّ وثبتَ ضَررُهُ في العلمِ الصّحيحِ والعقل الصّريح!!..

وأمّا الفلسفة ومنطقها - قديماً أو حديثاً - فقد ثبتَ تعارضُهمامع العلم والعقل، وهما بين أصحابهما في صراعٍ جدلي غيرِ متناهٍ!! فكيف يصحُّ زَعْمُ من يقول: إنّ «الفلسفةَ أمُّ العلوم»؟ وهي لاتقدر على مواكبة العلوم الحديثة، لِعُقْمِ طرُوحَاتِها، ولِسَقِيم قضَايَاهَا، وهيِ إن أفلحتْ في شيءٍ.. فإنما تزيده جدلاً.. وإن زادتْ في شيءٍ.. فإنّما تُزْهِقهُ عبثا!!..

فالإسلامُ بحقائق «كتابه وسنّته» هو صاحبُ العلم الصحيح والحكمة السّليمة!! وأمّا مايجري في نصوص الكتاب والسّنّة من اجتهادات، فإنّها تجري مجرى الفكر؛ فما كان أقواها حُجّةً فهو المقدّم، ومالم يكن كذلك فعليه تحفظاتُ أصحابه!! ولم يندرج تحتَ ثوابتِ الإسلام ماكان مجالَ اجتهادٍ أو نظرٍ.. وإن كان الاجتهادُ خاضعاً لأصولٍ وقواعدَ هي من أُسُسِ الثّوابت في الإسلام!!..

ولقد وضع المسلمون العلماء تحفُّظاتهم العديدة حول دعوَى «العلم» ممّا يُطلق على الفلسفة والمنطق. فليس كل مايُنسب إلى العلم، ينتمي إليه، ولا كل ماينتمي إلى العلم، مفروغٌ من إثباته [عَدَا علوم الكتاب والسّنّة] بل كما أنّ في العلم الحقائقَ التي لاشكَّ فيها، فإنّ من العلم ماهو بحاجة إلى براهين الكتاب والسّنّة، وبهذا يبقيان المرجع الصحيح دائماً وأبداً!!.

وهناك فرضية باطلة، وهي: أنّ العلم الحديث مبني على البرهان الحسّيّ، فما يُقَالُ باسْمِهِ لابُدّ أن يكونَ قد ثبتَ وقامَ عليه البرهانُ لدى العلماء، فهم يقبلون كلَّ ماينْسَبُ إلى العلم، لأنّهم يُسلِّمُون بقيام البرهان عليه. ولكن كم من قضايا ونظريّات نسبت إلى العلم الحديث، فصدّقها كثير ممّن سارع إلى قبولها، ثم قام البرهان العلمي على عدم صحتها؟!!.. وأصدق شاهد على هذا النوع «أصحاب نظرية التّطور والارتقاء، ونظرية الانتخاب، وبقاء الأقوى» وسواها من النظريات التي ثبت بطلانها، والعجيب أنّنا نرى مَنْ يدّعي العلم من حملة «الدكتوراه في الهندسة» من الغارقين في أوهام نظرياتٍ باليةٍ خرافيةٍ!؟ بل نراه ينسج الأساطيرَ مِنْ وهمِ خيالِهِ، كما هو واقع حاله في نظريته «أنّ الجنس البشري كان من المملكة الحيوانيّة، فتطوّر، فانتصبَ على قدميه، وتحرّرتْ يداه، فكان مؤهلاً لنفخ الروح فيه، فنُفِخَتْ فيه الروحِ، فصار إنساناً، وذلك عبر ملايين السّنين»!؟ فهذه نظرية أسطورية نسجتها عقلية مهندس ترَى الوهمَ علماً!!؟..

إنّ نظرية التّطوّر نظرية ناقصة، ولكي تكونَ كاملةً لابُدَّ أن تندرج تحت قانون الثبات الذي هو وعاءٌ لحركة التّطوّر مع تحديد الآفاق والأبعاد التي يدور فيها التّطوّر ولايتعدّاها.

ونظرية التّطوّر قامت على عدد ضخم من الفروض والتخمينات، ولم تكن في مرتبة القبول لدى المادّيين أنفسهم، بل لدَى أصحابِها!! فهم أدْرَى بها، فهي من نسج خيالهم وتخمين ظُنُونهم!!..

إنّ الأصول الإسلامية الثّابتة لاتُربط بمرحلةٍ معيّنة، كما زعم صاحب القراءة المعاصرة في «الكتاب والقرآن» حيث يقول في ص٣٩: «إنّ مافعله النبي ﷺ هو الاحتمالُ الأوّلُ لتطبيق الإسلام، في القرن السابع، وفي شبه جزيرة العرب... فمن هذا خلصنا إلى مفهومِ «معاصرِ» للسّنّة النّبويّة، حيث كان دور النبي ﷺ هو تحويل المطلق إلى نسبي..» وفي ص٥٣١: «هناك كثير من الأحاديث النّبويّة إن صحت فهي أحاديث أعراف، لاأحاديث حدود، أي هذه الأحاديث غير قابلة أن يُقاس عليها حتى ولو صحت، لأنّها وليدة بيئة لها معطياتها، وقد تغيّرت هذه البيئة، وتغيّرت معطياتها»، وفي ص٥٤٩: «.. إنّ الذي فعله النبي ﷺ في القرن السابع [الميلادي] في شبه جزيرة العرب هو الاحتمال الأول لتفاعل الإسلام مع مرحلة تاريخية معيّنة، وليس الوحيد وليس الأخير..»، فأيّ جرأة هذه التي بلغ بها هذا المدعي الكذوب أنْ ربطَ جميعَ معطياتِ النّبوّة فيما هو بيانٌ وتفصيلٌ للقرآن الكريم بمرحلةٍ زمنيةٍ ومكانيةٍ «في شبه جزيرة العرب، وفي القرن السابع للميلاد»، فإنّ مثل هذا التّوهم لم يجرؤ عليه إلاّ

جاهلٌ جائرٌ، أو كاذبٌ مكابرٌ، وهذا الزعم الباطل واضح الفساد والضلال، ﴿يُريدون أن يُطفئوا نُورَ الله بأفواهِهِم ويأبى الله إلاّ أن يتمَّ نورَهُ ولو كَرِهَ الكافِرُون﴾!!..

وهذه المقالة الخاطئة الكاذبة لم تصدر إلاّ من أفواه أعداء الإسلام في الغرب؛ ولم يقل بها أحدٌ من المسلمين، إلاّ مَنْ هو خارجٌ عنهم تاركٌ لدينهم، متنكرٌ لهدي نبيّهم ﷺ!!؟..

ولقد ثبتت حجيّةُ السّنّة في القرآن العظيم في آيات عديدة منها قول الله تعالى في سورة آل عمران آية/ ٣١: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتّبِعُوني يُحبِبْكُمُ الله ويغفِرْ لكم ذُنُوبكم﴾، وقوله تعالى في سورة الحشر آية/ ٧: ﴿ومَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومانَهاكُمْ عنهُ فانْتَهُوا﴾، وقد ورد الأمرُ بطاعة رسول الله ﷺ في ثلاث عشرة آية، مقرونةً بطاعة الله تعالى!! وذلك يدلّ على طاعته في أمرِهِ ونهيهِ ﷺ، كما ثبت عنه ﷺ أنّه قال: «ألاَ إنّي أُوتيتُ القرآنَ ومثلَهُ معه، ألاَ يُوشِكُ رجلٌ شبعان على أريكته يقولُ: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحلُّوهُ، وما وجدتُمْ فيهِ من حرامٍ فحرِّمُوهُ، وإنّما حرَّمَ رسولُ الله ﷺ كما حرَّمَ الله..» الحديث أخرجه أحمد في مسنده ج٤/ ١٣٠/ وأبو داود برقم ٤٦٠٤/ والترمذي برقم /٢٦٦٤/ وإسناده حسن. وقول رسول الله ﷺ: «أيحسَبُ أحدُكم مُتكئاً على أريكتهِ يظنُّ أنّ الله لم يُحرِّمْ شيئاً إلاّ مافي القرآن، ألاَ وإنّي والله قد أمرتُ ووعظتُ ونهيتُ عن أشياءَ، إنّها لمثلُ القرآنِ أو أكثر..» الحديث أخرجه أبو داود برقم ٣٠٥٠/ وذكره البغوي في مصابيح السّنّة برقم ١٢٨/ وحسّنَهُ. وقوله ﷺ: «مَنْ أحيَا سُنّةً من سُنّتي قد أُميتتْ بعدي فإنّ لهُ مِنَ الأجرِ مثلَ أُجُورِ مَنْ عملَ بها من غيرِ أن ينقص مِن أجورهِم شيئاً..» الحديث أخرجه الترمذي برقم ٢٦٧٧ وقال: هذا حديث حسن. وقال رسول الله ﷺ: «لايُؤمِنُ أحدُكُمْ حتّى يكونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِما جِئْتُ بهِ»، رواه الإمام النووي في كتاب الحجّة بإسناد صحيح [كما في الأربعين النووية ٤١]. وهذا يعني بقاء سنة رسول الله ﷺ لجميع أُمّته أبدَ الدّهر!!..

وممّا يدلُّ دلالةً صريحةً على ديمومة السّنّة النّبويّة قولُ الله تبارك وتعالى في سورة الحشر آية/ ٧: ﴿وما آتاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوهُ ومَا نَهاكُمْ عنهُ فانْتَهُوا، واتَّقُوا الله إنّ الله شَدِيدُ العِقابِ﴾، وقولُ الله تبارك وتعالى في سورة النساء آية /٦٥: ﴿فلَا وربِّكَ لايُؤْمِنُون حتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينَهُمْ ثم لايَجِدُوا في أنفسِهِمْ حَرَجاً ممّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾، وقولُ الله سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب آية/ ٢١: ﴿لقَدْ كانَ لكُمْ في رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لمَنْ كانَ يَرْجُو الله واليومَ الآخِرَ وذكرَ الله كثيراً﴾، وأخرج الترمذي في سننه برقم ٢٦٧٨: عن أنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله

ﷺ: «يابُنَيَّ إنْ قَدَرْتَ أن تُصْبحَ وتُمسيَ وليسَ في قلبكَ غِشٌّ لأحدٍ فَافْعَلْ!! ثم قال: يابُنَيَّ وذلك من سنّتي، ومَنْ أحبَّ سنّتي فقد أحبَّني، ومَنْ أحبَّني كانَ معي في الجنّة»، وأخرج الترمذي في سننه برقم ٢٥٢٠ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أكلَ طيّباً وعمِلَ في سُنّةٍ، وأمِنَ النّاسُ بَوائِقَهُ دخلَ الجَنّةَ!! فقال رجلٌ: يارسولَ الله! إنّ هذا اليومَ في النّاس لكثيرٌ؟ قال: وسيكُونُ في قرونٍ بَعْدي»!! فهذا برهان صحيح صريح في ثبوت ديمومة السّنةِ في هذه الأُمّة، وأنّها باقيةٌ ثابتةٌ رغمَ أنفِ الجاحدين لها والمنكرين لحجيّتها، ممّن غَمَرَ النّفاقُ قلوبَهم، ولنْ يُضيرَها جَحْدُ الجاحدين لها فهي المصدر الثاني في العقيدة والتّشريع بعدَ القرآن الكريم!!..

ولقد أجمع المسلمون قاطبةً على أنّ السّنةَ النّبويّة المصدرُ الثاني في التشريع الإسلامي، فمَنْ أنكرَ ثبوتَ الأحاديث النّبويّة وحجّيّتَها فقد خرجَ عن جماعة المسلمين، وخلعَ رِبقةَ الإسلام من عُنقِهِ، قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه برقم ٢٣٦٢ و٢٣٦٣: «أنتُمْ أعلمُ بأمْرِ دُنْيَاكُمْ، إذَا أمرتُكُمْ بشيءٍ مِنْ أمرِ دينِكُمْ فخُذُوهُ»، وأخرج البخاري في صحيحه برقم ٧٢٨١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمّتي يدخُلون الجنّةَ إلاّ مَنْ أبَى»، قالُوا: ومَنْ يأبَى؟ قال: «مَنْ أطاعَنِي دَخَلَ الجنّة، ومَنْ عَصَاني فقد أبَى» فَرَافِضُ سُنّةَ رسول الله ﷺ عاصٍ متمرّدٌ، ضالٌّ، وفي الصحيحين: البخاري برقم ٢٦٩٧ ومسلم برقم ١٧١٨: عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أحدَثَ في أمرِنَا هذا ماليسَ منه فهو رَدٌّ»، وفي صحيح مسلم برقم ٨٦٧ عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أمّا بعدُ: فإنّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهَدْي هَدْيُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ»، وفي سنن الترمذي بإسناد حسن صحيح برقم ٣٢٥٣ عن أبي أُمَامَةَ الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَاضَلَّ قومٌ بعدَ هُدىً كانوا عليه [أي السّنّة] إلاّ أُوتُوا الجَدَلَ..»، وفي مسند أحمد ج١/١٢٦/ وسنن أبي داود برقم /٤٦٠٧/ وسنن الترمذي برقم ٢٦٧٦، وقال: حسن صحيح، عن العِرْبَاضِ بْنِ سارية قال: وَعَظَنَا رسولُ الله ﷺ موعظةً بليغةً ذَرَفَتْ منها العُيُون، وَوَجِلَتْ منها القُلُوبُ، فقال قائلٌ: يارسولَ الله كأنّها موعظةُ مُوَدِّعٍ، فأوْصِنَا، فقال: أُوصِيكُمْ بتقوى الله والسّمعِ والطاعةِ، وإن كان عبداً حَبَشِيّاً، فإنّه مَنْ يَعِشْ منكم بعدي فسَيَرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسنّةِ الخلفاءِ الرّاشدينَ المهديين، تمسّكُوا بها وعَضُّوا عليها بالنّوَاجذ، وإيّاكُمْ ومُحْدَثَاتِ الأمورِ، فإنّ كلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ».

والسُّنَّةُ هي:

مانَبَتَ عن رسول اللهﷺ من قولٍ، أو فعلٍ، أو تقريرٍ، أو سيرة. قال الإمام الشاطبي: في الموافقات في أصول الشريعة ج٤/٣: «السّنّةُ: ماجاءَ منقُولاً عن النبيﷺ على الخصوص، ممّا لم يُنَصَّ عليه في الكتاب، بل إنّما نَصَّ عليهِ من جهتِه عليه الصلاة والسلام، كان بياناً لِما في الكتاب..»، وقد بيَّنَ رَسولُ الله ﷺ ماأجملَهُ الله تعالى في كتابه من العقيدة والعبادات والمعاملات، وقد ثبتَ عنه ﷺ أنّه قال: «خُذُوا عنّي مَنَاسِكَكُمْ» كما ثبت أنّه قال ﷺ: «صَلُّوا كما رأيتُمُونِي أُصلّي»!!..

فالكتابُ والسّنّةَ: هُمَا الأصلُ لشرعِ الله تعالى الذي لانقصَ فيه ولاعيبَ، واعتقادُ هذا اعتقاداً جازماً من مقتضيات الإيمان بالله تعالى، والتّسليم بأنّ الكتاب والسّنّة وحيٌ من عند الله تعالى لايأتيه الباطلُ مِنْ بينِ يديه ولا من خلفِهِ، قال الله تعالى: ﴿ومايَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاّ وحيٌ يُوْحَى﴾ سورة النجم آية/٣/ وهذا يعني ضرورة التسليم للقرآن والسّنّة، واتخاذهما ميزاناً للأقوال والأفعال والأفكار في كل زمانٍ ومكان، لمعرفة الحقّ من الباطل، والصحيح من الفاسد، والصواب من الخطأ، وعدم معارضتهما بشيءٍ من الأقوال والمذاهب والآراء والنّظريات، بما في ذلك أقوالنا وأفعالنا وأفكارنا، ومهمّة المسلم في إسلامه تجاه الكتاب والسّنّة هي فَهْمُهُمَا فهماً صحيحاً، وتدبُّرُهُمَا تدبّراً عميقاً، والعملُ بهما والدعوةُ إليهما!!..

ليسَ لمسلمٍ أنْ يُخالف الكتابَ والسّنّة:

وبناءً على الأدلّة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فقد تبيّنَ بكل جَلاء أنّه لايصح لمسلم ـ كائناً من كان ـ أن يُخالف الكتاب الحكيم، ولا السّنّة المطهرة، ولا يسعه ذلك، ومَنْ ذا الذي يُريد أن يستدرك على كلام الله تعالى أو على سنة رسولهﷺ؟ إلاّ كلُّ ضالٍّ مُضلٍّ؟!..

ولقد كان جميعُ الصّحابة والتّابعين وتابعيهم حتى وقتنا هذا يُجمعون على ضرورة المتابعة للكتاب والسّنّة، والالتزام بهما في شؤون العقيدة والشريعة، والآداب والأخلاق، وروى البخاري في صحيحه في مواضع متعدّدة: أنّ عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما إذا سُئلَ عن حكمٍ ما فإنّه كثيراً مايحكي فعلَ النبي ﷺ ثم يقرأ: ﴿لقد كانَ لكُمْ في رسولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كان يرجُو الله واليومَ الآخِرَ..﴾.

قال الإمام الشافعي: ولا أعلمُ مِنَ الصّحابة ولا مِنَ التّابعين أحداً أُخبِرَ عن رسول الله ﷺ إلاّ قَبِلَ خبرَهُ، وانتهَى إليهِ، وأثبتَ ذلك سُنّةً. وقال الإمام الأوزاعي: إذا بلَغَكَ

عن رسول الله ﷺ حديثٌ، فإيّاكَ أنْ تقولَ بغيرِهِ، فإنّ رسولَ الله ﷺ كان مبلّغاً عَن الله تعالى!!/ من مفتاح الجنّة في الاحتجاج بالسّنّة/ ٣٤ـ و٢٠ـ٢١/ وفيه أيضاً ص٤١:
قال الإمام مالك: لاتُعَارِضُوا السّنّةَ، وسلِّمُوا لها. وقال أيضاً: إنّما أنا بشرٌ أخطىءُ وأصيبُ، فانظروا في رأيي، فكلُّ ماوَافَقَ الكتابَ والسّنّةَ فخذُوا به، ومالم يُوافقهما فاترُكُوهُ. ومثل هذا ثبتَ عن الإمام أبي حنيفة، وعن الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله تعالى عنهم جميعاً/ انظر رسالة الإمام السبكي «معنى قول الإمام المطلبي: إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي» ص١٠٣ـ١٠٥/ .

ومن هذا كلِّهِ نخرج بحقيقة واضحة هي أنّه ماكان أحدٌ من السّلف الصّالح يُخالف السّنّةَ برأيه، أو ينظر إليها أنّها لمرحلةٍ زمنيّة مضت وانتهت، بـل كانوا مجمعين على إجلالها وتعظيمها، والأخذ بها، لاعتبارها المصدر الثاني في الإسلام: في العقيدة والشريعة!!! وعلى هذا مضت الأمّة عبرَ تاريخ الإسلام!!!.

وبعد: إنّ جميعَ مافي أيدي الأُمَمِ والشعوب قد دخَلَهُ التّحريفُ والتّزييفُ والتّغييرُ والتّبديلُ، من أهل الكتابين، وسواهم من أصحاب الفلسفات والنّظريات؛ فلم تكن مقاييسُ العلوم عندهم ثابتةً، ولا موازينُها صحيحةً، فكانت على اضطرابٍ وتعارض، واختلافٍ وتناقض!..

أمّاالإسلامُ!! فهو صاحبُ الحقائقِ الثّابتة، والمقاييس الصّحيحة، والأصولِ السّليمة، والقواعدِ المتينة!! وهو الحقُّ الّذي أبقَاهُ الله تبارك وَتعالى على هذا الوجود، فجميعُ الحقائق مستمدّةٌ منه، وقائمةٌ عليه!!..

٩ ـ التّحذير من خطورة القراءة المعاصرة على منهج الصّراع الجدلي الفلسفي

«لو أُتيحَ للمتغيّرات أن تطغَى على الثوابت؛ لأمكنَ تغييرُ الحقائقِ واستبدالُها حسبَ الآراءِ والاتجاهات في كلّ عصرٍ.. وهذا يعني أنْ لابقاءَ للحقائق، وبالتّالي لابقاءَ للوجُود.. فلا وجودَ بلا حقائق..

ولو أُتيحَ للمعاصرةِ التّنكرُ للأصَالةِ، فلَنْ يَبقى للحياةِ ضابطٌ ولارابطٌ.. ولنْ تستقيمَ الحياة بدونِ الضّوابط والرّوابط..

فلابدّ للمتغيِّرات من ثوابت تضبطها وتُحْكِمُ سيرَها.. كما لا بدّ للمعاصرةِ من أصالةٍ تُسَدِّدُها وتصلحُ شأنَها..

لو أبطلَ المسلمون ذلك في علُومِهم ومعارِفِهم وثقافتِهم؛ لأصبَحُوا شيئاً آخرَ..
الإسلامِ..».

«لقد حوت القراءة المعاصرة في [الكتاب والقرآن][1] على أكثر من ثلاثة آلاف أغلوطة، قد صِيغتْ بأسلوب الحكمْة المموهة [السّفسطائية] التي تقوم على المقدّمات المغلوطة، واستخراج النتائج الخاطئة، بطريقة جدليّة يُقصد بها إلزام الخصم وإسكاته، كما يُقصد بها مغالطة المعارض بالوهميات لصرفهِ عن معارضةِ الآراءِ المطروحة. والجدلُ الدِّينيّ الذي سلكه صاحب القراءة المعاصرة هو أحدُ أجزاءِ المنطق. وهو عند أهل المناظرة ليس لإظهار الصّواب، بل لإلزام الخصم ـ وهو حرام في دينِ الإسلام.

والجدلُ في الأصلِ: فنُّ الحوارِ والمناقشةِ، قال الله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والمجادلة هنا لإظهارِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ، وذلك فرضٌ على القادر..

والجدليّ: هو الذي يُحسن السّؤال والجواب. والغرض منه: الارتقاءُ من تصوّرٍ إلى تصوّر، ومن قولٍ إلى قولٍ..

والجدلُ في تصوّر الفلاسفةِ المتأخرين: هو المِرَاءُ المتعلّق بإظهار المذاهب وتقريرها، والتّفنّن في إيراد مالا نفعَ فيه من البياناتِ الدّقيقة..

وقدْ أطلق «كَانْتْ» لفظَ الجدلِ على المقاييس الوهمية، وجعله من القسم الثاني من المنطق المُتَعَالي في كتاب «نقض العقل المحض».

والجدلُ عند «هيجل» هو التّطوّر المنطقي الذي يُوجب ائتلاف القضيتين المتناقضتين واجتماعهما في قضية ثالثة. فالتّطوّر الجدلي عنده هو: تطوّر الفكرة..

---

(١) ظهر كتاب للدكتور المهندس «محمد شحرور باسم الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة» سنة ١٩٩٠م بدمشق، وقد أحدث قلقاً عميقاً لدى عامّةِ المثقفين، وخاصّةِ العلماء والباحثين، ولم يظهر له من يُؤيّده، وظهرت ردودٌ لعدّة باحثين منها ماكان مقالات في المجلات الإسلامية، ومنها ماكان أبحاثاً حول بيان خطر ماجاء في هذا الكتاب الذي اتخذ له صاحبه تسميةً تُغرّر بالمثقفين للاطلاع عليه، وهي تلك التسمية التي وضعت له: «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة»، وفي العام نفسه جاء رَدٌّ في مجلة «نهج الإسلام» التي تصدرها وزارة الأوقاف في «سورية» في العدد «٤٢» ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠/م بعنوان «الخلفية اليهودية لشعار قراءة معاصرة» من «ص١٦ـ٢١» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي جزاه الله تعالى خيراً، حيث أماط اللثام عن الوجه المستعار للقراءة المعاصرة للكتاب والقرآن، ومايُراد منها من تحقيق الهدف اليهودي من تطوير معالم الإسلام.

وعلى هذا المنهج الجدلي أتَى صاحب القراءة المعاصرة في «الكتاب والقرآن» بتطوير مفهوم العقيدة والدِّين، وتطوير مفاهيم أحكامهما، وتحوير قضاياهما، تحت مظلة «الفلسفة» التي مَنَحَها لقبَ «أمّ العُلُوم» ص٤٣..

ـ فقسَّمَ القرآنَ إلى قرآنين: قرآن نبوّة ـ لاإلزام فيه ـ وقرآن رسالة ـ أحكامُهُ ملزمةٌ ضمن دائرة التّطوّر الحركي لكل أمّة في كل زمان..

ـ ثم فرّقَ بينَ «الكتاب» وبين «القرآن» بعد تجريدهما من مدلولهما الثابت، وإعطاء كلٍّ منهما معنىً متطوّراً لم يُعرفْ من قبل..

ـ كما فرّقَ بينَ «القرآن» وبينَ «كلام الله تعالى» بدلالات التطوّر الجدلي، ووَضعَ لكلٍّ منهما الدلالات المستنتجة ضمن «ثبوت النّصّ» و«حركية المضمون»؛ فجاءَ بالفوَارق المفارقة لكلِّ الدلالات الثابتة الصحيحة المجمع عليها على مدى تاريخ الإسلام..

ـ ثم جاءَ بدلالات التّطوّر الجدلي ليَضَعَ الحُدُودَ والتّسمياتِ المستحدثة ـ على الطريقة المنطقية لمفهوم المعاصرة والتجديد ـ للعبادات والمعاملات، بما لاتعهده لغة العرب ولا الاصطلاحاتُ الفنّيّة في العلوم الشرعية..

ـ كما تناول صاحب «القراءة المعاصرة» الحديثَ عن «علم الله تعالى» واكتسابه وتطوّره وتجدّده، ووضعَ له برمجةً خاصّةً وحديثةً جداً؛ وفق أحدث طرق البرمجة «للكمبيوتر»..

ـ كما صوّر معانيَ «نزول» و«تنزّل القرآن» على أحدث وسائل النقل والبثّ «التلفزيوني».

ـ كما جرّد صاحب القراءة المعاصرة كافَّةَ أهل العلم على مدى تاريخ الإسلام عن أهلية فهم الإسلام «كتاباً وقرآناً، ونبوّةً ورسالةً، وفقهاً ودرايةً» ووصمهم بتعطيل العقل والقضاء على الفكر، إلى أن أوصلوا الإسلامَ «دينَ نقلٍ لادينَ عقلٍ» كان عبئاً ثقيلاً على الأمّة ص٢٠٩..

ـ كما منحَ «الفلاسفةَ» الأقدمين، والمعاصرين، وعلى رأسهم «هيجل» و«كَانْتْ» و«فرويد» و«داروين» وأمثالهم، لقبَ «الراسخين في العلم» الذين يخشون الله تعالى، وأنّهم هم الذين يعلمُون تأويلَ القرآن، وأن «دارون» هو أفضل من فسّر آيات «خلق آدم» ص١٩٤ـ١٩٥..

ـ ثم شبّه صاحب القراءة المعاصرة كُتُبَ الحديث النّبويّ الشريف «صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والسنن الأربعة» بأناجيل النّصارى..

- ثم حكم على احاديث رسول الله ﷺ بأنّها «التفاعل الأول» للإسلام في القرن السابع الميلادي، وأنّ هذا التفاعل غير صالح لهذا العصر؛ فعطّلَ المصدر الثاني في التشريع الإسلامي المجمع عليه لدى الأمة الإسلامية قاطبةً..

- كما حكم صاحب القراءة المعاصرة على رسول الله ﷺ بأنّه لايعلم تأويل جميع القرآن، إذْ لو كان يعلم تأويله كلَّه لكان شريكاً لله.. في حين أثبتَ معرفة تأويله لـ«كَانْتْ وهيجل وداروِن» وأمثالهم..

- كما حكم صاحب القراءة المعاصرة على «كتب التفسير» بأنّها مرحلة تاريخية «ليست أكثر من تفاسير تاريخية مرحلية للقرآن، لها قيمة تاريخية، لأنّها نتاج أشخاص عاشوا منذ قرون» ص١٩٤..

- كما حكم بالخطأ على القول بـ«تحدِّي القرآن للعرب» ص١٩١..

- كما زعم أنّ القرآن لايحتوي على مواضيع تشريعية ص١٩٠..

- وأنّ النبوّة فيها قوانين الحق والباطل التي تنطبق على كل إنسان شاء أم أبى، وجاءت بصيغة متشابهة «تغيّر المحتوى، وثبات النّص، ونسبية الفهم» ص١٩١..

هذه أمثلة ممّا ورد في «القراءةُ المعاصرة في الكتاب والقرآن» للدكتور المهندس «محمد شحرور» وللتنبيه إلى خطورة مقالاته التي غالط بها القراء في الاستشهاد عليها بالآيات القرآنية والتأويل المغلوط لمعانيها، والتحوير المتعمّد لدلالاتها، وتحميلها من المعاني المتكلّفة مالا تحتمله، إلى غير ذلك ممّا ينقضه المنهج العلمي الصحيح ويُبطله؛ نُقدِّمُ هذه الكلمات:

١ - إنّ الحقَّ إذا جُحِدَ وعُورِضَ بالشّبهات أقامَ الله تعالى مايُحقّ به الحَقَّ، ويُبطل به الباطل من الآيات البيّنات، بما يُظهره من أدلّةِ الحقّ وبراهينِهِ الواضحة، وفسادِ ماعرضه من الحجج الداحضة!.

٢ - مهما يكن للمبطل قدرةٌ على مقاومة الحقائق بالسفسطة، فإنّ من أساليبِ البرهانِ مالا ينفعُ معه سفسطةٌ ولا يأتي عليه سحرٌ، ولا تدفعُهُ حيلةٌ؛ فالحقُّ أكبرُ من أن يُكافَحَ، ولئن ثبتَ الباطلُ أمامَهُ مرّةً، فقلّما يثبتُ أُخرى، ومآلُهُ إلى الفرارِ على كلِّ حال!.

٣ - إنّ هدفَ التّلفيقِ بينَ المفاهيمِ الإسلاميّةِ التي جاءَ بها القرآنُ الكريمُ والسّنّةُ النبويةُ، وبينَ النظرياتِ الحديثةِ «الاستشراقيّةِ» القائمةِ على أساسِ «الجدليّةِ» هدفُها «هدمُ الإسلامِ من الدّاخل».

٤ ـ إنّ تطبيقَ «المنطقِ الجدلي» على الشريعةِ الإسلاميّة يعني تجريدَهَا من جميعِ خصائِصِها التي امتازتْ بها على مدَى القُرونِ الخَوالي في تاريخِ الإسلام.

٥ ـ الجدَلُ فرعٌ من العلوم الفلسفيّة اليونانية، قائمٌ على المنطق، مبنيٌّ على السفسطة، وهي ماكانت موادّها مموّهة بشُبَه الحقّ، ورَوَاجُ هذا يكون عندَ مَنْ هو أبعد النّاس عن العقل والدِّين، كالقرامطة الذين رَكَّبُوا مذهبَهُمْ من فلسفة اليونان ودين المجوس.

٦ ـ مِنَ النّاس من يحسَبُ أنّ الرّدَّ على المبطلين ضَرْبٌ من العَبَثِ، وإنّما هو فضيحةٌ لمذهبهم، وتشهيرٌ لرأيهم، على غير جدوى إذا أصبحوا لاينفع فيهم القولُ، وهذا رأي مَنْ لاخِبْرَةَ له بالشرع، ولادراية عنده بتأثير القول؛ فأمّا الفضيحة فلو كان في اتقائها خير بإطلاق لتعطّلَ الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وأيّ شرع أم أيّ عقلٍ يأمر باتّقاء الفضيحة في درء المفاسد؟! ومع ذلك فأيّ عورة مستورة من أهل الباطل حتى تتقى الفضيحة من كشفها؟! وأمّا عدم نفع القول مع أهل الباطل فمن المكابرة في الواقع، وهل كان كونٌ أو فسادٌ في بداوةٍ أو حضارةٍ إلاّ بفعل العقول من تأليف وتنفير وتحذير، إلى غير ذلك من فنون اللسان وضروب البيان؟ وهل كُتُبُ الله تعالى تنزّلتْ إلاّ بالبيان؟ وعلى هذا فإنّه ليس شيءٌ من عظائم الأمور إلاّ وهو غرسِ اللفظ وحصيد النّطق!! ورُبَّ رجلٍ يتكلّم بكلمةٍ لايُؤبه لها في جيلِهِ، فتُثْمِرُ في جيلٍ آخر، فادّعاءُ أنّ المبطلين لاينفعُ فيهم الكلام جهالة وقلّة دراية.

٧ ـ إنّ السّكُوتَ عن بِدَعِ المفسدين وضلال المضلّين وتأويل المنحرفين ذُلٌّ ومَهَانَةٌ وخُضُوعٌ واستكانةٌ، فلابُدّ مِن كشف أمرهم وإظهار حقائقهم، وبيان مقاصدهم؛ فإنّ الإسلامَ كانَ ولازالَ أبَدَ الدّهرِ يرفعُ أهلَ الحقّ، ويعزُّهم!! ويخفض أهلَ الباطلِ ويُذلُّهم!! . .

٨ ـ الحقُّ كالذهب الخالص، كلّما أُجريَ عليه الامتحانُ ازدادَ جودةً، والباطلُ كالمغشُوش المغشى إذا امتُحِنَ ظهرَ فسادُهُ؛ فالدِّينُ الحقُّ والعلمُ الحقُّ كلّما نظرَ فيه النّاظرُ، ونَاظَرَ عنه المُنَاظِرُ، ظهرتْ له البراهينُ، وقويَ به اليقينُ، وازدادَ به إيمانُ المؤمنين، وأشرقَ نورُهُ في صدور العالمين!! والدِّينُ الباطلُ والعلمُ الباطلُ إذا جادَلَ عنه المُجَادِلُ ورَامَ أن يُقيمَ عُودَهُ المائل، أقامَ الله تعالى مَنْ يقذفُ بالحقّ على البَاطِلِ فيدمغُهُ فإذا هو زاهقٌ!! ويبيِّنَ أنّ صاحبَهُ الأحمقَ كاذِبٌ مائن، وظهر فيه من الفسادَ والتناقض والإلحاد، والضّلال والجهل، مالم يعرفْهُ أكثر العباد، وتلك سنّةُ الله تعالى في هذا الوجود!! . .

٩ ـ ومَنْ قامتْ عليه حُجّةٌ بيّنةٌ في مسألةٍ قد عُلِمَ ضلالُهُ فيها؛ لو قال: أنا لاأقبلُ حتى تقومَ عليَّ حُجّةٌ ثانية وثالثة، كان مكابراً ظالماً معتدياً، ولم يُجَبْ إلى طلبه، ولايُمكنِ للحاكم إذا قامت البيّنة بحقِّ المدّعي إلاّ أن يحكم له بها، فلو قال المطلُوبُ: أريدُ بيّنةً ثانيةً وثالثةً ورابعةً، لم يُجبْ إلى ذلك، فحقُّ الله تعالى الذي أوجبه على عباده من اتباع هديه على مابيّنَهُ رسولُهُ ﷺ أولى إذا قامتِ البيّنةُ على ثُبُوتِهِ، ومَنْ لم يُسلِّمْ به لايُجَابُ إلى بيّنةٍ ثانية وثالثة؛ فهو إمّا زنديقٌ مكابرٌ، أو أحمقٌ فاجرٌ!!..

١٠ـ إنَّ الذي يحتاجه الباحثون هو «العُمْقُ الفكري» الذي يُوضِّحُ الحقائقَ ويُجلّيها، فإنَّ السّطحيةَ التي يتّسمُ بها غالبُ الكتّاب والمؤلّفين، هي السبب في الضّياع الفكري، ولاأخطرَ منه على العقل البشري من أيِّ سببٍ من أسباب الشتات والضّياع!!..

١١ـ إنّ علم أصولِ الفقه في الإسلام أغنى العقلَ البشريَّ بضوَابط الاستدلال التفصيلية، كما أغناهُ بالأُسس الثّابتة للمنهجِ الاستقرائي التجريبي، الذي لولاه لسقطَ العلمُ في العَالَم الإسلامي، وَلتأخّرَتْ نهضةُ أوروبّا العلمية الجديدة قروناً!! فَمَنْ يجهلُ علمَ أصولِ الفَقه لاثقة بعلومه، فهو العلمُ الوحيدُ الفريدُ الذي خصَّ الله تعالى أُمّةَ الإسلام به من سائر أُمم الأرض، فلم يُوجد إلاّ بعد نزول القرآن العظيم، وورود بيانه من سنّة رسول الله الكريم ﷺ، وفهم السّلف الصّالح لآيات الله تعالى ولأحاديث رسولهﷺ، وتطبيق أحكامهما، وسلوك منهجهما، والتزام ضوابطهما، ولزوم توجيههما!!..

فأصولُ الفقه «أُمُّ العلُوم الشّرعية» وهو الأصلُ فيها، وهو العاصم من كلِّ انحرافٍ في الفهم والتّفكير، وهو الضّابط لجميع الحقائق واستدلالاتها، وهو الآلة في بيان المعاني وإظهار المقاصد، وتوضيح الدّلالات، وكشف مبهماتها؛ فهو علمٌ في قواعد التفسير والاستنباط من دلالاتِ النّظم القرآني، ففيه البحثُ عن الأساليب العربية في الخطابات، من الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمترادف، والحقيقة والمجاز والصريح والكناية والتعريض. والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، والإعجاز القرآني، ووجوه المخاطبات وأنواع السؤالات والجوابات.

وعلمٌ في قواعد التفسير والاستنباط في وضوح الألفاظ القرآنية، ففي واضح الدَّلاَلة يأتي البحثُ في الظاهر والنّصّ والمفسّر والمحكم. وفي مبهم الدَّلاَلة يأتي البحثُ في الخفي والمشكل والمجمل والمتشابه. وفي البحث عن دلالة الألفاظ على الأحكام يأتي البحثُ عن دَلاَلَة العبارة ودلالة الإشارة ودلالة النّصّ ودلالة الاقتضاء.

وعلمٌ في قواعد التفسير والاستنباط في حالات شمول الألفاظ القرآنية، فيُبحَثُ فيه عن العامّ والخاصّ وصيغهما ودلالتهما، وعن المشترك وأسباب وجوده ودلالته.

كما يختصُّ في البحث عن إزالة أوجه التّعارض أو التوفيق فيها، أو الترجيح بينها.

فهذا العلمُ الأصيلُ هو المدخلُ إلى الدراسات القرآنية خاصّة والإسلامية عامّة. فمَنْ جهله لايحقُّ له البحثُ في القرآن العظيم والسّنّة المطهرة.

وبالتّدقيق والتّحقيق تبيّنَ بعد دراسةِ ماسُمّي بـ«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» أنّ أبحاثَه مخالفةٌ كلّ المخالفةِ لعلم الأصول وقواعد الاستنباط ومنهج المعرفة في الإسلام؛ ممّا يُعتبر من الضَّوَابط الثَّوَابت التي يستحيل أن يطرأ عليها تبديلٌ أو تغييرٌ أو تحريفٌ أو تزييفٌ، لصلتها الوثيقة المتينة بأصل الإسلام «القرآن والسّنّة» وإنّ كلّ محاولة يُقصد بها النَّيلِ من هذا العلمِ الشامخ الراسخ السّامي الأصيل مآلُها الخيبةُ والفشلُ الذريعُ، والعاقبةُ الوخيمةُ، والضّلالُ المشينُ.

وجميع أبحاث كتاب «القراءة المعاصرة» قد صِيْغَت على غير منهجٍ إسلامي، فقد أتت متتابعةً وفْقَ أغلوطاتٍ منطقيةٍ وتوهماتٍ فلسفيّةٍ وظنّياتٍ فَرَضِيَّةٍ، وتأويلاتٍ غريبةٍ وعجيبةٍ، ومفَاهيمَ مصطنعةٍ، ودَلالَاتٍ متكلّفَةٍ، وتصوّراتٍ خياليّةٍ، ومَضَامينَ مستوردةٍ «غربيّةٍ استشراقيّةٍ».

وإنّ الأُسس التي قامت عليها دراسة أبحاث: «القراءة المعاصرة في الكتاب والقرآن» كمَنْ يُريدُ أن يُقيمَ دراسةً عن «المِلاَحةِ» بعلم «الفِلاَحةِ»، أو كمَنْ يدرسُ علمَ الهندسةِ بعَبَثِ الهَلْوَسةِ، أو كمَنْ يطلبُ علمَ الطِّبَابة بالكَهَانَةِ.

ثم إنّ حقائقَ القرآن العظيم لاتُدْرَكُ بأوهامِ الفلسفَةِ، ولاتُسْتَخْرَجُ بِمُقَدِّمَاتِ المَنطِقِ، ولاتُفْهَمُ بأساليبِ الجَدَلِ السُّفُسْطَائي، بلْ لها طريقتُها المتميّزةُ التي سارتْ عليها أُمّةُ الإسلام على مدَى خمسةَ عشر قرناً من الزمان!! في مشرق الأرضِ ومغربها.. على الرغم من اختلاف الأزمنة وتباين الأمكنة، فلم يُسجّلِ التاريخُ قِيَامَ دراسةٍ على غرار «القراءة المعاصرة» التي أُلبِسَتْ مُسُوحَ الإسلام من البَرِيطان!؟..

لهذا يجبُ على صاحب «القراءة المعاصرة» العودةُ إلى أصل المنهج الإسلامي الذي سلكه أكابرُ علماء الأُمّة وجهابذتُها، وأفاضلُ مفكّريها وساداتُها، وأنْ يدعَ عنه هَوَاجِسَ المستشرقين، ووَسَاوِسَ النّظريين، وتخيّلاتِ الوَاهِمين.

ملاحظة هامة:

يجبُ التّنبيه إلى الحذر من القراءة في كتاب «القراءة المعاصرة» للدكتور محمد شحرور للأخطار الفادحة التي تلحق قارئه، فقلَّ من القرّاء والمثقفين من يستطيعُ كشفَ الطريقة التي سارتْ عليها أبحاثه، وهي كما وصفتُها «تقوم على منهج جدلي فلسفي»، وهي تشكل خطورةً بالغةً على عقيدة المسلم وثقافته ومعرفته، أضفْ إلى تلك الطريقة المخادعة في: «الإحراج في العلم»، فتراه يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية، ولكن مع تأويلها تأويلاً رمزيّاً، أو تأويلاً منحرفاً مغلوطاً، مخالفاً لأصول التفسير وقواعد التأويل، ولضمان جانب القارىء من الموازنة مابين ماذكره في «القراءة المعاصرة» وبين كتب التفسير، يطعن بجميع المفسرين، بل بجميع علماء المسلمين قديماً وحديثاً!! ففي ص١١٥ يقول: «إنّ التِّيهَ الأكبرَ في كتبِ التّفاسير..».

وبما أنّ منهجَ الكتاب قائمٌ على الفلسفة فإنّه يصعبُ على من لايعرف مَدَاخِلَها ومَخَارِجَها، وجبَ توقّي الوقوع في شِراكها، بل قد رأينا شباباً مثقفين قد وقعوا في شراك أغلوطاته، فيجبُ التّنبّهُ لذلك..

وإنّه ليجعلُ الفلسفةَ رأسَ الأمر في كتابه، ففي ص١٠٣ يقول: «والقرآن حقيقة موضوعية مطلقة في وجودها خارج الوعي الإنساني، وفَهْمُ هذه الحقيقة لايخضع إلاّ لقواعد البحث العلمي الموضوعي، وعلى رأسها «الفلسفة»!!؟..

وفي ص٤٢ يدعو إلى فلسفة إسلامية معاصرة، وفي ص٤٣ يزعم أنّ الفلسفة «أمُّ العلوم»!؟..

وإنّ أخطر مافي منطق الفلسفة «قياس الإحراج» وهو كثير الاطراد في كتاب «القراءة المعاصرة». وقياس الإحراج تكون إحدى مقدماته قضية عنادية ذات احتمالين، وتكون الأخرى دالّة على أنّ كلَّ احتمال من هذين الاحتمالين يتضمّن النتيجة نفسها، وهو قياس مزدوج، أو قياس ذُو حدّين، يُخْرِجُ الخصمَ ويُلْزِمُهُ بقبول النّتيجة. وهو يُطْلَقُ على الاستدلال الذي يكون فيه التقابل بين قضيتين متناقضتين، لأنّ إحداهما إذا كانت صادقة كانت الأخرى كاذبة، والعكس بالعكس.

وأوضح أشكال الإحراج: أن يجعل الخصمُ القضيةَ التّبادلية أو العنادية مشتملةً على حدّين متناقضين، بحيث يُؤدّي إثباتُ أحدهما إلى إبطال الآخر، مثال ذلك:

قول دعاة التّطوّر: إمّا أن يكون الدِّين واجباً أو لايكون واجباً، فإن كان واجباً عليه أن يسمح بالتّغيير، فإنْ لم يسمح فلا قيمة له.

ويظهر هذا في قول المستشرقين ودعاة التّطوير والتّغيير، وأصحاب المعاصرة: إنّ

على الإسلام إمّا أن يعتمد تغييراً جذرياً، أو أن يتخلّى عن مسايرة الحياة [انظر كتاب: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري/ للدكتور محمود حمدي زقزوق/ طـ دار المنار ـ القاهرة].

١٠ـ قراءة أصوليّة للمنهج الجدلي الفلسفي

يقوم منهجُ الجدل عند أهل الزيغ على معارضة آيات الله تعالى بآرائهم، وتقديم قول الفلاسفة على قول الرسول ﷺ، وهذا مذهبِ الجهميّة قديماً، وأصحاب «التّطوّر والارتقاء» حديثاً. وإنَّ أصْلَ كلِّ شرٍّ هو معارضةُ القرآن بالرأي، وتقديمُ الهوَى على الشرع. وهذا واقع الجدل الفلسفي القائم عليه القراءة المعاصرة للكتاب والقرآن!؟.[1]

إنّ الله تعالى أرسلَ رسولَه محمّداً بالهُدَى ودين الحقِّ لِيُظهِرَهُ على الدِّين كلِّه ولو كَرِهَ الكافرون!! فالمتّبِعُونَ له والمُقْتَدُونَ بسنّتِهِ هم أهلُ الهُدَى والفلاح، والمُعْرِضُونَ عن ذلك هم أهلُ الشّقَاءِ والضّلال.

كما قال الله تعالى: ﴿ومَنْ أعرضَ عَن ذِكْرِي فإنّ له معيشةً ضَنكاً ونحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعمَى. قالَ ربِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وقَدْ كُنْتُ بصيراً؟! قالَ كذَلِكَ أتتْكَ آياتُنا فنسيتَها وكذلِكَ اليومَ تُنْسَى﴾ [سورة طه آية ١٢٤ـ١٢٦].

وقد أخبَرَ الله تعالى عن أهل النّار أنّهم إنّما دخلُوها لمخالفةِ آيَاتِهِ وهدي رسولِهِ ﷺ، قال سبحانه: ﴿وسِيقَ الّذينَ كفرُوا إلى جهنّمَ زُمَراً حتّى إذَا جاؤُوها فُتِحَتْ أبوابُها وقالَ لهم خَزَنَتُها ألَمْ يأتِكُمْ رسلٌ منكُمْ يتلُونَ عليكُمْ آياتِ ربِّكُمْ ويُنْذِرُونكُمْ لِقَاءَ يومِكُمْ هذا؟! قالُوا بلى، ولكنْ حقّتْ كلمةُ العذابِ على الكَافِرِينَ﴾ [سورة الزمر آية/ ٧١].

ومعلوم أنّ رسولَ الله ﷺ خاتم الرُّسل، جاء مصدِّقاً لِما بعثَهُمُ الله به من الهُدَى والحقِّ. وإنّ ماجاءَ به هؤلاء جميعاً يتضمّنُ الأمرَ والنهي، والحلالَ والحرامَ، والطاعةَ والعبادةَ، والمتّبع لذلك من أهل السّعادة، والمخالفُ لذلك أو المعارضُ له برأيه وهَوَاه، أو بآراءِ غيره وأهوائِهم، هو من أهل الشَّقَاوَة.

ولهذا كان ضلالُ مَنْ ضلَّ من أهل الفلسفة والجدل بما عارضوا به كتابَ الله تعالى وسنّةَ رسولِه ﷺ بآرائهم وأهوائهم. والمقصود هنا كما قال الله تعالى: ﴿مايُجادِلُ في آياتِ الله إلاّ الّذِينَ كَفَرُوا فلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ في البِلَادِ﴾ [سورة غافر آية/ ٤] إلى قول الله تعالى: ﴿وجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدحضُوا بِهِ الحَقَّ فأخَذْتُهُمْ فكيفَ كانَ عِقَابِ﴾؟! ولهذا حذّرَ رسولُ الله ﷺ أُمّتَهُ مَنَ الجدل في القرآن، فقال: «الجِدَالُ في القرآنِ كُفْرٌ» [صحيح

---

(١) كما تقدمت الإشارة إليه

الجامع الصغير برقم ٣١٠٦] وفي رواية أخرى: «المِرَاءُ في القرآنِ كُفْرٌ» [برقم ٦٦٨٧].

ومن المعلوم أنّ كلَّ مَنْ عَارَضَ القرآنَ وجادَلَ في ذلك بعقله ورأيه، فهو داخلٌ في ذلك، وإن كان يزعم أنّه يُريد دراسةَ القرآن، بل إذا قال مايُوجب المِرْيَةَ والشّكَّ في كلام الله، فقد دخل في ذلك، فكيف بمن يزعم أنّ مايقوله بعقله ورأيه مقدَّمٌ على نصوص الكتاب والسّنّة؟! وكيف بمن يزعم أنّ القرآن ليس كلام الله، وأنّ كلام الله هو الكون؟! وكيف بمن يزعم أنّ آيات الأحكام: آيات الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والإرث، ليست من كلام الله؟؟!! كما يزعم ذلك الدكتور «شحرور»؟!..

قال الله تعالى: ﴿إنّ الذين يُجادِلُونَ في آيَاتِ الله بغيرِ سُلْطانٍ أتاهُمْ إنْ في صُدُورِهِمْ إلاّ كِبْرٌ ماهُمْ ببالِغيهِ﴾ [سورة غافر آية/٥٦]، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آيَاتِ الله بغيرِ سُلْطانٍ أتاهُمْ، كَبُرَ مَقْتاً عندَ الله وعندَ الَّذِينَ آمَنُوا!! كذلِكَ يطبَعُ الله على كلِّ قَلْبِ متكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [سورة غافر آية ٣٥].

والسُّلْطانُ: هو الكتاب المنزَّلُ من السماء، كما ذكر ذلك الطبري في تفسيره ج٩/ ٣٣٧/ وذكر أنّه الحُجة/ج٧/ ٢٧٩ وج٩/ ٣٣٦] وفي تفسير القرطبي ج٤/ ٢٣٣: «سلطاناً أي: حُجَّةً وبَيَاناً، وعذراً وبرهاناً».

وممّا يُبَيّنُ أنّه لايجوز معارضة كتاب الله تعالى بغيره مهما كان، فكتابُ الله تعالى فوقَ كلِّ كتاب!!!..

وكتابُ الله تعالى: خبرٌ عمّا يحبه ويرضاه، وعمّا لايحبه ولايرضاه، وهو أيضاً خبر عن صفاته وأفعاله سبحانه، كما أنه أمرٌ ونهيٌ. أمّا الخبر فلا يجوز أن يتناقض، ولكنِ قد يُفَسِّرُ أحدُ الخبرين الآخرَ ويُبيِّن معناه. وأما الأمر والنهي فيدخلهما النّسخ، ولايُنْسَخ ماأنزل الله إلاّ بما أنزلَهُ الله، فمَنْ يُريد أن ينسخَ شرعَ الله الذي أنزله برأيه وهَوَاه كان ملحداً، وكذلك من دفعَ خَبر الله برأيه ونظريته كان ضالاًّ، قال الله تعالى: ﴿ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترَى على الله كَذِباً أو قالَ أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليهِ شيءٌ، ومَنْ قال: سأُنْزِلُ مِثْلَ ماأنزل الله﴾ [سورة الأنعام/ ٩٣]، فذكر سبحانه من يفتري الكذب على الله!؟ ومن يزعم أنّ كلامه مثلَ كلام الله الذي أنزله.

وهذا الأصل هو ممّا يُعلم بالضّرورة من دين الله تعالى من حيث الجملة؛ يعلمُ أنّ الله تعالى إذا أرسل رسولاً، فإنّما يقول مايُناقضُ كلامَهُ ويُعارضُهُ مَنْ هو كافر، فكيف بمن يُقَدِّم كلامَهُ على كلامِ رسوله ﷺ؟!..

وأمّا المؤمنون فإنّهم لايُقَدِّمون أقوالَهُمْ على قوله، بل قد أدّبهم الله تعالى بقوله:

﴿لاتقدّموا بينَ يَدَي الله ورسولِهِ﴾ [الآيات من سورة الحجرات/ ١].

ولكنّ بدع الفلاسفة والجدليين مخالفة لكتاب الله تعالى ولسنة رسوله ﷺ وهي من شعب الضلال، فكيف بمن يزعم أنّ الفلسفة أم العلوم، ويُريدُ أن يُفسِّرَ بها كلامَ الله تعالى؟!..

وإذا كان أصل معارضة كلام الله تعالى بقول فيلسوف، أو بكلام جدلي، ضلالٌ؛ عُلِمَ أنّ منهجَهُمْ كلَّه باطلٌ!!..

وهذا ممّا ينبغي للمؤمن أن يعلمه ويحذره أشدَّ الحَذَرِ!.

ومعلومٌ أنّ مَنْ زعمَ أنّ العقلَ الصريحَ الذي يجب اتّباعه يُناقضُ ماجاءَ به رسول الله ﷺ، فقد بغَى سبيلَ الله عِوَجاً؛ أي طلبَ لها العِوَجَ، فإنّه طلب أن يُبيّن اعوجاج ذلك وميله عن الحق، وأنّ تلك السبيل الشرعية السمعية المروية عن رسول الله ﷺ يراها لاتصلح لهذا العصر، وأنّ السنّة النبوية كانت لأهل القرن السابع الميلادي في شبه جزيرة العرب، وأنّ ماجاء به من فلسفة وجدلٍ هو السبيل المستقيم؛ فإنّا نقول له: مِنَ المعلوم أنّ الله تعالى أخبرَ أنّه أرسل رسوله ﷺ بالهُدَى والبيان ليخرج النّاس من الظلماتِ إلى النّور، فقال سبحانه: ﴿هو الذي أرسلَ رسولَهُ بالهُدَى ودينِ الحقِّ﴾ [سورة التوبة آية/ ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وإنّك لتهدِي إلى صراطٍ مستقيمٍ. صِرَاطِ الله الذي له مافي السّمواتِ ومافي الأرض﴾ [سورة الشورى آية٥٢ـ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ الله نورٌ وكتابٌ مُبينٌ. يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهُمْ مِنَ الظلماتِ إلى النّورِ بإذنِهِ ويهديهم إلى صِرَاطٍ مستقيمٍ﴾ [سورة المائدة آية/ ١٥ـ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليكَ الذكرَ لِتُبيِّنَ للنّاس مانُزِّلَ إليهِمْ﴾ [سورة النمل آية/ ٤٤]، فهل هناك نورٌ غيرُ نورِ الله تخرجهم إليه؟ وهلَ أنتَ أهدَى من رسول الله حتى تتولّى بيانَ القرآن بدلاً عنه؟! ومَنْ يزعمُ ذلك فهو مّدعٍ للنّبوّة، أو يزعم لنفسه مقَامَها، وهذا شبيهٌ بدعوى «مسيلمة الكذاب» ومَنْ على شاكلته من الكذّابين الضّالّين؟!..

ومِنَ المعلوم لعامّة المسلمين أنّ مدّعي ذلك مضادٌّ للرسول ﷺ، وهذا من أشدّ المخالفة له ﷺ، وهو من أقبح الكفر!! ومن المعلوم أنّ أقوال الفلاسفة المناقضة لدين الإسلام هي التي تغرّر بمعارضة الرسول ﷺ وبمخالفته، وهذا هو المعروف عنهم قديماً وحديثاً!.. كما أنّ المعلوم عن الفلسفة أنّها مخالفةٌ لِما جاء به رسول الله ﷺ، والفلاسفة لايشهدون له بالنّبوّة والوحي، وإنّما يقول: بأنّ له قوى نفسانية بلغ بها تلك

المرتبة، فهم لايؤمنون بالوحي ولا بجبريل عليه السلام، بل لايؤمنون بالغيب الذي أخبر الله تعالى عنه في كتابه، فهم عقلانيون، يقولون بالظَّنّ والهَوى، وهم أجهل النّاس بما جاءت به رُسُلُ الله تعالى من الهدى والدِّين القويم. وأصل الإلحاد والكفر بالله هو معارضة ماجاءت به رُسُلُ الله تعالى بالعقول والآراء والظنون.

ومأشبه الجدلي المغالط في تفسير كلام الله تعالى وتأويله، والمكذّب بحديث رسوله بالجدليّ من «الجهمية المعطلّة للقرآن والسنّة»!! فإنّ مذهبَهم واحدٌ وإنِ اختلفتْ أشكالُهُمَا؛ فقد كان بعضُ رؤوس «الجهمية» يقول: ليس شيءٌ أنقضَ لقولِنَا مِنَ القرآنِ، فأقرُّوا بهِ في الظاهر، ثمَّ صَرِّفُوهُ بالتّأويل.. وإذا احتَجُّوا عليكم بالحديث فغالِطوهم بالتكذيب، وإذا احتجُّوا بالآياتِ فغَالِطُوهُمْ بالتّأويل.

ولهذا تجدُ الواحدَ من هؤلاء ـ قديماً أو حديثاً ـ لايحبُّ تبليغَ النُّصُوصِ النّبويّة، بل قد يختار كتمانَ ذلك والنهيِ عن إشاعته وتبليغه، أو تكذيبه وتشكيك النّاس به، خلافاً لِما أمَرَ الله تعالى به ورسولُهُ من طاعة الرسول ﷺ والتبليغ عنه؛ كما قال ﷺ: «بلِّغوا عنّي ولو آية» [صحيح الجامع الصغير/ رقم ٢٨٣٧] وقال ﷺ: «ليُبَلِّغ الشّاهِدُ الغائِبَ» [صحيح البخاري: كتاب العلم/ وصحيح مسلم: كتاب الحج]، وقال ﷺ: «نَضَّرَ الله امْرَءاً سَمِعَ منّا حَديثاً فبلَّغَهُ إلى مَنْ لمْ يَسْمَعْهُ، فرُبَّ حَامل فِقْهٍ غيرِ فقيهٍ، ورُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هو أفْقَهُ منه» [مسند أحمد ج٣/ ٢٢٥] والترمذي: في كتاب العلم/ وهوَ حديث صحيح].

وقد ذَمَّ الله تعالى في كتابه الذين يكتُمُون ماأنزلَ الله من البيّنات والهدى، والذين لايتّبعون رسولَهُ ﷺ، وهؤلاء ـ قديماً وحديثاً ـ لايُحِبُّون السّنَّةَ النّبويّةَ، لأنّها معارضةٌ لأهوائهم وآرائهم، وفيهم قال الصحابي الجليل عبدالله بن عمر بن الخطاب: إيّاكم وأصحابَ الرأي، فإنّهم أعداءُ السُّنَن.. وكذا قال أبوه عمر بن الخطاب: إيّاكم والرأي، فإنّ أصحاب الرأي أعداء السُّنَن.. [وهذه الآثار في غاية الصحة/ انظر الاعتصام للشاطبي ص١٢٣ـ١٢٤ـ ط المنار].

وليس أحدٌ أعجبَ برأيهِ من أصحابِ الجدل الفلسفي، الذي يرى رأيَهُ في قمة الحقائق، والواقع أنّ رأيَهُ من خرافاتِ الأساطير!!..

[وسيأتي الكشفُ عن هذه الآراء الجدلية المخالفة للكتاب والسّنّة وإجماع الأُمّة في الفصل السابع/ البحث السابع: انحراف أصحاب القراءة المعاصرة للكتاب والقرآن].

١١ـ المنهج العلمي في تفسير آيات الكون والحياة

في هذا الاتجاه يضع القرآن الكريم منهج عمل في الكشف عن سنن العالم والحياة، ونواميس الكون، وهو منهج شامل مرن لا يخضع لتقلبات الزمان والمكان لأنه ليس مجرد طريقة أو أداة للبحث والتنقيب، ومن ثم فإنه يعلو على المتغيرات النسبية ويظل ساري المفعول في أي عصر وفي أية بيئة.

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصّر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق (النظر الحسّي) إلى ماحولهم، ابتداء من مواضع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون.. وأعطى (للحواس) مسؤوليتها الكبرى عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب.. قال له: ﴿ولاتقفُ ماليس لك به علمٌ إنّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً﴾[١]. وناداه أن يمعن النظر إلى حوله.. إلى طعامه ﴿فلينظرِ الإنسانُ إلى طعامهِ أنا صببنا الماءَ صَبّا. ثم شققنا الأرض شَقّا. فانبتنا فيها حبّاً. وعنباً وقَضْباً. وزيتوناً ونخلاً. وحدائقَ غُلْباً. وفاكهةً وأبّاً﴾[٢].. إلى خلقه ﴿فلينظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ؟﴾[٣].. إلى الملكوت ﴿أو لم ينظروا إلى ملَكُوتِ السماواتِ والأرض؟﴾[٤].. ﴿انظروا ماذا في السّماواتِ والأرض؟﴾[٥].. ﴿افلم ينظروا إلى السماء فوقَهُم كيفَ بنيناها؟﴾[٦].. إلى التاريخ ﴿أفلم يسيرُوا في الأرضِ فينظروا كيفَ كان عاقبةُ الذين من قبلهم؟ كانوا أشدَّ منهم قوة﴾[٧].. ﴿أفلم يسيروا في الأرضِ فينظُروا كيفَ كان عاقبةُ الذين مِن قبلهم؟ دمَّرَ اللهُ عليهم﴾[٨].. إلى خلائق الله ﴿أفلا ينظرون إلى الإبلِ كيف خُلِقَتْ؟﴾[٩].. إلى آياته

---

(١) الإسراء: ٣٦.
(٢) عبس ٢٤ـ٣١.
(٣) الطارق: ٥.
(٤) الأعراف: ١٨٥.
(٥) يونس: ١٠١.
(٦) ق: ٦.
(٧) الروم: ٩.
(٨) محمد: ١٠.
(٩) الغاشية: ١٧.

المنبثة في كل مكان ﴿انظرْ كيفَ نبيّنُ لهُمُ الآيات﴾[1] .. ﴿انظرْ كيفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ثمَّ هُمْ يَصْدِفُون﴾[2] ..

وانتقل القرآن خطوة أخرى، وسألهم أن يحركوا بصائرهم، تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية، سمعية وبصرية ولمسية، لاحصر لها. ومن ثم تتحمل البصيرة مسؤوليتها الأساسية في تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى الحق الذي تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة:

﴿فمن أبصرَ فلنفسهِ ومن عَمِيَ فعليها..﴾[3] .

إن العقل والحواسّ جميعاً مسؤولة، لاتنفرد إحداها عن الأخريات في تحمل تبعة البحث والتمحيص والاستقراء والاختيار.. والإنسان مبتلى بهذه المسؤولية لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام ﴿إنّا خلقنا الإنسانَ من نطفةٍ امشاجٍ نبتليهِ فجعلناهُ سميعاً بصيراً﴾[4] .. ومن ثم تتوالى الآيات، تؤكد مرة تلو المرة على أن السمع والبصر والفؤاد جميعاً هي التي تعطي للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها، وإن الإنسان (بتحريكه) هذه القوى والطاقات، بفتحه هذه النوافذ على مصاريعها.. باستغلال قدراتها الفذة العجيبة حتى النهاية، سيصل إلى قمة انتصاره العلمي والديني على السواء، لأن هذه الانتصارات ستبوّئه مركزه المسؤول سيداً على العالمين وخليفةً لله في الأرض. وإنه بتجميده هذه الطاقات، وقفل نوافذها، وسحب الستائر والأغشية عليها، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ماأرادها له الله يوم منحه السمع والبصر والفؤاد، منزلة البهائم والأنعام ﴿أولئكَ الذينَ لعنَهُمُ اللهُ فأصَمّهُمْ وأعمَى أبصارَهُم﴾[5] .

وأكد القرآن على الأسلوب الذي يعتمد (البرهان) و(الحجة) و(الجدال الحسن) للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص استناداً إلى المعطيات الخارجية المتفق عليها، والقدرات العقلية والمنطقية لأولئك الذين

---

(١) المائدة: ٧٥.
(٢) الأنعام: ٤٦.
(٣) الأنعام: ١٠٤/ .
(٤) الإنسان: ٢/ .
(٥) محمد: ٢٣/ .

بلغوا شأواً بعيداً في هذا المضمار:

﴿ياأيها النّاسُ قد جاءكم برهانٌ من ربّكم﴾[1] .

﴿ومَنْ يدْعُ مع اللهِ إلهاً آخرَ لابرهانَ له به فإنما حسابُه عند ربِّهِ﴾[2] .

﴿تلك أمانيُّهم!! قُلْ هَاتُوا برهانَكم إنْ كنتُمْ صادقين﴾[3] .

﴿أإلهٌ معَ اللهِ؟ قُلْ هاتُوا برهانَكم إنْ كنتمُ صادقين﴾[4] .

وثمة حقيقة قرآنية على درجة كبيرة من الأهمية، تلك هي أن كلمة (العلم) وردت في القرآن الكريم مراراً كمصطلح على (الدِّين) نفسه الذي علَّمَه اللهُ أنبياءَهُ عليهم السلام على النواميس التي يسير بها الله ملكوته العظيم.. على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله سبحانه في (أم الكتاب).. وكاشارة إلى القيم الدينية التي تنزلت من السماء. ومن ثَمَّ يغدو (العلمُ) و(الدِّينُ) سواء في لغة القرآن.. وها هي كلمات الله سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة، وتبصرنا بمواقع العلم والدِّين الفسيحة، الممتدة، المتداخلة، كما أراد لها الله أن تكون، لا كما يُريد لها أصحاب (الظن) و(الهوى) من الوضعيين، ولنستمع إلى بعضٍ من كلمات الله:

﴿ولئنِ اتبعتَ أهواءَهم من بعدِ ماجاءَك من العلمِ مالكَ مِنَ اللهِ من وليٍّ ولانصير﴾ [البقرة/ ١٢٠].

﴿ولئنِ اتبعتَ أهواءَهم من بعدِ ماجاءَك من العلمِ إنّك إذنْ لَمِنَ الظالمين﴾ [البقرة/ ١٤٥].

﴿قال: إنّ اللهَ اصطفاهُ عليكم وزادَهُ بَسْطَةً في العلمِ و الجِسْم﴾ [البقرة/ ٢٤٧].

﴿والراسِخُونَ في العلمِ يقولُون آمنّا بهِ كلٌّ من عندِ ربِّنا﴾ [آل عمران/ ٧].

﴿شهدَ اللهُ أنّه لاإلهَ إلّا هو والملائكةُ وأولُوا العلمِ قائماً بالقِسْط..﴾ [آل عمران/ ١٨]

---

(١) النساء: ١٧٤/ .
(٢) المؤمنون: ١١٧/ .
(٣) النمل: ٦٤/ .
(٤) القصص: ٧٥/ .

﴿فمن حاجّكَ فيه مِنْ بعدِ ماجاءَكَ مِنَ العلمِ. . ﴾ [آل عمران/ ٦١].

﴿هاأنتم هؤلاءِ حاججتُم فيما لكم بهِ علمٌ فلِمَ تُحاجُّون فيما ليسَ لكم بهِ علم؟﴾ [آل عمران/ ٦٦].

﴿مالهم بهِ مِنْ علمٍ إلاّ اتّباعُ الظَّنِّ. . ﴾ [النساء/ ١٥٧].

﴿لكنّ الراسخونَ في العلمِ منهم والمؤمنونَ يُؤمنون بما أُنزِلَ إليك. . ﴾ [النساء/ ١٦٢].

﴿نبئوني بعلمٍ إنْ كنتُم صَادقين﴾ [الأنعام/ ١٤٣].

﴿قلْ هلْ عندَكُمْ من علمٍ فتخرِجُوهُ لنا؟﴾ [الأنعام/ ١٤٨].

﴿فلنقصَّ عليهم بعلمٍ وما كُنّا غائبين﴾ [الأعراف/ ٧].

﴿ولقد جئنَاهُمْ بكتابٍ فصلّنَاهُ على علمٍ هدىً ورحمة. . ﴾ [الأعراف/ ٥٢].

﴿ورزقنَاهُمْ مِنَ الطّيّباتِ فما اختلفُوا حتى جاءَهُمُ العلمُ﴾ [يونس/ ٩٣].

﴿ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ﴾ [الحج/ ٣].

﴿وليَعْلَمَ الذين أوتُوا العلمَ أنّه الحقُّ مِنْ ربّكَ فيُؤمنُوا به﴾ [الحج/ ٥٤].

﴿قال الذي عندَهُ علمٌ مِنَ الكتابِ أنا آتيك به﴾ [النمل/ ٤٠].

﴿وأوتينَا العلمَ من قبلِها وكُنّا مُسْلِمِين﴾ [النمل/ ٤٢].

﴿بلْ هو آياتٌ بيناتٌ في صُدورِ الذين أُوتُوا العلمَ﴾ [العنكبوت/ ٤٦].

﴿ويرىَ الذين أوتُوا العلمَ الذي أُنزِلَ إليكَ من ربّك هو الحقّ﴾ [سبأ/ ٦].

﴿أئتوني بكتابٍ من قبلِ هذا أو أثارَةٍ من علمٍ﴾ [الأحقاف/ ٤].

﴿يرفعِ اللهُ الذينَ آمنُوا منكم والذينَ أوتُوا العلمَ درجاتٍ﴾ [المجادلة/ ١١].

﴿وَسِعَ ربّي كلَّ شيءٍ علماً أفلا تتذكّرون؟﴾ [الأنعام/ ٨٠].

﴿ولمّا بلغ أشدَّهُ آتيناهُ حُكْماً وعلماً﴾ [يوسف/ ٢٢].

﴿آتيناهُ رحمةً من عندِنَا وعلّمناهُ مِنْ لدُنّا علماً﴾ [الكهف/ ٦٥].

﴿وقُلْ ربّي زِدْني علماً﴾ [طه/ ١١٤].

﴿وإن اللهَ قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً﴾ [الطلاق/ ١٢].

﴿ولا يُحِيطُون بشيءٍ مِنْ علمهِ إلاّ بما شاءَ﴾ [البقرة/ ٢٥٥].

﴿بل كذّبُوا بما لم يُحيطوا بعلمهِ ولمّا يأتِهِم تأويلُه..﴾ [يونس/ ٣٩].

﴿قال: علمُها عندَ ربّي في كتابٍ لايضلُّ ربّي ولاينسى﴾ [طَه/ ٥٢].

﴿وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ثم عرضَهم على الملائكةِ..﴾ [البقرة/ ٣١].

﴿الذي علَّمَ بالقلم. علَّمَ الإنسانَ مالمْ يعلمْ﴾ [العلق/ ٤ـ٥].

﴿وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ وعلّمكَ مالمْ تكُنْ تعلمْ﴾ [النساء/ ١١٣].

﴿وتلك الأمثالُ نضربُها للنّاسِ وما يعقِلُها إلاّ العالِمُون﴾ [العنكبوت/ ٤٣].

﴿إنّما يخشَى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ﴾ [فاطر/ ٢٨].

ولايسعنا هنا استعراض جُلَّ ماورد من آيات في هذا المجال، ويكفي أن نشير إلى أن كلمة (علم)، بتصريفاتها المختلفة، وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمائة والخمسين..!!

إن القرآن، من خلال هذه الآيات، وغيرها كثير، يريد أن يضعنا في قلب الطبيعة، على مستوى الكون والعَالَم.

إن كل آية تتناول مسألة طبيعية أو حيوية أو مادية تنتهي بأفعال التقوى والإيمان، وبالدعوة إلى ربط آية فاعلية الله.. وهذا التأكيد المتكرر له مغزاه الواضح..

وفي مقابل تأكيد القرآن المتزايد على اعتماد (الموقف العلمي) الشامل إزاء الكون والحياة والعالم، يعلن رفضه القاطع لكل مامن شأنه أن يمسّ هذا الموقف أو يلغيه، أو يصدّه عن العمل: الهوى والظن والسحر والخرافة.. إن هذه الممارسات (اللا علمية)، إذا صحّ التعبير، تأتي جميعاً بمثابة (الضّلال) عن الطريق القويم الذي جاء الدين لكي يدعو الإنسان للسير فيه إلى أهدافه على خط مستقيم. والخط المستقيم ـ كما هو معروف ـ أقرب المسافات بين نقطتين، وأي انحراف عن الطريق سيبعد الشقة ويطيل الجهد ويلتوي بالسائرين..

وقد لايصل بهم إلى أهدافهم أبداً..

إن القرآن الكريم يعلن مراراً عن هذه المعادلة الواضحة البيّنة: إنه ليس بعد الهدى إلا الباطل والعمى، ولابعد الحق إلاّ الضلال المبين..

ومن أجل ألاّ يقف الإنسان عند حدود الظواهر فتصدّه عن التوغل إلى الأعماق، وتحجب عنه الرؤية الشاملة وطبائع الأشياء والموجودات، فتجنح به ـ بالتالي ـ بعيداً عن المنهج العلمي الموضوعي، الذي لايكتفي بالوقوف على سطح الأشياء.. من أجل

ذلك بين القرآن في أكثر من مجال تواجد الجانب الآخر لصفحة الكون والعَالَم، ومافي كوامنه من أسرار، الذي لايسعى إلى سبره إلاّ أولوا العلم الشامل : العلم الشرعي والعلم الكوني..

وفي البعد الثاني يطرح القرآن حشداً من الحقائق والسنن والنواميس في مجالات العلم المختلفة: الفلك والجغرافية والنبات والحيوان والإنسان، في عدد واسع من المقاطع والآيات... وها هنا يلجأ بعض المفكرين أو المفسّرين المعاصرين إلى اعتماد أحد الموقفين اللذين سبق وأن أشرنا إليهما: الموقف الأول يتكىء كلية على معطيات العلم الحديث لتفسير آيات القرآن الكريم والوقوع بالتالي في خطأ منهجي يقوم على تحكيم الجزئي بالكلي والمتغير بالدائم والنسبي بالمطلق. فإذا ماحدث وأن تبدلت الجزئيات والمتغيرات والنسبيات العلمية، وهذا شأنها كما يؤكد العلماء أنفسهم، أدّى ذلك إلى إحداث شرخٍ، أو قلق ذهني، إزاء تلك الآيات التي فسّرت وفق مقولات لم يتح لها الدوام.

والموقف الثاني يرفض كلية الاعتماد على معطيات العلم الحديث تحسّباً من مصير كهذا فيقع في مظنة الخطأ هو الآخر.

والمنهج الأقرب إلى الصواب هو أن نتخذ موقفاً (وسطاً) كما علّمنا كتابُ اللهِ نفسُهُ أن نتخذ في كافة مساحات الحياة، فلا هو بالالتصاق الكامل بمعطيات العلم المتغيرة، ولا هو بالرفض الكامل للتفسير بها.

إن المفسّر المعاصر يتوجب عليه أن يُعمل عقله وقدراته في مجال تخصصه إذا توفرت لديه، لإدراك طبيعة العلاقة بين طرفيْ المعادلة: الآية القرآنية والمقولة العلمية، مستفيداً، من جهة أخرى، من الاتجاهات الحديثة التي نضجت أخيراً في مجال التفسير القرآني، تلك الاتجاهات التي تعتمد مفردات القرآن نفسه ومنحنياته البيانية لفهم مضامينه ومعانيه فيما يعرف بالتفسير البياني للقرآن، والذي من شأنه أن يمنح المفسّر ضمانات موضوعية لنشاطه تحميه من الافراط أو التفريط في محاولة الوصول إلى الدلالات المقصودة للكلمات والتراكيب الجملية في الآيات الكريمة.

ومن خلال هذا التوازن في القدرة العلمية (التخصصية) والقدرة التفسيرية (البيانية) يمكن للمفسّر أن يتحرك للكشف عن الدلالات المقصودة للآيات العلمية في كتاب الله.

هنالك من الحقائق العلمية ماأصبح بمثابة قوانين نهائية، بل بداهات مسلّم بها

لاتقبل نقضاً ولا تغيراً، من مثل الدور الذي تلعبه الرياح في عملية الإمطار، ومن مثل الدور الذي تلعبه الجاذبية في حركة المجموعة الشمسية، ومن مثل المراحل التشريحية التي يمرّ بها الجنين، وتغيّر نسب المكونات الغازية قرباً أو بعداً عن سطح الأرض.. وغير هذه الحقائق أمور كثيرة ماكان العربيّ يوم نزول القرآن يلمّ بأبعادها (العلمية)، ومن ثم فإن تفسير الآيات القرآنية التي تناولت هذه الحقائق وأكدت عليها، كما أنه سيتكىء على بداهات علمية بالنسبة للقرون الأخيرة على الأقل، فإنه سيكشف ـ في الوقت نفسه ـ على جانب من جوانب الإعجاز العديدة التي تضمنها القرآن وأشار إليها..

وهنالك من الحقائق العلمية مايحتمل أكثر من وجه، ولكن هذه الوجوه جميعاً إنما تدور في إطار واسع مرن. ليس ثمة مانع من أن نحيل عليه آيات قرآنية أخرى لإدراك دلالاتها من مثل تلك الآيات التي تؤكد على (النظام) الذي يمسك بناء السماوات المعجز من أن يتفكك ويتبعثر ويضيع..

أما النظريات التي لاتزال موضع أخذ وردّ والتي لم تتبلور بعد كحقائق وقوانين وبداهات مسلّم بها، فإن بمقدور المفسّر أن يكون حذراً إزاءها، وألا يتكىء عليها إلاّ بمقدار مايتيح له ذلك تسليط الضوء على جانب من جوانب المضمون الذي تحتويه الآية.

ليست سواء.. معطيات العلم التي تتمخض باستمرار، ومن ثم إن التعامل معها يجب أن يحاذر عن مظنة الارتباط الكامل أو الانفصال الكامل.

إن الارتباط الكامل سيمنع القدرة على الفهم والإدراك من التحرك بشتى الاتجاهات، والانفصال الكامل سيضعف هذه القدرة ويقيم أسلاكاً شائكة بين جانب من معطيات القرآن وبين الإنسان المعاصر.

إن (الحقائق) التي يطرحها القرآن والتي أريد منها أن تكون (شواهد) تقود الإنسان إلى الإيمان بالله الواحد القادر العالم المريد، تنتشر وتتوزع على مساحة القرآن كله، ويمكن تصنيفها بشكل عام وفق الموضوعات التي اعتمدناها في هذا البحث والتي يجدها القارىء فيما يلي:

ويجب أن نلاحظ أن ليس كل ماطرحه القرآن الكريم في واحدٍ من حقول العلم العديدة أريد به أن يكون (إعجازاً) للأجيال التالية، ولم يكن معروفاً ـ بالتالي ـ في عصر النزول. فثمة صنفان من الآيات نطالعهما في أي حقل من الحقول: صنف جاء

على سبيل (الإخبار) ولفت الأنظار إلى خليقة الله وإبداعه في الكون والعالَم والنفس، وهو يعرض لحقائق وظواهر وموجودات كانت معروفة في عصرها، كما هي معروفة في كل عصر.. وصنف آخر تضمّن إشارات لحقائق وسنن ونواميس (علمية) ماكانت معروفة في عصرها، وتولى العلم ـ بمرور الزمن ـ الكشف عنها وهي التي تسمى عادة بالإعجاز العلمي للقرآن.

كما يجب أن نلاحظ أن ماطرحه القرآن لايمثل كشفاً بكافة الحقائق العلمية، فالقرآن الكريم ـ كما سبق وأن ذكرنا ـ ليس كتاباً علمياً، وإنما هو يكتفي بالكشف عن بعض الحقائق والإشارة إلى بعضها الآخر، وتبقى حشود أخرى من الحقائق، أكثر بكثير، تركت للإنسان حرية الكشف عنها.

وفي الاتجاه الثالث نطالع في القرآن الكريم دعوة ملحة في أكثر من موضع إلى اعتماد حقائق العلم وكشوفاته لتطوير الحياة وترقية الحضارة البشرية بمزيد من التطبيقات (التقنية) على كافة المستويات.. وهو موقف مرن هو الآخر، يتميز بالشمولية والديمومة، إذ هو دعوة للإفادة من الحقائق العلمية (الراهنة) في مدى كل عصر، لإحداث تطبيقات على مستوى العلاقات (المدنية) لذلك العصر، فإذا ماحدث وأن تغيرت الحقائق العلمية وتبدلت العلاقات المدنية كان بمقدور النداء القرآني أن يمضي لكي يخاطب كل جيل من أجل أن يتحرك لإحداث تطبيقات أخرى على مستوى الحقائق الجديدة ومن خلال العلاقات المتغيرة..

وهكذا.. فحيثما تلفتنا، عبر هذا البعد الثالث من معالجة القرآن للمسألة العلمية، وجدناه يتخذ دعوة دائمة، لاتحدها حدود، ولاتأسرها متغيرات ولانسبيات، لدفع الجماعة المؤمنة إلى صياغة مزيد من التطبيقات المبنية على حقائق العلم وكشوفاته ومعادلاته.

إن القرآن يقف بنا دائماً في نقطة التوازن الخلاقة، إنه في هذه الصورة يبدأ بإيصال الإنسان إلى قلب القوى الطبيعية، ويحشرها في خدمته من أجل الإعمار والبناء، فيُسكتُ القائلين بالتعارض بين العلم والدّين، ولكنه مايَلبث في نهاية العرض أن يوقف الإنسان عن حدود (الحكمة) التي يفترضها الإيمان بوجود الله الأقدر والأعلم، والتي تجيء بمثابة (فرامل ضابطة) تنظم سير القوى المسخرة للإنسان، وتمنعه ـ في الوقت نفسه ـ من الجنوح باتجاه الجبروت والطغيان واعتماد هذه الطاقات الهائلة للإبادة والدمار، وحصانة تفرده وتقدمه في الأرض.

وهذا لو تحقق، فإنه سيؤول، بطبيعة الحال، إلى وضعية مضادة للتحضر والتطوّر،

وضعية لاتقل في سلبيتها وخطورتها عن تزييف الموقف الديني ودفعه إلى الرفض والفرار بمواجهة الدخول إلى قلب العالم والإسهام في تحضيره وتطويره.

إن (الإيمان) الذي يقوم عليه بنيان الدين، يجيء دائماً بمثابة (معامل حضاري)، يمتدّ أفقياً لكي يصبّ إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب، ويوجهها في مسالكها الصحيحة، ويجعلها تنسجم في علاقاتها، وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسهما، فيزيدها عطاء وقوة وإيجابية وتناسقاً. . كما يمتد عمودياً في أعماق الإنسان لكي يبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية، ويقظة الضمير، ويدفعه إلى سباق زمني لامثيل له لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجّر طاقاته ويعبّر عن قدراته التي منحه الله إياها، على طريق العقيدة التي يؤمن بها و(الأهداف) التي يسعى لبلوغها، فيما يعتبر جميعاً ـ في نظر الإسلام ـ عبادة شاملة يتقرب بها الإنسان إلى الله.

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا (السباق) الحضاري عندما يصف المؤمنين بأنهم (يسارعون في الخيرات) وأنهم (لها سابقون)، وفي كلا التعبيرين نلمس بوضوح فكرة (الزمن) ومحاولة اعتماده لتحقيق أكبر قدر ممكن من المعطيات، ماتلبث أن ترتقي ـ بمقاييس الكم والنوع ـ بمجرد أن يتجاوز (المسلم) مرحلة الإيمان، إلى المراحل الأعلى التي يحدثنا عنها القرآن في أماكن عديدة: (التقوى) و(الإحسان)!!.

وهكذا تجيء (التجربة الإيمانية) لا لكي تمنح الحضارة، في مرحلة نموّها، وحدتها وتفردها وشخصيتها وتماسكها، وتحميها من التبعثر والتفكك والانهيار، فحسب، وإنما لكي ترفدها بهذين البُعدين الأساسيين اللذين يؤول أولهما إلى تحقيق انسجامها مع نواميس الكون والطبيعة.

والواقع أن القرآن، وهو يحضّ المؤمنين على التسارع الحضاري عملاً وإنجازاً وإبداعاً مسؤولاً، ويعلن رفضه للكسل والقعود والاتكال، والعبور السالب للعالَم دونما إنشاء أو تغيير أو إعمار. .

إن تأكيد القرآن الكريم في أكثر من موضع على (تسخير) كتلة الكون القريب والطبيعة والعالم للإنسان، إنما يمثل دعوة ملحّة، إلى اعتماد التطبيق العلمي للإفادة من هذا التسخير في أوسع أمدائه. . فليس غير العلم بقادر على فهم وإدراك السنن والقوانين التي يعمل الكون بموجبها فيما هو مسخّر لخدمة الإنسان. .

﴿وسخَّرَ لكم اللّيلَ والنّهارَ والشمسَ والقمرَ﴾ [النحل/ ١٢].

﴿وهو الذي سخَّرَ البحرَ لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ [النحل/ ١٤].

﴿ألم ترَ أنّ الله سخَّرَ لكم مافي الأرض؟﴾ [الحج/ ٦٥].

﴿ألم تَرَوا أنّ اللهَ سخّرَ لكم مافي السماواتِ ومافي الأرض﴾ [لقمان/ ٢٠] صدق الله العظيم!!!.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

المدخل العام إلى:

خصائص القرآن العظيم

وهو يشتمل على الخصائص الفريدة التالية:

١ ـ إعجاز القرآن العظيم!.

٢ ـ وقوع التحدّي بالقرآن العظيم!.

٣ ـ لغة القرآن البليغة!.

٤ ـ نظم القرآن المحكم وأسلوبه العذب!.

٥ ـ تأثير القرآن العظيم في نفوس المؤمنين!.

٦ ـ معارف القرآن العظيم الشاملة!.

٧ ـ وفاء القرآن العظيم بحاجات البشر!.

٨ ـ تأييد القرآن العظيم للحقائق العلمية!.

٩ ـ سهولة فهم القرآن العظيم مع علوّ مطالبه!.



خصائص القرآن العظيم[1]

١ ـ إعجاز القرآن العظيم:

القرآن هو الحجة التي أظهرها الله سبحانه وتعالى على يد نبيه محمد ﷺ وتحدَّى الناس أن يأتوا بمثله، وتحدَّاهم أخرى أن يأتوا بعشر سور مثله، وتحدَّاهم ثالثة أن يأتوا بسورة مثله، وتحدَّاهم رابعة أن يأتوا بحديث مثله، وماالستطاعوا ولن يستطيعوا.

نزل القرآن على أمة أميَّة في العقيدة، وأميَّة في الفكر، وأميَّة في الصناعة وفي الزراعة، وأميَّة في العلاقات الاجتماعية والسياسية، وأميَّة في كل شؤون الحياة، إلاَّ الكلمة وتذوّقها، فهم أربابها وأصحابها، يمتطونها ويحكمون صنعتها، يطربون لجميلها، ويمجُّون قبيحها، ملكوها بقدر ماملكتهم، يسيرونها وتسيرهم، ترفع فيهم وتَضع.

بعث فيهم محمد ﷺ فلم تكن معجزته في شيء لايتقنونه، أو فن لايحذقونه، بل تحدَّاهم فيما يدركون وفيما هم فيه بارزون.

جاءت المعجزة قرآناً يقرأونه بألسنتهم، ويسمعونه بآذانهم، ويَزِنُونه بموازين كلامهم، فإذا به أبلغ من بليغ الكلام، وأفصح من فصيحه، لايرتقي إليه بيان ولايدركه لسان، فملك البلاغة بألوانها، وحاز الفصاحة بأركانها. وجاءهم بما لاقِبَلَ لهم بردِّه، ولاقدره لهم في دفعه، لايملكون من أنفسهم معه إرادة، وليست لهم معه مشيئة، إلا أن يضع المعاند أصابعه في أذنيه، ويستغشي ثيابه ويلغو فيه: ﴿وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه لعلّكم تغلبون﴾[2]، أما من لم يفعل فقد حيل بينه وبين خلافه فلا يملك إلا أن ينعقد قلبه عليه، وهو يجهد في نقضه ويستقبِم لدعوته، وهو يبالغ في رفضه. فلا مفر منه إلاَّ إليه، فقد أخذ بمجامع القلوب، واستولى على جهات النفوس، فما أعجب شأنه وأعظم أمره.

---

(١) هذه الأبحاث من كتاب الدكتور فهد بن عبدالرحمن بن سليمان الرومي ـ حفظه الله تعالى ـ «خصائص القرآن الكريم» مع بعض التصرف بالترتيب/ ط الرياض ـ ١٤٠٩هـ.

(٢) سورة فصّلت: آية ٢٦/ .

ويزيدك عجباً لاينفد أن هذا الكلام لم يأخذ من اللغة صنعتها، ومن الأسلوب جماله، ومن الفصاحة رونقها، ومن البلاغة سموّها فحسب، بل أخذ مع هذا كله من المعاني أسماها، ومن المقاصد أعلاها.

جاء بالدين بأصوله وحججه وبراهينه وشريعته وآدابه وسائر مقوّمات الأمة على أكمل وجه، وأحسنه، فهو والله إعجاز في إعجاز.

وفوق هذا كله على سموّه ورفعته، فإنه قلب الموازين كلها، فظهر أثره فيهم فور تلقيهم له وكأنه يغرس فيهم في لحظات، مايحتاج اكتسابه إلى سنوات، فانقادوا لتعاليمه، وكأنها إلفهم وعادتهم، بل كأنهم تربّوا عليها ونشأت معهم، فلم يجر على المألوف من التربية، فقد عهدنا التربية تبدأ مع الصغار، وتشق مع الكبار، لكن القرآن أنشأهم على الكِبَرِ، وخاطب الكبار، ولو كان موافقاً لأخلاقهم أو مسايراً لها، لسهل الانقياد، لكن القرآن ماعدا أن سفَّه أحلامهم، وحطَّم أصنامهم، وشنأ معتقداتهم، وأزرى على آبائهم وقرَّعهم وأنَّبهم وكلَّفهم خلاف مااعتادوه، وأمرهم بما لم يألفوه، وهم أهلُ حميةٍ تأبى الذّلَّ وعزةٍ تأبى الضيمَ، ومع هذا الركام الهائل من العوائق انقلبت الأمور رأساً على عقب، فإذا بهم أهل القرآن وأتباعه..

وأعجب من هذا كله أن هذا الجيل، الجيل الأول الذي تربَّى على الكِبَرِ، كان هو خير القرون وأفضلها، وأكثرها تمسكاً بعد أن كان أكثرها بعداً، فاكتسب من الدين مالا يتهيّأ إلاَّ في سلالة بعد سلالة من قوم قد دخل آباؤهم فيه فهذَّب طباعهم، وسما بشيمهم، وارتقى بأخلاقهم، واستقامت أحفادهم عليه، والتزموا بأحكامه. وأين هذا من قوم كانوا بالأمس يعبدون الأوثان، ويلزمون شانيء الأخلاق ورذيل الطباع، وساقط الآداب[1].

لكنه القرآن، ظهر أثره فيهم بعد أن أدركوا سره فالتزموه واتخذوه منهجاً فسما بهم ونالوا به مانالوا.

أما خصومه فقد كان أمر محمد ﷺ، هو شغلهم الشاغل، وهمَّهم الناصب، فلم يدعوا سبيلاً للقضاء على دعوته إلاّ وسلكوه، ولم يتركوا وسيلة لمقاومته باللطف أو

---

(١) انظر إعجاز القرآن: مصطفى الرافعي ص١٧٧ـ١٧٩.

بالعنف الاَّ وعملوا بها، حاولوا فتنته عمَّا أوحي إليه والركون إلى دينهم، وساوموه بالمال، وساوموه بالملك، وساوموه بالجاه فأبى، وتواصوا بمقاطعته وعشيرته وحبس الزاد عنهم، حتى يموتوا جوعاً أو يسلموه إليهم، بذلوا وسعهم لمنع وصول القرآن إلى آذانهم وآذان الآخرين أيضاً، حاربوه بإلصاق الشبهات فيه، واتهموا صاحبه بالسحر مرة، والكهانة مرَّة أخرى، والجنون ثالثة، لينفِّروا عنه من لايعرفه، فلا يقترب منه، ولايستمع لقوله. أمَّا هو عليه الصلاة والسَّلام، فدعاهم إلى التوحيد بالحجة والبيِّنة، وأقام ذلك لهم، حتَّى قطع العذر وأزال كل شبهة، فلمَّا ظهر بيِّناً أن المانع لهم من الإيمان هو الهوى والحميَّة والمكابرة والعصبيَّة، حملهم على ذلك بالسيف، فنصبه لهم وناصبوه، وقتل من رؤسائهم وزعمائهم وأعلامهم وآبائهم وأبنائهم، ودلَّهم على أن الطريق الوحيد لإسكاته هو الإتيان بمثل هذا القرآن ولو بآيات يسيرة منه.

قل لي بربك.. لو كانوا يستطيعون ذلك، أفلا يكون أقرب إليهم وأبقى عليهم؟! ماالذي دعاهم إلى طرق الأبواب كلها إلاَّ هذا الباب؟! لِمَ آثروا طريق الذل الذي سلكوه يتوددون إليه أن يترك الدعوة ويبذلون له أموالهم والسيادة عليهم فيأبى، يناوئون عشيرته، ويفترون عليه الكذب وهم يعلمون الحق فلا يبالي بهم، يقاتلونه فيقتل منهم أحب الناس إليهم، هل كان هذا كله أسهل عليهم من الإتيان بمثل هذا القرآن لو استطاعوا؟ فبأي شيء يكون الإعجاز إن لم يكن هذا هو الإعجاز بعينه؟!.

بل إعجاز القرآن أكبر من أن يحيط به أهل عصر، وأعظم من أن يستوعبه جيل من الأجيال، فلئن أشرف الجيل الأول على قبس من إعجازه، فإن الأجيال من بعد ماتزال تنهل معينه الذي لاينضب، وماتزال وجوه الإعجاز فيه تتجدد حتى لكأنها لاتنفد.

فكم من كتاب أُلِّف عن إعجاز القرآن، وكم من ندوة أُقيمت، وكم من محاضرة أُلقيت، وكم من مؤتمر عُقد لإعجاز القرآن الكريم، ومازال عطاؤه يفيض ويفيض.

٢ ـ وقوع التحدّي بالقرآن العظيم:

﴿قُلْ لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ، لايأتونَ بمثلهِ، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

تزداد دهشةً إذا علمتَ أنّ هذا التحدي المركب هو أول مانزل في التحدي بالقرآن، وكأنّه صادر عمّن تحدى ألف مرة فأدرك عجزهم فأخبر أنهم لايأتون بمثله، نتاجَ سابقِ تحدٍّ به، وليس نتاج ثقة بما تحدى به، أما القرآن فتحدَّى لأول مرة، وأخبر مع تحديه أول مرة بعجزهم عن الإتيان بمثله، وماذاك إلاَّ لأنه تنزيل من حكيم حميد.

ولم يقف الأمر عند حد التحدي بالقرآن كله، بل تحداهم بالإتيان بعشر سور مثله، فقال تعالى: ﴿أم يقولون افتراهُ قلْ فأتُوا بعشرِ سورٍ مثلهِ مفترياتٍ، وادْعُوا من استطعتم مِن دونِ اللهِ إن كنتم صادقين﴾[1].

تنزُّلٌ وأيُّ تنزلٍ، من تحدٍّ بالقرآن كلِّه إلى عشر سورٍ منه، ومع هذا زاد في التّهكم فتنزل إلى أقل من ذلك إلى سورة واحدة فقال تعالى: ﴿وإن كنتم في ريبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[2].

وكرَّر التحدي مرَّة أخرى: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[3].

وزاد في التحدي، وزاد في التهكم فتحداهم بالإتيان بحديث مثله، فقال تعالى: ﴿أم يقولون تقوله بل لايؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾[4].

وتمَّ نزول القرآن، وانقطع الوحي، والتحدي مازال قائماً لم ينقطع، ولم ينته أمده، فهو لقوته امتد زمناً حتى شمل آباده، وامتد مكاناً حتى انتظم آفاق الأرض.

ذهب القرن الأول وجاء الذي بعده وفي البادية أو أطرافها أعراب لم تختلط أنسابهم، ولم يطل اللحن ألسنتهم، ولم يتغير صفو لغتهم، ولم تأسن سليقتهم، واسألوا الأصمعي عنهم، وفيهم من لو استطاع أن يأتي بمثل آية من القرآن يبزُّ بها أقرانه ماتردَّد ولاتَلبَّث، فذلت له أعناقهم كما ذلَّت له أعناق من قبلهم.

ومازالت عجلة الزمن تدور وتطوي القرون قرناً فقرنا، ومسافة العجز تطول وتتسَّع

---

(١) سورة هود: الآية ١٣.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣.
(٣) سورة يونس: الآية ٣٨.
(٤) سورة الطور: الآيتين ٣٣ـ٣٤.

وتشعَّب، مازادهم عجزاً انحراف الألسنة، وشيوع اللحن، واختلاط الأنساب فحسب، بل زادهم أن وجوه الإعجاز تتجدد وتتولَّد، فما أن يبزغ وجه من وجوه الإعجاز ويشرق، حتى يظهر نجم إعجاز جديد معلناً أن التحدي في القرآن ليس لعصر دون عصر ولا لأمة دون أمة ولايزال هذا دأب القرآن في التحدي حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٣ ـ لغة القرآن البليغة:

ليس من السهل أن نستوعب الحديث عن هذا الجانب الهام، ونحن نتحدث عن خصائص القرآن عامة.

ولكن السؤال الذي أراه يرتسم على الشفاه في هذا الموضوع هو السؤال عن حقيقة لغة القرآن، هل هي اللغة المعهودة عند العرب قبل نزول القرآن أو هي لغة عن لغتهم متميزة؟.

أحسب أن كثيراً من الناس سيبادر الجواب من فوره بل هي لغتهم المعهودة! لأن حروف لغة القرآن، هي حروف لغة العرب، ومعاني كلماته، هي معاني كلمات لغة العرب وقواعد لغة القرآن هي قواعد لغة العرب.

ولست بالذي ينكر هذا القول جملة، لكني أقول أيضاً إنها متميزة، بل غير المعهود من لغة العرب.

فإذا كانت لغة العرب وسيلة التخاطب بين أبنائها، فإن لغة القرآن الكريم وسيلة التخاطب بين أفراد البشر كلهم، وبين المولى سبحانه وتعالى، ولهذا فإنَّ لغة القرآن تختلف من حيث أسلوبها وطريقة تركيبها.

الأمر الذي من أجله عجز الخلق جميعاً عن الإتيان بمثلها أو بأقصر سورة منها، وإنَّه لمن الظلم للغة القرآن مادام الأمر كذلك، أن نقول عنها إنها لغة العرب المحدودة الأفق ذات المعاني المعدودة التي يسهل مضاهاتها بين أهلها بعضهم مع بعض.

ومتميزة أيضاً لأن تركيبها ـ أعني لغة القرآن ـ جديد لم تعهده لغة العرب قبل ذلك ولم تأت بمثله بعد ذلك.

ومتميزة أيضاً لأن أرباب لغة العرب وفصحاءها حاروا في إدراك حقيقة لغته فهذا الوليد بن المغيرة يخاطب قومه فيقول: يامعشر قريش إنَّه قد حضر هذا الموسم وإنَّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولاتختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت ياأبا

عبد شمسٍ فقل وأقم لنا رأياً نقول به؛ قال: بل أنتم فقولوا أسمع؛ قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله ماهو بكاهن، لقد رأينا الكهّان فما هو بزَمْزَمةِ الكاهن ولاسجعه، قالوا: فنقول: مجنون؛ قال: ماهو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخَنْقِه، ولاتَخالُجِهِ ولاوسوسته، قالوا: فنقول: شاعر؛ قال: ماهو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر؛ قالوا: فنقول ساحر؛ قال: ماهو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم فما هو بنفثهم، ولاعقدهم، قالوا: فما نقول ياأبا عبد شمس؟ قال: والله إنَّ لقوله لحلاوة وإنَّ أصله لعَذْق وإنَّ فرعه لجناة[1].

ولو كانت حقيقة لغة القرآن كحقيقة لغة العرب لما حار فيها عَلَمٌ من أعلامهم وبليغ من بلغائهم!!.

وإنّهم لن يدركوها ولن يطالوها ولن ينالوها، أدركوا هذا فلم يحاول أحدهم مجرّد محاولة - في مقام أعلى درجات التحدّي - أن يأتي بمثل هذا القرآن لأنه يعرف سلفاً أنه لن يستطيع ولو كان الفاصل بين بلاغتهم وبلاغة القرآن فاصلاً وجيزاً لحاول بلغاؤهم وفصحاؤهم ذلك لكنهم يدركون أنَّ الفاصل بعيد وبعيد يدركونه بأبصارهم وأسماعهم ولن تناله أيديهم.

وبهذا نصل إلى أن حقيقة لغة القرآن ليست كحقيقة لغة العرب، إذاً فلغة القرآن خاصة من خصائص القرآن الكريم.

٤ - نظم القرآن المحكم وأسلوبه العذب:

إنَّ أوّل شيء أحسته تلك الأذن العربيّة في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قُسّمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوّعاً يجدّد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المدّ والغنّة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النَفَس فيه آناً بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى، فيجد عندها راحته العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي، إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حدِّ الإسراف في الاستواء، ثم إلى حدّ الإملال في التكرير. فإنها ماكانت تعهده قط ولا كان يتهيّأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها، سواء منه المرسل والمسجوع؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوبٌ تغض من سلاسة تركيبه، ولايمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيءٍ منه.

---

(١) السيرة النبوية: لابن هشام ج١/ ٢٨٨-٢٨٩/ .

لاعجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لاتجد شيئاً منها إلاَّ في الشعر، ولاعجب أن ترجع إلى أنفسها، فتقول: ماهو بشعر؛ لأنه ـ كما قال الوليد ـ [(١)] ليس على أعاريض الشعر، في رجزه ولا في قصيده، ثم لاعجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السحر؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حدٍّ وسط: فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته.

فإذا مااقتربت بأذنك قليلاً قليلاً، فَطَرَقَتْ سمعَك جواهرُ حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة. فاجأتك منه لذَّة أخرى في نظم تلك الحروف، ورصفها، وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النَفَس، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلُم جرَّاً، فترى المجال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة، لاكركرة ولاثرثرة، ولارخاوة ولامعاظلة، ولاتناكر ولاتنافر، وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضري الفاتر، ولابالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها، برقة الحاضرة وسلاستها، وقدر فيه الأمران تقديراً لايبغي بعضهما على بعض. فإذا مزيجٌ منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل، عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم.

من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني، وليس الشأن في هذا الغلاف إلاَّ كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلىء النفيسة، فإنَّه جلَّت قدرته قد أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يُغَشّي جلائل أسراره بأستار لاتخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها. انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قِوَاماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة. فكذلك لما سبقت كلمتهُ أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم، قضت حكمته أن يختار لها صِواناً يحبّبها إلى الناس بعذوبته، ويُغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة (الحُداء) يستحث النفوس على السير إليها، ويهون عليها وعثاء السفر في طلب كمالها، لاجرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالَب العذب الجميل، ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم مادامت فيهم حاسةٌ تذوقٌ وحاسةٌ تسمعُ، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سرِّه،

---

(١) تقدمت كلمة الوليد في ص٩٢.

وينفذون بها إلى بعيد غَوْره: ﴿إنَّا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون﴾[1] .

هل عرفت أنَّ نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزَّةً وغرابةً؟ وهل عرفت أنَّ هذا الجمال كان قوّةً إلٰهيَّةً حفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟.

فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز، واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدِّلين، وأنَّ ذلك الجمال ماكان ليكفي وحده في كفِّ أيديهم عنه، بل كان أجدر أن يغريهم به، ذلك أن الناس ـ كما يقول الباقلاني ـ: إذا استحسنوا شيئاً اتَّبعوه، وتنافسوا في محاكاته بباعث الجِبِلّة. وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجيدونه من الأساليب، وربما أدرك اللَّاحق فيهم شأو السابق أو أربَى عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتَّاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض. وماأساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلَّا مناهل موروده، ومسالك معبَّدة، تؤخذ بالتعلم، وتُراضُ الألسنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات.

فما الذي منع الناس أن يُخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم وهم شَرَعٌ في استحسان طريقته، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته؟.

ماذاك إلَّا أن فيه مَنَعَةً طبيعيَّة كفَّت ولاتزال تكفُّ أيديهم عنه، ولاريب أنَّ أوّل ماتلاقيك هذه المناعة فيما صوَّرناه لك من غريب تأليفه في بنيته، وما اتَّخذه في رصف حروفه وكلماته، وجُمَله وآياته، من نظامٍ له سمتٌ وحدة، وطابع خاصٌّ به، خرج فيه عن هيئة كلِّ نَظْمٍ تعاطاه الناس أو يتعاطَونه، فلا جرم لم يجدوا له مثالاً يحاذونه به، ولاسبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه، وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يُدخل عليه شيئاً من كلام الناس، من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيِّين أو المرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في فم كلِّ قارىء، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كلِّ سامع، وإذاً لنادى الداخل على نفسه بأنه واغلٌ دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكِيرُ خَبَثَ الحديد، ﴿وإنَّه لكتابٌ عزيزٌ لايأتيه الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خَلفهِ. تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ﴾[2] .

فإذا أنت لم يلهك جمال العطاء عما تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة

---

(١) سورة الحجر: الآية: ٩.
(٢) سورة فصلت: ٤١، ٤٢.

الأستار عما وراءها من السر المصون، بل فَلَيْتَ القشرة عن لبّها، وكشفت الصَّدَفة عن درّها، فنفذتَ من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلى لك ماهو أبهى وأبهر، ولقيك منه ماهو أروع وأبدع.

لانريد أن نحدثك ها هنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر، فإن لهذا الحديث موضعاً يجيء إن شاء الله تعالى في بحث الإعجاز (العلمي) وحديثنا كما ترى لايزال في شأن الإعجاز (اللغوي) وإنما اللغة ألفاظ.

بيد أن هذه الألفاظ ينظر فيها (تارة) من حيث هي أبنيةٌ صوتيّةٌ مادّتها الحروف، وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر إلى دلالتها. وهذه الناحية قد مضى لنا القول فيها آنفاً (وتارة) من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن، ولاشك أنها هي أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوي الذي نحن بصدده، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان، أكثرَ مِن تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام.

أمّا النّظر في المعاني القرآنية من جهة مافيها من العلوم العجيبة، فتلك خطوة أخرى ونظرة خارجة عن البحث اللغوي جملة، إذ الفضيلة البيانية إنّما تعتمد دقّة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كما هو، سواء عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ماتتناوله عقول الناس أو لايكون، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقةً أو خيالاً؛ وأن يكون هدىً أو ضلالاً[1] ؛ عكس الفضيلة العلميّة، فإنّها عائدة إلى المعنى في نفسه على أيّ صورةٍ أخرجته، وبأيّ لغةٍ عبّرت عنه.

نعم قد تتفاوت اللغات في الوفاء بحق المعنى فيكون التعبير الجيِّد، ممّا يزيد في قيمته العلميّة، لكن النظر هاهنا في قيمة البيان لافي قيمة المبيَّن، فلا تعجل علينا بتلك النظرة العلمية حتى نفرغ من هذه النظرة اللغويّة[2] .

وحين قرىء القرآن على العرب رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جُمله وقعاً لغوياً رائعاً كأنه لائتلاف آياته وسوره قطعة واحدة، أدركوا ذلك وأدركوا أنه لاقدرة لهم على الإتيان بمثله والذين جنحوا لمعارضته منهم كمسيلمة حسبوا أن (وقعه) إنّما هو في

---

(١) ولذلك كانت حكايات القرآن لأقوال المبطلين لاتقصر في بلاغتها عن سائر كلامه لأنها تصف مافي أنفسهم على أتمّ وجه، (درّاز).

(٢) النبأ العظيم، د/ محمد عبدالله درّاز، من ص١٠١ إلى ص١٠٧.

وزن كلماته، وجرس حروفه فحسب، وهذا لايتّفق في شيء من كلام العرب، إلاّ أن يكون وزناً من الشعر أو السجع[1].

ومن هنا جاء مسيلمة بسجع يضحك الثكلى ويأبى أن يتفوه به من له أدنى درجة من حكمة، وأدرك قومه زيف قوله، ولكن العصبيّة الجاهليّة عندهم، حملتهم على أن يقول أحدهم مخاطباً مسيلمة الكذّاب:

(أشهد أنك كاذب وأنّ محمّداً صادق ولكن كذّاب ربيعة أحب إلينا من صادق مُضرَ)[2].

وإدراك وقعِ القرآن ـ مجرد إدراك ـ لايحتاج إلى كبير ذوق أو إلى إرهاف حس (فقد ينسى أحدهم الآية من القرآن فينقطع إلى الصمت من قراءته، أو تتدخّل في لفظه بعضُ الآيات المتشابهة في السور، أو يسقط بعض اللفظ في تلاوته، فيضلّ في ذلك ثم لاييسره للذكر، ولايذكره بالآية المنسيّة ـ أكثر مايتذكّر ـ إلا نسقُ الحروف في بعض كلماتها ولا يبين له مواقع الكلم المتشابهات إلاّ نظام كل كلمة من آيتها ولايهديه إلى ماأسقطه من اللفظ غير إحساسه باضطراب النظم وتخلخل الكلام[3].

٥ ـ تأثير القرآن العظيم في نفوس المؤمنين:

اخترت هذا العنوان لهذه الخاصية في القرآن لتبادر المعنى منها إلى الذهن، وإن كان ليس هو المعنى الدقيق الذي أريد، إذ أن هذه تحمل معنىً واسعاً يشمل التأثير الفوري التلقائي، ويشمل التأثير الناتج عن طول قراءة ومدارسة، وإنما أردت هنا النوع الأول فحسب، سَمِّه إن شئتَ: (الانطباع الذاتي)، وأريد بـ(الانطباع) التأثير الفوري[4]، وأريد بـ(الذاتي) الذي ينطبع في ذات إنسان، وقد لاينطبع في إنسان آخر غيره، فقد تُؤثّر آية قرآنية في إنسان ولاتُؤثّر نفس التأثير في إنسان آخر، بل تؤثر فيه آية أخرى لاتؤثر في الأول مثل أثرها فيه.

وهذا الانطباع لايختص بالمؤمنين بالقرآن فحسب، بل يحدث حتى في خصوم القرآن ممّا لايحصل مثله أبداً في غير القرآن الكريم.

---

(١) انظر: «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» مصطفى صادق الرافعي، ص٢٤٣.
(٢) قائل هذه العبارة طلحة النمري، انظر تاريخ الأمم والملوك: الطبري جـ٣، ص٢٨٦، والكامل في التاريخ: لابن الأثير، جـ٢، ص٢٤٥.
(٣) إعجاز القرآن: الرافعي ص٢٧٦.
(٤) قال في لسان العرب جـ٨، ص٢٣٢، الطبع ابتداء صنعة الشيء.

يحدث هذا الانطباع والتأثير بمجرد الاستماع للآيات القرآنية قبل أن يبحث في معانيه ويستقصيها، وقد أدرك هذا السر في القرآن سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: (إن في هذا القرآن سراً خاصاً يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيه، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ماوراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره، أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظِّلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم أنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود!.

ذلك سر مودَع في كل نصٍّ قرآني يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله)[١].

ولقد واجه سيد ـ رحمه الله تعالى ـ مثل هذه الحالة حين تساءل عن سبب سجود المشركين عند سماعهم لقوله تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾[٢]، وأجاب عن ذلك فقال: (لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا السجود، ويخطر لي احتمال أنه لم يقع، وإنما هي رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو شهرين أو ثلاثة وهو أمر يحتاج إلى التعليل.

وبينما أنا كذلك وقعت لي تلك التجربة الشعورية الخاصة التي أشرنا إليها من قبل ..

كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارىء للقرآن من قريب، يتلو سورة النجم، فانقطع بيننا الحديث لنستمع وننصت للقرآن الكريم. وكان صوت القارىء مؤثراً وهو يرتل القرآن ترتيلاً حسناً.

وشيئاً فشيئاً عشت معه فيما يتلوه، عشت مع محمد ﷺ في رحلته إلى الملأ الأعلى، عشت معه وهو يشهد جبريل ـ عليه السلام ـ في صورته الملائكية التي خلقه

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، جـ٦، ص٣٣٩٩.
(٢) سورة النجم: الآية ٦٢.

الله عليها، ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله!، وعشت معه وهو في رحلته العلويّة الطليقة عند سدرة المنتهى، وجنّة المأوى، عشت معه بقدر مايسعفني خيالي، وتحلق بي رؤاي، وبقدر ماتطيق مشاعري وأحاسيسي.. إلى أن قال رحمه الله تعالى.... واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة: (هذا نذير من النذر الأولى... أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة).

ثم جاءت الصيحة الأخيرة... واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب: (أَفَمِنْ هذا الحديث تعجبون... وتضحكون ولاتبكون... وأنتم سامدون)؟.

فلما سمعت: (فاسجدوا لله واعبدوا)، كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقاً إلى أوصالي، واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي لم أملك مقاومته فظل جسمي كله يختلج ولاأتمالك أن أثبته ولا أن أكفكف دموعاً هاتنة لاأملك احتباسها مع الجهد والمحاولة.

وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح، وأن تعليله قريب، إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة، ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم، أو أسمعها ولكنها في هذه المرة كان لها الوقع، وكانت مني هذه الاستجابة وذلك سر القرآن، فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير فيكون منها مايكون)[1].

وتأثير القرآن هذا بلغ مبلغاً خرق به العادة المعهودة من تأثير الكلام في النفوس، واستيلائه على قلوب المخاطبين استيلاءً كالقهر وما هو بالقهر، وفعله في قلوبهم كالسحر وما هو بالسحر، لايختص ذلك بالأنصار دون الخصوم، ولا بمحالفيه دون مخالفيه، بل يغزو القلب من حيث لايمكن لصاحبه رد، ويؤثر فيه من حيث لايمكن له دفع.

أثَّر في الأعداء كما أثَّر في الأتباع، نذكر من أمثلة تأثيره في الأعداء:

حادثة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين اجتمعت قريش فتشاورت في أمر النبي ﷺ، فقالوا: أي رجل يقتل محمداً؟ فقال عمر ابن الخطاب: أنا لها، فقالوا: أنت لها ياعمر، فخرج في الهاجرة في يوم شديد الحر، متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ،

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، جـ٦، ص٣٤٢٠_٣٤٢١.

ورهطاً من أصحابه فلقيه نعيم بن عبدالله فقال: أين تريد ياعمر؟ فأخبره بغرضه، فقال نعيم: لبئس الممشى مشيت ياعمر، ولقد والله غرَّتك نفسك من نفسك... أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ فتحاورا حتى علت أصواتهما، فلمَّا رأى نعيم أنه غير منته قال: فإني أخبرك أن أهلك وأهل ختنك قد أسلموا، فاحتمله الغضب فذهب إليهما فاقتحم الباب وبطش بختنه سعيد وشجَّ أخته فاطمة.

وأقف هنا لحظة ـ أيها الأحبة ـ:

تأمَّلوا معي خروج عمر، من اجتماع قريش غاضباً، ثم زاده الحوار مع نعيم غضباً إلى غضبه، ثم ازداد حين أخبره بإسلام أخته وزوجها. واقتحامُه البيت وبطشُه بسعيد، وشَجُّه لأخته مظهرٌ من مظاهر شدة الانفعال، وكأنَّما رُكِّبت هذه الطبقات من الغضب في جبار من جبابرة الجاهلية، وليس بمستضعف، ليشهد الناس وليدركوا تأثير القرآن الكريم وهيمنته.

في أوج هذه الحال يرفع عمر الصحيفة ويقرأ بضع آيات من سورة طه فلا يملك إلا أن يقول: (ماأحسن هذا الكلام وأكرمه). الله أكبر، انطفأ غضبه كما يطفىء الماء النار، وإذا بالإسلام يلج من قلبه من حيث يحسب الناس أن لامولج.

هذه حادثة عمر رضي الله عنه، وما حادثة الوليد بن المغيرة عنا ببعيد، وقولته الشهيرة عن القرآن الكريم، قالها وهو لايملك من نفسه شيئاً، قالها وهو تحت هيمنة القرآن قال:

(والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ماتحته، وإنه ليعلو وما يعلى).

وهل جاءكم ماحدث لجبير بن مطعم رضي الله عنه حين حدث عن نفسه، أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور قال: فلمَّا بلغ هذه الآية: **﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾**[1]، إلى قوله: (المسيطرون)، كاد قلبي أن يطير[2].

واقرأوا إن شئتم قصة مصعب بن عمير وعبدالله بن أم مكتوم رضي الله عنهما حين أرسلهما الرسول ﷺ إلى المدينة يعلمان الناس القرآن فنزلا عند أسعد بن زرارة،

---

(١) سورة الطور: الآية ٣٥.

(٢) رواه البخاري كتاب التفسير، سورة الطور، جـ٦، ص٤٩ـ٥٠.

فأغضب هذا سعد بن معاذ ـ سيِّد الأوس ـ رضي الله عنه قبل إسلامه، حتى قال لابن أخيه أسيد بن حضير ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا فتزجرهما، فلمَّا انتهى إليهما أسيد هددهما وقال: اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة فأجابه مصعب رضي الله عنه: أوتجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ماتكره، ثم قرأ مصعب القرآن، وأسيد يسمع، فما قام من مجلسه حتَّى أسلم، ثم كرَّ راجعاً إلى سعد فقال له: والله مارأيت بالرجلين بأساً فغضب سعد وذهب ثائراً مهتاجاً فاستقبله مصعب بما استقبل به أسيد فأسلم من فوره[1].

هذه أمثلة من تأثير القرآن الكريم في نفوس خصومه، ولعل قائلاً يقول: عمدت إلى قصص أفراد وحوادث آحاد واستدللت بها على مثل هذه القضية العامة والهامة!! ألا تجد من عظمة الشواهد مايناسب عظمة القضية!!.

ولهذا ولمن أراد المزيد أقول:

إن الشواهد على تأثير القرآن في الجماعات مرسومة، وللمتأمل معلومة...

أذكر بعض مظاهرها:

المظهر الأول:

اسألوا التاريخ، واجعلوا من أنفسكم حكماً على مايقول... اسألوه بأي قوة فتح الرسولﷺ المدينة؟ كم جيشاً وجه لفتحها؟ أو كم سرية بعثها الرسولﷺ لها؟ فإنه مجيبكم بملء فيه أنه لم يفتحها بشيء من ذلك بل هي التي فتحت قلبها له ومدت يديها إليه، ولكنها لم تفعل ذلك ابتداءً بل استجابة واستسلاماً لداع أقوى من الجيش، وأسرى من السرية، إنه داعي القرآن الكريم، ولذلك قالوا: (فتحت الأمصار بالسيوف، وفتحت المدينة بالقرآن)، فقد أوفد الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى أهل يثرب (المدينة) فمكث فيها يقرأ القرآن على أهلها فآمنوا ودعوا رسول الله ﷺ إلى الهجرة إليهم)[2].

فإن لم يسلم المعترض بهذا المظهر تسليماً كاملاً لشبهة وردت على خاطره وقال: لِمَ أثَّر القرآن على أهل المدينة، ولم يكن تأثيره على أهل مكة، كذلك إن كانت القضية قضية تأثير؟

---

(١) انظر سيرة ابن هشام، جـ٢، ص٧٧ـ٧٩، والكامل في التاريخ: لابن الأثير، جـ٢، ص٦٧ـ٦٨.

(٢) الإتقان: السيوطي: جـ٢، ص١٢٣.

ولهذا أقول إن القرآن الكريم أثر في أهل مكة، كتأثيره في أهل يثرب أو أشد، لكن العناد عندهم والمكابرة كانت تقضي على كل ظاهرة للاستجابة، وقد تمالأوا على ذلك فكلما لان قلب أحدهم وضعف أمام هيمنة القرآن بعثوا إليه من ينفخ في نار العناد حتى يستعر في قلبه فيعود إليهم وما حادثة الوليد منا ببعيدة، قال قولته في القرآن فأرسل إليه المشركون أبا جهل فجاءه وقال له: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟! فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟!، فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة (وكان يسمع القرآن من أبي بكر رضي الله عنه) لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟! فلا والله لاأقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة وماقوله إلاَّ سحر يؤثر[1].

هكذا كان أهل مكة يفعلون مع من يبدو عليه تأثير من القرآن، فأنى لهذا المجتمع مع هذا العناد أن يظهر فيهم أثر القرآن كما يظهر في مجتمع لا عناد فيه، ولا استكبار، بل بحث عن الحق وسفر إليه، والعناد لاتنفع معه الحجة، ولا يقوم عليه البرهان.

المظهر الثاني:

أن زعماء المشركين مع عنادهم كان يسارق بعضهم بعضاً فيخرج في جنح الليل المظلم مايخرجه إلاَّ استيلاء القرآن على مشاعره فيبحث عَمَّن يتلو القرآن في هدأة الليل، وقد أرخى سدوله، وسجا سجاه، وهذا أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلِّي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لايعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لاتعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا. .وحصل في الليلة الثانية ماحصل في الأولى. .وحين التقوا في الليلة الثالثة قال بعضهم لبعض: لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا[2].

هكذا كان تأثير القرآن في الأعداء، يخلع منهم القلوب، فيطير النوم من عيونهم، ويبحثون عن سكن لها حتى إذا ماوجدوه وكادوا أن يستكينوا له أخذتهم العزَّة بالإثم، فارتدوا على أدبارهم مايمنعهم إلاَّ العناد، ولهذا حين سأل الأخنس أبا جهل عن رأيه

---

(١) تفسير ابن كثير: جـ٤، ص٤٦٩.
(٢) السيرة النبوية: لابن هشام جـ١، ص٣٣٧ (باختصار).

فيما سمعه من محمد قال: ماذا سمعت!! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه!! والله لانؤمن أبداً ولا نصدقه[1].

وهذا أيضاً شاهد لما ذكرناه في المظهر الأول من أن المانع من تأثير القرآن في مشركي مكة هو العناد.

المظهر الثالث:

ولأن الكفار يدركون تأثير القرآن في نفوس سامعيه فإنهم كانوا يخشون استيلاءه على قلوب الناس عند سماعه فكانوا يستقبلون الوافدين إلى مكة ويحذرونهم من الاستماع إلى محمد ﷺ أو مجالسته كل هذا لما يعرفون من تأثيره.

بل كانوا إذا شرع ﷺ في القراءة يخشون كل الخشية أن يصل إلى أذهانهم فلا يستطيعون رده عن الاستيلاء على قلوبهم فيسعون سعيهم لقطع هذا التيار من النفاذ إلى القلب: ﴿وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآنِ والْغَوا فيهِ لعلّكم تغلِبُون﴾[2].

وحين قال زعماؤهم هذه المقولة فإنهم لم يقولوها وهم في منجى من تأثيره فلولا أنهم أحسوا في أعماقهم روعته وأدركوا في قلوبهم تأثيره ماحذروا قومهم هذا التحذير وما تنادوا هذا النداء وقد كانوا يتأثرون لكنهم كانوا يستكبرون: ﴿وإذا تُتْلَى عليه آياتُنا ولّى مستكبراً كأنْ لم يسمعْها كأن في أُذنيهِ وَقْراً، فبشِّرْهُ بعذابٍ أليم﴾[3].

المظهر الرابع:

أن الرسول ﷺ لم يُكَلَّف: (أن يهدي من أحب) ومن لم يحب أيضاً إلى الإيمان، وإنما كلف بأن يُسْمعَ المشركين كلام الله: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْهُ حتى يسمعَ كلامَ اللهِ، ثم أبلِغْهُ مأْمَنَهُ ذلك بأنّهم قومٌ لايعلمون﴾[4]

ولولا هذا التأثير القوي لسماع كلام الله لما كان هو الحد الفاصل لنهاية إجارة المشرك

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٣٧ـ٣٣٨.
(٢) سورة فصلت: الآية ٢٦.
(٣) سورة لقمان: الآية ٧.
(٤) سورة التوبة: الآية ٦.

المظهر الخامس:

تأثيره في طائفة من النصارى وقد حدثنا القرآن عن ذلك فقال: ﴿لتجدنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركُوا ولتجدنَّ أقربَهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون، وإذا سمعُوا ماأُنزِلَ إلى الرسولِ ترَى أعينَهُم تفيضُ مِنَ الدّمْعِ ممّا عَرَفُوا من الحقّ يقولُون ربّنا آمنّا فاكْتُبْنَا معَ الشّاهِدين﴾[1] .

هذه بعض مظاهر تأثير القرآن الكريم في نفوس جماعات ـ وليس في أفراد ـ من الذين لم يؤمنوا فآمن بعضهم، ومنع العناد والاستكبار بعضهم الآخر، وهكذا رأيت فيما سقناه، أمثلةً على تأثيره في نفوس الأفراد وفي نفوس الجماعات من المناوئين له، وإذا كان هذا بعض أثره في خصومه فكيف سيكون أثره في أتباعه.

إن شئت أن نجمل الحديث قلنا ماقال السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ (قد مات جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف)[2] ، وقال الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ (ولقد كان في الخائفين من خرَّ مغشياً عليه عند آيات الوعيد، ومنهم من مات في سماع الآيات)[3] .

أما إن شئت ذكر بعض صور هذا التأثير فإنا نذكر هنا صوراً خاطفة لتأثيره في المسلمين، وأولهم رسول اللهﷺ، فقد روى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: اقرأ عليَّ. قلتُ: يارسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل؟!، قال: نعم، فقرأتُ سورة النساء حتى أتيتُ إلى هذه الآية: ﴿فكيف إذا جئنا من كلِّ أمةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾[4] .

قال: حسبك الآن، فالتفت فإذا عيناه تذرفان[5] .

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨٢ـ٨٣.

(٢) الإتقان: السيوطي جـ٢، ص١٢٣.

(٣) إحياء علوم الدين: الغزالي جـ١، ص٢٩٣.

(٤) سورة النساء: الآية ٤١.

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب ٣٣ جـ٦ ص١١٣.

وهذا أبو بكر رضي الله عنه أفضل الأمة بعد نبيها لما اشتد مرض الرسول ﷺ قال: مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالنّاس، قالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يارسول الله، إنَّ أبا بكرٍ رجل رقيق إذا قرأ القرآن لايملك دمعه[1] .

أما عمر رضي الله عنه، فقد سبق بيان تأثير القرآن في قلبه قبل إسلامه، أما بعد إسلامه، فقد روى ابنه عبدالله قال: صليت وراء عمر فسمعت حنينه (أي أنينه)، من وراء ثلاثة صفوف[2] ، وروى هشام عن الحسن، كان عمر يمر بالآية في ورده فتخنقه العبرة فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد، يحسبونه مريضاً[3] ، وقال عبدالله بن شداد: سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح، وهو يقرأ سورة يوسف حتى بلغ: ﴿إنَّما أشكُو بَثّي وحُزْني إلى اللهِ﴾[4] [5] .

كيف لا!! وقد تحدث الله سبحانه وتعالى عن أثر القرآن في آيات منها: ﴿اللهُ نزَّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثاني تقشعِرُّ منه جلودُ الذين يخشَونَ ربَّهم ثم تلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله، ذلك هُدَى اللهِ يهدِي بهِ مَنْ يشاءُ ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فمَا لهُ مِنْ هَادٍ﴾[6] .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إنَّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم، وإذا تُليتْ عليهم آياتُهُ زادتْهُم إيماناً وعلى ربِّهم يتوكَّلون﴾[7] . وعدَّ هذا من صفات عباد الرحمن فقال سبحانه: ﴿والذين لايشهدُون الزُّورَ وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كِراماً، والذين إذا ذكِّروا بآياتِ ربِّهم لم يخرُّوا عليها صُمّاً وعُمياناً﴾[8] .

بل جعل الخشوع للقرآن من صفات الذين أوتوا العلم واقرأ قوله تعالى:

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ٦، ص٢٢٩، ورواه بألفاظ أخرى البخاري في صحيحه جـ٤، ص١٢٢، والترمذي في سننه، جـ٥، ص٦١٣، والدارمي جـ١، ص٣٩.
(٢) حلية الأولياء: أبو نعيم الأصفهاني جـ١، ص٥٢، وتاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي، ص١٩٢.
(٣) حلية الأولياء، جـ١، ص٥١، وتاريخ عمر بن الخطاب: ابن الجوزي، ص١٩٢.
(٤) سورة يوسف: من الآية ٨٦.
(٥) تاريخ عمر بن الخطاب: ابن الجوزي ص١٩٢.
(٦) سورة الزمر: الآية٢٣.
(٧) سورة الأنفال: الآية ٢ .
(٨) سورة الفرقان: الآيتان ٧٢ـ٧٣.

﴿وقرآناً فرقناه لتقرأهُ على النّاسِ على مُكْثٍ، ونزّلناهُ تنزيلاً، قُلْ آمنوا به أو لاتؤمنوا إن الذين أُوتوا العلم من قبلهِ إذا يُتْلَى عليهم يخرُّون للأذقان سجّداً ويقولُون سبحانَ ربّنا إنْ كانَ وَعْدُ ربّنا لمفعولا، ويخرُّون للأذقانِ يبكونَ ويزيدُهم خُشُوعا﴾[1]

هذا هو القرآن ـ أيها الأحبة ـ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ويخرُّون للأذقان يبكون حين يلامس الوجدان فتوجلُ منه القلوب، وتهتزُّ الأبدان، وتتحرَّك المشاعر، وتفيض الدموع، وتحشرج الصدور.

يسمعه المؤمنون فيزدادون إيماناً إلى إيمانهم، ويسارعون إليه خاشعين ولربهم منيبين.

ويسمعه الكفار والمشركون فيملك منهم الأفئدة ويستولي على القلوب فيذعنون.

ويسمعه المعاندون المستكبرون عن الحق فيقولون: إن هو إلاَّ سحرٌ مبين، أو يقولون: لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلَّكم تغلبون... فيقرون بتأثيره في القلوب من حيث يشعرون أو لا يشعرون...

٦ ـ معارف القرآن العظيم الشاملة:

لم يقتصر القرآن الكريم على علم دون علم، وإن كان غرضه الهداية العامة للناس، فإنه اشتمل على معارف تقوم بها الحجة، ويعم بها النفع، وتشهد بملء فيها باستحالة إتيان مثل محمد ﷺ بها من عند نفسه، وهو الرجل الأمي، بل باستحالة ذلك على الخلق كلهم إنسهم وجنهم، مهما أوتوا من علم وأدب، فهو الكتاب الذي حوى المعارف من أطرافها وأطرها أطراً لهداية الناس.

يسوق الحجة، فإذا أفواه الفلاسفة فاغرة مازجها العجب والدهش لقوة الحجة، وجزالة اللفظ، ووضوح العبارة، يهدم فكر أهل الأوثان، ويصحح تحريف أهل الأديان، ويقدم العقيدة الصحيحة نقية طاهرة كاملة شاملة. وإذا العلماء منه يستقون وعلى منهله يردون، وإذا المعارف تتفجر منه ينابيع، وإذا بها ترجع إليه رجوع الفرع إلى الأصل.

وقد عدَّ السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (الإتقان): «النوع الخامس والستون

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ١٠٦ـ١٠٩.

من علوم القرآن في العلوم المستنبطة من القرآن ثم أورد بعض الأقوال في أن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين وقد كان الناس يدركون منه مايدركون إلى أن قام أهل العلم فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه.

فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعدد كلماته، وآياته، وسوره، وأحزابه، وأنصافه، وأرباعه، وعدد سجداته... فسموا القراء!.

واعتنى النحاة بالمعرب منه، والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدي... الخ.

واعتنى المفسرون بألفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ولفظاً يدل على معنيين، ولفظاً يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية والنظرية، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده... الخ، وسموا هذا العلم بأصول الدين، وتأملت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها مايقتضى العموم، ومنها مايقتضي الخصوص، إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز.

وتكلموا في التخصيص، والإخبار، والنص، والظاهر، والمجمل، والمحكم، والمتشابه، والأمر، والنهي، والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله وفرّعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً.

وتلمحت طائفة مافيه من قصص القرون السابقة والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودوّنوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأوّل الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص.

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير وذكر الموت

والميعاد، والنشر والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار، فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر، فسمّوا بذلك الخطباء والوعّاظ.

وأخذ قوم مما في آيات المواريث من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك علم الفرائض واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض.

ونظر قوم إلى مافيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتّاب والشعراء إلى مافيه من جزالة اللفظ، وبليغ النظم، وحسن السياق والمبادىء، والمقاطع والمخالص، والتلميح في الخطاب، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك، واستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع.

وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل «الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة وغير ذلك»[1].

والمؤلفات التي تعتمد على القرآن الكريم في هذه العلوم كثيرة ليس هذا مجال حصرها، لاندعي أن كل مافيها مستمد من القرآن لكنا نؤكد أنهم يستشهدون ببعض آياته على بعض قضاياه، ومازال العلماء حتى وقتنا هذا يكتبون ويكتبون في علوم شتى، ومعارف متعددة، وهم يوثقون قولهم ويدعمون آراءهم بآيات من القرآن الكريم وما ذاك إلّا لأنّ هذا القرآن حوى من المعارف أصولها أو أشار إلى شيء من بحوثها.

ولذلك لايعرف التاريخ كله كتاباً درسه الدارسون، وألّف في علومه المؤلّفون، وصنّف فيه المصنّفون، مثل القرآن الكريم، فهذا أمر خاص بالقرآن الكريم لايشترك معه فيه كتاب لا من قبله ولا من بعده.

٧ ـ وفاء القرآن العظيم بحاجات البشر:

نزل القرآن الكريم في أمة ترسخ تحت أعباء الجاهلية وقد اكتست من الجهل سربالاً بعقائد منحرفة وتشريعات ضالة وأخلاق رذيلة ومجتمع متفكك العرى لا سياسة توحّد صفوفهم ولا مصلحة اقتصادية تربط بينهم ديدنهم توارث الأحقاد والعداوات وشأنهم إشعال الحروب، يهضمون حق المرأة كل الهضم ويسترقون أحرار الرجال بلا حقّ، ويكبلون العقول، ويقيّدون الأفكار.

---

(١) انظر الإتقان: السيوطي جـ٢، ص١٢٦ـ١٢٧.

تأمل العناصر السابقة تجدها جماع أسباب هلاك الأمم وضياعها وأنَّى لأمة تئن تحتها أن تفلح وأنَّى لأمَّةٍ تنهج هذا النهج أن تنجح بل إن كل واحد من هذه الأسباب وحده كافٍ لضياع الأمة، فكيف إذا تكالبت عليها الأسباب كلها ولحكمة جمع الله سبحانه الأسباب كلها في أولئك القوم... ليعلم الناس أن القرآن حين ينتشل هذه الأمة مع هذه الأسباب فهو على إنقاذ غيرها ـ وهم دونهاـ أقدر فكيف إذا كان رفعها من أدنى درجات الجاهلية إلى درجة الكمال الإسلامية!!.

كان القوم في الجاهلية يعبدون الأصنام والأوثان ويسجد أحدهم للتمرة ثم يأكلها، وإذا كان في فلاة اختار أربع حجارة وضع ثلاثاً منها لقدره، واتَّخذ الرَّابعة إلٰهاً[1]. كان يسلم أموره ومعيشته لهذه الأصنام التي لاتضر ولاتنفع إنها الجاهلية.

كان المجتمع يقوم على العصبيات والفوارق الاجتماعية، التمايز والتفاضل بينهم يقوم على الحسب والنسب، يهجو شاعر قبيلة ظلماً وعدواناً فيطأطىء أفراد القبيلة رؤوسهم خجلاً أو ينتقمون من الشاعر ومن قبيلته.. إنها الجاهلية.

لم تكن ثَمَّ سياسة داخلية بينهم تقوم على العدل والمساواة الحقة، وتراعي الفضائل وتجتنب الرذائل ولاسياسة خارجية تربطهم بالدول المجاورة وتحفظ حقوق مواطنيها هناك، بل كان زعماؤهم يذهبون إلى الدول المجاورة فيدخلون على ملوكها، كما يدخل عليهم سائر الناس.

لامصلحة اقتصادية تربط بينهم، فقد كانوا يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، القويُّ يأكل الضعيف، قام اقتصادهم كله على الرحلة في الصيف إلى الشام، وفي الشتاء إلى اليمن، لم يقم اقتصادهم على قدميه، ولم يفكر أحدهم بالزراعة والصناعة، إنها الجاهلية.

المرأة وماأدراك ماالمرأة، تُباع وتُشترى وتُوهب، بل وتُورث، كما تُورث بهيمة الأنعام، لايعرف لها حق ولايحترم لها فكر.. إنها الجاهلية.

الحرب. وتلك قاصمة تشتعل فيما بينهم لتافه الأمور، ولايطفئها إلاَّ مرُّ العصور والدهور.

نزل القرآن وهم على هذه الجاهلية، وجاء وافياً بحاجات هذا المجتمع.

أصلح العقيدة بالتوحيد، والتذكير بالمبدأ والمعاد، وأصلح العبادات بإرشادهم إلى

---

(١) سنن الدارمي جـ١ ص٤.

مايزكي النفوس ويطهِّر القلوب، وأصلح الأخلاق، فبيَّن فضائلها، وأمر بها، وكشف رذائلها، وحذَّر منها، وأصلح المجتمع بإزالة الفوارق الاجتماعية، وأرشدهم إلى (لافضل لعربي على عجمي إلاَّ بالتقوى)[1]، وأصلح سياسة البلاد في الداخل بالحكومة الإسلامية العادلة، وفي الخارج بإقامة علاقات سياسية تحفظ حقوقهم هناك.

وأصلح المال والاقتصاد فأمر بالزكاة والصدقة، وحرَّم الرِّبا، وحثَّ على الزراعة والصناعة والحِرفة والعمل والإنتاج، وحذَّر من البطالة.

وأعطى المرأة حقوقها في المال وفي البيع والشراء وفي اختيار الزوج وفي الإرث، وغير ذلك، حتَّى بوَّأها منزلة لم تعط مثلها في كل المجتمعات وفي كل الأديان.

ووضع للحرب شروطها، ووضَّح مبادئها وغاياتها، وأمر بالوفاء بالمعاهدات، وآثر السَّلم عليها، وشرع الجزية لدرئها، وأمر بجهاد أهل العناد، وأباح أملاكهم فيئاً وغنيمة للمسلمين، ودعا لتحرير الرقيق وجعله كفَّارة للأيمان والظهار والنذر، وحثَّ على عتق الرِّقاب، وحذَّر من الجور عليهم والظُّلم لهم واسترقاق الأحرار بغير حقٍّ.

وفوق هذا كله جاء بالحرية.. الحرية الحقَّة لا كما يفهمها بعض الناس من أنها حرية من ضوابط السلامة وحريَّة من الوفاء بحقوق الرب، وبحقوق الناس، ومَنَعَ الإكراه حتى في الدين وبيَّن أن مهمَّة الرَّسول هي التذكير: ﴿فذكِّرْ إنَّما أنت مذكِّر لستَ عليهم بمسيطر﴾[2].

وحين التزم القوم هذه المبادىء انقلب ثَمَّ مجتمعهم في زمن هو بالنسبة للقرون من بعدهم كلمح البصر إلى خير القرون، وماذاك إلاَّ لأن فيه وفاءً بحاجات مجتمعهم.

ومازالت المجتمعات ـ من قبل ومن بعد ـ ترسخ تحت أعباء من وجوه الجاهلية تلك، وتعاني من ذلك الداء الوبيل، فمجتمعات تعاني من انتشار الجريمة، ومجتمعات تعاني من انتشار الخمور والمخدرات، ومجتمعات تعاني من فشو الزنا والتهتُّك والانحلال الخلقي، ومجتمعات تعاني من العصبية العرقية، ومجتمعات تعاني من العزل السياسي، ومجتمعات تعاني من الرِّبا والمشاكل الاقتصادية، ومجتمعات تهضم المرأة حقها، ومجتمعات انتشر فيها بيع الأطفال والأرقاء، ومجتمعات تعاني من الحروب، ومجتمعات كبَّلت مواطنيها بالقيود ورمتهم في السجون لالشيءٍ إلاَّ لإرغامهم على القول بما يقولون.

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ٥ ص٤١١.
(٢) سورة الغاشية: الآيتين ٢١ـ٢٢.

وقد حاولت دولٌ عظمى ـ بميزان القوة المادية ـ أن تقضي على مشاكلها أو على بعضها، وأنفقت على علاج بعضها الملايين وعجزت.

وفي التشريعات مازالوا يتخبطون، يشرّعون ثمّ يرجعون، ويطالبون ثمّ ينكسون، مااهتدوا لصواب وما عرفوا الطريق.

وفي الاقتصاد يعاني العالم أجمع، غنيُّه وفقيره من مشاكله، لاالغني يستطيع أن يرسم خطته ومدينه مفلس، ولا الفقير بقادر على أن يسدد دينه، وهو لايستطيع إعياءً وجوعاً أن يرفع يده.

كلُّ هذا كان علاجه بالقرآن لو كانوا يعلمون..

عالجها في المجتمع الجاهلي مُجتمعةً متكالبةً فهو على علاجها آحاداً أكثر قدرةً..

وفي هذا أكبر دليل وأقوى حجة وأنصع برهان على أن في القرآن وفاءً بحاجات البشرية كلِّها، لو كانوا يفقهون.

٨ ـ تأييد القرآن العظيم للحقائق العلمية:

لاأريد بهذا أن أخوض في حديث طويل لاينتهي عن الإعجاز العلمي والتفسير العلمي[١]، لكنّي أريد النتيجة التي تلتقي عندها كل هذه الأبحاث، والتي انتهى إليها المفكرون والعلماء.

تلكم أن المؤيدين للتفسير العلمي والمعارضين له أيضاً، كلُّهم بلا استثناء يقرون ويعترفون أن القرآن الكريم لم ولن يصادم حقيقة علمية، بل هو المؤيِّد للحقائق العلمية!!.

لم يقولوا هذا عن عاطفة مجردة، ولم يقله أتباع القرآن فحسب، وإنما قاله أولئك، وقاله خصومه أيضاً بعد أن تناولوا آيات عديدة منه، وقلّبوها دراسة وتأمُّلاً وتدبُّراً، ونظروا فيما بين أيديهم من النظريات والحقائق العلمية، حتى انتهوا إلى ماانتهوا إليه.

وقد يحسب أحد أن السلامة من مصادمة الحقائق العلمية أمر هين فما على المتكلم إلاّ أن يتجنب الخوض في مجالاتها، ويحذر من الوقوع في مبهمات العلوم، وغوامض المعارف، وأسرار الكون، وخفايا العلم، وبذا يظفر بهذه السمة.

---

(١) وسيكون لهذا البحث فصوله الخاصّة به في أثر القرآن العظيم في العلوم الكونية، فيما سيأتي، إن شاء الله تبارك وتعالى.

والأمر حق لو كان القرآن سلك هذا المسلك لكنه وقد أنزل منذ مايزيد على أربعة عشر قرناً من الزمن، عرض لكثير من مظاهر هذا الوجود الكونية، كخلق السموات والأرض، وخلق الإنس والجن والملائكة، وسوق السحاب، وتراكمه، ونزول المطر، وجريان الشمس والقمر، وتحدّث عن الكواكب والنجوم والشُّهب والصعود في السماء، وعن أطوار الجنين وعن النبات والبحار والجبال، وما تحت الثّرى، وعرض لمعارف شتّى، وعلوم متعددة، ومع هذا كلّه لم يسقط العلم كلمة من كلماته، ولم يصادم جزئية من جزئياته، ممّا بوّأ القرآن مكانةً لم يشاركه فيها كتاب من قبله ولا من بعده، فما من كتاب عرض لمثل ماعرض له القرآن الكريم، إلاّ وكشف الزمن زيفه، وأبطلت الحقائق العلمية الثابتة خطأ نظرياته، حاشا القرآن الكريم، فما زالت آياته عالية لايطالها شيء من ذلك لالشيء إلاّ لأنها كلام من وسع كل شيء علماً، وكفى بهذا إثباتاً لخاصة من خصائص القرآن الكريم، لايشترك معه فيها كتابٌ، على ماخص بخصائص لم تكن لسواه!!.

وبيان ذلك ـ كما يقول الزرقاني رحمه الله تعالى ـ: (إن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجُمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنّه سبيكة واحدة، ولايكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سِمط[1] وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار: نظمت حروفه وكلماته، ونُسّقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقاً لأوله، وبدا أوله مواتياً لآخره)[2].

٩ ـ سهولة فهم القرآن العظيم مع علوّ مطالبه:

وختام خصائص القرآن العظيم:

أنّه لايعلو عن أفهام العامّة ولايقصر عن مطالب الخاصة:

وهذان مطلبان لايدركهما الفصحاء والبلغاء من الناس، فلجأوا إلى قاعدة يعتذرون بها فقالوا: (لكل مقام مقال)، أما أن يأتي كلام واحد يخاطب به العلماء والعامة، والملوك والسوقة، والأذكياء ومن دونهم، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، ويرى فيه كل منهم مطلبه ويدرك من معانيه مايكفيه، فذلك مالا نجده على أتمه وأكمله إلا في

---

(١) السِّمْطُ: القلادة.
(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن: الزرقاني ١/ ٥٣.

القرآن الكريم وحده.

يقرأ فيه العامي فيشعر بجلاله ويذوق حلاوته، ولا يلتوي عليه فهمه، فتدركه هيبتُه، ويستولي عليه بيانه، وتغشاه هدايتُه، فيخشع قلبُه، وتدمع عيناه، فينقاد له ويذعن.

ويقرأ فيه العالم فيدرك فصاحَتَه، وتُهيمن عليه بلاغتُه، ويملكه بيانه، وتنجلي له علومه ومعارفه، وتشدهه أخباره وأنباؤه، فيجد فيه زِمَامَ فكره، وقياد عقله، ومنهج علمه، ومحار فكره، ورفعة شأنه[1] ، فيُذعن ﴿ربَّنا وسعتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً﴾[2] ، ثم يرفع يديه: ﴿ربِّ زدني علماً﴾ [3] ، فتدركه الخشية[4] ، ويذعن لربه ويؤمن بشرعه.

والآيات هي هي هنا وهناك لم تتغير ولم تتبدل، ولانقصد ـ معاذ الله ـ أن الآية تحتمل وجهين متعارضين وجهاً للعامة ووجهاً للخاصة، بل هو معنى واحد لكنه من العطاء بحيث يدرك منه كل قارىء قدر طاقته ووسع عقله وفكره فلا يحمله مالا يطيقه، ولا يقصر عن حاجته.

وزد على هذا كله أنه لايخاطب العامة والخاصة في عصر واحد، إذاً لهان الأمر على صعوبته، لكنه يخاطب أولئك في كل عصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يخاطب العلماء وقت نزول القرآن ويخاطبهم الآن في عصرنا هذا ويخاطب علماء القرون الآتية إن كان ثَمَّ قرون لم ولن يجد فيه أحد منصف من هؤلاء قصوراً في معانيه، ولا خللاً في تراكيبه، ولا عيباً في أساليبه، وقل مثل هذا في العامة في كل عصر، كل هذا مع تحوُّل الأساليب وتغيُّرها من قرنٍ إلى قرن، لاتنبو عن أفهامهم لفظة، ولا يلتوي على ألبابهم معنى، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان أكثر ممَّا يحتاجون إلى فهم لغتهم العربيّة. قسماً بمنزل القرآن أنَّ هذا لايكون في كلام البشر الذي إن أرضى العامّة بمعانيه المكشوفة وحقائقه الظاهرة هبط عن ذوق الخاصَّة ومشربهم وعقولهم، وإن أرضى العلماء منهم بدقائقه ورموزه وإشاراته عجزت عقول العامة عن دركه فانصرفت أذهانهم ومجَّته أذواقهم.

فهيهات هيهات أن تقوى البشرية كلها والجن أجمع على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو اجتمعوا له.

---

(١) قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾، المجادلة، الآية: ١١.

(٢) سورة غافر: الآية ٧.

(٣) سورة طه: من الآية ١١٤.

(٤) قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. فاطر من الآية ٢٨.

الفصل الأول

مكانة القرآن العظيم

في فصاحته وبلاغته وإعجازه وعظمته

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:

التمهيد: وجوب إدراك وجوه إعجاز القرآن العظيم.

البحث الأول: فصاحة القرآن العظيم وبلاغته.

البحث الثاني: وجوه إعجاز القرآن العظيم.

البحث الثالث: إعجاز النّظم القرآني: جزالته وتناسقه.

البحث الرابع: إعجاز الأسلوب القرآني الفريد.

البحث الخامس: عظمة القرآن ووحدته الموضوعية.

البحث السّادس: إعجاز القرآن في إيقاظ العقل البشري وتحريره من الضلال.

البحث السّابع: أسلوب التحدي في القرآن لإثبات الوحدانية وصدق النّبوّة.

البحث الثامن: الإعجاز التشريعي للقرآن العظيم.

البحث التاسع: الإعجاز الغيبي في القرآن العظيم.



التمهيد: وجوب إدراك وجوه إعجاز القرآن العظيم

معنى الإعجاز:

إنّ المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة مقرون بالتّحدي، سالمٌ عن المعارضة، وهي إمّا حسيّة وإمّا عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل حسيّة؛ لبَلادَتهم وقلّة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية؛ لِفَرطِ ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأنّ هذه الشريعة لمّا كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية، ليراها ذَوو البصائر، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنَ الأنبياء نبيّ إلاّ أُعطي مَا مِثْلُهُ آمَنَ عليه البشرُ، وإنّما كان الذي أُوتيتُه وَحْياً أوْحَاهُ الله إليّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً» أخرجه البخاري.

ومعناه: أنّ معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلاّ مَن حضرها، ومعجزة القرآن مستمرّة إلى يوم القيامة[1] . . .

إعجاز القرآن الكريم:

القرآنُ الكريم مُعجزٌ في أسلوبه وبلاغته، وأخباره بالمغيّبات؛ فلا يمرّ عصرٌ من الأعصار، إلاّ ويظهر فيه شيءٌ مِمّا أخبر به أنّه سيكون؛ يدلّ على صحة دعواه. . . .

وإنّ المعجزات الواضحة الماضية، كانت حسيّة تُشاهد بالأبصار، كناقة صالح - خلقها الله تعالى من الصخرة - وعصا موسى. ومعجزاتُ القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون مَنْ يتّبعُهُ لأجلها أكثر؛ لأنّ الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراضِ مَشَاهِدِه، والذي يشاهد بعين العقل باقٍ يُشاهِدُ كلُّ مَن جاء بعد الأول مستمراً[2] .

قال الحافظ بن حجر في «فتح الباري»:

«إنّ كتاب الله تعالى معجز، لم يقدر أحدٌ على معارضته بعد تحديهم بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة/٦]، فلولا أنّ سماعه حجةٌ عليه، لم يقف أمرُهُ على سماعه، ولا يكون حجة إلاّ وهو معجزة!! وقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾؟

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/١١٦.
(٢) الإتقان ٢/١١٧.

[العنكبوت/ ٥٠ـ٥١]، فأخبر أنّ الكتابَ آياتٌ من آياته، كافٍ في الدلالة، قائم مقام معجزاتِ غيره، وآياتِ مَن سواه من الأنبياء، ولمّا جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليهم، وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء، وتحدّاهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور/ ٣٤]، ثم تحدّاهم بعشر سوَرٍ منه في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود/ ١٣]، ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فاعْلَمُوا أَنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ [هود/ ١٤]، ثم تحدّاهم بسورةٍ في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس/ ٣٨]، ثم كرّرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ الآية [البقرة/ ٢٣]، فلمّا عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه، على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، نادَى عليهم بإظهار العجز وإعجازِ القرآن، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لَايَأْتُون بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء/ ٨٨]، فهذَا وهم الفصحاء اللُّدُّ؟ وقد كانوا أحرصِ شيءٍ على إطفاء نوره وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لَعَدلُوا إليها قطْعاً للحجّة، ولم ينقل عن أحدٍ منهم أنّه حدّث نفسَه بشيءٍ من ذلك ولا رامه، بل عَدَلُوا إلى العِناد تارةً، وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا سحرٌ، وتارةً قالوا: شعرٌ، وتارةً قالوا: أساطير الأوّلين، كلُّ ذلك من التحيُّر والانقطاع ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم، وسَبْيِ ذَرَارِيهم وحرمهم، واستباحة أموالهم، وقد كانوا آنَفَ شيءٍ وأشدّه حَمِيّةً، فلو علموا أنّ الإتيان بمثله في قدرتهم، لبادروا إليه؛ لأنّه كان أهون عليهم. كيف وقد جاء الوليدُ بن المغيرة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقرأ عليه القرآن، فكأنّه رَقَّ له، فبلغَ ذلك أبا جهلٍ، فأتاه فقال: ياعمّ إنّ قومك يُريدون أن يجمعوا لك مالاً ليُعطوكَه لئلاّ تأتي محمداً؛ لِتُعْرِضَ لِما قَالَه ـ أي: لتدعَ سماع القرآن ـ قال الوليد: قد علمتْ قريشٌ أني من أكثرها مالاً؟ قال أبو جهل: فقلْ قولاً يبلغُ قومَكَ أنّك كارهٌ له؟ قال: وماذا أقول؟ فوالله مافيكم رجلٌ أعلم بالشعر منّي، ولا برجَزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، والله مايُشبه الذي نقول شيئاً من هذا، ووالله إنّ لقوله الذي يقول حلاوةً، وإنّ عليه لطلاوةً، وإنّه لمثمرٌ أعلاه، مُغدقٌ أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعْلى عليه، وإنّه ليحطّم ماتحته!!! قال: لايرضى عنك قومُكَ حتى تقول فيه. . ـ أي: غير هذا القول، الذي يبدو عليه الإذعان له ـ قال: فدعني حتى أفكر، فلمّا فكر قال: هذا

سِحرٌ يُؤْثَر. . ـ فارتدّ عمّا قاله من الحق[1] .

وجوب الاهتمام بوجوه الإعجاز:

ولمّا ثَبَتَ كونُ القرآن معجزة نبيِّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وجَبَ الاهتمام بمعرفة وجوه الإعجاز.

قال الحافظ السيوطي: «وقد أفردَ علماؤنا رضي الله عنهم بتصنيف إعجاز القرآن، وخاضوا في وجوه إعجازه كثيراً، منهم الخطابي، والرمّاني، والزملكاني، والإمام الرازي، وابن سراقة، والقاضي أبو بكر الباقلاّني، وأنهى بعضُهم وجوه إعجازه إلى ثمانين. والصواب: أنّه لا نهاية لوجوه إعجازه، كما قال السكاكي: اعلمْ أن إعجاز القرآن يُدرك ولا يمكن وصفه»[2] .

مَن يُدرك إعجاز القرآن:

قال أبو الحسن الأشعري: «لإنّ الأعجمي لايمكنه أن يعلم إعجازه إلاّ استدلالاً، وكذلك مَن ليس ببليغ. فأمّا البليغ الذي أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة، فإنّه يعلم من نفسه ضرورة عجزه، وعجز غيره عن الإتيان بمثله»[3] .

وجوه إعجاز القرآن:

لقد ذكر الحافظ السيوطي من وجوه إعجاز القرآن خمسة وثلاثين وجهاً، في كتابه الكبير «معترك الأقران في إعجاز القرآن» نذكرها لك في هذا التمهيد بإيجاز، وهي:

الوجه الأول: احتواؤه على علوم ومعارف، لم يجمعها كتاب من الكتب، ولا أحاط بعلمها أحد، قال الله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام/ ٣٨]، وقال الإمام الشافعي: «ليستْ تنزِل بأحدٍ في الدين نازلةٌ إلاّ وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها». وقال مرّةً: «سَلُوني عمّا شِئتُم، أُخبرْكم عنه من كتاب الله».

الوجه الثاني: كونه محفوظاً عن الزيادة والنقصان، محروساً عن التبديل والتغيير على تطاول الأزمان، بخلاف سائر الكتب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحِجر/ ٩]، فلم يقدر أحدٌ بحمد الله على التجاسُرِ عليه.

---

(١) الإتقان ٢/ ١١٧.
(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن ١/ ٣ـ٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ٦.

الوجه الثالث: حُسْنُ تأليفه، والتئام كَلِمِه وفصاحتها، ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن.

الوجه الرابع: مناسبة آياته وسوره. وعلمُ المناسبة علمٌ كبير قلَّ اعتناء المفسرين به لدقّته. وممّن أكثرَ منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

الوجه الخامس: افتتاح السور وخواتمها، وهو من أحسن البلاغة، وهو أن يتأَنق في أول الكلام؛ لأنّه أول مايقرع السمعَ. وقد أتت فواتح جميع السُّوَر على أحسن الوجوه وأكملها. وخواتم السور مثل الفواتح في الحُسْن، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام.

[فاتحة القرآن وخاتمتاه]:

ولمّا كان القرآن العظيم من أعظم نعم الله على عباده؛ افتتحه بسورة الحمد، والنعمةُ مظنّةُ الحسد، فختمه سبحانه بالمعوّذَتين، ليطفىء الحسد بالاستعاذة بالله تعالى. فجمع الله تعالى بذلك بين حُسْن الافتتاح وكمال الاختتام.

الوجه السادس: مُشْتبهات آياته: وذلك أنّ القصة الواحدة ترد في سُور شتَّى وفواصِلَ مختلفة، بأن تأتي في موضعٍ واحدٍ مقدّماً وفي آخر مؤخّراً، وفي موضع معرّفاً وفي آخر منكّراً، أو مفرداً وفي آخر جمعاً. وهذا النوع يتداخل مع نوع المناسبات.

الوجه السابع: ورود آياته على وجه التعارض، ولا تعارض لأنه منزّه عن ذلك، ولكنه من الإعجاز في الكلام لدعوة السامع للبحث في وجوه التقابل والتعارض. قال الإمام الإسفرايني: «إذا تعارض الآيُ وتعذر فيها الجمع والترتيب طُلب التاريخ ـ أي: تاريخ النزول ـ وتُرِك المُتقدّم بالمتأخر، ويكون ذلك نسخاً. وإن لم يُعلم وكان الإجماع على العمل بإحدى الآيتين، عُلم بإجماعهم أنّ الناسخ ماأجمعوا على العمل بها. ولا يُوجد في القرآن آيتان متعارضتان تخلُوان عن هذين الوصفين».

الوجه الثامن: وقوع ناسخه ومنسوخه، وهو مِمّا خُصّت به هذه الأمة، لِحِكَم منها: التيسير والتخفيف، ورفع المشقة، والتدرّج في التحريم. ولايقع النسخ إلاّ في الأمر والنهي، فلا يقع النسخ في العقائد والوعد والوعيد والأخبار. وحكمة بقاء تلاوة الآية المنسوخة في القرآن، هو للتذكير بالرحمة التي حصلت في الآية الناسخة.

الوجه التاسع: انقسامه إلى مُحكم ومتشابه، والقرآن مُحكمٍ كلّه ـ من حيث ـ

لايتطرّق إليه النقص ولا التغيير، وهو يُشبه بعضُه بعضاً في الحق والصدق.

ثم إنّ المُحكم: ماعُرف المراد منه، إمّا بالظهور وإمّا بالتأويل. والمُتشابه: ماستأثر الله تعالى بعلمه، اختباراً لإيمانهم وكمال تصديقهم، كما جاء في رواية الحاكم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجرٍ، وآمرٍ، وحلالٍ، وحرامٍ، ومُحْكمٍ، ومتشابه، وأمثالٍ؛ فأحلُّوا حلالَه، وحرِّمُوا حرامَه، وافعلوا ماأُمِرتُم به، وانتهوا عمّا نُهيتُمْ عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمُحكمه، وآمنوا بمتشابهِه، وقولوا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُل مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

الوجه العاشر: اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيّتها. ومنه علم القراءات. ولاختلاف القراءات وتنوّعها فوائد، منها: التهوين والتسهيل والتخفيف على قبال الأمة. ومنها إظهار شرفها على سائر الأمم، إذْ لم ينزل كتابُ غيرهم إلاّ على وجه واحد. ومنها إظهار سرّ الله في كتابه وصيانته له عن التبديل والتحريف، مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة. ومنها المبالغة في إعجازه بإعجازه، إذْ تنوّع القراءات بمنزلة الآيات، ولو جُعلتْ دلالةُ كلٍّ لفظةٍ آيةٍ على حِدَة، لم يخفَ ماكان في ذلك من التطويل. ومنها أنّ بعض القراءات تُبيِّن مالعلّه محملٌ في القراءة الأخرى.

الوجه الحادي عشر: تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها وهو إمّا لكون السياق في كل موضع يقتضي ماوقع، وإمّا لقصد البداءة والختم به للاعتناء بشأنه. وإمّا لقصد التفنّن في الفصاحة وإخراج الكلام على عدّة أساليب.

وأسباب التقديم: إمّا للتبرّك، أو للتعظيم، أو للتشريف، أو للمناسبة، أو للحثّ والحضّ على شيء، أو للسبق، أو للسببيّة، أو للكثرة، أو للترقي، أو للتدلّي.

الوجه الثاني عشر: إفادة حصره واختصاصه، وهو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص.

الوجه الثالث عشر: احتواؤه على جميع لغات العرب وبلغة غيرهم. قال ابن جرير: «ماورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظه من القرآن إنّها بالفارسية أو الحبشية أو النبطية، أو نحو ذلك، إنّما اتفق فيها توارد اللغات، فتكلّمت العرب بها والفرس والحبشة بلفظ واحد». وإنّما وُجِدتْ هذه الألفاظ في لغة العرب؛ لأنها أوسع اللغات وأكثرها ألفاظاً. وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿قُرْآنَاً عَرَبِيّاً﴾ بأنّ الكلمات اليسيرة بغير العربية ـ إن وجدت ـ لا تخرجه عن كونه عربياً.

الوجه الرابع عشر: عموم بعض آياته وخصوص بعضها، وهو لفظٌ يستغرق الصالح له من غير حصر، وصيغتهُ «كل» مبتدأة نحو: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن/٢٦]، وكذا: الذي والتي، وتثنيتهما وجمعهما، وأي، وما، ومَنْ - شرطاً أو استفهاماً، أو موصولاً - وأمّا المخصوص فامثلته في القرآن كثيرة جداً.

الوجه الخامس عشر: ورود بعض آياته مجملةً وبعضها مبيّنةً، وفي ذلك من حُسْن البلاغة مايعجز عنه أُولُو الفصاحة. وللإجمال أسباب، هي: الاشتراك، الحذف، اختلاف مرجع الضمير، احتمال العطف والاستئناف، غرابة اللفظ، عدم كثرة الاستعمال، التقديم والتأخير، قلب المنقول، التكرير القاطع لوصل الكلام في الظاهر.

الوجه السادس عشر: منطوقه ومفهومه، والمنطوق: هو مادلّ عليه اللفظ في محل النطق. والمفهوم: هو مادلّ عليه اللفظ لا في محل النطق، وهو قسمان: مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة.

الوجه السابع عشر: وجوه مخاطباته، وهي على ثلاثين نحواً: خطاب العام المراد به الخصوص، والخطاب الخاص المراد به الخصوص، والخطاب الخاص المراد به العموم، وخطاب الجنس، وخطاب النوع، وخطاب العين، وخطاب المدح، وخطاب الذمّ، وخطاب الكرامة، وخطاب الإهانة، وخطاب التهكم، وخطاب الجمع بلفظ الواحد، وخطاب الواحد بلفظ الجمع، وخطاب الواحد بلفظ الأثنين، وخطاب العين المراد به غيره، وخطاب التلوين، وخطاب الجمادات، وخطاب التهييج، وخطاب التحنّن، وخطاب الاستعطاف، وخطاب التحبّب، وخطاب التعجيز، وخطاب التشريف، وخطاب المعدوم.

الوجه الثامن عشر: ماانطوى عليه القرآن من الأخبار المغيّبات، عن الماضي والمستقبل، وهي كثيرة.

الوجه التاسع عشر: القصص القرآني عن الأمم في القرون السالفة، وأحوال القرون البائدة، وعن أنبيائهم ورسلهم.

الوجه العشرون: روعة القرآن وهيبته، وهي التي تلحق سامعيه وقارئيه، وهي سرّ خالدٌ من أسراره الباقية الدائمة.

الوجه الحادي والعشرون: انّ سامعه لايمجّه، وأنّ قارئه لا يملّه، فالأسماع تطرب له، والقلوب تشغف به، فلا يَخْلَقُ على كثرة الترداد ولا يبلى.

الوجه الثاني والعشرون: تيسير حفظه، وتقريبه على متحفّظين، فهو الكتاب الأوحد من سائر الكتب الذي وعته الصدور وحفظته القلوب، حتى كان من حفاظه الأطفال قبل الرجال!.

الوجه الثالث والعشرون: اشتماله على وجوه الحقيقة والمجاز. وقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة.

الوجه الرابع والعشرون: تشبيهه واستعاراته، وهو من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها!!...

الوجه الخامس والعشرون: كناياته وتعريضه، والكناية أبلغ من التصريح.

الوجه السادس والعشرون: إيجازه في آية وإطنابه في أخرى، وهما من أعظم أنواع البلاغة. والإطناب إمّا بتكثير الجمل، وإمّا بإدخال حروف التأكيد، وهي: إنّ، وأنّ، ولام الابتداء، والقسم، وألَا الاستفتاحيّة، وأَمَا، وها التنبيه، وكأنّ في تأكيد التشبيه.

الوجه السابع والعشرون: وقوع البدائع البليغة فيه. وهو علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة.

الوجه الثامن والعشرون: احتواؤه على الخبر والإنشاء، وفيهما ينحصر الكلام. ويُقصد بالخبر إفادة المُخاطب، وهو على أنواع، فقد يأتي بمعنى الأمر، وبمعنى النهي، وبمعنى الدعاء. والإنشاء: يفيد إيجاد الشيء حالاً أو مستقبلاً، ومن أقسامه: الوعد والوعيد، والتوبيخ والتقرير، والتعجّب والعتاب، والتذكير والافتخار، والتفخيم، والتهويل والتخويف، والتنبيه والتكثير، والترغيب والتمني.

الوجه التاسع والعشرون: إقسامه تعالى لإقامة الحجة وتأكيدها.

الوجه الثلاثون: اشتماله على جميع أنواع البراهين الحسيّة والأدلة العقلية.

الوجه الحادي والثلاثون: اشتماله على ضُروب الأمثال. وعلم الأمثال في القرآن من أعظم العلوم، والناس في غفلة عنه. قال الإمام الشافعي: «ممّا يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن، معرفة ماضُرب فيه من الأمثال الدّوَالّ على طاعته سبحانه، المبيّنة لاجتناب معصيته». وإنّ مِمّا يُستفاد من ضرب الأمثال في القرآن: التذكير، والوعظ، والحثّ على الخير، والزجر عن الشر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد إلى العقل، وتصويره بصورة المحسوس، فهي أثبت في الأذهان.

الوجه الثاني والثلاثون: ماشتمل عليه القرآن من الآيات الجامعة للرجاء والعدل والتخويف، فتارةً يُرجي العصاة برحمته تعالى وتوبته عليهم إذا هم تابوا وأنابوا وتارةً يُخوّفهم إذا هم أقاموا على مالا يرضاه منهم.

الوجه الثالث والثلاثون: ورود الآيات المبهمة فيه التي تُحيّر العقول. وكان كثير من السلف من يعتني بهذا النوع، ومرجعه النقل المحض.

الوجه الرابع والثلاثون: احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة والأنبياء والمرسلين، وأسماء بعض القبائل، وبعض الجبال، وبعض الكواكب. وسمى الله في القرآن عشرة أجناس من الحيوان.

الوجه الخامس والثلاثون: اشتماله على الألفاظ المشتركة، وهذا الوجه من أعظم إعجاز القرآن الكريم، حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرّف إلى عشرين وجهاً، وأكثر وأقلّ، ولا يُوجد ذلك في كلام البشر!!...

هذه هي وجوه الإعجاز التي اشتمل عليها كتاب الحافظ السيوطي «معترك الأقران في إعجاز القرآن». وهو أجمع كتاب في هذا الخصوص.

البحث الأول

فصاحة القرآن العظيم وبلاغته

تعريف الفصاحة والبلاغة:

الفصاحة في اللغة: الظهور والبيان، ومنها أفصح اللبن إذا انجلت رغوته، ويقال أفصح الصبح إذا بدا ضوؤه واستبان[1]، ولسان فصيح أي طلق.

وفي القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام: ﴿وأخي هارونُ هو أفصحُ مني لساناً فأرسله معي﴾ القصص/ ٣٤.

وفصاحة الكلام في الاصطلاح: خلوصه من التعقيد. وفصاحة القرآن: كونه لفظاً عربياً مستعملاً مؤدِّي المعنى بوجه لاتعقيد فيه[2].

نجد أن التعاريف كلها تدور حول الإظهار والوضوح مع الخلوّ من التعقيد.

والبلاغة في اللغة: مأخوذة من البلوغ وهو الوصول إلى الشيء والانتهاء إليه. يقال بلغت المكان بلوغاً: وصلت إليه.

وفي الاصطلاح: البلاغة في الكلام: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ[3]. وقيل: أن يبلغ به المتكلم مايريد من نفس السامع بإصابة موضع الاقتناع من العقل والوجدان من القلب.

وفي لسان العرب: رجل بليغ: حسن الكلام فصيح يبلغ بعبارة لسانه كنه مافي قلبه.. وقال خالد بن صفوان: أبلغ الكلام ماقلّت ألفاظه وكثرت معانيه، وخير الكلام ماشوّق أوله إلى سماع آخره[4].

يقول الخفاجي في «سر الفصاحة»: (والفرق بين الفصاحة والبلاغة: أن الفصاحة

---

(١) «لسان العرب»: ٢/ ٥٤٥.
(٢) «الفوائد المشوق» لابن القيم، ص٩/.
(٣) «الفوائد المشوق» لابن القيم، ص٩/.
(٤) لسان العرب ج٨/ ٤٢٠/.

مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لاتكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني. لايقال في كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً)[١].

وإذا استعرضنا آيات القرآن الكريم من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس على تعريف الفصاحة والبلاغة، وشروط الألفاظ الفصيحة والكلام البليغ، لوجدنا كل آية قد تحققت فيها الفصاحة والبلاغة في أبهى صورهما، ولوجدنا أن معاني الكلمات تنساب إلى القلب قبل أن تبهرنا الألفاظ بجمالها الساحر، سواء في ذلك السور والآيات التي تلفت أنظارنا إلى الآفاق لنستدل على الخالق من لوحة إبداعه الرائعة أو الآيات المتعلقة بمبدأ البعث والنشور والموقف والحساب أو مايتعلق منها بتنظيم شؤون الحاكم مع رعيته، أو الأسرة وحقوق أفرادها، وغيرها من الأمور التي تولى القرآن الكريم الحديث عنها.

كل تلك الآيات عليها الصبغة الزاهية من البيان الرائع والجمال اللفظي في أبسط أسلوب وأوضحه وأقربه إلى الفهم والقلب.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم من العارفين بأفانين البلاغة يجد فيه فنونها بأسرها، من إفادة المعاني الكثيرة باللفظ القليل، ومن ضروب التأكيد، وأنواع التشبيه والتمثيل، إلى ضرب الأمثال، وأصناف الاستعارة، وحسن المطالع والمقاطع والفواصل، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، وخلوه عن اللفظ الغث الشاذ الخارج عن القياس، والشارد النافر عن الاستعمال، إلى غير ذلك من أنواع الفنون البلاغية بحيث لايرى المتصفح للقرآن الكريم وتراكيبه المتمرّس في فنون البلاغة نوعاً منها إلا وجده أحسن مايكون، لا يقدر أحد من البلغاء الواصلين إلى ذروة البلاغة من العرب العرباء وإن استفرغ وسعه أن يحيط بأنواع قليلة منها. ومن كان أعرف بلغة العرب وفنون بلاغتها كان أعرف بمزايا بلاغات القرآن الكريم وإعجازه للثقلين.

ثانياً: أمثلة على بعض الفنون البلاغية:

١ ـ إيجاز القصر:

أ ـ قال تعالى في سورة النحل: ﴿إن الله يأمُرُ بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القُرْبى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون﴾ سورة النحل/ ٩٠.

---

(١) سرّ الفصاحة للخفاجي ص٤٩ـ٥٠/ باختصار.

ـ أمر الله سبحانه وتعالى في أول هذه الآية بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى في وسطها عن الفحشاء والمنكر والبغي، ووعظ في آخرها وذكّر، فجمع في هذه ضروباً من البيان وأنواعاً من الإحسان. فذكر العدل والإحسان، والفحشاء والمنكر بالألف واللام التي هي للاستغراق، أي استغراق الجنس المحتوى على جميع أنواعه وضروبه.

ـ وفي نهايتها الطباق اللفظي والطباق المعنوي، أما اللفظي ففي قوله (يأمر... وينهى) وأما المعنوي ففي قوله: العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وقوله: الفحشاء والمنكر والبغي، فإن الثلاثة الأواخر من القبيح فطابق بين الحسن والقبيح مطابقة معنوية.

ـ ثم بين خصوصية ذوي القربى بإعادة الإيصاء عليهم والإيتاء لهم ومع أن الأمر بالإحسان قد تناولهم.

ـ ويدأ بالعدل لأنه فرض، وتلاه بالإحسان لأنه مندوب إليه وقد يجب، فاحتوت الآية على حسن النسق، وعطف الجمل بعضها على بعض فقدم العدل وعطف عليه بالإحسان الذي هو جنس عام، وخص منه نوعاً خاصاً وهو إيتاء ذي القربى.

ـ ثم أتى بالأمر مقدماً، وعطف عليه النهي بالواو، ثم رتب جمل المنهيات كما رتب جمل المأمورات في العطف بحيث لم يتأخر في الكلام ما يجب تقديمه ولم يتقدم عليه مايجب تأخيره.

ـ ثم ختم ذلك كله بأمور مستحسنة ودعا إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فاحتوت الآية على ضروب من المحاسن والقضايا وأشتات من الأوامر والنواهي والمواعظ والوصايا، ما لو بث في أسفار عديدة لما أسفرت عن وجوه معانيها، ولا احتوت على أصولها ومبانيها[1].

ب ـ المثال الثاني على الإيجاز بسورة قصيرة من القرآن الكريم وهي سورة الكوثر وأقصر سور القرآن: فعلى الرغم من كلماتها القليلة المحدودة تضمنت من المعاني البديعة والفصاحة والبلاغة الرائعة التي اقتضت بها أن تكون مصداقاً لقوله تعالى: **﴿وإن كنتُمْ في رَيْبٍ مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** البقرة/ ٢٣.

---

(١) «الفوائد المشوق» لابن القيم، ص٦٩.

جـ ـ المثال الثالث في المقارنة بين كلام موجز من القرآن الكريم وبين كلام موجز ورد عن العرب:

أما الآية الكريمة فقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ البقرة/ ١٧٩/ وهو جزء من آية، ومعناها أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتل قُتل به، كان ذلك داعياً إلى أن لايُقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، وكان ارتفاع القتل حياة لهم.

ورد في هذا المعنى عن العرب قولهم: (القتل أنفى للقتل).

وأبرز العلماء بلاغة العبارة القرآنية على الثانية بعشرين وجهاً أو أكثر هي:[1]

١ ـ أن مايناظره من كلامهم هو قوله: ﴿في القصاص حياة﴾ أقل حروفاً، فإن حروفها إثنا عشر حرفاً، وحروف (القتل أنفى للقتل) أربعة عشر.

٢ ـ أن نفي القتل لايستلزم الحياة، والآية ناصّة على ثبوتها التي هي الغرض المطلوب منه.

٣ ـ أن تنكير حياة يُفيد تعظيماً، فتدل على أن في القصاص حياة متطاولة كقوله: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ البقرة/ ٩٦. ولا كذلك المثل، فإن اللام فيه للجنس، ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء.

٤ ـ أن الآية مطردة بخلاف المثل، فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل، بل قد يكون أدعى له، وهو القتل ظلماً. وإنما ينفيه قتل خاص، وهو القصاص ففيه حياة أبداً.

٥ ـ أن الآية خالية من تكرار لفظ القتل الواقع في المثل، والخالي من تكرار أفضل من المشتمل وإن لم يكن مخِلاً بالفصاحة.

٦ ـ أن الآية مستغنية عن تقدير محذوف، بخلاف قولهم فإن فيه حذف (من) التي بعد أفعل التفضيل وما بعدها، وحذف (قصاصاً) مع القتل الأول و(ظلماً) مع القتل الثاني، والتقدير القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً من تركه.

٧ ـ أن في الآية طباقاً معنوياً، لأن القصاص مشعر بضد الحياة، بخلاف المثل.

٨ ـ أن الآية اشتملت على فن بديع، وهو جعل أحد الضدين الذي هو الفناء

---

(١) هذا الموضوع من كتاب «مباحث في إعجاز القرآن/ د مصطفى مسلم/ ص١١١ـ١٢٤/ ط المنارة ـ جدّة.

والموت، محلاً ومكاناً لضده، الذي هو الحياة، واستقرار الحياة في الموت مبالغة عظيمة، وذلك بجعل القصاص كالمنبع للحياة والمصرف لها، وذلك مستفاد من كلمة (في) الداخلة على القصاص.

٩ ـ أن في المثل توالي أسباب كبيرة خفيفة، وهو السكون بعد الحركة وذلك مستكره فإن اللفظ المنطوق به إذا توالت حركاته تمكن اللسان من النطق به، وظهرت فصاحته، بخلاف ما إذا تعقب كل حركة سكون، فالحركات تنقطع بالسكنات. نظيره إذا تحركت الدابة أدنى حركة فجثت، ثم تحركت فجثت لايتبين انطلاقها ولا تتمكن من حركتها على ماتختاره، فهي كالمقيدة.

١٠ـ أن المثل كالمتناقض من حيث الظاهر، ولأن الشيء لاينفي نفسه.

١١ـ سلامة الآية من تكرار قلقلة القاف الموجب للضغط والشدة وبُعدها عن غنة النون.

١٢ـ اشتمالها على حروف متلائمة لما فيها من الخروج من القاف إلى الصاد، إذ القاف من حروف الاستعلاء، والصاد من حروف الاستعلاء والإطباق. بخلاف الخروج من القاف إلى التاء التي هي حرف منخفض، فهو غير ملائم للقاف، كذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعدها دون طرف اللسان.

١٣ـ في النطق بالصاد والحاء والقاف حسن الصوت، ولا كذلك تكرار القاف والتاء.

١٤ـ سلامتها من لفظ القتل المشعر بالوحشة، بخلاف لفظ الحياة فإن الطباع أقبل له من لفظ القتل.

١٥ـ أن لفظ القصاص مشعر بالمساواة، فهو مبنيء عن العدل بخلاف مطلق القتل.

١٦ـ الآية مبنية على الإثبات، والمثل مبني على النفي، والإثبات أشرف لأنه أول والنفي ثان عنه.

١٧ـ أن المثل لايكاد يفهم إلا بعد فهم أن القصاص هو الحياة، وقوله ولكم في القصاص حياة، مفهوم من أول وهلة.

١٨ـ أن في المثل بناء أفعل التفضيل من فعل متعد، والآية سالمة منه.

١٩ـ أن أفعل في الغالب تقتضي الاشتراك، فيكون ترك القصاص نافياً للقتل، ولكن القصاص أكثر نفياً، وليس الأمر كذلك، والآية سالمة منه.

٢٠- أن الآية رادعة عن القتل والجرح معاً لشمول القصاص لهما، والحياة أيضاً في قصاص الأعضاء، لأن قطع العضو ينقص مصلحة الحياة، وقد يسري إلى النفس فيزيلها، ولا كذلك المثل.

٢١- في أول الآية (لكم) وفيها لطيفة، وهي بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص وأنهم المراد حياتهم لاغيرهم، لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم[١] .

٢ ـ ومن الفنون البلاغية: التتميم[٢] .

وهو على ثلاثة أقسام تتميم النقص، وتتميم الاحتياط، وتتميم المبالغة. وقد وردت الأقسام الثلاثة كلها في قوله تعالى: **﴿أَيَوَدُّ أحدُكُمْ أنْ تكونَ لَهُ جنةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجري من تحتها الأنهار، له فيها من كلِّ الثمراتِ، وأصابه الكِبَرُ ولهُ ذُرِّيَةٌ ضعفاءُ فأصابها إعصارٌ فيه نار فاحترقت. كذلك يبيِّنُ الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾** البقرة/ ٢٦٦.

جاء أول هذه التتميمات في قوله تعالى في تفسير الجنة **﴿من نخيلٍ وأعناب﴾** فلو قال جنة لكان كافياً، ولكن عندئذ تحتمل أن تكون جنة ذات أثل وخَمط وشيء من سدر قليل، فإن لفظ الجنة يصدق على كل شجر مجتمع يستر بظل غصونه الأرض كائناً ماكان، ومن الشجر ماله نفع عظيم عميم كالنخيل والأعناب. فإذا كانت الجنة عظيمة الفائدة ثم احترقت كان أسف صاحبها أعظم ومصابه أفدح. ثم علّم الله سبحانه وتعالى أن الجنة إن كانت من نخيل وأعناب مالم تجر الأنهار من تحتها لم يثمر شجرها ولم ينتفع بسكنها ولم تكن لها حياة ألبتة، فتمم هذا النقص بقوله تعالى: **﴿تجري من تحتها الأنهار﴾**. ثم علّم الله سبحانه وتعالى أن الجنة لو جمعت إلى النخيل والأعناب كل الثمرات كان وصفها أتم ونفعها أعظم، والأسف على فسادها أشد فقال تعالى: **﴿له فيها من كلِّ الثمرات﴾**، متمماً لذاك تتميم مبالغة. ولما فرغ سبحانه وتعالى من أوصاف الجنة أخذ في وصف صاحبها: فوصفه بالكِبَر، لأنه لو كان شاباً لرجا أن يخلفها بعد إحراقها، لما يجد في نفسه من القوة وما يأمل من طول المدة فقال محتاطاً **﴿وأصابه**

---

(١) انظر هذه المقارنة في «غرائب القرآن» للنيسابوري: ٢/ ٩٠، و«معترك الأقران» للسيوطي: ١/ ٣٠٠.

(٢) انظر المثال في كتاب «إعجاز القرآن» ص١٤٩ وما بعدها نقلاً عن بديع القرآن لابن أبي الأصبع ص٨.

الكِبَرَ﴾. ثم علّم سبحانه وتعالى أنه إذا كان عقيماً مع الكبر سلّاه عنها قرب المدة وعدم من يهتم بضياعه بعده فلا يشتدّ أسفه عليها، فقال عزَّ وجلَّ محتاطاً أيضاً: ﴿وله ذُرِّيةٌ﴾. ثم علّم أنه إذا لم يصف الذرية بالضعف احتمل الإطلاق أن يكونوا أقوياء، فيترجى إخلافهم لها، فيخفض ذلك من أسفه فقال محتاطاً: (ضعفاء). ثم لما فرغ من وصف الجنة أخذ في وصف الحادث المهلك لها بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فأصابها إعصار﴾. وعلّم تبارك اسمهَ أن الإعصار لايعجل فساد هذه الجنة، ولا يحصل هلاكها به إلا بعد استمراره عليها في مدة طويلة، وهو يريد الإخبار بتعجيل هلاكها فقال: ﴿فيه نار﴾. ثم اقتصر سبحانه وتعالى من الرياح على الإعصار لكونه عبارة عن تقابل الرياح المثيرة للعجاج الكثيف الذي يعمي دوامه عيون الماء، ويطم الآبار والأنهار، ويحرق بسمومه ورهجه الأشجار، وإذا اتفق مع ذلك أن تكون فيه نار أدارها على المكان الذي يكون فيه بحيث لا ينصرف عنه، لأنه لايقصد وجهة مقابلة فينصرف مايكون فيه إليها. ثم علّم الله سبحانه وتعالى أن النار يحتمل أن تكون ضعيفة فتطفأ لضعفها عن مقاومة مافي الجنة من الأنهار، ورطوبة الأشجار، فاحتاط لذلك بقوله: ﴿فاحترقت﴾ فنفى هذا الاحتمال، وأوجز تتميم المعنى المراد.

وهكذا نجد أن الآية الكريمة قد تضمنت من الدقائق واللطائف مايبرز الغرض المقصود من سوق المثل وهو إبراز عظيم أسف صاحب الجنة وتحسره على مافاته منها، في حالة كان بأمس الحاجة إلى نتاجها وخيراتها. وكذلك المرائي بصدقته الذي ينفقها رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فإنه سيفقد هذا الثواب في وقت هو بأمس الحاجة إلىَ مايثقل ميزان حسناته.

٣ ـ من الفنون البلاغية: التشبيه.

قال تعالى ﴿إنّما مَثَلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلنَاهُ من السماءِ فاختلطَ به نباتُ الارضِ مِمّا يأكلُ النّاسُ والأنعامُ حتّى إذا أخذتِ الأرضُ زُخْرُفَها وازيّنَتْ وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها أتاهَا أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس كذلك نُفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكّرون﴾ يونس/ ٢٤. فإن في الآية عشر جمل وقع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقضِّيها، وانقراض نعيمها، واغترار الناس بها، بحال ماء نزل من السماء، وأنبت أنواع العشب وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة، حتى إذا طمع أهلها فيها وظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاها بأسُ الله فجأة، فكأنها

لم تكن بالأمس[1].

يقول صبحي الصالح تعليقاً على قول السيوطي:

وإنه ليعنينا أن نقف قليلاً عند تشبيه الحياة الدنيا، فلقد أصاب السيوطي في استخلاص وجه الشبه، وتقسيمه هذا التركيب القرآني إلى عشر جمل. أما موضع الجمال الحقيقي في هذا المشهد ـ مشهد الحياة القصيرة التي يوشك أن تزول ـ فلم يتتبعه السيوطي في تنسيق الجمل العشر، والصور التي تطويها كل جملة منها في أوقات يتفاوت عرضها الخيالي طولاً وقصراً، لأن هذا التفاوت في العرض الخيالي تبعاً لمراحل المشهد المصور لم تكن جزءاً من التشبيه المركب، فما على السيوطي إلا أن يذكر المعنى العام للآية وقد وفق فيه وأجاد، وإن علينا نحن أن نشير إلى المراحل التي أبطأ فيها التصوير وتمهل، أو التي اندفع فيها وأسرع، حتى تم لهذا المشهد القرآني من الإعجاز بالألفاظ الجامدة مالا يتم من الإبداع بالريشة والألوان.

لقد استخدمت في هذا المشهد الوسائل المقصرة لعرض مراحل النبات، فالفاء التعقيبية تطوي المسائل بسرعة عظيمة، ماكاد الماء ينزل من السماء حتى اختلط به نبات الأرض مباشرة، وأصبح فجأة في متناول الناس يأكلونه والأنعام تتمتع به، ﴿إنما مثلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض مما يأكلُ الناسُ والأنعام﴾[2]. ولكن أهل هذه الأرض المتمتعين بنباتها البهيج يمتدّ بهم الغرور، ويَلِجّون في اللهو كأنهم يعيشون أبداً، وكأنهم يقدرون على إخلاد الأرض وإخلاد أنفسهم فيها، غارقين في متعها متقلبين في نعائمها، مسحورين بزخرفها، فاستخدمت (حتى) الدالة على امتداد الصور امتداداً يعرف أوله ويجهل منتهاه.

وتتابعت أوصاف الغرور الإنساني تَتْرى، لكل وصف منها تعبير متمهِّلٌ متبطِّىءٌ، فأما الأرض فشخصت مرتين، وقامت بحركتين، إذ أخذت بنفسها زخرفها كما تفعل العروس في جلوتها، وتطلبت الزينة تطلباً وسعت إليها سعياً فلم تزين ولكنها ازينت. وأما أهل الأرض فانتفخت أوداجهم زهواً واختيالاً وصعَّروا خدودهم عجباً وكِبْراً وأيقنوا

---

(١) «الإتقان» ٢/ ٧٠، و«مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح ص٣٢٢.

(٢) في الاقتران بين الناس والأنعام في الأكل دليل على إقبالهم على هذا الخليط من غير تروٍّ وشعور وإدراك للعواقب، وإنما الدافع لهم هو الشهوة الحيوانية. وهو شأن أهل الدنيا.

- وإن كان يقينهم ظناً وخيالاً - أنهم في الأرض على كل شيء قادرون، ولكن الظن لايغني من الحق شيئاً. وهذه الآماد الطوال كلها ليست إلا ومضات خيالية تزول.كما تزول الأطياف. ففي لحظة من ليل أو نهار يأتي تلك الأرض أمر الله فيطوي تلك الأخيلة الكواذب في وقت كلمح البصر بل هو أقرب، ﴿إنما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكون﴾يس/ ٨٢. وانظر ما من زخرف وما من زينة، ثم انظر فالناس المغرورون أعجز من أن يتصوروا ولو بالخيال ربوعهم ومغانيهم في تلك الأرض التي أصبح نباتها حصيداً هشيماً تذروه الرياح ﴿حتى إذا أخذتِ الأرضُ زُخرُفَها وازَّيَّنَتْ وظنّ أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾[١] .

الإعجاز القرآني العظيم[٢]

القرآن بيانٌ ومعجزةٌ :

المعجزة : أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم عن المعارضة . . . فخرق العادة يعني جريانه على غير ماألف الناس . . .والإقتران بالتحدي يقصرها على الرسل المبلغين عن الله ، إذ هو وحده الذي يملك قطع حجة الجاحدين ، والسلامة من المعارضة تعزل الشعوذة التي تبدو في ظاهرها خرقاً للعادة .

وقد اقتضت سنة الله في خلقه أن يؤيد رسله بالآيات التي هي المعجزات بالمعنى الاصطلاحي في مواجهة تحديات الجاحدين الذين ينكرون رسالات الله عناداً واستكباراً ، تحت سلطان الترف وتسفل الإدراك من جهة ، ومن جهة أخرى لإمداد المؤمنين على مدى الزمن بطاقات من قوة اليقين ، ونور البصيرة ، وثبات القلوب في مواجهة التحديات المادية الهائلة التي يهاجم بها المعاندون المؤمنين في ميدان الفكر وفي ميدان الحرب على السواء .

وذلك إذا استقصينا التاريخ الديني كله فما نجد الجاحدين إلا المترفين المستكبرين الذين لصقوا بالتراب ، وأعماهم الهوى عن الخضوع للحجة والبيان . ولايستبعد أن يكون قد وقر في قلوب هؤلاء الجاحدين المعاندين وميض من الاقتناع بصحة ماجاء به الرسل ، ولكنهم في سبيل الشهوات التي أحاطت بهم من كل جهاتهم ، وغلفت كل

---

(١) «مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح، ص٣٢٤.

(٢) عظمة القرآن : عبد القادر عطا - ط دار الكتب العلمية بيروت / ص ٥١-٦٢/ .

مشاعرهم فأحاطت بإنسانيتهم ، جهروا بالنكران ، واصطنعوا له الحجة الساقطة ، تماماً كما هو حادث الآن في أوساط العلمانية اليهودية التي تهدد العالم بالدمار في سبيل إقامة المادية الإلحادية .

﴿وماأرسلنا في قريةٍ منْ نذيرٍ إلاّ قالَ مترفوُهَا إنّا بما أُرسلتُمْ بهِ كافرون﴾[1] .

والملأ الذين استكبروا والذين أترفوا ، هم أئمة العناد ، ودعاة الجحود والكفر في كل ملة إلهية كما بين ذلك القرآن الكريم .

لم يكن البيان والوضوح في تبليغ الدعوة إذن كافياً لقطع الحجة الكافرة ، وإقناع أنواع المدعوين إلى الشرائع على اختلاف أفهامهم ومداركهم وميولهم وشواكلهم ، بل أن البيان الواضح كاف لإقناع من رق حجاب الشهوة عن قلبه وبصيرته ، واستعلى عقله على هدى نفسه دون سواه من غلاظ القلوب والرقاب .

. . . أما هؤلاء الغلاظ فلم يستجيبوا للبيان ، ولم يتخاذلوا أمام الوعيد بالهلاك في الدنيا ولافي الآخرة ، ولم تلن قلوبهم أمام دلائل الصدق الواضحة في شخصيات رسل الله ، فراحوا يطالبون رسلهم بآيات ودلائل تدل على أنهم صادقون في البلاغ عن إله غير منظور ولامدرك بالحواس ، ولن تكون المطالبة بتلك الدلائل إلا نوعاً من التحدي الموجه للرسل أن يثبتوا للكفرة أن هناك شيئاً وراء الحواس ، أو قانوناً علمياً يعمل في الكون غير القوانين التي ألفوها من خلال السبب والنتيجة في عالم المحسوس المادي الذي يمارسونه في حياتهم .

وكانت ناقة صالح ، وعصا موسى وبقية آياته التسع ، وإحياء الموتى على يد عيسى عليهم السلام آيات مؤيدات لبيان اللسان وحجة العقل ، وتحدياً لأهل العناد بأن قوة عظمى تحكم الكون غير قوة المادة ، وبأن قانون السبب والنتيجة ظهور للإنسان في عالمه المادي الذي أمر أن يمارسه على هدى من الإيمان المطلق ، حتى يستقيم العمران ، وتتحقق خلافة الإنسان لربه الأعلى .

ولما لم تجد تلك الآيات والدلائل الواضحة على سلطان الله تعالى وملكه المطلق للكون في هداية هؤلاء المعاندين كانت مرحلة أخرى من مراحل الدعوة هي الوعيد بالخراب والدمار وتدمير الحضارة القائمة حينما أضربوا صفحاً عن الوعيد بالهلاك في

---

(١) بسورة : سبأ / آية ٣٤/ .

الآخرة . وقد حدث ذلك بالفعل في تاريخ الديانات ، فكانت وسائل العمران هي بعينها وسائل الدمار والخراب . . فالماء الذي جعله الله سبباً للحياة والنماء كان طوفاناً أغرق قوم نوح ، والرياح اللواقح المنظمة لوسيلة الرخاء من السحاب والمطر كانت عقيماً ، ماتذر من شيء أتت عليه في قوم هود (عاد) إلا جعلته رميماً ، وتركتهم ﴿صَرْعَى كأنّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ﴾ . وكان ميزان الجاذبية ، والوزن الحق لانسياب الكهربية اللذان قدرهما الله تقديراً يحفظ على الناس منافعهم ، هما سبب الدمار ممثلاً في الصيحة ، والرجفة ، والخسف إلى غير ذلك ممالاتنكره وقائع التاريخ ، وماهو مسطور في الكتاب المبين .

ولم يسفر ضياء الرسالة المحمدية الخاتمة إلا والتراث الديني مسطور في الكتاب الكريم بأفصح بيان وأوضحه ، بحيث لايعجز عن إدراكه أقل الناس فهماً ووعياً ، داعياً إلى أن : الكون غيب وشهادة ، الله حاكم على الغيب والشهادة ، قادر على تدمير كل مشهود ومحسوس كما هو قادر على بركته ونمائه وازدهاره إذا كان هناك قبس من النور في قلوب الناس يرقى بهم على هدى التدبر والتأمل إلى الإيمان بكل مغيب عن المدارك من حقائق الوجود ، وبالله حاكماً رحيماً بالمؤمنين ، قاهراً للجاحدين . . . وكانت كلمة قد سبقت من الله تعالى بألا يكون خسف ولارجف ولامسخ ، حتى تتحقق عالمية الرسالة على مدى الزمان على نور هذا البيان القرآني الذي لم يفتر عن لفت الأنظار الى التواريخ السابقة ، وإلى الأمم ذات القوى الهائلة ، وكيف انتهى بها العناد إلى الدمار والهلاك هنا في الدنيا قبل الآخرة .

لاإله إلا الله ، هذه الكلمة هي خلاصة رسالات الله ، محمد وجميع الرسل عباد الله . هذا هو الحجم الأصيل للمبلغين عن الله في كل ملة ، فلاكهنوت ، ولااحتكار للدين باسم الوساطة ، ولاسحر ولاشعوذة في الدين وهي الأصول التي تدور حولها حقائق القرآن ، لتثبيتها في القلوب ، ولإمدادها بطاقة من القوة واليقين عن طريق التشريع بالأمر والنهي .

فماذا كان موقف العرب وهم أئمة الفصاحة والبلاغة من هذه الحقائق الواضحة باللسان البليغ المبين؟

كان هذا البيان هدى لمن رَقّتْ حُجبُ الغفلة عن قلوبهم فآمنوا ، وكفر الكثيرون وعاندوا ، وهم أرباب القلوب الغليظة المُعتمة ، وبدأت سلسلة من التحديات ، وطلبوا آية ربانية ، أي معجزة بالمعنى الاصطلاحي تدل على صدق الرسول في دعواه . . .وأعلن الله تعالى أن آية محمد ﷺ ومعجزته لأهل العناد ماهي إلا الكتاب

المبين حيث يقول: ﴿وقالوا لولا أُنزِلَ عليه آياتٌ من ربِّهِ قُلْ إنّما الآياتُ عندَ اللهِ وإنّما أنا نذيرٌ مبينٌ . أوَ لَمْ يكفِهِمْ أنّا أنزلنَا عليكَ الكتابَ يُتْلَى عليهِم﴾ [1] . أي : أنه قائم مقام المعجزات المادية التي أيد الله بها رسله السابقين . وكان هذا البيان القرآني حينما طلبوا تلك الآيات صراحة كما في هذه الآية وحين قالوا : ﴿فليأتنا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأولُون﴾ [2] .

القرآن إذن آية الله لرسولهﷺ بالمعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة (آية) فهو البيان الواضح الجلي يدركه كل المخاطبين ، وهو في الوقت نفسه معجزة بيانية عظمى يمنح المهتدين مزيداً من النور ، ويتحدى المعاندين أن يعارضوه بمثله ، كما تحدى موسى سحر قومه بعصاه ، وعيسى طب عصره بإحياء الموتى ، وآمن الكثيرون حينما تأملوا وتدبروا وعاينوا المعجزة بالقلوب . . . فالإعجاز على أي حال هو وسيلة إيمان . ووسيلة ضلال ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾ [3] .

من هنا كان وجه من وجوه عظمة القرآن ، هو : أن يجمع بين البيان والإعجاز ، فلا تكون الآية الدالة على صدق الرسول منفصلة عن البيان كما كان ذلك في رسالة موسى وعيسى، إذ كانت آيات موسى التسع، وإحياء المسيح للموتى شيئاً منفصلاً تماماً عن صلب التوراة والإنجيل. أما القرآن فلما كان مصدقاً للتوراة والإنجيل ومهيمناً عليهما ، وجامعاً لحقائقهما ، فقد اجتمع في صلبه البلاغ المبين ، والإعجاز القائم مدى الدهر ، وماذاك إلا لأنه كتاب لم ينزل لهداية العرب خاصة ، وإنما نزل لهداية البشرية كلها في عصر الرسول وبعد عصره وإلى أن تقوم الساعة ، فلو انفصلت آية صدق الرسول عن نفس القرآن كما حدث في الرسالات السابقة ، فمن الذي كان يأتي الناس بهذه الآية التي هي المعجزة بمعناها الاصطلاحي الآن؟؟

يعني : أنه إذا ارتاب قوم في صدق النبي ﷺ في عصرنا الحاضر ، فمن أين نأتي بالرسول ليطالبوه بمعجزة مادية تدل على صدقه ؟ ولهذا كان القرآن نفسه بياناً ومعجزة في آن واحد ، ولم تكن مادة إعجازه شيئاً واحداً بحيث لاتلائم إلا عصراً واحداً أو

---

(١) سورة : العنكبوت /آية ٥٠-٥١// .
(٢) سورة : الأنبياء /آية ٥/ .
(٣) سورة : البقرة /آية ٢٦/ .

أو مجموعة من الأجيال بعينها ، بل كانت مواد إعجازه كامنة في أطوائه ، وكلما تقدم المنكرون الجاحدون في العلم المادي انكشف من وجوه إعجازه وجه يقمع ضلالات الكفر ، ويهدي إليه الآلاف المؤلفة من كل عصر ، وهو مانشهده الآن وقبل الآن ، وماستشهده الأجيال بعد الآن بإذن الله .

وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا المعنى في حديث أخرجه البخاري عنه قال : «ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعطى مامِثْلُهُ آمنَ عليه البشرُ ، وإنّما كان الذي أُوتيتُهُ وحياً أوحاهُ اللهُ إليّ ، فأرجُو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً» .

قالوا في معناه : إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهِدْها إلّا من حضرها ، ومعجزة القرآن باقيةٌ إلى يوم القيامة ، وخَرْقُهُ للعادة في أسلوبه وبلاغته وأخباره بالمغيبات ثابتٌ ، فلايمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر أنه سيكون ، ليدل على صحة دعواه ، والمعجزات كانت حسية تشاهد بالأبصار ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة ، فيكون من يتبعه فيها أكثر ، فمايشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهديه ، ومايشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً .

ومن هنا كان استبطان القرآن للبيان والإعجاز معاً في وقت واحد دليلاً على صدقه وعالمية رسالته ، وذلك لأن الجاحد العريق في الجحود لايمكن أن يؤمن إلا إذا صدمته خارقة تهدم مذهبه المادي المتأصل في أعماقه ، وتهدده في الوقت نفسه بخارقة مثلها تأتي على مابناه من أمجاد مادية في لمح البصر ، وتلك هي سنة الله الماضية التي سجلها القرآن من تواريخ الرسل ، ولفت إليها أنظار الناس في كل زمان فقال تعالى : ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ [1] .

ولقد كان القرآن ومايزال وافياً بحاجات البشر في الإقناع والتحدي كلما فرح جيل بما عنده من العلم ، ومازال العلم يكشف من أسراره كل يوم عن جديد ، يكشف عن أخطاء العلم في أحدث نظرياته ، فإنكار إعجازه ـ على هذا ـ يعتبر تآمراً على دعوة الإسلام ، وعملاً لئيماً على إنحسار امتدادها ، وتجريداً له من سلاحه الهادف الذي زوده الله تعالى به لاسيما بعد وفاة الرسول ﷺ ، بل وإنكاراً لما هو واقع ملموس يشهد له العدو والصديق معاً ، بل إن إسلام العلماء في العصر الحديث ماكان إلا على ضوء لون من هذا التحدي في مختلف فروع المعرفة .

---

(١) سورة : يوسف/آية ١٠٩/ .

هل كان يمكن أن يؤمن العرب دون أن يذعنوا لإعجاز القرآن إلى جانب إذعانهم لموضوع البيان؟

أقول : إن أئمة الكفر أنفسهم شعروا بسلطانه على القلوب ـ وهو القدر المتاح لهم لإدراك إعجازه البياني ـ فقالوا لأتباعهم: ﴿لاتسمعوا لهذا القرآن والْغَوا فيه لعلكم تغلبون﴾ [١] . وذلك خوفاً من سريان الروح التي شعر بها الوليد بن المغيرة حين قال :«إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولايعلى عليه ، وأنه ليحطم ماتحته» . وهو نفس الإعجاز الذي أدرك منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجهاً يناسبه حينما سمع القرآن في بيت أخته فتهاوى صرح الشرك من قلبه ، وشمخ صرح الإيمان في كيانه ، إلى آخر ماهو معلوم لنا في تاريخ دعوة الإسلام .

لقد صحح القرآن كثيراً من النظريات العلمية التي كانت سائدة في عصر التنزيل ، وسجل في مكان تلك النظريات حقائق ثابتة لاتقبل التبديل ولا التغيير ، فكان ذلك إلى جانب استعمال القرآن للحقائق الكونية في الدعوة إلى الخالق الحكيم المبدع تحدياً للعقل البشري بإحقاق الحق مكان الباطل على يد رسول أمي ماكان يتلو كتاباً ولايخطه بيمينه .

وصدق الله تعالى الذي تحدى العالم كله في كل العصور في معرض الدلالة على وحدانيته وتفرده بالسلطان ، وذلك حينما قرر قيام دولة الإسلام على الأرض عجزت كل القوى العالمية عن أن تقضي على مجدها فقال :﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً﴾ [٢] . وقال :﴿إنَّ الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ [٣] . ومؤامرات العالم على الإسلام وصموده شامخاً أمام المؤامرات، بل وإتساع سلطانه على القلوب أعظم دليل على اتساع مدى الإعجاز القرآني إلى جانب إقناع البيان ، وتجاوز هذا الإعجاز نطاق البلاغة والفصاحة ، وتصحيح النظريات العلمية ، والتنبؤ بالمستقبل ، إلى نطاق السياسة والاجتماع والعلوم التجريبية كلها .

---

(١) سورة : فصلت/ آية ٢٦/ .

(٢) سورة :النور / آية ٥٥/ .

(٣) سورة : الأنفال / آية ٣٦/ .

ولو لم يكن القرآن معجزاً لأهل عصره لكان قصاراه :أن يكون أسلوباً ممتازاً يُلقي فصحاءُ العرب إلى من جاء به بزمام التفوق والسلطان ، شأنه في ذلك شأن المعلقات السبع وأمثالها ،أما والرسول العظيم يأبى أن تكون الشمس في يمينه والقمر في يساره إلا أن يظهر دين الله ، فالأمر إذن فوق جودة الأسلوب ، وفوق كل الإعتبارات ، ذلك هو :إذعان العرب عاجزين ، أو انقيادهم مختارين إلى تلك العظمة القرآنية التي تفوق مقاييس العظمة الأسلوبية المتعارفة آنذاك .

لقد اشتبه الأمر على العرب ، فلم تكن في الرسالات السابقة معجزات باطنة في الكتب التي أنزلت على الرسل ، أي : لم تكن هناك معجزات من جنس الكلام ، بل كانت معجزات مادية منفصلة تماماً عن الكتب السماوية ، وهذا الواقع هو الذي دفع العرب إلى أن يقولوا : ﴿ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إنْ هذا إلاّ اختلاق﴾ [1] وإلى أن يطلبوا منه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وإلى أن يقولوا عن القرآن :(هذا إفك قديم) حينما لم يهتدوا بعيداً عن معجزات المادة .

وليس في تحدي الله لعباده إنتقاصاً من هيبة الله تعالى ، بل أن الإنسان الذي أحل نفسه مكان الله في الأرض كان ومايزال بعيداً عن الإذعان إلا على وجه التحدي البياني ، ثم التحدي بالقوارع المدمرة ، على أن آيات القرآن مليئة بتحدي المُخَاطِبِين .ألم يقل الله تعالى لليهود :﴿فتمنَّوُا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنَّوه أبداً﴾ [2] الم يقل لهم :﴿قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ [3] . ﴿قل صدق الله﴾ [4] ؟ وقال : ﴿هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [5] . أليس هذا هو التحدي بعينه؟ أليس هذا التحدي إبرازاً لعظمة الله ، وتقريراً لسلطانه وجبروته فوق كل جبروت؟؟ .

بداية القول بعدم الإعجاز :

ولكنها فرية قديمة ، .ونحلة متهالكة كانت في الماضي ، وقد بدأت تطل برأسها على أيدي المدربين على دس الإلحاد في ثنايا الإيمان في الحاضر من المستشرقين

---

(١) سورة : ص /آية ٧/ .
(٢) سورة : البقرة ، آية /٩٤-٩٥/ .
(٣) سورة :آل عمران /آية : ٩٣/ .
(٤) سورة :آل عمران /آية :٩٥/ .
(٥) سورة : النمل ، آية/٦٤/ .

وأذنابهم أدعياء الإسلام .

تلك الفرية هي القول بعدم إعجاز القرآن، أو بأن مقاصده لاتشمل التحدي . وأول من قال بعدم إعجاز القرآن (إبراهيم بن إسحاق النظام) المعتزلي الذي هلك في القرن الثالث الهجري ، قال عنه أبو المنصور البغدادي في كتابه(الفرق بين الفرق ص ٧٩ ، ٨٠) :«عاشر في شبابه قوماً من الثنوية والسمنية ، وخالط بعد كبره قوماً من ملحدة الفلاسفة ، ثم دون مذاهب الثنوية ، وبدع الفلاسفة ، وشبه الملاحدة في دين الإسلام ، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات ، ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفاً من السيف ، فأنكر إعجاز القرآن في نظمه ، وأنكر معجزات نبينا ﷺ ، ليتوصل إنكار معجزات نبينا إلى إنكار نبوته» .

أرأيت ياأخي إلى أين يسير بنا القائلون بعدم إعجاز القرآن في عصرنا الحاضر؟

أرأيت من هم شيوخهم في هذه النحلة الكافرة الخبيثة؟

أرأيت كيف يكون غش المحدثين باسم الفكر العصري وهم يرددون نحلاً بال عليها الزمان؟ .

ولم يكتف إبراهيم النظام القائل بعدم إعجاز القرآن توصلاً إلى إبطال نبوة الرسول ﷺ بما نقله إلينا من ضلالات الثنوية والبراهمة وغيرهم ، بل إنه احتاط لأمره احتياطاً شيطانياً ، وذلك أنه كما يقول البغدادي :«استثقل أحكاماً ، ولم يجسر على إظهار رفضها ، فأنكر حجة الإجماع ـ وحجة القياس في الفروع الشرعية ، ولما علم إجماع الصحابة على الاجتهاد في الفروع الشرعية ذكرهم بما يقرؤه غدا في صحيفة مخازيه ، وطعن في فتاوى أعلام الصحابة ، وجميع فرق الأمة» . ثم ساق البغدادي من فضائحه وكفرياته الشنيعة إحدى وعشرين فضيحة من أرادها فلينظرها في (الفرق بين الفرق ص ٨٠-٩١) .

ومن العجيب أننا نجد امتداداً لتلك النحلة في عصرنا الحديث : دعوات هزيلة إلى إعادة النظر في اجتهادات السابقين من الأعلام ، ودعوة إلى إحلال الرأي مكانها بينما القاعدة تقول : لايجوز خرق الإجماع إلا بإجماع مثله . إن صحت هذه القاعدة ، فأين أهل الإجماع في عصرنا حتى يخرقوا بإجماعهم إجماع الصحابة والتابعين؟! .

ويكفي أن يعلم القارىء : أن إبراهيم النظام هذا وهو معتزلي المذهب قضى المعتزلة بكفره ، ومنهم خاله أبو الهذيل العلاف ، والجبائي ، والإسكافي ، وكثير

غيرهم . وكفره أهل السنة وألفوا في تكفيره كتباً ومنهم . الأشعري والقلانسي ، والباقلاني وغيرهم كثيرون .

ولقد عاد هذا الخبيث (النظام) فصادم إجماع المسلمين على إعجاز القرآن بقوله :إن هذا الإعجاز كان بالصرفة ، أي أن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم وقدراتهم على ذلك ، وكانت معارضة القرآن مقدورة لهم ، لكن عاقهم عنها أمر خارجي ، فصار القرآن معجزة لذلك .

وأقول : إن هذا القول معناه : الإرتداد إلى الفكر اليهودي السائد في سفر التكوين ، والذي يصف الله ـ سبحانه ـ بالتردد والغيظ من عبيده ، إذ أنه كما يتصورون قد ندم على خلق آدم لما وجد أنه سوف يسبب له المتاعب ، واغتاظ حينما سادت الأخوة الإنسانية ، فبلبل ألسنة الناس ليحل العداء محل الحب بسبب عدم فهم بعضهم لغة البعض . ويتصل قول النظام هذا بالفكر اليهودي في صورة أوضح حينما نقارنه بما جاء في سفر التكوين من أن صراعاً مريراً كان يدور بين الله وخلقه ، حتى لقد تغلب يعقوب عليه السلام عليه فخلع حق فخذه .

وخلاصة الفكر اليهودي : أن الله كما تصوروه : قابل للهزيمة ، بارع في التآمر ضد عباده ، متردد في أفكاره ، يقرر الشيء ثم يرجع عنه ، ويعالج هذا التردد بالكيد لعباده ، وهو نفس القول الذي ردده المختار الثقفي باسم (نظرية البداء) إذ كان الله يعده بالنصر ، ثم يبدو له أن يغير موقفه فيصيبه بالهزيمة .

أليس القول بأن العرب كان في مقدورهم معارضة القرآن ولكن الله صرفهم عن ذلك ، وثيق النسب بهذا الفكر اليهودي المشبوه؟؟ وأليس التحدي ثم الصرف على هذه الصورة التي رسمها إبراهيم النظام عبارة عن ضرب من ضروب الخداع والهروب من الحقيقة جل الله تعالى عن مثله؟؟؟أليس هذا القول يساوي نسبة خطأ التقدير إلى الله ، ثم التخلص من هذا الخطأ بلعبة تشبه ألعاب السياسة المعاصرة؟؟ وإلا فكيف يتحدى الله العرب صراحة أن يأتوا بمثل القرآن ، أو بآية واحدة من مثله ، وهم مصروفون بطبيعتهم ، أو يصرفهم سبحانه ـ عن الاستجابة للتحدي بوسيلة مامن وسائل الصرف؟ وهل يكون هذا العمل إلا عبثاً تجل عنه حكمة التدبر الماثلة أمام العالم ، والمعجزة له ، والهادية إلى مزيد من الإيمان في الوقت نفسه؟؟ .

يقول الإمام السيوطي رداً على هذا القول الذي قال به النظام ومن جرى مجراه :«إن هذا القول فاسد بدليل قوله تعالى :﴿قُلْ لئنِ اجتمعتِ الإنسُ

والجن﴾[1] الآية . فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لإجتماعهم ، لمنزلته منزلة إجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل له . هذا مع أن الإجماع قد انعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن . ويلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة على إستمرار معجزة القرآن للرسول بعد عصره» .

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني :«ومما يبطل القول بالصرفة :أنه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون بالمنع معجزاً ، فلايتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه ، وليس هذا بأعجب من قول بعضهم :أن الكل قادرون على الإتيان بمثله ، وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجود ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به ، ولابأعجب من قول آخرين :أن العجز وقع منهم ، وأما من بعدهم ففي قدرته الإتيان بمثله» .

أما الجاحظ فقد فضح أستاذه إبراهيم النظام فقال :«بعث الله محمداً ﷺ أكثر ماكانت العرب شاعراً وخطيباً ، وأحكم ماكانت لغةً ، وأشد ماكانت عدّةً . . . وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما إزداد تحدياً لهم بها ، وتقريعاً لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ماكان مستوراً، وظهر منه ماكان خفياً ، فحين لم يجدوا حيلة ولاحجة قالوا : أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف . قال : فهاتوها مفتريات . فلم يرم ذلك خطيب ، ولاطمع فيه شاعر . . .

فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه ، وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة ، أو آيات يسيرة ، كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره ، وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبر الذي لايخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات . . .» .

ومع احتفاظنا بأن القرآن كلام الله غير مخلوق نقول :إن كان صرف الله عباده عن معارضته أمراً مقرراً في الإسلام ، ،فلماذا لم يصرف الله العلماء عن معارضة خلقه في العصر الحاضر؟ ألا ترى أن العلماء في معاملهم راحوا يتحدثون عن الإنسان الآلي ،

---

(١) سورة : الإسراء : آية : ٨٨

وعن بناء الأجنة في غير أرحام الأمهات ، وعن الأمطار الصناعية ، ولم يصب الله تعالى عالماً من هؤلاء بالجنون ، ولابالمغص الكلوي كلما توجه إلى معمله ليصنع خلقاً كخلق الله ، بل كانت لهم حرية العمل ، وحرية الاعتراف بالعجز ، وكان من هذا العجز هدى للكثيرين من العلماء في تلك الدول ، إما إلى الإسلام مباشرة ، أو إلى الإقرار بوجود الله المبدع الذي يعجز العالم كله أمام حكمته وإبداعه .

فمحاولة التشكيك في إعجاز القرآن بحجة القول بالصرفة ، أو بحجة أنه آية للبيان وليست للإعجاز ، تخبط دعا إليه الحقد على الإسلام وعلى القرآن ، أو التعصب العنصري للجنس العربي تعصباً مصادماً لعالمية القرآن وعدم اختصاصه بجنس دون جنس . . .ولقد فند الإمام المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله هذا الزعم في كتابه (العقيدة النظامية) ، ولكن ضلالات المستشرقين ، من أمثال جولدزيهر ، ورودل ، ومرجليوث ، وجب ، وضلالات أذنابهم وعلى رأسهم طه حسين في كتابه عن (الشعر الجاهلي) من أنصار المذهب الديكارتي مازالت تحتاج إلى جهود مضادة تنير قلوب الشباب المسلم بالحق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه .

وجاء في مؤخرة هؤلاء من أنصاف الملاحدة من يُحيي شبهات المستشرقين وقذائع المبشرين حول القرآن العظيم وإعجازه تحت اسم «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» للمدعو [الدكتور المهندس: محمد شحرور] فيزعم فيه ص١١٩ في تسائله: «هل يمكن أن يُجعل القرآن أعجمياً؟ الجواب: نعم. . .» ثم يُبرهن على إجابته من مبرّرات الجهل والضلالة على إثبات دعواه الخبيثة. ويتمادى في إلحاده فيزعم في ص١٨٨ ـ ١٩٠ أنّ بالإمكان أن يأتي بأقل من عشر سور مفتريات، ويضع لذلك شروطاً فإن تحققت تأتّى قرآناً مفترى، ثم يقول ص١٩٠: «.. لذا فإن مقوّمات الآية القرآنية المراد تقليدها هي: ١ ـ إثبات الصيغة اللغوية. ٢ ـ أن يكون الموضوع حركة المحتوى بشكل يتناسب مع مقولات القارىء العالم.. ٣ ـ أن يكون الموضوع غير تشريعي. حيث أن القرآن لايحتوي على مواضيع تشريعية. هذا فيما يتعلق بالسور العشر المفتريات» هكذا يزعم ويدعي لإزالة القدسية عن القرآن العظيم. ثم يزعم في ص١٩١ فيقول: «أنّه من الخطأ القول، كما قال بعضهم: إنّه تحدى العرب بالقرآن، فعندما عجزوا تحدّاهم بعشر سور، وعندما عجزوا تحداهم بسورة. . .» إلى غير ذلك من أضاليل وأباطيله. .

البحث الثاني :

وجوه إعجاز القرآن العظيم[1]

إن حكمة الله تعالى اقتضت أن تكون معجزة الرسالة الخاتمة ، أو الآية الدالة على صدق الرسول في التبليغ عن ربّه هي القرآن الذي جمع بين البيان الواضح ، والإعجاز القاطع لحجة العناد والجحود ، وذلك ليتهيأ استمرار التبليغ بعد الرسولﷺ ، واستمرار وسائل الإقناع على مر الزمن .

وهكذا لم يكن دليل إعجاز القرآن قاصراً على الإعجاز البياني كما كان في عصر النزول ، بل كان جامعاً لعدد هائل من دلائل الإعجاز بحيث يواجه كل العصور ، وجميع نواحي النشاط الإنساني في تفوق معجز ، يجذب إلى دعوته المزيد من الأجيال .

جهود العلماء الأقدمين :

بذل الأقدمون جهوداً مشكورة في محاولة الكشف عن وجوه إعجاز القرآن ، وألفوا في ذلك كتباً ، ومنهم :أبو سليمان الخطابي ، وعلي بن عيسى الرماني ، وفخر الدين الرازي ، وابن سراقة ، وأبو بكر الباقلاني ، والكمال بن الهمام ، وابن الزملكاني ، والسيوطي ، وعبد القادر الجرجاني ، وغيرهم . . .وقد تكلم الكثيرون عن هذا الموضوع في التفاسير والكتب ذات الموضوعات الأخرى ، ومنهم : ابن عطية ، والمراكشي ، والأصبهاني ، والسكاكي ، والسهيلي ، والقاضي عياض ، والزركشي وغيرهم .

أما في العصر الحديث فقد كتب الاستاذ مصطفى صادق الرافعي كتاباً في إعجاز القرآن ، وتحدث كثيرون عن الإعجاز في كتب ليست في موضوعه ، منهم الشيخ الكوثري ، والاستاذ العقاد ، والاستاذ الغمراوي ، رحمهم الله تعالى جميعاً .

والذي يسترعي الانتباه أن العلماء على ما لهم من الاقتدار وسعة المعرفة وقفوا هم الآخرون مبهورين أمام إعجاز القرآن ، فراحوا يرددون وجوهاً عامة وغير محدودة أحياناً ، كقولهم :إن الإعجاز في جودة الرصف ، وحسن النظم ، وماأشبه ذلك من

---

(١) عظمة القرآن : عبد القادر عطا ـ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت / ص ٨٣-١٠١/ .

الصفات التي لاتكشف عن وجه الإعجاز في جودة الرصف ، ولاحسن النظم . وأحياناً أخرى ذكروا وجوهاً قالوا : أنه لايمكن وصفها ، كما قال السكاكي في (مفتاح العلوم) : «إعجاز القرآن يدرك ولايمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولايمكن وصفها ، وكالملاحة ، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولايدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما» .

فإذا كانت تلك المحاولات تنطق بالعجز عن إدراك وجوه الإعجاز ، فقد صرح بعض العلماء بهذا العجز . قال أبو حيان التوحيدي في (المقايسات) : «سئل بندار الفارس عن موضع الإعجاز في القرآن فقال : هذه مسألة فيها حيف على المعنى ، وذلك أنه شبيه بقولك : ماموضع الإنسان من الإنسان . . .فالقرآن لشرفه لايشار إلى شيء فيه إلا وكان المعنى آية في نفسه ، ومعجزة لمحاوله ، وهدى لقائله وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه ، وأسراره في كتابه ، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر» .

وقد قرر أبو سليمان الخطابي عجز جمهور العلماء عن إبراز تفاصيل وجوه الإعجاز فقال في كتابه (بيان إعجاز القرآن) :« ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق» .

ومع ذلك فقد كان الإعجاز البلاغي للقرآن سبباً في زلل الرأي عند المفسر الكبير ابن عطية شيخ القرطبي إذ قال بعد كلام طويل في مقدمة تفسيره : «ونحن تتبيّن لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق ، وجودة القريحة ، وقامت الحجة على العالم بالعرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، وفطنة المعارضة» . فقوله :أن الحجة قامت على العالم بالعرب لايمكن تسليمه على الإطلاق هكذا . إذ لايمكن أن تكون البلاغة القرآنية الخارقة لبلاغة العرب هي سبب هداية الترك والفرس قديماً ، والأوروبيين حديثاً ، بل يمكن أن يكون عجز العرب عن المعارضة عاملاً مساعداً ، وعنصراً واحداً من عناصر الدعوة عن طريق التفوق القرآني في جميع الميادين .

وهناك محاولات تفصيلية بعيدة عن العموميات تدور حول النظر التحليلي في أسلوب القرآن للتعرف على وجوه إعجازه من وجهة النظر العربية يمكن الإشارة إليها على سبيل المثال لا الحصر .

أولاً : الموازنة الدقيقة بين اللفظ والمعنى :

في هذا يقول ابن عطية :«إذ ترتيب اللفظة من القرآن علم الله بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول . . .وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد» .

وقد أكمل ابن سراقة هذا المعنى فقال :«إن من اقتصر على معانيه وغير حروفه أذهب رونقه ، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته ، فكان ذلك أبلغ في الدلالة على إعجازه» .

ولقد أدخل الفخر الرازي في هذا الباب علم مناسبات الآيات والسور ، وارتباط بعضها ببعض حتى تصير شيئاً واحداً ، وبناء متيناً لاخلل بين أجزائه ، حتى لقد قال :«إن الإعجاز يكاد ينحصر في هذا المعنى الذي لايوجد أبداً في كلام البشر» .

ثانياً : تفرد القرآن بطريقة بيانية غير طرق العرب :

وفي هذا المعنى يقول الأصبهاني في تفسيره :«بيان كون النظم معجزاً يتوقف على بيان نظم الكلام ، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ماعداه ، فمراتب تأليف الكلام خمس : الأولى : ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض لتحصل على الكلمات الثلاث : الاسم ، والفعل ، والحرف . والثانية : تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض لتحصل على الجمل المفيدة ، ويقال له : منثور الكلام . والثالثة : ضم بعض ذلك إلى بعض ضماً له مباد ومقاطع ، ومداخل ومخارج ، ويقال له ، المنظوم . والرابعة : أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ، ويقال له : المسجع . والخامسة :أن تجعل له مع ذلك وزن ، ويقال له : الشعر .
والمنظوم أما محاورة ، ويقال له : الخطابة ، واما مكاتبة ، ويقال له الرسالة .

فأنواع الكلام لاتخرج عن هذه الأقسام ، ولكل من ذلك نظم مخصوص ، والقرآن جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شيء منها . فلايصح أن يقال للقرآن : رسالة أو خطابة ، أو شعر ، أو سجع كما لايصح أن يقال : هو كلام . والبليغ إذا قرع سمعه فصل بينه وبين ماعداه من الكلام» .

وقال الرماني بعد أن ساق أنواع الكلام :«فأتى القرآن بطريقة مفردة ، خارجة عن العادة ، لها منزلة في الحسن تفوق كل طريقة ، وتفوق الموزون الذي هو أحسن الكلام» .

ثالثاً : جمع القرآن لمراتب البيان في أسلوب واحد :

قال أبو سليمان الخطابي : «إن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في درجات البيان متفاوتة ، فمنها الجائز المطلق المرسل ، فحازت بلاغات القرآن عن كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع شعبة ، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة ، والعذوبة ، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين ، لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة يعالجان نوعاً من الزعورة ، فكان اجتماع النوعين في نظم مع نبو كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ، ليكون آية بينة لنبيه ﷺ» .

رابعاً : روعته في القلوب :

وقد فطن إلى هذا الوجه بعض المؤمنين بل وكثير من الجاحدين المنكرين أيضاً . فيقول الخطابي : «وقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس ، وهو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لاتسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولامنثوراً إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال .

ومن الروعة والمهابة في حال آخر مايخلص منه إليه ، قال تعالى : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ [1] . وقال : ﴿الله نزّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثَانِيَ تقشعرُّ منه جلودُ الذين يخشَوْنَ ربَّهم﴾ [2] .

ويقول الزركشي : «فمنها الروعة التي في قلوب السامعين وأسماعهم ، سواء منهم المقر والجاحد ومنها أنه لم يزل غضاً طرياً في أسماع السامعين ، وعلى ألسنة القارئين» . ويكتشف القاضي عياض أن هذه الروعة وتلك الهيبة ، كانت سبباً في إسلام بعض الكفار من العرب فيقول : «ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم ، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته ، وقد أسلم جماعة عند سماع آياته فمنهم جبير بن مطعم ، فإنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور . قال : فلما بلغ قوله تعالى : ﴿أمْ خُلِقُوا من غيرِ شيءٍ أمْ هُمُ الخَالِقُون﴾ [3] إلى قوله : «المسيطرون» كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ماوقر الإسلام في قلبي» .

---

(١) سورة : الحشر/آية : ٢١/ .

(٢) سورة : الزمر/آية : ٢٣/ .

(٣) الطور أية / ٣٥/

خامساً : ماوراء التكرار في القرآن :

وهذا الوجه يمكن أن نسميه تجاوزاً (بالتركيب الكيميائي للقرآن) . وذلك أن أسلوب القرآن من هذه الوجهة مركب تركيباً دقيقاً ، بحيث تقرب منه التركيبات المعملية التي توزن على مقادير بالغة الدقة ، ولاتؤتي النتيجة المأمولة منها إذا اختلت هذه التراكيب في جزء من مائة منها .

هذا توجيه من توجيهات المكررات القرآنية يمكن أن نتبينه واضحاً من قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزلَ اللهُ قالوا بل نَتَّبِعُ ماألفينا عليه آباءَنا أوَ لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون﴾ [1] . وقوله في سورة المائدة : ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل اللهُ وإلى رسولهِ قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءَنا أوَ لو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً ولايهتدون﴾ [2] . فقوله تعالى على لسان الكفار : (بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا) لايمنع أن يرجعوا عن اتباع آبائهم ، فهم لم يبلغوا النهاية في دعوى إيمانهم بالأوثان ، ولهذا استعمل الله تعالى في نفي هدايتهم لفظاً لايبلغ النهاية في اليقين وهو قوله تعالى : ﴿أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً﴾ . فإن فوق العقل في اليقين (العلم) . أما في المائدة فقد بلغ الكفار النهاية في الاعتداد بالأوثان ، وقطعوا على أنفسهم طريق العودة عنها بقولهم : ﴿حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا﴾ . ولهذا استعمل الله في نفي هدايتهم نفي العلم الذي هو أبلغ درجات اليقين فقال : ﴿أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً﴾ . والدليل على أن العلم أرفع من العقل أن الله لايوصف بالعقل ، وإنما يوصف بالعلم . فهل ترى أدق وزناً لمعاني الألفاظ ، ومراعاة تناسبها في هذا الوزن الحق الذي نزل به القرآن؟؟ .

ومن أمثلة هذه الدقة الرائعة التي لاتبلغها دقة العَالِم في معملهِ ماجاء في قوله تعالى : ﴿فسيروا في الأرض فانظروا﴾ [3] فاستعمل الفاء في عطف النظر على السير ، وهي للتعقيب بلا تراخ بينهما . وقد تكرر هذا الاستعمال في سورة النحل (٣٦) والنمل (٦٩) والروم(٤٢) وهكذا في القرآن كله ماعدا سورة الأنعام فقد قال تعالى فيها ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا﴾. فاستعمل في عطف النظر على السير

---

(١) سورة البقرة، آية : ١٧٠ .

(٢) سورة المائدة : آية ١٠٤ .

(٣) سورة النحل : الآية/ ٣٦/ .

(ثم) التي هي للتراخي ، فلم كان ذلك ، وماذا وراء هذا التكرار مع اختلاف العطف بين التعقيب والتراخي؟ .

أقول : إن الايات كلها تجمع على حث المؤمنين على النظر في عواقب المكذبين ، وهذا نهج عام يشترك فيه العلماء وغير العلماء من المسلمين على طريق الدعوة إلى الله ، يهتدي به الجاحدون إلى الحق ، ويزداد به الذين آمنوا إيماناً ويقيناً ، وهو أن يتعظوا بمجرد رؤية آثار الكفار السابقين ، وكيف دمرت حضارتهم وبادت حتى صارت أثراً بعد عين ، إذ يكفي :أن يُلْقِيَ الإنسان نظرة عابرة على آثار الفراعنة في مصر ، أو على مدائن صالح في السعودية ، ليدرك من خلال عظمة الحضارة وسطوة الخراب عظمة الله وسلطانه على الكون ، وتكفي زيارة واحدة يقوم بها الإنسان للحصول على هذه النتيجة العاجلة .

أما آية سورة الأنعام فهي تطالب بمنهج آخر فيه تريث وتراخ ودراسة علمية متأنية يخرج منها الباحثون بمزيد من التفاصيل ، ومزيد من النتائج والدلالات على وجود الله وعظمته . ولهذا كانت الملابسات التي تحيط بآية الأنعام تشير إلى المطالبة بهذه الدراسة المتأنية المتراخية التي تحتاج بطبيعتها إلى وقت طويل . ففي الآية (٦) أشار الله تعالى إلى القرون الماضية ، وإلى القرون التي أنشأها من بعدهم في قوله :﴿أَلَمْ يَرَوْا كَم أهلكنا من قبلِهِم مِنْ قرنٍ مكَّنّاهم في الأرض ما لم نمكنْ لكم وأرسلنا السماءَ عليهم مِدْراراً وجعلنا الأنهارَ تجري من تحتِهِم فأهلكنَاهم بذنوبِهم وأنشأنَا من بعدِهِم قرناً آخرين﴾ . فمادام موضوع السير هو البحث في القرون الماضية والمتابعة ، والتي أصبحت موضوع دراسة وبحث عن أسباب تحول الري إلى جفاف ، والخصب إلى قفر ، والعمران إلى خراب كما أشارت إليه الآية التاسعة من سورة الأنعام ، مادام الأمر هكذا فإن الأمر يحتاج إلى دراسة وبحث يقوم على العلم والتحليل ، وتسجيل الأسباب والنتائج ، ومخاطبة العالم كله بهذه الدراسات الهادفة . وكما قال الكرماني في كتاب «البرهان» :«أمروا باستقراء الديار» وتأمل الآثار ، وفيها كثرة ، فيقع ذلك سيراً بعد سير وزماناً بعد زمان ، ليعلم أن السير مأمور به على حدة ، والنظر مأمور به على حدة ، ولم يتقدم في سائر السور مثله» .

والعجب العجاب من أمر تكرار القرآن ومايتراءى خلاله من إعجاز آيتان ، إحداهما في سورة الأنعام : ﴿إنّ ربّك هو أعلمُ من يضلُّ عن سبيلِهِ﴾ . وقوله في سورة القلم :﴿إنّ ربّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيلِهِ﴾ فأكثر مايستعمل وزن (أفعل) في لغة

العرب مع الفعل الماضي ، كقولهم :أعلم من دب ودرج ، وأحسن من قام وقعد ، وأفضل من حج واعتمر . فلماذا استعمل مع الفعل المضارع في سورة الأنعام ، ولم يستعمله في الماضي كما في سورة القلم ، وكما هو الغالب في لغة العرب؟ ولماذا زيدت الباء في آية (القلم) ، وحذفت في آية الأنعام؟

أما استعمال (أفعل) مع المضارع في الأنعام فلأن سياق الكلام دائر حول المستقبل لبيان أصل عام ، وماض إلى الأبد ، في شأن الرأي العام ، أو (الجماهير) فيما يتصل بالعقيدة وشؤون الدين بوجه خاص ، فالآية السابقة على آية الأنعام هي قوله تعالى : ﴿وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلّوكَ عن سبيلِ اللهِ إنْ يتَّبِعُون إلّا الظنَّ وإنْ هم إلّا يَخرُصُون﴾ . بخلاف ما في سورة القلم ، فإن الكلام فيها عن قوم ضلوا بالفعل ، هم الكافرون من قريش ، ﴿فستبصر ويُبصرون . بأيّكم المفتون . انّ ربَّك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله﴾ . يعني : ضل فقال عن الرسول : إنه مجنون ، وعن القرآن :أنه سحر مبين . . .فلما جاء (أفعل) مع المضارع في الأنعام انقطعت مظنة الضلال إلى الله تعالى : كما هو جائز في المعنى إذا استعمل مع الماضي ، فصار معنى الآية في الأنعام :أن الله أعلم بمن يضلون عن طريقه في المستقبل ، فصار ورود أفعل مع المضارع إتباعاً للسياق ، وقطعاً لمعنى الإضافة المؤكد في استعمالها مع الماضي كما هو الغالب في لغة العرب ، فلما استعمله مع الماضي في سورة القلم استعمله مع الباء ، إذ لو لم تذكر الباء لصار المعنى أنه تعالى أعلم الضالين عن سبيله ، وتعالى الله علواً كبيراً .

فانظر كيف خالف الغالب في لغة العرب في الأنعام ، ولم يزد حرفاً لامعنى لزيادته مع فعل المستقبل حفظاً للقرآن من الحشو ، وكيف كان الاحتياط للمعنى في سورة القلم حينما تعارض المعنى مع الاستعمال اللغوي الشائع في لغة العرب ، فلم تكن الباء زائدة في سورة القلم . ولهذا عقب الكرماني على كلامه هنا بقوله :«فتنبه فإنه من أسرار القرآن» .

ثم انظر كيف يستعمل الكتاب والباحثون كلمتي (ينفع ويضر) مقترنتين بتقديم أيهما شاءوا ، وليس في ذلك خلل في معانيهم على أي حال ، ولكن كتاباً لايقدم النفع على الضر ، أو الضر على النفع إلا لأن السياق و (هندسة النظم) و (التركيب الكيميائي) و (الإبداع الجمالي) يدعو إلى ذلك ، بحيث لاتجد نشازاً في التركيب لالفظاً ولامعنى ـ هذا الكتاب لم نعثر عليه إلى الآن إلا فيما بين دفتي كتاب الله العزيز الحكيم الذي لايأتيه الباطل أبداً .

جاء في سورة الأعراف : ﴿قل لاأملك لنفس نفعاً ولاضراً إلا ماشاء الله﴾ وعلى هذا الترتيب جاءت آيات في سورة : الرعد ، وسبأ ، والأنعام ، ويونس ، والأنبياء ، والفرقان ، والشعراء . وجاء تقديم الضرر على النفع في سورة يونس ﴿قل لاأملك لنفس ضراً ولانفعاً إلا ماشاء الله﴾ . وعلى هذا الترتيب الأخير سارت معظم آيات القرآن إلا في المواضع الثمانية التي ذكرناها ، وإنما تقدم الضر على النفع لأنه أصل الفطرة التي نزل بها القرآن ، لأن العابدين يعبدون الله خوفاً من عقابه أولاً ، وطمعاً في ثوابه ثانياً ، وعلى هذا دلت الدلائل في فطرة البدائيين وفي وجدان الموحدين ، وقد سجل الله تعالى هذه الفطرة البشرية في قوله تعالى : ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ . أما قوله تعالى : ﴿يدعوننا رَغَباً ورَهَباً﴾ فقد جاء معبراً عن نوع راق ومتطور من الفطرة ألف العبادة حتى تحولت إلى معرفة وحب لله ورسوله .

فلماذا اختلفت هذه المواضع الثمانية من القرآن مع الأصل ، فقدم فيها النفع على الضر إذن؟ .

اختلفت هذه المواضع الثمانية فتقدم النفع على الضر ، لأن السوابق من الآيات تدعو إلى هذا التركيب ، حرصاً على النظام القرآني البديع المعجز من حيث لايمكن بأي حال أن يستمر الناس في كتاباتهم على مراعاة هذا النظام ، بل تعمهم الغفلة غالباً . ففي سورة الأنعام جاءت الآية بعد قوله تعالى : ﴿ليس لها من دونِ اللهِ من وليٍّ ولاشفيعٍ وإنْ تعدِلْ كلَّ العدلِ لايُؤخذْ منها﴾ .

فالولاية والشفاعة تناسب النفع ، وعدم أخذ العدل يناسب الضر ، فجاءت الآية على هذا النسق : ﴿قلْ أندعُو من دونِ اللهِ مالاينفعُنا ولايضرُّنا﴾ . وفي يونس تقدمه : ﴿ثم ننجي رسلَنا والذين آمنوا﴾ فناسب تقديم النفع رعاية للنجاة وهي نفع . وفي الأنبياء جادل الكفار إبراهيم في أصنامهم فقالوا : ﴿لقد علمت ماهؤلاء ينطقون﴾ . حرصاً على بقائهم لمنفعتهم في زعمهم . فقال تعالى : ﴿أتعبدون من دون الله مالاينفعكم ولايضركم﴾ . وقال تعالى : ﴿ألم ترَ الى ربِّك كيف مدَّ الظل﴾ واستمرت الآيات في سياق يعدد نعم الله الجليلة في عشر آيات ثم قال : ﴿يعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرهم﴾ .

وفي سورة (المؤمنين) قال تعالى : ﴿لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون﴾ .

وفي الزخرف (فاكهة) على التوحيد ، و(منها تأكلون) بدون واو .

والسبب أن القرآن لما راعى لفظ الجنة ، ولما كان الحديث في (المؤمنون) عن الجنات بالجمع كانت الفواكه جمعاً ، ولما كان الحديث في الزخرف عن الجنة مفردة كانت الفاكهة مفردة ، ثم يعود البحث إلى كشف جديد عن وجه بديع من وجوه الخلاف في حذف الواو عن آية الزخرف ، وإثباتها في آية (المؤمنون) ، لأنها تتحدث عن جنات الأرض في الدنيا ، وكان حق الكلام أن يقال : منها تبيعون ، ومنها تدخرون ، ومنها تأكلون ، فاقتضى الإيجاز المعجز أن يبقى ما به أساس الحياة مسبوقاً بواو وتدل على بقية المنافع المقصودة من حدائق الأرض دون إخلال بالمعنى . أما في الزخرف فالحديث عن جنة الخلد ، وليست للأكل فحسب ، فحذف الواو للدلالة على ذلك .

سادساً : القرآن وتيرة واحدة :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ولو كانَ مِنْ عندِ غيرِ اللهِ لوجَدُوا فيهِ اختلافاً كثيراً﴾ .[1] وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي مشيراً إلى إعجاز القرآن من هذة الوجهة: «المراد : نفي الاختلاف عن ذات القرآن . . .يقال : هذا كلام مختلف ، أي لايشبه أوله آخره في الفصاحة ، أو هو مختلف الدعوى ، أي بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا ، أو هو مختلف النظم ، فبعضه على وزن الشعر ، وبعضه منزحف ، وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزالة ، وبعضه على أسلوب يخالفه ، وكلام الله منزه عن هذه الاختلافات فإنه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره وعلى درجة واحدة في الفصاحة ، فليس يشتمل على الغث والسمين ، ومسوق لمعنى واحد ، وهو دعوة الخلق إلى الله ، وصرفهم عن الدنيا إلى الدين .

وكلام الناس تتطرق إليه هذه الاختلافات ، إذ كلام المترسلين والشعراء إذا قيس عليه وُجِدَ فيه اختلافٌ في منهاج النظم ، ثم اختلافٌ في درجات الفصاحة ، بل في أصل الفصاحة ، فلاتتساوى رسالتان ولاقصيدتان ، بل تشتمل قصيدة على أبيات فصيحة ، وأبيات سخيفة وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة ، لأن الشعراء والفصحاء في كل واد يهيمون ، فتارة يمدحون الدنيا ، وتارة يذمونها ، وتارة يمدحون الجبن ، وتارة يسمونه حزماً ، وتارة يذمونه ، ويسمونه تهوراً ، ولاينفك كلام آدمي عن هذه الاختلافات ، لأن منشأها اختلاف الأغراض ، والأحوال ، والإنسان.

---

(١) سورة : النساء/آية: ٨٢/ .

وكذلك تختلف أغراضه ، فيميل إلى الشيء تارة ، ويميل عنه أخرى ، فيوجب ذلك اختلافاً في كلامه بالضرورة ، فلايصادف إنسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة نزول القرآن ، فيتكلم على غرض واحد ، ومنهاج واحد ، ولقد كان النبي ﷺ بشراً تختلف أحواله ، فلو كان هذا كلامه ، أو كلام غيره من البشر ، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

وهذا المعنى فطن إليه صاحب «منهاج البلغاء» حين قال :«وجه الإعجاز : استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه ، استمراراً لاتوجد له فترة ، ولايقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لاتستمر الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الإنسانية ، فينقطع طيب الكلام ورونقه ، فلاتستمر الفصاحة في جميعه ، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه .

وهذا الوجه الذي فطن إليه القدامى لايحتاج إلى دليل على صحته ، فهذا القرآن بين أيدي الناس في كل مكان على مدى أربعة عشر قرناً ، وهذه كتب الأدباء ودواوين الشعراء هي الأخرى في كل مكان ، وهذا علم النقد الأدبي مكتمل المنهج لدى جميع النقاد ، وماوجدنا النقاد إلا ويتناولون الإنتاج الإنساني بالتشريح وكشف مافيه من ظواهر المد والجزر في درجة الفصاحة والبلاغة وكشف مايتداخله لامعنى له سوى المحافظة على جرس الكلام أو مداراة مااعترى الفكر من فتور بتكرار الجمل على وجه الترادف والتكرار الخطابي الذي لايبدىء ولايعيد .

أما القرآن فلم يستطع النقاد أن يصلوا فيه إلى ثغرة ، أو إلى وجه من وجوه النقص الكثيرة في كلام البشر . كل ماقالوه : إن فيه تكراراً ، وقد ردَّ عليهم الكرماني في كتاب البرهان أبلغ رد وأفحمه لمكابرٍ حقودٍ . وقالوا :إن القرآن موضوعات لارابط بينهما . وسوف نرد على هؤلاء في باب منفصل .

العنصر العالمي في إعجاز القرآن :

أشرنا إلى خطأ الإمام ابن عطية في تعميمه القول بأن الحجة قامت على العالم بالعرب في مسألة الإعجاز القرآني .

ونزيد هنا :أن هذا القول قد يكون له بعض الوجاهة إذا فسرناه على أن عجز العرب المطبق عن معارضة القرآن بمثله ، وهم في الذروة العليا من البلاغة والتحكم في زمام القول ، وجودة القريحة ، وصفاء السليقة ، هذا العجز من هؤلاء القوم الذي أنزل القرآن بلغتهم يشكل عنصراً واحداً من حجة القرآن على العالم ، وهذا العنصر يضع

القرآن موضع الاعتبار أمام غير العرب من الناطقين بلغات أخرى ، والذين لايجيدون إلاتذوق المعنى في القرآن ، وهم عن تذوق الأساليب العربية بمعزل .

وذلك لأن العرب لو نجحوا في معارضة القرآن لأسقطوا على الفور حجة الرسولﷺ على أنه رسول يبلغ عن ربه دعوة الإسلام الخاتمة ، ولو سقطت هذه الحجة القائمة للرسول لاندثرت الدعوة ، وأصبحت في عداد النِّحَل الكاذبة التي ذخرت بها المراجع الإسلامية .

أما وقد عجز العرب تماماً عم معارضة القرآن ، فقد قامت حجة الرسول على العرب ، وكان قيام هذه الحجة عاملاً رئيسياً في إبراز حجة أخرى تشير بوضوح إلى روح القرآن وأثره العجيب في بناء القوة من الضعف ، والتماسك من التمزق ، وسمو الهدف من ماديته وأرضيته ، والعالمية من النعرة العصبية ، والنبل والإيثار من السعار المالي الرهيب ، وتواضع الرؤوس من تعاليها ، إلى غير ذلك من معجزات التاريخ التي دبت في الوسط العربي في قوة وسرعة وعزم فسمت بهم من وهدة التحلل ، وفرقة التجمع حول شيوخ القبائل المختلفي النزعات والأغراض ، وهلهلة العقيدة في الأحجار والكهانة إلى الوحدة حول رسول الله ﷺ على أساس متين من عقيدة الوحدانية التي رفضت كل الشوائب ، وأحالت القاتم الذي كان يسود الجزيرة العربية إلى صفاء ونقاء .

ودالت دولة الشرك تماماً في الجزيرة ، وكان جيش تبوك وبعث أسامة بن زيد ، الذي توفي الرسول ﷺ قبل نفاذه ، كان هذان العملان العسكريان بمثابة الإشارة النبوية إلى ساعة الصفر التي يتحول فيها جهاد الإسلام إلى الواقع العالمي ، بعد أن أقام حجته الناصعة بالقرآن العربي على العرب الناطقين بالعربية ، وأفصح من نطق بها .

من هنا يصلح العرب أن يكونوا حجة على العالم ، بعدما قامت حجة القرآن عليهم بأنه صالح لبناء أمة لها خصائص الأمم الراقية إذا قيس الرقي بموازين العلم والعقل ، لابمقاييس الشطط والهوى . وكانت صورة الإنسان المسلم الذي بناه الرسول بالقرآن حجة على صلاحية القرآن للدعوة العالمية .

لم يكن الأسلوب العربي إذن مهما بلغ من الإعجاز حجة على الروم والفرس والقبط ، لأن هؤلاء لايدركون من ذوق العربية لاقليلاً ولاكثيراً ، وإنما كانت فاعلية القرآن ، وأعاجيب الفدائية التي كانت ماثلة أمام تلك الشعوب من جهة ، وتسامي السلوك ، وارتفاع الإنسانية إلى مستواها الحق الذي تهفو إليه الدنيا كلها هي الحجة الماثلة أمام الشعوب غير العربية ، مماجعلها بعد أن اطمأنت إلى العدل الذي حمله

العرب إلى غيرهم تتحرق شوقاً إلى بحث هذا الكتاب الذي هدى العرب ، وبنى منهم تلك الأعجوبة الماثلة أمامهم .

ومن هنا أيضاً كان غزو اللغة العربية للغات الأخرى ، لأن هذا التطلع الملح الذي يتحرك في أعماق غير العرب إلى استكشاف أسرار القرآن ومفاهيمه دفعهم إلى تعلّم العربية ، وكان ذلك بالفعل ،حتى كان الغزو اللغوي العربي في صف واحد مع الغزو العسكري في سبيل تأصيل العقيدة الخاتمة .

وكان أن تحول الجم الغفير من تلك الشعوب غير العربية إلى علماء في العربية، وإلى أصوليين ومفسرين ومحدثين ودعاة لايقلون شأناً عن الدعاة العرب في نطاق دعوة الإسلام ، ومازالت الآلاف من تلك الأسماء غير العربية تدوي في آفاق الأرض شاهدة على إعجاز القرآن من نواح غير النواحي الأسلوبية والبلاغية .

ويكفي لإدراك معجزة القرآن العملية بعد الأسلوبية أن تعلم أن الأزهر أنشىء في مصر للقضاء على شريعة القرآن على أيدي الأدعياء الذين سموا أنفسهم بالفاطميين ، وحاولوا أن يحلوا محل شريعة القرآن مجموعة من المذاهب والنِّحل الفلسفية سجلها المقريزي في خططه ، وكان مع الفاطميين الذهب ، وكان سب الشيخين يسطر على جدران جامع عمرو بن العاص ، وكان الإرهاب بالرؤوس المحمولة على الرماح في شوارع القاهرة . كان كل ذلك ، ولكن الناس لم يفتروا عن المظاهرات المعادية لتلك النِّحلة الغريبة وهم يرفعون شعاراً يسمو على كل اعتبار ، إذ كانوا يهتفون في مظاهراتهم قائلين :«معاوية خال علي وخال المؤمنين» . . .

وتحول الأزهر الشيعي إلى الأزهر السني بشيوخه من أهل السنة والجماعة إلى اليوم .

أليس ذلك إعجازاً في روح القرآن ومعناه؟

وإذا لم يكن إعجازاً فبم تسمي هذا النصر الساحق العجيب؟

أليست تلك الواحدة أعجوبة التاريخ؟

أليست كافية في شد أنظار العالم كله إلى القرآن؟

وهو ماحدث بالفعل . وهذه واحدة من إعجازات القرآن الروحية والمعنوية والسلوكية تضاف مثيلاتها إليها في العصر الحديث .

بقيت واحدة أخرى يمكن أن تكون منطلقاً إلى غيرها .

ذلك :أنه لايوجد في التاريخ كله كتاب سماوي ولاكتاب وضعه بشر ، يمكن أن

يكون مصدراً لحقائق العلم والمعرفة كلها دون أن يشذ منها شيء إلا القرآن .

كتاب ذو موضوع واحد ، تدور حقائقه كلها حول ذلك الموضوع لإثباته ، وفي تطوافه بين الحقائق لإثبات حقيقته العظمى يستبطن كل العلوم والمعارف ماكان منها موجوداً من قبل تدوينه ، وماكان في عصر تدوينه ، وماجد بعد عصر تدوينه إلى أن تقوم الساعة . كتاب مثل هذا الكتاب لم ولن يوجد إلا في كتاب الله المبين ، القرآن الحكيم العزيز المجيد الكريم . . .هكذا سماه الله بأسمائه للدلالة الواضحة على أنه فوق متناول أي بشر أو ملك في الكون .

موضوع واحد هو : إثبات وحدانية الله ، ونفي ماعداه من الأوثان وأوهام العقائد الملحدة .

وفي سبيل إثبات الوحدانية الإلهية استخدم القرآن كل المعارف والعلوم ، وشرع الشريعة الحارسة على هذا الاعتقاد الصحيح ، ووضع الضوابط لعلم الإجتماع الإنساني ، وكيف لاتتضارب المصالح ، ولاتتصارع الأمم ، وأشار إلى مواطن النماء المالي في الأرض وفي البحر ، ورسم الخط الواضح للسياسة المالية في جميع العصور ، ومن منهجه التربوي كان منهج التعليم الأمثل الذي يجب أن يسير عليه الناس إذا طلبوا العافية والسلامة في دنياهم وأخراهم ، ورفع همم المؤمنين عن الماديات إلى المعارف الروحية فيما وراء المادة .

وقد نقل الإمام السيوطي في الإتقان عن أبي الفضل المرسي في تفسيره أنه قال :

«جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم بها ، ثم رسول الله ﷺ خلا ماستأثر الله بعلمه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم ، مثل الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، حتى قال : لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله . ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ماحمله الصحابة والتابعون من علومه ، فنزعوا علومه ، وقامت كل طائفة بفن من فنونه ، فاعتنى قوم بضبط لغاته . . .واعتنى النحاة بالمعرب والمبني منه من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها . . .حتى أن بعضهم أعرب مشكله ، وبعضهم أعربه كلمة كلمة . . .

واعتنى المفسرون بألفاظه ، فوجدوا لفظاً يدل على معنى واحد ، ولفظاً يدل على معنيين ، ولفظاً يدل على أكثر ، فأجروا الأول على حكمه ، وأوضحوا معنى الخفي ،

وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني ، وأعمل كل منهم فكره .

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده ، وسموا هذا العلم :أصول الدين . وتأملت طائفة معاني خطابه ، فرأت منها مايقتضي العموم ، ومنها مايقتضي الخصوص ، إلى غير ذلك ، فاستنبطوا أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز ، وتكلموا في التخصيص والأخبار ، والنص والاجتهاد ، والظاهر ، والمجمل والمحكم ، والمتشابه ، والأمر والنهي . . .وسموا هذا الفن :«أصول الفقه» .

ثم عدد ابن أبي الفضل علوم الدين والأدب والأمثال والحكم والوعظ والمعاد ، وأصول تعبير الرؤيا ، والظواهر الكونية ، وعلوم الحقائق ، والطب ، والجدل ، والهيئة ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة ، وأصول الصناعات ، ونبه إلى مكانها من القرآن .

بل إن السيوطي نقل :أن سكوت القرآن عن حقيقة من الحقائق يمكن استنباط الحقيقة منه . ومثل له باستدلال جماعة على أن القرآن غير مخلوق بأن الله تعالى ذكر الإنسان في القرآن في ثمانية عشر موضعاً وقال : إنه مخلوق . وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً ، ولم يقل :أنه مخلوق . فلما جمع بينهما غاير فقال : ﴿الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان﴾[1] .

ونقول :أن في قوله تعالى ﴿علم القرآن﴾ دليلاً على أنه غير مخلوق لأنه أرجعه إلى ذاته يعلم به عباده ، لاإلى خلقه الذي وضعه بين عباده يتصرفون فيه حيث شاءوا .

ولقد جمع الإمام الحارث بن أسد المحاسبي من هدى القرآن مايمكن أن يسمى «علم النفس القرآني» . وذلك في كتابيه «الرعاية لحقوق الله» و «أدب النفوس» وفي كتاب ثالث يعتبر امتداداً للكتابين السابقين هو «أعمال القلوب والجوارح» .

ولقد بذل المحدثون جهداً في هذا السبيل نرى أنه يتطلب الزيادة والعمق في كتاباتهم نحو نظم الحكم ، ونظام المال ، وغير ذلك من مواضيع الثقافة الجديدة ، وبحث أصولها في القرآن .

كما تكلم المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوي في كتابه «الإسلام في عصر العلم» بما يثبت الوصاية الشرعية على العلم الحديث وإعجازه للعقل البشري .

---

(١) سورة: الرحمن/آية: ١-٢/.

وهكذا يمتد نور القرآن ، فيداخل العقول في كل مكان على ظهر الأرض يكاد يشبه فيها فعل الصدمات الكهربية في أدمغة المرضى العقليين ، إذ يفيقون بعدها وقد تفتحت عيونهم على الكون برؤية جديدة ، وإدراك رشيد ، ولم تكن تلك الموجات التي تروي الفكر في أرجاء الأرض هي موجات اللغة والأسلوب . كل مافي الأمر أن روح هذا القرآن صنعت المعجزة بين قوم عجزوا عن معارضته فأسلموا له القياد ، وبدأت بعد ذلك مسيرة القرآن في العالم الناطق بمختلف الألسنة واللغات ، واكتشف هؤلاء الأعاجم من أسرار القرآن ودلائل إعجازه وعظمته وتفوقه على كل الدساتير والمناهج العلمية في العالم كل مالم يمارسه الناطقون بالعربية في عصرنا الحاضر .

ألم يأنِ للمؤمنين أن يفتحوا أعينهم بعد؟

ألم يأنِ لهم أن يجانبوا السفسطة وحب الظهور على حساب غمز القرآن؟ (١)

ألم يأنِ لهم أن يتفرغوا للقرآن بدلاً من تفرغهم لأوهام ذوي المآرب العالمية؟ (٢)

ألم يأن لهم أن يرتفعوا عن ضيق الأفق والعنصرية التي تهدد الزحف القرآني نحو العالم؟

بل :ألم يأن لنا أن ننشىء أكاديمية للدراسات القرآنية؟

إن في هذا فتحاً جديداً للعرب والمسلمين إن فعلوا ، والله نسأل لنا ولهم التوفيق .

(١ ٢)وذلك كما فعله الدكتور محمد شحرور في كتابه المزعوم بـ«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» الذي اقترف فيه أكبر جريمة في حق قدسيّة القران العظيم حيث أقام دراسةً له على أساس الفلسفة العقيمة والمنطق السقيم مع المغالطات السفسطائية والتأويلات الإلحادية، بالإضافة إلى تجريد دراسته للقرآن من كل الضوابط الشرعية واللغوية، والمصطلحات العلمية التي اتفق عليها علماء الإسلام على مدى تاريخ علوم القرآن، فلم يكترث بمنهج علماء الأمة قاطبة، مع إشادته بعلماء الغرب النصراني، كما في ص١٩٣ ـ ١٩٤ وص١٨١ .

البحث الثالث

إعجاز النظم القرآني
جزالته وتناسقه(١)

ويُقصد بنظم القرآن طريقة تأليف حروفه، وكلماته، وجمله، وسبكها مع أخواتها قي قالب محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض التي يتكلم عنها، للدلالة على المعاني بأوضح عبارة في أعذب سياق وأجمل نظم.

والفرق بين الأسلوب والنظم: أن دائرة الأسلوب أوسع وأشمل ولايدرك الأسلوب بالجملة الواحدة(٢)، بينما النظم يمكن إدراكه في الجملة الواحدة بل وحتى في الكلمة الواحدة.

إن المتأمل في حروف القرآن الكريم وكلماته لايجد فيها شيئاً خارجاً عن المألوف المتداول في لغة العرب قديماً وحديثاً، ولكن عندما نتلو آيات الله نشعر أن للعبارة القرآنية كياناً خاصاً بنى عليه تراكيبه ورسم معالم صورة نظمه الفريد على هذا الكيان الفريد.

فالكلام كما عهدته العرب شعر ونثر وما هو بين الشعر والنثر وهو السجع، ولو كان لإنسان عربي أن يتكلم أو يكتب أو يعلم أو يشرع أو يلفظ لما خرج في نظم كلامه أو تأليفه عن أخذ هذه الأنواع المعهودة عند العرب.

ولكن القرآن جاء في ثوب غير تلك الأثواب وفي صورة غير تلك الصور، جاء نسيج وحده، وصورة ذاته، فلاهو شعر ولاهو نثر ولاهو سجع، وإنما هو قرآن، فالآية في النظم القرآني وهي ليست بيت شعر وجملة نثر ومقطع سجع، بل هي قطعة من القرآن لها بداية ونهاية متضمنَّة في سورة، ولكل آية مقطع تنتهي به هو الفاصلة، وليست هذه الفاصلة قافية شعر ولاحرف سجع وإنما هي شاهد قرآني لايوجد فيه، ولايعتدل في كلام غيره.

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن /د. مصطفى مسلم/ص ١٢٥-١٣٣/ط المنارة ـ جدة.
(٢) الأسلوب القرآني سيأتي بحثه بعد هذا البحث.

إن النظم القرآني البديع بهر العرب بحسن مبادىء الآي والمقاطع وتماسك الكلمات واتساقها في التراكيب، وقد تأملوه آيةً آيةً وعُشراً عُشراً وسورةً سورةً فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يُرى غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول وأعجز أهل الحكم والبلاغات، ونظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً لم يدع في نفس واحد منهم موضع طمع حتى خرست الألسن أن تدّعي وتتقوّل.

وأقروا في قرارة أنفسهم أن هذا ليس من قول البشر وإن أنكروا ذلك بألستهم. ومجيء النظم القرآني على هذا الشكل من الإتقان والإحكام إنما يعود ـ كما يقول ابن عطية ـ إلى أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً وأحاط بالكلام كله علماً فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطة أي لفظة تصلح أن تبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ومعلوم ضرورةً أن بشراً لم يكن قط محيطاً، فلهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة.

ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ثم لايزال ينقحها حولاً كاملاً ثم تُعطى لأحد نظيره فيأخذها بقريحة خاصة فيبدّل فيها وينقّح ثم لاتزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تتبيّن لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميْزِ الكلام.

وفيما يلي بعض مزايا النظم القرآني وأمثلة عليها:

ـ التناسق بين العبارة والموضوع الذي يُراد تقريره:

إن الذي يتمعن النظر في النظم القرآني يلاحظ التناسق الكامل والتآلف التام بين العبارة القرآنية والمعنى الذي يُراد بيانه وتوضيحه؛ فالألفاظ في النظم يُلائم بعضها بعضاً وهي كلها متوجهة إلى الغرض المنشود بحيث إذا كان المعنى غريباً كانت ألفاظه غريبة وإذا كان المعنى معروفاً مستحدثاً كانت الألفاظ تناسبها.

يقول بديع الزمان: فالكلام إذا حذا حذو الواقع وطابق نظمه نظامه حاز الجزالة بحذافيرها. ويكون ذا قوة وقدرة إذا كان أجزاؤه مصداقاً لما قيل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ... وكل إلى ذاك الجمال يشير

بأن تتجاوب قيودات الكلام ونظمه وهيئته ويمدّ كل بقدره الغرض الكلي مع

ثمراته الخصوصية [1].

وفي الأمثلة التالية نلقي أضواء على هذا الجانب:

- لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصف حالة يعقوب عليه السلام وهو يتأسف على يوسف عليه السلام، وكانت هذه الحالة غريبة في نظر أبنائه لأنهم لم يسدوا مكان يوسف، عبر عن هذه الحالة بكلمات غريبة كلها، فقال سبحانه وتعالى على لسانهم: ﴿قالوا تالله تفتأُ تذكُرُ يوسف حتى تكون حَرَضاً﴾يوسف/ ٨٥،حيث أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها؛ فإن التاء أقل استعمالاً وأبعد عن أفهام العامة، والباء والواو أعرف عند الكافة وهي أكثر دوراناً على الألسنة وأكثر استعمالاً في الكلام. ثم أتى الله سبحانه وتعالى بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها فإنّ (كان) وما قاربها أعرف عند الكافة من تفتأ. وهم لـ (كان) وماقاربها أكثر استعمالاً منها وكذلك لفظ (حرضاً) أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك[2]. فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخياً لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم.

ب - وفي هذا الباب قوله تعالى: ﴿ولئن مسَّتْهم نفحةٌ من عذاب ربك...﴾ الأنبياء/ ٤٦، في سياق بيان الضعف البشري أمام جبروت الخالق تبارك وتعالى فأراد بيان ضعفهم أمام العذاب الخفيف القليل فأتى بكلمات كلها تتجه إلى إظهار الغرض وهو وصف العذاب بالقلة.

فأتى بـ (إن) التي تفيد التشكيك في وقوعه، وأتى بكلمة (المسّ) بدل الإصابة أو الحرق فهو دونها في المرتبة ودون الدخول، وكذلك كلمة (نفحة) مع تنوينها المشعر بضعف العذاب وحقارته و(من) المفيدة للبعضية فلم يأتهم كل العذاب وإنما هي نفحة عابرة يسيرة من جزء صغير من العذاب، ثم العذاب لم يُضف إلى اسم دال على القهر والجبروت بل أضيف إلى أرق اسم دال على الشفقة وهو (رب)، ثم أضيف الرب إلى مقرَّب محبوب وهو ضمير خطاب رسول الله ﷺ.

إن الكلمات كلها مسوقة إلى هدف واحد وهو وصف هذا العذاب بالقلة والضآلة

---

(١) إشارات الإعجاز في مظانّ الإعجاز/ سعيد النورسي/ ص ٨٥/ ط النور/.

(٢) «في مفردات الراغب» ص ١٦٣: الحرض: مالايُعتَدّ به ولاخير فيه، لذلك يقال لما أشرف على الهلاك (حرض).

والحقارة ليبيِّن بالتالي أن المذنبين يندمون ويتأسفون على ماعملوا عند تعرضهم لنفحةٍ بسيطة من عذاب الله ﴿ولئن مسَّتْهم نفحةٌ من عذاب ربك ليقولُنَّ ياويلنا إنّا كنا ظالمين﴾.

وهكذا لو ذهبنا نستعرض الآيات القرآنية في موضوع من الموضوعات المذكورة فيه نجد هذا التناسق وهذا الانسجام بين المعاني والألفاظ المختارة لأدائها فلاتعقيد يعثر الفكر في طلب المراد، بل الألفاظ تسابق معانيها ومعانيها تسابق ألفاظها، كما أن الألفاظ عربيّة مستعملة جارية على قوانين اللغة سليمة عن التنافر بعيدة عن البشاعة عذبة سلسة كالماء في السلاسة والعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة.

٢ـ ومن مزايا النظم القرآني اهتمامه بالجملة القرآنية واختيار المكان المناسب فيها للكلمة المعبِّرة:

بالإضافة إلى ماذكرنا سابقاً عن التناسق بين العبارة والمعنى الذي يراد توضيحه فإن هنالك نوعاً من التناسق الرائع بين الكلمات في الجملة الواحدة وبين الحروف في الكلمة الواحدة.

فنظرة إلى تلك الحروف تبرز تناسبها لبعضها تناسباً طبيعياً في الهمس والجهر والشدة واللين والتفخيم والترقيق مما يشكّل أنغاماً متناسقة متناسبة. وهذه الخاصية تعود بلا شك إلى طريقة اختيارها وسبكها وتناسب مخارجها. كما أن وضع الكلمة في الآية واختيار موقعها والتئامها مع جاراتها له الأثر الكبير في إعطاء هذا الجرس الخاص والإيقاع المؤثر في نفس السامع.

ولايقتصر وضع الكلمة في الآية على تأثيره في اللحن والنغم وإنما لهذا الموقع والوضع المناسب تأثير على المعنى وإبرازه، لذا نجد أن كثيراً من الباحثين اقتصروا على إبراز هذه الناحية دون الإشارة إلى ناحية اللحن والإيقاع.

والحقيقة أن الكلمات القرآنية لها دور وضرورة في السياق للدلالة على المعنى، كما أن لها دوراً في تناسب الإيقاع دون أن يطغى هذا على ذاك أو يخضع النظم لأحد الأمرين.

وفي الأمثلة التالية نرى اهتمام النظم القرآني في اختيار الكلمة المناسبة ذات الجرس المعين لأداء وظيفتها في الإيقاع كما أنها تؤدي في نفس الوقت دورها في تصوير المعنى وتشخيصه وإيضاحه على أتم صورة.

أـ اختيار كلمة (حرث) لتشبيه النساء به دون الأرض أو الحقل أو الزرع وغيرها من

المترادفات وذلك في قوله تعالى: ﴿نساؤكم حَرْثٌ لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ البقرة/ ٢٢٣. ولعل اختيار هذه اللفظة دون سواها لما فيها من لطف الكناية في ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث وذلك النبت الذي تخرجه الزوج ومافي كليهما من تكثير وعمران وفلاح. بينما هذه اللطائف لاتُستفاد من كلمة (الأرض) إذ قد تكون جدباء لاتصلح لحراثة الزرع وكذلك الحقل فإنه لايدل على عمل المالك فيه بل تدل الكلمة على شيء جاهز لادخل فيه لبذر الحارث.

بذلك نلاحظ أن القرآن الكريم يتناول من الكلمات المترادفة أدقها دلالة على المعنى وأتمها تصويراً وتشخيصاً للصورة وأجملها وأحلاها إيقاعاً ووزناً بالنسبة إلى نظائرها.

ب - ومن هذا القبيل كلمة (أغطش) في قوله تعالى: ﴿أَغْطَشَ ليلَها وأخرجَ ضُحاها﴾ النازعات/ ٢٩.

فهي مساوية من حيث الدلالة اللغوية لأظلم، ولكن(أغطش) تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة فالكلمة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت وعمّ الركود وبدت في أنحائه مظاهر الوحشة. ولايفيد هذا المعنى كلمة(أظلم) إذ هي تعبر عن السواد الحالك ليس غير.

جـ - وحينما يصف القرآن الكريم دعوة امرأة العزيز للنسوة - اللائي تحدثن منتقدات عن مراودتها يوسف عن نفسه - إلى جلسة لطيفة في بيتها لتطلعهن فيها على يوسف وجماله فيعذرونها فيما أقدمت عليه، لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاماً ولاشك. ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام فهذه الكلمة إنما تصور شهوة الجوع وتنتقل بالفكر إلى المطبخ بكل مافيه من ألوان الطعام وروائحه وأسبابه، ولكن بماذا يعبّر إذن؟ وأين في اللغة الكلمة التي تؤدي معنى الطعام ولاتمس الصورة بأي تعكير أو تشويه؟ لقد أبدع القرآن لذلك تعبيراً عجيباً رائعاً حيث قال: ﴿فلمّا سمعتْ بمكْرِهِن أرسلتْ إليهنّ وأعتَدَتْ لهنّ متكأً....﴾ يوسف/ ٣١. (متكأ) كلمةَ تصور من الطعام ذلك النوع الذي إنما يُقدَّم تفكّهاً وتبسطاً وتجميلاً للمجلس وتوفيراً لأسباب المتعة فيه، حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والاتكاء. ولعلها أدركت بغريزتها النسائية ماسيؤول إليه أمرهن فاختارت هذا المتكأ ممايحتاج فيه إلى سكين﴿وآتَتْ كلَّ واحدةٍ منهنّ سكّيناً﴾.

د ـ وأحياناً يكون الاختيار للكلمة في مكان دون أماكن ويُستبدل بها غيرها لسرّ لطيف بالرغم من كون الموضوع واحداً، لكن الكلمة المختارة تُعطي مدلولاً خاصاً لايُوَفّيه حقّه إلاّ استعمال الكلمة القرآنية المختارة.

فمثلاً: جاءت الملائكة بالبشرى لزكريا عليه السلام بيحيى، وأيضاً جاءت بالبشرى للسيدة مريم العذراء بالمسيح عليه السلام. لكن وضع المبشَّرَيْن مختلف، وتلقّي الخبر منهما يكون له رد فعل يغاير مافي نفس الآخر، واستغراب كلٍّ منهما يكون لجانب أشد التصاقاً بحاله ووضعه. قال زكريا عليه السلام عندما جاءته البشرى: ﴿قال ربِّ أنّىٰ يكون له غلام وقد بَلَغَنِي الكِبَرُ وامرأتي عاقر﴾ آل عمران/ ٤٠.

وقالت مريم عليها السلام عندما جاءتها البشرى: ﴿قالت ربِّ أنّىٰ يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشر﴾ آل عمران/ ٤٧.

ورد في كلام زكريا عليه السلام لفظ الغلام وهو الموافق والمطابق لحاله لأنه رجل متزوج ومن شأن المتزوجين كما هي العادة أن يولد لهم، ولكن الغريب في الأمر والمعجزة أن يولد له في هذه السن المتأخرة من حياته وامرأته عاقر فكانت الكلمة التي تؤدي الغرض ووجه الاستغراب هي كلمة (غلام).

أما مريم عليها السلام فالتعجب في جانب آخر إذ أنها عذراء ولم يمسسها بشر ولم تك بغياً، فالغرابة والمعجزة أن تلد وهي عذراء فكانت الكلمة المعبرة التي تؤدي المعنى بدقة وتوضح وجه الاستغراب لها هي كلمة (ولد). فسبحان الذي أحاط علمه بسر اللغة ومكنوناتها ﴿ألايعلم من خَلَق وهو اللطيف الخبير﴾.

هـ ـ ومن هذا القبيل استعمال كلمة (قرية) تارة واستعمال كلمة (المدينة) في موضع آخر في سورة الكهف.

فعندما كان الحديث عن بخل ولؤم السكان جاء التعبير بكلمة (أهل قرية) لأن مادة (قرى) تدل على الجمع ومن مستلزماته الإمساك والبخل، بينما عندما جاء الحديث عن الغلامين والخوف من ضياع كنزهما جاء التعبير بـ (المدينة) لأن زحمة المدينة وكثرة الوجوه الغريبة فيها أليق بإضاعة المساكين والضعفاء، كما أن التحايل والغبن يكثر في المدن أكثر منها في القرى. وكل ذلك تجده في قوله تعالى: ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبَوْا أن يضيّفُوهما...وأما الجدار فكان لغلامَيْنِ يتيمَيْنِ في المدينة...﴾ الكهف/ ٧٧، ٨٢.

و- في قصة يوسف عليه السلام استعمل التعبير القرآني كلمة ﴿فأكله الذئب﴾ ولم يستعمل افترسه الذئب، علماً أن الشائع في الاستعمال إطلاق كلمة الافتراس على مثل هذا النوع، وذلك للطيفة دقيقة وهي أن الافتراس من فعل السبع معناه القتل فحسب، وأصل الفرس: دق العنق، والقوم إنما ادّعَوْا على الذئب أنه أكله أكلاً، وأتى على جميع أجزائه واعضائه فلم يترك مفصلاً ولاعظماً. وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إيّاهم بأثر باق منه يشهد بصحة ماذكروه فادَّعَوْا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لايعطي تمام هذا المعنى فلم يصلح على هذا أن يعبَّر عنه إلا بأكل.

- وبالإضافة إلى اختيار الكلمة المناسبة لأداء المعنى المعيَّن فإن النظم القرآني يهتم بالإيقاع والانسجام في اللفظ والنغم:

فيؤتى بالكلمة وتوضع في مكان معيَّن من العبارة بحيث لو تغيَّر وضعها تقديماً أو تأخيراً أو حذفاً لاختل ذاك التناسق اللفظي وذاك الوزن الخاص.

ففي قوله تعالى: ﴿أفرأيْتُمُ اللاتَ والعُزّى ومناةَ الثالثةَ الأخرى﴾ سورة النجم/١٩. فلو حُذفت كلمة (الأخرى) لاختلّت الفاصلة ولتأثّر الإِيقاع، ولو قيل أفرأيتم اللات والعزى ومناة الأخرى بحذف كلمة (الثالثة) لاختل الوزن أيضاً.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وله الأُنثى، تلك إذن قسمةٌ ضِيزَى﴾، فلو قيل ألكم الذكر وله الأنثى تلك قسمة ضيزى، بحذف كلمة (إذن) لاختل الإيقاع المستقيم بكلمة(إذن). فكأن هذه الكلمات والحروف موزونة بميزان شديد الحساسية تميله أخف الحركات والاهتزازات.

ومن هنا يبدو لنا بجلاء سبب إطلاق العرب الأوائل في بداية نزول الوحي اسم الشعر على القرآن الكريم، لأنهم لم يعهدوا هذه الحساسية وهذا الوزن وهذا النغم إلا في الشعر. ولكنهم عندما قاسوه على أوزان الشعر المعهودة لديهم، وجدوا القرآن الكريم - بالرغم من اشتماله على روعة الشعر وإيقاعه وحساسيّته وتآلف كلماته واستخدامه التصوير البارع في التعبير، والمنطق الساحر في الإقناع - لم يتقيد بقيود الشعر الكثيرة من قافية موحدة وتفعيلة تامة. لذا وجدوا أن القرآن الكريم ملك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة كما أنه بفواصله الخاصة به قد أوجد الإيقاع الخاص به فلم يملك قائلهم إلا أن يقول : إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمُغدق. وإن أعلاه لمُثمِر، وإنه ليعلو ولايُعلى عليه، وإنه ليحطم ماتحته!!.

البحث الرابع

إعجاز الأسلوب القرآني الفريد[1]

ويطلق الأسلوب في اللغة على الطريق الممتد ، ويقال للسطر من النخيل أسلوب . والأسلوب الطريق والوجه والمذهب ، والأسلوب الفن ، يقال : أخذ فلان في أساليب من القول ، اي أفانين منه .

وفي اصطلاح البلاغيين : هو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير ، أو هو العبارات اللفظية المنسّقة لأداء المعاني . فالأسلوب القرآني : هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه[2] ، ولقد تواضع العلماء قديماً وحديثاً على أن للقرآن أسلوباً خاصاً به مغايراً لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف .

وكان العرب الفصحاء يدركون هذا التمايز في الأسلوب القرآني عن غيره من الأساليب . روى مسلم في صحيحه[3] (أن أُنَيْساً أخا أبي ذر قال لأبي ذر : لقيتُ رجلاً بمكة على دينك ، يزعُمُ أن الله أرسله ، قلتُ : فما يقول الناس ، قال : يقولون شاعر ، كاهن ، ساحر - وكان أنيس أحد الشعراء - قال أنيس : لقدْ سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون) .

ولقد أبرز العلماء ميزات للأسلوب القرآني اختص بها ومن بين سائر الكلام ، فمن هذه الميزات :

أولاً : المرونة والمطاوعة في التأويل :

نجد في الأسلوب القرآني مرونة في التأويل ومطاوعة على التقليب بحيث لايدانيه

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن : د . مصطفى مسلم/ص ١٣٥- ١٤٥/ط دار المنارة - جدّة .

(٢) «مناهل العرفان» للزرقاني ٢/ ١٩٩ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة جـ٧ص١٥٣ .

أسلوب من الأساليب . وهذه المرونة في التأويل لاتحتمل الآراء المتصادمة أو المتناقضة وإنمامرونة تجعله واسع الدلالة سعة المورد الذي تزدحم عليه الوفود ثم تصدر عنه وهي ريّانة راضية .

فالأسلوب القرآني يشفي قلوب العامة ويكفي الخاصة . فظاهره القريب يهدي الجماهير وسواد الناس ويملأ فراغ نفوسهم بالترغيب والترهيب والجمال الأخّاذ في تعابيره ومشاهده . وباطنه العميق يشبع نهم الفلاسفة إلى مزيد من الحكمة والفكر ، يحل العقد الكبرى عندهم من مبدأ الكون ومنتهاه ونظامه ودقة صنعه وإبداعه .

وهذه المرونة من أسباب خلود القرآن فإن الأساليب العربية طوال أربعة عشر قرناً قد عراها كثير من التغيير والتلوين اللفظي والذهني ، ومع ذلك فإن القرآن بقي خالداً بأسلوبه المتميّز وبخصائصه الفريدة يتجدّد مع العصور وظل رائع الأثر على ترامي الأجيال إلى هذه الأيام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

إن الأسلوب القرآني لم يستغلق فهمُهُ على العرب الذين نزل القرآن بين ظهرانَيْهم ولم يكن لهم إلا الفطرة السليمة الذوّاقة للجمال . وفهمه وتفاعل معه من جاء بعد ذلك من أهل العلوم والأفكار ، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل . وقد أثبتت العلوم الحديثة المتطوّرة كثيراً من حقائقه التي كانت مخفِيَّة عن السابقين ، وفي علم الله مايكون من بعد .

والمعهود من كلام الناس لايحتمل كل ذلك ولابعضه بل كلما كان نصاً في معناه كان أدنى إلى البلاغة . وكيفما قلبته رأيته وجهاً واحداً وصفةً واحدة لأن الفصاحة لاتكون في الكلام إلا إبانة ، وهذه لاتفصح إلا بالمعنى المتعين ، وهذا المعنى محصور في غرضه الباعث عليه .

لقد فهم علماء السلف رضوان الله عليهم الآيات الكريمة : ﴿أيحسَبُ الإِنسانُ أنْ لَنْ نَجْمَعَ عظامَه . بلى قادرين على أن نُسَوِّيَ بنانَه﴾ القيامة/ ٣ ، ٤ ، ﴿والأرضُ بعدَ ذلك دَحَاهَا﴾ النازعات / ٣٠ ، غيرَ مافهمه العلماء المتأخرون بعد تطور العلوم الطبيّة والفلكيّة ولم يبعد عن الصواب من قال : (الزمن خير مفسر للقرآن) . وماذاك إلا لأن القرآن كتاب الإنسانية الخالد الذي لايستطيع جيل من الأجيال استفراغ مافيه من كنوز العلوم والحكم والحقائق .

ثانياً : اعتماد الأسلوب القرآني الطريقة التصويرية في التعبير :

من السمات البارزة للأسلوب القرآني هو اعتماده الطريقة التصويرية للتعبير عن

المعاني والأفكار التي يريد إيضاحها ، سواء كانت معانَي ذهنيةً مجرّدة ، أو قصصاً غابرة ، أو مشاهد ليوم القيامة وغيرها من المجالات .

إن الأسلوب القرآني يحمل تاليَهُ إلى أجواء الصورة وكأنه ينظر في تفصيلات الصورة المجسَّمة أمامه ، وكأن المشهد يجري أمامه حيّاً متحرّكاً ، ولاشك أن الفكرة أو المعنى الذي يُراد إيضاحه يكون أقرب إلى الفهم وأوضح في الذهن فيما لو نُقل المعنى مجرّداً من تلك الصور الحية . ويكفي لبيان هذه الميزة أن نتصور هذه المعاني كلها في صورها التجريدية ثم نقارنها بالصورة التي وضعها فيها القرآن الكريم ، فمثلاً :

أ ـ **معني النفور الشديد من دعوة الإيمان** : إذا أردنا أن نتصور هذا المعنى مجرّداً في الذهن يمكن أن نقول : إنهم ينفرون أشد نفرة من دعوة الإيمان فيتملّى الذهن وحده معنى النفور في برود وسكون .

ولنمعن النظر في الأسلوب القرآني وهو يُصوّر لنا هذا المعنى في هذا الصورة الغريبة : ﴿فما لهم عن التذكرة مُعْرضين كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَة﴾ المدثر/٤٩-٥١ . فتشترك مع الذهن حاسة النظر وملكة الخيال وانفعال السخرية وشعور الجمال : السخرية من هؤلاء الذين ينفرون كما تفر حمر الوحش من الأسد لالشيء إلا لأنهم يُدْعَوْن إلى الإيمان ، والجمال الذي يرتسم في حركة الصورة حينما يتملّاها الخيال في إطار من الطبيعة تشرد فيه الحمر يتبعها قسورة ، فالتعبير هنا يحرك مشاعر القارىء وتنفعل نفسه مع الصورة التي نُقلت إليه وفي ثناياها الاستهزاء بالمعرضين .

ب ـ ومعنى عجز الآلهة المزعومة التي يعبدها المشركون من دون الله : يمكن أن يُؤدَّى في عدة تعبيرات ذهنية مجرَّدة ، كأن يقول : إن ماتعبدون من دون الله لأعجز عن خلقِ أحقرِ الأشياءِ فيصل المعنى إلى الذهن مجرداً باهتاً .

ولكن التعبير التصويري يؤديه في هذه الصور ﴿إن الذين تَدْعُون من دونِ الله لن يَخلُقُوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يَسْلُبْهُمُ الذبابُ شيئاً لايَسْتَنْقِذُوه منه ، ضَعُفَ الطالب والمطلوب﴾ الحج/٧٣ . فيشخص هذا المعنى ويبرز في تلك الصور المتحركة المتعاقبة :

﴿لن يخلقوا ذباباً﴾ درجة ، ﴿ولو اجتمعوا له﴾ وهذه أخرى ، ﴿إن يَسْلُبْهُمُ الذبابُ شيئاً لايستنقذوه منه﴾ وهذه ثالثة ، والاقتران بين الطالب والمطلوب ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ وهي الرابعة .

إنه الضعف المُزْري الذي يُثير في النفس السخرية اللاذعة والاحتقار المهين ، ولكن أهذه مبالغة؟ وهل البلاغة فيها هي الغلو؟ .

كلا فهذه حقيقة واقعة بسيطة . إن هؤلاء الآلهة ﴿لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ . والذباب صغير حقير ولكن الإعجاز في خلقه هو الإِعجاز في خلق الجمل والفيل؛ إنها معجزة الحياة يستوي فيها الجسيم والهزيل . فليست المعجزة هي خلق الهائل من الأحياء إنما هي خلق الخلية الحيّة كالهباء . والصورة الفنية هنا هي الربط بين قدسية الآلهة المزعومة حيث وُضعت في أذهان معتنقيها في أقدس صورة والربط بينها وبين مخلوق صغير حقير . ولم يكتف بهذا الربط بل حشد لهذا المخلوق جموعاً ضخمة فعجزوا عن خلقه ، ثم في الصورة التي تنطبع في الذهن من طيرانهم خلف الذباب لاستنقاذ مايسلبه ، وفشلهم مع اتباعهم عن هذا الاستنقاذ .

جـ ـ ومعنى انتهاء الكون ثم محاسبة الناس على أعمالهم ودخول المحسنين الجنة والمسيئين النار ، ولذة أهل النعيم والترحيب بهم وشقاء أهل العذاب وتبكيتهم : كل ذلك يمكن أن يفهمها الإِنسان مجردة وهي حقائق لم تقع بعد . فالتعبير عنها بكلمات مجردة تنقل الفكرة إلى الذهن باهتة .

ولكن التعبير القرآني وضع لنا هذه الحقائق في إطار زاهٍ حافل بالحركة ، وكأن المرء ـ حين يقرؤها ـ يعيش أجواءها ، وتنقبض النفس لمشاهدة الأهوال وتخضع لقوة الجبار وتتشوّق لمرافقة السعداء .

فهذا مشهد يوم القيامة قال تعالى :﴿وماقَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعاً قبضتُهُ يوم القيامة ، والسمواتُ مطويّاتٌ بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون . ونُفِخ في الصور فصعِقَ من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نُفِخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقتِ الأرضُ بنور ربها ووُضع الكتابُ وجيء بالنبيّين والشهداءِ وقُضِيَ بينهم بالحق وهم لايُظلمون . ووُفِّيت كل نفس ماعملت وهو أعلمُ بما يفعلون . وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمَراً حتى إذا جاؤوها فُتحت أبوابُها وقال لهم خزنتُها :ألم يأتكم رسُلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربّكم وينذرونكم لقاءَ يومكم هذا؟ قالوا : بلى ولكن حقّتْ كلمة العذاب على الكافرين . قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتّقَوْا ربّهم إلى الجنة زُمَراً حتى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم طِبْتُم فادخلوها خالدين . وقالوا : الحمدُ للهِ الذي صَدَقَنا وعدَه وأورثنا الأرضَ نتبَوّأ من الجنةِ حيثُ نشاء فنِعْم أجرُ العاملين . وترى

الملائكةَ حافِّينَ من حولِ العرش يسبِّحون بحمدِ ربِّهم وقُضِيَ بينهم بالحقّ وقيلَ الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾ الزمر ٦٦-٧٥ .

إنه مشهد رائع حافل ، يبدأ متحركاً ثم يسير وئيداً حتى تهدأ كل حركة ويسكن كل شيء ويخيِّم على الساحة جلال الصمت ورهبة الخشوع . ويبدأ المشهد بالأرض جميعاً في قبضة ذي الجلال ، وهاهي السماوات جميعاً مطويّات بيمينه . إنها صورة يرتجف لها الحسّ ويعجز عن تصويرها الخيال ، ثم هاهي ذي الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقياً على ظهرها من الأحياء . ولانعلم كم مضى من الوقت حتى انبعثت الصيحة الثانية ﴿فإذا هم قيامٌ يَنْظُرون﴾ . وفي غير ضجيج وعجيج ، تجتمع الخلائق . وذلك أنّ كل شيء في هذا المشهد يتم في هدوء ويتحرّك في سكون . فعرش ربك هنا تحفّ به الملائكة فما يليق الصخب في مثل هذا المقام . ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ أرض الساحة التي يتم فيها الاستعراض ، أشرقت بالنور الهادىء ﴿نور ربها﴾ فإذا هي تكاد تشق من الإشراق ، ﴿وجيء بالنبيِّن والشهداء﴾ ، وطُوِيَ كلُّ خصام وجدال في هذا المشهد خاصة ﴿وقُضِيَ بينهم بالحق وهم لايُظلمون ، ووُفِّيت كلُّ نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ . فلاحاجة إلى كلمة واحدة تقال ولا إلى صوت واحد يرتفع . وهكذا تجمل هنا عملية الحساب والجزاء ، لأن المقام مقام روعة وجلال .

وإذا تم الحساب وعرف المصير وُجِّه كل فريق إلى مأواه ﴿وسِيقَ الذين كفروا إلى جهنم زُمَراً﴾ حتى إذا وصلوا إليها بعيداً هناك استقبلهم خزنتها بتسجيل استحقاقهم لها وتذكيرهم بما جاء بهم إليها ﴿قال لهم خزنتها ألم يأتكم رسُلٌ منكم يتلونَ عليكم آيات ربِّكم وينذرونكم لقاءَ يومِكُمْ هذا ، قالوا : بلى ولكنْ حقَّتْ كلمةُ العذاب على الكافرين﴾ فالموقف موقف إذعان واعتراف وتسليم ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين﴾ . وكذلك وُجِّه الذين اتقَوْا ربهم إلى الجنة حتى إذا وصلوا هناك استقبلهم خزنتها بالسلام والثناء ﴿سلامٌ عليكم طبتُم فادخلوها خالدين﴾ وارتفعت أصوات أهل الجنة بالحمد : والدعاء ﴿الحمد لله الذي صَدَقنا وعَده وأورثنا الأرضَ نتبوّأُ من الجنة حيث نشاء﴾ .

ثم يُختم الشريط المصوّر بما يُلقي في النفس روعة ورهبة وجلالاً تتسق مع المشهد كله وتختمه خير ختام ﴿وترى الملائكة حافِّين من حول العرش يسبِّحون بحمد

ربّهم وقُضِيَ بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾[1] .

ثالثاً : طريقة الأسلوب القرآني المتميزة في المُحَاجّة والاستدلال :

لقد أورد القرآن الكريم من أفانين القول في سياق محاجّة الكفار وتصحيح زيغ المحرّفين والوعد لأوليائه والوعيد لأعدائه مايخرج عن طوق البشر الإحاطة بمثل هذه الأساليب في أوقات متقاربة أو متباعدة؛ فالنفس الإنسانية لاتستطيع التحول في لحظات عابرة في جميع الاتجاهات بل تتأثر بحالة معينة ولاتستطيع التحول عنها إلى اتجاه معاكس إلا ضمن بيئة ملائمة . أما الأسلوب القرآني فيلاحظ فيه الانتقال في شتى الاتجاهات في لحظات متقاربة متتالية ، وأحياناً تكون مترادفة . فمن مشرِّع حكيم يقر الدساتير والأنظمة في تؤدة وأناء ورويّة ، إلى وعيد وتهديد لمن يرغب عن التشريعات ويريه سوء المصير ، إلى غافر يقبل توبة العبد إذا تاب وأناب ، إلى معلم يعلم كيفية الالتجاء إلى الخالق سبحانه وتعالى بأدعية لاتخطر على البال ، إلى مقر لحقائق الكون الكبرى ، ومن مرئيات الناس ومألوفاتهم والتدرج بهم إلى أسرار سنن الله في الكون .

لنتأمل قوله تعالى : ﴿ماكان لنبيٍّ أن يكونَ له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض ، تريدون عَرَضَ الدنيا والله يُريدُ الآخرةَ والله عزيزٌ حكيم . لولا كتابٌ مِنَ اللهِ سبقَ لمسّكم فيما أخذتُم عذابٌ عظيم . فَكُلوا ممّا غَنِمْتُم حَلالاً طَيِّباً واتّقوا اللهَ إنّ اللهَ غفورٌ رحيم﴾ الأنفال / ٦٧-٦٩ .

هاتان الآيتان نزلتا بعد إطلاق أسرى بدر وقبول الفداء منهم . وقد بدأتا بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة ، ثم لم تلبث أن ختمتا بإقرارها وتطيب النفوس بها بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها .

فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام ـ لو كان عن النفس مصدره ـ يمكن أن يصدر عنها آخره ولمّا تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب وبين ابتسامة الرضى والاستحسان؟ إن هذين الخاطرين لوفُرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضراباً عن الأول ماحياً ولرجع آخر الفكر لما جرى به العمل . فأي داعٍ دعا إلى تصوير ذلك الخاطر المحمود وتسجيله على مافيه من تقريع علني وتنغيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالاً طيبة؟

---

(١) انظر أمثلة هذه الميزة في «مشاهد القيامة» و «التصوير الفني في القرآن» لسيد قطب .

إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن هاهنا شخصيتين منفصلتين وأن هذا صوت سيد يقول لعبده : لقد أخطأت ولكن عفوت عنك وأذنت لك[1] .

ومن الأمور المميِّزة للأسلوب القرآني طريقة استدلاله باشياء وأحداث مثيرة صغيرة في ظاهرها وهي ذات حقيقة ضخمة تتناسب والموضوع الضخم الذي يستدل بها عليه . تأمل في قوله تعالى :﴿ نحن خلقْناكُمْ فلولا تُصَدِّقُون ، أفرأَيْتُمْ ماتُمْنُون أأنتم تَخلُقُونَهُ أم نحنُ الخالقون ، نحنُ قدَّرنا بينكُمُ الموتَ ومانحن بمسبوقين على أن نبدِّلَ أمثالكم وننشِئَكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتُمُ النشأةَ الأولى فلولا تذكَّرُون . أفرأيْتُم ماتحرثُون . أأنتم تزرعُونه أم نحنُ الزارعون . لو نشاءُ لجعلناه حُطاماً فظلتُمْ تفكّهون . إنّا لمُغْرَمون بلْ نحنُ محرومون . أفرأيتُمُ الماءَ الذي تشربُون . أأنتم أنزلتُموه من المُزْنِ أم نحنُ المُنْزِلون ، لو نشاءُ جعلناهُ أُجاجاً فلولا تشكرون . أفرأيتُمُ النّارَ التي تُورون ، أأنتم أَنشأتم شجرتَها أم نحنُ المنشئون . نحنُ جعلناها تذكرةً ومتاعاً للمُقْوين . فسبِّحْ باسمِ ربِّك العظيم﴾ الواقعة/ ٥٧-٧٤ .

ومثل هذه الإِشارات ترد كثيراً في القرآن الكريم لتجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإِلهية في الوجود . يقرر بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوراً كاملاً لهذا الوجود كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير وحياةً للأرواح والقلوب ويقظة في المشاعر والحواس .

إن هذه الظواهر هي حقائق ضخمة ولكن الإِلف والإِعادة بلدت حواس الناس فلاتشعر بدلالاتها .

إن الأنفس من صنع الله ، وماحول الناس من ظواهر الكون من إبداع قدرته ، والمعجزة كامنة في كل ماتبدعه يده ، وهذا القرآن قرآنه . ومن ثَمّ يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوثة في الكون من حولهم ، يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لديهم التي يرونها ولايُحِسّون حقيقة الإِعجاز فيها لأنهم غافلون عن مواضع الإِعجاز فيها .

يمسهم الأسلوب القرآني بهذه اللفتات الاستفهامية المتتالية ليفتح عيونهم على السر الهائل المكنون ، سرّ القدرة العظيمة وسرّ الوحدانية المفردة لِيُثِيرَ في فطرتهم الإِقرارَ

---

(١) انظر هذا وغيره من الأمثلة في كتاب «النبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز ، ص ١٩ .

الأول في عالم الذر . . . ﴿ألستُ بربكم﴾؟ الأعراف/ ١٧٢ .

إن طريقة القرآن الكريم في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره إنه المصدر الذي صدر منه الكون؛ فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون من أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال وأضخم الخلائق .

والقرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء اضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني؛ المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان : النسل ، الزرع ، الماء ، النار ، الموت .

وأي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه؟ أي إنسان مهما كان بدائياً لم يشهد نشأة جنينية ونشأة حياة نباتية ومسقط ماء وموقد نار ولحظة وفاة؟

إن انفراد الأسلوب القرآني بهذه الميزات لهو دليل مصدره الإلهي فما الأسلوب إلا صورة فكرية عن صاحبه .

فالحذاق من الكتاب عندما يقرأون قطعة نثرية أو قصيدة شعرية لكاتب مايدركون بملكتهم الأدبيَّة وحسِّهم المرهف الحالة النفسية التي كان عليها الكاتب عند الكتابة بل يذهبون إلى أكثر من هذا ، إلى ماوراء السطور فيستنبطون كثيراً من أوصافه النفسية والخلقية فيحكمون عليه أنه عاطفي المزاج أو قوي النفس أو صاحب عقل ودراية أو حقود أو منافق أو غير ذلك من الأمور الخاصة .

ولاشك أن هذا إدراك أعظم وأرقى من العلوم الظاهرة والتي تقف بأصحابها عند جودة الأسلوب ومتانته وقوة السبك ورصانته ، فإذا كان الأدباء وأهل البلاغة يدركون هذه الحقائق بعد العلوم الاكتسابية التي تعلّموها ومارسوها فإن العربي الذوّاقة لأساليب الكلام ، وكان عمدة شغله وصناعته وأحد دعائم حياته فنون القول وتذوّق مواطن الجمال في الكلام ، لاشك أنه كان من أعرف الناس بما وراء الألفاظ والكلمات وكان يدرك بنظرته السليمة وسليقته الصافية حقيقة الذات التي وراء الأسلوب .

إن العربي الذواقة لجمال القول أدرك أسلوب القرآن المتميز وعرف أن سبب هذا التميز هو أن القرآن من مصدر غير مصادر كلام البشر ومن ذات غير مخلوقة لذا تميز الأسلوب غن أساليب المخلوق ، فمادامت قوة الخلق والإبداع من العدم ليس في مقدور البشر بل وكل المخلوقات فلن يستطيع أحد منهم إيجاد أسلوب يشبه أو يقارب الأسلوب القرآني .

ولعل هذا الإدراك هو الذي منع العقلاء وأهل الفصاحة واللسن من سائر العرب من محاكاة القرآن . ومن تَعَرّض لمحاكاته صار أضحوكة بين الناس لأنه حاول أن يخرج عن طبيعته وذاته ونفسيته إلى محاكاة الذات الإلهية .

أورد الإمام ابن كثير في تفسيره قال :(. . . سأل الصديق بعض أصحاب مسيلمة الكذاب بعد أن رجعوا إلى دين الله أن يقرأوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة . فسألوه أن يعفيهم من ذلك فأبى عليهم إلا أن يقرأوا عليه شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل ماهم عليه من الهدى والعلم ، فقرأوا عليه قوله(والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً والخابزات خبزاً واللاقمات لقماً إهالة وسمناً ، إن قريشاً قوم يعتدون) ، وقوله (ياضفدع بنت ضفدعين ، نقى ماتنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لاالماء تكدرين ولاالشارب تمنعين) إلى غير ذلك من هذياناته ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : وَيْحكم أين كان يذهب بعقولكم؟! والله إن هذا لم يخرج من إل ـ أي إلّه)[1] .

لقد أدرك الصديق رضي الله عنه بحسه المرهف وذوقه السليم النفسية التي خرجت منها العبارات والتراكيب وطريقة صياغتها والصبغة الخاصة بنفسية قائلها؛ إنها طبيعة بشرية وليست صادرة عن الخالق سبحانه وتعالى .

فإن الفرق بين القرآن العظيم وكلام البشر كالفرق بين الخالق سبحانه وتعالى وبين المخلوق .

وجه دلالة الإعجاز البياني على مصدر القرآن

من خلال استعراضنا لجوانب من بيان القرآن الكريم ممايتعلق بفصاحته وبلاغته ونظمه وأسلوبه ، وذكر الأمثلة على ذلك من الآيات الكريمة ، يتضح لكل منصف أن أفانين القول التي وردت في القرآن الكريم من فاتحته إلى خاتمته لاتخلو آية من آياته عن نكته لطيفة أو حكمة طريفة أو بيان مفحم أو عبارة تأخذ بالألباب وتحيّر العقول بجمالها وبلاغتها .

ولهذا كان بيانه كالسحر الحلال يستولي على عقل السامع ويسلبه إرادته ويسخره لأغراضه ، ولهذا كان القرآن معجزاً ، أعجز الثقلين أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فكان المعجزة الخالدة المستمرة إلى يوم القيامة والحجة القاهرة لمن كان له قلب أو القى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤١١ .

السمع وهو شهيد .

إن الأسلوب المتميز من بين الأساليب الذي اختص به القرآن الكريم ، والنظم المحكم الدقيق الذي لاتكاد العقول تدرك بعض خصائصه إلا ويبهرها الجمال وتسيطر عليها الدهشة ، مع استمرار الفصاحة والبلاغة من أول آياته إلى آخرها لدليل واضح على أن هذا الكتاب الكريم ليس من صنع البشر وإنما هو تنزيل من خالق القوى والقُدَر **﴿وقالوا أساطير الأولين اكْتَتَبَها فهي تُمْلَى عليه بُكْرَةً وأصيلاً ، قُلْ أَنْزَلَهُ الذي يعلمُ السرَّ في السّموات والأرض إنّه كان غفوراً رحيماً﴾** الفرقان/ ٥-٦ ، **﴿وماكان هذا القرآن أن يُفترىَ من دون الله ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ الكتابِ لاريبَ فيه من ربّ العالمين﴾** يونس/ ٣٧ .

وعلى هذه العظمة من السموّ والرفقة للأسلوب القرآني الحكيم، كان يتلمّس علماؤنا أسرارَهُ ودقائقَهُ في مؤلفاتهم ومصنّفاتهم، مابين متوسّع ومُقتَضِب، ضمن الثوابت الشرعيةِ والضوابطِ العلميةِ، ثم نبتتْ نابتةُ السّوء باسم المعاصرة والتّطوّر، أخذتَ تتطاول على قدسيّة القرآن العظيم تحت اسم «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» محاولة صرف الباحثين إلى دراسة الأسلوب القرآني ونظمه المحكم على منهج جدلي فلسفي يُضفي عليه طابع التّطوّر والمعاصرة ضمن مفاهيم غربية مادية مشوبة بنظريات الإلحاد والتحلل من الثوابت الشرعية والضوابط العلمية التي نهج عليها علماؤنا كابراً عن كابر.

ولهذا كان الواجبُ على علماء الأمة ضربَ هذا المنهج الباطل وتحذيرَ الأمة من خطورة حشوه بينها أو تسربِ بعضِ طروحاته إلى أسماعها لئلاّ تتلوّث أفكارها من سمومه وضلالاته.

البحث الخامس

عظمة القرآن ووحدته الموضوعية(١)

قال الجن حينما سمعوا القرآن من النبيﷺ : ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً . يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾(٢) . واهتزت عقيدة الشرك في قلب رجل من صناديد الفكر هو الوليد بن المغيرة حينما سمع بعض آياته من الرسول فقال :«ماهو بقول بشر» . وفزع أئمة الكفر من قريش حينما شهدوا تأثير القرآن على القلوب فقالوا لزعمائهم ﴿لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾(٣) . سعى أهل النباهة من فتيان العرب من أمثال عبد الله بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فقال :«يارسول الله ، علمني من هذا القرآن» . حينما استأثر قلبه لسلطانه ، واستشرف على عتبات الإسلام .

تلك دلالة لاشك فيها من دلائل عظمة القرآن بالنسبة للمؤمنين ، يقابلها على نفس الطريق عنف المقاومة لهذا السلطان من جانب الكفار ، وجبروت التعذيب الذي تسلطوا به على المؤمنين في مطلع الدعوة ، فما لبثوا أن فجروا جديداً من ينابيع الإيمان بما ابتكروا من وسائل التعذيب ، ووحدوا شتات الدعاة الأوائل تحت راية الرسول بمانفثوا من سموم الحقد والعداء ، فكان القرآن هو محور هذا الصراع الرهيب العجيب الذي دارت رحاه على رمال جزيرة العرب ، والذي طاشت في نهايته أحلام المعارضين على وفرة المال والرجال والسلاح حينما ذلت رقابهم أمام قلة من الرجال ، وقلة من المال ، وإعواز في السلاح ، يحدوها طوفان غامر من اليقين ، وإيمان راسخ بالقرآن ، وانطباع كامل بأخلاقه ، فتحطمت إلى الأبد شوكة الكفر، وشمخ إلى الأبد صرح القرآن .

وثانية الدلائل على عظمة القرآن : صموده أمام دعوات الهدم على مدى التاريخ الطويل ، وتصديه لهجمات الإلحاد الضارية في ميدان الحرب وفي ميدان الفكر ، فلم

---

(١) عظمة القرآن : عبد القادر عطا/ ١٠٢-١١٠/ بتصرف يسير .
(٢) سورة : الجن/آية ١/ .
(٣) سورة :فصلت/آية ٢٦/ .

تزده تلك الهجمات إلا انطلاقاً إلى آفاق جديدة من الأرض وانبلاجاً لنوره على صدر الزمان ، وأعماقاً بعيدة لجذوره في القلوب . ولئن ذبلت في بعض أحقاب التاريخ همم أهل الحضارة القرآنية تحت تأثير الصدمات المتوالية ، واستجابة المؤمنين إلى أهواء النفوس ، فماكان هذا الذبول إلا غفوة أعقبها استجماع للقوة ، ورؤية مضيئة لحركة التاريخ كما حددها القرآن ، فعاد الذبول نضارة ، وكان من الضعف قوة ، ومن آمال أهل الإلحاد تمزق وخيبة وأغلال ، وكان من هذا التمزق دفع لمجتمع المؤمنين إلى ذروة التاريخ .

لقد عانت حضارة القرآن من تسلط قريش ، ومن جبروت الروم ، ومن جدل الفرس ، ومن سلاح الصليبية ، من لؤم اليهودية العالمية ، وأخيراً من بريق المذاهب السياسية والاقتصادية وأخصها الشيوعية اليهودية ، وكان من أبناء الاسلام أعوان لهؤلاء المتآمرين حاولوا قهر الاعزة على أوهام الشيوعية ، فأعزوا في سبيل ذلك أهل الأهواء ، ولكن أولئك جميعاً ذلوا أمام صلابة الحق في القرآن ، وذهلوا حينما عجز المال والسلاح والتكتل الدولي عن النيل من إيمان أهل القرآن .

وثالثة الدلائل على عظمة القرآن بعد الصمود الذي لايستطيعه إلا الكتاب الحكيم : أنه كتاب حضارة تندرج تحت لوائه الأمم والشعوب ، وتستسلم حضاراتها لحضارته ، فماتلبث أن يحتويها الإطار الشامل للإسلام الرحيب ، وتتخذ نفس الصفة الشرعية لخير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهي عن المنكر داخل النفسِ وخارجها ، وداخل الأمة وبين الأمم الأخرى ، وتؤمن بالحق والعدل عن الله فيصلاً وحكماً بين الجميع ، فلاعنصرية ولاعصبية ، ولااستمساك بالذات ، بل هو إنكار لها ، وعمل للمجموع مع الاحتفاظ بكرامة الفرد وكيانه بعيداً عن أي لون من ألوان الامتهان .

فعظمة القرآن نابعة من أنه لايستجدي الشعوب أن يتبعوه ، ولاالحضارات أن تذوب في حضارته ، بل يعرض أمام العالم وجهه السمح الكريم ، ويكشف عن رحابته النادرة بين دساتير الحضارة ، ويعلن حربه الضارية على الظلم وامتهان الإنسان للإنسان ، وامتهان الإنسان لنفسه وعقله ، ويكشف الستر البراق عن عفن اللؤم البشري ، وعن الحبائل التي ينصبها أعداء العدل ، ومتلصصة الفكر ، أولئك الذين يحاربون الله ورسوله لالشيء إلا لأن الإيمان بهما يقف سداً منيعاً أمام أطماعهم وشهواتهم التي لاتدع ق...

حطمتها ، ولامثلاً أعلا إلاشوهته وأذلت أهله ، والداعين إليه .

وعلى مر القرون مازال كبار المفكرين في العالم كله يشيدون بتلك السمة التي استعصى عليهم الجهر بها هذا الردح الطويل من الزمان .

ورابعة الدلائل على عظمة القرآن : سرعته المذهلة في بناء الحضارات إذا أتيح له من ينفذ تعاليمه من القادة على نفسه وأهله قبل أن ينفذها بين جمهور المؤمنين .

وهو الأمر الذي أهاب الله تعالى بالمؤمنين أن يحرصوا عليه ، وضمن لهم في سبيل ذلك تمكيناً سريعاً ، وزحفاً منصوراً ، وعوناً من جند الله يفوق كل قوة ، وكل جبروت ، وكل سلاح ، وصادف هذا النصح الإلهي من القلوب حباً لايقاوم للقرآن .

وتدعيماً لذلك فقد كان القرآن دستوراً حضارياً للعمل على مستوى الأمة كلها ، عن طريق الحفظ والدرس والتلاوة الواعية والتدبر والاقتناع والتذكر والتطبيق السلوكي الدقيق . والدليل على أن تحويل القرآن إلى سلوك لم يفرض على المؤمنين بعصا السلطان ، وإنما جاء عن طريق الدرس والتدبر والاقتناع بعظمة القرآن مارواه أبو عبد الرحمن السلمي قال : حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان وعبد الله بن مسعود وغيرهما :أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا مافيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة .

وقال أنس بن مالك :«كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا» . وأقام عبد الله بن عمر على حفظ البقرة ثماني سنين .

ويضيق بنا المقام إذا استقصينا أقوال الصحابة في هذا الصدد ، ولكن الذي نريد أن نوضحه هنا هو أن سرعة الحضارة القرآنية في الانتشار والتأصل نابعة من هذا الينبوع العريق في الأصالة ، فلاتتعثر الحضارات إلا من جهل الشعوب بالدساتير وأهدافها ، أو من قصور تلك الدساتير في ذاتها ، أو في إقناع الشعوب بجدواها ، وفي كلا الحالين تختلف الشعوب مع السلطات ، وتتمرد عل القانون ، ومن هنا لاتسرع الحضارة في سيرها نحو غايتها على فرض صلاحيتها ، فضلاً عن النفقات الهائلة التي يتطلبها إيقاف التيار المتمرد على السلطة ، وتعويق السلطة لذلك عن المضي إلى غايتها .

أما حضارة القرآن فتختلف عن جميع الحضارات من هذه الوجهة ، فالقرآن هو الفطرة البشرية التي لاتختلف فيها أمة ولاجنس ، فهو مقنع لجميع الناس بجدواه وعظيم عائدته ، ودافع لهم بمايحتويه من وجوه الحكمة الملائمة لجميع الأجناس إلى الدرس والتدبر الذي لايزيد الناس إلا إيماناً وإمعاناً في استكشاف الحكم التي لاتنتهي ، ولاتضعف في قوتها على كثرتها الكاثرة ، ومن هنا كان العلم بدستور الحضارة الإسلامية إلى جانب الإقتناع به عاملاً رئيسياً من عوامل السرعة في البناء ، والقوة في الأسس التي تقوم عليها الحضارة ، وتوفير جهود السلطات الحاكمة حيث تتفرغ لارتياد آفاق جديدة لإقامة صرح الإسلام على أرضها .

ولقد أمر رب القرآن بتدبير القرآن فقال تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليك مباركٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ﴾[1] . ونعى على من لايتدبرونه فقال : ﴿أفلايتدبرون القرآن﴾[2] ؟ ولايمكن أن يكون التدبر إلامقروناً بفقه المعاني والأهداف والحكمة . ولهذا لم يؤثر خلاف بين الصحابة على معاني القرآن إلانادراً ، ولم يتهرب المخالفون للشريعة من الحدود المشروعة لأمثالهم ، بل تقدموا إلى رسول الله ﷺ طالبين إقامة الحد عليهم ، رغم محاولات ردهم عن الاعتراف المشروعة للتثبت من أهلية طالب الحد ، وجديته في طلب التطهير من الذنب ، حيث وصل هذا التطهير إلى الموت رجماً بالحجارة ، وماكان ذلك إلا لأن هؤلاء قد وصلوا إلى درجة من الوعي القرآني والإسلامي لم يصل إليها واضعو الدساتير الأرضية فضلاً عن الشعوب المحكومة بها .

تلك عظمة لاتساق إليها الشعوب بالعصا ، وإنما تقوم على رعايتها الشعوب بمحض الإيمان والغيرة والعلم والتطلع إلى مزيد من النجاح ، الأمر الذي استطاع به الرسول ﷺ وخلفاؤه من بناء أعظم حضارة عرفها التاريخ في ربع قرن من الزمان ، لايكفي لاصلاح مدينة واحدة تحت لواء دستور أرضي في أي دولة من دول العالم ، وفي جميع أحقاب التاريخ .

ولعل هذا المعنى العظيم هو الذي يفسر لنا الحوافز التي شرعها الله تعالى لحفاظ القرآن ، والتالين له في مختلف الأوقات لاسيما قرآن الفجر المشهود ، حيث يصل الإنسان في هذا الوقت إلى درجة عليا من الصفاء الذي يهيء لمن يصاحب القرآن فيه

---

(١) سورة : ص ، آية :٢٩ .

(٢) سورة : النساء ، آية ٨٢ .

فهماً لايمكن أن يتيسر في وقت آخر . . .حتى لقد شجع النبي ﷺ من يقرأ القرآن بلافهم تذرعاً إلى دفعه إلى درجة من الفهم فيما بعد ، وكذلك من تشق عليهم القراءة تدريباً لهم على أن يألفوا القرآن فتسهل عليهم قراءته ، ثم فهمه وتدبره . وكان القرآن شرطاً لصحة الصلاة ، وأفضل مايتقرب به العبد إلى ربه ، إلى آخر ماهو مسطور في السنة النبوية المشرقة . . .

وخامسة الدلائل على عظمة القرآن : أن إجماع أهله حجة على الناس جميعاً في مختلف العصور ، ولم يمنح الله تلك الصفة على المستوى العالمي لأمة غير أمة القرآن ، وماكانت عظمة تلك الأمة على هذه الصورة العجيبة إلا من عظمة دستورها : كتاب الله الحكيم .

والذي يتصل بالقرآن من دلائل حجية الإجماع على العالم قول الله تعالى : ﴿اللهُ وليُّ الذين آمنوا يُخرجُهم من الظلماتِ إلى النُّور﴾[1] .ولاخروج إلى النور إلا بالقرآن ، فإذا أجمعوا على باطل كانت نتيجة إجماعهم إما بقاء الناس في الظلمات ، وإما إعادة الناس من النور إلى الظلمات ، وهو مايشهد التاريخ بخلافه ، إذ أن أمة القرآن بقيادة رسولهم ﷺ ومن بعده الأئمة جاهدوا الناس لإنقاذهم من شؤم الظلام إلى وضح النور ، ومازال إجماعهم هكذا في مجال الرأي والفكر والاستنباط .

وحينما أعطى الله تعالى أمة القرآن سلطان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان ذلك سلطاناً من الله تعالى لهم أن يصيبوا الحق فيما كان معروفاً أو منكراً عند الله حينما يجمعون على أحدهما أو عليهما معاً أو يختلفون فلايعدوهم الحق .

وكذلك يقول الله تعالى عن أمة القرآن :﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على النّاسِ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً﴾[2] . فالوسط : من يرتضى قوله . والشاهد : من يكون قوله حجة في مجلس القضاء للفصل في الخصومات ، وهو إيذان بأن الحق لايعدوهم مجتمعين أو مختلفين .

وهذه الصفة وإن كانت لأمة القرآن فإنما اكتسبوها من القرآن ، فلولا أن القرآن مهيمن على جميع الكتب ورسوله شاهد على شهداء الأمم كلها ، وفيصل بين الحق الذي هو من عند الله وبين باطل تلك الأمم ، لما كان لأهله تلك الصفة ، ولاتلك

---

(١) سورة : البقرة ، آية :٢٥٧ .

(٢) سورة : البقرة ، آية : ١٤٣ .

العظمة المستمدة من القرآن على مستوى العالم كله في الدنيا ، والتي تتعدى الدنيا إلى مجلس القضاء في الآخرة حيث يشهد رسول القرآن على شهداء الأمم جميعاً .

وأخيراً فإن إعجاز القرآن هو العظمة الذاتية التي حار العلماء والمفكرون في الكشف عنها ، ومازالوا يكتشفون منها كل يوم جديداً ، ولايزالون كذلك مادام القرآن متلواً أو محفوظاً في الصدور .

وليس القول بالإعجاز في القرآن موجهاً نحو العجز عن فهمه بالقدر الذي تقوم به الشريعة كما يحلو لبعض هواة الجدل حول الدين أن يتلمسوا معنى بعيداً عن نطاق الفكر الإسلامي كهذا المعنى الذي لم يقل به أحد فيقيموا حوله سوقاً لئيماً من الجدل ، ويطلقوا القول بعدم إعجازه من هذه الوجهة التي لم تخطر على بال مسلم من العامة فضلاً عن الخاصة ، فيظن بعض البسطاء في نهاية تلك السوق نفي الإعجاز عن القرآن بالكلية ، نتيجة لذلك اللؤم في الفكر ، أو لهذه الهواية البهلوانية ممايشبه ألعاب (السيرك) من الكلام يقتل به صاحبه نفسه ، ويقتل غيره ، وحسبه أن تلوك الألسنة اسمه على أي صفة وأي صورة من الصور والصفات حتى ولو كانت باللعنات المترادفات .

عظمة القرآن في أنه آية من آيات الله واضحة المعنى والهدف بالقدر الذي يحتمله البشر ، ويفهم منه القانون الإلهي ، سهل الأسلوب ، حتى ليخيل لمن مارس طريقته أنه يستطيع مثله ، فإذا حاول عجز عجزاً كاملاً ، واعتراه النقص والتخبط مهما اجهد عقله ونفسه ، وراضها على تلك الحكمة الأسلوبية الناصعة الوضوح في القرآن .

ولهذا كان وصف الوليد بن المغيرة للقرآن واضحاً في أن نسق القرآن مغاير تماماً لنسق الكلام البشري ، فماهو إلا ضرب من القول فوق قدرات البشر سماه : سحراً يُؤْثَر .

قال الوليد لأبي جهل : والله مافيكم رجل أعلم بالشعر مني ، ولابرجزه ، ولابقصيده ، ولابأشعار الجن . والله مايشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وانه ليعلو ولايعلى عليه ، وإنه ليحطم ماتحته .

فلما قال له أبو جهل : إن هذا القول لايرضى به قومه ، فكر طويلاً فلم يجد إلا أن ينسبه إلى قوة من القوى غير المنظورة ، وغير المقدورة ، فقال :(سحر يُؤثر) .

وبطلان نسبة القرآن إلى السحر معلوم ، ولكن نسبة الوليد إياه إلى تلك القوة غير المنظورة يبطن العجز عن معارضته ، وشلل القدرة العربية ـ على الأقل في ذلك العصر وفي وسط الكفار الذين يتلمسون وجهاً للمعارضة ـ عن الاتيان بمثله . فهو وإن لم يعزل القرآن عن القدرة البشرية عزلاً كاملاً ، بل أبقي من يستطيع السحر قادراً على مثله ، فقد زلزل بهذا الرأي عموم القدرة الإنسانية على مثله ، وشهادة العدو بذلك شهادة بالإعجاز إذا راعينا جانب الفكر واللدد في الخصومة في وزن هذا القول بميزان علمي دقيق .

لقد كان العرب أشد الناس أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم ، فكان من المحال أن يطيقوا ثلاثاً وعشرين سنة من التحدي ولايعارضوه لو استطاعوا إلى ذلك السبيل!! .

وأي عظمة تعدل عظمة العجز عن معارضة نظم القرآن وأسلوبه على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، حتى أصبح الكلام في هذا الموضوع في عصرنا ضرباً من صرف الناس عن عظمة التشريعات القرآنية ، ولعبة لئيمة يمارسها الأعداء من جبابرة اللؤم والخداع .

وحسب القرآن من العظمة أنه المعجزة الباقية على مدى الدهر ، حيث اندثرت معجزات الرسل السابقين جميعاً بعد أداء وظيفتها في إقامة الدليل على صدق أولئك الرسل . وحسبه كذلك من العظمة أنه يتصل بالحياة مابقيت الحياة ، فبه حياة القلوب بالإيمان ، وبه حياة الإيمان بالجهاد ، وبه قيام الجهاد بمنهجه الأمثل في تربية إنسان الحضارة الأمثل ، وبهذا الإنسان الموصول بالقرآن تنبض الحياة بالعدل ، وبه يدبر الظلم والإلحاد ، وماكانت معجزات الرسل السابقين كذلك ، فقد كانت كلها إما متصلة بحياة جسد ، أو متحدية وهم السحر ، أو حجة على قوم بعينهم حردوا على الكفر فهلكوا بعدها بوسيلة تدمير غيبية ، وماكذلك معجزة القرآن التي بقيت لتحقق مزيداً من الاتساع في قاعدة الإيمان على مدى الزمان .

البحث السّادس

إعجاز القرآن العظيم
في إيقاظ العقل البشري وتحريره من الضلال[1]

القرآن الحكيم يقص على العقل الإنساني مواقفه في تلك الرسالة الحنيفية تذكيراً له بأصل فطرته المشرقة التي أصدأها مرور الزمن بفتراته الطويلة في ظل سيطرة الغرائز المادية بسلطانها الحيواني على أوضاع الحياة ، ليعود العقل إلى مكانه من قيادة الحياة في صورة تتسق في قدراتها وقوتها مع عناصر العمق والشمول في الرسالة المحمدية خاتمة رسالات السماء ، وتنسجم مع بلوغ الإِنسانية مرحلة الرشد والكمال التحرري في إدراك الحقائق الكونية والإِفادة منها ، في دائرة وحدة العقيدة في كافة الرسالات الإِلّهية ، وفي دائرة النظم التشريعية الشاملة التي جاءت بها رسالة الإِسلام .

هذا النوع من الهداية القرآنية هو ملتقى روافد الإِعجاز الفكري في أصول الهداية العامة التي عُني بها القرآن العظيم عناية خاصة لعوامل طارئة أثرت على وجود العقل ، وقيدته بأغلالها ، فكان لابد من معالجتها ، وإصلاحها ، وإطلاق العقل من ربقتها ، ووضع أصول ثابتة لفهم الحقائق الكونية والحكم عليها ، ترد إلى العقل الإِنساني اعتباره ، وتوليه تقديره ووزنه بقيمته الإنسانية الحقيقية التي جعلت من الإنسان كائناً مسيطراً على الحياة ، وموجِّهاً لها ، ورقيباً على نُظُمها وأوضاعها .

فمن العوامل مايتمثل في توارد القرون التي سبقت نزول القرآن برسالة الإسلام بأجيالها منذ وقف سير الملة الحنيفية في رسالة إبراهيم الخليل أبي الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام ، فتلك الرسالة الحنيفية كانت رسالة تعتمد على نظر العقل في أصول العقائد الإِلّهية ، وكان فيها التقدير الأول لقيمة العقل في إدراك الحقائق الغيبية .

---

(١) القرآن العظيم : هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين : لمحمد الصادق عرجون / ص٤٧-٨٥/ بتصرف يسير/ ط دار القلم دمشق ـ الدار الشامية ـ بيروت .

النموذج الأول في حوار العقل :

ونحن نقرأ أول حوار يصادف الناظر في القرآن العظيم ، بين رسول الله إبراهيم عليه السلام ، وبين جبار عصره ، وطاغية زمنه ، الذي يمثل عنجهية الجهالة المشركة والضلالة الجاهلة فنجد المجال العقلي في هذا الحوار هو الذي يحكم دائرته ، ونجده ينفسح ويتنوع ، ونجد العقل النير الملهم ، عقل إبراهيم رسول الله وخليله ، يجول ويعلو ، ويسيطر ويحكم ، ونجد إلى جانبه العقل المظلم المغلل بأغلال الجمود والبلادة الحسية ، عقل الذي كفر ، حبيس الغرائز ، وأسير الحواس ، يفاجأ بالحجة المشرقة الدامغة فيتوارى منكوساً مدحوراً ، ويبهت مشدوهاً متحيراً ، ويغلب على أمره في حواره فلايجد إلا قوة البطش الطاغي يرد بها على نبي الله إبراهيم عليه السلام ، ويلقيه في النار التي كانت عليه بإذن ربه برداً وسلاماً .

نص النموذج الأول :

يقول ربنا تبارك وتعالى :﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ سورة البقرة : الآية (٢٥٨) .

احتج إبراهيم عليه السلام على باهر قدرة الله تعالى ومظهر وجوده بأن شأن الرب الإلّه هو الذي يبدع مالايقدر أحد على إبداع مثله ، ورب إبراهيم ، الذي هو رب كل شيء ، هو الذي يبدع الحياة إبداعاً بقدرته ومشيئته ، فيجعل غير الحي ممالاروح فيه حياً ذا حياة وروح ، وهو الذي يسلب الحياة عن كل كائن خلقها فيه ، فيميته بإعدام الحياة منه، وهـذا حظ العقل النير فـي فهم الإحياء والإماتة اللتين وصف بهما رسول الله إبراهيم ربه ربَّ العالمين ، ولكن العقل المظلم ، حبيس الغرائز ، عقل الذي كفر بالله وآياته ، لم يفهم الإحياء والإماتة كما هما في واقع الأمر على الصورة التي فهمها العقل النير الملهم ، عقل إبراهيم رسول الله وخليله عليه السلام ، بل فهمها فهماً مادياً ، خالياً من الشمول والإبداع اللذَيْن هما خاصة الألوهية الحقة ، فقال في مناظرته رداً على إبراهيم :﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ يريد من الإحياء والإماتة هذه المظاهر الجوفاء التي يملكها الجبارون الطغاة في تسلطهم على حياة الناس بسلطان القوة والطغيان .

فلما تبين لإبراهيم عليه السلام بلادة عقل هذا الطاغية الجهول ، وجمود ذهنه ، وأنه ليس لديه صلاحية إدراك المعقولات الخالصة ، لأنه مغلق الشعور القلبي ، مغلف الإدراك الوجداني، لايؤمن إلا بما يحسه بمنافذ الحس المادي لعجز تكوينه العقلي عن النفوذ إلى ماوراء الحس المادي ، أو لقيام موانع من المؤثرات المادية التي تحجب العقل عن الفهم والإدراك ، أو كانت لاتحجبه ، ولكنها تحول بينه وبين الاعتراف بمدركاته ، ولما كان واجباً في شرعة العدل الإلّهي أن ينتقل به إلى مايلائمه من أنواع الحجة والبرهان ، عدل به إبراهيم عليه السلام إلى لون آخر من الحجة ليستوفي معه طرائقها قطعاً لعذره .

تلك الحجة التي عدل إليها إبراهيم عليه السلام هي لون من البرهان ، يشترك في إدراكه العقل والحس ، فالعقل يدرك بخصيصته التجريدية المعقول الخالص ، ويدرك المحسوس بخصيصته المتعاونة مع الحس فإدراكه مزدوج شامل ، أما الحس فإنه يدرك بمنافذه من الحواس مايقع تحت حكم هذه الحواس .

وفي هذا العدول عن الحجة الأولى مع قيامها في صدقها وباهر آيتها تسفيه سلبي لعقل ذلك الكافر المتجبر في الأرض ، وإظهار لعجزه البليد عن التفكر في معنى الإحياء والإماتة اللتين هما صفة الألوهية الحقة ، وتحقق هذا المعنى في نفسه ، ونفس من يولد ثم يموت من قومه كل لحظة ، بل في ولادة كل حي وموته

فالله تعالى يحيي كل حي ، ويميت كل ميت ، وهذا الطاغية الجهول يعلم يقيناً أنه لايملك هذا العموم الشامل في الإحياء والإماتة ، ولو بمعناهما الحركي الذي ظنه إحياء وإماتة .

ولهذا جاءت الحجة الثانية تنزلاً في المحاجّة إلى المستوى الذي يناسب الخصم ، وفيها إشارة إلى موطن البرهنة في الحجة الأولى التي لم يفهمها الذي كفر ، لأن الاستدلال على وجود الرب الإلّه الحق ، وعلى عظيم قدرته إنما يكون بذكر ماهو من خصائصه التي لاتكون لغيره ، وأفعاله التي لايقدر عليها سواه ، فخلق الحياة وإنشاؤها إبداعاً هو الإحياء الذي هو من خصائص الله تعالى ، وخلق الموت بسلب الحياة هو الإماتة التي هي فعل الله الذي لايقدر عليه سواه ، أما إحياء وإماتة بغير خلق وإبداع فليس هما على الحقيقة إحياء وإماتة ، وإنما هما مظهر من مظاهر الحركة والسكون في الحياة التي يقدر على مباشرتها كثير من المخلوقين .

ومن ثَمَّ نرى أن الحجة الإلّهية إذا لم تُفهم لبعض الناس فلايرتفع بها الاحتجاج

لصلاحيتها في ذاتها للبرهنة إذا نظر فيها عقل غير محجوب عن إدراك مناطها .

فالاحتجاج بالإِحياء والإِماتة قائم صادق ، والانتقال عنه إنما كان لأمرين :

الأمر الأول : بيان موطنِ دلالته مِن طريق القياس على فعل لايشتبه في حصوله من القادر المختار ، وأن أحداً سواه لايقدر عليه ، وفي ذلك بيان لخطأ فهم الإِحياء والإِماتة عند هذا الكافر الجاهل ، في قوله : ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وفيه بيان لمعنى الإِحياء والإِماتة اللذين هما من خصائص الألوهية الحقة في مقام الاستدلال على وجود الله وقدرته .

الأمر الثاني : إقامة دليل آخر في صورة تلائم مدارك الخصم ، ولايملك له رداً قال إبراهيم : ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ والإِتيان بالشمس من المشرق فعل في كائن عظيم يُرى ويحس وهو فعل إبداعي ، لايقدر عليه إلا الرب الإِلَه الحق القادر المختار ، ونظيره معارضه ، وهو الإِتيان بالشمس من المغرب ، وهو أيضاً ـ لو كان ـ فعل إبداعي لايقدر عليه إلا الرب الإِلَه الحق القادر المختار .

فلما سمع الذي كفر هذه الحجة التي أبرز فيها الإِبداع والإِنشاء بمظهر الحركة العظيمة لهذا الكائن العظيم ، وهي حركة محسة متكررة ، لايستطيع إنكارها والمكابرة في حصولها ، وطولب ـ إفحاماً له ـ بمثلها في معارضتها بحركة مضادة ليقع الإِبداع والإِنشاء الدال على الألوهية الحقة ، وكان الخصم عاجزاً أمام نفسه عن هذه المعارضة لم يكن منه إلا أن بهت مشدوهاً متحيراً لايحير رداً ، ولايملك جواباً .

النموذج الثاني في حوار العقل :

ونقرأ أيضاً في القرآن الحكيم لوناً من المحاورة التي تصور المنهج العقلي في إدراك الحقائق الكونية ، وهو في أوج عظمته كدعامة من دعائم الملة الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام :

وهذه المحاورة كانت ـ كما يظهر ـ في مبتدأ الرسالة ، والقرآن الكريم يقصها تبياناً لمواقف العقل المتحرر من أغلال الجمود والتقليد البليد لما عليه الآباء والأسلاف من ضلالات ، تذكيراً لهذا العقل الإِنساني بفطرته الأصيلة ، وإيقاظاً له من غفوته الطارئة ، لينهض بعبئه في الحياة يقظاً متحرراً في مجال الهداية القرآنية الخاتمة لهدايات السماء في رسالة الإِسلام .

نص النموذج الثاني :

قال ربنا عز اسمه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبَاً قَالَ هَذَا رَبِّيْ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَأُحِبُّ الآفِلِيْنَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغَاً قَالَ هَذَا رَبِّيْ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّيْ لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّيْ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّيْ وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفَاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُوَنِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَأَخَافُ مَاتُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئَاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَاأَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ سورة الأنعام : الآيات (٧٥-٨٣) .

هذا لون من الحجاج العقلي يسوقه القرآن الحكيم لبيان هدايته في إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود على موروث الأسلاف ، وتقليدهم في الأخذ بباطل عقائدهم والاستمساك بفاسد ضلالاتهم دون نظر يكشف عن حقيقة ماكان عليه أولئك الأسلاف ، سوى أنهم وجدوهم كذلك يفعلون كما حكى الله عنهم ذلك بقوله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاتَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ سورة الشعراء : الآيات (٦٩-٧٤) .

وقد ورث طلائع المدعوين بالهداية القرآنية في الرسالة المحمدية الخاتمة لرسالات السماء هذا الجمود العقلي والتقليد البليد لما كان عليه أسلافهم من ضلال فحكى الله عنهم ماحكاه عن قوم إبراهيم ، وكان له عليه السلام ولقومه ذكر عند العرب ومن خالطهم من اليهود والنصارى فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَاأَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَاأَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ سورة البقرة : الآية (١٦٩) .

ثم رد عليهم بالرد نفسه الذي رد به إبراهيم على قومه في أسلوب مختلف الصورة متفق المعنى والحقيقة : ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَيَعْقِلُونَ شَيْئَاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ فإبراهيم أبان ضلال قومه وردهم عليه إذ قالوا في بلاهة بلهاء : ﴿نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِيْنَ﴾

فقال لهم : ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ وتأويله : أفلا تعقلون وأنتم تصرحون بهذه الشناعة وتصمون أنفسكم بهذه الوصمة الفاضحة ، أن هذه الأصنام لاتسمع دعاء داعيها ولاتنفع متعبديها ولاتضر أحداً شيئاً من ضرر ، لأنها جمادات منحوتة بأيديكم ، فكيف تكون معبودة ، والمعبود هو الإلّه الحق الذي يسمع دعاء داعيه ، ويستجيب لمناجيه ، وينفع من يشاء من عباده بإرادته وحكمته ، ويوقع الضرر بمن يشاء من عباده بقدرته ومشيئته وهو رب العالمين : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ سورة الشعراء : الآيات (٧٨- ٨٢) .

وقد تكرر هذا التقريع في أسلوب هداية القرآن لإيقاظ العقل وتحريره .

ومن لطائفه أنه يجيء في أعقاب سَوق الأدلة القاهرة والبراهين الساطعة التي تنبه العقل إلى النظر المتحرر من أغلال الجمود . ففي سورة لقمان يقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاهُدًى وَلاكِتَابٍ مُنِيرٍ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَاوَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُم إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ سورة لقمان : الآيتين (٢٠ ، ٢١) .

وفي هذا المجرى يقول عز شأنه مبيناً أن هذ التقليد البليد والجمود على موروث الآباء دين المترفين الذين يقودون الأغمار والعامة : ﴿وَكَذَلِكَ مَاأَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ سورة الزخرف : الآية (٢٣) .

ثم يبين القرآن الحكيم أن هذا الجمود على خلاف ماتقتضيه فِطَر العقول السليمة : ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ سورة الزخرف : الآية (٢٥) .

ولكنهم لايعقلون شيئاً ممايقال لهم ولايهتدون إلى الحق لأنهم غللوا عقولهم وجمدوا أذهانهم فلاينظرون ولايتفكرون ، بل هم في ضلالهم يعمهون : ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ، فحق عليه انتقام الله : ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ سورة الزخرف : الآية (٢٤) .

يؤكد القرآن ارتباط هذا المنهج في هداية الفطرة وإيقاظ العقل وتحريره أوثق ارتباط بالمنهج العقلي الذي قامت عليه الملة الحنيفية في رسالة إبراهيم عليه السلام ، ولهذا

يجيء عقب الآيات السابقة من سورة الزخرف حكاية تبرىء إبراهيم عليه السلام من كفر أبيه وقومه باتخاذهم آلهة من دون الله يعبدون، فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ. إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ سورة الزخرف: الآيتان (٢٦، ٢٧).

بيد أن قصة إبراهيم مع قومه في سورة الأنعام تمثل منهج الهداية القرآنية في إيقاظ العقل وتحريره من أغلال التقليد والجمود أكمل تمثيل.

ومما يلفت إليه نظر الناظرين في رياض القرآن أن ترتيب آياته في نظام التلاوة على ترتيب المصحف الإمام الذي انعقد عليه إجماع الأمة لايلزم حتى في القصة الواحدة أن يكون جارياً على ترتيب النزول، أو على ترتيب سوابق المعنى ولواحقه، وهذا من إعجاز القرآن الذي انفرد به في طريقة أدائه المعاني والحقائق التي يقصد إليها، فقد يأتي لاحق القصة نزولاً ومعنى قبل سابقها كذلك لحكمة قد تدركها العقول وقد تحجب عنها.

وهنا في قصة حجاج إبراهيم عليه السلام لقومه نلمح شيئاً من هذا نشير إليه، فهماً لائحاً، لايقيناً قاطعاً، ذلك أن القصة بدأت بإعلان إبراهيم عليه السلام قبح نحلة أبيه آزر في اتخاذه أصناماً آلهة يعبدها وقومُه من دون الله، ثم قطع له الحكم عليه وعلى قومه بأنه يراهم غارقين في بحار الضلال المبين الذي لاتغطيه شبهة من عقل، وذلك هو ماقال ربنا عز شأنه في أول القصة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ سورة الأنعام: الآية (٧٤).

وهذا الموقف من خليل الله إبراهيم عليه السلام يبعد جداً أن يكون قد كان إلا بعد أن يكون الله قد أراه آياته الكونية في ملكوته ليكون من الموقنين، ومجرد إيمان إبراهيم عليه السلام بموجب عقله قبل رسالته، لايجعله يقف هذا الموقف الشديد من أبيه وقومه، لأنه موقف في شدته وصراحته إنما تقتضيه قوة الرسالة الإلٰهية وبراهينها العقلية والإعجازية، وهذه البراهين إنما بدأت بإراءة الله لخليله ملكوت السموات والأرض ليعرف سنن الله في خلقه، وحكمته في تدبير ملكه، وآياته الدالة، على ربوبيته وإلٰهيته، وليكون هو في خاصة نفسه على درجة من اليقين الراسخ الذي لاتناله شبه خصومه وحينئذ يكون قوّاماً برسالة ربه، نهّاضاً بحقها، صادعاً بأمرها مع أبيه ومع قومه، مبيناً ضلالهم، داعياً لهم إلى الهدى ودين الحق ليخرجهم من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور التوحيد وعبادة الله وحده.

فصدر القصة في نظام التلاوة وهو حديث إبراهيم عليه السلام مع أبيه وتسفيه رأيه في اتخاذه الأصنام آلهة ليس بلازم أن يكون صدرها في واقع الأمر وترتيب النزول، بل إنه قد يكون أقرب إلى الصواب أسبقية إراءة الله خليله إبراهيم عليه السلام ملكوت السموات والأرض ليكون من أهل اليقين، على حديثه مع أبيه وتقبيح رأيه في اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله يُعبدون، لأن هذا كان بعض آثار يقين إبراهيم عليه السلام.

وهذا المنهج العقلي الذي يستمدُّ من الفطرة الأصيلة قوتَه، هو الذي كان به إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً لأنه خالف قومه، ومال عن طريقتهم الفاسدة وأسلم وجهه لله تعالى بعد أن قامت لديه البراهين القاطعة على وجوده تعالى ووحدانيته كما حكى عنه القرآن العظيم ذلك في قوله جل شأنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة الأنعام: الآية(٧٩).

وهذا المعنى في تفسير إسلام إبراهيم هو الذي طلبه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام لنفسهما إثر فراغهما من بناء الكعبة المشرفة قبلة المسلمين، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة، تُسلِم وجهها لله تعالى عرفاناً بتوحيده وجلال كبريائه، وأن يبعث في هذه الأمة رسولاً منها، من أفضل أرومتها، يتلو عليهم آيات الله التي ينزل عليه بها وحيه، ويعلمهم الكتاب ويبين لهم ماحواه من أصول العقائد، وفروع الشرائع والآداب، ويعلمهم الحكمة، والحكمة هي المنهج العقلي النابع من الفطرة الأصيلة، ذلك المنهج الذي تقيم عليه تلك الأمة حجتها، وتبني عليه نظام حياتها، ويزكّيهم تطهيراً لهم من أرجاس الوثنيات، وجمود التقليد على موروث الآباء والأصلاف، على ماقال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سورة البقرة: الآيات (١٢٧- ١٢٩).

وهذا المنهج العقلي هو الأساس في ملة إبراهيم ورسالته الحنيفية المسلمة، هو الذي أحياه القرآن العظيم بعد أن دُرِسَتْ معالمه، وطُمست طرائقه، وهُجرت أساليبه، فأوحى الله إلى رسوله خاتم النبيين محمد ﷺ أن يجعل هذا المنهج العقلي قاعدة دعوته، ودعامة رسالته، وأصل شريعته في كل ماتتطلبه حياة الإنسانية من تثبيت عقيدة التوحيد وإبطال الشرك، وهو المنهج الذي هداه الله إليه وجعله صراطه المستقيم ودينه

القيم: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة الأنعام: الآية(١٦١).

صور بارعة من الحوار العقلي:

وللمنهج العقلي في رسالة إبراهيم عليه السلام صور مختلفة أوردها القرآن الكريم في عدد من سوره غير ماذكرناه من نماذجها.

ففي سورة (الأنبياء) صورة من نماذج هذا المنهج بلغ فيها الحجاج غايته التي انتهت إلى أن العقل الإنساني على كثرة العقبات في طريقه عند قوم إبراهيم - تيقظ في لحظة من لحظات الإشراق الفكري في أثناء المحاجّة وتنبه إلى ماانزلق فيه من منحدر الوثنية البليدة، وأراد أن يثوب إلى موجب الفطرة الأصيلة، ولكن الصدأ الذي تراكم على هذه الفطرة حجب عنه نور إشراقة اليقظة الطارئة، تلك الإشراقة التي جعلت قوم إبراهيم يعترفون بأنهم ظالمون في اتخاذهم الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله الواحد الأحد، وهذه الأصنام، على مرأى أعينهم ومسمع آذانهم، عاجزة لاتنطق، ولاتنفع عابديها العاكفين لها شيئاً من نفع ولاتضر شيئاً من ضرر.

وقد يلمح الناظر في هذه المحاجة لوناً من السخرية بعقول هؤلاء القوم أريد به تحريك خصائص إنسانيتهم بإيقاظ بَدائه الفكر، وريادة العقل لتدرك الحق المحجوب بسحائب التقليد البليد والجمود المظلم على موروثهم من عقائد الأسلاف، فلمعت لهم منه لامعة انقلب بها حالهم من بلادة بلهاء إلى نظرة عقلية عابرة كومض البرق الخادع، رجعوا فيها إلى فطرتهم فظلموا أنفسهم، ولكن سرعان ماأظلم عليهم برقهم، فنكسوا على رؤوسهم وارتدوا إلى بلادتهم القاتمة، وعادوا إلى شركهم وتقليدهم لآبائهم.

والقرآن الحكيم يعرض هذه الصورة في براعته البيانية لتكون نموذجاً من نماذج المنهج العقلي في محاجة المبطلين، ليحتذيها أنصار الحق في مناظراتهم، مع مافيها من أدب الصراحة وشجاعة الحق، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاهَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى

يَذْكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُم يَشْهَدُونَ. قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَاهَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مالاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُون * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُم فَاعِلِيْنَ * قُلْنَا يَانَارُ كُوْنِيْ بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيْمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِيْنَ﴾ سورة الأنبياء: الآيات (٥١-٧٠).

فإيتاء إبراهيم رشده وصلاحه ومعرفته بربه من قبل الإنعام عليه بالنبوة والرسالة يمكن أن يكون إشارة إلى مرتبة الخِلَّة التي يحتمل أن يكون أوتيها الخليل عليه السلام قبل أن يؤتى الرسالة، وقد يرشح هذا المعنى قوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِيْنَ﴾، وهو تخصيص من عموم ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ تنويها باختصاص إبراهيم بمزيد من الفضل والقرب والمعرفة بالله تعالى.

وإجابة إبراهيم عليه السلام عن سؤال قومه في تكسير أصنامهم إجابة في منتهى الصراحة والصدق، وكأنه قال: نعم أنا فعلته إن لم يكن كبيرهم غيوراً على مكانه منهم ويكون هو الفاعل أداءً لحق غيرته فاسألوهم، إن كانوا ينطقون فسيجيبوكم عن سؤالكم، فلما رجعوا إلى أنفسهم وثابوا إلى عقولهم لحظة من الزمان حكموا على أنفسهم بأنهم هم الظالمون في اتخاذ هذه الأصنام آلهة، ولكن سرعان ماانتكس غزل تفكيرهم وعادوا إلى شركهم وسوء تفكيرهم، فأنكر عليهم إبراهيم عليه السلام هذا الموقف المتهافت، وأبرز القرآن الحكيم إنكاره في صورة تعبر عن خوالج نفسه، ومايعتلج فيها من ألم كظيم في سخرية من عقولهم: ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، فلم يجدوا في أنفسهم قدرة للمقاومة أمام قهر الحجة إلا غرائزهم الوحشية يسلطونها على رسول الله وخليله إبراهيم عليه السلام بأبشع صور التنكيل والتعذيب: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾، كما يفعل المَغيظ المحنق العاجز عن المحاجّة، ولكن الله الرؤوف الرحيم أمر نارهم - وهي بعض خلقه - أن تنقلب حقيقتها إلى ضدها فتكون على خليله برداً بديلاً عن الاشتعال والتلهب، وسلاماً بديلاً من الإهلاك والتدمير، ونجّى الله خليلَهُ من القوم الظالمين.

وفي سورة (الشعراء) جاءت صورة لهذا الأنموذج الحجاجي جارية على أصول المنهج العقلي بأسلوب قريب، يلمس القلوب، ويهيج الوجدان أكثر ممايوغل مع العقول في مداخل المنطق الفكري. والذي أكسبه هذه الخاصة أنه دخل مدخل إيقاظ

العواطف الإنسانية في رغائب الأفراد من الناس، فإبراهيم عليه السلام سأل قومه عن معبوداتهم سؤال تجهيل لهم وتهانف على موقفهم مع أصنامهم، فأجابوه إجابة العقل المقلد البليد، فناظرهم وقهرت حجته مزاعمهم، إذ يقول: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾. ثم ألقى إليهم بما يحرك فيهم عواطف الرغبة، فوصف ربَّهُ ربَّ العالمين بعد أن أعلن عداوته الصارخة لمعبوداتهم من دون الله تعالى بأنه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ سورة الشعراء: الآيات (٧٨-٨٢).

وهذه أوصاف كريمة رحيمة، يلمس كل إنسان رقتها ولطفها، وتلمس هي شغاف كل قلب بالحب والرغبة مع أكمل أدب النبوة والخلة في الإسناد والاختصاص، فالصفات كلها عدا صفة (الإمراض) مسنَدة إلى الله تعالى خالق كل شيء، واقتضى أدب الخلة ألاّ يتحدث عن صفة (الإمراض) وإنما تحدث عن نزول المرض بالجسم فقال: ﴿مَرِضْتُ﴾ أما الشفاء ورفع مانزل بالجسم من المرض، فهو من صفات الإسناد لله ربِّ العالمين.

وفي سورة (الصافّات) ورد هذا الأنموذج للحجاج العقلي في صورة أخرى في حجاج إبراهيم لقومه بأسلوب عاد به إلى طريقة الأنموذج الأصيل لهذا المنهج في إراءة إبراهيم لملكوت السموات والأرض لتقوى حجته على قومه وليكون من أهل اليقين والرسوخ في معرفة الله ببراهين آياته في ملكوته.

بيد أن هذا الأنموذج في سورة الصافّات لم يكن من قبيل الأسلوب المنطقي الغوّاص مع العقل في أعماق الفكر، ولكنه جاء بأسلوب الفطرة المعتمدة على الحس العام الذي يتساوى في ظواهر مدركاته العام والخاص، لتقوم به الحجة على الكافة، ويؤخذ به من ضل عناداً، ومن ضُلل جهالة.

والقرآن الحكيم يبدأ هذا الأنموذج بالثناء على الخليل إبراهيم عليه السلام بأنه أقبل على ربه منذ تولاه بالخلة بقلب طاهر مطهر سليم من الغِيَر، ليس فيه لغير الله تبارك وتعالى متسع، وهو بهذا القلب العامر بمشاهدة ملكوت الله توجه إلى أبيه وقومه يسائلهم في عجب من ضلال عقولهم عن بدائه الحق ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ؟﴾ وهو تساؤل لاينتظر إجابة، ولكنه تساؤل تسفيهٍ لآرائهم في ائتفاكهم آلهة من دون الله يريدون، وتهجين لمذهبهم في إشراكهم مع الله أصناماً بأيديهم ينحتون، وقد أخذه عليه السلام

العجب من شأن هؤلاء الضالّين، فنظر إلى مؤلهتهم من النجوم والكواكب الطالعة الآفلة، وهي تحمل دلائل مخلوقيتها للذي فطر السموات والأرض، فتألم لهم ومنهم أشد الألم، لأنهم أهدروا نعمة العقل الذي آتاهم ربهم، وطرحوا كرامة إنسانيتهم تحت أرجل أصنامهم، وعبر عن ألمه: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ولاشك أن الألم ولاسيما ألم القلب بالأسف والحزن والتحسر سقمٌ أي سقم، ومرض من أشد أنواع المرض، فهذا إخبار حق واقع، وصدق قاطع، لاشبهة شك فيه.

ثم يمضي الحديث مصوِّراً موقف الخليل عليه السلام وموقف قومه منه إلى نهايته التي هي نهايته في جميع نماذجه، وهي دائماً نهاية الصراع بين الحق والباطل، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَالَكُمْ لَاتَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدَاً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ سورة الصافات: الآيات (٨٣– ٩٨).

هذه أربعة نماذج للمنهج العقلي الذي قامت على دعائمه أصول العقيدة في الملة الحنيفية، رسالة إبراهيم عليه السلام، ساقها القرآن الحكيم بياناً للأسلوب الذي سلكه في إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود وربقة التقليد.

هذا هو المنهج العقلي السّليم الذي جاء به القرآن العظيم في إثبات الحقائق وتأسيس اليقين، ولقد اقترفتْ يَدُ التّحريف والتّزوير جريمةً نكراءَ حين أخذتْ تصويرَ المنهجِ العقلي في القرآن على أساس فلسفي جَدَليّ سُفسطائي تحت اسم «الكتاب والقران قراءة معاصرة» فدخل صاحبُها في سجل التحريف والتزوير من أوسع أبواب هذا التاريخ الأسود الذي ملأه المبطلون بمخازي الإرجاف والكذب والبُهتان على كتاب الله تعالى.

ونحمد الله سبحانه أن كشف بُطلانَهُم وفضح ضلالَهُم وخيّبَ آمالَهُمْ.

البحث السابع

أسلوب التحدي في القرآن العظيم[1] لإثبات الوحدانية وصدق النّبوّة

التحدي بالقرآن :

القرآن هو كتاب الله المعجز المنزل من عند الله على رسوله الأمين محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، والمنقول عنه نقلاً متواتراً نظماً ومعنى ، وهو آخر الكتب السماوية نزولاً تعهد المولى بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وتحقق وعد الله بحفظه ولن يخلف الله وعده .

ويوم أن خشى الرسول ﷺ من أن ينفلت القرآن منه ، وأخذ يحرك لسانه أثناء نزول جبريل عليه السلام ليحفظه ، نزل قوله تعالى ﴿لاتحركْ به لسانَكَ لتعجلَ به ، إنا علينا جمعَهُ وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتّبعْ قرآنه ، ثم إنّ علينا بيانَه﴾[2] قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل بشدة ، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿لاتحرك به لسانك . . .﴾ الآيات ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام ، أطرق واستمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل[3] . قال ابن عباس :﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ قال : فاستمع وأنصت ﴿ ثم إن علينا بيانه﴾ قال : أن نبينه بلسانك[4] ، وقال ابن كثير : كان ﷺ يبادر إلى أخذ القرآن ، ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه في صدره ، وأن يبينه له ويوضحه ، فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية

---

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام : جمعه أمين عبد العزيز ص ٩٥ـ١١٧/ ط دار الدعوة ـ الاسكندرية .

(٢) سورة القيامة آية ١٦-١٩ .

(٣) أخرجه الشيخان في صحيحهما وأحمد .

(٤) هذه الرواية عن ابن عباس ثابتة في الصحيحين .

تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه[1]

وهذه أربع آيات تحتوي توجيهاً خاصاً للرسول ﷺ ، وتعليماته في شأن تلقي هذا القرآن ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة في السورة ذاتها ، إذ كان الرسول ﷺ يخاف أن ينسى شيئاً مما يوحي إليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه إلى استذكار الوحي فقرة فقرة في أثناء تلقيه وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه ، فجاءه هذا التعليم ﴿لاتحرك به لسانك لتعجل به . . .﴾ الآيات ، جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي ، وحفظ هذا القرآن وجمعه وبيان مقاصده ، كل أولئك موكول إلى صاحبه ، ودوره هو التلقي والبلاغ فليطمئن بالاً ، وليتلق الوحي كاملاً ، فيجده في صدره منقوشاً ثابتاً ، وهكذا كان ، فأما هذا التعليم فقد ثبت في موضعه حيث نزل ، أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت في أي غرض كان؟ ولأي أمر أراد؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت في صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب ، ودلالة إثبات هذه الآيات في موضعها هذا من السورة ، دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة في شأن كل كلمات الله في أي اتجاه ، وفي شأن هذا القرآن وتضمنه بكل كلمات الله التي أوحى بها إلى الرسول ﷺ ، لم يخرم منها حرف ولم تند منها عبارة ، فهو الحق والصدق والتحرج والوقار[2] . إنه إيحاء في النفس عميق بأن الله تكفل بشأن هذا الكتاب وحياً وحفظاً وجمعاً وبياناً وليس للرسول ﷺ إلا حمله وتبليغه ، وصدقت عائشة رضوان الله عليها حين قالت : لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى ، لكتم ﴿وتُخفي في نفسِكَ مااللهُ مُبديهِ وتخشَى الناسَ واللهُ أحقُّ أنْ تخشَاه﴾[3] تقصد قصة زينب بنت جحش .

نزول القرآن :

ولقد بدأ نزول القرآن بمكة ، وأول مانزل منه في غار حراء ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسانَ من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسانَ مالم يعلم﴾[4] ، ثم توالى نزوله حسب الحوادث في ثلاث وعشرين سنة تقريباً .

وسور القرآن مائة وأربعة عشر سورة ، وهي قسمان مكي ومدني ، نزل مفرقاً

---

(١) تفسير ابن كثير .
(٢) في ظلال القرآن : سيد قطب رحمه الله تعالى ج٦/ ٣٧٦٧/ .
(٣) مختصر ابن كثير ، جزء ٣ ص ٩٨ ـ الأحزاب .
(٤) سورة العلق :٢ .

بحسب الحاجة التي تكون سبباً في النزول ليكون ذلك آنس للعرب وأدعى للقبول ، وأبلغ في الحجة عليهم ، وأظهر لوجه إعجازه ، ولولا نزوله متفرقاً آية واحدة إلى آيات قليلة ، ماأفحمهم الدليل في تحديهم بأقصر سورة ، لأن القرآن تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان لهم بعض العذر في عجزهم عن معارضته ولكن الآية أو الآيات كانت تنزل في وقت ، وكان يفصل بين وقت وآخر زمن يكفي لأن تتهيأ نفوس لمعارضته ، أو الاتيان بمثله ، ولكنهم كانوا يعجزون رغم الفرصة الكافية التي كانت تسنح لهم ، وهذا من أعظم الدلائل على وجه إعجاز القرآن ، وخاصة إذا اعتبرت أن أكثر مانزل في ابتداء الوحي إلى أن هاجر النبي ﷺ من مكة إنما هو من قصار السور ، وذلك ولاريب مماتتهيأ فيه المعارضة .

كما أن لنزول القرآن مفرقاً حكمة أخرى هي : استدراج العرب وتصريف أنفسهم بأوامره ونواهيه على حسب النزول والحوادث ، ليكون تحولهم عن أخلاقهم وعاداتهم بسهولة ويسر ، فلو نزل عليهم القرآن دفعة واحدة لثقلت عليهم التكاليف ولنفرت قلوبهم عن قبول مافيه من الأوامر والنواهي ، هذا فضلاً عن أن من الحكمة أيضاً أن يحفظه النبي ﷺ ويعيه ، وأن يُثبِّتَ الله به فؤاده كلما اشتدت معارضة المعارضين ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ، ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيرا﴾[1] ، والجدير بالذكر أن رسولنا الكريم ﷺ كان أمياً لايقرأ ولايكتب أما غيره من الرسل فقد كانوا كاتبين قارئين يمكنهم أن يضبطوا ماينزل عليهم من الكتب جملة[2] .

التحدي دليل على صدق النبوة والوحدانية :

والحق يقال إن إعجاز القرآن دليل على صدق النبوة ، وصدق النبوة يؤكد وحدانية الله سبحانه وتعالى ، ويدعو إليه إذ مابعث الرسول ﷺ إلا بالتوحيد الخالص ، فالذين أنزل عليهم القرآن كانوا عبدة أصنام وأوثان وأحجار وشمس وقمر ونجوم ، وأهل كتاب منهم من يثلثون ويثنون فالنصارى يقولون إن الله ثالث ثلاثة ، وعيسى ابن الله ، واليهود يقولون عزيز ابن الله وكل ذلك شرك ، وجاءت رسالة محمد ﷺ تدعو الناس جميعاً للتوحيد الخالص وعلى ذلك فإن تحدى القرآن لهم ، ليكون دليلاً على صدق الرسول والرسالة وبالتالي إن صَدَّقوا بالرسول وَحَّدُوا الإِله ولم يشركوا به شيئاً ،

---

(١) سورة الفرقان : ٣٢-٣٣ .

(٢) روح الدين الإسلامي ، عفيف طبارة ، ص ٢٣-٢٤ ، بتصرف .

فالتحدي بالقرآن إذن دليل لإثبات التوحيد يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لايأتونَ بمثلهِ ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرا﴾[1] ، ويقول ﴿وإن كنتم في ريبٍ ممانزلنَا على عبدِنا فأتوا بسورةٍ من مثلهِ وأدعوا شهداءَكم من دونِ اللهِ إنْ كنتم صادقين ، فإنْ لم تفعلوا ولنْ تفعلوا فاتقوا النار﴾[2] ويقول ﴿فليأتوا بحديثٍ مثلهِ إن كانوا صادقين﴾[3] .

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مامن الأنبياء نبي إلا أُعطي مامثله آمنَ عليه البشرُ ، وإنّما كان الذي أُوتيتهُ وحياً أوحاه اللهُ إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً» .

قال العلماء معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة ، وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالغيبيات فلايمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيء مماأخبر أنه سيكون يدل على صحته ودعواه ، وقيل إن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من تبعه لأجلها أكثر لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده ، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً ، قال الحافظ بن حجر ويمكن نظم القولين في كلام واحد فإن محصلهما لاينافى بعضه بعضاً[4] .

وعلى هذا فقد أجمع العقلاء على أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر أحد على معارضته مع تحديهم بذلك ، قال الله تعالى : ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْهُ حتى يسمعَ كلامَ اللهِ﴾[5] فلولا أن سماعه حجه عليه لم يقف أمره على سماعه ولايكون حجة إلا وهو معجز ، وقال الله تعالى ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آياتٌ من ربه قل إنما الآياتُ عندَ اللهِ وإنّما أنا نذيرٌ مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتابَ يُتلَى عليهم﴾[6] فأخبر أن الكتاب آية من آياته كاف في الدلالة ، قائم مقام معجزات غيره ،

---

(١) سورة الإسراء :٨٨ .
(٢) سورة البقرة :٢٣ .
(٣) سورة الطور : ٣٤ .
(٤) الخصائص الكبرى ، جزء١ ، ص ١١٢ .
(٥) سورة التوبة : ٦ .
(٦) سورة العنكبوت : ٥٠-٥١ .

وآيات من سواه من الأنبياء ، وقد جاءهم به صلى الله عليه وسلم، وكانوا أفسح الفصحاء ومصانع الخطباء وتحداهم على أن يأتوا بمثله وأمهلهم طوال السنين فلم يقدروا، وكانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها، قطعاً للحجة، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك ولا فكر فيه بل عدلوا إلى العناد تارة، وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا: سحر، وتارة قالوا: شعر، وتارة قالوا: أساطير الأولين، كل ذلك من التحير والانقطاع ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم وسبي ذراريهم وحُرُمِهِم، واستباحة أموالهم، وقد كانوا آنف شيء وأشد حمية فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه لأنه كان أهون عليهم.

قال الحافظ بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً وأحكم ما كانت لغة وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى المعارضة ثم نصب لهم الحرب فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، واستحالة لغتهم وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم وخطبائهم، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأسرع في تفريق أتباعه، من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال.

وجوه إعجاز القرآن:

وقد اختلف الناس في الوجه الذي وقع به إعجاز القرآن على أقوال منها، حسن تأليفه والتئام كلمه، وفصاحته، ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام، وأرباب هذا الشأن، ومنها صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاء عليه مقاطع آياته وانتهت إليه فواصل كلماته، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، وما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات، وما لم يكن فوجد كما ورد، ومنها ما أنبأ به من أخبار القرون الماضية، والشرائع السالفة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك فيورده صلى الله عليه وسلم على وجهه، ويأتي به على نصه، وهو أميٌّ لايقرأ ولايكتب ، ومنها ماتضمنته من الأخبار عن الضمائر كقوله تعالى ﴿إذا هَمّتّ طائفتان منكم أن تفشلا﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ويقولون في

---

(١) سورة آل عمران :١٢٢ .

أنفسهم لولا يعذبنا اللهُ بمانقول﴾[1] ، ومنها آي وردت بتعجيز قوم في قضايا ، وأعلامهم أنهم لايفعلونها فما فعلوا ولاقدروا كقوله في اليهود ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾[2] ، ومنها ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ، ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم والهيبة التي تعتريهم عند سماع تلاوته ، كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور وقال : فلما بلغ هذه الآية : ﴿أم خُلِقُوا من غير شيءٍ أم هُمُ الخالقون﴾[3] إلى قوله ﴿المصيطرون﴾ كاد قلبي يطير ، قال : وذلك أول ماوقر الإسلام في قلبي ، ومنها ، أن قارئه لايمله ، وسامعه لايمجه بل الاكباب على تلاوته يزيد حلاوة ، وترديده يوجب له محبة ، وغيره من الكلام يعادى إذا أعيد ويمل مع الترديد ، ولهذا وصف ﷺ القرآن بأنه لايخلق على كثرة الرد ، ومنها ، كونه آية باقية لايعدم مابقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه ومنه جمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب ، ولاأحاط بعلمها أحد ، في كلمات قليلة وأحرف معدودة ، ومنها جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين لايجتمعان في كلام البشر غالباً ، ومنها جعله آخر الكتب غنياً عن غيره ، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد تحتاج إلى بيان يرجع فيه إليه ، كما قال تعالى : ﴿إن هذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل أكثرَ الذي هُمْ فيه يختلفون﴾ قال القاضي عياض ، وبقي من خصائصه كونه نزل على سبعة أحرف وكونه نزل مفرقاً منجماً ، وكونه ميسراً للحفظ ، وسائر الكتب بخلاف ذلك .

وقال إذا عرفت ماذكر من وجوه إعجاز القرآن عرفت أنه لايحصى عدد معجزاته بألف ولاألفين ولاأكثر لأنه ﷺ قد تحدى بسورة منه فعجزوا عنها قال أهل العلم وأقصر السـور ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فكل آية أو آيات بعددها وقدرها معجزة ، ثم فيها نفسـها معجزات وهذا هو التـحدي الباقي مع الزمن من النبي الأمي محمد ﷺ[4] .

---

(١) سورة المجادلة :٨ .

(٢) سورة البقرة :٩٥ .

(٣) سورة النمل :٧٦ .

(٤) الخصائص الكبرى ، جزء١ ، ص ١١٧-١١٨ .

النبي الأمي :

إن نبينا محمد ﷺ ـ كما نعلم ـ نبي أمي لايقرأ ولايكتب ، وهذه بينة على أنه ماتلقى العلوم التي حيرت العلماء ، إلا من الله العلي الحكيم ، ولقد واجه القرآن المشركين بهذه الحقيقة في حينها حين قال المولى ﴿وماكنتَ تتلو من قبلهِ من كتاب ولاتخطّهُ بيمينكَ إذا لارتابَ المبطلون﴾[1] .

فمن أين جاء بهذه العلوم ، وحياته شاهد على أنه ماخرج من جزيرة العرب وماعاش إلا بين ظهرانيهم عمراً طويلاً ﴿قل لو شاءَ اللهُ ماتلوتُه عليكم ولاأدراكم بهِ فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبلهِ أفلا تعقلون﴾[2] فلما كانت هذه الحقيقة التي لاينكرها ناكر ولايستطيع أن يجحدها جاحد ، لأنها حقيقة ساطعة أقوى من كل ناكر ومعاند ومكابر ، فلم يقل الكفار : إن محمداً كان متعلماً ، بل قالوا إن القرآن قد كتب له وأنه يملى عليه بكرة وأصيلا ﴿وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفكٌ افتراهُ وأعانهُ عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلماً وزُوراً ، وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تُمْلَى عليه بُكرةً وأصيلاً ، قل أنزلَهُ الذي يعلمُ السرَّ في السمواتِ والأرضِ إنه كان غفوراً رحيما﴾[3] .

وبالرغم من بطلان هذه المقولة ، وهذا الافتراء الكاذب ، فقد وضعهم القرآن أمام الحقيقة الناصعة ، أن هذا الذي يتلى من عند الله ، وتحداهم ، وهم أهل البلاغة والفصاحة والبيان ، إذ كان الشعر العربي حين أنزل الله القرآن على نبيه ﷺ نوراً يضيء ظلمات الجاهلية ، ويعكف أهله على بيانه عكوف الوثنى للصنم ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط ، فقد كانوا عبدة البيان ، قبل أن يكونوا عبدة الأوثان ، وقد استمعنا إلى من استخف منهم بأوثانهم ، ولم نسمع قط منهم من استخف ببيانهم ، وبالرغم من هذا فقد تحداهم رسول الله ﷺ وأخذ يقرأ عليهم ماأنزل عليه على مُكث ـ كما أمر ربه ـ فتتبع الأفراد من عشيرته وقومه ، يقرأ عليهم هذا الذي أنزل إليه ، ولم يكن من برهانه ولامماأمر به أن يلزمهم الحجة بالجدال حتى يؤمنوا إنما هو إله واحد ، وانه هو لله نبي ، بل طالبهم بأن يؤمنوا بمادعاهم إليه ويقروا له بصدق نبوته ، بدليل واحد هو الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرءونه ، ولامعنى لمثل هذه

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٨ .
(٢) سورة يونس :١٦ .
(٣) سورة الفرقان :٤-٦ .

المطالبة بالإقرار لمجرد التلاوة إلا أن هذا المقروء عليهم ، كان هو في نفسه آية ، فيها أوضح الدليل على أنه ليس من كلامه هو ، ولامن كلام بشر مثله ، ثم أيضاً لامعنى لها ألبتة إلا أن يكون كان في طاقة هؤلاء السامعين أن يميزوا تميزاً واضحاً بين الكلام الذي هو من نحو كلام البشر ، والكلام الذي ليس من نحو كلامهم[1] فإذا أقروا أنه كلام رب العالمين بهذا الدليل ، كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ماجاء في القرآن من أخبار الأمم وأنباء الغيب ، ودقائق التشريع وعجائب الدلالات على أسرار الكون والنفس والحياة وبالتالي الحقيقة الكبرى حقيقة وحدانية الله في هذا الوجود ، هو كله حق لاريب فيه .

ائتمار قريش :

ولقد تحيرت العرب فيما تسمع من كلام يتلوه عليهم رجل منهم ، من جنس كلامها لأنه أنزل بلسانهم ، لسان عربي مبين ، ثم تجده مبايناً لكلامها ، فماتدري ماتقول فيه من طغيان اللدد والخصومة ، وأنه لخبر مشهور خبر تحير النفر من قريش وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة ، لقد ائتمرت قريش يومئذ حين حضر الموسم ، لكي يقولوا في هذا الذي يتلى عليهم وعلى الناس قولاً واحداً لايختلفون فيه ، وأدراوا الرأي بينهم في تاليه على أهل الموسم ، وتشاوروا أن يقولوا : كاهن ، أو مجنون ، أو شاعر أو ساحر ، فلما آلت المشورة إلى ذي رأيهم ومنهم الوليد بن المغيرة ، رد ذلك بالحجة عليهم ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجناه ، وماأنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وأن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته[2] .

روى البغوي في تفسيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : اجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا ، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه؟

فقالوا : مانعلم أحداً غير (عتبة بن ربيعة) فقالوا :أنت ياأبا الوليد ، فأتاه عتبة فقال : يامحمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال : أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ .

---

(١) من مقدمة الأستاذ محمود شاكر ، لكتاب الظاهرة القرآنية ص ٢٠ ، لمالك بن نبي .
(٢) نفس المصدر السابق .

فقال : إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبدت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى يسمع قولك ، إنا والله مارأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً ، والله ماننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى ، أيها الرجل إن كان بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً ، وإن كان مابك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً ، فقال رسول الله ﷺ «فرغتَ» ؟قال : نعم ، فقال رسولالله ﷺ : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، حمٓ تنزيلٌ من الرحمن الرحيم - حتى بلغ - فإن أعرضُوا فقلْ أنذرتكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود﴾[1] فأمسك عتبة على فيه ، وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم ، فقال أبو جهل : يامعشر قريش والله مانرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه ، وماذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه ، فقال أبو جهل : ياعتبة ماحبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه ، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا مايغنيك عن طعام محمد فغضب عتبة وأقسم أن لايكلم محمداً أبداً ، وقال : والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ، ولكن أتيته وقصصت عليه القصة ، فأجابني بشيء والله ماهو بشعر ولاكهانة ولاسحر ، وقرأ السورة إلى قوله تعالى : ﴿فإن أعرضُوا فقلْ أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود﴾ فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب .

وفي رواية محمد بن إسحاق في كتاب السيرة عن محمد بن كعب القرظي قال : حُدِّثتُ أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً ، لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا اصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون فقالوا . بلى ياأبا الوليد ، فقم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : ياابن أخي إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ،

---

(١) الآيات من سورة فصلت .

وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول الله ﷺ : « قل ياأبا الوليد أسمع » قال : ياابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا الأمر مالاً جمعنا لك أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لانقطع أمراً دونك وان كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لاتستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال : « أفرغت ياأبا الوليد » ؟ قال : نعم . قال : « فاستمع منى » ، قال أفعل ، قال : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرُهم فهم لايسمعون﴾ ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه ، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال قد سمعت ياأبا الوليد ماسمعت فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك ياابا الوليد قال : ورائي أني سمعت قولاً والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالسحر ، ولابالشعر ولابالكهانة ، يامعشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر للعرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا مابدا لكم[١] .

والجدير بالذكر أن هذا التحدي ليس بين الرسول الله ﷺ وبين قومه من العرب فحسب بل بينه وبين الإنس والجن ، مجتمعين متظاهرين ، تحداهم بقليل القرآن وكثيره ، وهم الذين أوتوا القدرة على التمييز والفصل بين كلام البشر والذي هو ليس من كلامهم ، وصدق الرسول الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ـ كما قلنا من قبل « ما من نبي إلاّ أُوتي من الآيات مامثلُهُ آمنَ عليه البشرُ ، وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوحي إليّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

تابع وجوه الإعجاز :

فالقرآن إذن هو آية الله في الأرض ، آيته المعجزة من الوجه الذي كان به معجزاً

---

(١) مختصر ابن كثير ، جزء ٣ ، ص ٢٥٦ .

للعرب ثم للبشر ، ثم للثقلين جميعاً ، أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله مفتريات ، فلما انقطعت قواهم ، قطع الله عليهم وعلى الثقلين جميعاً منافذ اللدد والعناد فقال : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[(١)] .

ومن العلامات التي تبين إعجاز القرآن وأنه كلام الله ، الجدة الدائمة فكل كلام بشري يبلى إذا كرر لكن القرآن لايبلى على كثرة الرد ، ولقد نطق أحد كبار المستشرقين بهذه الحقيقة وهو المستشرق (ليون)فقال : حسب القرآن جلالة ومجداً أن الأربعة عشر قرناً التي مرت عليه لم تستطع أن تخفق ولو بعض الشيء من أسلوبه الذي لايزال غضاً كأن عهده بالوجود أمس .

هذا فضلاً عن الروح الإلهية التي يشعر بها قاريء القرآن ، وصدق ربي حين قال : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنتَ تدري ماالكتابُ ولاالإيمانُ﴾[(٢)] ، أضف إلى ذلك قوة تأثيره وإعجازه العلمي والذي حقق ومايزال قول ربنا ﴿سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّنَ لهم أنه الحق﴾[(٣)] وهذه العلوم والأخبار التي وردت فيه وتلاها رسول الله ﷺ ، وهو النبي الأمي الذي قال له ربه ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليكِ وماكنتَ تعلمها أنتَ ولاقومُك من قبلِ هذا ، فاصْبِرْ إنّ العاقبة للمتقين﴾[(٤)] .

القرآن يتحدى بوجوه إعجاز أخرى منها :

١ـ ولقد احتوى القرآن على تفصيل تاريخ الأنبياء والمرسلين السابقين وهو التاريخ الذي لم يكن يعرف أشتاتاً منه إلا الأحبار والرهبان وكانوا على خلاف فيما بينهم ، أما أمة العرب فلم تكن تعرف تفاصيل ذلك التاريخ ، فجاء رسولنا الكريم ﷺ بهذا التاريخ مفصلاً واضحاً جلياً ، اعترف به الكثير من الأحبار والرهبان .

٢ـ كما كان القرآن ينزل كاشفاً لمايدور في صدور الناس ، وخاصة المنافقين فيواجههم بحقيقة ماأخفوه في صدورهم ، ولقد جرب كثير من الأعراب صدق نبوة محمد ﷺ بإخفاء أشياء كثيرة كان الوحي ينزل فيكشفها فيعترفون ويتوبون ، وكان

---

(١) سورة الإسراء :٨٨ .
(٢) سورة الشورى :٥٢ .
(٣) سورة فصلت : ٥٣ .
(٤) سورة هود :٤٩ .

القرآن كثيراً مايذكرهم بهذا ، واستمع إن شئت إلى ماقاله القرآن في بعض المنافقين على سبيل المثال ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم قد نبّأ الله من أخباركم وسيرى اللهُ عملَكم ورسولُه ثم تُردون إلى عالِم الغيبِ والشهادةِ فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[1] .

٣ـ وماقصة اليهود ببعيدة حين كانوا يبشرون بظهور نبي قرب زمانه من بلاد العرب وكانوا يتهددون العرب بأنهم يتبعونه ويقتلونهم معه قتلَ عادٍ وإرم ، ﴿فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به﴾[2] ، وحكى القرآن كاشفاً حالهم فقال : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضُهم إلى بعض قال أتحدثونهم بما فتحَ اللهُ عليكم ليحاجُّوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ، أو لايعلمون أن اللهَ يعلم مايسرون ومايعلنون﴾[3] .

٤ـ وماأكثر ماأخبر القرآن بأمور تتصل بالغيب ستحدث مستقبلاً تكون في عهد الرسول ﷺ وبعده فجاء مرور الأيام تفسيراً لما أنبأنا الله به في كتابه مثل إخباره بأن الروم ستغلب الفرس في أقل من عشر سنوات بعد أن فرح الوثنيون بانتصار الفرس على الروم وتأهبوا على كذب ماوعد الله في كتابه ، فما مرت سبع سنوات إلا وتحقق وعد الله ، مصداقاً لقوله ﴿الٓمٓ ، غُلِبتِ الرومُ في أدنى الأرض ، وهم من بعد غَلَبهم سيغلِبُون في بضعِ سنين ، للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصرِ اللهِ ينصرُ من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وَعْدَ اللهِ لايُخلفُ اللهُ وعدَهُ ولكنّ أكثرَ الناس لايعلمون﴾[4] .

٥ـ والعجيب في الأمر أن القرآن كان يخبر الرسول بأن بعضاً من الكفار قريش لن يسلموا أبداً وقد كان بالرغم من مرور الأيام والسنين ، فلم يسلم منهم أحدٌ فعلاً ، كأبي لهب الذي قال فيه المولى عز وجل ﴿سيصلى ناراً ذاتَ لهبٍ وامرأتُه حمّالةَ الحطب﴾ فمات وزوجته على الكفر ، ومثل الأخنس بن شريق الذي نزل فيه ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ فمات أيضاً على الكفر هو والوليد بن المغيرة الذي قال الله فيه ﴿سأصليه سقر﴾ .

---

(١) سورة التوبة : ٩٤ .
(٢) سورة البقرة : ٨٩ .
(٣) سورة البقرة : ٧٦-٧٧ .
(٤) سورة الروم : ١-٤ .

٦ـ وهل هناك تحد أكثر من أن الرسول ﷺ كان يتخذ بعض الحراس له في الغزوات أو كان بعض أصحابه ﷺ يتطوعون لحراسته من الكفار وفي غزوة من الغزوات أخرج الرسول ﷺ رأسه من خيمته وقال لحراسه: «انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس»، وذلك حين نزل عليه ﴿يأيها الرسول بلّغْ ماأُنزل إليك من ربك وإن لم تفعلْ فما بلغتَ رسالتُه، واللهُ يعصمك من الناس إن الله لايهدي القوم الكافرين﴾[1] وغير ذلك الكثير والكثير مما حدث في حياته أو بعد موته ﷺ ولايزال القرآن يتحدى الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وحكمة هذا التحدي وذكره في القرآن، إنما هو أن يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللد[2] والفصحاء اللسن، حتى لايجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن مُولَّد[3] أو أعجمي كاذب، أو منافق ذو غفلة فيزعم أن العربَ كانوا قادرين على مثله وأنه غير معجز[4].

فهذا القضاء الحاكم منه، بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ماتحداهم به ليس قضاء بشريا، ومن الصعبَ بل ومن المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط كالذي شرطه على نفسه لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الأرض لاتخلو من صاحب قوة مثل قوته، وإنما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه «أي محمد» وقد أحاط علمه بتصور جميع القوى عن تناول ماastنهضهم له وبلوغ ماحثهم عليه[5].

القرآن معجزة محمدﷺ:

ولذلك كان القرآن معجزة محمد ﷺ وهي من جنس مااشتهر به العرب بالنبوغ فيه لأن كل رسول تكون معجزته من جنس مانبغت فيه أمته، فموسى جاء بالعصى لنبوغ قومه في السحر، وعيسى بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لنبوغ القوم في الطب، وإن كانت هذه المعجزات لزمانها بعكس القرآن الذي جاء وقد بلغ العقل الإنساني مداه فكان القرآن معجزة البشر بهدايته، وتشريعه، وأسلوبه، ومعانيه التي

---

(١) سورة المائدة: ٦٧.
(٢) اللد: الخصم الشديد.
(٣) مولد: عربي غير محض.
(٤) إعجاز القرآن للرافعي، ص ٢٢٢، ط/٢.
(٥) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، ص١٧٠.

تتميز بخلودها وبقائها مع الزمن :

قال الأصمعي قرأت يوما هذه الآية ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾[1] وإلى جنبي أعرابي فقلت «والله غفور رحيم» سهواً ، فقال الأعرابي : كلام من هذا؟ قلت : كلام الله ، قال : ليس هذا بكلام الله أعد ، فأعدت وتنبهت فقلت : والله عزيز حكيم ، فقال : نعم هذا كلام الله . فقلت : أتقرأ القرآن؟ قال : لا ، قلت : فمن أين علمت أنى أخطأت؟ فقال : عزّ فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع[2]. وهكذا كانوا يتذوقون اللغة لأنهم أهلها الفصحاء اللسن ، وبها تحداهم فعجزوا .

وما زال القرآن حتى يومنا هذا وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان غضاً طرياً يتحدى الخلائق جميعاً ببيانها وفصاحتها ورجاحة عقلها ، وعلمها وتقدمها ، أو ليس كل ذلك دليلاً على صدق نبوة محمد ﷺ وصدق ماجاء من الوحدانية وصدق الله القائل ﴿فإن كنتَ في شك مماأنزلنا إليكَ فاسألِ الذين يقرءون الكتاب من قبلِكَ ، لقد جاءكَ الحقّ من ربك فلاتكونن مِنَ المُمتَرِين ، ولاتكوننّ من الذين كذّبوا بآياتِ اللهِ فتكونَ من الخاسرين﴾[3] فقال الرسول والله لم أرتبْ ولم أسأل ، وكيف لمسلم أن يشك أو يسأل ، فما بالك بالرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه . . .أو ليس هذا التحدي بالقرآن الخالد الباقي مع الزمن أكبر دليل على صدق الرسالة والرسول ، وهل جاءت الرسالة إلا بالتوحيد الخالص؟ .

المعجزات السابقة والقرآن :

نعلم جميعاً أن الله سبحانه وتعالى أيّد الرسل والأنبياء قبل رسالة محمد ﷺ بالمعجزات المادية الباهرة لتكون دليلاً على صدقهم ، وآية لاقناع أقوامهم ، فأيد صالح عليه السلام بالناقة ، حين طالبه قومه ببرهان مبين ﴿قالوا إنما أنتَ من المسحّرِين ، ماأنتَ إلا بشرٌ مثلُنا فأتِ بآيةٍ إن كنتَ من الصادقين ، قال هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكم شِرْبُ يومٍ معلوم ، ولاتمسّوها بسوءٍ فيأخُذَكم عذابُ يومٍ أليم﴾[4] .

وأيد موسى عليه السلام بالعصا حين هدده فرعون ﴿قال لئنِ اتخذتَ إلهاً غيري

---

(١) سورة المائدة : ٣٨ .

(٢) صفوة التفاسير، جزء١، ص٣٤٢ سورة المائدة.

(٣) سورة يونس : ٩٤ .

(٤) سورة الشعراء : ١٥٣ـ١٥٦ .

لأجعلنك من المسجونين ، قال أولو جئتُكَ بشيءٍ مبين قال : فأتِ به إن كنتَ من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾[1] .

وأيد عيسى بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى فقال لبنى إسرائيل ﴿إني أخلق لكم من الطين كهيئةِ الطيرِ فأنفخُ فيه فيكونُ طيراً بإذنِ اللهِ وأبريءُ الأكمَهَ والأبرصَ ، وأحيي الموتىَ بإذنِ الله ، وانبئكم بما تأكلون وماتدّخِرُون في بيوتِكم ، إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾[2] .

أما رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه فمعجزته الباقية مابقي ليل أو نهار هي القرآن ولاشيء غير القرآن ، قال ابن رشد : إن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ ليست كدلالة انقلاب العصا حية ، ولاإحياء الموتى وإبراء المرض ، فإن تلك وإن كانت أفعالاً لاتظهر إلا على أيدي الأنبياء وفيها ماينفع الجماهير من العامة إلا أنها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة وأهداف الوحي ومعنى الشريعة أما القرآن فدلالته على صفوة النبوة وحقيقة الدين مثل دلالة الإبراء على الطب ، ومثال ذلك لو أن شخصين ادعيا الطب فقال أحدهما : الدليل على أني طبيب أني أطير في الجو ، وقال الآخر دليلي أنى أشفي الأمراض ، وأُذهب الأسقامَ ، لكان تصديقنا بوجود الطب عند من شفى المرض قاطعاً ، وعند الآخر مقنعاً فقط[3] .

فأنت ترى أن معجزة الرسالة الأخيرة هي كتاب الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من لدن حكيم حميد ، بهذا الكتاب تحدى العالمين ، وبين دفتيه دليل صدق الرسالة والرسول ، ومازالت آياته ناطقة بأن دين الله هو الإسلام﴿ومَنْ يبتغِ غيرَ الإِسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[4] .

ولاشك أن المعجزات المادية لاتفيد الذين مسخت فطرهم ، واختلت عقولهم وختم على قلوبهم ، واسودت أفئدتهم ، فما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون وصدق الله القائل ﴿ومامنعنا أن نرسِلَ بالآيات إلا أن كذَّبَ بها الأولون وآتينا ثمودَ

---

(١) سورة الشعراء : ٢٩-٣٣ .
(٢) سورة آل عمران : ٤٩ .
(٣) عقيدة المسلم ، الشيخ محمد الغزالي ص ١٨٩ .
(٤) سورة آل عمران : ٨٥ .

الناقةَ مبصرةً فظلموا بها ومانرسِلُ بالآيات إلا تخويفاً﴾[1] .

فلقد جاءت المعجزات المادية على يدي رسول الله ﷺ ورآها المشركون رأى العين فهل آمنوا؟ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج . . . بالرغم من أنهم أقسموا لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها كما قال القرآن : ﴿وأقسموا بالله جهدَ أيمانهم لئنْ جاءتهم آيةٌ ليُؤْمِنُنَّ بها ، قلْ إنّما الآياتُ عندَ الله ومايشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون ، ونُقلِّبُ أفئدتهَم وأبصارهَم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ، ولو أننا نزلنا إليهم الملائكةَ وكلمهم الموتى وحشَرنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلاً ماكانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاءَ اللهُ ولكنّ أكثرَهم يجهلون﴾[2] .

فهل أَجْدَتِ الآياتُ والمعجزاتُ مع قومٍ جحدوا وكذبوا ، وعصوا؟ كلاإنهم لم يؤمنوا بها مهما تنوعت وتعددت مصداقاً لقول ربي ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سُكِّرتْ أبصارُنا بل نحن قوم مسحُورون﴾[3] .

المعجزات والأخذ بالأسباب :

ومع أننا نؤمن بأن القرآن هو المعجزة المتجددة على صدق الرسالة والرسول كما قلنا من قبل ـ إلا أننا سنسوق بعض المعجزات التي أجراها المولى على يدي الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وبعض الكرامات لبعض الصحابة الغر الميامين ، و لتكون دليلاً من أدلة الإيمان ، فمن المعروف أن المعجزات تكون دليلاً على ذلك وإن كانت حجة في زمانها على من رآها بعينه كرؤية الشمس ، وليست حجة على من لم يرها ، ولكن سوف نسوقها هنا ائتناسا بها في تفسير ما في الكون من أسرار ليصحح المسلم تصوره عن حقيقته ومافيه ، فنحن إذن نسوقها للمسلمين لالغيرهم ، فيعلمون أن مافي الكون من أحياء وأشياء يسبح ويسجد ، ويتكلم ويتألم ، ويفرح ويحزن ، يضحك ويبكي ، ويطيع الخالق جلا وعلا كرها ، وبذلك تستقيم نظرتهم للكون فإذا بهم يأتنسون به ولايهابونه فيحبونه ولايكرهونه ، فكم من أناس عبدوا مافي الكون ، من شمس وقمر ، ونجم وكوكب ، وعجل وبقر ، وحجر وشجر ، وصنم ووثن ، هذه واحدة .

---

(١) سورة الإسراء :٥٩ .

(٢) سورة الأنعام :١٠٩ـ١١١ .

(٣) فقه السيرة ، الشيخ محمد الغزالي ص٧٢ .

أما الأخرى فإننا إذا تكلمنا عن تسخير الكون للمسلم وأيدنا ذلك بما حدث للمسلمين الأوائل ومارأوه من الآيات والمعجزات التي أجراها الله أمام أعينهم على يد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ومشاهدتهم ملائكة الله ، والريح والحصى ، وغير ذلك من الأشياء والأحياء التي أيد الله بها الرسول وصحبه في حروبهم وغزواتهم ، فليس معنى ذلك أنها دعوة إلى التواكل والركون إلى الكون ومافيه كعامل من عوامل النصر فهذا من باب التمنى وليس الإيمان بالتمني ولابالتحلي ولكن ماوقر في القلب وصدقه العمل ، وإن قوماً ألهتهم الأماني وقالوا نحسن الظن بالله ، كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ، وصدق الحق إذ يقول ﴿ليس بأمانيّكم ولاأمانيّ أهل الكتاب مَنْ يعملْ سوءاً يُجزَ به ولايجدُ له من دُونِ اللهِ ولياً ولانصيراً﴾[1] ولكننا نسوقها ليشعر المسلم بالاتئناس وأن جنود الله التي لايعلمها إلا هو سبحانه معه إن بذل الجهد واستفرغ الوسع ، وأعد مااستطاع أخذاً بالأسباب ، حينئذ يحشد له الكون ومافيه لنصرته وتأييد دعوته وإعلاء كلمة الله في الأرض وبذلك لايرتكن إلى أوهام أو يبني تصوره على أماني .

فما كان محمد ﷺ رجل خيال يتيه في مذاهبه ثم يبني حياته ودعوته على أماني بل كان رجل حقائق يبصر بعيدها كما يبصر قريبها ، فإن أراد شيئاً هيأ له أسبابه ، وبذل في تهيئتها ، على ضوء الواقع المر - أقصى مافي طاقته من حذر وجهد ، ومافكر قط ولافكر أحد من صحابته أن السماء تسعى له حيث يقعد أو تنشط حيث يكسل ، أو تحتاط له حيث يفرط ، ولم تكن خوارق العادات ونواقص الأسباب والمسببات أساساً ولاطلاء في بناء رجل عظيم .

ان محمداً وصحبه تعلموا وعلّموا ، خاصموا وسالموا ، وانتصروا وانهزموا ومدوا شعاع دعوتهم إلى الآفاق وهم على شبر من الأرض يكافحون ، لم ينخرم لهم قانون من قوانين الأرض ، ولم تلن لهم سنة من سنن الحياة ، بل أنهم تعبوا أكثر مماتعب أعداؤهم وحملوا المغارم الباهظة في سبيل ربهم فكانوا في ميدان تنازع البقاء أولى بالرسوخ والتمكين[2] .

إن الله سبحانه وتعالى شاء أن يكون انتصار هذا الدين بجهد البشر ، ولقد ضرب لنا الرسول ﷺ المثل الأعلى في ذلك وابلى بلاءً شديداً فكسرت رباعيته يوم أحد وشج

---

(١) سورة النساء : ١٢٣ .

(٢) فقه السيرة ، الشيخ محمد الغزالي ، ص٧٢ .

في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال :

﴿كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم ، وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل﴾ ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ليس لك من الأمرِ شيءٌ أو يتوبَ عليهم أو يُعذِّبَهُم فإنّهم ظالمون﴾[1] .

إن التفريط في أسباب النصر يجلب الهزيمة ، لاشك في ذلك ولو كان الموحدون المدافعون عن راية لاإله إلا الله محمد رسول الله - ﷺ - هم المفرطون ولنا في سيرة رسول الله ﷺ المثل في ذلك فما زالت أحداث أُحُد وحُنين وغيرها يذكرنا بها القرآن الكريم .

لهذا كله أردنا قبل أن نبدأ الحديث عن التفكير في الأنفس والآفاق أن نوضح أسباب استشهادنا ببعض الأحاديث التي بينت بعض معجزات الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه والتي كانت على غير مألوف البشر - أقول - أوردناها للمسلمين وليس لغيرهم ، فالذين كفروا بالذكر لما جاءهم ماأقنعتهم المعجزات المادية المرئية في زمانهم والرسول الكريم بين ظهرانيهم فكيف بإخوانهم من المنكرين إذا سمعوا بخبرها ولم يروها ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سجداً وسبحوا بحمدِ ربِّهم وهم لايستكبرون﴾[2] .

نعم نحن نذكر هذه الأحاديث الكريمة لنستجيش عواطف المسلمين ، ونستثير عقولهم وقلوبهم ونذكرهم بقدرة الله التي تخرق مألوف العادات وسنن الآفاق عليهم يشعرون أن الله سبحانه وتعالى قادر على تأييدهم بجنود من عنده إن عادوا إلى حظيرة الإسلام ورضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، فبذلوا الجهد والطاقة وأخذوا بكل الأسباب وأعدوا لأعدائهم مااستطاعوا من قوة ورباط الخيل ، وقتها يتنزل النصر ويرضى الرب ، ويُمكَّنُ لدين الله في الأرض ﴿ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصرِ اللهِ ينصرُ من يشاءُ وهو العزيزُ الرحيم ، وَعْدَ اللهِ لايُخلفُ اللهُ وعدَهُ ولكن أكثرَ الناسِ لايعلمون﴾[3] .

أما غيرهم من الكافرين الجاحدين ، المنكرين المعاندين ، فلايزال القرآن يتحداهم ، ومازالت صفحات الكون منشورة أمام أعينهم لمن أراد أن يتدبرها ﴿قل

---

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد في المسند «مختصر ابن كثير» جزء ١ ، ص ٣١٧ .
(٢) سورة السجدة : ١٥ .
(٣) سورة الروم : ٤-٦ .

انظروا ماذا في السموات والأرض﴾[1] ، ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم اللهُ يُنشيءُ النشأةَ الآخرة﴾[2] والآيات كثيرة تدعو الناس جميعاً للتفكر في الأنفس والآفاق ليعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، ومازال القرآن غضاً طرياً تتحدى به الخلائق جميعاً ونناديهم بنداء ربنا ﴿ياأيها الناس اعبدوا ربَّكمُ الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرضَ فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمراتِ رزقاً لكم فلاتجعلوا للهِ أنداداً وأنتم تعلمون ، وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثلهِ وادعوا شهداءَكم من دونِ الله إن كنتم صادقين فإنْ لم تفعلوا ولنْ تفعلوا فاتقوا النارَ التي وَقُودُها الناسُ والحجارةُ أُعدتْ للكافرين ، وبشّرِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنَّ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبلُ وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرةٌ وهم فيها خالدون﴾[3] .

---

(1) سورة يونس : ١٠١ .
(2) سورة العنكبوت : ٢٠٠ .
(3) سورة البقرة : ٢١-٢٥ .

البحث الثامن :

الإعجاز التَشريعيّ للقرآن العظيم[1]

الحديث عن الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم حديث عن النظام الخالد للكون ومافيه ، فالذي أبدع الكون من العدم وأوجد فيه من المخلوقات مالايُحصى عدداً وجعل أشرف هذه المخلوقات وأكرمها بني آدم ، قد اختار لهذا المخلوق المعزَّز دستوراً في الحياة ينظم سلوكه في الدنيا وعلاقته بنفسه وبخالقه سبحانه وتعالى ، ورتب نتائج دنيوية وأخروية على نتيجة سيره وفق هذا الدستور الإلهي الكريم ، حيث يحصل الإنسان على الطمأنينة والعزة والرفاه في الدنيا ويشعر بإنسانيته الحقة ، ويدرك الحكمة الإلهية من خلقه وإيجاده وتفضيله على سائر المخلوقات ، كما ضمن الله سبحانه وتعالى له السعادة في الآخرة استمراراً لسعادته الدنيوية ﴿قُلْ من حَرَّمَ زينةَ اللهِ التي أَخرَجَ لعبادِهِ والطيِّباتِ من الرِّزق ، قُلْ هي للذين آمنوا في الحياةِ الدنيا خالصةً يومَ القيامة﴾ الأعراف/ ٣٢ .

واشتمل القرآن الكريم على الأنظمة التي احتاجها البشر في حياتهم المعاشية ولم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا كانت له نظرته الخاصة وتشريعه المستقل بحيث ينتج من مجموع أنظمته تشريع متكامل لمناحي الحياة كلها ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكُمْ وأتممتُ عليكُمْ نِعْمتي ورضيتُ لكُمُ الإِسلام ديناً﴾ المائدة/ ٣ .

وينتج من تطبيقه على الناس أمة متكاملة الشخصية متميزة الملامح والسلوك عن سائر الأمم ﴿كُنتُمْ خيرَ أمّةٍ أُخرجتْ للنَّاسِ تأمرون بالمعروف وتنهَوْن عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ آل عمران/ ١١٠ .

إن الجانب التشريعي والخلقيّ في القرآن الكريم لآيةٌ وأيما آيةٌ على كون القرآن من عند الله وليس من عند البشر .

فالأسس الأخلاقية والقواعد التشريعية السامية التي تضمنها القرآن الكريم تخرج عن طوق البشر إحاطةً ودقةً وشمولاً .

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن : للدكتور مصطفى مُسلم ص ٢٢٣-٢٤٦/ط دار المنارة ـ جدة/ .

يدل تاريخ الإنسانية على أنها لم تُنجب مفكّراً او فيلسوفاً أو مُصلحاً اجتماعياً استطاع أن يضع نظاماً كاملاً للعلاقات الداخلية والخارجية لدولة ما ، وكم من حكيم حاول ذلك ، ولكن نظرياته ظهر فيها النقص أحياناً والتناقض طوراً ومجانبة الصواب كثيراً ، وثار على بعضها أتباعه في حياته أو بعد مماته .

ولاتزال هذه الظاهرة تتكرر إلى يومنا هذا في الأمم والشعوب التي لاتدين دين الحق ، علماً أن هذه النظريات لاتتناول إلا جانباً واحداً بل وضيّقاً من جوانب الحياة الاجتماعية ، أما أن توضع نظرية متكاملة الجوانب للكون والمخلوقات والأفراد والجماعات في شتى صورها وحالاتها ، فهذا ممايخرج من طاقة البشر مهما أوتوا من علم وحكمة ، فمابالك إذا ورد مثل هذا النظام الكامل على لسان رجل أمّي لم يشتهر في حياته بالاطلاع على كتب وفلسفات الأقدمين ، ولم يعرف بالأسفار العلمية والتجوال في الآفاق بحثاً وراء الأنظمة والتشريعات .

وبقيت تلك العلوم والمبادىء قروناً وأجيالاً كلما مرّ عليها دول وأزمان وتناولتها الأيدي والأفكار بالبحث والنقاش والنقد والتمحيص ظهر بريقها واشتدّ لمعانها وأدرك المنصفون من أهل كل عصر ربانيّة مصدرها وجدارة تطبيقها وصلاحها دون غيرها لكل زمان ومكان .

إن المبادىء السامية التي وردت في الشريعة الإسلامية وتضمنها القرآن الكريم برهان ساطع على مصدر القرآن الكريم ودليل صدق على نبوة محمد ﷺ وأنه تلقاها من لدن الحكيم الخبير ، ليكون رحمةً للعالمين .

وسنلقي في مبحث الإعجاز التشريعي بعض الأضواء على جوانب من الهدايات القرآنية في :

أولاً : العقيدة .

ثانياً : الشريعة .

ثالثاً : الأخلاق .

وسنكتفي بالعمومات في كل ذلك ، لأن التفاصيل تستغرق عمر الأجيال ولازال علماء الأمة الإسلامية يستنبطون تشريعاتهم وأنظمة حياتهم وحلول مشاكلهم المستجدة من آي الذكر الحكيم ، وسيبقى الدستور الخالد نبراساً في حياة المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أولاً : في العقيدة :

جاء القرآن الكريم بعقيدة سهلة خالية من التعقيد ملائمة للفطرة الإنسانية تملأ النفس طمأنينة وارتياحاً ، والقلب نوراً وانشراحاً ، والعقل قناعةً .

فقد تولى القرآن الكريم توضيح العقيدة الإسلامية بأسلوب عذب جذّاب لايمكن لتاليه أو سامعه إلا أن يستجيب لنداء الفطرة ومقالة الحق بأنه تنزيل من حكيم حميد :

١ـ ففي مجال بيان توحيد الله سبحانه وتعالى والاستدلال عليه من خلال مخلوقاته وآثار الإبداع في خلقه ، وهي الطريقة الفطرية للإقناع والاتباع . يقول تعالى :﴿إنّ اللهَ فالقُ الحبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحيَّ من الميِّتِ ومُخْرِجُ الميِّتِ من الحيّ ذلكُمُ الله فأنَّى تُؤفكون . فالقُ الإِصباحِ وجَعَلَ الليلَ سَكَناً والشمسَ والقمرَ حُسْباناً ذلك تقديرُ العزيزِ العليم . وهو الذي جَعَلَ لكُمُ النجومَ لتهتدوا بها في ظلماتِ البرّ والبحر ، قد فصَّلنا الآياتِ لقومٍ يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدةٍ فَمُسْتَقَرٌّ ومستودَعٌ قد فصَّلنا الآياتِ لقوم يفقهُون . وهو الذي أنزلَ من السماءِ ماءً فأخرجنا به نباتَ كلِّ شيء ، فأخرجنا منه خَضِراً نُخْرِجُ منه حبّاً متراكِباً ومن النَّخلِ من طَلْعِها قِنْوَانٌ دانيةٌ وجناتٍ من أعنابٍ والزيتونَ والرمّانَ مشتبهاً وغيرَ متشابه ، انظروا إلى ثَمَرِه إذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إنّ في ذلكم لآياتٍ لقوم يؤمنون . وجعلوا للهِ شركاءَ الجِنَّ وخَلَقَهُمْ وخَرَقوا له بنينَ وبناتٍ بغير علمٍ سبحانه وتعالى عمّا يصفون . بديعُ السماواتِ والأرضِ أنّى يكونُ له ولدٌ ولم تكنْ له صاحبةٌ وخَلَقَ كلَّ شيءٍ وهو بكل شيء عليم . ذلكُم الله ربُّكم لاإله إلا هو خالقُ كلِّ شيءٍ فاعبدُوه وهو على كلِّ شيءٍ وكيل . لاتُدْرِكُهُ الأبصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصارَ وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائرُ من ربِّكُمْ فمن أبصرَ فلنفسهِ ومن عَمِيَ فعليها وماأنا عليكم بحفيظ﴾الأنعام/ ٩٥-١٠٤ .

وردّ القرآن الكريم شُبَهَ المنحرفين وزيغ الزائفين عن عقيدة التوحيد بالبراهين العقلية الدامغة ، يقول تعالى :﴿قُلْ لَوْ كان معه آلهةٌ كما يقولون إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ الإسراء/ ٤٢ ، ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفَسَدَتا فسبحان الله ربِّ العرشِ عمّا يصفون﴾ الأنبياء/ ٤٢ .

﴿ماتخذ اللهُ من ولدٍ وماكان معه من إلَهٍ إذاً لذَهَبَ كلُّ إلَـهٍ بما خَلَقَ ولعلا بعضُهُم

على بعض سبحانَ الله عمّا يصفون . عالمُ الغيبِ والشهادةِ فتعالى عمّا يشركون﴾ المؤمنون/ ٩١ ، ٩٢ .

٢ـ وقرر القرآن الكريم وحدة الرسالات السماوية في أهدافها ومنطلقاتها ووسائلها ، وإن اختلفت في جزئيات تشريعاتها ، يقول تعالى :﴿كان الناسُ أمّةً واحدةً فبعث الله النبيّن مُبشّرين ومنذرين وأنزل معَهُم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناسِ فيما اختلفوا فيه ، ومااختلفَ فيه إلاّ الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البيّنات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه ، واللهُ يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم﴾ البقرة/ ٢١٣ .

وبيّن القرآن الكريم أن اختيار الرسل من البشر ومن جنس أقوامهم وبألسنتهم سنة الله في الرسالات إذ لاتتحقق الغاية من إرسالهم على الشكل الأمثل إلا بتلك المواصفات ، كما أن تأييدهم بالمعجزات أمرٌ لازم لإقامة الحجة على الناس ، يقول تعالى :﴿وإنْ مِنْ أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير﴾ فاطر/ ٢٤ . ﴿ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولاً أنِ اعبدوا اللهَ واجتنبوا الطاغوتَ ، فمنهم من هدَى اللهُ ومنهم من حقّتْ عليه الضلالةُ ، فسيروا في الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذّبين﴾ النحل/ ٣٦ . ﴿وماأرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومه لِيُبيّنَ لهم فيُضِلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاءُ وهو العزيز الحكيم﴾ إبراهيم/ ٤ . ﴿ومامنع الناسَ أن يؤمنوا إذ جاءَهُمُ الهُدى إلاّ أن قالوا : أبَعَثَ الله بشراً رسولاً؟ . قل لو كان في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنّين لنزّلنا عليهم من السماءِ مَلَكاً رسولاً﴾ الإسراء/ ٩٥ . ويوضح القرآن الكريم أن مهمة الرسل تبليغ رسالاتِ ربهم إلى الأقوام بعد تطبيقها العملي في حياتهم الخاصة ، وليس من مهماتهم حملُ الناس على الدخول في دينهم أو إنزال العقوبات بهم ، يقول تعالى : ﴿قل إنّي على بيّنةٍ من ربّي وكذّبتُمْ به . ماعندي ماتستعجلون به إنِ الحُكْمُ إلاّ لله، يقصّ الحقّ وهو خير الفاصلين، قلْ لو أن عندي ماتستعجلون به لقُضِيَ الأمر بيني وبينَكم واللهُ أعلمُ بالظالمين﴾ الأنعام/ ٥٧ـ٥٨ .

ويقرر القرآن أن الميثاق قد أُخذ على الأنبياء وأقوامهم أن يؤمنوا بخاتم النبيين ويجاهدوا معه لنصرة دعوته إن أدركوا زمان بعثته التي يتم بها صرح النبوات ، يقول تعالى :

﴿وإذْ أخذَ اللهُ ميثاقَ النبيّن لَمَا آتيتُكُمْ من كتابٍ وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدّقٌ

لِمَا معكم لَتُؤمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّهُ ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري؟ قالوا اقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ آل عمران/ ٨١ .

ويقرر القرآن الكريم أن الإيمان برسل الله جميعاً وبماجاؤوا به من عند الله من أركان الإِيمان وأساسياته، يقول تعالى: ﴿وقولوا آمَنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيمَ وإِسماعيلَ وإِسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتي موسى وعيسى وماأُوتي النبيُّونَ من ربِّهم لانفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾ البقرة/ ١٣٦ . ﴿إن الذين يكفرون باللهِ ورسلهِ ويُريدونَ أن يُفرِّقوا بينَ اللهِ ورسلهِ ويقولون نؤمنُ ببعضٍ ونكفرُ ببعض ويُريدون أن يتَّخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هُمُ الكافرون حقّاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ النساء/ ١٥٠ـ١٥١ .

٣ـ وقرر القرآن الكريم عقيدةَ البعث بعد الموت والحساب والجزاء يوم القيامة أوضح تقرير وأدقه ، فاليوم الآخر من مستوجبات العدل الإِلهي المطلق ، فلابد من التمييز بين المحسن والمسيء والصالح والطالح ، يقول تعالى :﴿أفنجْعَلُ المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيفَ تحكمون﴾ القلم/ ٣٥ـ٣٦ . ﴿أفنجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعلُ المتّقين كالفُجّار﴾ ص/ ٢٨ .

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاتُرْجعون . فتعالَى اللهُ الملِكُ الحقّ لاإلهَ إلا هو ربُّ العرش الكريم﴾ المؤمنون/ ١١٥-١١٦ .

ولما كان البعث بعد الموت من الأمور الغيبية التي لاتدرك آثارها فقد أكثر القرآن الكريم من ضرب الأمثال والحجج العقلية والقياس على الأمور المشاهدة المحسوسة .

يقول تعالى :﴿وقالوا أإذا كنّا عظاما ورُفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونوا حجارةً أو حديداً أو خلقاً مما يكبُرُ في صدوركم ، فيسقولُون من يُعيدُنا؟ قلِ الذي فطركُمْ أوّلَ مرة ، فسينُغِضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو؟ قل عَسى أن يكون قريباً . يومَ يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ الإِسراء/ ٤٩-٥٣ .

وقال تعالى : ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خَلْقَهُ قال من يحي العظام وهي رميم . قل يُحْييهَا الذي أنشأها أوّلَ مرةٍ وهو بكل خلق عليم ، الذي جَعَلَ لكُمْ من الشجرِ الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أوَليس الذي خلق السماواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يَخْلُقَ مثلَهم ، بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمْرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

فسبحان الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيء وإليه تُرجعون﴾ يس/٧٨-٨٣ .

وقال تعالى : ﴿ومن آياته أنكَ ترى الأرضَ خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّتْ وربَتْ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنّه على كلّ شيءٍ قدير﴾ فُصِّلت/٣٩ .

إن الإيمان بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء عنصر مهم في تقويم سلوك الإنسان في الحياة الدنيا ودفعه نحو الكمالات النفسية والتحلّي بالفضائل والابتعاد عن الرذائل ، كما أنه عزاء لأهل الخير والصلاح إن فاتتهم سرّاء أو أصابهم الضر في الحياة الدنيا .

لذا نجد القرآن الكريم يصف منكري البعث بالخسران :

قال تعالى :﴿ قد خَسِرَ الذين كذبوا بلقاءِ الله حتى إذا جاءَتْهُمُ الساعةُ بغتةً قالوا ياحَسْرَتَنَا على مافَرّطنا فيها وهم يحملون أوزارَهُم على ظهورهم ألا ساء مايَزِرون . ومالحياةُ الدنيا إلا لَعِبٌ ولهْوٌ ، وللدّارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتّقون أفلا تَعقلون﴾ الأنعام/ ٣١-٣٢ .

ولقد خسر الكافرون بالبعث عقولهم وأفهامهم إذ فهموا ـ خطأً أن لا حكمة من خلقهم . وخسروا العزاء إذا شقوا في الحياة الدنيا . وخسروا ماأعده الله لأوليائه المؤمنين يوم القيامة .

هذه أسس العقيدة الإسلامية : الألوهية ـ الرسالة ـ المعاد ، وقد فصّلها القرآن الكريم أوضحَ تفصيلٍ وأبلغِهِ ، ولم يدع مجالاً من مجالاتها إلا وقرّره أحكم تقرير .

ولكل من هذه القضايا مستلزَمات ومقوِّمات عرضها القرآن الكريم أيضاً فمن مقتضيات الإيمان بالألوهية : الإيمان بأسماء الله وصفاته ومايجب لله سبحانه وتعالى من صفات الكمال المطلق وتنزيهه عن صفات النقص .

والرسالة تستلزم الإيمان بالكتب التي تضمّنت الرسالات وبالأشخاص الذين حملوها ، ومايجب توفُّره فيهم من صدق وأمانة وفطانة وعصمة ، كما تستلزم الرسالة الإيمان بالملائكة الذين هم السفراء بين عالم الغيب والشهادة الأمناء على تنفيذ حكم الله في خلقه .

والإيمان بالمعاد يستلزم الإيمان بمار ورد في هذا اليوم من موقف ومحشر وميزان وصراطٍ وجنة ونار ، وماأعد لأهل الجنة من نعيم ومايلقاه أهل النار في الجحيم .

وقد تناول القرآن كل ذلك تفصيلاً ، فكانت العقيدة الإسلامية الراسخة النقية

الصافية الجلية المشرقة من غير تعقيد أو غموض ، أو حيرة واضطراب ﴿آمن الرسولُ بما أُنزل إليه من ربِّهِ والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ باللهِ وملائكته وكتبهِ ورسلهِ لانفرّقُ بين أحدٍ من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانَكَ ربَّنا وإليك المصير﴾ البقرة/ ٢٨٥ .

ثانياً : في الشريعة :

لقد أرسى القرآن الكريم دعائم المجتمع الإسلامي على أسس متينة وشرع له من التشريعات المستمدة من العقيدة الراسخة مايوفر له السعادة والطمأنينة ويسمو به نحو الكمال البشري . وتمتزج هذه التشريعات بالعقيدة امتزاج الروح بالجسد ، ويمكن تلمس هذه النتائج العظيمة من خلال التطبيق الجاد المخلص لأحكامه ، وأحداث التاريخ التي ملئت بها بطون الكتب من سِيَرِ السلف الصالح خير شاهد على مدى نجاح هذه التشريعات في توفير السعادة والطمأنينة والرفاه .

أسس التشريعات في القرآن الكريم :

وفيمايلي إشارة سريعة إلى جملة من هذه الأسس والتشريعات التي تضمَّنها القرآن الكريم :

١ـ الرابطة بين أفراد المجتمع الإسلامي رابطة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين :

إن الأساس الذي يُبنى عليه هيكل المجتمع الإسلامي هو أن رابطة العقيدة هي التي تشكل الآصرة التي تربط الأفراد في المجتمع ، وليس للرابطة الوطنية أو القومية أو القبلية أو الجنس أو اللون أيُّ أثر في المجتمع الإسلامي . وارتباط المسلم بالوطن والقوم بمقدار ارتباط هذا الوطنِ وأهله بالإسلام ، فولاء المسلم لعقيدته أولاً وآخراً ، لذا نجد القرآن الكريم ندّد بمن آثر الوطن والمسكن والأهل والأقارب على العقيدة ، وامتدح الذين ضحّوا بكل ذلك في سبيل عقيدتهم ، يقول تعالى : ﴿لاتَجِدُ قوماً يؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ يوادُّون مَنْ حادّ اللهَ ورسولَهُ ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم ، أولئك كَتَبَ في قلوبهمُ الإيمانَ وأيَّدهم بروحٍ منه ويُدْخِلُهُمْ جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها رضي الله عنهم ورَضُوا عنه . أولئك حزبُ الله ألا إنّ حزبَ الله هم المفلحون﴾ المجادلة/ ٢٢ .

وقال تعالى : ﴿ ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفُسَكُمْ أوِ اخرُجُوا من دياركم مافعلوه إلا قليلٌ منهم ، ولو أنهم فعلوا مايُوعَظُون به لكان خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً﴾ النساء/ ٦٦ .

وقد تضمّن القرآنُ الكريم من أحكام العبادات والمعاملات والحدود والقصاص مايُقوّي أواصر الجماعة ويثبّت روح التعاون والتعاضد بين أفرادها ويعوّدهم على النظام والطاعة والانقياد للقيادة المؤمنة العليا في المجتمع الإسلامي ، ويتجلّى ذلك في تشريعات الصلاة والزكاة والصوم والحج . . .

ففي الصلاة تربية الفرد على النظام وتلقّي الأوامر من الرئيس المباشر (الإمام) . ولعل هذا المعنى أثّر في نفس عدو الله رستم في القادسية عندما كان يراقب الجيش الإسلامي وهو يؤدي صلاة الجماعة صفوفاً خلف الإمام حيث قال :(لقد مزّق عمر كبدي ، يُعلِّم الأعراب النظام) .

وفي الزكاة قضاء على الحقد والبغضاء بين الطبقات وإشعار بتكافل المسلمين وتضامنهم .

وفي الصوم إشعار بوحدة الأمة وتعويدٌ لها على الصبر وقوة الإرادة وتنمية مراقبة الله تعالى في السر والعلن .

وفي الحج إبراز المساواة بين الناس وتذكيرهم بالموقف الأكبر وإظهار للمساواة بين المسلمين ، ووحدة أمتهم الإسلامية على اختلاف ألوانها وأجناسها وتحقيقٌ لقوله تعالى :﴿إنّ هذه أمّتُكُمْ أمّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاعبدون﴾ الأنبياء/ ٩٢ .

إلى جانب تقوية صلة الفرد بالله سبحانه وتعالى وتزكية روحه والتسامي على الأهواء والنزوات المنحطة .

٢ـ قرر القرآن الكريم من التشريعات التفصيلية للفرد والمجتمع مايقطع دابر الشقاق والخلاف بين المسلمين ، وإن وقع شيء من ذلك ضيّق هُوّة النزاع بين المتخاصمين للحيلولة دون انتشاره واستمراره .

فمن أجل ذلك جاءت التشريعات لصيانة دماء الناس فيما بينهم فشرع القصاص في النفس والأعضاء بقوله تعالى :

﴿ياأيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكُمُ القِصاصُ في القتلى الحرُّ بالحرِّ والعبدُ بالعبدِ والأنثى بالأنثى فمن عُفي له من أخيه شيء فاتّباعٌ بالمعروفِ وأداءٌ إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة . فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ البقرة/ ١٧٨ .

﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفسِ والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنفِ والأُذُنَ بالأُذُنِ والسنَّ بالسنِّ والجروحَ قِصاص ، فمن تصدَّقَ به فهو كفّارةٌ له ، ومن لم يحكُمْ بما

أنزل اللهُ فأولئك هم الظالمون﴾ المائدة/ ٤٥ .

وشرع من الأحكام ماصان أعراض الناس وحذر من انتهاكها ولم يبحها إلا بعقد الزوجية أو مُلك اليمين ، يقول تعالى : ﴿الزانيةُ والزاني فاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جلدة ولاتأخُذْكم بهما رحمةٌ في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين . الزاني لاينكح إلا زانيةً أو مشركة ، والزانية لاينكِحُها إلا زانٍ أو مشرك ، وحُرِّم ذلك على المؤمنين﴾ النور/ ٢-٣ .

كما سَنَّ القرآن الكريم من التشريعات مايحفظ أموال الناس ويمنع الاستيلاء عليها عن طريق الغش والخداع والنصب والإكراه وحِيلَ الربا وأنواع الاستغلال الحرام ، يقول تعالى : ﴿ولاتأكلوا أموالَكُم بينكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقاً من أموالِ الناسِ بالإِثم وأنتم تعلمون﴾ البقرة/ ١٨٨ .

وأبدل بذلك إباحة البيع والشراء فقال تعالى : ﴿ وأحَلَّ اللهُ البيعَ وحرَّمَ الربا﴾ البقرة/ ٢٧٥ . وفرض الزكاة وحثّ على الصدقات المطلقة توسيعاً لقاعدة التداول المالي وقال تعالى : ﴿إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلَّفَةِ قلوبُهُمْ وفي الرِّقابِ والغارمينَ وفي سبيلِ اللهِ وابنِ السبيلِ فريضةً مِنَ اللهِ واللهُ عليمٌ حكيم﴾ التوبة/ ٦٠ .

وحرم كنز المال ومنعه عن أصحاب الحقوق والمحتاجين فقال تعالى ﴿والذين يكْنِزُون الذهبَ والفضةَ ولايُنفقونها في سبيلِ اللهِ فبَشِّرْهم بعذابٍ أليم . يومَ يُحْمى عليها في نارِ جهنَّمَ فتُكْوىَ بها جباهُهُمْ وجُنوبُهُمْ وظهورُهم هذا ما كنزتُم لأنفسِكم فذوقُوا ماكنتُمْ تكنزون﴾ التوبة/ ٣٤-٣٥ .

ووعد المنفقين في سبيل الله بالمضاعفة في الدنيا والمثوبة العظيمة في الآخرة فقال جلّ مِنْ قائلٍ : ﴿من ذا الذي يُقرِضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعِفَهُ له أضعافاً كثيرةً ، واللهُ يَقْبِضُ ويَبْسُطُ وإليه تُرْجعون﴾ البقرة/ ٢٤٥ .

وقال ﴿مَثَلُ الذين يُنْفِقُون أموالَهم في سبيلِ الله كَمَثَلِ حبَّةٍ أَنبتتْ سبعَ سنابِلَ ، في كل سُنْبُلةٍ مائةُ حبةٍ واللهُ يُضَاعِفُ لمنْ يشاءُ واللهُ واسعٌ عليم﴾ البقرة/ ٢٦٣ .

كل ذلك لمنع تجميع المال في أيدي قليلة تعيش طفيلية على جهد العاملين وكدحهم﴿كي لايكونَ دُوْلةً بينَ الأغنياءِ منكم﴾ الحشر/ ٧ .

٣ـ الأسرة ومكانتها في القرآن :

أَوْلى القرآن الكريم الأسرة اهتماماً كبيراً باعتبارها اللبنة الأولى من لبنات الأمة ، ومن البدهي أن البناء يستمد قوته من قوة لبناته وضعفه من ضعفها ، فكلما كانت الأسرة قوية متماسكة ذات مناعة تجاه الأوبئة الخلقية والانحرافات الاجتماعية بُني صرح الأمة قوياً منيعاً وإذا كانت الأسرة ضعيفة منحلَّة كان انحلال الأمة وتفسّخُها نتيجة طبيعية لذلك . لذا لم يترك القرآن الكريم جانباً من شؤونها إلا وتوجَّهَ له بالتوجيه والتسديد :

أ ـ جعل القرآن الكريم الزواج أصل نشوء الأسرة ومن هنا أخذ الزواج نفس العناية التي أخذتها الأسرة وأسبغ عليه نفس القدسية والجلال ، يقول تعالى : ﴿والله جَعَلَ من أنفسِكم أزواجاً وجَعَلَ لكم من أزواجِكم بنينَ وحفدةً ، ورزقكم من الطيّباتِ ، أفبالباطلِ يُؤمنونَ وبنعمةِ اللهِ هُم يكفرون﴾ النحل/ ٧٢ .

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسِكم أزواجاً لتسكنُوا إليها وجَعَلَ بينَكم مودةً ورحمةً إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون﴾ الروم/ ٢١ .

﴿ وإن أردتُمْ استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتُمْ إحداهُنْ قنطاراً فلاتأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بُهتاناً وإثماً مُبيناً ، وكيفَ تأخذونه وقد أفضىَ بعضُكُم إلى بعضٍ وأخذنَ منكُمْ ميثاقاً غليظاً﴾ النساء/ ٢٠-٢١ .

ب ـ ولما كان للزواج هذه الأهمية فقد عُني القرآن الكريم بجملة من الوسائل التي من شأنها إذا روعيت أن تقوي الحياة الزوجية وتدعم استمرارها ، وتحول بين تدهورها وانحلالها .

من هذه الوسائل مايجب مراعاته في الزواج منذ اللحظة الأولى ، لحظة التفكير فيه والتوجه إليه والعزم عليه ، ومنها مايجب مراعاته بعد أن يتم عقد الزواج وتسير الحياة الزوجية في طريقها ، ومنها مايجب مراعاته حين الشعور بمبدأ الزعزعة والاضطراب فترجع النفوس عن غيها وتقف في جانب المحافظة ودوام الاتصال بدلاً من الاندفاع في الغضب والانحلال .

أما إذا لم تتسع ساحة الدار للشقاق والخلاف بين الزوجين فقد أمر الله بعرض النزاع على المهتمِّين بشؤون الزوجين من القرابة لإيجاد الحل الذي يحفظ على الزوجين وُدَّهما ويعيد المياه إلى مجاريها .

وإن كانت الأخرى فلكي يمضي كلٌ في سبيله وقد عرف ماله وماعليه فلاضيم ولاظلم . . .

وهكذا لو تتبعنا المسيرة القرآنية مع الأسرة لطال بنا المسير ونحن نستعرض التشريعات الحكيمة في حالات الوفاق والاستمرار ، وفي حالات الطلاق والانفصال ، وفي حال الحياة وبعد الممات .

٤ـ الدولة والحكومة في القرآن :

ومن الموضوعات اللافتة للنظر في القرآن الكريم تشريعاته المتعلقة بشؤون السلطة والسياسة الداخلية والخارجية للدولة الإسلامية في السلم والحرب ، لقد أقام الإسلام دولة لم يشهد لها مثيلاً تحققت فيها كل مقومات السعادة والأمن والعدل وكل مظاهر القوة والعظمة والمجد . وذلك نتيجة تطبيق أحكام القرآن الكريم ، فالدولة تستمد عظمتها ومجدها من المبادىء التي تحملها إلى الإنسانية وتسهر على تطبيقها بنزاهة وعدالة . ونشير إلى جملة من هذه المبادىء الأساسية التي قامت عليها الدولة الإسلامية :

أـ الشورى :

لقد قرن القرآن الكريم بين الشورى وبين عناصر الشخصية المؤمنة مثل الصلاة والزكاة فهي من المقوّمات الأساسية في تكوين شخصيته أيضاً .

يقول تعالى :﴿والذين يَجْتَنِبونَ كبائِرَ الإثم والفواحشَ وإذا ماغَضِبوا هم يَغْفِرون ، والذين استجابوا لربِّهم واقامُوا الصلاةَ وأمرُهُم شُورى بينهم وممّا رزقناهم يُنفقون ، والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ الشورى/٣٦-٣٩ .

ولم يحدد القرآن الكريم طريقة المشورة ووسيلتها توسعةً ورحمةً لأن الوسيلة قد تختلف من جيل إلى جيل ، إلا أن السوابق الدستورية في عصر رسول الله ﷺ والخلافة الراشدة تبين أنهم كانوا يوسعون من أبعادها بقدر الإمكان ، حتى تشمل فئات المسلمين وطبقاتهم ، وأهل الاختصاص والرأي فيهم ، وإذا ماانتهت الشورى إلى رأي أو قرار وأجمع أهل الحل والعقد على أمر وجب على جميع المسلمين طاعتهم .

ب ـ العدل المطلق بين الرعية :

فلاوجود في الدولة الإسلامية للمتنفذين الذين يتسطلون على حقوق الضعفاء ، بل الناس سواسية ، الحاكم والمحكوم ، القوي والضعيف ، الصغير والكبير ، أمام القضاء

والحكم . ومن هنا كان إقامة العدل بين الناس من أوليات الدعوة الإلهية ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿فلذلك فادْعُ واستقِمْ كما أمرتَ ولاتتَّبِعْ أهواءهم وقلْ آمنتُ بما أنزلَ اللهُ من كتابٍ وأُمرتُ لأعْدِلَ بينَكم ، اللهُ ربُّنا وربُّكم ، لنا أعمالُنَا ولكم أعمالُكُم ، لاحُجّةَ بيننا وبينَكم ، اللهُ يجمعُ بينَنَا وإليهِ المصير﴾ الشورى/ ١٥ .

ويبيِّن القرآن الكريم أن العدل في كل الظروف وحيال جميع المواقف وتجاه كل إنسان يجب أن يطبق سواء كانوا من الأقرباء أو البعداء ، وسواء كانوا من الأصدقاء أو الأعداء ، من المحبين أو المبغضين .

يقول تعالى : ﴿إن اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى وينهَى عن الفحشاء والمنكرِ والبغي يعِظُكُمْ لعلكُم تذكَّرون﴾ النحل/ ٩٠ . ﴿ياأيها الذين آمنوا كُونُوا قوّامين بالقِسْطِ شهداءَ لله ولو على أنفسِكم أو الوالدَيْنَ والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فاللهُ أولى بهما ، فلاتتبعوا الهوى أن تعدِلوًا وإن تَلْوُوا أو تُعْرِضوا فإنّ اللهَ كان بما تعملون خبيراً﴾ النساء/ ١٣٥ .

فلاتفرقة بين الأشخاص في تحقيق العدالة ، وإذا حوبي القريب المحب على حساب العدالة ، وأُبغض البعيد وظُلم بسبب العداوة أو الجنس أو اللون اضطرب شأن الدولة واختلت المعايير والقيم فيها فقوّض أركانها . ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين للهِ شهداءَ بالقِسْطِ ولايجرمنَّكُمْ شنآنُ قومٍ على أن لاتعدِلُوا ، اعدِلُوا هو أقربُ للتقوى ، واتقُوا اللهَ إنّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون﴾ المائدة/ ٨ .

جـ ـ التكافل الاجتماعي : يبيِّن القرآن الكريم أهمية التكافل الاجتماعي في بناء الدولة الإسلامية إذ أن شعور أفراد الأمة الإسلامية بمسؤوليتهم جميعاً عن تصرفات الأفراد ، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول على أخيه ، فيسأل عن نفسه ويسأل عن غيره .

وهذا قانون من قوانين الاجتماع الراقي ، ومن المقوِّمات التي توفر الحياة السعيدة الكريمة للأمة وتوفر لها المناخ الملائم لأداء دورها في الحياة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى شُعبتي التكافل الاجتماعي ودعا إلى القيام بهما :

أما الشعبة الأولى فهي الجانب الأدبي في التكافل . وهي تبرز تكافل المسلمين وتعاونهم على إحقاق الخير وتأييده ونصرته وكسر شوكة الباطل واجتثاث جذوره والقضاء عليه . إنه دعامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول تعالى : ﴿والمؤمنون

والمؤمناتُ بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ يأمرونَ بالمعروفِ وينهَوْن عن المنكرِ ويُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتُونَ الزكاةَ ويُطيعونَ اللهَ ورسولَهُ أولئك سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ، إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم﴾ التوبة/ ٧١ .

إن سنّة الله في المجتمعات هي أن أفراد المجتمع إن لم يسندوا أولي الأمر في محاربة الباطل ، وإقامة العدل ، والأخذ على يد الظلمة والفسقة ، إن لم يقوموا بما كلفهم الله به استشرى الباطل وعجز السلطان عن تنفيذ الأحكام فكان مصير الأمة الدمار والخراب ﴿فلولا كان من القرونِ من قَبْلِكُمْ أولو بقيةٍ ينهَوْن عن الفسادِ في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتّبع الذين ظلموا ماأترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾ هود/ ١١٦ .

وأما الشعبة الثانية في التكافل الاجتماعي فشعبة مادية . وسبيلها على مستوى الفرد في الجماعة الإسلامية هو أن يمد يد المعونة في حاجة المحتاج وإغاثة الملهوف وتفريج كربة المكروب وتأمين الخائف وإطعام الجائع . وقد حثّ القرآن الكريم على هذا التعاون المادي واستنهض الهمم فيه ، يقول جلّ جلاله :﴿ليس البرَّ أنْ تُوَلُّوا وجوهَكُم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولكنّ البرَّ من آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيِّنَ وآتى المالَ على حُبِّهِ ذوي القُربى واليتامىَ والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقابِ ، وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفُون بعهدهم إذا عاهدُوا والصابرين في البأساءِ والضرّاءِ وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ البقرة/ ١٧٧ .

وعلى نطاق الدولة فمهمتها كفالة المجتمع الإسلامي بأسره وتوفير الحاجيات الأساسية من مطعم وملبس ومأكل ، وقد جاء ذلك صريحاً في سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين . يقول عليه الصلاة والسلام :«أنا أَوْلى بالمؤمنين من أنفسِهم ، فمَنْ ماتَ وعليه دَيْنٌ ولم يترك وفاءً فعليَّ قضاؤُهُ ، ومن تركَ مالاً فلورثته» وفي رَواية :«من تَرَكَ دَيْناً أو ضِياعاً فليأتِني فأنا مَوْلاه»رواه مسلم من حديث أبي هريرة[١] .

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :(ولم يبق أحد من المسلمين إلا وله في هذا المال حق ، إلا ماتملكون من رقيقكم ، فإن أَعِشْ إن شاء الله لم يبق أحد من المسلمين إلا سيأتيه حقه ، حتى الراعي بسر وحمير يأتيه ولم يعرق فيه جبينه) تفسير ابن كثير[٢] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفرائض جـ٥ ص٦٢ . الضّياع بكسر الضاد وجمع ضَائع .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٣٤٠ ،ورواه النسائي بلفظ قريب في كتاب قسم الفيء جـ٧ص١٣٧

٥ـ الأسس التي بُنِيَتْ عليها علاقات الدولة الإسلامية بغيرها :

ذكر القرآن الكريم المبادىء التي يحدد المسلمون بموجبها علاقتهم بغيرهم . والنظرة القرآنية إلى هذه العلاقات متمشية مع مبادئه السامية في نظرته إلى الكون والإنسان عامة . فمن سنن الله في المجتمعات الإنسانية سنة التدافع ، فالحق لابد له من قوة تسند مسيرته ، وإلا تغلّب عليه الباطل وأهله ﴿ولولا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدتِ الأرضُ ولكنَّ اللهَ ذو فضلٍ على العالمين﴾ البقرة/ ٢٥١ .

لذا كانت نظرة القرآن الكريم إلى الإنسانية أنها مأمورة بالسير في الكون على منهج خالق الكون . فإذا اضطرب أمرها واندثرت معالم الحق منها كانت مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام بيانه لها ، فإن صممت على السير في متاهات الحياة على غير بصيرة اقتضت مصلحتها أن تعاد إلى الطريق السويّ بالقوة .

فالنظرة الإسلامية إلى الإنسان نظرة شفقة وعطف ورحمة ، والمسلمون حين يدعون الناس إلى الإسلام إنما يريدون لهم الخير والفلاح ، فإن أصر الناس على معاندة الحق وتنكّب طريق الفلاح كانت النظرة الإسلامية العلاجية لمثل هذه الحالات إعلان الجهاد في سبيل إحقاق الحق وإزالة العقبات أمام الدعوة والدعاة ورفع الظلم والاضطهاد عن المستضعفين . وإلى هذه الغايات تشير الآية الكريمة ﴿أُذن للذين يُقاتَلون بأنّهم ظُلِمُوا وإنّ اللهَ على نصرهِم لقديرٌ ، الذين أُخرِجُوا من ديارهِم بغيرِ حقٍّ إلا أنْ يقولوا ربُّنا اللهُ ، ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ من يَنْصُرُه ، إنّ اللهَ لقويٌ عزيزٌ﴾ الحج/ ٤٠ .

والناس أمام دعوة الحق فئات . وقد أشار القرآن إلى الموقف الذي ينبغي اتخاذه تجاه كل فئة .

١ـ فمنهم الذين يقفون في وجه دعوة الحق موقف العداء . ويحاولون الاعتداء على بَيْضة الإسلام في أرض المسلمين ، أو يمنعون الدعاة من إبلاغ الدعوة إلى الشعوب بالاعتداء عليهم وإخراجهم من أرض الله ، أو يفتنون المسلمين من سكان بلادهم عن دينهم بمنعهم من إقامة شعائر دينهم ، فهؤلاء المحاربون الذين حثّ القرآن على قتالهم بكل وسائله وطرقه بالهجوم على مآمنهم والقصد إلى مكامنهم . وفي ذلك يقول الله

سبحانه وتعالى : ﴿فإذا انسَلَخَ الأشهرُ الحُرُمُ فاقْتُلُوا المشركينَ حيثُ وجدتموهُمْ وخُذُوهم واحصرُوهم واقعدُوا لهم كلَّ مَرْصَدٍ ، فإن تابُوا وأقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ فخلُّوا سبيلَهم إنّ اللهَ غفورٌ رحيم﴾ التوبة/ ٥ .

ويقول تعالى : ﴿قاتِلوُا الذين لايؤمنونَ باللهِ ولاباليومِ الآخرِ ولا يحرّمونَ ماحرَّمَ اللهُ ورسولُهُ ولايَدينونَ دينَ الحقِّ من الذين أُوتوا الكتابَ حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صَاغِرُون﴾ التوبة/ ٢٩ .

إلا أنّ الجهاد الإسلامي لايتجاوز معسكر الحكام والجيوش ، أما العلاقة بين المسلمين والشعوب فتبقى علاقة ودّ وعطف ورغبة في الهداية ، يقول تعالى : ﴿لاينهاكُمُ اللهُ عن الذين لم يُقاتِلوُكم في الدِّينِ ولم يُخرِجُوكم من ديارِكُمْ أن تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إليهم إنّ اللهَ يُحبُّ المقسطين . إنّما ينهاكُمُ اللهُ عن الّذين قاتَلوُكم في الدِّينِ وأخرجُوكم من ديارِكم وظاهرُوا على إخراجِكم أن تَوَلَّوْهُمْ ومَنْ يَتَوَلَّهُم فأولئك هم الظالمون﴾ الممتحنة/ ٨-٩ .

ويرغّب القرآن الكريم في إنهاء القتال إن مال الأعداء إلى السّلْم مالم تظهر منهم أمارات الخذيعة والمكر ﴿وإنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فاجنحْ لها وتوكَّلْ على اللهِ إنّه هو السّميعُ العليم . وإن يُريدوا أن يخدعوكَ فإنّ حَسْبَكَ اللهُ ، هو الذي أيّدَكَ بنصرهِ وبالمؤمنين وألَّف بين قلوبِهم لو أنفقتَ مافي الأرضِ جميعاً ما ألّفْتَ بين قلوبِهم ولكنّ اللهَ ألّفَ بينَهم إنّه عزيزٌ حكيم﴾ الأنفال/ ٦١-٦٣ .

٢ـ والفئة الثانية أهل الميثاق :

وتمشياً مع شرعة القرآن في جعل الجهاد علاجاً لحالات لم تنفع فيها الحكمة والموعظة الحسنة فقد سنّ للمسلمين حق إنشاء معاهدات ومواثيق بينهم وبين غيرهم بدءاً وبعد حرب ، وأمر بالوقوف عند هذه المواثيق بقطع النظر عن أيّ اعتبار ماداموا لاينقضون منها شيئاً ولايُظاهرون على المسلمين أحداً ، يقول تعالى : ﴿وأوفوُا بالعهدِ إنّ العهدَ كانَ مسؤولاً﴾ الإسراء / ٣٤ ـ ويقول: (وأوفوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتُم ولا تنقضوا الأيمانَ بعدَ توكيدها وقد جعلتُمُ اللهَ عليكم كفيلاً إنّ اللهَ يعلَمُ ماتفعلون﴾ النحل/ ٩١ .

إلا أن مراعاة المواثيق والعهود لاتجعلنا في غفلة عن حال العدو ، فنحن ملتزمون بمضمون المعاهدة إذا حافظ عليه الطرف الآخر ولم تبد من جانبه نية الخيانة ولم يُخِلَّ

بشيء من التزاماته ، ولم يظاهر علينا عدواً بالمال أو السلاح أو الرأي والتدبير . فإن بدر منه ماينقض مضمون المعاهدة كان لنا أن نعامله بالمثل ، وبذلك تفقد المعاهدة حرمتها ونكون في حِلٍّ من التزاماتها ، ولكن القرآن أوجب عندئذ إعلام الطرف الآخر بنبذ المعاهدة ولايسمح بالمباغتة إلا بعد وصول نبأ النبذ إليهم ، يقول تعالى :﴿وإمّا تخافنّ من قومٍ خيانةً فانبِذْ إليهم على سواءٍ إنّ اللهَ لايُحبُّ الخائنين﴾ الأنفال/ ٥٨ .

٣ـ والفئة الثالثة هم فئة المسالمين (المحايدين) :

وهم الذين يعتزلون قتال المسلمين ويكفّون أيديهم وألسنتهم ولايظاهرون عليهم عدواً ، وهم الذين لايريدون أن يكونوا مع المؤمنين على قومهم ، ولامع قومهم على المؤمنين . فهؤلاء لايُقاتلون ماالتزموا الحياد في مكانهم بعيدين عن المحاربين . يقول تعالى في شأن هؤلاء :﴿ . . . إلاّ الذين يَصِلُون إلى قومٍ بيْنَكُمْ وبينهم ميثاقٌ أو جاؤكم حَصِرَتْ صدورُهُمْ أن يُقاتِلُوكم أو يُقاتِلُوا قومَهُم ، ولو شاءَ اللهُ لَسَلَّطهم عليكم فَلَقَاتلوُكم ، فإنِ اعتزلُوكم فلم يقاتلوُكم وألْقَوْا إليكُمُ السَّلَمَ فما جعلَ اللهُ لكم عليهم سبيلاً﴾ النساء/ ٩٠ .

وهكذا تتضح لنا معالم هدايات القرآن الكريم في تنظيم شؤون الحياة كلها صافية نقية توفّر السعادة للفرد والأمن والاستقرار للمجتمع وتحفظ للأمة كيانها وهيبتها ومركزها بين الأمم .

وإذا كان المعيار الذي يُعرف به عظمة التشريعات وصلاحها وشمولها ودقتها هو الأثر الذي تتركه في المجتمعات ومدى توفير السعادة والطمأنينة للشعوب فإن أثر تطبيق الشرائع الإسلامية ظاهرة للعيان في مختلف العصور الإِسلامية وفي سائر أقطار المسلمين .

فسعادة المسلمين ورقيهم وتقدمهم مرتبطة بالتمسك بشرائع الإِسلام وهم قوم أعزهم الله بالإِسلام فمهما ابتغَوْا العزة في غيره أذلهم الله .

ثالثاً : في الأخلاق :

لقد أولى القرآن الكريم الأخلاق أهمية كبيرة ، وحث على التمسك بفضائلها بمختلف الأساليب ، وحذّر من ارتكاب مرذولها بشتى الطرق . ونظرة القرآن إلى الأخلاق منبثقة أيضاً من نظرته إلى الكون والحياة والإنسان . وإذا كانت العقائد تشكّل أركان الصرح الإِسلامي فإن التشريعات تكون تقسيمات حجراته وممراته ومداخله ،

والأخلاق تُضفي البهاء والرونق والجمال على الصرح المكتمل ، وتصبغه الصبغة الربانية المتميزة .

وإذا كانت العقيدة الإسلامية تشكّل جذور الدوحة الإسلامية وجذعها فإن الشريعة تمثل أغصانها وتشعباتها ، والأخلاق تكون ثمارها اليانعة وظلالها الوارفة ومنظرها البهيج النضر :

﴿ألم ترَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلاً كلمةً طيّبةً كشجرةٍ طيّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السّماءِ ، تُؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ، ويضربُ اللهُ الأمثالَ للنّاسِ لعلّهم يتذكّرون﴾ إبراهيم/ ٢٤-٢٥ .

لقد عرضت آيات القرآن الكريم الدعوة إلى التحلّي بالأخلاق الفاضلة من خلال الالتزام بالعقيدة الإسلامية ومن خلال الأوامر الربانية ، لأن الله الذي خلق الإنسان وأودع فيه الفطرة المستقيمة أودع فيه أيضاً العواطف والمشاعر والغرائز والحاجات ووضح المنهج الأمثل الذي يحافظ على استقامة الفطرة ، ويسمو بها نوازع الخير ، ويحدّ من أهواء النفس والشهوات ويهذّب الغرائز ويسمو بها ويوجّهها إلى الكمالات الإنسانية . ﴿إن ربّك واسعُ المغفرةِ هو أعلمُ بكم إذْ أنشأكُمْ مِنَ الأرضِ وإذْ أنتم أجِنّةٌ في بطونِ أمهاتِكم فلاتُزكّوا أنفُسَكم هو أعلمُ بِمَنِ اتّقى﴾ النجم/ ٣٢ .

ولقد تنوّعت الأساليب القرآنية في عرض الأخلاق والحثّ على التحلّي بها فكثيراً مايكرّر القرآن الكريم خلقاً من الأخلاق أو صفة مستمدة منه ويستعملها استعمالات شتّى . وماذاك إلا بهدف ملء أسماع المؤمنين من هذه الصفة ، فإذا ماسيطرت عليهم استشعروا في أنفسهم واتصفوا بها في سلوكهم ونفروا من ضدها ، وهذا أسلوب من الأساليب التربوية الرفيعة .

خذ مثلاً على ذلك خُلُقُ (العِزّة) ، فقد كررّ القرآن الكريم وصف ذات الله القدسية بصفة العزيز مايقرب من تسعين مرة .

ووصف به الرسول والمؤمنين في قوله تعالى :﴿ولله العزةُ ولرسولِهِ وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لايعلمون﴾ المنافقون/ ٨ .

وقال تارة أخرى عن عباد الله الذين يُحِبّهم ويُحِبُّونه :﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين﴾ المائدة/ ٥٤ .

وتارة يحصرها في الخالق سبحانه يهبها لمن يشاء : ﴿قُلِ اللهمَّ مالكَ المُلكِ تُؤتي

المُلْكَ من تشاءُ وتَنْزِعُ المُلْكَ ممّن تشاءُ وتُعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء ، بيدِكَ الخَيْرُ إنكَ على كل شيء قدير﴾ آل عمران/ ٢٦ .

وفيما يلي جملة من هذه الأساليب من خلال آيات الذكر الحكيم :

أ- تعرض كثير من الآيات الكريمة أمهات الأخلاق الفاضلة وتدعو إلى التمسك بها لأنها أمر إلهيّ ، وفي التمسك بها فلاح البشرية وسعادتها والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى . وبالنص على هذه الأمور العامة وكأن الهدايات القرآنية ترسم الخطوط العريضة في خارطة السلوك البشري ومايبنغي أن يكون الحال عليه .

فنقرأ مثلاً قوله تعالى :

﴿إنّ اللهَ يأمُرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبى ويَنْهى عن الفحشاء والمنكرِ والبَغْي ، يَعِظُكُمْ لعلَّكُم تَذَكَّرون ، وأَوْفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ ولاتَنْقُضوا الأيْمانَ بعدَ توكيدِها وقدْ جعلتُمُ اللهَ عليكُمْ كفيلاً إنّ اللهَ يَعْلَمُ ماتفعلون﴾ النحل/ ٩٠-٩١ .

والبرّ والتقوى مرتبتان لايدركهما إلا من اتصف بصفات عظيمة وارتفع عن الشهوات وتسامى في العواطف والمشاعر ، وكانت منطلقاته في ذلك الإيمان الراسخ بالله واليوم الآخر ، يقول تعالى :﴿ليس البرَّ أن تُوَلُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولكنَّ البرَّ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخر والملائكةِ والكتابِ والنبيِّينَ وآتى المالَ على حُبِّهِ ذوي القُربى واليتامَى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقابِ وأقامَ الصّلاةَ وآتى الزكاةَ والمُوفُون بعهدِهِمْ إذا عاهدُوا والصّابرين في البأساءِ والضرّاءِ وحينَ البَأْسِ أولئكَ الّذينَ صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ البقرة/ ١٧٧ .

فالآية الكريمة جمعت أطراف البر ابتداء بالعقيدة إذ هي الأساس الذي يُبنى عليه غيره واستطراداً إلى التشريعات التي تكون الهيكل والقِوام وانتهاءً بالأخلاق والفضائل وهي المزايا الكريمة الراقية . يقول ابن عاشور :(فلله هذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلّام الحكيم ، وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئة عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال . فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفريدة ، لأنهما ينبثق عنهما سائر الفرديات المأمور بها ، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها ، والمواساة تقوى عنها الأخوة والاتحاد وتسدد مصالح للأمة كثيرة ، وببذل المال في الرقاب يتعزّز جانب الحرية المطلوبة للشارع حتى يصير الناس كلهم أحرارً ، والوفاء

بالعهد فيه فضيلة فردية وهيَ عنوان كمال النفس وفضيلة اجتماعية وهي ثقة الناس بعضهم ببعض ، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة ، ولذلك قال تعالى هنا : ﴿أولئك الذين صَدَقوا وأولئك هم المتقون﴾ فحصر فيهم الصدق والتقوى حصراً ادّعائياً للمبالغة)[1] .

فهذه الآية الفذة قد جمعت بين البرّ في العقيدة والبرّ في التشريعات والبرّ في الأخلاق ، وهي قوام التقوى والفلاح في الدارين ﴿ولو أنّ أهلَ القُرَى آمنُوا واتّقَوْا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرضِ . . .﴾ الأعراف/ ٩٦ .

﴿إنّ المتقين في جنّاتٍ ونَهَرٍ ، في مَقْعَدِ صِدْقٍ عندَ مليكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ القمر/ ٥٤ .

ب ـ وتارةً تعرض جملة من أمهات الأخلاق على شكل وصية وميثاق يؤخذ على المؤمنين وعليهم الالتزام به والقيام عليه والوفاء به . يقول تعالى :﴿ قل تعالَوْا أتْلُ ماحرَّمَ ربُّكم عليكم :ألا تُشْركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولاتقتلوا أولادَكم من إملاقٍ نحنُ نرزقُكُم وإيَّاهم ، ولاتقرَبُوا الفواحشَ ماظهرَ منها ومابطنَ ، ولاتقتلُوا النفسَ التي حرمَ اللهُ إلّا بالحقّ ذلك وصّاكم به لعلكم تعقلون ، ولاتقربُوا مالَ اليتيم إلّا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغَ أشدَّهُ وأوْفوا الكيلَ والميزانَ بالقِسْطِ لانُكَلِّفُ نفساً إلا وسعَها ، وإذا قُلْتُمْ فاعدِلُوا ولو كانَ ذَا قُرْبَى ، وبعهدِ اللهِ أوفُوا ، ذلكُم وصّاكم بهِ لعلكم تذكَّرُون . وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعُوهُ ولاتتبعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيلهِ ، ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون﴾ الأنعام/ ١٥١ـ١٥٣ .

جـ ـ وتأتي التوصية أحياناً على لسان أحد الأولياء المصطفَيْن وهو يمحِّض النصيحة لمن يحرص على نجاته ويعزّ عليه انحرافه وضلاله . وهذا ما نقرؤه في قوله تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه :

﴿وإذ قال لقمانُ لابنهِ وهو يعظُهُ يابنيَّ لاتُشْرِكْ باللهِ إنّ الشركَ لظلمٌ عظيم، ووصّينا الإنسانَ بوالديهِ حملتْهُ أمُّهُ وَهْناً على وَهْن، وفصالُهُ في عامينِ أنِ اشكُرْ لي ولوالديكَ إليَّ المصيرُ ، وإن جاهداكَ على أن تُشْرِكَ بي ماليسَ لكَ بهِ علمٌ فلاتُطِعْهما وصاحِبْهما في الدنيا معروفاً واتّبِع سبيلَ من أنابَ إليّ ثم إليّ مرجعُكم فأنبّئُكم بما كنتُم تعملون . يابُنَيّ إنها إنْ تكُ مثقالَ حبةٍ من خردلٍ فتكُنْ في صخرةٍ أو في السماواتِ أو في الأرضِ

(١) «تفسير التحرير والتنوير»٢/ ١٣٢ .

يأتِ بها اللهُ ، إنّ اللهَ لطيفٌ خبير . يابُنَي أقمِ الصلاةَ وأمُرْ بالمعروفِ وانْهَ عن المنكرِ واصبِرْ على ماأصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ، ولاتصعِّر خدَّكَ للنّاسِ ولاتمشِ في الأرضِ مَرَحاً إن اللهَ لايُحِبُّ كلَّ مختالٍ فخور . واقصِدْ في مشْيكَ واغضُضْ من صَوْتِكَ إنّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير﴾ لقمان/ ١٣-١٩ .

د ـ وتارة يأتي الحثّ على أمهات الأخلاق من خلال الثناء على طائفة ممتازة مختارة من عباد الله الذين نهجوا في حياتهم الدنيا نهجاً ربانياً استحقوا بذلك هذا الثناء في الدنيا ورضوان الله في الآخرة . وفي كل ذلك من الأساليب التربوية الرائعة عن طريق الإيحاء الشيء الكثير .

يقول تعالى : ﴿وعبادُ الرحمٰن الذين يمشُون على الأرضِ هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلُون قالوا سلاماً . والذين يَبِيتون لربِّهم سُجْداً وقياماً . والذين يقولون ربَّنا اصرِفْ عنّا عذابَ جهنّمَ إنّ عذابَها كان غراماً . إنّها ساءتْ مستقراً ومُقاماً . والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقترُوا وكانَ بينَ ذلك قَوَماً والذين لايَدْعُون معَ اللهِ إلهاً آخرَ ولايقتلون النفسَ التي حرّم اللهُ إلّا بالحقِّ ولايزنُونَ ومن يفعلْ ذلك يلق أثاماً ، يضاعَفْ له العذابُ يومَ القيامة ويخلُدْ فيه مُهاناً . إلّا من تابَ وآمنَ وعَمِلَ عَمَلاً صالحاً فأولئكَ يبدِّلُ اللهُ سيئاتِهِمْ حسناتٍ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً . ومَنْ تابَ وعَمِلَ صالحاً فإنّه يتوبُ إلى اللهِ متاباً . والذين لايشهدون الزُّورَ وإذا مرُّوا باللَّغوِ مرّوا كراماً . والذين إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمياناً . والذين يقولُون ربَّنا هَبْ لنا من أزواجِنَا وذرِّياتنا قُرَّةَ أعينٍ واجعلنا للمتقين إماماً . أولئك يُجْزَوْن الغُرْفَةَ بما صَبَرُوا ويُلَقَّوْن فيها تحيةً وسلاماً . خالدين فيها حَسُنتْ مستقَراً ومُقاماً . قلْ مايَعْبَؤُا بكم ربِّي لولَا دعاؤُكُم فقدْ كذَّبْتُم فسوفَ يكونُ لِزَاماً﴾ الفرقان/ ٦٣-٧٧ .

﴿قد أفلحَ المؤمنونَ . الذين هُم في صلاتِهم خاشعُون . والذينَ هُم عن اللَّغْوِ مُعْرِضُون . والذين هم للزكاةِ فاعلون . والذين هُم لفُرُوجهم حافظون . إلاَّ على أزواجِهِم أو ماملكَتْ أيْمانُهُم فإنّهُمْ غيرُ مَلُومين . فمن ابْتغى وراءَ ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدِهم راعون . والذين هُم على صلواتهم يُحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ المؤمنون/ ١-١١ .

هـ ـ هذا إلى جانب الحثّ على خلق معين عند وجود الدواعي لإفراده بالذكر أو المناسبة المقتضية للنهي عن ضده أو التنفير عن خلق ذميم .

ـ فالحث على التقوى والصدق نجده في قوله تعالى :

﴿ياأيها الذينَ آمنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا معَ الصادقين﴾ التوبة/ ١١٩ .

وذلك في تعقيب رائع على قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا والتزموا الصدق في موقفهم فأكرمهم الله بقبول توبتهم وخلود ذكرهم ، فقد كانوا متقين صادقين وعلينا أن نتأسى بموقفهم وسيرتهم .

ـ والحث على الكرم والإِيثار يأتي في تعقيب خاطف على الموقف المشرف الذي وقفه الأنصار من إخوانهم المهاجرين بعد حادثة فيء بني النضير حيث قال لهم رسول الله ﷺ :«إن أحببتم قسمت ماأفاء الله عليّ من بني النضير بينكم وبينهم ، وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم» ، فقال سعد ابن عبادة وسعد بن معاذ :(بل تقسمه بين المهاجرين ، ويكونون في دُورنا كما كانوا) ، ونادت الأنصار قائلة :(رضينا وسلَّمنا يارسول الله) ، فقال رسول الله ﷺ :«اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار» ، وأعطى المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئاً ، إلا اثنين أو ثلاثة كان بهم فقر وحاجة ، فنزل فيهم قول الله تعالى :

﴿والذين تبَوأوا الدارَ والإِيمانَ من قَبْلهم يُحِبُّون من هاجرَ إليهم ولايَجِدُون في صدورِهم حاجةً مماأُوتوا ويُؤثرون على أنفسِهم ولو كان بهم خَصَاصة . ومن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المفلحون﴾ الحشر/ ٩ .

فكانت مأثرة خالدة للأنصار وهم أهل لها وجديرون بها وبالتالي فهي خصلة إسلامية يندب لها ويكتب النجاح والفلاح لمن اتصف بها .

ـ والأمر بالتواضع يأتي في صيغة خطاب موجَّه إلى رسول الله ﷺ : ﴿فَبِما رحمةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لهم ولو كُنْتَ فظّاً غليظَ القلبِ لانفضُّوا من حولِكَ ، فاعفُ عنهم واستغفِرْ لهم وشاوِرْهم في الأمرِ ، فإذا عزمْتَ فتوكَّلْ على اللهِ إنّ اللهَ يُحبُّ المتوكِّلين﴾ آل عمران/ ١٥٩ .

وفي قوله تعالى :﴿واخفِضْ جناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ من المؤمنين﴾ الشعراء/ ٢١٥ . ورسول الله ﷺ هو القدوة والمثل الأعلى في سلوكه وتصرفاته وصفاته ، فأمره بخفض الجناح للأتباع ، واستشارتهم في شؤون الدولة والحكم إنما هو رسمٌ للمنهج الإِسلامي في شؤون الحياة .

ولو ذهبنا نستعرض هدايات القرآن الكريم في شأن الأخلاق لطال بنا التطواف

ولانستطيع الإِحاطة بالأساليب القرآنية في الحث على التحلي بالفضائل الخلقية والكمالات النفسية .

ومن أراد المزيد من ذلك فليراجع كتاب :«مدارج السالكين» لابن القيم ، و «أخلاق القرآن» للدكتور محمد عبد الله الدراز ، وكتاب«موسوعة أخلاق القرآن» للدكتور أحمد الشرباصي .

وجه دلالة الإعجاز التشريعي على مصدر القرآن الكريم :

إن المتعمق في دراسة التشريعات الإِسلامية في مختلف مناحي الحياة يدرك إدراكاً واضحاً وجلياً أن هذه التشريعات تهدف إلى هداية الإِنسان في حياته الدنيا إلى أقوم السبل التي تحفظ للإِنسان إنسانيته وتطلق طاقاته الإِيجابية نحو الكمالات البشرية ، وتحفظ له نظرته المستقيمة ، وتوفر له التوازن الدقيق في متطلباته الجسدية المادية وأشواقه الروحية ، مع انسجام تام مع المحاكمات العقلية ، ممايثمر الطمأنينة النفسيّة والسعادة في حياته الدنيا ، وهي السبيل إلى الحياة الباقية في الدار الآخرة .

إن تاريخ البشرية لم يحدثنا عن مصلح اجتماعي أو فيلسوف عبقري أنه وضع نظام حياة لشعب من الشعوب بمختلف فئاته وتنوّع مجالاتها بل حاول كثير من المصلحين أن يضعوا قوانين تنظيمية لدولة من الدول . ولكن محاولاتهم كثر الانتقاد عليها في حياتهم وبعد مماتهم لأنها كانت متأثرة ببيئة واضعها ، وقاصرة عن استيعاب المشاكل لمجتمعهم ، وأوجدت الجَوْر والحَيْف على بعض الفئات لمصلحة آخرين .

وماقانون حمورابي وصولون . . .وغيرهم ، ومامأخذ عليها ومانتج من تطبيقاتها قديماً إلا مظهر من المظاهر التي ابتُلي بها الإِنسان في مراحل شقائه . ولازالت هذه الظواهر تتكرر في المجتمعات التي لاتدين دين الحق ، فالمجتمعات الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية والوثنية تكتوي بمثل هذه التجارب المريرة إلى يومنا هذا .

إن التشريعات الإِسلامية التي جمعت بين الروح والمادة فأشبعت كلاً منهما في الإِنسان بمايناسبها ، ووفّرت السعادة والطمأنينة في الحياة الدنيا وأزالت القلق عن النفوس من المستقبل مع مراعاة الفطرة وتلاؤمها معها ، لدليل على أن أحداً من البشر لايستطيع أن يدرك هذه المجالات أو يحيط بها . وهي برهان ساطع على أن منزّلة من خالق الإِنسان الذي أوْدع فيه هذه الطاقات والقدرات والاستعدادات فأنزل ماينظمها جميعاً ويوجّهها لعبادة الخالق سبحانه وتعالى . وتكون الدلالة أوضح والبرهان أظهر عندما تعلم أن الذي نزلت عليه كان أمياً لم يتلق العلم على يد أحد من البشر ، ولم

يُعرف بتجواله في الآفاق بحثاً عن النظريات والدساتير الإصلاحية .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه القيم «المعجزة الكبرى» :

(. . . إن مااشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية . وإذا وازنّا ماجاء في القرآن بما جاءت به قوانين اليونان والرومان ، وماقام به الإصلاحيون للقوانين والنظم بماجاء في القرآن وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأمور ، مع أن قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية في تجارب ثلاثمائة سنة والف ، من وقت إنشاء مدينة روما إلى مابعد خمسمائة من الميلاد ، ومع أنه قانون تعهده علماء قيل إنهم ممتازون منهم : سولون الذي وضع قانون أثينا ، ومنهم ليكورغ الذي وضع نظام أسبرطة .

فجاء محمد ﷺ ومعه القرآن الذي ينطق بالحق عن الله سبحانه وتعالى من غير درس دَرَسه ، وكان في بلد أمي ليس فيه معهد ولاجامعة ولامكان للتدريس ، وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الإنساني ، لم يسبقه سابق ، ولم يلحق به لاحق)[1] .

إن الإعجاز التشريعي لآية بيّنة على أن القرآن الذي اشتمل عليه هو كلام الله أنزله على قلب عبده ورسوله محمد ﷺ ليخرج الناس من ظلمات الانحراف والضلال والشقاء إلى نور الإيمان والهداية والتمسك بحبل الله المتين :

﴿هو الذي أرسلَ رسولَهُ بالهدى ودينِ الحقّ ليُظهِرَهُ على الدين كلّهِ ولو كَرِه المشركون﴾ الصف/ ٩ .

---

(١) «المعجزة الكبرى» ص ٤٥٥ .

البحث التاسع :

الإعجَاز الغَيبيّ في القرآن العظيم[1]

من وجوه الإِعجاز للقرآن الكريم التي ذكرها العلماء الإِعجاز بما فيه من أنباء الغيب ويقصدون كل ماكان غائباً عن محمد ﷺ، ولم يشهد حوادث الواقعة ولم يحضر وقتها، ولم يكن على علم بتفصيلاتها. فيدخل في الغيب بهذا المفهوم كل ماورد في القرآن عن بداية نشأة الكون وماوقع منذ خلق آدم عليه السلام إلى مبعث رسول الله ﷺ من عظيمات الأمور ومهمات السير، وكذلك يشمل ماغاب عن محمد ﷺ في وقته من الحوادث التي كانت تحدث ويخبر بها بطريق الوحي، كإخبار الله سبحانه وتعالى له بما يكيده اليهود والمنافقون، ويشمل أيضاً ماتضمنه من الأخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان.

ولشمول كلمة الغيب لكل هذه المعاني سيكون موضوعنا في هذا البحث من ثلاثة جوانب : غيب الماضي - غيب الحاضر - غيب المستقبل.

الجانب الأول : غيب الماضي :

لقد سمى الله سبحانه وتعالى الأخبار عن الأمم السابقة غيباً. وأشار إلى وجه دلالتها على صدق رسول الله ﷺ وعلى كون القرآن الكريم إنما نزل بوحي من الله سبحانه وتعالى، فكثيراً مايفتتح القرآن القصة أو يختمها بالإِشارة إلى أن هذه الأمور ماكان لرسول الله طريق إلى العلم بها إلا عن طريق الوحي من الله تعالى شأنه وجلّت قدرته، فمثلاً بعد ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله زكريا لها يقول تعالى : **﴿ذلك من أنباءِ الغيبِ نُوحيهِ إليكَ، وماكنتَ لديهم إذ يُلْقون أقلامَهُم أيُّهم يَكْفُلُ مريمَ وماكنتَ لديهم إذ يختصمون﴾** آل عمران/ ٤٤.

فإن هذا النص يدل على أن القرآن من عند الله وعلى أن ذلك النوع من العلم ماكان

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن : للدكتور مصطفى مُسْلِم ص ٢٤٧-٢٦٥/ ط دار المنارة - جدة بتصرف.

عند محمد ﷺ ، وليس له به دراية .

ويقول عز من قائل بعد قصة نوح عليه السلام ﴿تلك من أنباءِ الغيب نُوحيها إليك ماكنتَ تعلَمُها أنت ولاقومُك من قبلِ هذا ، فاصبرْ إنّ العاقبةَ للمتقين﴾ هود/ ٤٩ . وهذه أيضاً إشارة واضحة إلى أن هذا العلم من عند الله ، وأنه لم يكن معروفاً عن العرب وماكانوا يتذاكرون به .

ويقول جلت حكمته بعد قصة يوسف وذكر دقائقها وتفصيلاتها وعظاتها وعبرها : ﴿ذلك من أنباءِ الغيبِ نُوحيهِ إليكَ وماكنتَ لديهم إذ أجمعُوا أمرَهُم وهُمْ يمكرون﴾ يوسف/ ١٠٢ .

وقبل عرض قصة موسى عليه السلام يقول عز من قائل : ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعونَ بالحقّ لقومٍ يُؤمنون﴾ القصص/ ٣ . وبعد انتهائها يقول جلّ ثناؤه : ﴿وماكنتَ بجانب الغربيِّ إذ قضينا إلى موسى الأمرَ ، وماكنتَ من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاولَ عليهم العُمُرُ ، وماكنتَ ثاوياً في أهلِ مَدْيَنَ تتلو عليهم آياتنا ولكنّا كنّا مرسلين ، وماكنتَ بجانبِ الطُّور إذ نادَيْنا ولكن رحمةً من ربِّك لتُنذرَ قوماً ماأتاهم من نذيرٍ من قَبلِكَ لعلّهم يتذكّرون﴾ القصص/ ٤٤-٤٦ .

إن ورود أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية بهذا الشكل المفصّل الدقيق في القرآن الكريم دليل على أنه وحي من الله سبحانه وتعالى وليس من عند البشر ، لأن من ترعرع في بيئة مثل البيئة التي نشأ فيها محمد ﷺ لايمكنه أن يطلع على مثل هذه الأمور التي لاسبيل للحصول عليها إلا بالتلقّي ، ولم يكن في تلك البيئة الأمية من يعرف هذه الأنباء على هذا الوجه الدقيق .

وإن وجد في ذاك العصر في أطراف الجزيرة العربية بعض أهل الكتاب فلقد كانوا منغلقين على أنفسهم ، ليس لهم تأثير فيمن حولهم ، وكان المتخصِّص منهم في علم الكتاب - على قلتهم - يرى في اطلاعه على جوانب من قصص السابقين ميزة عظيمة له فكان ضنيناً به حتى لاينافس على مركزه .

وكانوا يعرفون قرب مبعث الرسول الخاتم للأنبياء والمرسلين ، فكان من جملة مايتحققون به من صدقه سؤاله عن القرون الغابرة ومصائر الأمم السابقة ، كما ورد في سبب نزول سورة الكهف ، حين سألت قريش اليهود أن يدلّوهم على أمور يتحققون بها صدق محمد ﷺ ، فقالوا : اسألوه عن الروح وأصحاب الكهف وذي

القرنين[1] . فلما وافق ماأخبر به رسول الله ﷺ عن ربه ماعندهم من أنباء بل فاقها دقةً وتفصيلاً ، وصحح كثيراً مماالتبس عليهم أمره واختلط عليهم واقعه أو حرفوه وبدّلوه عن قصدٍ منهم أو كتموه تعمية وتضليلا للناس ، ووقف موقف التحدي منهم وبين الحق والصواب من بين ركام الباطل الذي ألقَوْه عليه ، علموا أن هذا لم يكن لبشر أن يدركه بالاطلاع والتتبع والاستقراء مهما أوتي من علم وحكمة ودراسة لسير الأولين فمابالك إذا كان الذي جاء به أمياً ونشأ في بيئة أميَّة كما أخبر عنه ربه جلّ جلاله :

﴿وماكنتَ تتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كتابٍ ولاتخطُّهُ بيمينِكَ إذاً لارتابَ المُبْطِلُون﴾ العنكبوت/ ٤٨ .

وتهمة قريش له هي شهادة غير مباشرة له بالصدق . فعندما سمعوا منه هذه الأنباء سموها أساطير الأولين ، ولكن من أين أتى بها وهم يحيطون علماً بأحواله قبل البعثة ، من عدم اتصال بأحد من أهل الكتاب ، ولم تكن له أسفار علمية للبحث والتنقيب عن آثار الأمم ، قالوا لابد أنه يتعلمها من أحد فهو يمليها عليه ، ولكن من الذي أوتى علوم الأولين والآخرين حتى يستطيع إملاءها على محمد ﷺ ، ولماذا لم يدَّع هو النبوة بدل محمد ﷺ؟ لذا كانت تهمتهم هذه اعترافاً منهم بأن هذه الأنباء ، لايمكن أن يأتي بها محمد ﷺ من عند نفسه ، ولكن تمويهاً وتضليلاً على الناس وخداعاً لأنفسهم فليلصقوها بأحد أتباع محمد ﷺ ، ورواجاً لهذا الفرية ليكن شخصاً غريباً عن قريش لعل في ذلك زيادة في التضليل والتمويه ، فليكن صهيباً الرومي أو غيره . وهذا ما تولى القرآن الكريم الرد عليه في قوله تعالى :﴿وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفكٌ افتَراهُ وأعانَهُ عليهِ قومٌ آخرون فقدْ جاءوا ظلماً وزُوراً ، وقالوا أساطيرُ الأولين اكتَتَبَها فهي تُملَى عليه بُكرةً وأصيلاً ، قلْ أنزلَهُ الذي يعلمُ السرَّ في السمواتِ والأرضِ إنّه كان غفوراً رحيماً﴾ الفرقان/ ٤-٦ . ﴿ولقد نعلمُ أنّهم يقولُون إنّما يُعلّمُهُ بشرٌ لسانُ الذي يُلحِدُون إليه أعجميٌّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين﴾ النحل/ ١٠٣ .

وقد سلك القرآن في ذكر هذه الأنباء مسلك القصة ، ولهذا المسلك أكثر من غرض يرمي إليه القرآن الكريم ، ولقد وضعت مؤلفات مستقلة تبحث عن مزايا القصة القرآنية وأغراضها . وقد ذكرنا مايتعلق منها ببحثنا وهو الدلالة على صدق محمد ﷺ فيما يُبلّغُ عن ربه .

---

(١) انظر «لباب النقول في أسباب النزول» للسيوطي ، ص ١٥٥ .

يقول الإمام فخر الدين الرازي[1] :

(ودلالة القصة على النبوة من وجهين :

الأول كما قال تعالى في سورة الشعراء بعد ذكر القصص : ﴿وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين نزلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِكَ لتكونَ من المنذِرين﴾ الشعراء/ ١٩٢-١٩٤ .

ووجه الاستدلال أنه عليه السلام لمّا لم يتعلم علماً ولم يقرأ كتاباً ولم يتلمذ لأستاذ استحال منه دراية هذه القصص إلا عن وحي الله وتنزيله .

والثاني أنه كان يذكر القصة الواحدة مراراً مختلفة بألفاظ مختلفة ، وكل ذلك مشابهة في الفصاحة ، مع أن الفصيح إذا ذكر قصة مرة واحدة بالألفاظ الفصيحة عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى بألفاظ فصيحة ، فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله تعالى لا من البشر) .

الجانب الثاني : غيب الحاضر :

ويقصد بغيب الحاضر ماجرى في عصر رسول الله ﷺ من حوادث لم يحضرها ، ثم نزل القرآن الكريم متضمناً لها ومخبراً بحقيقة ماجرى .

وفي تنبيه القرآن الكريم الرسول ﷺ ومعه المؤمنون على الحقيقة وتوجيههم إلى ماينبغي اتخاذه حيال الوقائع ضمان لسلامة سير الدعوة وتجنيب لها عن الوقوع فيما يخطط لها أعداؤها من الكفار والمنافقين .

فالغاية الأساسية من الغيب الحاضر هو تأييد الدعوة والأخذ بيدها والسير بها على بينة من أمرها .

وإن كان يؤخذ إلى جانب ذلك من هذا النوع من الغيب صدق رسول الله ﷺ فيما يبلغ عن ربه ، حيث لم يكن له علم بما دار في غيابه ، وماخطط وماجرى تنفيذه ، حتى أماط القرآن الكريم اللثام عن هذه الأمور .

لذا لانجد تنبيه القرآن الكريم عند الحديث عن هذه الحوادث الجارية ، على إثبات أصل الرسالة كما كان الأمر عند الحديث عن الغيب الماضي ، حيث وجدناه كثيراً مايجعل إخبار رسول الله عن أنباء الأمم السابقة دليل كونه من عند الله كما في قوله تعالى : ﴿تلكَ مِنْ أنباءِ الغيبِ نُوحيها إليكَ ماكنتَ تعلَمُها أنتَ ولاقومُكَ من قبلِ هذا

---

(١) في كتابه «أسرار التنزيل» ص٧ ، مخطوط بمكتبة الحرم النبوي الشريف .

فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ هود/٤٩ .

ونذكر أمثلة على هذا النوع من الغيب ليظهر لنا من خلالها الهدف الأساسي الذي رمى إليه هذا التوجيه الرباني ، والأهداف اللاحقة أو التبعية التي ستستفاد من سوق الخبر أو الحادثة .

وأغلب هذه الحوادث تتعلق بكشف خطط أعداء الله وكيدهم للقضاء على جماعة المسلمين ، وإطفاء نور الله سبحانه وتعالى ، فمن ذلك :

أولاً : ماجاء في شأن اليهود :

أ ـ لما أدرك أعداء الله صدق رسول الله ﷺ فيما يخبر ، ومطابقة كثير من أحكام القرآن الكريم لما في توراتهم عمدوا إلى التوراة فحرّفوا أحكامه ، وجاؤوا يسألون النبيﷺ عنها وهم يقولون : إن قال بمثل ما في أيديكم فخذوه وإلا فاحذروا . روى أحمد ومسلم وغيرُهما عن البَراء ابن عازب قال : مرّ على النبي ﷺ يهودي محمَّم مجلود ، فدعاهم فقال :«هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟» فقالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم فقال :«أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» ، فقال :لاوالله ولولا أنك ناشدتني بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم ولكنه كثر في أشرافنا ، فكنا إذا زنى الشريف تركناه ، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع ، فاجتمعنا على التحميم والجلد ، فقال النبي ﷺ :«إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» ، فأمر به فرجم ، فأنزل الله ﴿ياأيها الرسول لايَحزُنْكَ الذين يُسارعون في الكفر﴾ إلى قوله ﴿إن أوتيتم هذا فخذُوه﴾ يقولون ائتوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا[1] .

وأخرج الحميدي في مسنده عن جابر بن عبد الله قال :(زنى رجل من أهل فدك ، فكتب أهل فدك إلى الناس من اليهود بالمدينة أن اسألوا محمداً عن ذلك ، فإن أمر بالجلد فخذوه عنه ، وإن أمركم بالرجم فلاتأخذوه عنه . . .)[2] .

وهذا ماحدّث عنهم رب العزة بقوله :﴿ . . .ومِنَ الذين هادُوا سمّاعُون للكذبِ سمّاعُون لقومٍ آخَرين لم يأتوكَ يُحرِّفون الكَلِمَ من بعدِ مواضعه يقولون إن أُوتيتم هذا

(١) مسند الإمام أحمد٤/٢٨٦ وصحيح مسلم، كتاب الحدود،٥/١٢٢..

(٢) هذه الروايات وغيرها في «لباب النقول في أسباب النزول» للسيوطي ، ص ٩٦ .

فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يُردِ اللهُ فِتنَتَهُ فلن تملكَ له من اللهِ شيئاً ، أولئك الذين لم يُردِ اللهُ أن يطهِّرَ قلوبَهُم ، لهم في الدنيا خزيٌ ، ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيم﴾ المائدة/ ٤١ .

ب - ومن هذا القبيل ماأخبر القرآن الكريم عن أساليبهم الملتوية في إدخال الوسواس والأحزان في قلوب المسلمين ، يقول تعالى : ﴿ألم ترَ إلى الذين نُهُوا عن النجوىَ ثم يعودُون لِما نُهُوا عنه ويتناجَوْن بالإِثم والعُدْوانِ ومعصيةِ الرسولِ وإذا جاءوك حيَّوْكَ بما لم يُحَيِّكَ بهِ اللهُ ويقولُون في أنفسِهم لولا يعذِّبنا اللهُ بما نقول ، حَسْبُهم جهنَّمُ يصلَوْنها فبئسَ المصير﴾ المجادلة/ ٨ .

وذلك أن اليهود عليهم غضب الله كانوا إذا مرَّ بهم رجل من أصحاب النبيﷺ جلسوا يتناجَوْن بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكرهه ، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا ، فأنزل الله ﴿ألم ترَ إلى الذين نُهُوا عَنِ النَّجْوَى . . .﴾ ، واخرج أحمد والبزار ، عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليكم ، ثم يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بمانقول ، فنزلت هذه الآية ﴿وإذا جاءوك حيَّوْك بما لم يحيِّكَ بهِ الله﴾[1] .

جـ - ومن ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿لاتحسبنَّ الذين يفرحون بما أتَوْا ويحبُّون أن يُحْمَدوا بما لم يفعلوا فلاتحسبنَّهم بمفازةٍ من العذابِ ولهم عذابٌ أليم﴾ آل عمران/ ١٨٨ .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فأروه أن قد استحمدوا إليه بماأخبروه عنه فيما سألهم ، وفرحوا بما أتَوْا من كتمانهم[2] .

ثانياً : ماورد في شأن المنافقين :

والفئة الثانية التي لم يقر لها قرار في المدينة بعد أن استوطنها المسلمون المهاجرون وآخى رسول الله ﷺ بينهم وبين الأنصار هي فئة المنافقين ، وكان يتزعمها عبد الله بن أبيّ بن سلول ، فكان هو وأتباعه يحاولون النيل من الإسلام ووضع بذور

---

(١) انظر «لباب النقول» ص ٢٢٦ ، ومسند الإمام أحمد ٦/ ٢٢٩ .
(٢) صحيح البخاري ٦/ ٥١ ط/ صبيح.

الشقاق والخلاف بين المسلمين من الأوس والخزرج ، وبينه وبين المهاجرين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ولكن آيات القرآن الكريم كانت لهم بالمرصاد حيث كشفت عن أعمالهم وعن دخيلة أنفسهم فكان المسلمون على بينة من أمرهم.

أ ـ فمن الأساليب التي كان يلجأ إليها المنافقون حرب الأعصاب ، ففي غزوة أحد قام رأس النفاق بشطر الجيش وسحب أنصاره منه وهم زهاء الثلاثمائة وهم يريدون بذلك إيقاع البلبلة والاضطراب في قلوب المسلمين ، ولما هزم المسلمون في المعركة أبدوا شماتة الجبناء الأنذال ، والقرآن يصور خستهم القائمة على الخبث والجبن ويبرز الحقيقة الكامنة فيهم ، وهي أن ألستهم وصدورهم إنما تعيشان باستمرار على طرفي نقيض : ﴿وماأصابكُم يومَ التقى الجمعانِ فبإذنِ اللهِ وليعلمَ المؤمنينَ ، وليعلمَ الذينَ نافقُوا وقيلَ لهُمْ تعالَوْا قَاتِلُوا في سبيلِ اللهِ أو ادْفَعُوا قالُوا لو نعلمُ قتالاً لاتّبعناكُم ، هُمْ للكفرِ يومئذٍ أقربُ منهم للإِيمانِ يقولُونَ بأفواهِهِم ماليسَ في قلوبِهِم واللهُ أعلمُ بما يكتمُون﴾ آل عمران/ ١٦٦-١٦٧ .

وفي غزوة الخندق كان لنذالة المنافقين دورها ، فقد حفر المسلمون الخندق حول المدينة ليكونوا في مأمن من هذا الهجوم ولكن المسلمين أصبحوا مع ذلك في خطر يتهددهم من داخل المدينة من قبل اليهود لاسيما بنو قريظة الذين غدروا بالعهد ليطعنوا المسلمين من الخلف ولم يكتف المنافقون بمهمة التثبيط حتى قال قائلهم[1] : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لايقدر على أن يذهب إلى الغائط ، لم يكتفوا بهذا بل قاموا بدور الانسحاب مرة أخرى ، والمعركة في أُحُد غير المعركة داخل المدينة ، فإن كانوا قد انسحبوا من الميدان في أُحُد فكيف ينسحبون وهم في دور الدفاع عن كيان بلدهم ، ومرة أخرى انتحلوا عذراً واهياً زاعمين أن بيوتهم عورة مكشوفة معرضة للخطر عليهم أن يتولَوْا حراستها والدفاع عنها ، علماً أن الخطر لم يكن كامناً على بيوتهم بل على الجبهة التي وقف أمامها المسلمون ولكن خسّة الطبع زيّنت لهم هذا الغدر وسوّغته فتركوا الميدان﴿هناك ابتُلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، وإذْ يقولُ المنافقونَ والذينَ في قلوبِهِم مرضٌ ماوَعَدَنا اللهُ ورسوُلُه إلّا غروراً ، وإذْ قالتْ طائفةٌ منهم ياأهلَ يثربَ لامقامَ لكم فارجعُوا ويستأذنُ فريقٌ منهم النبيَّ يقولُون إنّ بيوتَنا عورَةٌ وماهي بعورةٍ إنْ يُريدُونَ إلّا فراراً﴾ الأحزاب/ ١١-١٣ .

---

(١) هو معتب بن قشير ، انظر «سيرة ابن هشام» ٣/ ٢٦٢ .

ب ـ ويتكرر موقف التخاذل والنذالة والانسحاب في غزوة تبوك ـ غزوة العسرة ـ بعد أن يحاولوا تثبيط المسلمين عن الخروج للجهاد ، وجهز رأسهم جيشاً من المنافقين واليهود ينافس به جيش المسلمين ، حتى كان يقال ليس عسكر ابن أبيّ بأقل العسكرين ، ثم أعلن حرب الأعصاب حين قرر التخلف والانسحاب وهو يقول : يغزو محمد بني الأصفر ـ مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى مالاقبل له به ، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب ، والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرّنين في الحبال[1] .

هذا ديدنهم في الشدائد وعند الاستعداد للمعارك ، وهو أن يفرُّوا من الميدان ، ويبرِّرون هزيمتهم هذه بأتفه الأعذار ، وانظر إلى عذر أحدهم[2] يقول : إنه يخشى على نفسه الفتنة من نساء الروم لجمالهن .

وانظر إلى الآيات وهي تعري حقائقهم ﴿إنما يستأذِنُك الّذينَ لايُؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ وارتابتْ قلوبُهم فهُم في رَيبِهِم يتردَّدُون ، ولو أرادُوا الخروجَ لأعدُّوا له عُدّةً ولكنْ كَرِه اللهُ انبعاثَهم فثبَّطَهم وقيلَ اقعُدوا مع القاعِدِين ، لو خرجُوا فيكم مازادُوكم إلاّ خَبالاً ولأوضعُوا خلالَكم يبغُونكُمْ الفتنةَ وفيكُم سمَّاعُون لهم واللهُ عليمٌ بالظالمين ، لقدْ ابتغَوُا الفتنةَ من قبلُ وقلَّبُوا لكَ الأمورَ حتى جاءَ الحقُّ وظهرَ أمرُ اللهِ وهُم كَارِهُون ، ومنهم من يقولُ ائذَنْ لي ولاتفتنِّي ، ألاَ في الفتنةِ سقَطُوا وإنّ جهنَّمَ لمحيطةٌ بالكافرين﴾ التوبة/ ٤٥-٤٩ .

جـ ـ وخسة المنافقين ونذالتهم وكيدهم للمسلمين لاتقتصر على زمن الحرب بل لايتورعون عن شيء يخدم قضيتهم إلا واستغلوه ، ويبدو ذلك في قضية الإفك جلياً ، فبعد الانتصار الساحق للمسلمين على بني جذيمة في غزوة بني المصطلق ، رجع المسلمون وهم في نشوة الانتصار ، والمنافقون كانوا في مأتم لأن كيدهم لم ينفع ، فوجدوا مجالاً في تخلف السيدة عائشة رضي الله عنها عن الركب وحمل صفوان بن المعطّل رضي الله عنه لها على بعيره ، وجدوا في هذا مايشفي غلهم وحقدهم الدفين ، وليعكروا صفو هذا الانتصار ، ولتسوء العلاقة بين الرسول ﷺ وأم المؤمنين عائشة ، وبينه وبين صديقه الأول أبي بكر ، وفوق كل ذلك لتتزعزع ثقة المسلمين ببعضهم وبرسولهم ، لكن الله سبحانه وتعالى ، جعل التباطؤ في قضية الإفك الذي

---

(١) انظر الروايات في «سيرة ابن هشام» ، ١٧٥/٤ ومابعدها .

(٢) هو الجدّ بن قيس، ذكره ابن هشام : ١٧٣/٤ .

حسبه المسلمون شراً كله ، جعل فيه الخير الكثير ، حيث كشف دخيلة أنفس المنافقين ، وعلَّم المسلمين درساً بليغاً في التربية وضبط النفس وعدم الانسياق والانحراف مع الإشاعات المغرضة المدسوسة .

﴿ إن الذين جاؤوا بالإِفْكِ عُصْبَةٌ منكُم لاتحسَبُوهُ شرّاً لكم بلْ هو خيرٌ لكم ، لكلِّ امرئٍ منهم مااكتسبَ منَ الإِثم ، والذي تولّى كِبْرَهُ منهم له عذابٌ عظيم ، لولا إذ سمعتمُوهُ ظنَّ المؤمنون والمؤمناتُ بأنفسِهم خيراً ، وقالوا هذا إفْكٌ مبينٌ ، لولا جاءوا عليه بأربعةِ شهداءَ فإذْ لم يأتُوا بالشهداءِ فأولئكَ عندَ اللهِ هُمُ الكاذبون . . . ﴾ ﴿ولولا إذْ سمعتمُوه قلتُم مايكونُ لَنا أنْ نتكلَّم بهذا سبحانَكَ هذا بُهتانٌ عظيم ، يعظكُمُ اللهُ أن تعُودُوا لمثلهِ أبداً إنْ كنتُم مؤمنين﴾ الآيات من (١١-١٧) من سورة النور .

هكذا نجد مواكبة القرآن الكريم لمسيرة الدعوة ، وتوجيهها ورعايتها بإلقاء الضوء أمامها كلما اشتد الظلام وتفرّقت السبل واختلط الأمر ، وقويت وطأة التآمر من أعداء الله وراجت شائعاتهم ، للنيل من وحدة المسلمين وإلقاء الوهن في قلوبهم .

هذا هو الهدف الأساسي من ذكر هذا النوع من الغيب ، ولكن هناك مقاصد أخرى تأتي تبعاً ، وقد نتوصل إليها كنتائج عندما نتدبر النصوص التي كشفت النفاق والمنافقين وجميع أعداء الله .

فالنصوص التي استعرضنا قسماً منها عرفتنا بحقيقة الأنفس التي بارزت الله والرسول بالعداء ، لأن في ذكر خصال هذه الأنفس بتعرية النماذج الأولى منها في عهد رسول الله ﷺ وكشف حقيقتهم تمكيناً للمسلمين في شتى عصورهم وعلى اختلاف أمكنتهم وأزمنتهم من معرفة أعداء الله ، والأساليب التي يلجأون إليها ، فهذه النماذج تتكرر باستمرار ، فما وجدت دعوة وقائمون عليها لابدّ من وجود أعداء يعلنون مافي قلوبهم من غيظ وحنق ، ومنافقين يلبسون لكل حالة لبوسها .

الجانب الثالث : غيب المستقبل :

ويقصد بغيب المستقبل ماذكره القرآن الكريم من حوادث ستقع سواء كان ذلك بتحديد مدةٍ لوقوع هذه الحادثة كما حدّد غلبة الروم ببضع سنين أو أطلق من غير تحديد للمدة الزمنية وهو الشأن في اغلب الحالات .

ومن هذه الحوادث التي أخبر القرآن الكريم أنها ستقع ماوقع بالفعل ، فكان وقوعها دلالة صدق لرسول الله ﷺ ، ومنها ، ماتنتظر دورها والزمن كفيل بإظهار ذلك للأجيال.

ونذكر جملة من أنباء الغيب هذه ونعلق على بعض الآيات بإيجاز :

١- يقول تعالى : ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ الرومُ في أدْنَى الأرضِ وهم مِنْ بعدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبون في بِضْعِ سِنين﴾ الروم/ ١-٤ . وقد حدث ماأخبر به القرآن الكريم فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك وهزم الفرس في بضع سنين ، ولم يكن النبي ﷺ ممن حضر هذه الحرب وعرف سبب الغلب ، ومايتوقع من بعده ، وقد تفاءل المشركون من هزيمة الروم ، وهم أهل الكتاب ، وعلو الفرس وهم أهل شرك ، وحسبوا من ذلك أن دعوة محمد ﷺ مآلها الخسران ، وشأنهم في ذلك شأن من سبقهم من أهل الكتاب .

ولقد تضمن آخر الآيات السابقة بشارة للمؤمنين لم يتنبهوا لها إلا بعد وقوعها وهذه البشارة في قوله تعالى ﴿ويومئذٍ يفرحُ المؤمنونَ بنصرِ الله﴾ فقد فهم المسلمون أن هذا الفرح هو فرحهم بانتصار أهل الكتاب من الروم على الفرس ، ولقد بيّنت مجريات الحوادث أن ذاك انتصار المسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى وفرحهم بذلك كان في نفس الوقت الذي تحققت فيه نبوة القرآن الكريم بتغلب الروم على الفرس .

٢- ويقول عزّ من قائل في معرض التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن ﴿وإن كنتم في ريبٍ ممانزّلنا على عبدِنَا فأتُوا بسورةٍ من مثلهِ ، وادْعُوا شهداءَكم مِن دُونِ الله إنْ كنتُمْ صادقين ، فإنْ لم تفعلُوا ولنْ تفعلُوا فاتّقُوا النّارَ التي وَقُودُها النّاسُ والحجارةُ أُعدّتْ للكافرين﴾ البقرة/ ٢٣-٢٤ .

٣- توعد القرآن الكريم أناساً معينين معروفين وحدّد مصيرهم في الدنيا والآخرة أنهم سيموتون على الكفر ويخلدون في النار ، كأبي لهب﴿تبتْ يَدَا أبي لهبٍ وتبَّ ماأغنىَ عنه مالهُ وماكسبَ . سيصلَى ناراً ذاتَ لهبٍ وامرأتهُ حمّالةَ الحطبِ في جيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَد﴾ سورة المسد ، والوليد ابن المغيرة ﴿ذرني ومَنْ خلقتُ وَحيداً . وجعلتُ له مالاً ممدُوداً . وبنينَ شُهوداً . ومهدتُ له تمهيداً . ثم يطمعُ أن أزيدَ . كلا إنه كان لآياتِنَا عَنِيداً سأرهِقُهُ صَعُوداً . إنه فكّرَ وقدّرَ . فقُتِلَ كيفَ قدّر . ثم قُتِلَ كيفَ قَدَّر . ثم نظرَ . ثم عبسَ وَبَسَرَ . ثم أدبرَ واستكبرُ . فقال إن هذا إلّا سحرٌ يُؤثَرُ إنْ هذا إلا قولُ البشرِ . سأصليهِ سقر﴾المدثر/ ١١-٢٦ ، وأبي جهل ﴿أرايتَ الذي ينهى عبداً إذا صلى . أرأيتَ إن كان على الهُدَى أو أمرَ بالتقوى . ارأيتَ إن كذّبَ وتولّى ألمْ يعلمْ بأنّ اللهَ يرىَ . كلا لئنْ لم ينتهِ لنسفعاً بالناصيةِ . ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ . فليَدْعُ

نادِيَهُ ، سندعُ الزبانيةَ﴾ العلق/٩-١٩ .

فلو لم يكن القرآن الكريم من علام الغيوب ، والمحيط بالماضي والمستقبل لما صح ذلك في كل ماأخبر به ، بل لما كان من عاقل البشر أن يضع مصير دعوته على شيء معين ، فلو آمن واحد من هؤلاء الثلاثة الذين دمغهم القرآن بالكفر ، وخلّد في الأشقياء ذكرهم ، لانطفأت شعلة الإسلام ، ولقامت الحجة على القرآن ومن جاء به ، لو أسلم أبو لهب مثلاً لما كان لقوله تعالى فيه ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ منصرف ولاواقع ، ولأصبحت هذه الآية في واد والواقع في واد آخر .

وكيف كان محمد ﷺ يقابل الناس بها ، وقد أصبح أبو لهب من الصحابة كعمر بن الخطاب وغيره مِن الذين كان لهم موقف معادٍ لِلإسلام قبل أن يدخلوا فيه ، أفليست هذه معجزةً قاهرةً ، وأيّ معجزة أبهرُ وأقهرُ من أمر لايكلف صاحبه أكثر من كلمة يقولها بلسانه فيبطل بها قول محمد ﷺ ويفسد أمره جميعه ، ثم لايقول الكلمة ، ولاتسمح له الحياة بأن يقولها فقد عاجلته المنية قبل يومَ الفتح الذي دخلت فيه قريش كلها الإِسلام ، وكان مصير أبي أبي جهل والوليد مثل مصير صاحبهما أبي لهب فلو دخلوا الإِسلام لكان إسلامهم هدماً للإِسلام كله .

أفلا يدل هذا جلياً أن القرآن من عند خالق الحياة والممات ، والذي مصير كل شيء بيده ، ومآل كل أمر إليه ، وهو الذي حفظ دينه وكتابه ﴿وما كانَ هذا القرآنُ أن يُفترى من دونِ اللهِ ، ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يديهِ وتفصيلَ الكتابِ لاريبَ فيهِ من ربِّ العالمين﴾ يونس/ ٣٧ .

ولو ذهبنا نتتبع أخبار القرآن الكريم في هذا الجانب من الغيب لطال بنا المسير، وإنما نشير إلى جملة من الآيات الكريمة في هذا الشأن ، فمن هذا الآيات قوله تعالى :

- ﴿سيهزَمُ الجمعُ ويولُّونَ الدُّبُرُ﴾ القمر/ ٤٥ .

- ﴿واللهُ يعصِمُكَ مِنَ النّاسِ﴾ المائدة/ ٦٧ .

- ﴿لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ﴾ الفتح/ ٣٧ .

- ﴿وعدَ اللهُ الذينَ آمنُوا منكُم وعمِلُوا الصالحاتِ ليستخلفنَّهُم في الأرضِ كمَا استخلفَ الذينَ من قبلِهم﴾ النور/ ٥٥ .

- ﴿إنّا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنّا لهُ لحافِظُون﴾ الحجر/ ٩ .

- ﴿إنّا كفيناكَ المُسْتَهْزِئين﴾الحجر/ ٩٥ .

- ﴿قل للمخلَّفينَ من الأعرابِ ستُدْعَوْن إلى قومٍ أُولي بأسٍ شديدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أو

يُسلِمُون﴾ الفتح/١٦ .

-﴿وقضينَا إلى بني إسرائيل في الكتابِ لتفسدنّ في الأرضِ مرتينَ وَلَتَعْلُنَّ علواً كبيراً ، فإذا جاء وعدُ أولاهُمَا بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي بأسٍ شديدٍ فَجَاسُوا خلالَ الديارِ وكانَ وعداً مفعولاً ، ثم رَدَدْنَا لكم الكرةَ عليهم وأمْدَدْنَاكُمْ بأموالٍ وبنينَ وجعلناكُم أكثرَ نفيراً . إنْ أحسنتُم أحسنتُم لأنفسِكُم ، وإنْ أسأتُم فلهَا فإذا جاءَ وعدُ الآخرةِ لِيَسُوْؤا وجوهَكُم وليدخلُوا المسجدَ كما دخلُوهُ أوّلَ مرةٍ ولِيُتبّرُوا ماعلَوْا تتبيراً ، عسَى ربُّكم أنْ يَرحمَكُم وإنْ عدتُم عُدْنا وجعلنَا جهنّمَ للكافرين حصيراً﴾ الإسراء/ ٤-٨ .

وجه دلالة الغيب على مصدر القرآن :

إن حالة محمد ﷺ عند إطلاق هذه الأنباء الموغلة في القدم ، أو الحاضرة الخافية في صدور أهلها ، أو الوعود المستقبلة التي كانت في مجاهل الغيب ، كان حاله في كل ذلك حال الواثق المتيقن من الأمر ، وهو بشر لم يطلع على كتب السابقين ولايملك من تصرف أمور المستقبل شيئاً ، وكان هو بذاته ينفي عن نفسه علم الغيب ، ﴿قل لاأملكُ لنفسي نفعاً ولاضَراً إلا ماشاءَ اللهُ ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ منَ الخيرِ ومامسَّنِيَ السُّوءُ﴾ الأعراف/١٨٨ .

فلو لم يكن مستنداً إلى ركن قويّ ماأطلق مثل هذا ، وجازف بدعوته وهو الذي عرف عنه التعقّل والحكمة ولم يعهد منه تسرع في أمر أو تقول بلا روية حتى قبل أن يكرمه الله بالرسالة .

فلاشك أن الوحي الإلهي كان يُنطقه كما أن الصدق المطلق الذي رافق القرآن الكريم من يوم نزوله إلى يوم انقطاع الوحي بالتحاق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ، أمر يوجب التوقف والتدبر . إن الصدق في أخبار القرآن الكريم ظاهرة لايستطيع إنكارها أحد ، حتى الذين عادوا الإسلام ، وقاوموه بكل طاقتهم في أول الدعوة الإسلامية ، كان هؤلاء يضمرون في أنفسهم احترام صدق القرآن وحقيقته بالرغم من ركام الوثنية والشرك والتكذيب الذي لاقوْه به ، بل كان هذا الاحترام المنتزع منهم والمفروض عليهم ملازماً لشخص الرسول ﷺ الذي كان ينطق بالقرآن .

ولقد أدرك مشركو العرب هذه الحقيقة من خلال اختلاطهم برسول الله ﷺ والمؤمنين به ، حيث صدقت الحوادث الكونية كثيراً مماأخبرهم به القرآن الكريم .

كما أدرك أهل الكتاب صدق القرآن فيما أخبرهم به من الحوادث الغابرة التي كانوا

يعرفونها من بطون كتبهم ، وكذلك أدركوا هذا الصدق المطلق من خلال كشف القرآن الكريم لمخططاتهم ومؤامراتهم على الإسلام وأهله .

إن هذه الأنباء الصادقة التي جاء بها القرآن الكريم لدليل ظاهر وبرهان قاهر على أنه كلام رب العالمين الذي يستوي عنده علم السابق واللاحق ،لاتخفى عليه خافية ، لقد ظهر صدق القرآن الكريم لكل ذي عينين في عشرات الحوادث التي أخبر عن وقوعها في المستقبل ووقعت بالفعل كما أخبر .

ولازالت الأيام تكشف عن جوانب من هذه الأنباء ، سواء في الكون أو الإنسان أو الحوادث الكونية العامة الشاملة .

إن ظاهرة الإخبار بالمغيبات في القرآن الكريم وتصديق الوقائع لها وعدم تخلّف الصدق عنها ولو في جزئية بسيطة ، لدليل على أنه وحي ممن خلق الأرض والسماوات العلى ، أنزله على رسوله ليكون دلالة على صدقه .

خاتمة البحث :

لمّا كانتِ المعجزةُ قرينةَ الرسالة ، ولمّا كانَ القرآنُ الكريم معجزةَ الرسالة الخالدة ، فلابد من أن تقام الحجة بالقرآن الكريم على كل جيل من الأجيال ليذعن أهلُ الإنكار والجحود في كل عصر لعظمة منزّله ويوقنوا في قرارة نفوسهم أنه كلام الذي أحاط بكل شيء علماً ، الذي يعلمُ السّرَّ في السماوات والأرض .

وكلما تقدمت الوسائل العلمية ، وتوسعت دائرة المعرفة البشرية سَتُفْتَحُ آفاقٌ جديدة أمام الباحثين في إعجاز القرآن الكريم .

وعلى أهل الاختصاص من علماء المسلمين أن يعايشوا القرآن المجيد ويستنطقوا آياته لكشف الأستار عن الإشارات القرآنية وتليمحاته عن الحقائق المودعة في مخلوقات الله ، لتكون أبحاثهم ونتاج جهودهم وسيلة لتحقيق وعدِ اللهِ سبحانه وتعالى ﴿سنريهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهِمْ حتّى يتبيّنَ لهُمْ أنّهُ الحقُّ أوَ لَمْ يكفِ بربّكَ أنّهُ على كلّ شيءٍ شهيد﴾ فصلت/ ٥٣ .

الفصل الثاني

المنهج القرآني الفريد

في عرض العقيدة وإثبات التوحيد وترسيخ الإيمان

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية :

البحث الأول : منهج القرآن في عرض العقيدة «منهجٌ للتفكر ودعوةٌ للتدبّر» .

البحث الثاني : أهمية عقيدة التوحيد في الدِّين والحياة .

البحث الثالث : أثر عقيدة التوحيد في حياة الإنسان .

البحث الرابع : الأسلوب الميّسر في عرض العقيدة الإسلامية .

البحث الخامس : فهم الإسلام عقيدةً وشريعةً .

البحث السادس : أمثال القرآن الكريم .

البحث السّابع : أقسام القرآن الكريم .

البحث الثّامن : جدل القرآن الكريم .

البحث التاسع : قصص القرآن الكريم .



البحث الأول :

منهج القرآن الكريم في عرض العقيدة «منهجٌ للتفكر ودعوةٌ للتدبر» :

إن المتأمل لمنهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام السمحة ، يجد منهاجاً واضحاً للتفكر ، ودعوةً ميسّرةً صادقةً للتدبر والتأمل ، وإعمالَ العقل ، والسمع والبصر وغير ذلك من الحواس ليتعرف الإنسان على ربه أولاً ، ليستقيم بعد ذلك الأمر وليقول والإيمان يملأ قلبه ﴿إنّني هداني ربّي إلى صراطٍ مستقيم دِيناً قِيَماً مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً وماكانَ منَ المشركين﴾ .[1]

إنها دعوة للحواس أن تعمل ، وللعقل أن يتدبر ، وللقلب أن يخشع ﴿أفلا يتدبرُون القرآنَ أمْ على قلوبٍ أقفالُها﴾ [2] بغية الوصول إلى الحقيقة الكبرى حقيقة وحدانية الله سبحانه وتعالى خالقاً وآمراً ﴿ألا لهُ الخَلْقُ والأمر﴾[3] .

ولقد تحدث كتاب ربنا العظيم عن حقيقة الألوهية وخصائصها وآثارها وصفاتها باعتبارها الحقيقة الأولى ، والحقيقة الكبرى ، والحقيقة الأساسية في التصور الإسلامي ، كذلك تحدث عن حقيقة العبودية وخصائصها وصفاتها ، تحدث عن هذه الحقيقة ممثلة في الكون ، والحياة ، والإنسان ، وتناول ـ في هذا الحديث ـ طبيعتها ونشأتها وصفاتها وأحوالها ، وعلاقاتها فيما بينها ، ثم علاقتها بالحقيقة الإلهية الكبرى وربط بين مجموع تلك الحقائق من جميع جوانبها في تصور واحد منطقي فطري يتعامل مع بديهة الإنسان فكره ووجدانه ، ومع مجموع الكينونة البشرية في يسر وسهولة .

وهكذا تتكون من مجموعة الحقائق التي يتناولها هذا التصور في شمول وسعة ودقة وتفصيل ، صورة كاملة شاملة ، وتفسير جامع مفصل ، لايحتاج إلى إضافة من مصدر

---

(١) سورة الانعام: ١٦١ .

(٢) سورة محمد: ٢٤ .

(٣) سورة الأعراف : ٥٤ .

آخر ، بل لايقبل إضافة من مصدر آخر ، لأنه أوسع وأدق وأعمق ، وأكثر تناسقاً وتكاملاً من كل مصدر آخر .

وهذا التصور يقوم ابتداء على تعريف الناس بربهم تعريفاً دقيقاً كاملاً شاملاً، يعرفهم بذاته سبحانه ، ويعرفهم بصفاته ، ويعرفهم بخصائص الألوهية المتفردة ، التي تفرقها تماماً عن خصائص العبودية ، كما يعرفهم بأثر هذه الألوهية في الكون ، وفي الناس ، وفي جميع العوالم والأمم الحية ، ويتم هذا التعريف على نطاق واسع جداً في القرآن الكريم يصبح معه الوجود الإلهي في النفس البشرية ، وجوداً أكيداً واضحاً موحياً ، مؤثراً يأخذ النفس من أقطارها جميعاً ، وتعيش معه النفس مشدودة إليه لاتملك التفلت منه ، ولانسيانه ، ولاإغفاله ، لأنه من القوة والوضوح والفاعلية بحيث يواجه النفس دائماً ويتراءى لها دائماً ويؤثر فيها دائماً[1] .

ولذلك فقد سلك القرآن أساليب عدة وبراهين متنوعة واضحة ، وأخذت أدلته تتتابع لإثبات هذه الحقيقة ـ حقيقة الألوهية ـ بأسلوب القرآن الفريد كيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿قلْ فللهِ الحُجّةُ البَالغةُ﴾[2] وهذه الأساليب التي ساقها القرآن للتدليل على وحدانيته ، تعددت وتنوعت كي يتعلم المسلم كيف يعرض عقيدته بأساليب مختلفة ، يختار منها مايناسب المدعو بغية إقناعه حتى يكون إيمانه عن اقتناع وتسليمه عن يقين ، وحتى لايكون الدين تقليداً للآباء والأجداد ، ومن هذه الأساليب التي استخدمها القرآن :

أولاً : مخاطبة الفطر ـ خطابٌ قلبي .

ثانياً : ضرب الأمثال ـ خطابٌ عقلي .

ثالثاً : التحدي بالقرآن ـ خطابٌ تعجيزي .

رابعاً : الأنفس والآفاق ـ خطابٌ عقلي قلبي .

ولاشك أن القرآن الكريم قد أفاض كثيراً في عرض عقيدتنا الإسلامية من خلال الكون ، والإنسان ، والحياة ، وسنتناول ذلك بمشيئة الله تعالى بشيء من التفصيل ، إلا أننا نود أن نعرج على الأساليب الأخرى لنستكمل المنهج الذي سلكه القرآن ، ولكي نتعلم الأسلوب القرآني الأمثل في عرض هذه العقيدة حين ندعو الناس لدين الله .

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ـ سيد قطب ـ ص١١٦ ـ بتصرف .

(٢) سورة الأنعام ١٤٩ .

فالله الحكيم العليم يعلمنا من خلال قرآننا كيف ندعو الناس لدينه ، وكيف لانأطرهم عليه أطراً . . . ولانجبرهم عليه جبراً . . . ولانكرههم عليه كرها ﴿أفأنتَ تُكرِهُ النّاسَ حتّى يكونُوا مؤمنين﴾(١) ولكن ننوع من أساليب دعوتنا ، ونبسط الحجج والبراهين لهم ، فمن لم يقتنع بأسلوب ربما يقتنع بغيره . ومن لم يؤثر فيه دليل ، ربما ألجمه آخر ، ومن لم ينشرح صدره مرة فربما يفتح قلبه للأخرى ، حتى إذا أعذرنا إلى الله تعالى ، وقلبنا جميع وجوه الاقناع وتحريك مكامن المواهب العقلية في النفس البشرية وألفينا أنفسنا وجهاً لوجه أمام عقول غائبة ، وقلوب جاحدة ، ورؤوس جامدة ، وألسنة حداد ، وعزائم مستثارة لمواجهة الحق ومحاولة إطفاء نوره وإعلان الحرب على دين الله ، حينئذ لانجد بُدّاً إلا الأطر وإعمال السيف دفاعاً عن الحق الذي نؤمن به ﴿أُذِنَ للّذين يُقَاتَلُونَ بأنّهم ظُلِمُوا وإنّ اللهَ على نصرهِم لقديرٌ ، الذينَ أُخرِجُوا من ديارِهم بغيرِ حقٍّ إلّا أنْ يقولُوا ربُّنَا اللهُ﴾(٢) .

وماهو إلا العقل أو حد مرهف ، يقيم ظباه العوج من كل مائل .
فهذا شفاء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل

وهكذا فإن الداعي يستخدم هذه الأساليب كمفاتيح تكون سبباً لفتح القلوب إذا أراد الله لها الهداية ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر ، فيسوق الأدلة المناسبة دليلاً تلو دليل بمايناسب المدعو ، حتى يبلغه رسالة ربه ، وماعليه إلا البلاغ ، والله وحده يتولى الهداية ، وشرح الصدور ، وإقبال القلوب على ربها ، فإنه وحده الهادي إلى الصراط المستقيم.

وياله من أسلوب فريد ـ ذلكم أسلوب القرآن ـ وهو يعدد طرق بسط الأدلة وأساليب عرضها لدعوة الناس للتوحيد الخالص ليكون إيمان المرء عن حق لاإكراه فيه ، وعن اقتناع لاتقليد معه ، وعن صدق لامراء فيه ، ويقين لاظن معه ، وهكذا يتعلم الداعي ربانياً ويتربى على مائدة القرآن يأخذ باسلوبه ونهجه في دعوة الناس لدين الله . فأنت ترى القرآن تارة يسوق أسلوب نداء الفطرة ، ومرة يضرب الأمثال ، وأخرى يتحدى بالقرآن،ورابعة بالتأمل في الكون ـ والإنسان ـ والحياة ـ كأدلة لتوحيد الخالق . فمن لايجدي فيه مخاطبة القلب ، ربما ينفعه أسلوب مخاطبة العقل ، أو يردعه التحدي أو تستثيره الدعوة للنظر في ملكوت السموات والأرض واختلاف الليل

---

(١) سورة يونس :٩٩ .
(٢) سورة الحج :٣٩ـ ٤٠ .

والنهار والتفكر في الأنفس والآفاق، إنها دعوة حكيم عليم ﴿يعلمُ خائنةَ الأعينِ وماتُخفِي الصُّدُورُ﴾[1].

وبعد هذا العرض لمنهاج القرآن العظيم في عرض عقيدة الإسلام بأصولها وثوابتها وحقائقها على أساس منهجي واضح ودعوةٍ صادقة للتدبر وإعمالِ العقل والتفكيرفي آياتِ الله تعالى، نأتي لمعرفة منهج الانحراف الخطير على العقيدة والفكر الذي قامت عليه «القراءة المعاصرة في كتاب القرآن» للدكتور «محمد شحرور» حيث يزعم أنّ الإنسان في الأرض جعله الله تعالى خليفةً له في قوانين الربوبيّة والألوهية، وهذا الزعم الباطل يشكل قمّة الإلحاد الفكري في تفسير آيات الله تعالى تفسيراً خارجياً عن منهج الإسلام في التفسير والتأويل، فيقول في كتابه هذا ص٢٥٩: «عندما نضج البشر طائعاً رحمانياً، وأرادَ الله سبحانه وتعالى أن يجعله خليفةً له في الأرض ليخلفه في قوانين الربوبيّة أولاً، أي في القدرة على التصرّف في هذا الوجود المادّي، والألوهيّة ثانياً، أي في القدرة على التشريع، أعطاه من صفاته الذاتية الأحادية الخالية من التناقض وهي الروح ﴿ونفختُ فيه من رُوحي﴾ لذا فإن الإنسانَ فقط مدين لله سبحانه وتعالى في أنسنته وابتعاده عن المملكة الحيوانية، ومن هنا جاءت لفظة الدِّين، وهي من دان يدين، ومنه جاء الدين والمدينة والمدنية».

هكذا يزعم بلاخوف من الله تعالى ولاحياء «أنّ الإنسان خلفَ الله في قوانين ربوبيّته في التصرّف في هذا الوجود المادّي، وخلفَ الله في الألوهيّة ثانياً في القُدرة على التشريع» وهذا يعني أن لاتصرّف لله في هذا الوجود المادّي، وليس له فيه حق التشريع، لأن الإنسان خلفَ الله في قوانين الوجود وقوانين التشريع فيه، وبهذا التفسير الإلحادي فسّر الدِّين والمدنية والمدينة؟! وبهذا التصوّر الكاذب يمضي في كتابه هذا إلى تغيير العقيدة والشريعة باعتبار أنهما من وضع الإنسان الذي هو خليفة الله في الربوبيّة والألوهية، وهذا الاعتقاد الكاذب الباطل مأخوذ عن عقيدة أهل الحلول والاتحاد من زنادقة القرامطة والوجوديين.

[وتابع البحث التالي].

---

(١) سورة غافر: ١٩.

البحث الثاني :

أهمية عقيدة التوحيد في الدِّين والحياة

صحة الاعتقاد شرط في قبول الأعمال[1] :

لايختلف مسلم أن خير ماتصرف فيه الجهود ، ويبذل فيه الوقت ، ويشتغل به العلماء توضيحاً وتفهيماً هو عقيدة التوحيد ، إذ هي الركن الركين والأساس المتين ، والصراط المستقيم ، الذي عليه يقام صرح الإِسلام العظيم ، فبدونها لاتقام أركانه ، ولايستوى نظامه ، ولاتقبل أعماله إذ أن قبولها مرهون بصوابها مع سلامة التصور ، وصحة الاعتقاد ﴿فمَنْ كانَ يرجُو لقاءَ ربِّهِ فليعملْ عملاً صالحاً ولايشركْ بعبادةِ ربِّهِ أحداً﴾[2] .

وبفضل الله فقد أمد الله الإنسان بإمكانيات تؤهله للسيادة على الأرض بهذه العقيدة الصافية ، التي يشيد عليها نظاماً ربانياً يحقق للبشرية سعادتها في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة ، هذه الامكانات هي العقل ، والقلب والسعي . فبالعقل يهتدي الإِنسان في مسالك الحياة ، وبالإيمان يدفع إلى ارتياد المسالك ، وبالسعي يتمكن من السيطرة على البر والبحر ويحصل رزقه من طيبات مافي الأرض ﴿ولقد كرّمنَا بني آدمَ وحملنَاهُمْ في البرِّ والبحرِ ورزقنَاهُمْ منَ الطَّيّباتِ وفضّلنَاهُم على كثيرٍ ممّنْ خلقنَا تفضيلاً﴾[3] .

العقيدة وتكوين الشخصية الإسلامية :

فينبغي للإنسان بعد أن أيده الله بهذه الإمكانات أن يستخدم عقله للهداية لاللإفساد والضلال ، ويستخدم قلبه للإيمان ،ومحبة الخلق، لالكفر والحقد والكراهية ويسعى في تحصيل الخير ، وعمران الأرض وبذلك يصبح سيداً على نفسه ، سيداً على هواه ، فيؤمن بالحق وينصره ، ويكفر بالباطل ويطارده لأن الإِسلام يريد الإِنسان أن يكون

---

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام : جمعة أمين عبد العزيز ص١٩ـ٢٥/ط دار الدعوة ـ الاسكندرية .
(٢) سورة الكهف آية ١١٠ .
(٣) سورة الإسراء آية ٧٠ .

إنساناً ، ولايكون كذلك إلا إذا بدت إنسانيته في مظاهرها الواضحة ، ومظاهر الإنسانية الخالصة في الاعتقاد الصحيح ، والحكم العدل ، والسلوك المستقيم ، فإذا ضل في اعتقاده ، أو مال في حكمه ، أو انحرف في سلوكه ، فقد تأثر فيما ضل وفيما مال وفيما انحرف بعوامل أخرى بعيداً عن إنسانيته ، ولذا كانت محافظة الإنسان على استقلال شخصيته جزءاً رئيسياً في رسالة الإسلام[١] . فلم يكره في الدخول فيه ، ولكن بين له الرشد من الغي ثم تركه وشأنه ﴿فمَنْ شاءَ فليؤمنْ ومنْ شاءَ فليكفرْ﴾[٢] حتى لايكون إمَّعَة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن لابد له من توطين نفسه إن أحسن الناس أحسن وإن أساءوا اجتنب : على هذه المعاني ربّى رسول الله ﷺ رجال دعوته فغرس فيهم عقيدة التوحيد ، فخافوا من الجليل وعملوا بالتنزيل ، واستعدوا ليوم الرحيل ، فهانت عليهم الفانية وتشوقوا للباقية ، فأحبوا لقاء الله فأحب الله لقاءهم ، وخافوا الله فخافهم كلُّ شيء ، وزهدوا في الدنيا فأقبلت عليهم صاغرة ، أعزهم الله بعقيدة التوحيد ، فدانت لهم القياصر والأكاسر ، وأصبحوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين .

العقيدة صانعة الرجال :

إنها عقيدة التوحيد التي صنعت الرجال في كل زمان . وسل التاريخ عنهم قبل بعثه للمصطفى ﷺ وبعده ، سل عن الذين اصطفاهم الله من بين خلقه من النبيين والرسل الكرام من لدن آدم حتى رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

سل القرآن عن إيمانهم ومواقفهم وثباتهم وتضحياتهم ، سله عن زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإبراهيم وإخوانهم ، سل عن أصحاب الأخدود ﴿النَّارِ ذاتِ الوَقُودِ إذْ هم عليها قُعُودٌ وهم على مايفعلُونَ بالمؤمنين شهودٌ وماتقَمُوا منهم إلّا أن يؤمنوا باللهِ العزيز الحميد الذي له مُلْكُ السماواتِ والأرضِ واللهُ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾[٣] وقف متأملاً حال سحرة فرعون وكيف صنعت عقيدة التوحيد فيهم ، وهم الذين ماعرفوا لهم قبلها رباً إلا فرعون ، فأقسموا بعزته ، واحتموا بقوته ، وافتقروا إليه ، فلما دخل الإيمان قلوبهم

---

(١) الإسلام في حياة المسلم ـ د . محمد البهي ـ ص ١٦٣ ، بتصرف .
(٢) سورة الكهف : ٢٩ .
(٣) سورة البروج : ٥-٩ .

صاروا رجالاً وهانت عليهم أرواحهم ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وماضعفوا ومااستكانوا حين هددهم أطغى الطغاة وأبغى البغاة بقوله :﴿آمنتم لهُ قبلَ أن آذنَ لكم إنه لكبيرُكُمُ الذي علّمكم السحر ، فلأقطعنَّ أيديَكُم وأرجلَكُم من خِلافٍ ولأصلبنّكم في جُذوعِ النّخلِ ولتعلمنّ أيّنا أشدُّ عذاباً وأبقى قالوا : لن نؤثرك على ماجاءَنا من البيناتِ والذي فطرنَا فاقضِ ماأنتَ قاضٍ إنّما تقضي هذه الحياةَ الدنيا ، إنا آمنّا بربّنا ليغفرَ لنا خطايَانَا وماأكرهتَنَا عليهِ من السّحْرِ واللهُ خيرٌ وأبقى﴾[١] .

إن القرآن الكريم قص على رسولنا ﷺ تاريخ رجال العقيدة ليثبت فؤاده ويُبيّنَ له ثمرة ثباتهم ، فكان ﷺ أثبتَ مَنْ في الأرض ، وأشجعَهم ، وأقواهم وكان قمة سامقة في كل شيء ديناً وخلقاً وإقداماً «كُنّا إذا حَمِيَ الوطيسُ واشتدَّ البأسُ واحمرتِ الحَدَقُ اتقينا برسولِ اللهﷺ فمايكونُ أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه» !.

وتعلم الصحابة رضوان الله عليهم من رسولهم هذا الثبات منذ اليوم الذي قال فيه :«والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يُظهرَهُ اللهُ أو أهلِكَ دونه» فكان الله غايتهم والرسول قدوتهم والقرآن دستورهم والجهاد سبيلهم والموت في سبيل الله أسمى أمانيهم ، وكانوا يرددون وهم يُعَذَّبُونَ أَحَدٌ أَحَدٌ .

وسل التاريخ عن ياسر وعمار وسمية وبلال وصهيب وخباب ، وغيرهم ، وغيرهم رجالاً ، ونساءا، شباباً وشيبة .

سل عنهم في بدرٍ وأُحُد وحمراء الأسد ، يوم أن قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، يوم تحزب الأحزاب ﴿فلمّا رأى المؤمنُون الأحزابَ قالُوا هذا ماوعدَنَا اللهُ ورسولُهُ وصدقَ اللهُ ورسولُهُ ومازادَهُمْ إلّا إيماناً وتسليماً﴾[٢] .

وماحدث في هذه الغزوات من المواقف الإيمانية والتضحيات البطولية حدث مثله في اليرموك وحطين والقادسية وغيرها من المواقع والمواقف التي سجلها بسطور من نور وماصلاح الدين منا ببعيد ، فأين أنت ياصلاح الدين لتقود المسيرة وتعيد إلينا ماضياً تليداً ، وتاريخاً مجيداً؟ .

---

(١) سورة طه :٧١-٧٣ .
(٢) سورة الأحزاب :٢٢ .

العقيدة التي صنعت هؤلاء مازالت قادرة على صنع غيرهم :

تستطيع العقيدة الإسلامية أن تصنع أمثال صلاح الدين بل وآلافاً من أترابه وتصبغهم بصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، نعم : أو ليست العقيدة الإسلامية التي حولت الحفاة العراة عُبّادَ الصنم والحجر والوثن والشجر إلى جحافل دانت لهم فارس والروم وغيرها من الممالك وجمعتهم بعد تمزق ، وأعزتهم بعد ذل ، وأغنتهم بعد فقر ، وألفت بين قلوبهم بعد عداء فأصبحوا بنعمة الله إخواناً فتحوا بها قلوب العباد قبل البلاد ، بأخلاقهم الكريمة وسيرتهم الحميدة فأصبحوا أساتذة البشرية ومازال ثناء الله عليهم في القرآن غضاً طرياً ولايزال إلى أن يرث الله الأرض وماعليها ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والّذينَ معَهُ أشداءُ على الكُفّارِ رُحَمَاءُ بينَهُم تَرَاهُم رُكعاً سُجّداً يبتغُونَ فضلاً منَ اللهِ ورضواناً سِيمَاهُمْ في وُجُوهِهِم منْ أثرِ السُّجُودِ ذلكَ مثلُهُمْ في التَّوْرَاةِ ، ومثلُهُمْ في الإِنجيلِ كزرعٍ أخرجَ شَطْأَهُ فآزره فاستغلظَ فاستوَى على سُوقهِ يُعجِبُ الزُّرَّاعَ ليغيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾[1] لنقتفي أثرهم وننهج نهجهم .

إنها نماذج إيمانية رفع الله منزلتها وأعلا مقامها ، وخلّدَ ذكرها واستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ومكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً ورضي عنهم ورضوا عنه وأعد لهم مغفرة وأجراً عظيماً .

وكأني بقائل يقول إن الذي ربّى هؤلاء وتعهد هذه الغراس المباركة خير خلق الله - محمد ﷺ - وأنّى لنا؟ فلن يتكرر هذا الجيل . . . وهذا حق مافي ذلك شك فخير القرون القرن الأول ثم الذين يليه ثم الذي يليه وفضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أثبته لهم رب عظيم في كتاب كريم ، ولكن يبقى المنهج الذي تركه الرسول ، ويبقى القرآن مابقيت الحياة ففضل السبق باق ، ولكن المنهاج الذي صنع الرجال دائمٌ بدوام الليل والنهار ويوم أن توفى الرسول قالها الصديق : من كان يعبد محمّداً فإن محمّداً قد مات ،ومن كان يعبدُ اللهَ فإنّ اللهَ حيٌّ لايموت ﴿ومامحمَّدٌ إلاّ رسولٌ قدْ خلتْ مِنْ قبلهِ الرسلُ أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ انقلبتُم على أعقابِكُم ، ومَنْ ينقلبْ على عقبيهِ فلنْ يضرَّ اللهَ شيئاً وسيجزي اللهُ الشاكرين﴾[2] وإلا للزم لنا بعثه رسول جديد ، وهذا محال . . . فرسولُنَا ﷺ خاتم النبيين به أتمَّ اللهُ النعمة وأقام الحجة

---

(1) سورة الفتح : ٢٩ .

(2) سورة آل عمران : ١٤٤ .

والخير في أمته إلى يوم القيامة «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم» أو كما قال ﷺ .

والتاريخ أصدق شاهد ، فكم من رجال حملوا هذه العقيدة بعد وفاة رسول الله ﷺ وفتحوا المشارق والمغارب؟ وهل الفتوحات الإسلامية التي أكرم الله المسلمين بها تمت إلا على أيدي رجال آمنوا بربهم وزادهم هدى بعد وفاة الرسول ﷺ . واقرأ التاريخ لترى كم فيه من هؤلاء الأفذاذ إلى يومنا هذا؟ حملوا لواء لاإله إلا الله وذادوا عنه وحموه بأرواحهم ومهجهم وأموالهم واشتروا الجنة بالدنيا ومافيها ﴿إنَّ اللهَ اشترَى منَ المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهمُ الجنّةَ يُقَاتِلون في سبيلِ اللهِ فيقتلونَ ويُقتلُون وَعْداً عليه حقّاً في التّوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ومَنْ أوفَى بعهدهِ منَ اللهِ فاستبشِرُوا ببيعِكُمُ الذي بايعتُمْ بهِ وذلكَ هو الفوزُ العظيم﴾[1] .

إنها العقيدة الإيمانية التي نهتم بتعميقها في القلوب لأنها الأصل ، صحيح في تعاليم الدين نظم خلقية واجتماعية كثيرة تتناول الحياة الخاصة والعامة من القاع إلى القمة ، لكن هذه التعاليم كلها بناء دعامته العقيدة ، أو هي أعمال غايتها وجه الله ، فإذا انهارت الدعامة ، أو اختلفت الغاية فقدت هذه النظم الخلقية ، والاجتماعية طابعها ، وقيمتها النفسية ، وصارت شيئاً آخر له قيمة أخرى كما تفقد الأوراق المالية قيمتها إذا فقدت رصيدها الذهبي ، فالدِّينُ قبلَ كلِّ شيءٍ شعورٌ ووجدانٌ وإيمانٌ ويقينٌ ، واعترافٌ بحقِّهِ ، في حكم عباده ، ووضع المبادىء التي ينطلقون منها والحدود التي ينتهون إليها[2] .

ولذلك عرفوا الإيمان بأنه عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويحيط بحواسها كلها من إدراك وإرادة ووجدان فلابد من إدراك ذهني تنكشف به حقائق الوجود على ماهي عليه في الواقع ، وهذا الانكشاف لايتم الا عن طريق الوحي الإلهي المعصوم ، ولابد أن يبلغ هذا الإدراك الجزم الموقن ، واليقين الجازم الذي لايزلزله شك ﴿إنّما المؤمنُونَ الذينَ آمنُوا باللهِ ورسولهِ ثمَّ لمْ يرتَابُوا﴾[3] ولابد أن يصحب المعرفة الجازمة إذعان قلبي وإنقياد إرادي يتمثل في الخضوع والطاعة والرضا والتسليم ﴿فلاوربِّكَ لايؤْمِنُونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فيمَا شَجَرَ بينَهُمْ ثـمّ لايجِدُوا في أنفسِهِمْ حَرَجاً مماقضيتَ ويُسلّمُوا

---

(١) سورة التوبة : ١١١ .
(٢) عقيدة المسلم ـ الشيخ محمد الغزالي ـ ص ١٢٤ .
(٣) سورة الحجرات : ١٥ .

تسليما﴾[1] ولابد أن يتبع ذلك المعرفة ، وهذا الإذعان ، حرارة وجدانية قلبية تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية ، والجهاد في سبيلها بالمال والنفس وبذلك تنفذ هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه ، وإلى القلب فتهزه وتحركه وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها ، وإذا اقتنع العقل ، وتحرك القلب واتجهت الإرادة ، استجابت الجوارح ، واندفعت للعمل استجابة للراعي الصالح[2] .

وهكذا تجد العقيدة تغرس في النفس الإحساس بقدرة الخالق وإرادته وحكمته وعلمه وخبرته وسائر أسمائه الحسنى وجماله الأسنى وتدفع المسلم إلى خير الأعمال لأن الإيمان المعتبر هو اقتران بالسمع والطاعة وتطهر من الجحود والاستكبار .

ولقد تعالتْ صيحاتُ الجحود للإسلام والاستكبار على علومه وكتبه في الصفحات الأولى لصاحب القراءة المعاصرة في «الكتاب والقرآن» حيث يقول في ص٣٢: «ماذا نفعل بكتب التراث من الفقه والتفسير التي يُطبع منها كلَّ عام آلاف النسخ، وتُدرّس على أنها الإسلام ؟» ثم يقول في ص٣٣: «إنّ القرآن قد نهانا عن أن نقف من التراث موقف الانصياع الأعمى والتقديس» في حين يُمجّد الفلسفة ويصفها بأنّها أم العلوم، [وهي التي كانت العامل الأكبر في ضياع دارسيها والمتخرجين عليها]، فنجده يقول في ص٣٢: «ليس من العبث تسمية الفلسفة بأم العلوم قاطبةً» كما يزعم في ص٤٣: «لايُوجد تناقض بين ما جاء في القرآن الكريم وبين الفلسفة التي هي أم العلوم» هكذا نجده مخلصاً للفلسفة التي لاتمت إلى القرآن العظيم بصلة فهي برمتها من تركيب خيال الفلاسفة ومن أساطير أوهامهم، ونجده متنكّراً مستكبراً على كتب الفقه والتفسير التي قامت على فهم القرآن العظيم وبيان مدلولاته وتفصيل أحكامه.

ثم نجده يتنكّر للحضارة الإسلامية ويصفها بالجفاف والنّضب وأن لاثمار فيها، فيقول في ص٣٤: «إذا نظرنا إلى الحضارة العربية الإسلامية في الوقت الحاضر، نرى فيها عنصر الجذور متوفراً، ولكنه لايُوجَدُ ثمار لأنها جّفتْ ونضبتْ، فنحنُ الآن مستهلكون للسلع والأفكار، حتى إن أفكار التراث استُهلكتْ ونضبتْ، ووصلنا في طرحنا لأفكار التراث إلى حدّ السذاجة. . .»؟!. .

هكذا انطلق هذا الكاتب في قراءته «للقرآن» قراءة معاصرة متنكّراً جاحداً للثقافة الإسلامية وحضارتها، ومستكبراً على جلالها !؟ فهل بعد هذا الجحود والاستكبار من مزيدٍ تحتَ اسم المعاصرة ؟!. .

---

(١) سورة النساء : ٦٥ .

(٢) هذا التعريف للدكتور يوسف القرضاوي من كتابه الإيمان والحياة بتصرف .

البحث الثالث :

أثر عقيدة التوحيد في حياة الإنسان[1]

ومن أثر الإيمان وجل القلب واطمئنان النفس ، وزيادة التقوى ، سرعان مايترجم هذا الإحساس سلوكاً يتمثل في إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله وعمل الصالحات فيشهد الله لهم بالصدق وهو أعلم بهم ويرفع درجاتهم تفضلاً عليهم ويتجاوز عن سيئاتهم مغفرة منه لهم .

كما ينشأ من أثر هذه العقيدة في القلب والتوكل والإقدام والثقة في الله ، والاطمئنان لجنابه ، فإذا تحزب الأحزاب لايقول ﴿لاطاقةَ لنَا اليومَ بجالوتَ وجنودِهِ﴾[2] إنما يقول ﴿حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكيل﴾[3] . كما تنشأ خصلة الصبر والثبات ، وقوة التحمل في الشدائد والملمات ، فمهما أوذى في سبيل الله فإنه يقول : ﴿ومَالنَا ألاّ نتوكّلَ على اللهِ وقدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ولنصبرنَّ على ما آذيتُمُونَا وعلى اللهِ فليتوكّلِ المتوكّلُون﴾[4] فإذا واجه الموت في سلام أو حرب لم يجزع ويقول (غدا ألقي الأحبة محمداً وحزبه) . . .وهكذا باقي الخصال والفضائل الأخرى هي أثر من آثار علم القلب الذي يصبغ الإنسان بهذا الإسلام .

ولذلك فإن الإنسان حين كان يقبل على الإسلام كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إليه أنه يبدأ عهداً جديداً ، منفصلاً كل الإنفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية ، وكان يقف من كل ماعهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذي يحس أن هذا رجس لايصلح للإسلام لأنه غير مابنفسه والله سبحانه لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم . وبهذا الإحساس كان يتلقى هدى الإسلام

---

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام : جمعه أمين عبد العزيز ص ٣٣-٤٠/و ٣١-٣٢/ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

(٣) سورة آل عمران آية١٧٣ .

(٤) سورة إبراهيم آية١٢ .

الجديد بإطمئنان نفس وثقة قلبية ، وتصميم على السير في هذا الطريق للوصول إليه ، وهذا مانهدف إليه ونحن نقدم للناس عقيدة الإسلام في زمان صدق فيه الرسول ﷺ - مامعناه - «توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قلنا أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال :لا : ولكنكم كثير ولكنكم كغثاء السيل ، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قلنا : وماالوهن يارسول الله؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت» وصدق الله القائل :﴿فخلفَ مِنْ بعدِهم خلفٌ أضَاعُوا الصّلاةَ واتّبَعُوا الشّهواتِ فسوفَ يلقونَ غَيّاً﴾[1] .

الفَرْقُ بينَ عقيدةِ التّوحيدِ والعقائدِ الباطلةِ :

إن التوحيد هو مفترق الطريق بين سبيل الله وسبل الشيطان ، وبين عقيدة المسلم الخالصة ، وسائر العقائد الباطلة ، وحياة المسلم وحياة غيره من الناس ، هو مفرق الطريق في التصور والاعتقاد ، والحياة والسلوك ، بين تفرد الله سبحانه وتعالى بصفة الألوهية ، وذلك الركام من التصورات الجاهلية ، التي تدعو مع الله إلهاً آخر كان حجراً أو وثناً ، أو شمساً أو قمراً ، أو كوكباً ، أو نجماً أو بشراً ، فلامكان لعبودية غير الله عند المسلم، ولامكان للتلقى إلا منه لا في عقيدة أو شريعة أو نظام أو أخلاق أو اقتصاد أو اجتماع ، أو أي منحى من مناحي الحياة .

ومن ثم كان التميز والتفرد لطبيعة الحياة الإسلامية كلها ، لالطبيعة الاعتقاد وحده ، فالحياة الإسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق من حقيقة هذا التصور الإسلامي عن التوحيد الجازم ، التوحيد الذي لايستقيم في الضمير مالم تتبعه آثاره العملية في الحياة ، ومن تلقى الشريعة والتوحيد وكل شأن من شؤون الحياة والتوجه إلى الله في كل نشاط وكل إتجاه[2] .

إن الدعوة إلى كلمة التوحيد «لاإله إلا الله» تمثل نفياً تسقط معه الآلهة الزائفة وإثباتاً يعطي الألوهية كل أوصافها وأفعالها لله رب العالمين ، يخلق ويرزق ، يدبر ويحكم له«الخلق والأمر» ، وهذا الذي نشير إليه إنما يمثل العلم بهذه الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، إذ أن لاإله إلا الله كما يقول ابن القيم لها قلب وقالب أو جسد وروح ، قالب أو جسد هو مانتعلمه من أن الله خالق كل شيء ، خالق الأحياء والأشياء والأنفس والآفاق وهذا مايسمى بعلم القلب ، ويشترك فيه المؤمن

---

(١) سورة مريم آية ٥٩ .

(٢) في ظلال القرآن ج١/ ٣٦٧/

والكافر على حد سواء ﴿ولئنْ سألتهُمْ مَنْ خلقَ السّمٰواتِ والأرضَ ليقولُنَّ اللهُ﴾[1] ﴿ولئنْ سألتهُمْ مَنْ خلقهُمْ ليقولُنَّ اللهُ﴾[2] . وقلب أو روح يحرك هذا الجسد ، ويسري فيه ويسمى «بعمل القلب» ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدري ماالكتاب ولاالإيمان﴾[3] فعمل القلب هو الروح التي تسري فتحيي بعد موات مصداقاً لقوله تعالى﴿أوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فأحييناهُ وجعلنَا لهُ نوراً يمشي به في النّاسِ كمَنْ مثَلُهُ في الظّلماتِ ليسَ بخارجٍ منها﴾[4] ، فينمو بذلك الإيمان الصحيح في القلب ويتحول من معرفة نظرية إلى خشيةٍ وتقوى ، وحياء وخشوع وإخبات ، وسمع وطاعة وتتحدَّدُ بذلك شخصية المسلم فيتميز المؤمن من الكافر والبر من الفاجر ، والصادق من الكاذب ، كل ذلك من تفتح القلوب ، وانشراح الصدور ، وصدق ربي حين قال﴿إنّما المؤمنُونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهُمْ وإذا تُليتْ عليهم آياتُهُ زادَتْهُمْ إيماناً وعلى ربِّهم يتوكَّلُون الذينَ يُقيمُون الصّلاةَ وممّا رزقنَاهُم يُنفِقُون ، أولئكَ هُمُ المؤمنونَ حقّاً ولهم درجاتٌ عندَ ربِّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ﴾[5] .

---

(١) سورة لقمان : ٢٥ ، وسورة الزمر : ٣٨ .

(٢) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٣) سورة الشورى : ٥٢ .

(٤) سورة الأنعام : ١٢٢ .

(٥) سورة الأنفال : ٢-٤ .

البحث الرابع :

الأسلوب الميسر في عرض العقيدة الإسلامية(١)

اختصَّ القرآن العظيم بالأسلوب الميّسر في عرض العقيدة!!

هذا المنهج في عرض عقيدة التوحيد بأسلوب سهل ميسر بسيط يفهمه العامة والخاصة ، والمتعلم والجاهل ، والمثقف والأمي ، والحضري والبدوي ، بدأ به الأنبياء والمرسلون قبل رسول الله ﷺ بسيطاً يتناسب ومراحلهم الزمنية إلى أن نزل القرآن الكريم على قلب رسولنا الأمين محمد ﷺ واكتمل الدين شريعة وأخلاقاً ، واكتمل أيضاً منهاجاً وأسلوباً ليكون المنهج الأقوم والعرض الأكمل والتوجيه الأمثل من رب العالمين ﴿ألَا يعلمُ مَنْ خلقَ وهو اللّطيفُ الخبيرُ﴾(٢) .

فما أحوجنا إلى هذا المنهج والأسلوب في أيامنا هذه التي يموج فيها الناس في سوق من الأفكار والمعتقدات كل بضاعتها مزجاة ، فلاتجد في هذا السوق إلا غاشاً يعرض بضاعة شرقية ملحدة ، أو غربية طاغية ، أو صليبية حاقدة ، أو صهيونية خادعة ، تشوه الأفكار ، وتحرف الإسلام ، وتعلن الحرب عليه وأهله ، بالمدفع والطائرة تارة ، وبالقلم واللسان مرات ، مصداقاً لقول ربي :﴿لَتُبْلَوُنَّ في أموالِكُمْ وأنفسِكُم ولتسمعُنَّ منَ الذينَ أُوتوا الكتابَ من قبلِكُم ومِنَ الذين أشرَكُوا أذىً كثيراً ، وإنْ تصبِرُوا وتَتَّقُوا فإنّ ذلك من عزمِ الأمور﴾(٣) .

ومعظم الناس في هذه السوق جاهلون بدينهم ، مخدوعون بمايسمعون ، حائرون مما يرون، وهم متلهفون لتاجر أمين يُوفي لهم الكيل ويتصدق عليهم ، بتوضيح الإسلام وتبيين حقيقة الإيمان ، ليكونوا على بينة بكل هماز مشاء بنميم ، أو ضال

---

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام : جمعه أمين عبد العزيز ص ٣٨-٤٠ .
(٢) سورة الملك آية ١٤ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٨٦ .

مضل مبين ، أو كافر حقود ، أو ملحد جحود ، يزينون لهم بضاعتهم الزائفة وعقائدهم الباطلة ، وتصوراتهم الفاسدة ، ويقسمون بالحِنْثِ العظيم على نقائها وصفائها ، وصحتها وسلامتها وهم على يقين بأن يمينهم غموس ﴿وَدُّوا لو تكفرُونَ كمَا كفَرُوا فتكونُونَ سواءً﴾[1] وإن أردت أن تعرف حقيقتهم فسل رب العباد يجيبك عن صفاتهم المنفرة وأوصافهم المقززة فيقول :﴿واتْلُ عليهم نبأَ الّذي آتيناهُ آياتِنَا فانسلخَ منها فأتبعَهُ الشيطانُ فكانَ من الغَاوِين ، ولو شئنَا لرفعنَاهُ بها ولكنّه أخلدَ إلى الأرضِ واتّبعَ هوَاهُ فمَثَلُهُ كمثَلِ الكَلْبِ إنْ تحمِلْ عليهِ يلهثْ أو تتركْهُ يلهثْ ذلكَ مثَلُ القومِ الذين كذَّبُوا بآياتِنَا فاقصصِ القَصَصَ لعلّهم يتفكّرون﴾[2] .

ألا ماأحوج الناس اليوم لمن يبين لهم باطلهم وزيفهم ووصفهم ويوضح لهم الغث من الثمين ، والظلام من النور ، والحق من الباطل ، والهوى والظن من الصراط المستقيم ، بلسان مبين وخلق متين ، وسلوك قويم يناديهم وهو الرحيم بهم ، المشفق عليهم ، الحريص على مصيرهم : هلمَّ إليَّ عبادَ الله ﴿ . . .هلْ أدلُّكُم على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليمٍ تُؤمِنُونَ باللهِ ورسولهِ ، وتجاهِدُون في سبيلِ اللهِ بأموالِكُمْ وأنفسِكم ذلكَ خيرٌ لكمْ إن كنتُمْ تعلمونَ يغفِرْ لكم ذنوبَكُم ويُدْخِلْكُمْ جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ ومساكنَ طيّبةً في جنّاتِ عَدْنٍ ذلكَ الفوزُ العظيم﴾[3] .

إنها تجارة رابحة لن تبور ، ولكن أين المنادي العليم الرحيم الذي ينادي على تلك السلعة الغالية وهو بطبيعة السوق عليم ، وبحس العرض خبير ، وبقول الحق جسور ، وبتشويق المشتري حصيف ، وبأدب اللفظ شهير ، شعاره ﴿وقُولُوا للنّاسِ حُسْناً﴾ ومنهاجه ﴿ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادِلْهُمْ بالتي هي أحسنُ﴾[4] فمن أراد أن يتحلى بهذا كله فليعش مع أنبياء الله ورسله ليتعلم كيف عرضوا هذه العقيدة على أقوامهم . . .فهيا لنعش معهم ولنتعلم أسلوبهم الحكيم ومنهاجهم الفريد .

---

(١) سورة النساء آية٨٩ وهذا ما نجده فيما أسماه الدكتور«شحرور»في الكتاب والقرآن قراءة معاصرة . (٢) سورة الأعراف اية ١٧٥-١٧٦ .

(٣) سورة الصف آية ١٠-١٢ .

(٤) سورة النحل آية١٢٥ .

الإنسان مخلوق متدين،ومنهج توجيه فطرته :[1]

إن الإنسان مخلوق متدين ، نستطيع أن نعرفه بذلك ، لماذا؟ لأنّ الإيمانَ فطرةٌ ﴿فطرةَ اللهِ التّي فطرَ النّاسَ عليها﴾ لذلك كان هذا الذي قلناه ، أصدق تعريف للإنسان أنه (مخلوق متدين) ، انظر إلى أشد الناس إلحاداً وأبعدهم عن الله عندما يأتيه الموت ﴿فيقول ربِّ لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾[2] ويقول ﴿ربِّ ارجعونِ لعلي أعملُ صالحاً فيما تركت﴾[3] فهو يقول ﴿رب﴾ أخبرنا بذلك رب العزة ، أنهم يقولونها ولو لم نرَ لهم شفاهاً تتحرك ، أو ألفاظاً تخرج أو كلمات تُسمع ، هم يقولونها لأن خالق الإنسان أخبرنا بذلك ، ولقد قالها فرعون الذي تكبَّر وتجبَّر ، وقال أنا ربكم الأعلى ، ﴿حتى إذا أدركَهُ الغَرَقُ قالَ آمنتُ أنّه لاإله إلاّ الذي آمنتْ بهِ بنُو إسرائيل﴾[4] . . . لكنه قالها في موقف لاينفعه فيه الندم ، وقت لاتقبل فيه التوبة ﴿وليستِ التوبةُ للّذين يعملُونَ السيّئاتِ حتّى إذا حضرَ أحدَهُمُ الموتُ قالَ إنّي تبتُ الآنَ ولاالذين يمُوتُونَ وهُمْ كُفّارٌ أولئك أعتَدْنَا لهم عذاباً أليماً﴾[5] .

فأنت ترى أن الإيمان بوجود الله شعور فطري ينبع من النفس وماعلى المسلم إلا أن يؤيد إيمانه الفطري بالأدلة العقلية الناطقة ، والبينات الساطعة ، غير أن العلم بالله هداية من طلبها وجدها ، وزاده الله منها ﴿والذينَ اهْتَدَوْا زَادهُمْ هُدىً﴾[6] ومن أبى فلايلومنَّ إلا نفسه .

إن الإحساس الفطري شعور أصيل في النفس الإنسانية، يستوي فيه العالم والجاهل والحضري والبدوي ، والرجال والنساء ، والأولون والآخرون ، وهو دليل مأخوذ من واقع الإنسان وتجاربه ، فكم دعا الإنسان ربه فأجاب دعاءه؟ وكم ناداه فلبّى نداءه ، وكم سأله فأعطاه ، وكم توكل عليه فكفاه ، وكم من مرض شفاه منه؟ وكم من ألم خففه عنه؟ وكم من رزق ساقه إليه؟ وكم من كربة فرجها؟ وكم من غمة

---

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام ص ٦٠-٧٥ بتصرف يسير .
(٢) سورة المنافقين من الآية١٠ .
(٣) سورة المؤمنون آية ١٠٠ .
(٤) سورة يونس آية ٩٠ .
(٥) سورة النساء آية ١٨ .
(٦) سورة محمد ﷺ آية ١٧ .

كشفها؟ لكنه هو الإنسان لربه لكنود .

إن تجارب الإنسان في الحياة الدنيا تأخذ بيده وتوصله إلى الله مباشرة ، لأنها تكشف له عن الحقيقة التي لم يستطع أن يلمسها بحواسه ، والتي تدبر الكون وتسير وفق نظام محكم ، وقانون مطرد ، ومامن إنسان إلّا وقد وقع له في حياته من التجارب ماعرَّفَهُ بالله ، وهداهُ إليه وأوقعه عليه ، لكنه ينسى أو يتناسى . فكثيراً مايفقد الإنسان جميع الأسباب المادية التي تجلب الخير له أو تدفع الشر عنه ، فإذا توجه بقلبه إلى ربِّ كلّ شيء ومليكهِ ، تحقق له من الخير مايصبو إليه واندفع عنه من الشر مايخاف منه دون سبب ظاهر ، أو تعليل معقول ، فبماذا تفسر هذه الظواهر؟ وهل لها تفسير سوى أن من ورائها رب الأرباب ،ومسبب الأسباب[1] .

أغير الله تدعون؟

وإن من الأمور المسلم بها أنه مامن نفس إلا وتلجأ إلى الله ساعة الخطر أليس كذلك؟ أنا لاأجيبك بل الله يجيبك ﴿قُلْ أرأيتمْ إنْ أتاكُمْ عذابُ اللهِ أو أتتكُمُ السّاعةُ ، أغيرَ اللهِ تدعونَ إنْ كنتم صادقين ، بلْ إيّاه تدعُونَ فيكشفُ ماتدعونَ إليهِ إنْ شاءَ وتنسَوْنَ ماتشركُونَ﴾[2] ، ﴿قُلْ مَنْ يُنجيكُمْ مِنْ ظُلماتِ البرِ والبحرِ تدعونَهُ تضرّعاً وخيفةً لئنْ أنجانَا من هذهِ لنكوننَّ منَ الشّاكرين ، قلِ اللهُ يُنجيكُمْ منها ومن كلِّ كربٍ ثم أنتم تُشركُونَ﴾[3] وصدق الله القائل ﴿أمّنْ يُجيبُ المضطرَّ إذا دعَاهُ ويَكشفُ السّوءَ؟﴾[4] ﴿قُلِ اللهُ ثم ذَرْهُمْ في خوضِهم يلعبُونَ﴾[5] ، وبهذا يجيب الشعور الداخلي الذي خلقه الله في الإنسان يجري علينا أقدارَه حتى يلجئَنا إلى معرفته لتقوم علينا الحجة ، والسعيد من امتلأ قلبه بهذا الشعور فقال : لاملجأ من الله إلا إليه .

فهل أنتَ محتاجٌ بعد ذلك إلى أدلة تثبتُ لك أن الله تعالى هو الخالق إن الحقيقة الإنسانية والفطرة البشرية ، تكذبان هذا الادعاء ﴿فأقِمْ وَجهكَ للدِّين حنيفاً فطرةَ اللهِ التي فطرَ النّاسَ عليها ، لاتبديلَ لخلقِ اللهِ ذلكَ الدِّينُ القيِّمُ ولكنّ أكثرَ النّاسِ لايعلمُونَ﴾[6]

---

(١) العقائد الإسلامية : سيّد سابق ص ٤٤ .
(٢) سورة الأنعام : ٤٠-٤١ .
(٣) سورة الأنعام : ٦٣-٦٤ .
(٤) سورة النمل : ٦٢ .
(٥) سورة الأنعام : ٩١ .
(٦) سورة الروم : ٣٠ .

وتتبعْ آياتِ القرآن الكريم وعِشْ معها ـ وهي أصدق تاريخ للعقيدة ـ وخصوصاً الآيات التي تحدثت عن الرسل ورسالاتهم إلى أممهم ، تبين أن ضلال الأمم من عبادتها آلهة معينة كالأحجار والأصنام والشمس والقمر والشجر ، وبعض الحيوانات والحشرات لتقرِّبَها إلى الله تعالى وتكون واسطة بين الإنسان وبين الله ، ولذلك كانت دعوة الرسل منصبة على تحويلهم من عبادة غير الله إلى عبادة الله مباشرة دون واسطة ، قال تعالى ﴿ وما أرسلنَا مِنْ قبلِكَ مِنْ رسولٍ إلّا نُوحِي إليهِ أنّهُ لاَإلهَ إلاّ أنَا فاعْبُدُونِ﴾[1] .

وبذلك يتضح لك وضوحاً لاشك فيه ، أن قضية وجود الله تعالى قضية مفروغ منها لأنها فطرية في الإِنسان ، فليست في حاجة إلى إقامة الأدلة والبراهين عليها وبذل الجهود لإثباتها ، وهل تحتاج الشمس لإثبات وجودها؟ إن وجود الله أوضح من شمس تشرق على الدنيا بنورها ، فاللهُ نورُ السّمواتِ والأرض .

ألا ترى بعد ذلك أن أول واجب عليك هو أن تستخدم العقل المتأمل ، والفهم الواعي ، وأن ترجع إلى الوحي المنير لتتعلم ماجهلت عن خالقك وتقول ﴿سبحانَكَ لاعلمَ لنَا إلاّ ماعلمتنَا إنّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ﴾[2] فإلهك واحدٌ أحدٌ ، فردٌ صمدٌ ، لم يلدْ ولم يُولدْ ولم يكنْ له كفواً أحد .

دعاء المضطر :

لاغرابة إذن في أن الفطرة تستصرخ خالقها وبارئها لأنها توقن بوجوده ، وتشعر بوحدانيته فلاعجب أن تقول : الغوث : الغوث ، النجاء : النجاء ، حين تحس بأي خطر من الأخطار أو ضرر من الأضرار ، لايمارى في ذلك أحد ، ولاينكره عاقل ، نطق بذلك القرآن فقال : ﴿وإذا مسَّ الإِنسانَ الضُّرُّ دعَانَا لجنبهِ أو قاعداً أو قائماً فلمّا كشفنَا عنهُ ضُرَّهُ مرَّ كأنْ لمْ يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مسَّهُ كذلكَ زُيِّنَ للمسرفينَ ماكانُوا يعملُونَ﴾[3] .

لذلك كان الدعاء هو العبادة ، لأنه استشعار بالضعف الإِنساني ، واعتراف بالإِله

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٥ .
(٢) سورة البقرة : ٣٢ .
(٣) سورة يونس : ١٢ .

القوي ، فيتحقق بذلك أسمى أنواع العبودية ، كمال الذل ، وكمال الحب لله رب العالمين .

وقبل أن نسترسل في معنى الاستغاثة والدعاء والابتهال إلى الله ، نود أن نجلي أمراً يخيل للمرء أن فيه إشكالاً لابد من توضيحه ، وشبهة لابد من إزالتها ، هو أن الإنسان قد يستغيث بالمخلوق الحي ويناديه ويطلب غوثه ويحتمى به ، وهذا أمر طبيعي فيما يقدر عليه من الأمور التي في استطاعته ، وإمكانه ، وليس في الأمور المستحيلة التي يعجز عن الإتيان بها أو التي ليست في مقدور البشر ، هذه بديهية لاتحتاج إلى دليل أو برهان .

فقد تنشب النار ، ويشتعل الحريق في بيت من البيوت فيستغيث صاحبه بالشرطة أو الجيران طلباً للإنقاذ ، أو يعتدى عليك لص آثم فتستنصر الناس ليخلصوك منه ، ويحموك من اعتدائه وهذا أمر معتاد يحدث مع كل الناس ، والقرآن الكريم بيّنَ لنا أن هذا النوع من الاستنصار والاستغاثة من مألوف البشر فحكى لنا قصة موسى عليه السلام حين استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴿فوكزَهُ موسى فقضَى عليه . .﴾[1] وكما قال ﴿وإنِ استنصرُوكُمْ في الدِّينِ فعليكُمُ النَّصْرُ . . .﴾[2] .

أما الأمور التي لايقدر عليها إلا الخالق القادر سبحانه وتعالى ، فلايصح أن يستغاث لها من البشر ولكن يستغاث بمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولايُجار عليه ككشف الضر ، وتفريج الهم ، والشفاء من السقم ، ودفع الفقر ، وغفران الذنب ، والهداية إلى سواء السبيل ، وغير ذلك من الأمور والأحوال التي يداولها المولى سبحانه بين الناس فلايلجأ فيها إلا إليه وحده ﴿أمّنْ يُجيبُ المُضْطرَّ إذا دعَاهُ ويكشفُ السوءَ ويجعلُكُمْ خلفَاءَ الأرضِ أإلهٌ معَ اللهِ قليلاً ماتذكَّرُون﴾[3] . فإن استغاث الإنسانُ بمخلوق في مثل هذه الأمور فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً ، وافترى إثماً عظيماً وقال منكراً من القول وزوراً ، ووقع في المحظور ، وخالف الشرع الحكيم واتبع الشيطان الرجيم ، فنوضح له هذا المنزلق إن كان جاهلاً ، ونحذره من هذه الهاوية حتى لاتتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح في مكان سحيق لأنها الحالقة التي تحلق الدِّين .

فالمسلم مطالب بأن يؤمن إيماناً راسخاً بأن الله هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم

---

(١) سورة القصص : ١٥ .
(٢) سورة الأنفال : ٧٢ .
(٣) سورة النمل : ٦٢ .

والخبير ، وأنه وحده المسؤول والمأمول وإليه وحده يرجع الأمر كله ، عبادة واستعانة ، والمسلم يردد ذلك في كل صلاة يصليها ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، لتذكرنا بالبداية والنهاية ، ﴿وللهِ الأسماءُ الحُسْنَى فادْعُوهُ بها وذَرُوا الذينَ يُلحِدُونَ في أسمائِهِ سَيُجْزَونَ ماكانُوا يعمَلُون﴾[1] وكلما تمكنت هذه العقيدة من قلب المسلم أذعن لله ، واعترف بألوهيته ، واستشعر ضعفه وقدرة الله عليه ، فيلجأ إليه يدعوه مخلصاً له الدِّين لأنه لاملجأ ولامنجى من الله إلا إليه ، وبذلك يعتزل الأضداد والأنداد فلايدعو إلاّ ربّاً كريماً بالغداة والعشى لايريد إلا وجهه ، خوفاً من ناره وطمعاً في جنته ويتمثل قول إبراهيم عليه السلام ﴿واعتزِلُكُمْ وماتَدْعُونَ من دونِ اللهِ وأدْعُو ربّي عسَى ألاّ أكونَ بدعاءِ ربّي شقياً﴾[2] .

فالدعاء هو العبادة ، وسمة المؤمنين ، والأنبياء الصالحين ، والرسل الكرام المبعوثين رحمة للعالمين ، فهم يلجأون إلى الله دائماً في صغير الأمر وكبيره ، فهذا آدم عليه السلام يقول ﴿ ربّنا ظلمناَ أنفسَنَا وإنْ لمْ تغفِرْ لنا وترحمْنَا لنكونَنّ منَ الخَاسِرِين﴾[3] ، وهذا إبراهيم وإسماعيل يقولان ﴿ربّنا تقبّلْ منّا إنّكَ أنتَ السميعُ العليمُ﴾[4] ، وأما نوح عليه السلام فيقول ﴿إنّي مَغلُوبٌ فانتصِرْ﴾[5] ﴿ وأيوبَ إذْ نادَى ربّه أنّي مَسّنِيَ الضُّرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمين﴾[6] ، أما زكريا عليه السلام فنادى ربه ﴿ربِّ إنّي وهَنَ العظمُ منّي واشتعلَ الرأسُ شيباً ولمْ أكنْ بدعائِكَ ربّي شقياً ، وإنّي خفتُ المَوالِيَ مِنْ ورائي وكانتِ امرأتي عَاقراً فهبْ لي مِنْ لَدُنْكَ ولياً﴾[7] وهذا سليمان عليه السلام يقول ﴿ هبْ لي ملكاً لاينبغي لأحدٍ من بعدي إنّكَ أنتَ الوهاب﴾[8] أما عيسى عليه السلام فيطلب من الله آية ﴿ أنزلْ علينا مائدةً من السماءِ تكونُ لنَا عيداً لأولنَا

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠ .
(٢) سورة مريم : ٤٨ .
(٣) سورة الأعراف : ٢٣ .
(٤) سورة البقرة : ١٢٧ .
(٥) سورة القمر : ١٠ .
(٦) سورة الأنبياء : ٨٣ .
(٧) سورة مريم : ٤-٥ .
(٨) سورة ص : ٣٥ .

وآخِرِنَا وآيةً منكَ وارزقْنَا وأنتَ خيرُ الرازقين﴾[1] .

ورسولنا الكريم «إليكَ أشكُو ضعفَ قوّتي وقلّةَ حيلتي وهوَانِي على النّاسِ ياأرحمَ الراحمين» .

وهكذا حال المؤمنين ﴿وماكان قولُهُم إلّا أنْ قالُوا ربّنا اغفِرْ لنَا ذُنُوبَنَا وإسرافَنَا في أمرِنَا وثبّتْ أقدامَنَا وانصُرْنَا على القومِ الكافرين﴾[2] ولاعجب من ذلك فكيف لاينادونه وهو القريب؟ وكيف لايسألونه وهو المجيب؟ وكيف لايطلبونه وهو المعطي؟ يقضي حوائج السائلين ، ويسمع دعوة الداعين ، ويرى تضرعهم ويعلم حالهم ، ويجيب سؤالهم إن كان عن إيمان وخشوع ، لأنه القريب المجيب ﴿ وإذا سألكَ عبادي عنّي فإني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعي إذا دعانِ فليستجيبُوا لي وليؤمنُوا بي لعلّهم يرشُدُون﴾[3]

قال الإمام ابن تيمية «وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه» وفي الصحيح «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» وماذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لاينافي ماذكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء[4] .

روي أنّ أعرابياً قال : يارسول : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله :﴿وإذا سألكَ عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أجيبُ دعوةَ الدّاعِي إذا دعانِ فليستجيبُوا لي وليؤمنُوا بي لعلّهم يرشُدُون﴾[5] .

وعن الحسن قال : سأل أصحاب رسول الله ﷺ : أين ربنا؟ فأنزلَ الله عز وجل : ﴿وإذا سألكَ عبادي عنّي فإنّي قريب . . .﴾ الآية .

وقال عطاء : أنه بلغه لمّا نزلت ﴿وقال ربُّكُمُ ادعُوني أستجيبْ لكم﴾ وقال الناس لو نعلم أي ساعة ندعو؟ فنزلت ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب . . .﴾ الآية .

وعن أبي موسى الأشعري قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فجعلنا لانصعد

---

(١) سورة المائدة :١١٤ .
(٢) سورة آل عمران :١٤٧ .
(٣) سورة البقرة :١٨٦ .
(٤) الصفوة ـ جزء١ـ ص١٢٤ .
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم .

شَرَفاً ، ولانعلُو شَرَفاً ، ولانهبطُ وادياً ، إلاّ رفعنا أصواتنا بالتكبير قال : فدنا منا فقال: «ياأيها الناس أرْبِعُوا على أنفسِكم فإنّكم لاتدعونَ أصماً ولاغائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ياعبد الله بن قيس ألا أعلّمُكَ كلمةً من كنوز الجنة؟ لاَحَوْلَ ولاقُوّةَ إلاّ بالله»[1] .

وقال ﷺ : «القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتم الله أيها الناس فأسألوه وأنتم موقنون بالإِجابة ، فإنه لايستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل»[2] .

والذين لايدعون ربهم اليوم سائلين إياه أن يفرج الكرب ، وييسر الأمر وأن يبدل عسرهم يسراً ، وضيقهم فرجاً ، وحزنهم سروراً ، وفقرهم غنى، هم المستكبرون المتعالون ﴿إنّ الذين يستكبرُون عن عبادتي سيدْخُلونَ جهنّمَ دَاخِرِين﴾[3] ويومهايدعون فلايفيد الدعاء ولايستجاب لهم ، إذ يقولون وهم في النار لخزنة جهنم ﴿ادْعُوا ربّكم يُخَفِّفْ عنّا يوماً من العذابِ قالوُا أوَ لَمْ تَكُ تأتِيكُم رسلُكُمْ بالبيّنات ، قالوا: بلَى قالوُا فادْعُوا ومادُعَاءُ الكافرين إلاّ في ضَلال﴾[4] .

روى الطبراني في معجمه الكبير : أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال ﷺ : «إنّه لايُستغَاثُ بي وإنّما يُستغاثُ بالله» .

لأن الرسول ﷺ ، لايقدر على تحويل القلوب من النفاق إلى الإيمان ، إنما الذي يقلب القلوب والأبصار هو الذي يقلب الليل والنهار وهو الواحد القهار ، الذي يحول بين المرء وقلبه ، فنتوجه إليه ونلجأ إليه نلوذ بحماه ، ونطلب رضاه ، وننتظر إجابته حين ندعوه لأنه سميع قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه .

ولذلك يجب على المسلم ألا يعتريه الشك في الإِجابة ، بل لابد أن يوقن بقدرة الله وألاّ يُماري في علمه ، وألا يرتاب في رحمته ﴿لهُ دعوةُ الحقِّ والذينَ يدعونَ من دونهِ لايستجيبونَ لهم بشيءٍ إلاّ كباسطِ كفيهِ إلى الماءِ ليبلغَ فَاهُ وماهُوَ ببالغِهِ ومادُعاءُ

---

(١) رواه أحمد والشيخان .
(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمر . وإسناده حسن كما في الترغيب ج٢/ ٤٩١
(٣) سورة غافر : ٦٠ .
(٤) سورة غافر : ٤٩-٥٠ .

الكافرين إلا في ضلال﴾[1] .

ألا فادعه مخلصاً له الدين يؤتك كفلين من رحمته ، ويُلبِّي نداءَكَ ويعطيك أكثر مما سألت لأنه الغنى الحميد .

التوسل والوسيلة :

أما وأننا حدثناك عن الدعاء ، فحريٌ بنا أن نُعرِّجَ على التوسل والوسيلة بشيء من الإيجاز ، استكمالا للتصور ، وتصحيحاً للفهم .

فالوسيلة : هي المنزلة عند الملك ، والوسيلة : الدرجة والقربة ، ووسل فلان إلى الله وسيلة : إذا عمل عملاً تقرب به إليه ، والواسل : الراغب إلى الله ، وتوسل إليه وسيلة : إذا قرب إليه بعمل ، هكذا جاء في لسان العرب .

وقال الفيروز أبادى في القاموس المحيط ، والوسيلة والواسلة المنزلة عند الملك والدرجة والقربة ، ووسل إلى الله توسيلاً : عمل عملاً تقرب به إليه كتوسل ، والواسل الواجب والراغب إلى الله تعالى ، وقال الراغب في مفردات القرآن:الوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة وهي أخص من الوسيلة لتضمنها معنى الرغبة ، قال الله تعالى «وابتغوا إليه الوسيلة» وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحرى أحكام الشريعة ، وهي كالقربة ، والواسل : الراغب إلى الله تعالى .

وقال ابن الأثير في النهاية في حديث«اللهم آتِ محمداً الوسيلة» هي في الأصل مايتوسل به إلى الشيء ، وجمعها : وسائل ، ويقال : وسل إليه وتوسل ، والمراد في الحديث : القرب من الله تعالى ، وقيل : هي الشفاعة يوم القيامة ، وقيل هي منزلة من منازل الجنة كذا جاء في الحديث .

أما قول الله تعالى :﴿ياأيها الذين آمنوا اتَّقُوا اللهَ وابتغُوا إليهِ الوسيلَةَ﴾[2] أي ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعدهم من الثواب وأعد من العقاب «اتقوا الله» يقول :أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم ، من الطاعة له في ذلك ، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من أعمالكم «ابتغوا إليه الوسيلة» أي اطلبوا القربة إليه بما يُرضيهِ[3] .

---

(١) سورة الرعد : ١٤ .

(٢) سورة المائدة : ٣٥ .

(٣) ابن جرير الطبري .

وكما يقول الإمام النسفي الوسيلة هي كل مايتوسل به ، أي يتقرب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك ، واستعيرت لما يتوسل به إلى الله من فعل الطاعات وترك السيئات .

فكأن المولى سبحانه وتعالى يأمرنا بأن نطلب حاجاتنا متوجهين إليه وحده دون غيره لأن بيده سبحانه مقاليد السموات والأرض ، فهو القوي العزيز وغيره الفقير الضعيف ، فليتق الله المسلم بترك المعاصي وفعل الطاعات ، فتلك هي الوسيلة الحق التي يدعو المولى سبحانه وتعالى عباده إليها .

وعلى هذا فالوسائل للقربى من الله لاتعد ولاتحصى لأن كل طاعة وسيلة من إماطة الأذى عن الطريق ، إلى الجهاد في سبيل الله ، فهذا ميدان فسيح أبوابه متعددة يلجه المؤمن من أي باب شاء ، وهذا التوسل إلى الله بأعمال الخير ، وقتاً ، ومالاً ، ونفساً .

معاني الوسيلة :

ولقد تتبعت معاني «الوسيلة» في الشرع والعرف فوجدتها لاتعدو هذه الصور الخمس :

١ـ التوسل إلى الله بذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، على نحو ما جاء في الحديث «اللهم إني أسألك بأنك أنتَ اللهُ الذي لاإلهَ إلّا هو الأحدُ الصّمدُ الذي لم يلدْ ولم يولدْ ولم يكنْ له كفواً أحد» ومثل ماورد في حديث حفظ القرآن «أسألكَ بجلالِكَ ونورِ وجهك أن تلزم قلبي حفظَ كتابِكَ كما علمتني» ومثل «أعوذُ برضاكَ من سَخَطِكَ ، وبمعافاتِكَ من عقوبتِكَ» .

وهذا النوع من التوسل لاشيء فيه يقيناً ، بل هو قمة التوحيد .

٢ـ التوسل إلى الله بطاعته ، وماقدمنا من عمل صالح نرجو به وجهه الكريم وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنُوا اتّقُوا اللهَ وابتغُوا إليهِ الوسيلةَ وجاهِدُوا في سبيلهِ لعلّكم تفلِحُون﴾[1] .

وهذا مجمع على صحته مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : «تعرّفْ على اللهِ في الرخاءِ يعرِفْكَ في الشّدّة» دليل ذلك حديث الثلاثة الذي رواه الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : «بينما ثلاثة نفر ممن قبلكم يمشون ، إذ

---

(١) سورة المائدة : ٣٥ .

أصابهم مطر فأووا إلى غار ، فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله ياهؤلاء لاينجيكم إلّا الصدقُ فليدعُ كلٌّ رجل منكم بما يعلم أنه صدق فيه ، فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجيراً عمل على فَرْقٍ من أرز[1] فذهب وتركه وإنّي عمدتُ إلى ذلك الفَرْق فزرعته ، فصار من أمره أني اشتريت منه بقرة ، وأنه أتاني يطلب أجره فقلتُ له : اعمد إلى تلك البقرة ، فسقها فقال لي : إنما لي عندك فَرْقٌ من أرز ، فقلتُ له : اعمد إلى تلك البقرة فإنها من ذلك الفَرْقِ ، فساقها ، فإن كنتَ تعلم أنّي فعلتُ ذلك من خشيتِكَ ففرِّجْ عنّا ، فانساحتْ عنهم الصخرةُ . . . قال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم ، فابطأتُ عنهما ليلةً فجئتُ وقد رقدَا ، وأهلي وعيالي يتضَاغوْنَ[2] من الجوع ، فكنتُ لاأسقيهم حتى يشربَ أبويَّ فكرهتُ أن أوقظهما وكرهتُ أن أدعهما فيسكنا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ،فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنّا ، فانساحتِ الصخرة حتى نظروا إلى السماء . . .فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنةُ عمٍّ من أحبِّ الناس إلّي ، وأنّي راودتُها عن نفسها فأبتْ إلا أن آتيها بمائة دينار ، فطلبتها حتى قدرتُ عليها فأتيتها بها فدفعتها إليها ، فأمكنتني من نفسِها ، فلمّا قعدتُ بين رجليها قالت : اتّقِ اللهَ ولاتفضَّ الخاتَمَ إلّا بحقِّهِ ، فقمتُ وتركتُ مائةَ الدينار ، فإن كنت تعلم إني فعلتَ ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنّا ، ففرَّجَ اللهُ عنهم فخرَجُوا .

فأنتَ ترى في هذا الحديث رجلاً يتوسل إلى الله بأمانته في مال هذا الأجير بالحق ، واستثماره له حتى بلغ مابلغ ، وطابت نفسه عن هذا المال الكثير ابتغاء مرضاة الله ، وآخر يبر والديه لايريد أن يقدم أولاده عليهما إيثاراً لهما وبراً بهما ، واعترافاً بحقهما طاعة لله ، وثالث عبث الشيطان به وأغراه بالإثم وحببه إليه حتى إذا هم باقترافه ، ذكرته صاحبته حق الله فذكر وأعرض عن الفاحشة خوفاً من الله تعالى ، وجميعهم يرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، أبعد هذه الوسائل وسيلة . . .إنه التوسل الصحيح بطاعة الله وحب رسوله والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه فمن توسل بهذه الطاعة أثيبَ ، ومن فعلها أُجرَ ، هذا هو الصراط المستقيم ، والنهج القويم .

٣ـ التوسل بدعاء الصالحين من الأحياء ومن نتوسم فيهم درجة الإحسان، ودعاء المؤمنين بعضهم لبعض لأحيائهم وموتاهم ثابت من عهد نوح عليه السلام الذي قال :«ربِّ اغفرْ

(١) مكيال بالمدينة يسع ثلاثة آصع أو ستة عشر رطلاً .

(٢) يتصايحون .

لي ولوالديَّ ولمن دخلَ بيتيَ مؤمناً وللمؤمنينَ والمؤمناتِ ولاتَزِدِ الظالمين إلا تباراً»(١)

وهذا مأثور مأجور صاحبه لما له من دلالة حسنة، فالأخ يدعو لأخيه بظهر الغيب أو أمامه ، والخلف يدعون للسلف إشارة إلى وحدة المؤمنين في مجال العبودية وإن اختلف الزمان والمكان «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنَا الّذينَ سبقُونَا بالإِيمانِ ولاتجعلْ في قلوبِنا غلّاً للذينَ آمنُوا»(٢) .

وكان السلف من الأصحاب رضوان الله عليهم إذا تخلف المطر وخيف القحط يتوسلون برسول الله ﷺ فيرفع ذراعيه إلى السماء ويناشد الله رحمته فيجيء الغيث ، وقد توسل الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ بعمه العباس ، فدعا حتى نزل المطر . إنه لاحرج أن تقول لمؤمن تحسن به الظن ، ادعُ اللهَ لي أو ادعُ الله معي

٤ـ التوسل بذات الرسول ﷺ وماله عند الله من مكانة ، وهذا الأمر لم يثبتْ فيه شيءٌ عن رسول الله ﷺ أو عن أحدٍ من الصحابة .

وإنّما هو أمرٌ مبتدع ، وله صيغة عند أهل البدع : بجاه النبي أو بجاه الرسول ، ﷺ وهي صيغة ممنوعة شرعاً ، ولم يقلْ بها الأئمة الأربعة .

٥ـ التوسل إلى الله بدعاء المقربين منه من الموتى (المقبورين) ممنوع شرعاً وهو يدور بين الشرك والكبيرة وهذا هو المرفوض باتفاق العلماء .

وكم رأينا من أناس يفعلون مثل هذه الأمور عند قبور الأولياء في صورة مزرية سخيفة والاعتذار عن هذا المسلك المنحرف لايسمع من أحد ، والمفروض أن نعلن غيرتنا على كل مايمسُّ عقيدةَ التوحيد ، ونبيّنَ الصوابَ الذي ندين الله به .

---

(١) سورة نوح آية ٢٨ .
(٢) سورة الحشر آية١٠ .

البحث الخامس :

فهم الإسلام عقيدةً وشريعةً[1]

فهمنا للإسلام أنه عقيدة تنبثق منها شريعة يقوم عليها نظام حياة يستحيل فيها فصل العقيدة الكامنة في قلب المسلم عن الشريعة التي تحكم حياته ، لأن هذه الشريعة لاتقوم أصلاً على أساس تلك العقيدة التي هي بمثابة جذر الشجرة الطيبة الضارب في أعماق الأرض ، ولذا كان لزاماً علينا أن نبدأ بها واضحة كالشمس في رابعة النهار ، راسخة كالطود الأشم ، عميقة كأعمق ماتكون المياه في عرض البحار ليقام البناء المطلوب بقواعده المتينة ونظامه المرسوم فماأجمله من بناء وماأثبته من جدار .

ولكي نحقق مانرجو فلاسبيل إلا أن نحسن تقديم هذه العقيدة للناس أولا باعتبارها الأصل كما قدمها القرآن لمستويات مختلفة لأعتى العتاة ، وأفجر الفجار ، وأبسط الناس فهماً ، وأعمقهم فكراً ، للفارسي والرومي ، للحضري والبدوي ، للأمي والمتعلم ، للناس جميعاً أسودهم وأبيضهم ، وأعجمهم لسانا ، وأفصحهم لغة ، بأيسر أسلوب ، وأوضح بيان في عرض عقيدة التوحيد التي جاء بها للناس أجمعين . . .فكيف قدمها لنا رب العالمين من خلال كتابه الكريم؟؟

قبل أن نبدأ معك العرض السلس السهل لهذه العقيدة الصافية أود أن أقول ليس لأحد أن يتقدم أو يتأخر عن نهج رسول الله ﷺ ، في تقديم هذا الإسلام للناس والذي علّمه ربه إياه من خلال كتاب لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، إن كان ينشد النهج الأكمل والأمثل والأفضل ، وليس لمسلم أن يقدم بين يدي الله ورسوله ـ وليس له كذلك أن يرفع صوته فوق صوت النبي مدعياً أن لديه الأسلوب الأمثل للدعوة والمنهاج الأقوم لها ، فمن أحب الله وأحب منهاجه وأراد توفيق الله في كل مايعمل ليس له إلا أن يطيع الرسول فيما قال أو فعل أو انتهج ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي

---

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام : جمعه أمين عبد العزيز ص ٤١-٤٨/ط دار الدعوة الاسكندرية .

﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[1] .

فالذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قال لرسولنا ﷺ ﴿بالبيّناتِ والزُّبرِ وأنزلنا إليكَ الذكرَ لتبيِّنَ للنَّاسِ مانُزِّلَ إليهِم ولعلَّهُم يتفكَّرُون﴾[2] .

فتبيان الذكر للناس من عقيدة وشريعة أوضحه الرسول ﷺ فمن أراد أن يفتح الله له القلوب حين يقدم عقيدة الإسلام وشريعته للناس مخلصاً ، عليه أن يتبع أسلوب القرآن ومناهجه في تقديم هذا الإسلام الذي أخذ به جيل تلقّى هذاالمنهج للتنفيذ والعمل لاللدراسة والمتعة العقلية ، هذا الجيل الذي نعني ، أخذ الإسلام من القرآن عقيدة وشريعة ، عقيدة تدفعهم لصالح الأعمال ، وتخط لهم معالم الطريق ، وشريعة بمبادئها العامة ، وأحكامها الفرعية هي منهاج الحياة ، وأخلاق كريمة هي ثمرة هذه العقيدة الخالصة حتى أصبح هذا الجيل كوكبة يهتدي بها الغادي والرائح وتدله على الطريق وتهديه سواء السبيل ، فأصحاب الرسول ﷺ كالنجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، وكيف لا وما جاءهم إلا نور وماأنزل على رسولهم ﷺ إلا كتابٌ مبينٌ : ﴿ . . . قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يهدي بهِ اللهُ مَنِ اتَّبعَ رضوانَهُ سُبُلَ السّلامِ ويُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذنِهِ ويهديهِمْ إلى صراطٍ مستقيم﴾[3] .

منهج الرسل في عرض العقيدة :

والبدء بالعقيدة أمر حتمي ، وكان دأب رسل الله الكرام مع أقوامهم ، فلقد بدأوا بالعقيدة أولاً ليعالجوا بها أوضاعاً خاطئة في مجتمعاتهم وتصورات ضالة في بيئتهم وسلوك منحرف فيما بينهم ، ترى مصداق ذلك من استقرائك لقصص الأنبياء ، والرسل الكرام ، فهم يتفقون جميعاً في هذه البداية ، فما من نبي ولارسول إلا قال لقومه أول ماقال﴿اعْبُدُوا اللهَ مالَكُمْ مِنْ إلهٍ غيرُهُ﴾ ، وكذلك بدأ رسولنا ﷺ البداية ليستقيم الفرع باستقامة الأصل .

ولقد بذلوا جميعاً ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ الجهد وساقوا كثيراً من الدلائل والبراهين مخاطبين بذلك العقل والقلب معاً للاستدلال على وحدانيته سبحانه ، وتفرده

---

(1) سورة آل عمران : ٣١ .
(2) سورة النحل : ٤٤ .
(3) سورة المائدة : ١٥-١٦ .

بالخلق والأمر ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[1] ، والجدير بالذكر أن العرب قبل الإسلام كانوا يعبدون الأصنام والأوثان معتقدين بأنها آلهة تضرهم وتنفعهم ، يقول ابن الكلبي : كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر مايصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول مايفعل إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً . وكان منهم من يعبد الأجرام السماوية ، لاسيما الشمس والقمر ، ومنهم من كان يعبد الملائكة والجن ، وقليل ماهم أولئك الذين سموا بالدهريين فأنكروا الخالق ﴿وقالوا مَاهِيَ إلاّ حياتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ونحيَا ومايُهلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ﴾[2] فاعترَفوا بقوة تهلكهم سموها الدهر .

كما كان منهم من يعتقد بوجود إلٰه واحد سموا «بالحنفاء» ، قيل إنهم كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، والجدير بالذكر أن من أهل مكة من كان يعتقد بوجود إلٰه واحد خلق السموات والأرض ولكن كانوا على الرغم من ذلك مشركين ، يعتقدون أن عبادتهم للأصنام وسيلة تقربهم إلى الله ، وقالوا ﴿مانعبدُهُم إلاّ ليقرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى﴾ ، ولذلك أوضح الله هذه القضية توضيحاً جلياً ، وكان لرسله الكرام ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ منهاج في عرض هذه العقيدة فكانوا يعرضونها على الناس عرضاً كله السهولة والبساطة ، فكانوا يلفتون أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض ، ويوقظون عقولهم للتفكير في آيات الله ونظام الكون البديع وينبهون فطرهم إلى ماغرس بها من شعور بالتدين ، وإحساس بعالم ماوراء هذا العالم المادي .

ونود أن نمر مراً سريعاً على هذا المنهج من خلال استعراضنا لبعض آيات الله ليتبين لنا ثباته ، واستمراريته مع رسل الله الكرام وأنبيائه ، فهذا رسول الله نوح عليه السلام يقول لقومه ﴿مَالَكُمْ لاتَرْجُونَ للهِ وَقَاراً ، وقدْ خلقَكُمْ أطواراً ، ألم تَرَوْا كيفَ خلقَ اللهُ سبعَ سمواتٍ طِبَاقاً، وجعلَ القمرَ فيهنَّ نوراً وجعلَ الشمسَ سِرَاجاً ، واللهُ أنبتَكُمْ مِنَ الأرضِ نَبَاتاً ، ثم يُعيدُكُمْ فيها ويُخرِجُكُم إخراجاً ، واللهُ جعلَ لكُمُ الأرضَ بِساطاً لتسلكُوا منها سُبلاً فِجَاجاً﴾[3] .

وكذلك سلك نبي الله هود عليه السلام مع قومه فقال :﴿فاتَّقُوا اللهَ وأطيعُونِ ،

---

(١) سورة الأعراف : ٥٤ .
(٢) سورة الجاثية : ٢٤ .
(٣) سورة نوح : ١٢-٢٠ .

واتقُوا الذي أمدَّكُم بماتعلمُون ، أمدَّكم بأنعامٍ وبنينَ ، وجناتٍ وعيُون ، إنّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم﴾[1] .

واسمع إلى نبي الله صالح عليه السلام فقال: ﴿ أتتركُون فيما هَا هُنَا آمنين ، في جناتٍ وعُيونٍ ، وزُروعٍ ونخلٍ طلعُها هَضِيم ، وتَنحِتُون مِنَ الجبَالِ بُيوتاً فَارِهينَ ، فاتّقُوا اللهَ وأطيعُونِ﴾[2] .

وكذلك فعل شعيب عليه السلام فقال : ﴿واتَّقُوا اللهَ الذي خلقَكُمْ والجِبِلَّةَ الأوَّلين﴾[3]

أما الرسول الأمي إبراهيم عليه السلام فقد حاج قومه وعرض عليهم حقيقة ـ الألوهية ـ كما تتجلى وحياً من عند الله في ثنايا حواره مع قومه عندما لفتهم إلى مافي الكون من آيات تدل على وحدانيته سبحانه ، واستمع ـ إن شئت ـ إلى هذه الصورة الرائعة تحكى لنا في هذا الموقف الجليل ﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ آزرَ أتتخذُ أصناماً آلهةً إنّي أراكَ وقومكَ في ضلالٍ مبين . وكذلك نُري إبراهيمَ ملكوتَ السّمٰواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين . فلمّا جنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربّي فلمّا أفلَ قالَ لاأحبُ الآفلينِ فلمّا رأى القمرَ بازغاً قالَ هذا ربّي فلمّا أفلَ قالَ لئنْ لم يهدِني ربّي لأكوننّ منَ القومِ الضّالين . فلمّا رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربّي هذا أكبرُ فلمّا أفلتْ قالَ ياقومِ إنّي بريءٌ ممّاتشركُون . إنّي وجهتُ وجهيَ للّذي فطرَ السّمٰواتِ والأرضَ حنيفاً ومأأنا مِنَ المشركين ، وحاجّهُ قومُهُ قالَ أتحاجُّونّي في اللهِ وقدْ هَدانِ ولاأخافُ ماتشركُون به إلّا أنْ يشاءَ ربّي شيئاً وسعَ ربّي كلَّ شيءٍ علماً أفلَا تتذكّرُون ، وكيفَ أخافُ ماأشركتُمْ ولاتخافُونَ أنّكم أشركتُمْ باللهِ مالمْ يُنزِّلْ بهِ عليكم سلطاناً فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمْنِ إنْ كنتمْ تعلمُون﴾[4] .

فإذا أدركنا درس إبراهيم ثم عشنا مع موسى عليه السلام نجده هو أيضاً يلفت نظر فرعون إلى رب السموات والأرض حين سأله ﴿قال فرعونُ ومَاربُّ العالمين ، قال ربُّ السّمٰواتِ والأرضِ ومابينَهُمَا إنْ كنتُمْ مُوقنين ، قال لِمَنْ حولَهُ ألَا تستمعُون ، قالَ ربُّكمْ

---

(1) سورة الشعراء : ١٣١-١٣٥ .
(2) سورة الشعراء : ١٤٦-١٥٠ .
(3) سورة الشعراء : ١٨٤ .
(4) سورة الأنعام : ٧٤-٨١ .

وربُّ آبائِكُمُ الأوّلين ، قالَ إنّ رسولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إليكُمْ لمجنُون ، قالَ ربُّ المشرقِ والمغربِ ومابينهُمَا إنْ كنتُمْ تعقِلُون﴾[1] .

أما يوسف عليه السلام فقد استثار العقل المجرد ليعترف بالمنطق السليم الذي يقر بوحدانية الله دون مِرَاءٍ فيقول ﴿ياصاحبيِّ السّجنِ أأربابٌ متفرِّقُون خيرٌ أم اللهُ الوَاحدُ القَهّارُ ، ماتعبدُون من دونهِ إلاّ أسماءً سميتمُوها أنتُمْ وآباؤُكُمْ ماأنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ ، إنِ الحكمُ إلاّ للهِ أمرَ ألاّتعبدُوا إلاّ إيّاهُ ذلكَ الدِّين القيِّمُ ولكنّ أكثرَ النّاسِ لايعلمُون﴾[2] .

وهكذا رأينا رسل الله وأنبياءه الكرام ، يستخدمون أسلوباً فريداً ميسراً يعرضونه بشتى الأساليب ، ومتنوع الوسائل في دأب طويل ، وصبر جميل ، وجهد نبيل كما علمهم رب العز . ثم تعلمه الاتباع منهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فأخذوا هم أيضاً يلفتون الأنظار ، ويفتقون الأفكار ، ويستثيرون العقول لتفكر تفكيراً سليماً للوصول إلى الحق ، فهذا مؤمن آل فرعون يقول لقومه بأسلوب كله حرص ، وكله عطف واشفاق ﴿وياقوم مَالِيَ أدعُوكُمْ إلى النَّجَاةِ وتَدعُونَنِي إلَى النّارِ ، تَدعُونَنِي لأكفرَ باللهِ وأشركَ بهِ ماليسَ لي بهِ علمٌ ، وأنا أدعُوكُم إلى العزيزِ الغفّار ، لاجَرَمَ أنّما تَدعُونَنِي إليهِ ليسَ لهُ دعوةٌ في الدنيا ولافي الآخرةِ وأنّ مَرَدَّنَا إلى اللهِ وأنّ المسرفين هُمْ أصحابُ النّارِ فستذكرون ماأقولُ لكُمْ وأفوّضُ أمري إلى اللهِ إنّ اللهَ بصيرٌ بالعِبَادِ﴾[3] .

وبنفس المنطق كان موقف أخ له ، هو الرجل المؤمن الذي ذكر في سورة يٓسٓ والذي جاء من أقصى المدينة يسعى ﴿قال ياقوم اتّبِعُوا المرسلينَ . اتّبِعُوا من لايَسْألُكُمْ أجراً وهم مهتدُون ، وماليَ لاأعبدُ الذي فطرني وإليهِ ترجَعُون ، أأتخذُ من دونهِ آلهةً إنْ يُرِدْنِ الرحمنُ بضُرٍّ لاتُغْنِ عنّي شفاعتُهم شيئاً ولايُنْقِذُونِ ، إنّي إذاً لفي ضلالٍ مبينٍ ، إنّي آمنتُ بربِّكم فاسمعُونِ﴾[4] .

إنه منطق الإيمان الذي يخاطب العقول ، ويناجي القلوب ، وينبه الفطر لتصدع بالحق وتؤوب إلى الرشد ، وتنطق بالوحدانية ، التي دعا إليه هدهد في مملكة سليمان

---

(1) سورة الشعراء :٢٣-٢٨ .
(2) سورة يوسف :٣٩-٤٠ .
(3) سورة غافر :٤١-٤٤ .
(4) سورة يس :٢٠-٢٥ .

عليه السلام ، وأرشد وهو الطائر الإنسان وهو الخليفة إلى مافي الكون من آيات حين تعجب لسجودهم للشمس وقال لسليمان عليه السلام ﴿إنّي وجدتّ امرأةً تملِكُهُم وأُوتيتْ مِن كلّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ ، وجدتُها وقومَها يسجدُونَ للشّمسِ من دُونِ اللهِ وزَيّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهُمْ فصدّهُم عن السّبيلِ فهُمْ لايهتدُون ، ألّا يسجدوا للهِ الذي يُخرِجُ الخَبْءَ في السّمٰواتِ والأرضِ ويعلمُ ماتُخفُون وماتُعلِنُون ، اللهُ لاإلٰهَ إلّا هو ربُّ العرشِ العظيم﴾(١) .

فليت الإنسان الخليفة يفقه مافقه هذا الهدهد المؤمن!! .

وهكذا كان نهج رسل الله وأنبيائه ، وماكان رسولنا ﷺ بدعا من الرسل فلقد علمه ربُّه كيف يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد، ولقد جمع كتاب ربي فأوعى، الأساليب المختلفة والأدلة المتعددة والبينات الواضحات ، من مخاطبة للفطرة ، إلى مُحَاجّةٍ للعقول المجردة ، إلى تحدٍّ للبشر جميعاً ، إلى استثارة للقليل وتفكر وتدبر في ملكوت السموات والأرض ، وماخلق الله من شيء ليقيم الحجة على وحدانيته سبحانه .

والجدير بالذكر أن جميع قومه كانوا يعبدون أصناماً آلهة ، ويعترفون بوجود الرَّبِّ سبحانه وتعالى ، ولقد أثبت القرآن لهم ذلك في آياتٍ شتّى منها قوله تعالى ﴿قُلْ لِمَنِ الأرضُ ومَنْ فيها إنْ كنتُمْ تعلَمُون ، سَيقُولُونَ للهِ قُلْ أفلا تَذكَّرُون ، قُلْ مَنْ ربُّ السّمٰواتِ السّبعِ وربُّ العرشِ العظيمِ ، سيقُولُون للهِ قُلْ أفلاَ تَتَّقُون ، قُلْ منْ بيدهِ ملكوتُ كلّ شيءٍ وهو يُجيرُ ولايُجَارُ عليهِ إنْ كنتُمْ تعلمُون ، سيقولُونَ للهِ قُلْ فأنّى تُسْحَرُون ، بلْ أتينَاهُم بالحقّ وإنّهم لكاذبون ، مااتَّخذَ اللهُ من ولدٍ وماكان معهُ من إلٰهٍ ، إذنْ لذهبَ كلُّ إلٰهٍ بما خلقَ ولعلاَ بعضُهم على بعضٍ سبحانَ اللهِ عمّايَصِفُون ، عَالِمِ الغيبِ والشّهادةِ فتعَالَى عمّا يُشركون﴾(٢) .

جدالٌ يكشفُ عن مدى اضطراب القوم الذي لايستند إلى منطق ، ولايرتكن إلى عقل ويكشفُ عن مدى الفساد الذي كانت عقائد المشركين قد وصلت إليه في الجزيرة عند مولد الإسلام ، لدرجة أنك إن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ ليقولنَّ الله ، ولئن سألتهم من خلقهم؟ ليقولنَّ الله ، فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً.

---

(١) سورة النمل :٢٣-٢٦ .

(٢) سورة المؤمنون : ٨٤-٩٢ .

قضية الإنسان :

لهذا كلّه بدأ رسول الله ﷺ مع الإنسان يصحح له تصورات ، ويوضح له اعتقاده الحق بغرس العقيدة في النفوس لافتاً الأنظار ، وموجهاً الأفكار ، وموقظاً العقول ، ومُنبّهاً الفطر ، ومتعهداً هذا الغرس بالتربية والتنمية ، حتى بلغ الغاية من النجاح واستطاع أن ينقل الأمة من الوثنية والشرك إلى عقيدة التوحيد ويملأ قلبها بالإيمان واليقين، كما استطاع أن يجعل من أصحابه قادةً في الإصلاح وأئمةً في الخير ، وأن يكوِّن جيلاً يعتز بالإيمان ، ويعتصم بالحق ، فكان هذا الجيل كالشمس للدنيا ، والعافية للناس ، وقد شهد اللهُ لهذا الجيل بالتفوق والامتياز فقال :﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ تأمُرُونَ بالمعروفِ وتنهونَ عن المنكرِ وتؤمنُونَ باللهِ﴾[1] .

ولاشك أن قضية الإنسان هي قضية العقيدة ، وقضية الألوهية ، وقضية العبودية ، وقضية وجوده ومصيره ، وعلاقته بهذا الكون ، وبهؤلاء الأحياء ، وبخالق هذا الكون وهذه الأحياء ، ولما كان الإسلامُ الدِّينُ الخاتَمَ الذي أتمَّ اللهُ به النعمة ، لذا جاء القرآن وهو خاتم الكتب أيضاً يُفسِّرُ هذا كلَّه لهذا الإنسان ، كأن يقول له،من هو؟ . . .ومن أين جاء ، وكيف جاء ، وإلى أين يذهب ، وماهذا الوجود ، ومن أنشأه؟ . . .وكيف يتعامل مع الإنسان والكون والخالق؟ . . .من خلال عرض القرآن لهذه العقيدة الصافية ، التي يريدها المولى من عباده ، مركزاً على حقائق أساسية أيدها بالبراهين والأدلة ، والشواهد على وجودها ، ودعا للإيمان بها بعد التفكر والتدبر ليصل بهم إلى تصور كامل ، واعتقاد سليم ، ليستقيم الأصل إذ باستقامته تستقيم الفروع ، فيتحقق بذلك صحة الاعتقاد ، وكمال التصور الإسلامي .

هذه الحقائق الأساسية هي :

١ـ الإيمان بالغيب وأن الله هو خالق هذا الوجود «الكون ـ الإنسان ـ الحياة» .

٢ـ أنّ مصدرَ معرفتنا لهذا نبوةٌ أمينةٌ ، ووحيٌ صادقٌ يخبرنا بماأذن اللهُ لنا معرفته من عالم الغيب والشهادة .

٣ـ أن هناك يومٌ لاريبَ فيه بعدَ هذه الحياة هو يومُ الفصل يكون للإنسان فيه مصيره النهائي .

للقرآن منهج فريد ، مؤثرٌ متكاملٌ في عرض هذه العقيدة ـ عقيدة التوحيد ـ

(١) سورة المؤمنون : ٨٤-٩٢ .

خطر ضلالات القراءة المعاصرة في كتاب «محمد شحرور» المزعوم بـ «الكتاب والقرآن».

إن خطر هذه الضلالات الواردة في كتاب هذا المزعوم يكمن في الأسلوب الجدلي السفسطائي القائم على المغالطة وإرغام القارىء على التسليم لها أو إرباكه فيها لكثرة ذكر الآيات القرآنية عند طرح المغالطة.

وهنا سنكتفي بذكر عبارات وردت فيه في حق الله تعالى وحق القرآن لبيان خطورة هذا الكتاب المزعوم على عقيدة المسلمين خاصّةً والناس عامّةً.

ففي ص٧٢ يزعم: «أن الله تعالى أحاديٌ في الكيف.. وواحد في الكم..» وتعالى الله عن هذا الوصف المصطنع والمختلق. وكما يقول في ص٧١ ايضاً: «إن الله ليس عربياً ولا انكليزياً..». ويقول في ص٥٨: «إنّ الله مطلق ومعلوماته مطلقة» وهذه العبارة هي أقرب الإسفاف منها إلى الإجلال، كما يزعم فيها أيضاً: «والله ليس بحاجة إلى أن يُعلّم نفسه أو يهدي نفسه» وكأنه بهذا الكلام يصوّر الربّ مخلوقاً راقياً من البشر، والعياذ بالله تعالى من الجهل بأسمائه وصفاته ومن الإخلال بتعظيمه وتمجيده وتنزيهه سبحانه وتعالى.

كما يزعم في ص٧٨: «أن كلمات الله هي عين الموجودات ونواميسها العامة والخاصّة..» ويزعم في ص٧٤: «أن كلمات الله هي الموجودات أي الأشياء..» فتارة يجعلها نواميس عامة وخاصة، وتارة يجعلها أشياءً، وهو غير عارف بكلام الله تعالى ولافاهم لمعنى أوامره التي يخلق بها، فهو لايُميِّز بين كلام الله الشرعي الذي هو الوحي المنزّل على الأنبياء، وبين كلامه الكوني الذي يخلق به ويُوجد به الأشياء التي يريدها ويُقدرها سبحانه.

وأمّا كلامه عن القرآن العظيم ففيه من الطامات والضلالات مالا يُرضي به غيرُ إبليس وصنائعُهُ من المستشرقين والملحدين، وأعوانه من الضالين، فيزعم في ص٩١: «أن القرآن كتاب الوجود المادي والتاريخي، لذا فإنّه لايحتوي على الأخلاق ولا التقوى..»

وهو يسعى بهذا الكلام الجائر إلى اعتبار القرآن من كتب الوجود المادي

والتاريخي، ليسلخه عن أصله القيادي في العقيدة والتشريع والتوجيه فيزعم هذا الزعم الكاذب أنه لايحتوي على الأخلاق ولا التقوى ؟!

فأيّ جُرأة بلغت به حتى يفتري هذا الافتراء ؟!!..

وهذا الكاتب المجادل الكاذب يخرج عن منهج الأمة في علومها وثقافتها، وهذا ما أفصح به عن نفسه فيقول في ص٩١: «إننا في القرآن والسبع المثاني غير مقيّدين بأيّ شيء قاله السّلف» !!؟.

ويزعم هذا الأفّاك الأثيم أن «الصلاة والصوم» ليسَا من قول الله الحق كما في ص٧٨. وفي ص٨٠ يزعم أن «صيغة ﴿قل هو الله أحد﴾ ليست قرآنية..» وفي ص٣٧: «أن آية الإرث ليست من القرآن..» وفي ص٥٨ يزعم أن «في الكتاب توجد الآيات المحكمات «آيات الرسالة» وهي ليست حقاً..».

كما يزعم أن القرآن جاء من «قَرَنَ» وذلك في ص٨٠ «إنّ القرآن جاء من «قَرَنَ» وهو من جمع الجزء الثابت من قوانين الكون الموجود في اللوح المحفوظ مع الجزء المُتغيّر الموجود في الإمام المبين..» إلى غير ذلك من جهالاته وضلالاته الجدلية الخبيثة.

البحث السّادس:

أمثال القرآنُ[1]

الحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب حِسّي يقربها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقيني، والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان، بتشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس. وقياس النظير على النظير، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له، واقتناع العقل به، وهو من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه.

ومن العلماء من أفرد الأمثال في القرآن بالتأليف، ومنهم من عقد لها باباً في كتاب من كتبه، فأفردها بالتأليف أبو الحسن الماوردي[2]، وعقد لها باباً السيوطي في الاتقان[3] وابن القيم في كتاب أعلام الموقعين. حيث تتبع أمثال القرآن التي تضمنت تشبيه الشيء بنظيره، والتسوية بينهما في الحكم ـ فبلغت بضعة وأربعين مثلاً.

وذكر الله في كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال: ﴿وتلك الأمثالُ نضربُها للناس لعلّهم يتفكرون﴾[4]. ﴿وتلك الأمثالُ نضربها للنّاس ومايعقِلُها إلّا العالِمُون﴾[5]، ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن مِن كلِّ مثل لعلّهم يتذكرون﴾[6] وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أنزل القرآن آمراً وزاجراً وسنة خالية، ومثلاً مضروباً»[7].

---

(١) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان ص٣١٧ـ٣٢٧/ ط دار المريخ الرياض.

(٢) هو أبو الحسن علي بن حبيب الشافعي، صاحب كتاب «أدب الدنيا والدين» وكتاب «الأحكام السلطانية» توفى سنة٤٥٠ هجرية.

(٣) انظر«الاتقان» ص ١٣١ ج٢.

(٤) الحشر: ٢١.

(٥) العنكبوت: ٤٣.

(٦) الزمر: ٢٧.

(٧) رواه الترمذي.

وكما عنى العلماء بأمثال القرآن فإنهم عنوا كذلك بالأمثال النبوية. وعقد لها أبو عيسى الترمذي باباً في جامعه أورد فيه أربعين حديثاً. وقال القاضي أبو بكر بن العربي: «لم أر من أهل الحديث من صنف فأفرد للأمثال باباً غير أبي عيسى، ولله دره، لقد فتح باباً، وبنى قصراً أو داراً، ولكنه اختط خطاً صغيراً. فنحن نقنع به، ونشكره عليه».

تعريف المثل

والأمثال: جمع مثل، والمثل والمثل[1] والمثيل: كالشبه والشبه والشبيه لفظاً ومعنى.

والمثل في الأدب: قول محكي سائر يقصد به تشبيه حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله، أي يشبه مضربه بمورده، مثل «رب رمية من غير رام» أي رب رمية مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطيء، وأول من قال هذا الحكم بن يغوث النقري، يضرب للمخطيء يصيب أحياناً، وعلى هذا فلابد له من مورد يشبه مضربه به.

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن. وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات. كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الجنّةِ التي وُعِدَ المتّقُون. فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ﴾[2] : أي قصتها وصفتها التي يتعجب منها.

وأشار الزمخشري إلى هذه المعاني الثلاثة في كشافه فقال: «والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل، ولم يضربوا مثلاً ولارأوه أهلاً للتسيير ولاجديراً بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه». ثم قال: «وقد أستعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة».

وهناك معنى رابع ذهب إليه علماء البيان في تعريف المثل فهو عندهم: المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله. وأصله الاستعارة التمثيلية. كقولك للمتردد في فعل أمر: «مالي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى».

• قيل في ضابط المثل كذلك: أنه إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة

---

(١) المثل والمثل: الأولى بفتح الميم والثانية بكسرها.

(٢) انظر «بلاغة القرآن» للأستاذ محمد الخضر حسين ص ٢٦ ـ (والآية من سورة محمد: ١٥).

وجمالاً. والمثل بهذا المعنى لايشترط أن يكون له مورد، كما لايشترط أن يكون مجازاً مركباً.

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التي يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الإستعارة، أم بطريق التشبيه الصريح؟ أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز، أو التي يصح استعمالها فيما يشبه ماوردت فيه، فإن الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل.

فأمثال القرآن لايستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو الشبيه والنظري، ولايستقيم حملها على مايذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال، إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها، ولايستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان فمن أمثال القرآن ماليس باستعارة ومالم يفش استعماله. ولذا كان الضابط الأخير أليق بتعريف المثل في القرآن: فهو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس، سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلاً.

فابن القيم يقول في أمثال القرآن: تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر. ويسوق الأمثلة: فنجد أكثرها على طريقة التشبيه الصريح كقوله تعالى ﴿إنّما مَثَلُ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناهُ مِنَ السماء﴾[1] ومنها مايجيء على طريقة التشبيه الضمني، كقوله تعالى ﴿ولايغتبْ بعضُكم بعضاً، أيُحِبُّ أحدُكم أنْ يأكلَ لحمَ أخيهِ مَيْتاً فكرهتُمُوه﴾[2] إذ ليس فيه تشبيه صريح. ومنها ما لم يشتمل على تشبيه ولااستعارة، كقوله تعالى ﴿ياأيها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعُوا له، إنّ الذين تدعونَ من دُونِ اللهِ لنْ يخلقُوا ذُباباً ولو اجتمعُوا له، وإن يسلبْهمُ الذُّبابُ شيئاً لايستنقِذُوهُ منهُ، ضَعُفَ الطّالِبُ والمَطْلُوبُ﴾[3] فقوله ﴿إنّ الذين تدعونَ من دُونِ اللهِ لنْ يخلُقُوا ذُباباً﴾ قد سماه الله مثلاً وليس فيه استعارة ولاتشبيه.

---

(١) يونس: ٢٤.
(٢) الحجرات: ١٢.
(٣) الحج: ٧٣.

أنواع الأمثال في القرآن

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع:

١ـ الأمثال المصرحة.

٢ـ الأمثال الكامنة.

٣ـ والأمثال المرسلة.

النوع الأول: ـ الأمثال المصرحة: ـ وهي ماصرح فيها بلفظ المثل، أو مايدل على التشبيه. وهي كثيرة في القرآن نورد منها مايأتي:

(أ) قوله تعالى في حق المنافقين ﴿مثلُهم كمثلِ الذي استوقَدَ ناراً فلمّا أضاءتْ ماحولَهُ ذهبَ اللهُ بنورِهِم وتركَهم في ظلماتٍ لايبصرون. صُمٌّ بُكْمٌ عُمي فهم لايرجعون. أو كصيّبٍ من السماءِ فيهِ ظلماتٌ ورَعْدٌ وبرق﴾[1] إلى قوله ﴿إنّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير﴾[2].

ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين: مثلاً نارياً في قوله: ﴿كمثل الذي استوقد ناراً....﴾ لما في النار من مادة النور، ومثلاً مائياً في قوله: ﴿أو كصيِّبٍ من السماء...﴾ لما في الماء من مادة الحياة، وقد نزل الوحي من السماء متضمناً لاستنارة القلوب وحياتها. وذكر الله حظ المنافقين في الحالين. فهم بمنزلة من استوقد ناراً للإضاءة والنفع حيث انتفعوا مادياً بالدخول في الإسلام، ولكن لم يكن له أثر في قلوبهم، فذهب الله بما في النار من الإضاءة ﴿ذهبَ اللهُ بنورِهِم﴾ وأبقى مافيها من الإحراق، وهذا مثلهم الناري.

وذكر مثلهم المائي فشبههم بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع إصبعيه في أذنيه وغمض عينيه خوفاً من صاعقة تصيبه، لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق.

(ب) وذكر الله المثلين: المائي والناري ـ في سورة الرعد للحق والباطل. فقال تعالى ﴿أنزلَ من السماءِ ماءً فسالتْ أوديةٌ بقدرها فاحتملَ السيلُ زبداً رابياً، ومما

---

(١) البقرة: ١٧-١٩.

(٢) البقرة: ٢٠.

يوقِدُون عليه في النار ابتغاءَ حليةٍ أو متاعٍ زَبَدٌ مثلُه، كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطل، فأما الزَّبَدُ فيذهبُ جُفَاءً، وأما ماينفعُ النّاسَ فيمكثُ في الأرض، كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ﴾[1] .

شبه الوحي الذي أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، والسيل إذا جرى في الأودية احتمل زبداً وغثاء، فكذلك الهدى والعلم إذا سرى في القلوب أثار مافيها من الشهوات ليذهب بها، وهذا هو المثل المائي في قوله ﴿أنزل من السماء ماء. . .﴾ وهكذا يضرب الله الحق والباطل.

وذكر المثل الناري في قوله ﴿ومما يوقدون عليه في النار. . . .﴾ فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سبكها تخرج النار مافيها من الخبث وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيذهب جفاء. فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث.

النوع الثاني من الأمثال: الأمثال الكامنة ـ وهي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل، ولكنها تدل على معانٍ رائعة في إيجاز، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى مايشبهها، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:

١ـ مافي معنى قولهم (خيرُ الأمورِ الوسط):

(أ) قوله تعالى في البقرة ﴿لافارِضٌ ولابِكْرٌ عَوَانٌ بينَ ذلك﴾[2] .

(ب) قوله تعالى في النفقة ﴿والذين إذا أنفقُوا لم يُسْرِفُوا ولم يَقْتُروا وكانَ بينَ ذلك قَوَاماً﴾[3] .

(ج) قوله تعالى في الصلاة ﴿ولاتجهرْ بصلاتِكَ ولاتخافِتْ بها وابتغِ بينَ ذلك سبيلاً﴾[4] .

(د) قوله تعالى في الإنفاق ﴿ولاتجعلْ يدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولاتَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ﴾[5] .

---

(١) الرعد: ١٧.
(٢) البقرة: ٦٨.
(٣) الفرقان: ٦٧.
(٤) الإسراء: ١١٠.
(٥) الإسراء: ٢٩.

٢ـ مافي معنى قولهم (ليسَ الخبرُ كالمعاينة):

قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿قال أوَ لَمْ تُؤْمِنْ، قالَ بلَى ولكنْ ليطمئنَّ قلبِي﴾[(١)] .

٣ـ مافي معنى قولهم (كما تَدِينُ تُدان):

قوله تعالى: ﴿مَنْ يعملْ سُوءاً يُجْزَ بهِ﴾[(٢)] .

مافي معنى (لايلدغُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين):

قوله تعالى على لسان يعقوب ﴿قال هلْ آمَنُكُمْ عليهِ إلّا كما أَمِنْتُكُمْ على أخيهِ منْ قبل﴾[(٣)] .

النوع الثالث: الأمثال المرسلة في القرآن: وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه. فهي آيات جارية مجرى الأمثال.

ومن أمثلة ذلك مايأتي:

١ـ «الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ»[(٤)] .

٢ـ «ليسَ لها من دُونِ اللهِ كاشفة»[(٥)] .

٣ـ«قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفيان»[(٦)] .

٤ـ«أليسَ الصبحُ بقريب». [(٧)]

٥ـ«لكلِّ نبأٍ مستقر»[(٨)] .

٦ـ«ولايَحِيقُ المكرُ السّيّءُ إلّا بأهلِهِ»[(٩)] .

---

(١) البقرة: ٢٦٠ .
(٢) النساء: ١٢٣ .
(٣) يوسف: ٦٤ .
(٤) يوسف: ٥١ .
(٥) النجم: ٥٨ .
(٦) يوسف : ٤١ .
(٧) هود ٨١
(٨) الأنعام: ٦٧ .
(٩) فاطر: ٤٣ .

٧ ـ«قلْ كلٌّ يعملُ على شَاكِلَتِهِ»[١] .

٨ ـ«وعسَى أن تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم»[٢] .

٩ ـ«كلُّ نفسٍ بماكسبتْ رَهِينَةٌ»[٣] .

١٠ـ«هلْ جزاءُ الإِحسانِ إلاّ الإِحسانُ»[٤] .

١١ـ«كلٌّ حزبٍ بمالديهِم فَرِحُون»[٥] .

١٢ـ«ضَعُفَ الطّالِبُ والمَطْلُوبُ»[٦] .

١٣ـ«لمثلِ هذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُون»[٧] .

١٤ـ«لايستوِي الخبيثُ والطّيّبُ»[٨] .

١٥ـ«كمْ مِنْ فِئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ»[٩] .

١٦ـ«تحسَبُهُمْ جميعاً وقلوبُهُمْ شَتَّى»[١٠].

واختلفوا في هذا النوع من الآيات الذي يسمونه إرسال المثل، ماحكم استعماله الأمثال؟

فرآه بعض أهل العلم خروجاً عن أدب القرآن، قال الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿لكُمْ دِينُكُم ولِيَ دينِي﴾[١١] «جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز، لأنه تعالى ماأنزل القرآن ليتمثل به، بل يتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه».

---

(١) الإسراء: ٨٤.
(٢) البقرة: ٢١٦.
(٣) المدثر: ٣٨.
(٤) الرحمن: ٦٠.
(٥) المؤمنون: ٥٣.
(٦) الحج: ٧٣.
(٧) الصافات: ٦١.
(٨) المائدة: ١٠٠.
(٩) البقرة: ٢٤٩.
(١٠) الحشر: ١٤.
(١١) الكافرون: ٦.

ورأى آخرون أنه لاحرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: ﴿ليس لها مِنْ دونِ اللهِ كاشفة﴾[1] أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقول: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ والاثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح[2].

فوائد الأمثال

١- الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقل لأن المعاني المعقولة لاتستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق رياء، حيث لايحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى: ﴿فمثَلُه كمثلِ صَفْوانٍ عليه تُرابٌ فأصابهُ وَابلٌ فتركَهُ صلداً، لايقدِرُون على شيءٍ ممّاكسَبُوا﴾[3].

٢- وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب في معرض الحاضر كقوله تعالى: ﴿الذينَ يأكلونَ الرِّبَا لايقومُونَ إلاّ كمَا يقومُ الذي يتخبَّطُهُ الشيطانُ مِنَ المَسِّ﴾[4].

٣- وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلة في الآيات الآنفة الذكر.

٤- ويُضْرَبُ المثلُ للترغيب في الممثل حيث يكون الممثل به مماترغب فيه النفوس، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الانفاق بخير كثير، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الذين ينفقون أموالَهُمْ في سبيلِ اللهِ كمثلِ حبّةٍ أنبتتْ سبعَ سَنَابِلَ في كلِّ سُنْبلةٍ مائةُ حبّةٍ، واللهُ يُضَاعِفُ لمنْ يشاءُ، واللهُ واسعٌ عليم﴾[5].

٥- ويضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مماتكرهه النفوس، كقوله تعالى في

---

(١) النجم: ٥٨.
(٢) بلاغة القرآن ص ٢٣.
(٣) البقرة: ٢٦٤.
(٤) البقرة: ٢٧٥.
(٥) البقرة: ٢٦١.

النهي عن الغيبة ﴿ولايغتبْ بعضُكُمْ بعضاً، أيُحِبُّ أحدُكم أنْ يأكلَ لحمَ أخيهِ مَيْتاً فكَرِهْتُمُوهُ﴾[1] .

٦ـ ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى في الصحابة ﴿ذلك مثَلُهُم في التّوراة، ومثَلُهُم في الإنجيلِ كزرعٍ أخرجَ شَطْأَهُ فآزَرَهُ فاستغلظَ فاستوَى على سُوقهِ يُعْجِبُ الزُّرّاعَ ليغيظَ بِهِمُ الكُفّارَ﴾[2] . وكذلك حال الصحابة فإنّهم كانوا في بدء الأمر قليلاً، ثم أخذوا في النمو حتى استحكم أمرهم. وامتلأت القلوب إعجاباً بعظمتهم.

٧ـ ويُضربُ المثلُ حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس، كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه، فتنكب الطريق عن العمل به، وانحدر في الدنايا منغمساً. فقال تعالى: ﴿واتْلُ عليهم نبأَ الذي آتيناهُ آياتِنا فانسلخَ منها فأتْبَعَهُ الشيطانُ فكانَ من الغاوين، ولو شئنَا لرفعنَاهُ بها ولكنّهُ أخلدَ إلى الأرضِ واتّبعَ هَوَاهُ فمَثَلُه كمثَلِ الكلبِ إنْ تحملْ عليه يلهثْ أو تتركْهُ يلهثْ ذلكَ مَثَلُ القومِ الذين كذّبُوا بآياتِنَا﴾[3] .

٨ـ والأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، وقد أكثر الله تعالى الأمثال في القرآن للتذكرة والعبرة، قال تعالى:

﴿ولقد ضربْنَا للنّاسِ في هذا القرآنِ مِنْ كُلِّ مثَلٍ لعلّهُمْ يتذَكّرُون﴾[4] وقال: ﴿وتلكَ الأمثالُ نضرِبُها للناس ومايعقِلُها إلاّ العالمون﴾[5] وضربها النبي ﷺ في حديثه، واستعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة، ويستعين بها المربون ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق، ووسائل التربية في الترغيب أو التنفير، في المدح أو الذم.

ضرب الأمثال بالقرآن:

جرت عادة أهل الأدب أن يسوقوا الأمثلة في مواطن تشبه الأحوال التي قيلت فيها، وإذا صح هذا في أقوال الناس التي جرت مجرى المثل، فإن العلماء يكرهون ضرب الأمثال بالقرآن، ولايرون أن يتلو الإنسان آية من آيات المثال في كتاب الله عند شيء يعرض

---

(١) الحجرات: ١٢.
(٢) الفتح: ٢٩.
(٣) الأعراف: ١٧٥-١٧٦.
(٤) الزمر: ٣٧.
(٥) العنكبوت: ٤٣.

من أمور الدنيا، حفاظاً على روعة القرآن، ومكانته في نفوس المؤمنين قال أبو عبيد: «وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهم بحاجته، فيأتيه من غير طلب فيقول كالمازح ﴿جئتَ على قَدَرٍ يا موسَى﴾[1] . فهذا من الاستخفاف بالقرآن، ومنه قول ابن شهاب الزهري: لاتناظر بكتاب الله ولابسنة رسول الله ﷺ ، قال أبو عبيد: يقول لاتجعل لهما نظيراً من القول ولاالفعل.

وقد خرج عن هذه القاعدة الجليلة صاحب القراءة المعاصرة فيما أسماه ب«الكتاب والقرآن» فأتى تحت هذا العنوان بكل عجيب وغريب في التَقوّل المفتعل حول القرآن الكريم، بل وصل به التجرّؤ على القرآن أن يستخف به ويضرب له الأمثال الممجُوجة عقلاً والممقوتة ذوقاً، فمثلاً انظر إليه كيف يضرب المثل لقول الله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القران على جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً متصدّعاً من خشية الله وتلك الأمثالُ نضربُها للنّاس ولعلّهم يتفكّرون﴾ [سورة الحشر(١)] فيقول [خيّبه الله] في ص١٧٣: «ولو قال: لو نزلنا هذا القرآن على جبل، فهذا يعني أنه وضع القرآن مادّياً على الجبل «كتاباً منسُوخاً في قرطاس» وينطبق على الجبل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلُوا التّوراةَ ثم لم يحملوُها كمثلِ الحمارِ يحمِلُ أسفاراً [الجمعة/ ٥] فعندما يحمل الحمار أسفاراً «كتباً في قرطاس» فيها معلومات لايفهمها يبقى حماراً، أمّا إذا فهمها ودخلت ضمن مدركاته فلن يبقى حماراً. وكذلك الجبل إذا جاءه القرآن واستوعبه أصبح عالماً «الإنزال» وإذا جاءه مادّياً ولم يستوعبه يبقى جبلاً كما هو تنزيل فقط..» بهذا الإسفاف الفكري يضرب المثل لكلام الله تعالى في آيات أمثاله الحكيمة الكريمة.. ثم يتساءل تساؤل الجاهل الأحمق: «هل فهم السلف الإنزالَ والتنزيلَ بهذا الفهم؟ الجواب: لو فهموه هكذا لكان الأمر عجباً ولكانت النتائج أعجب..» هكذا يهزي بهذا الهراء وهو يظن أنّ أوهامه الهابطة نظرياتٍ عصريةً ينبغي أن تحملها عنه الأمة بعد أن تتخلّى عن كل ما في الإسلام من علوم وحقائق !!؟..

---

(١) طه: ٤٠.

البحث السابع:

أقسام القرآن [1]

يختلف الاستعداد النفسي عند الفرد في تقبله للحق وانقياده لنوره، فالنفس الصافية التي لم تتدنس فطرتها بالرجس تستجيب للهدى، وتفتح قلبها لإشعاعه، ويكفيها في الانصياع إليه اللمحة والإشارة. أما النفس التي رانت عليها سحابة الجهل، وغشيتها ظلمة الباطل فلايهتز قلبها إلا بمطارق الزجر، وصيغ التأكيد، حتى يتزعزع نكيرها. والقسم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخللها البرهان المفحم، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد.

تعريف القسم وصيغته [2]

والأقسام: جمع قسم: بفتح السين، بمعنى الحلف واليمين، والصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل أقسم أو أحلف متعدياً بالباء إلى المقسم به. ثم يأتي المقسم عليه، وهو المسمى بجواب القسم، كقوله تعالى: ﴿وأَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ إيمانِهِم لايبعثُ اللهُ مَنْ يموتُ﴾ [3].

فأجزاء صيغة القسم ثلاثة:

١ـ الفعل الذي يتعدى بالباء.

٢ـ والمقسم به.

٣ـ والمقسم عليه.

ولما كان القسم يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفي بالباء [4] ثم

---

(١) افرد هذا الفصل بالبحث العلامة ابن القيم في كتابه «أقسام القرآن»، المسمى بالتبيان وهو كتاب فريد في بابه اختصرنا منه هذا البحث.

(٢) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان / ٣٢٩-٣٣٨/ ط دار المريخ ـ الرياض.

(٣) النحل: ٣٨.

(٤) والباء لم ترد في القرآن إلا مع فعل القسم. كقوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد إيمانهم﴾ (النور: ٥٣).

عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾[1] وبالتاء في لفظ الجلالة كقوله: ﴿وتالله لأكيدنّ أصنامكم﴾[2] وهذا قليل، أما الواو فكثيرة.

والقسم واليمين واحد: ويعرف بأنه: ربط النفس، بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنىً معظَّمٍ عند الحالف حقيقةً أو اعتقاداً. وسُمي الحَلِفُ يميناً لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف.

فائدة القسم في القرآن

تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير واختلاف الأساليب بتنوع الأغراض، وللمخاطب حالات مختلفة هي المسماة في المعاني بأضرب الخبر الثلاثة: الابتدائي، والطلبي، والإنكاري.

فقد يكون المخاطب خالي الذهن من الحكم فيلقي إليه الكلام غفلاً من التأكيد، ويسمى هذا الضرب ابتدائياً.

وقد يكون متردداً في ثبوت الحكم وعدمه، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده، ويسمى هذا الضرب طلبياً.

وقد يكون منكراً للحكم، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفاً، ويسمى هذا الضرب إنكارياً.

والقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد. فالقسم في كلام الله يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة.

المقسم به في القرآن

يقسم الله تعالى بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وأقسامُهُ ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته.

وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع:

---

(١) الليل: ١.

(٢) الأنبياء: ٥٧.

١ـ في قوله: ﴿زَعَمَ الذينَ كفرُوا أنْ لنْ يُبْعثُوا قُلْ بلىَ وربِّي لَتُبْعثُنَّ﴾[١] .

٢ـ وقوله: ﴿وقالَ الذينَ كفرُوا لاتأتِينَا السّاعةُ، قُلْ بلىَ وربِّي لتأتينَّكُم﴾[٢] .

٣ـ وقوله: ﴿ويستنبؤنكَ أحقٌّ هو. قُلْ أيْ وربِّي إنّه لحقٌّ﴾[٣] .

وفي هذه الثلاثة أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم به.

٤ـ وقوله: ﴿فوربِّكَ لنحشرنَّهم والشّياطين﴾[٤] .

٥ـ وقوله: ﴿فوربِّكَ لنسألنّهم أجمعين﴾[٥] .

٦ـوقوله: ﴿فلا وربِّكَ لايؤْمِنُون حتى يُحكّمُوكَ فيما شَجرَ بينَهُم﴾[٦] .

٧ـ وقوله: ﴿فلاأُقْسِمُ بربِّ المَشَارِقِ والمغَارِب﴾[٧] .

وسائر القسم في القرآن بمخلوقاته سبحانه، كقوله: ﴿والشّمسِ وضُحَاهَا، والقمرِ إذا تَلاهَا﴾[٨]، وقوله: ﴿والليلِ إذا يغشىَ ، والنّهارِ إذا تجلّى، وماخلقَ الذكرَ والأنثىَ﴾[٩] . وقوله: ﴿والفجرِ. وليالٍ عَشْر﴾[١٠] وقوله: ﴿فلاأقسمُ بالخُنّس﴾[١١]. وقوله: ﴿والتّينِ والزّيتُونِ. وطُورِ سِنينَ﴾[١٢] وهذا هو الكثير في القرآن.

ولله أن يحلف بماشاء، أما حلف العباد بغير الله فهو ضرب من الشرك، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر ـ أو أشرك»[١٣]. وإنما أقسم الله بمخلوقاته لأنها تدل على بارئها، وهو الله تعالى، وللإشارة

(١) التغابن: ٧.
(٢) سبأ: ٣.
(٣) يونس: ٥٣.
(٤) مريم: ٦٨.
(٥) الحجر: ٩٢.
(٦) النساء: ٦٥.
(٧) المعارج: ٤٠.
(٨) الشمس: ١، ٢.
(٩) الليل: ١-٣.
(١٠) الفجر: ١، ٢.
(١١) التكوير: ١٥.
(١٢) التين: ١، ٢.
(١٣) رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

إلى فضيلتها ومنفعتها ليعتبر الناس بها. وعن الحسن قال: «إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله»(١).

أنواع القسم

القسم إما ظاهر، وإما مضمر.

١- فالظاهر: - هو ماصرِّحَ فيه بفعل القسم، وصرِّحَ فيه بالمقسم به.

ومنه ماحذف فيه فعل القسم كما هو الغالب اكتفاء بالجار من الباء أو الواو أو التاء.

وقد أدخلت - (لا) - النافية على فعل القسم في بعض المواضع. كقوله تعالى: ﴿لاأُقْسِمُ بيوم القِيَامةِ. ولاأُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ﴾(٢) فقيل: (لا) في الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام، والتقدير مثلاً: لاصحة لما تزعمون أنه لاحساب ولاعقاب، ثم استأنف فقال: أقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، إنكم ستبعثون، وقيل: (لا). لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس، ولكني أسألك غير مقسم، أتحسَبُ أنّا لا نجمعُ عظامَكَ إذا تفرقتَ بالموت؟ إن الأمر من الظهور بحيث لايحتاج إلى قسم - وقيل: (لا) زائدة - وجواب القسم في الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد: ﴿أيحسَبُ الإنسانُ﴾. إلخ. والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن.

٢- والقسم المضمر هو مالم يصرح فيه بفعل القسم ولابالمقسم به، وإنما تدل عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ في أموالِكُمْ وانفسِكُم﴾(٣) أي والله لتبلونّ.

أحوال المقسم عليه

١ - المقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها.

٢ - وجواب القسم يذكر تارة - وهو الغالب - وتارة يحذف، كما يحذف جواب (لو) كثيراً، كقوله: ﴿كلا لو تعلمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ﴾(٤) وحذف مثل هذا من أحسن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) القيامة: ١، ٢.
(٣) آل عمران: ١٨٦.
(٤) التكاثر: ٥.

الأساليب، لأنه يدل على التفخيم والتعظيم، فالتقدير مثلاً: لو تعلمون مابين أيديكم علم الأمر اليقين لفعلتم مالا يوصف من الخير، فحذف جواب القسم كقوله: ﴿والفجرِ وليالٍ عشرٍ. والشّفْعِ والوَتْرِ. واللّيلِ إذا يَسْرِ. هلْ في ذلكَ قَسَمٌ لذي حِجْرٍ﴾[1] فالمراد بالقسم أن الزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل ان يقسم الرب عز وجل به. فلا يحتاج إلى جواب. وقيل: الجواب محذوف، أي: لتعذبن ياكفار مكة، وقيل: مذكور، وهو قوله: ﴿إن ربَّكَ لَبِالمِرْصَادِ﴾[2] والصحيح المناسب أنه لايحتاج إلى جواب.

وقد يحذف الجواب لدلالة المذكور عليه، كقوله تعالى: ﴿لاأقسمُ بيومِ القيامةِ، ولاأقسمُ بالنّفْسِ اللّوّامة﴾[3] فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد: ﴿أيحسَبُ الإنسانُ أنْ لَنْ نجمعَ عِظَامَهُ﴾[4] . . إلخ والتقدير: لتبعثنّ وتحاسبنّ.

٣ ـ والماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد، ولايجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام. كقوله تعالى: ﴿والشّمسِ وضُحَاهَا، والقَمَرِ إذا تلاَهَا. والنّهَارِ إذا جَلّاهَا. واللّيلِ إذا يَغْشَاهَا. والسّماءِ ومابنَاهَا. والأرضِ وما طَحاهَا. ونفسٍ وما سَوّاها. فألهمَها فُجُورَها وتَقْوَاهَا. قدْ أفلحَ مَنْ زَكّاهَا﴾[5] فجوابُ القسم ﴿قدْ أفلحَ مَنْ زكّاهَا﴾ حذفت منه اللام لطول الكلام.

ولذلك قالوا في قوله تعالى: ﴿والسماءِ ذاتِ البُروجِ. واليومِ المَوْعُودِ. وشاهدٍ ومَشْهُودٍ. قُتِلَ أصحابُ الأُخْدُودِ﴾[6] إن الأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به، وإنه من آيات الرب العظيمة، وقيل الجواب محذوف دل عليه ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ أي أنهم ملعونون، يعني كفار مكة كما لعن أصحاب الأخدود، وقيل حذف صدره، وتقديره: لقد قتل لأن الفعل الماضي إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد، ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام، كما سبق في قوله تعالى: ﴿والشّمسِ وضُحَاهَا﴾. ﴿قدْ أفلحَ مَنْ زكّاهَا﴾.

---

(١) الفجر: ١ ـ ٥.
(٢) الفجر: ١٤.
(٣) القيامة: ١ ـ ٢.
(٤) القيامة: ٣.
(٥) الشمس: ١ ـ ٩.
(٦) البروج: ١ ـ ٤.

٤ ـ ويقسم الله على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها فتارة يقسم على التوحيد كقوله: ﴿والصّافّاتِ صَفّاً، فالزّاجِرَاتِ زَجْراً، فالتّالياتِ ذِكراً، إنّ إلٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾[١].

وتارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى: ﴿فلا أُقْسِمُ بمواقعِ النُّجوم. وإنّه لقَسَمٌ لو تعلَمُونَ عظيمٌ. إنّهُ لقرآنٌ كريم﴾[٢].

وتارة على أن الرسول حق كقوله: ﴿يٰسٓ. والقرآنِ الحكيمِ، إنّكَ لَمِنَ المُرْسَلِين﴾[٣].

وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، كقوله: ﴿والذّارياتِ ذَرْواً، فالحَامِلاَتِ وِقْراً، فالجَارِياتِ يُسْراً، فالمُقَسِّماتِ أمراً. إنّما تُوعَدُونَ لَصَادقٌ. وإنّ الدّين لوَاقع﴾[٤].

وتارة على حال الإنسان، كقوله: ﴿واللّيلِ إذا يغشىَ. والنّهارِ إذا تجلّى. وماخلقَ الذّكرَ والأنثىَ. إنّ سعيَكُم لَشَتّىَ﴾[٥].

والمتتبع لأقسام القرآن يستخلص الفنون الكثيرة.

٥ ـ والقسم إما على جملة خبرية ـ وهو الغالب ـ كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنّه لحقٌّ﴾[٦]. وإما على جملة طلبية في المعنى كقوله تعالى: ﴿فوربِّكَ لنسألَنَّهُمْ أجمعينَ. عمّا كانُوا يعملُون﴾[٧]. لأن المراد التهديد والوعيد.

القسم والشرط

يجتمع القسم والشرط فيدخل كل منهما على الآخر فيكون الجواب للمتقدم منهما ـ قسماً كان أو شرطاً ـ ويغني عن جواب الآخر.

فإن تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم أغنى عن جواب الشرط، كقوله

---

(١) الصافات: ١ ـ ٤.
(٢) الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧.
(٣) يس: ١ ـ ٣.
(٤) الذاريات: ١ ـ ٦.
(٥) الليل: ١ ـ ٤.
(٦) الذاريات: ٢٣.
(٧) الحجر: ٩٢ ـ ٩٣.

تعالى: ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾[1] إذ التقدير: والله لئن لم تنته.

واللام الداخلة على الشرط ليست بلام جواب القسم كالتي في مثل قوله تعالى: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾[2] ولكنها اللام الداخلة على أداة شرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على قسم قبلها لا على الشرط، وتسمى اللام المؤذنة، وتسمى كذلك الموطئة، لأنها وطأت الجواب للقسم، أي مهدته له. ومنه قوله تعالى: ﴿لئن أُخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون﴾[3] وأكثر ماتدخل اللام الموطئة على «إن» الشرطية، وقد تدخل على غيرها.

ولايقال: إن الجملة الشرطية هي جواب القسم المقدر، فإن الشرط لا يصلح أن يكون جواباً، لأن الجواب لايكون إلا خبراً، والشرط إنشاء، وعلى هذا فإن قوله تعالى في المثال الأول: ﴿لأرجمنك﴾ يكون جواباً للقسم المقدر أغنى عن جواب الشرط.

ودخول اللام الموطئة للقسم على الشرط ليس واجباً، فقد تحذف مع كون القسم مقدراً قبل الشرط. كقوله تعالى: ﴿وإنْ لمْ ينتهوا عمّا يقولونَ ليَمَسَّنَّ الذينَ كفروا منهمْ عذابٌ أليمٌ﴾[4].

والذي يدل على أن الجواب للقسم لا للشرط دخول اللام فيه وأنه ليس بمجزوم، بدليل قوله تعالى: ﴿لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لايأتونَ بمثلِهِ﴾[5]، ولو كانت جملة ﴿لايأتون﴾ جواباً للشرط لجزم الفعل.

وأما قوله تعالى: ﴿ولئنْ متّمْ أو قُتِلْتُمْ لإلى اللهِ تُحْشَرُون﴾[6]، فاللام في ﴿ولئن﴾ هي الموطئة للقسم، واللام في ﴿لإلى الله﴾ هي لام القسم، أي الواقعة في الجواب، ولم تدخل نون التوكيد على الفعل[7] للفصل بينه وبين اللام بالجار والمجرور

---

(١) مريم: ٤٦.
(٢) الأنبياء: ٥٧.
(٣) الحشر: ١٢.
(٤) المائدة: ٧٣.
(٥) الإسراء: ٨٨.
(٦) آل عمران: ١٥٨.
(٧) يجب توكيد الفعل إذا كان مثبتاً مستقبلاً، جواباً لقسم، غير مفصول من لامه بفاصل،

والأصل: لئن متم أو قتلتم لتحشرون إلى اللّه.

إجراء بعض الأفعال مجرى القسم:

إذا كان القسم يأتي لتأكيد المقسم عليه فإن بعض الأفعال يجري مجراه إذا كان سياق الكلام في معناه، كقوله تعالى: ﴿وإذْ أخذَ اللّهُ مِيثاقَ الّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنّاسِ﴾[1] فاللام في قوله: ﴿لتبيننَّهُ للنّاس﴾ لام القسم، والجملة بعدها جواب القسم. لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف.

وحمل المفسرون على هذا قوله تعالى: ﴿وإذْ أخذنا ميثاقَ بني اسرائيلَ لاتعبدُون إلّا اللّهَ﴾[2] وقوله: ﴿وإذْ أخذنَا ميثاقكَمْ لاتسفكُونَ دماءَكُم﴾[3]. وقوله: ﴿وَعَدَ اللّهُ الّذينَ آمنُوا منكُمْ وعمِلوُا الصّالِحَاتِ ليستخلِفنَهمْ في الأرضِ كمَا استخلفَ الّذينَ مِنْ قبلِهمْ﴾[4].

هذه بعض المسائل المهمة في موضوع الأقسام في القرآن الكريم، ذكرناها لتكون عوناً لفهم هذا الجانب من جوانب آيات الله تعالى في كتابه العزيز.

= وجواب القسم هنا وإن كان مثبتاً مستقبلاً فإنه قد فصل بينه وبين اللام بالجار والمجرور.

(١) آل عمران: ١٨٧.

(٢) البقرة: ٨٣.

(٣) البقرة: ٨٤.

(٤) النور: ٥٥:

البحث الثامن:

جدل القرآن[1]

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان وتنطق بها شواهد الكون ولا يحتاج إلى برهان على ثبوتها، أو دليل على صحتها. ولكن المكابرة كثيراً ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق بشبه تلبسها لباس الحق، وتزينهافي مرآة العقل، فهي في حاجة الى مقارعتها بالحجة، واستدراجها إلى مايلزمها بالاعتراف آمنت أو كفرت. والقرآن الكريم - وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة - وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله. فألجم خصومتهم بالحس والعيان، وعارضهم في أسلوب مقنع، واستدلال ملزم، وجدل محكم.

تعريف الجدل:[2]

والجدل والجدال: - المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم، أصله من جدلت الحبل: أي أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه.

وقد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله: ﴿وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلاً﴾[3] أي خصومة ومنازعة.

وأمر رسول الله ﷺ أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التي تلين عريكتهم في قوله: ﴿ادعُ إلىٰ سبيلِ ربّكَ بالحكمةِ والموعظَةِ الحسَنةِ وجَادِلْهُمْ بالّتي هي احْسَنُ﴾[4].

---

(١) أفرده من المتأخرين بالتصنيف العلامة سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم المعروف بابن أبي العباس الحنبلي نجم الدين الطوفي المتوفي سنة ٧١٦ هجرية.
(٢) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان ص ٣٣٩ - ٣٤٦/ ط دار المريخ - الرياض.
(٣) الكهف: ٥٤.
(٤) النحل: ١٢٥.

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة في قوله: ﴿ولاتُجَادِلوُا أهلَ الكِتَابِ إلاّ بالّتي هيَ أحْسَنُ﴾[1].

ومثل هذا من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق، وإقامة البرهان على صحته، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين. بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنهامنازعة باطلة، قال تعالى: ﴿ويُجَادِلُ الذينَ كفرُوا بالبَاطِلِ﴾[2].

طريقة القرآن في المناظرة

والقرآن الكريم تناول كثيراً من الأدلة والبراهين التي حاج بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج، سليم التركيب، لايحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث.

ولم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج التي يعتمدون عليها، من الاستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول، أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر في قياس التمثيل، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء.

(أ) لأن القرآن جاء بلسان العرب، وخاطبهم بما يعرفون.

(ب) ولأن الاعتماد في الاستدلال على مافطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثراً وأبلغ حجة.

(جـ) ولأن ترك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والألغاز لايفهمه إلا الخاصة، وهو على طريقة المناطقة ليس سليماً من كل وجه، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة في القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الرد على المنطقيين): ومايذكره النظار من الأدلة القياسية التي يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لايدل شيء منها على عينه، وإنما يدل على أمر مطلق كلي لايمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، فإنا إذا قلنا: هذا محدث، وكل محدث فلا بد له من محدث. أو ممكن، والممكن لابد له من واجب، إنما يدل هذا على محدث

---

(١) العنكبوت: ٤٦.

(٢) الكهف: ٥٦.

مطلق، أو واجب مطلق... لايمنع تصوره من وقوع الشركة فيه»... وقال: «فبرهانهم لايدل على شيء معين بخصوصه، لا واجب الوجود ولا غيره، وإنما يدل على أمر كلي، والكلي لايمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه، ومن لم يتصور مايمنع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله»... وقال: «وهذا بخلاف مايذكر الله من الآيات في كتابه، كقوله: ﴿إنَّ في خلْقِ السّموات والأرضِ واختلافِ الليلِ والنّهارِ والفُلْكِ الّتي تَجْري في البحرِ بما ينفعُ النّاسَ وما أنزلَ اللّهُ منَ السّماءِ مِنْ ماءٍ فأحيَا بهِ الأرضَ بعدَ موتِها وبثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابّةٍ وتصريفِ الرّياحِ والسّحابِ المُسَخّرِ بينَ السّماءِ والأرضِ لآياتٌ لقومٍ يعقِلُونَ﴾[1] وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾، ﴿لقوم يتفكرون﴾[2] وغير ذلك، فإنه يدل على المعين كالشمس التي هي آية النهار... وقال تعالى: ﴿وجعلنَا اللّيلَ والنّهارَ آيتين، فمحونا آيةَ اللّيلِ وجعلنَا آيةَ النّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً من ربّكم ولتعلَمُوا عَدَدَ السّنينَ والحِسَاب﴾[3] فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره، فإن كل ماسواه مفتقر إلى نفسه، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه».

فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لاتفتقر إلى قياس شمولي أو تمثيلي، بل هي مستلزمة لمدلولها عيناً، والعلم بها مستلزم للعلم بالمدلول، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بين واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها، وهذا النوع من الاستدلال بدهي يستوي في إدراكه كل العقول.

قال الزركشي[4]: «اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ماقاله: ﴿وما أرسلنَا مِنْ رسولٍ إلّا بلسانِ قومهِ ليبيّنَ لهم﴾. الآية[5]

---

(١) البقرة: ١٦٤. وأعلم أن الجدل الذي قامت عليه القراءة المعاصرة جدلٌ مادّيّ سفسطائي قائم على المغالطة.
(٢) يونس: ٢٤، وسور أخرى.
(٣) الإسراء: ١٢.
(٤) انظر «البرهان» ص٢٤ وما بعدها، بتصرف ج٢.
(٥) إبراهيم: ٤.

والثاني: إن المائل إلى دقيق المحاجّة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لايعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجّة خلقه في أجلِّ صورة تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليلها مايقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يُوفي على ما أدركه فهم الخطباء.

وعلى هذا حمل القول المروي: «إن لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حرف حداً ومطلعاً» لا على ماذهب إليه الباطنية، ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته اتبعها مرة بإضافته إلى أولي العقل، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين، تنبيهاً أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إنّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يعقلُون﴾[1] وغيرها من الآيات.

وأعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق الباحثين والأصوليين، من ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد، بدلالة التمانع المشار إليه في قوله تعالى: ﴿لو كانَ فيهِمَا آلهةٌ إلاّ اللّهُ لفسدَتَا﴾[2] لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لايجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على أحكام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم، وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض لاستحالة تجزؤ الفَعل إن فُرِضَ الاتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فُرِضَ الاختلاف، وإما لاتنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لاتنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لايكون عاجزاً».

أنواع من مناظرات القرآن وأدلته

(أ) مايذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه في ألوهيته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر - وهذا النوع كثير في القرآن.

فمنه قوله تعالى: ﴿ياأيها النّاسُ اعْبُدُوا ربّكُمُ الذي خلقَكُم والذينَ من قبلِكُم لعلّكم تتقُون. الذي جعلَ لكمُ الأرضَ فِراشاً والسّماءَ بناءً وأنزلَ منَ السماءِ ماءً فأخرجَ بهِ منَ

---

(١) الرعد: ٤.
(٢) الأنبياء: ٢٢.

الثمراتِ رزقاً لكم، فلا تجعلُوا للّهِ أنداداً وأنتمْ تعلمُون﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وإلٰهكُمْ إلٰهٌ واحدٌ، لا إلٰهَ إلّا هوَ الرّحمٰنُ الرحيمُ﴾[2] إلى قوله: ﴿لآياتٍ لقومٍ يعقِلُون﴾[3].

(ب) مايرد به على الخصوم ويلزم أهل العناد، ولهذا صور مختلفة:

١ ـ منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق في مثل قوله تعالى: ﴿أمْ خُلِقوا من غيرِ شيءٍ أمْ همُ الخالِقوُن. أمْ خَلَقوُا السمٰواتِ والأرضَ، بلْ لايوُقنوُن. أمْ عندَهمْ خزائنُ ربِّكَ أمْ همُ المسيطرُون. أم لهم سُلّمٌ يستمِعُون فيهِ، فليأتِ مستمعُهم بسلطانٍ مبين. أم لهُ البناتُ ولكمُ البنوُن. أم تسألُهم أجراً فهمْ منْ مَغرَمٍ مُثقلُون. أم عندَهمُ الغيبُ فهم يكتبُون. أم يُريدونَ كيداً، فالذينَ كفَرُوا هم المَكيدُون. أم لهم إلٰهٌ غيرُ اللّهِ، سبحانَ اللّهِ عمّا يُشرِكوُن﴾[4].

٢ ـ الاستدلال بالمبدأ على المعاد. كقوله تعالى: ﴿أفعيينا بالخَلْقِ الأوّلِ، بلْ هم في لَبْسٍ منْ خَلقٍ جديد﴾[5] وقوله: ﴿أيحسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدَى، ألم يكنْ نطفةً من منيّ يُمنَى. ثم كانَ علقةً فخلقَ فسوّى. فجعلَ منه الزوجينَ الذكرَ والأنثى. أليسَ ذلك بقادرٍ على أنْ يُحْيِيَ الموتى﴾[6]. وقوله: ﴿فلينظرِ الإنسانُ ممّ خُلِقَ. خُلِقَ من ماءٍ دافقٍ. يخرجُ من بينِ الصُّلْبِ والترائبِ. إنّه على رجعهِ لقادر﴾[7] ـ ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها بالإنبات على الحياة بعد الموت للحساب كقوله: ﴿ومِنْ آياتهِ أنّكَ ترىَ الأرضَ خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزّتْ وربَتْ، إنّ الّذي أحياهَا لَمُحيِي الموْتَى﴾[8].

٣ ـ إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها ـ كقوله تعالى: ﴿قلْ مَنْ أنزلَ الكتابَ

---

(١) البقرة: ٢١ ـ ٢٢.
(٢) البقرة: ١٦٣.
(٣) البقرة: ١٦٤.
(٤) الطور: ٣٥ ـ ٤٣.
(٥) سورة ق: ١٥.
(٦) القيامة: ٣٦ ـ ٤٠.
(٧) الطارق: ٥ ـ ٨.
(٨) فصلت: ٣٩.

الذي جاءَ بهِ موسىَ نُوراً وهُدىً للنّاس، تَجعلونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وتُخفُونَ كثيراً، وعُلِّمْتُمْ مالمْ تعلمُوا أنتمْ ولا آباؤكُمْ، قُلِ اللّهُ، ثم ذَرْهُمْ في خوضِهِم يلعَبُون﴾[1] رداً على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿ومَا قَدَرُوا اللّهَ حقَّ قَدْرِهِ إذْ قالُوا ما أنزلَ اللّهُ على بشرٍ مِنْ شيء﴾[2].

٤ ـ السبر والتقسيم ـ بحصر الأوصاف، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم، كقوله تعالى: ﴿ثمانيةُ أزواجٍ، مِنَ الضّأنِ اثنين ومِنَ المَعْزِ اثنين، قُلْ الذّكرَينِ حرّمَ أمِ الأنثيينِ أمْ مَا اشتملتْ عليه أرحامُ الأنثيين، نبئوني بعلمٍ إنْ كنتُمْ صَادقين. ومِنَ الإبلِ اثنينِ ومنَ البقرِ اثنين، قلْ آلذّكرينِ حرّمَ أمِ الأنثيينِ أمْ مَا اشتملتْ عليهِ أرحامُ الأنثيين، أمْ كنتُمْ شُهداءَ إذْ وَصّاكُمُ اللّهُ بهذا، فمَنْ أظلمُ ممّنِ افترَى على اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النّاسَ بغيرِ علم، إنّ اللّهَ لايهدِي القومَ الظّالمين﴾[3].

٥ ـ إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لايعترف به أحد ـ كقوله تعالى: ﴿وجعلوُا للّهِ شُرَكاءَ الجنِّ وخلقَهُم وخَرَقُوا له بنينَ وبناتٍ بغيرِ علمٍ، سبحانَهُ وتعالىٰ عمّا يَصِفُون. بديعُ السّمٰواتِ والأرضِ. أنّىَ يكونُ لهُ وَلَدٌ ولمْ تكنْ لهُ صاحبة وخلقَ كلَّ شيءٍ، وهو بكلِّ شيءٍ عليم﴾[4] فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد، وأن التولد إنما يكون من اثنين، وهو سبحانه لاصاحبة له، وأيضاً فإنه خلق كل شيء، وخَلْقُهُ لكل شيء يُناقض أن يتولد عنه شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع فيمتنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمور الطبيعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور ـ كالحار والبارد، فلا يجوز إضافة الولد إليه[5].

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة، كمناظرة الأنبياء مع أممهم، أو فريق المؤمنين مع المنافقين، وما شابه ذلك.

وأمّا الجدل الذي قامت عليه القراءة المعاصرة في[الكتاب والقرآن] في تحريف

---

(١) الأنعام: ٩١.

(٢) الأنعام: ٩١.

(٣) الأنعام: ١٤٢ ـ ١٤٤.

(٤) الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠١.

(٥) هذه الفقرة .. من كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهي رائعة في الاستدلال.

الكلم عن مواضعه وصرف الآيات عما نزلت بخصوصه فهو جدل ماديّ يتولّد عنه الإلحاد في آيات الله، والإفساد لعقيدة المسلمين.

البحث التاسع

قصص القرآن (١)

الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع. فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، والموعظة الخطابية تسرد سرداً لايجمع العقل أطرافها، ولا يعي جميع ما يلقى فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في إحداثها تتضح أهدافها، ويرتاح المرء لسماعها، ويصغي إليها بشوق ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات، وقد أصبح أدب القصة اليوم فناً خاصاً من فنون اللغة وآدابها، والقَصَصُ الصّادقُ يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل، ويُصوّره في أبلغ صورة قصص: القرآن الكريم.

معنى القصص

القص: تتبع الأثر: يقال: قصصت أثره: أي تتبعته، والقصص مصدر، قال تعالى: ﴿فارتدَا على آثارِهما قَصَصَاً﴾(٢) أي رجعا يقصان الأثر الذي جاءا به. وقال على لسان أم موسى: ﴿وقالتْ لأختهِ قُصِّيهِ﴾(٣) أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه. والقصص كذلك: الأخبار المتتبعة قال تعالى: ﴿إنّ هذا لهُوَ القَصَصُ الحقُّ﴾(٤) وقال: ﴿لقد كـان في قَصَصِهِمْ عِبْرةٌ لأولِي الألبَاب﴾ (٥) والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال.

وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة ـ وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد

---

(١) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان ص ٣٤٧ ـ ٣٥٣/ ط دار المريخ ـ الرياض.
(٢) الكهف: ٦٤.
(٣) القصص: ١١.
(٤) آل عمران: ٦٢.
(٥) يوسف: ١١١.

والديار. وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لِما كانوا عليه.

أنواع القصص في القرآن

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ـ قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين. كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقارون، واصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حُنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك.

فوائد قصص القرآن

وللقصص القرآني فوائد نجمل أهمها فيما يأتي:

١ ـ إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي ﴿وما أرسلنَا من قبلِكَ مِنْ رسولٍ إلاّ نُوحِي إليهِ أنّهُ لاإلهُ إلاّ أنَا فاعْبُدُونِ﴾(١).

٢ ـ تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده، وخذلان الباطل وأهله ﴿وكُلّاً نقصُّ عليكَ منْ أنباءِ الرُّسُلِ مانُثبِّتُ به فؤادَكَ، وجاءَ في هذهِ الحقُّ والموعظةٌ وذكرىَ للمؤمنين﴾(٢).

٣ ـ تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم.

٤ ـ إظهار صدق محمد ﷺ في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال.

---

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) هود: ١٢٠.

٥ - مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كقوله تعالى. ﴿كلُّ الطّعام ِ كانَ حِلّاً لبني إسرائيلَ إلّا ماحرّمَ إسرائيلُ على نفسهِ مِنْ قبلِ أنْ تُنزّلَ التّوراةُ، قُلْ فأتُوا بالتّورَاةِ فاتْلُوها إنْ كنتُمْ صَادقين﴾[1] .

٦ - والقصص ضرب من ضروب الأدب، يصغي إليه السمع، وترسخ عبرة في النفس، ﴿لقدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولي الألبَابِ﴾[2] .

تكرار القصص وحكمته

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن، وتعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، وما شابه ذلك. ومن حكمة هذا:

١ - بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها. فمن خصائص البلاغة وإبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولايمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معانٍ لاتحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

٢ - قوة الإعجاز - فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة أبلغ منها في التحدي.

٣ - الاهتمام بشأن القصة لتمكين عِبَرِهَا في النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد وإمارات الاهتمام. كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل - مع أن القصة لاتكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

٤ - اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة - فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معانٍ أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

القصة في القرآن حقيقة لاخيال

ومن الجدير بالذكر أن أحد الطلاب الجامعيين في مصر قدم رسالة لنيل درجة

---

(١) آل عمران: ٩٣.

(٢) يوسف: ١١١.

«الدكتوراه» كان موضوعها «الفن القصصي في القرآن»[1] أثارت جدلاً طويلاً سنة ١٣٦٧ هجرية، وكتب عنها أحد أعضاء اللجنة الذين اشتركوا في مناقشة الرسالة، وهو الأستاذ أحمد أمين - تقريراً بعث به إلى عميد كلية الآداب، ونشر في مجلة «الرسالة» وقد تضمن التقرير نقداً لاذعاً لما كتبه الطالب الجامعي، وإن كان أستاذه المشرف قد دافع عنه. وصدر الأستاذ «أحمد أمين» تقريره بالعبارة الآتية:

«وقد وجدتها رسالةليستعادية، بل هي رسالة خطيرة، أساسها أن القصص في القرآن عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ. والواقع أن محمداً فنان بهذا المعنى» ثم قال: «وعلى هذا الأساس كتب كل الرسالة من أولها إلى آخرها، وإني أرى من الواجب أن أسوق بعض أمثلة، توضح مرامي كاتب هذه الرسالة وكيفية بنائها» ثم أورد الأستاذ «أحمد أمين» أمثلةً مُنْتَزَعَةً من الرسالة تشهد بما وصفها به من هذه العبارة المجملة[2]. كادعاء صاحب الرسالة أن القصة في القرآن لاتلتزم الصدق التاريخي. وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادثة تصويراً فنياً، وزعمه أن القرآن يختلق بعض القصص وأن الأقدمين أخطأوا في عد القصص القرآني تاريخاً يعتمد عليه..

والمسلم الحق هو الذي يؤمن بأن القرآن كلام الله، وأنه منزه عن ذلك التصوير الفني الذي لايعني فيه بالواقع التاريخي، وليس قصص القرآن إلا الحقائق التاريخية تصاغ في صور بديعة من الألفاظ المنتقاة، والأساليب الرائعة.

ولعل صاحب الرسالة درس فن القصة في الأدب، وأدرك من عناصرها الأساسية الخيال الذي يعتمد على التصور، وإنه كلما ارتقى خيالها ونأى عن الواقع كثر الشوق إليها، ورغبت النفس فيها، واستمتعت بقراءتها، ثم قاس القصص القرآني على القصة الأدبية.

وليس القرآن كذلك، فإنه تنزيل من عليم حكيم، ولا يرد في أخباره إلا مايكون موافقاً للواقع، وإذا كان الفضلاء من الناس يتورعون من أن يقولوا زوراً ويعدونه من أقبح الرذائل المزرية بالإنسانية، فكيف يسوغ لعاقل أن يلصق الزور بكلام ذي العزة والجلال؟

---

(١) هو الدكتور محمد أحمد خلف الله.

(٢) انظر نقد كتاب «الفن القصصي في القرآن» - الأستاذ محمد الخضر حسين - بلاغة القرآن ص ٩٤.

والله تعالى هو الحق:

﴿ذلكَ بأنّ اللّهَ هو الحقُّ وأنّ مايدعُونَ مِنْ دُونهِ هو البَاطِلُ﴾[1] .

وأرسل رسوله بالحق:

﴿إنا أرسلناكَ بالحقِّ بشيراً ونذيراً﴾[2] .

﴿والذي أوحينَا إليكَ من الكتابِ هو الحقُّ﴾[3] .

﴿ياأيها النّاسُ قدْ جاءَكُمُ الرسولُ بالحقّ من ربِّكم﴾[4] .

﴿وأنزلنَا إليكَ الكتابَ بالحقِّ﴾[5] .

﴿والذي أُنْزِلَ إليكَ مِنْ ربِّكَ الحقُّ﴾[6] .

وماقصه الله تعالى في القرآن هو الحق:

﴿نحنُ نقصُّ عليكَ نبأَهُمْ بالحقِّ﴾[7] .

﴿نتلوُا عليكَ من نَبَإِ موسىَ وفرعونَ بالحقِّ﴾[8] .

أثر القصص القرآني في التربية والتهذيب

مما لاشك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف ـ وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويُسر، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا تكل، ويرتاد العقل عناصرها فيجني من حقولها الأزاهير والثمار.

والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل، ولا تستطيع الناشئة أن تتابعها وتستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة. وإلى أمد قصير. ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعاً. وأكثر فائدة.

والمعهود ـ حتى في حياة الطفولة ـ أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية، ويصغي

---

(١) الحج: ٦٢.
(٢) فاطر: ٢٤.
(٣) فاطر: ٣١.
(٤) النساء: ١٧٠.
(٥) المائدة: ٤٨.
(٦) الرعد: ١.
(٧) الكهف: ١٣.
(٨) القصص: ٣.

إلى رواية القصة، وتعي ذاكرته مايروى له، فيحاكيه ويقصه.

هذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغي للمربين أن يفيدوا منها في مجالات التعليم، لاسيما التهذيب الديني، الذي هو لب التعليم، وقوام التوجيه فيه.

وفي القصص القرآني تربة خصبة تساعد المربين على النجاح في مهمتهم، وتمدهم بزاد تهذيبي، من سيرة النبيين، وأخبار الماضين وسنة اللّه في حياة المجتمعات، وأحوال الأمم، ولاتقول في ذلك إلا حقاً وصدقاً.

ويستطيع المربي أن يصوغ القصة القرآنية بالأسلوب الذي يلائم المستوى الفكري للمتعلمين. في كل مرحلة من مراحل التعليم. وقد نجحت مجموعة القصص الديني للأستاذين «سيد قطب، والسحار» في تقديم زاد مفيد نافع لصغارنا نجاحاً باهراً، كما قدم «الجارم» القصص القرآني في أسلوب أدبي بليغ، أعلى مستوىً، وأكثر تحليلاً وعمقاً، وحبّذا لو نهج آخرون هذا المنهج التربوي السديد.

ولقد نظر صاحب القراءة المعاصرة في [الكتاب والقرآن] إلى القصص القرآني نظرةً قاصرةً مع التزوير والتحريف لمعنى القصص القرآني، فيقول في ص٩٥ تحت عنوان «القصص من القرآن وهي الكتاب المبين»: «القرآن هو الحديث، وإنه جاء من قَرْنِ قوانين أحداث الطبيعة مع أحدث التاريخ بعد وقوعها.. لأقبله».

فقوله: «القصص هي الكتاب المبين» مغالطة جدلية، لأنّه يريد أن يفرّق بين مفهوم الكتاب والقرآن، والكتاب المبين، وهذه تسميات لمسمى واحد هو «القرآن العظيم»

ولكنه حين أقام دراسته لآيات الله تعالى على أساس جدلي عقيم أتى في قراءته المعاصرة بكلِ غريب وعجيب من المعاني المنكرة والتسميات المغلوطة، وهذا ظاهر في تعريفه للقرآن العظيم من أنه هو الحديث، وأن تسمية القرآن جاءت من قَرْنِ قوانين أحداث الطبيعة مع أحداث التاريخ، فهذا الزعم الباطل يعني أن القرآن لايَعْدُ عن سجل لهذه الأحداث الطبيعية والتاريخية، وهذا هو قمة الإلحاد في كتاب الله تعالى والعياذ بالله تعالى.

الفصل الثالث

تاريخ تفسير القرآن العظيم

في مراحله الأولى ومنهج الصحابة فيه

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:

المدخل إلى أبحاث هذا الفصل: بيان القرآن الكريم في صدر الإسلام.

التمهيد: أهمية التفسير وحاجة المسلمين إليه.

البحث الأول: تاريخ مراحل تفسير السّلف.

البحث الثاني: القرآن الكريم وتهيب الصحابة في تفسيره.

البحث الثالث: مصادر تفسير الصحابة للقرآن الكريم.

البحث الرابع: التفسير والصحابة المفسّرون.

البحث الخامس: منهج ابن عباس في التفسير أنموذج في منهج السلف في التفسير.



المدخل إلى أبحاث هذا الفصل:

بيان القرآن الكريم في صدر الإسلام

١ ـ القرآن دستور الأمة، وهداية الخالق لإصلاح الخلق، وشريعة السماء لأهل الأرض، وهو التشريع العام الخالد، الذي تكفل بكل ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم، ودنياهم، في العقائد والأخلاق والعبادات، وفي المعاملات المدنية والجنائية، وفي الاقتصاد والسياسة، والسلم والحرب، والمعاهدات والعلاقات الدولية. وهو في ذلك كله حكيم كل الحكمة، لايعتريه خلل ولا اختلاف: ﴿يا أيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ موْعِظَةٌ مِنّ رَبّكُمْ، وشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ، وَهُدىً، وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤمِنين﴾ (سورة يونس: ٥٧).

٢ ـ فلا عجب إن كانت السعادة الحقيقية لاتنال إلا بالاهتداء بهديه، والتزام ما جاء به، فهو شفاء لما في الصدور، وعلاج لما حلَّ، أو يحل بالمجتمع من شرور ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤمِنِينَ، وَلا يَزِيْدُ الظَّالِمينَ إلاّ خَسَاراً﴾ (سورة الإسراء: ٨٢).

٣ ـ ومن المؤسف أن أكثر المسلمين في الوقت الحاضر، اكتفوا من القرآن بألفاظ يرددونها، وأنغام يُلَحّنُونَهَا، في المآتم والمقابر والدور، وبمصاحف يحملونها، أو يودعونها البيوت تبركاً بها، ونسوا أن بركة القرآن العظمى إنما تكون في العمل به، والوقوف عند نواهيه. ولا يتأتى ذلك إلا بتدبره، والاتعاظ بما فيه ﴿كتابٌ أنزلناهُ إلَيْكَ مُبَارَكٌ ليدبَّروا آياتِهِ، وليذكَّرَ أولُوْا الألبابِ﴾ (سورة ص: ٢٩). ﴿أفَلَا يتدبرونَ القرآنَ؟ أمْ عَلَى قلوبٍ أقفالُهَا﴾ (سورة محمد: ٢٤)، ﴿ولقَدْ يسرنَا القرآنَ للذكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (سورة القمر: ١٧).

٤ ـ لقد هيّأ الله عز وجل السبل لبيان القرآن، حتى يقوم الناس بالقسط، فبدون هذا البيان لايمكن العمل بالقرآن، لأن من شروط صحة التكليف بعملٍ ما، أن يكون معلوماً للمكلف علماً تاماً، حتى يستطيع القيام به كما طلب منه.

وعلى هذا فنصوص القرآن المجملة مثلاً لايصح تكليف المكلف بها، إلا بعد أن

يفصل الرسول صلى الله عليه وسلم ما فيها من إجمال، إذ كيف يكلف بالصلاة من لايعرف أركانها وشروطها، وكيفية أدائها؟! وكذلك الحج والزكاة، وكل فعل تعلق به خطاب من الشارع، إذا كان هذا الخطاب مجملاً، لايعلم مراد الشارع به، فإنه لايجوز مطالبة المكلفين بامتثاله، إلا بعد بيانه وتفسيره[1]. ولهذا فرض الله على رسوله أن يُبيِّنَ كتابَهُ، حيث قال سبحانه: ﴿وأنزلنَا إليْكَ الذكْرَ لِتُبيِّنَ للناسِ مَا نُزِّلَ إليْهِمْ﴾ (سورة النحل: ٤٤).

واهتماماً بهذا البيان، وحثاً على الرجوع إليه في فهم القرآن، أمرنا سبحانه وتعالى بطاعة رسوله فقال. ﴿يا أيُّهَا الذيْنَ آمَنوا أطِيْعُوا اللّهَ وأطيعُوا الرسولَ﴾ (سورة محمد: ٣٣). وقال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرسولَ فَقَدْ أَطاعَ اللّهَ﴾ (سورة النساء: ٨٠). وقال: ﴿وما آتاكُمُ الرسولُ فَخذوهُ، ومَا نهاكُمْ عَنْهُ فانتَهُوْا﴾ (سورة الحشر: ٧).

٥ - وإذا ما استعرضنا بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن وجدناه على وجوه نوجزها فيما يلي:

١ - بيانُ معنى لفظِ مُتَعَلَّقِهِ: كبيان المغضوب عليهم باليهود[2]، والضالين بالنصارى[3].

٢ - توضيحُ مُشْكِلِهِ: ومن ذلك تفسيره صلى الله عليه وسلم للخيط الأبيض، والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿حتَّى يَتَبيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأسودِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (سورة البقرة: ١٧٨)، بأنه النهار، وسواد الليل[4].

٣ - تأكيد ماجاء في القرآن: كأن يأتي قوله صلى الله عليه وسلم مطابقاً لما ورد فيه، بقصد تأكيد الحكم وتقويته، فقوله: «لايحلُّ مالُ امرىءٍ مسلم إلا بطيبِ نفسٍ منه»[5]، موافق لقوله تعالى:

---

(١) انظر علم أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف ص ١٤٧، وراجع كتب أصول الفقه في شروط صحة التكليف، من بحث الحكم.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٥، والدر المنثور ١/ ١٦ للسيوطي.

(٣) انظر صحيح الترمذي ١١/ ٧٢ أبواب التفسير.

(٤) انظر صحيح مسلم ٧/ ٢٠٠ كتاب الصيام، وقد أخرجه في الصوم كل من البخاري وأبو داود والنسائي.

(٥) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٧٢.

﴿ولا تأكُلُوا أموالَكُمْ بيْنَكُمْ بالباطِلِ﴾ (سورة البقرة: ١٨٨)[١] .

٤ ـ تفصيل مجمله: كبيانه صلى الله عليه وسلم عملياً لمواقيت الصلاة، وأركانها، وعدد ركعاتها بقوله: «صَلُّوا كمَا رأيْتُمُوني أُصَلِّي» ومثل ذلك الحج والزكاة[٢] .

٥ ـ تخصيص عامه: كتخصيصه ـ عليه صلوات الله ـ المورث بغير الأنبياء بقوله: (إنا لانُوَرِّثُ، ماتركناهُ صدقة)[٣] ، وتخصيصه الوارث بغير القاتل، بقوله: (القاتل لايرث)[٤] .

٦ ـ تقييد مطلقه: ومن ذلك، ورود الوصية مطلقة في قوله سبحانه. ﴿مِنْ بَعْدِ وصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أوْ دينٍ﴾ (سورة النساء: ١١)، فقيدها الرسول صلى الله عليه وسلم بعدم الزيادة على الثلثِ[٥] . وقد يلحق بعضهم بأوجه بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن بيان الأحكام الزائدة عليه: كالديات، وتحريم أكل لحم الحمر الأهلية، وسباع البهائم. كما يعتبرون منها بيان النسخ أيضاً.

---

(١) انظر هذا البحث في كتاب: أصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله ص: ٤١ ـ ٤٢ .

(٢) انظر هذا البحث في كتاب أصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله: ص٤١ـ ٤٢ .

(٣) انظر مسند أحمد ج٣ ص ٤ الحديث رقم: ١٤٠٦.

(٤) انظر صحيح الترمذي ٨/ ٢٥٩، وسنن ابن ماجه ٢/ ٨٦.

(٥) انظر أصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله ص ٤١ ـ ٤٢، رواه الشيخان وانظر صحيح الترمذي ٨/ ٢٥٩، وانظر ماأخرجه الترمذي أيضاً في ٨/ ٢٦٨ ـ ٢٧٠ عن سعد بن أبي وقاص قال: «مرضت عام الفتح مرضاً أشفيت منه على الموت، فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني فقلت: يارسول الله إن لي مالاً كثيراً وليس يرثني إلا ابنتي، أفأوصي بمالي كله؟ قال: لا. قلت: فثلثي مالي؟ قال: لا. قلت: فالشطر؟ قال: لا. قلت: فالثلث! قال: الثلث، والثلث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة، يتكففون الناس، وإنك لن تنفقَ نفقةً إلا أُجِرْتَ فيها، حتى اللقمة ترفعها إلى فِيْ امرأتِكَ. قال: قلت يا رسول الله أخلّف عن هجرتي؟! قال: إنك لن تخلف بعدي، فتعمل عملاً تريد به وجه الله، إلا ازددت به رفعة ودرجة، ولعلك أن تخلف حتى ينفع بك أقوام ويضر بك آخرون. اللهم امض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم» وورد بنحوه في سنن ابن ماجه ٢/ ٨٢ (الطبعة الأولى).

٦ - وإذا كنا قد ذكرنا كلمة وجيزة عن أوجه بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن، فلسنا نقصد بذلك أنه بين كل معانيه إفراداً وتركيباً، ولو كان الأمر كذلك لاستوى الصحابة جميعاً في فهم كتاب الله تعالى، ولما كان هناك وجه لتخصيص النبي صلىالله عليه وسلم ابن عباس حينما دعا له فقال: (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ، وعلِّمْهُ التَّأويل)(١) .

وعلى هذا، فقد كان للصحابة - رضي الله عنهم - دور لايستهان به، في تتميم بيان الرسول صلي الله عليه وسلم للقرآن، لأنهم شاهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا وعاينوا من أسباب النزول مايكشف لهم النقاب عن حكم ومعاني الكتاب، ولهم من سلامة فطرهم، وصفاء نفوسهم، مايمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله تعالى، وما يجعلهم يدركون المراد من تنزيله.

من هنا كان لِما أثر عن الصحابة أهمية بالغة، وأصبح من غير الممكن الاستغناء عنه، وخصوصاً ماروي عن مشاهير المفسرين منهم، أمثال: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، وغيرهم - رضوان الله عليهم -.

وإذا كان عبد الله بن عباس قد امتاز من بينهم جميعاً في التفسير - فقد كان لصغر سنّه دور لاينسى في استعداده لتلقي العلم وجمعه، لقد استفاد بفضل جده ونشاطه من علوم الصحابة جميعاً، ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا له بأن يعلمه اللّه التأويل، حتى سماه عبد اللّه بن مسعود: «ترجمان القرآن» حيث كان يقول: (نِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس)(٢) .

وقد كان أكثر الصحابة تفسيراً، وذلك لتأخر الزمان به حتى اشتدت حاجة الناس إلى التفسير، بعد اتساع الإسلام واستبحار العمران ولانقطاعه وتفرغه لنشر الدعوة والعلم، دون أن تشغله خلافة، أو تصرفه سياسة، لكن ماعُزِي إليه ليس كله صحيحاً، فقد نسب إليه من الآراء ما لم يقله، نظراً لاشتهاره بالتفسير، ولذلك تقضينا دراسة مدرسته في التفسير أن ندرس حياته، وأشهر الأسانيد التي رويت بها آثاره، حتى يتبين على ضوء هذه الدراسة ماقاله، ومانسب إليه ولم يقله. لقد طعن صاحب القراءة المعاصرة في [الكتاب والقرآن] بتفسير الصحابة ونسبهم إلى قلة العلم وقال في ص٩١: «نحن غير مقيدين بأيّ شيء قاله السلف» وقال في ص١١٥ : «إن التّيه الأكبر في كتاب التفاسير».

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٨/١.

(٢) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص ٤٠، وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٥ ص ٢٧٨. والإصابة لابن حجر ج٢ ص ٣٢٣.

التمهيد:

أهمية التفسير وحاجة المسلمين إليه

تتميّز اللغة العربية بأنّها مَضْرِبَ المَثَل في غزارة مفرداتها وجزالة ألفاظها وتعدد أوجه البلاغة فيها، ممّا جعلها لغة الشعر على اختلاف أبحُرِهِ وقوافيه الذي أخذ ينساب كالجدول الرقراق على ألسنة الأحداث من قبائل العرب وهم في يفاعة الصبا وعمر الورود. ومع ما أوتيت هذه اللغة من تفتق في البلاغة فقد تحدى الله تعالى روادها بل تحدى الإنس والجن على أن يأتوا ولو بسورة مما في القرآن، فأخفق المتحدُّون به وبقي التحدي قائماً.. مما يدل هذا على أن كلام الله لايشبهه كلام لافي الفصاحة والغرابة والتصرف والبديع والمعاني ولا في مجال التراكيب والجمل الدالة على مايشير إليه اللفظ وما ترشد إليه العبارة.

كتاب كهذا، سماوي المصدر، إلهي الكلمة، عربي النبرة، بلغ الذروة اللامتناهية في فصاحة البيان ودقة التعبير وبلاغة المعنى، هل يمكن أن يفهمه كل العرب فلا يحتاجون في مجاله إلى بيان أو تفسير؟. قال ابن خلدون: (فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه)[1].

والمآخذ على عبارة ابن خلدون هذه كثيرة، منها أن ابن خلدون أغفل ما تضمنه القرآن الكريم من أحكام مجملة لاتفهم إلا بتفصيل واقتصر في النظرة على الجانب اللغوي منه حتى في هذا الجانب لم يوفق في نظرته لأن الآثار الصحيحة أثبتت العكس، أعنى أثبتت أن ليس كل العرب حتى القرشيين فهموا كل مفردات القرآن. فقد سأل عمر بن الخطاب عن الأب في قوله تعالى: (وفاكهةً وأبّاً) ثم تراجع وقال: إنه التكلف ياعمر[2]. علماً بأن السيوطي أورد عدة آثار تشير إلى توقف بعض الصحابة في فهم مفردات وردت في القرآن الكريم أحيل إليها[3].

وقد يرد في هذا الصدد إشكال أوجزه بما يلي:

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٣/٩٩٦.
(٢) الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي ١/١١٣.
(٣) الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي ج١/١١٣.

وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه كتاب مبين في أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿آلرٰ تلكَ آياتُ الكتابِ وقرآنٍ مُبينٍ﴾ (سورة الحجر: ١). وقوله جل شأنه: ﴿حٰمٓ والكتابِ المُبين. إنّا جعلنَاهُ قرآناً عربياً لعلّكم تعقِلُون﴾ (سورة الزخرف/ ١ ـ ٣). فأول ما يتبادر إلى الذهن من هذه الآيات أن القرآن بين جلي لا أثر للغموض فيه مما يجعله غنياً عن التفسير لكمال وضوحه، فكيف نجمع بين هذه الآيات الدالة على وضوح القرآن وبين قوله تعالى: ﴿وأنزلنَا إليكَ الذِّكْرَ لتبيِّنَ للنّاسِ مانُزِّلَ إليهِمْ..﴾؟ (سورة النحل/ ٤٤).

فمن أين إذن يحسن الاشتغال بتبيين ما هو مبين لايحتاج إلى بيان؟ فالناس إذن بالنسبة لهذا القرآن بين رجلين:

١ ـ عارف بلسان العرب فحق مثل هذا ان يفقه القرآن بنفسه دونما حاجة إلى أن يفسر له شيئاً منه أصلاً وإلا لزم التناقض بين وصفه تعالى لكتابه بالإبانة وبين واقع هذا الكتاب الذي هو الغموض وعدم البيان لأهله.

٢ ـ وغير عارف بهذا اللسان فلا يحتاج مثل هذا إذن إلى أكثر من أن يعرف هذا اللسان حتى يفقه به القرآن.

يجيب عن هذا التساؤل الدكتور ابراهيم عبد الرحمن خليفة فيقول:

(وللجواب عن هذا السؤال نقول: لانسلم أن وصف القرآن بالإبانة والبيان يقتضي عدم حاجة شيء منه إلى شرح فإنه إنما يلزم ذلك لو أريد من البيان وضوح جميع معانيه للكافة فأما لو أريد منه ظهور كونه من عند الله وأنه معجزة للثقلين ظاهر الحجة عليهم أو أريد منه ظهور المعنى بشرط التدبر واستبانته صلى الله عليه وسلم في بعض المواضع وسؤال أهل الذكر فيما يحتاج إليه إلى سؤال[1].

ولتقرير حاجة الأمة إلى تفسير للقرآن الكريم يمكن استخلاص أدلة نقلية وعقلية.

فمن الأدلة النقلية:

١ ـ قوله جل جلاله: ﴿وأنزلنَا إليكَ الذِّكْرَ لتبيِّنَ للنّاسِ مانُزِّلَ إليهم﴾.

٢ ـ ماثبت عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بعض من الآيات ففسرها لهم. منها ما أشكل على عدي بن حاتم في قوله تعالى:

---

(١) دراسات في مناهج المفسرين ١/ ٣٤.

﴿وكلُوا واشرَبُوا حتّى يتبيَّنَ لكمِ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ﴾ (سورة البقرة ١٨٧). فأخذ عدي عقالاً أبيض وآخر أسود وظل يأكل حتى ميز بينهما على ضوء النهار فبيّنَ له النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد من الآية سواد الليل وبياض النهار[1].

٣ ـ الحثُّ على تدبر القرآن الكريم والوعيد لمن أعرض عن ذلك لقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبَّرون القرآن أمْ علىٰ قلوبٍ أقْفَالُها﴾ (سورة محمد ٢٤). ولقوله جل وعلا: ﴿كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مباركٌ ليدّبَّرُوا آياتهِ وليتذكَّرَ أولُو الألباب﴾ (سورة ص ٢٩).

وأما الأدلة العقلية فيمكن استنباطها من واقع القرآن الكريم من حيث ألفاظهُ ومعانيه أي من حيث اللغة، ومن حيث موضوعه والأغراض التي أنزل من أجلها.

فمن حيث اللفظ يجب أن يعلم أنه لايكفي الإدراك الإجمالي للقرآن بل لابد من الإدراك التفصيلي للكليات والجزئيات ولو بشكل إجمالي، ولأجل تصور هذا الإدراك التفصيلي أشير ولو بلمحةإلى كيفية الوصول إلى الإدراك لواقع القرآن من حيث مفرداته وتراكيبه وتصرفه في المفردات والتراكيب ومن حيث الأدب العالي في الخطاب..

أما واقع القرآن من حيث مفرداته فالمشاهد أن فيه مفردات كثيرة ينطبق عليها المعنى اللغوي حقيقة، والمعنى اللغوي مجازاً. وقد يراد المعنى اللغوي والمجازي معاً ويعرف المعنى المراد بالقرينة في كل تركيب، وقد يتناسى المعنى اللغوي ويبقى المعنى المجازي، فيصبح هو المقصود، وقد نجد في القرآن الكريم مفردات أريد بها المعنى اللغوي حقيقة دون المجازي لعدم وجود قرينة تصرفها عن المعنى اللغوي. كما أننا نجد في القرآن مفردات ينطبق عليها المعنى اللغوي وينطبق عليها معنى شرعي جديد غير المعنى اللغوي حقيقة وغير المعنى اللغوي مجازاً. والذي يساعد على تحديد المراد من هذه المفردات تركيب الآية وسياقها ومناسبتها لما قبلها وبعدها.

والأمثلة على ماسبق ذكره كثيرة فمثلاً في قوله تعالى: ﴿حتّى إذا أتَيَا أهلَ قرية﴾ (سورة الكهف ٧٧). المراد بالقرية هنا المعنى اللغوي فقط. أما في قوله تعالى: ﴿واسألِ القَرْيَةَ التّي كنّا فيها﴾ (سورة يوسف ٨٢). فالمراد من القرية هنا معناها المجازي لأن القرية لاتسأل والمراد فيها أهل القرية. ومثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه...﴾ (سورة الأحزاب ٥٦) فالمراد بالصلاة هنا معناها الشرعي دون اللغوي. أي قولوا: اللّهمَّ صليِّ على عبدِكَ ورسولِكَ محمدٍ، ﷺ.

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير. الفتح ٨/ ١٨٢.

هذا من حيث المفردات، أما من حيث التراكيب فقد نجد في القرآن تراكيب تخللتها مفردات تشترك في أكثر من معنى ككلمة (العين)، و(الروح)... أو مترادفة مثل (جاء وأتى) و(أسد وقسورة) أو تشترك في معاني مضادة مثل كلمة (قُرْءٌ) للحيض والطهر، و(بان) بمعنى ظهر واختفى، ولابد لفهم المعنى المراد في مثل هذه المفردات من فهم التركيب كله إذ لا يمكن فهم المراد وتحديد معنى الكلمة في هذه الحال بالرجوع إلى القاموس، فلا بد من فهم التركيب الذي يحدد المعنى المراد وكما نقول ذلك في المفردات بالنسبة للتراكيب نقوله بالنسبة للتراكيب نفسها فإنها من حيث هي ألفاظ وعبارات مطلقة دالة على معاني مطلقة فهذه هي دلالتها الأصلية، وما لم ترد قرينة دالة على غير ذلك فإن معناها المطلق هو المراد، وهذا كثير في القرآن لايحتاج إلى تمثيل لأنه الأصل.

وأما واقع القرآن من حيث المعاني الشرعية كالصلاة والصيام والأحكام الشرعية كتحريم الربا، وحِلّ البيع، وما يتعلق بالأمور الغيبية كالجنة والنار والملائكة والشياطين والبعث... فالقرآن الكريم جاء بآيات أجملتْ ذكرَ ما فصّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وعمله وتقريره. وجاءت آيات عامة خصصها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قيد الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الآيات المطلقة. فالقرآن من هذه الجهة يحتاج فهمه إلى الاطلاع على مابينه الرسول صلى الله عليه وسلم. والرسول قد بلغ وبين مايحتاج إلى بيان.

ولهذا لابد من المعرفة باللغة، وبالنسبة أولاً لطلب التفسير.. كل هذا يؤكد لنا الحاجة إلى تفسير القرآن الكريم إذ لايُفهم بمجرد تلاوته عند البعض.

وماسبق ذكره يوضح لنا ما روي عن ابن عباس في هذا الصدد، إذ أخرج الطبري بسنده إلى ابن عباس قال: (التفسير على أربعة أوجه: وجهٌ تعرفه العرب من كلامها، وتفسيرٌ لايُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسيرٌ يعلمه العلماءُ وتفسيرٌ لايعلمه إلّا اللّه)(١).

يفيد الأثر أن الوجه الأول الذي تعرفه العرب هو الذي يرجع فيه إلى لسانهم وذلك شأن اللغة والإعراب. والوجه الثاني الحلال والحرام وما كلف به المسلم. والقسم الثالث ما يستنبطه العلماء من القرآن استنباطاً بتأويل ونحوه. والرابع المغيبات كأحوال الجنة والنار والحشر وغيرها..

---

(١) مقدمة تفسير الطبري ١/٢٦ - ومقدمة في أصول التفسير: لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١١٥ والإتقان في علوم القرآن: للسيوطي ٢/١٨٢ - والبرهان ٢/١٦٤ وغيرهم.

قال السيوطي: (وأما وجه الحاجة إليه فقال بعضهم: اعلم أن من المعلوم أن الله خاطب خلقه بما يفهمونه ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه وأنزل كتابه بلغتهم وإنما احتيج إلى التفسير لما سيذكر بعد تقرير قاعدة وهي أن كل من وضع من البشر كتاباً فإنما وضعه ليفهم بذاته من غير شرح وإنما احتيج إلى الشروح لأمور ثلاثة:

أحدها: كمال فضيلة المصنف فإنه لقوته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز فربما عسر فهم مراده فقصد بالشرح ظهور تلك المعاني الخفية.. وثانيها: إغفاله بعض تتمات المسألة أو شروط لها اعتماداً على وضوحها أو لأنها من علم آخر فيحتاج الشارع لبيان المحذوف ومراتبه. وثالثها: احتمال اللفظ لمعان كما في المجاز فيحتاج الشارع إلى بيان غرض المصنف وترجيحه. وقد يقع في التصانيف ما لا يخلو عنه بشر من السهو والغلط أو تكرار الشيء أو حذف المبهم وغير ذلك فيحتاج الشارع للتنبيه على ذلك) اهـ[1].

إذا تقرر هذا فنقول إن القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح فيه العرب وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه. أما بدقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر مع سؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم في الأكثر كسؤالهم لما نزل قوله تعالى: ﴿ولم يلبِسُوا إيمانَهُم بظلم﴾ (سورة الأنعام ٨٢).

قالوا: وأينا لم يظلم نفسه ففسَّره النبي صلى الله عليه وسلم بالشرك واستدل عليه بقوله: ﴿إنّ الشّرْكَ لظلمٌ عظيم﴾ (سورة لقمان ١٣)[2]..

ولعل ما سبق بيانه يؤكد حاجة المرء إلى التفسير مهما كان المرء ملماً باللغة العربية وبأساليبها وأسرارها. ونلخص الأدلة على هذه الحاجة بما يلي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وأنزلنَا إليكَ الذِّكْرَ لتبيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ﴾(سورة النحل ٤٤).

٢ ـ النكير على من ترك تدبر القرآن لقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبَّرُونَ القرآنَ أمْ علىٰ قلوبٍ أقْفَالُها﴾ (سورة محمد: ٢٤).

٣ ـ في القرآن الكريم أحكام شرعية وردت مجملة لاسبيل إلى استيضاح معناها إلا بالرجوع إلى السنة النبوية للتعرف عليها وذلك بغية التعبد بها على الوجه الصحيح.

٤ ـ في القرآن الكريم آيات تنبىء عن مغيبات توقف الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٧٤.
(٢) السيوطي في الإتقان ٢/ ١٩٣.

عن تفسيرها فلا نملك إلا أن نؤمن بها ونكتفي بالظاهر فيها.

٥ - في القرآن الكريم آيات متشابهات، تعبر عن موضوعات لايمكن إدراكها إلا بنوع من التأويل، ولايملك التأويل في هذا إلا الراسخون في العلم من المفسرين.

٦ - في القرآن الكريم آيات كريمة ومفردات يفهمها العالم بأصول اللغة العربية وقواعدها أما من خفيت عليه قواعد اللغة ولو قاعدة واحدة اضطره الأمر إلى أن يستعين بالمفسرين.

٧ - لو كان المفروض بأمة الإسلام أن تحيط بمغاني القرآن الكريم بمجرد تلاوته لما بقيت فائدة من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس بأن يعلمه الله التأويل.

وعليه فإن التفسير أشرف العلوم وأسناها على الإطلاق وذلك لتعلقه بأقدس موضوع فيكفيه شرفاً أنه يبحث في كلام الله ويكفي رواده نبلاً أنهم يستنيرون بهديه لمعرفة الصراط المستقيم فيتبعوه ويدعون إليه فيسعدون ويسعدون.

حاجة الأمة اليوم إلى التفسير والمفسرين:

بعد أن تأكد لدينا آنفاً أن أمة الإسلام كانت بحاجة إلى تفسير القرآن في وقت مبكر جداً، أي في الوقت الذي كانت تشهد فيه مطلع النور ونزول الوحي. وكلما ابتعد الناس عن عصر التنزيل كلما اشتدت حاجتهم إلى التفسير وإلى هذا أشار السيوطي بقوله: (ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم فنحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير)[1].

أقول: إن كان السيوطي قد قال هذا قبل خمسة قرون فماذا عسانا أن نقول نحن اليوم عن حاجتنا إلى تفسير ومفسرين خاصة بعد أن ظهرت مطامح الكفر في تحريف معاني القرآن بما يخدم مصالحهم وذلك بمحاولة إيجاد مدرسة للتفسير تخدم الإلحاد الماركسي وأخرى تخدم النظام الرأسمالي كل ذلك بأقنعة زائفة؟.

فالأمة اليوم بحاجة إلى مفسرين وخاصة بعد أن جَدّتْ أمورٌ لم تكن لابد من التعرف عليها إن كانت تندرج تحت كليات عامة ذكرت في القرآن أو يمكن انطباق أحكام جزئية عليها على أن أسلوب التفاسير القديمة باعتباره جمعاً للتفسير هو نوع من أنواع التأليف من حيث الشكل والعرض، وهو أسلوب المؤلفات المطوّلة لايجد أبناء

---

(١) الاتقان ٢/ ١٧٤ ويزعم صاحب القراءة المعاصرة في ص١١٥: «أنّ التّيه الأكبر في كتاب التفسير» وذلك لتفقد الأمة ثقتها بعلوم دينها وكتاب ربّها !؟..

هذا الجيل رغبة وشغفاً بقراءة هذه التفاسير إلا لمن تعوّد على قراءة المطوّلات من المؤلفات، وقليل ما هم. ولهذا كان لابد من أسلوب يبعث الرغبة في المسلمين فضلا عن غيرهم لقراءة التفاسير ككتاب فكري عميق الفكر مستنيره، وفوق ذلك فإن ما سار عليه المفسرون في العصر الذي جاء بعد وجود ترجمة الكتب الفلسفية والتأثر بها، وفي العصر الذي أتبع الحروب الصليبية، فقد أدى إلى وجود تفاسير صرفت جهداً كبيراً نحو العناية بأمور ليست ذات علاقة وثيقة بالتفسير فضلاً عمّا تراكم فيها من الإسرائيليات. والعقائد الباطنية. فكان لابدّ من تفسير للقرآن يجري على سُنَنِ تفسير الصحابة من حيث الاجتهاد في فهم القرآن والاستعانة بما نقل من تفسير عن الصحابة بأسلوب يتفق مع الذوق الأدبي لهذا العصر بعبارة واضحة. كل ذلك على أسس من منهج السلف في العقيدة. فما أشبه حاجتنا إلى التفسير بحاجة مريض بين يديه دواء يشفيه إلا أنه يجهل استعماله فيبقى في علته منتظراً الموت. أو بحاجة عطشان بيده إناء محكم الرتاج[1] وفيه العذب الفرات فلا يمكنه أن يبل منه غلته أو يشفي علته إلا إذا فتح رتاجه، فإن لم يعقل فتحه قتله الظمأ والماء بين جنبيه.

ويدّعي أصحاب القراءة المعاصرة تحت ماأسموه بـ«الكتاب والقرآن» الذي أصدروه باسم المدعو «محمد شحرور» أنهم أتَوْا في هذا الكتاب بمنهج جديد في تفسير القرآن ليكون البدل عن منهج المسلمين، وقد أقاموه على أساس فلسفي جدلي لاصلة له بأيّ وجه من وجوه المعرْفة بالعلوم العربية والشرعية، حيث خرجوا فيه عن جميع الضوابط الشرعية والمصطلحات العلمية والمعاني اللغوية. حيث يقول ناطقهم في ص٣٨: «لقد أجرينا مسحاً شاملاً للكتاب «وجدنا» فيه مفهوم المصطلحات الأساسية وهي: الكتاب وأم الكتاب والقرآن والسبع المثاني والذكر والفرقان وتفصيل الكتاب والحديث وأحسن الحديث والعرش والكرسي والألوهيّة والربوبيّة والرسالة» فوضعوا مدلولات غريبة ومشكلة قد وُضعتْ بشكل جدلي فلسفي يدعو إلى تحريف كلّ دلالات القرآن العظيم بما يتفق مع الأفكار الاستشراقية واللإلحادية. ففي ص٤٠ «إن قوانين الجدل المادي وتغيير الصيرورة «التّطوّر» هي العمود الفقري لقوانين الوجود في القرآن «النبوة». وفي صدر ص٤٠ «للنبوة «القرآن»وهي الوجود الكوني. .» وفي ص٨٠ «إنّ القرآن جاء من «قَرَنَ» وهو من جَمْع الجزء الثابت مع قوانين الكون والموجود في اللوح المحفوظ مع الجزء المتغيّر الموجود في الإمام المبين» وفي ص٩٥ «الحديثُ: هو القرآن، لأنه قَرَنَ أحداث الكون مع أحداث التاريخ» وعلى هذه المغالطات الجدلية السفسطائية قامت جميع أبحاث هذا الكتاب المزعوم.

---

(١) الرتج والرتاج: الباب العظيم وقيل هو الباب المغلق.

البحث الأول

تاريخ مراحل تفسير السلف

١ - التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

أنزلَ اللهُ تعالى قرآناً عربياً على نبيه الأمي محمد صلى الله عليه وسلم ليبلِّغَهُ ويبيِّنَهُ للناس كافة ومنهم العرب الذين غلبت عليهم الأمية فنعتوا بها. قال تعالى:

﴿وهو الذي بعثَ في الأُمّيينَ رسولاً منهم يتلُو عليهم آياتِهِ، ويُزكِّيهم ويعلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانُوا من قبلُ لفي ضَلالٍ مبين﴾ (سورة الجمعة آية ٢).

فالآية تشير إلى أن إحدى وظائف النبي الكريم الذي أنزل عليه القرآن أن يعلمه للناس ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وأنزلنَا إليكَ الذّكرَ لتبيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ﴾ (سورة النحل آية ٤٤). ولا إشكال في هذا لأن اللّه تعالى تكفل بتعليم نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم عن طريق الوحي القرآن الكريم تلاوةً ودرايةً وحفظاً إذ لما حاول النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يكثر من تلاوته خشية ضياعه طمأنه اللّه بقوله: ﴿لاتحرّكْ بهِ لسانَكَ لتعجلَ بهِ. إنّ علينا جمعَهُ وقرآنَهُ. فإذا قرأنَاهُ فاتّبعْ قُرآنَهُ. ثم إنّ علينا بَيانَهُ﴾ (سورة القيامة آية ١٦ - ١٩). فاعتبرت تعاليم النبي صلى اللّه عليه وسلم من تعاليم اللّه لقوله تعالى: ﴿وما يَنْطِقُ عن الهوَى إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (سورة النجم آية٣).

ولقد أكدت آنفاً الحاجة الملحة إلى تفسير القرآن الكريم رغم وضوح بيانه وإشراق عباراته فأوكل اللّه تعالى هذا الأمر إلى نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم.

أ - هل فسر الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن كله؟

قال السيوطي: (صرح ابن تيمية وغيره بأن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه تفسير جميع القرآن أو غالبه ويؤيد هذا ما أخرجه أحمد وابن ماجه عن عمر أنه قال:

مِنْ آخرِ ما نزلَ آيةُ الربا وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قُبِضَ قبل أن يفسرها. دل فحوى الكلام على أنه كان يفسر لهم كل ما نزل وإنما لم يفسر هذه الآية لسرعة موته بعد نزولها وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه)[1] اهـ. كلام السيوطي.

---

(١) الاتقان ٢/ ٢٠٥.

قلت: يشير السيوطي في كلامه هذا إلى ماقاله ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير الذي سيرد ذكره لاحقاً إن شاء الله. والسيوطي على جلالة قدره لم يصل إلى فهم واحد مما قاله ابن تيمية لهذا أورد احتمالين لمراد ابن تيمية: إما أن يكون مراد ابن تيمية أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر القرآن كله، أو فسر غالبه. بينما يقرر الشيخ محمد حسين الذهبي أن مراد شيخ الإسلام أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه كل معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه(١) .

وهذا يعني أن مقالة ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير تحتمل أكثر من معنى مما يتعين عرض مقالته وتحليلها.

قال ابن تيمية رحمه الله: (يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بيَّنَ لأصحابه معاني القرآن كما بيَّنَ لهم ألفاظه. فقوله تعالى:﴿وأنزلنَا إليكَ الذِّكْرَ لتبيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهم﴾ يتناول هذا وهذا (٢) ا هـ. ثم استدل شيخ الإسلام على ماجنح إليه بما جاء عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة(٣) .

ثم قال ابن تيمية: (ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم)(٤) . ا هـ.

ب ـ كيفية التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

١ ـ كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا نزلت عليه آية بادر أحياناً بتوضيح ما خفي منها إذ لما نزل قوله تعالى: ﴿وأعِدُّوا لهم ما استطعتُمْ مِنْ قوّة﴾ (سورة الأنفال ٦٠) قال عليه الصلاة والسلام: ألا وإن القوة الرمي(٥) .

---

(١) التفسير والمفسرون: الدكتور محمد الذهبي ١/٤٩.
(٢) مقدمة في أصول التفسير ٣٥.
(٣) أخرج الطبري الأثر من وجه آخر في تفسيره ١/٢٧.
(٤) مقدمة في أصول التفسير ٣٥ ـ ٣٧.
(٥) أخرجه أحمد عن عقبة بن عامر في مسنده ٤٥/١٥٦.

٢ ـ كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وعبادته تفسيراً لما أجمله القرآن الكريم. إذ فسر معنى الصلاة بعمله وقال: (صلوا كما رأيتموني أصلي) وفسر معنى الحج بعمله فقال: (خُذُوا عنّي مناسككم). وهكذا فسر الأحكام والجهاد حتى الآيات المتعلقة بالأخلاق فقد فسرها تطبيقاً بعمله سئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: (كان خلقه القرآن).

٣ ـ كان السائل يأتيه فيسأل عليه الصلاة والسلام عن شيء مما في القرآن فأحياناً يجيبه فوراً وأحياناً يتوقف في الإجابة حتى يأتيه خبر السماء. وقد يأتي الوحي حالاً وقد يتأخر بأمر الحكيم العليم سبحانه. وقد يسألونه عليه الصلاة والسلام للاختبار وللتأكد من صدق رسالته فيأتيه المدد من السماء ﴿ويسألونَكَ عن ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عليكُمْ منهُ ذِكْراً﴾ (سورة الكهف ٨٣). وقد يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور يخبر الوحي أن علمها عند الله ﴿ويسألونَكَ عن الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ من أمرِ ربّي﴾ (سورة الإسراء ٨٥).

أورد السيوطي في آخر الاتقان بعضاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في التفسير مرتبة حسب سور القرآن الكريم منها الصحيح ومنها الضعيف والحسن.

جـ ـ ميزة التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

١ ـ مصدر التفسير في هذه الفترة كان وحياً من السماء، سواء ما نزل من آيات أو ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وكلاهما وحي، لقوله تعالى: ﴿وما ينطِقُ عن الهوَى إنْ هُوَ إلّا وحيٌ يُوحَى﴾ (سورة النجم ٣)، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا وإني أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ ألا يُوشِكُ رجلٌ شبعانُ على أريكتِهِ يقولُ: عليكم بهذا القرآنِ فمَا وجدتُمْ فيه مِنْ حَلالٍ فأحِلّوُهُ وما وجدتُمْ فيهِ من حَرامٍ فحرِّمُوه)(١).

٢ ـ كان هذا التفسير هو الفيصل في كل خلاف يمكن أن يقع.

٣ ـ وأما عن تدوينه، فقد ثبت فيما لامجال للشك فيه من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له كُتّاب للوحي كتبوا في عهده القرآن الذي عرف فيما بعد بالنسخة الأم وكان بعض الصحابة يكتبون أيضاً لأنفسهم وحركة التدوين (بمعنى الكتابة) كانت معروفة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لقوله عليه الصلاة والسلام: (من كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه). ولكن السؤال: هل كتب التفسير

---

(١) مقدمة تفسير القرطبي ١/٣٧.

في عهد الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم؟

تُثبتُ الرواياتُ أن في مصحف أم المؤمنين عائشة كتب (صلاة العصر) عند قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصّلَوات والصّلاة الوسطى﴾ (سورة البقرة آية ٢٣٨)[١] إشارة إلى تفسير الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم الصلاة الوسطى: بصلاة العصر. إذ أخرج الترمذي وابن حبان عن ابن مسعود، وأحمد والترمذي عن سمرة، والطبري عن أبي هريرة: أن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم قال: (صلاة الوسطى صلاة العصر)[٢] والغالب أن التفسير لم يكن مدوناً وقتئذ. واللّٰه أعلم.

٢ ـ التفسير في عهد الصحابة رضي اللّٰه عنهم:

تبدأ هذه المرحلة بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتنتهي بوفاة آخر صحابي تكلم في التفسير.

أ ـ من اشتهر بالتفسير من الصحابة مع أصح الأسانيد الموصلة إلى مروياتهم فيه:

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة رضي الله عنهم وهم:

الخلفاء الأربعة، وعبد الله بن عباس، وعبد اللّٰه بن مسعود، وأُبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد اللّٰه بن الزبير. وهناك آخرون من الصحابة لهم روايات في التفسير ولكنهم لم يشتهروا به منهم: أنس بن مالك، وأبو هريرة، وجابر بن عبد اللّٰه، وعبد اللّٰه بن عمرو بن العاص[٣] .

وأكثر من روي عنه في التفسير من الصحابة ابن عباس ومن الخلفاء الأربعة علي بن أبي طالب، وأما الرواية عن الخلفاء الثلاثة الباقية فنادرة جداً. ويعيد السيوطي[٤] ومن جاء بعده سبب هذه النزرة إلى تقدم وفاتهم. إلا أني لا أعتقد أن هذا هو السبب، فعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان عاشا بعد رسول الله صلى اللّٰه عليه وسلم فترة طويلة يمكنهما خلالها أن يرويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من التفسير ما يشاءان إلا أنهما لم يفعلا، وذلك لأن اشتغالهما برواية الحديث أصلاً قليلة، وعمر رضي اللّٰه عنه بصورة خاصة كان يحبذ التقليل من الرواية والاكتفاء بها على قدر الحاجة لتصان من العبث، وهو الذي قيل إنه ضرب بدرته أبا هريرة لما أكثر من الرواية. كما استدلّ لما

---

(١) انظر الدر المنثور ١/٣٠٢.
(٢) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ٢/ ١٩٢.
(٣) الاتقان ٢/١٨٧. وكشف الظنون /٤٢٨.
(٤) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٢/ ١٨٧.

ذهبت إليه من أن السبب في النزرة يعود إلى قلة الرواية بما قاله السيوطي: (ولا أحفظ عن أبي بكر رضي الله عنه في التفسير إلا آثاراً قليلة جداً لاتكاد تجاوز العشرة)[1].

كما أن ابن مسعود وأبي بن كعب كانا أكثر الصحابة اشتغالاً في التفسير وروايته بعد ابن عباس وعلي ولعل السبب في هذا تفرقهم في البلاد معلمين فكثر الناس عليهم يسألونهم ويستفتونهم ولم يجدوا بداً من إجابتهم لعدم جواز كتم العلم. فإذا تكلمنا عن شخصية هؤلاء الأصحاب الأربعة في التفسير رضوان الله عليهم يمكننا معرفة الجو التفسيري العام في هذه المرحلة.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ابن عبد المطلب القرشي الهاشمي. ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته الزهراء فاطمة رضي الله عنها، أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وهو أول هاشمي ولد من هاشمية ورابع الخلفاء الراشدين وأول خليفة من بني هاشم[2] وهو أول صبي دخل في الإسلام. وله من المناقب ما يضيق المقام لحصرها ويكفي أن نقول: إنه من الخيارالبررة المبشرين بالجنة. خَرَّ شهيداً في الكوفة وهو ينادي لصلاة الفجر في رمضان عام ٤٠ هـ. ومكانته العلمية لاتخفى فقد وردت عشرات الأخبار والآثار الصحيحة الدالة على سعة علمه وقد ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم قضاء اليمن وبرع في هذا الفن حتى صار يضرب به المثل ويقال: قضية ولا أبا حسن لها. ولمن يود المزيد يرجع إلى ماجاء في الإصابة عنه. وأسد الغابة وغيرهما من تراجم الصحابة.

(وأما علي فقد روي عنه الكثير وقد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال: (شهدتُ علياً يخطب وهو يقول: سلوني فو الله لا تسألون عن شيء إلا أخبرتكم وسلوني عن كتاب الله فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل). وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود قال: (إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن وإن علي بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن) وأخرج أيضاً من طريق أبي بكر ابن عياش عن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي قال: (والله ما نزلت آية، إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين

---

(١) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ج٢/ ١٨٧.
(٢) التفسير والمفسرون ١/ ٨٨.

أنزلت إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سَؤُولاً)[1].

ب ـ مصادر التفسير في عصر الصحابة رضي الله عنهم:

لابد لكل قضية علمية هادفة ـ حسب أبسط القواعد العلمية المنهجية ـ أن يصطلح أولاً على معاني الألفاظ الواردة في البحث ـ فإن أردنا مثلاً الحديث هنا عن مصادر التفسير في عصر الصحابة لابد والحالة هذه من أن نحدد المفهوم الذي نريده من كلمة (مصادر) فعلية: أعني بالمصادر هنا تلك المراجع التي نقل عنها المفسرون وأدرجوا ما نقلوه عنها في تفاسيرهم بغض النظر عن الاتجاه الذي اتجهه كل واحد منهم في تفسيره مما يوضح هذا التباين بين هذا المفهوم الذي أعنيه لكلمة المصادر وبين (المصادر) كمفهوم لما اعتمد عليه المفسرون في تفسير كل منهم للقرآن حسب الفكرة التي يعلمها كالتوحيد والفقه والبلاغة والتاريخ وما شاكل ذلك فهي ليست مصادر للتفسير، بل هي الأمور التي أثرت على المفسر فنحا نحواً معيّناً في التفسير.

١ ـ القرآن الكريم:

ويعتبر أهم مصدر من مصادر التفسير لأدلة نقلية وعقلية فمن الأدلة النقلية قول الله تعالى: ﴿... فإنْ تنازعتُمْ في شيءٍ فردُّوهُ إلى اللّهِ والرَّسُولِ إنْ كنتُمْ تُؤمِنُون باللّهِ واليومِ الآخر...﴾ (سورة النساء ٥٩). فعندما نحمل آية غمض علينا تفسيرها على آية أخرى تفسرها نكون بذلك رددنا الأمر إلى الله. وأما الدليل العقلي فهو أن القائل أحق من غيره في تفسير مقوله. ثم أن القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر الإسلام فيعتبر بالضرورة المصدر الأول في التفسير.

ولهذه الاعتبارات أطبقت الأمة سلفاً وخلفاً على أن أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن كما ذكر ذلك ابن تيمية[2] وغيره من أساطين العلم. والتزمت أمة الإسلام بهذا النهج من عهد الصحابة وصدر الإسلام إلى اليوم.

كيف تتم عملية تفسير القرآن بالقرآن:

من المعلوم أن القرآن تناول شتى ضروب البلاغة والبيان والمعاني فمن أسلوبه أنه يجمل في موضع ويبين ما أجمله في موضع آخر ويعمم أمراً مافي سورة ويخصصه في أخرى أو يقيد حكماً في مكان ويطلقه في مكان آخر من القرآن الكريم وهكذا...

---

(١) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ٢/ ١٨٧.

(٢) المقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية ٩٣.

فتفسير القرآن بالقرآن يكون بحمل المجمل على المبين كقوله تعالى: ﴿فتلقّى آدمُ مِنْ ربِّهِ كلماتٍ فتابَ عليهِ﴾ (سورة البقرة/٣٧) فالكلمات هنا وردت مجملة بينها قوله تعالى: ﴿قالا ربَّنا ظلمنَا أنفسَنَا وإنْ لم تغفِرْ لنَا وترحمنا لنكوننّ مِنَ الخَاسِرين﴾ (سورة الأعراف/٢٣). فحمل المجمل على المبين وفسر به.

وكقوله تعالى: ﴿حُرّمَتْ عليكُمُ الميتةُ والدَّمُ﴾ (سورة المائدة/٣). فالميتة هنا عامة ولكن خصصت بميتة البر بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لكم صيدُ البْحرِ وطعامُهُ متاعاً لكم وللسّيارةِ﴾ (سورة المائدة/٩٦) فحمل العام هنا على الخاص... وكقوله تعالى: ﴿حُرِمَتْ عليكم الميتةُ والدَّمُ﴾ (سورة المائدة/٣). فالدم جاء مطلقاً هنا قيده قوله تعالى بالدم المسفوح في قوله جل وعلا: ﴿... إلّا أن يكونَ ميتةً أو دماً مسفوحاً﴾ (سورة الأنعام/١٤٥). فحمل المطلق على المقيد[١] هنا. وكذا الحال في جميع ما يتوهم أنه مختلف أو غامض. ومثل هذا حمل قراءة صحيحة على أخرى فاختلاف القراءات يساعد على التفسير ويوضحه وهكذا...

علماً بأنه يشترط فيمن يفسر بهذه الطريقة أن يكون واسع العلم متمكناً من اللغة وأساليبها ورعاً يبتغي بذلك وجه اللّه.

ومن المفيد أن نذكر هنا أن الأمة الإسلامية أسهمت في استنباط كثير من المعاني بطريقة تفسير القرآن بالقرآن حتى أضحى مدرسة خاصة لها أصولها ورجالها ومؤلفاتها وآخر ماصدر عن هذه المدرسة: أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن وهو تفسير كتبه الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي الجكني الذي لم تمهله المنية لإتمامه إذ صدر منه ستة مجلدات فقط تغمده اللّه بواسع رحمته وكذا تفسير الشيخ عبد الكريم الخطيب.

٢ ـ السنة المطهرة:

وهي المصدر الثاني للتفسير بعد القرآن الكريم وتتمثل بأقوال وأفعال وتقريرات الرسول صلى اللّه عليه وسلم.

فمن أقواله صلى اللّه عليه وسلم في التفسير ما أخرجه الطبري والترمذي وغيرهما عن سمرة بن جندب أن النبي صلى اللّه عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿حافِظُوا على

(١) وللعلماء أقوال في حمل المطلق على المقيد لامجال لتناولها هنا.

الصلوات والصلاةِ الوسطى﴾ (سورة البقرة ٢٣٨). قال: (صلاةُ الوسطَى صلاةُ العصر)[١].

ومثل ما روي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: ﴿سألتُ رسولَ اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر - في قوله تعالى: ﴿وأذانٌ من اللّٰهِ ورسولهِ إلى النّاسِ يومَ الحجِّ الأكبرِ﴾ (سورة التوبة ٣). قال: يوم النحر[٢]... إلا أن هذا النوع وأعني به السنة القولية للتفسير في غاية القلة كما قال السيوطي[٣]. علماً بأن هذا القدر من التفسير المرفوع إلى النبي صلى اللّٰه عليه وسلم قلَّ أو كثُرَ له حكم الأحاديث الواردة عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم من حيث قوتهافيمكن تصنيفها إلى صحيح وحسن ولين وضعيف وموضوع... الخ.

وأركز على هذه النقطة لأن كثيراً ممن كتب في هذا الشأن أبدى تخوفه من هذه الأحاديث بحجة أن القُصّاص زادوا فيها كثيراً ووضعوا على لسان النبي مالم يقله واستشهدوا بما نقل عن الإمام أحمد أنه قال: (ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي)[٤]. وعجبت لهذا التخصيص لأن الوضاعين والقصاصين كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث وفي غيرها فقام علماء الحديث في وقت مبكر جداً ومحصوا في السنة النبوية برمتها وبينوا الصحيح فيها من الضعيف وانسحب هذا التمحيص على كل ما روي عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم. وبذلك أصبحت الأحاديث المرفوعة إلى الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم في التفسير كغيرها من الأحاديث معروفة الحال قوة وضعفاً. ولهذا لا أرى مبرراً لما أثاره المعاصرون من مثل هذا التخوف والله أعلم.

إن السنة العَمَليّة وهي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في عبادته وجهاده وحكمه وأخلاقه كانت هي الأخرى تفسيراً للقرآن الكريم وتطبيقاً لمعانيه فأركان الإسلام في القرآن جاءت مجملة بيّنهاالرسول صلى اللّٰه عليه وسلم بتطبيقه لها.

ولقد أدرك السلف أهمية السنة في تفسير القرآن لما رواه الأوزاعي عن حسان بن

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه ١/٢١٧.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره بطرق. وكذا الترمذي في جامعه ٥/٢٧٤.
(٣) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ٢/١٧٩.
(٤) نسبه الشيخ الذهبي إلى فجر الإسلام صفحة ٢٤٥ ـ التفسير والمفسرون للدكتور محمد خير الذهبي ١/٤٧.

عطية أنه قال: (كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك)[1] وعن مكحول قال: القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن[2].

٣ ـ الرأي:

وأعني به: (الاجتهاد في التفسير). ذلك أن المفسر يعرف كلام العرب ومفردات اللغة ومعانيها وأساليبها مستعيناً بما ورد مثله في الشعر الجاهلي والنثر ونحوهما، ويقف على ماصح عنده من أسباب نزول الآية فيستعين بهذه الأدوات في التفسير حسب ما أداه إليه فهمه واجتهاده وعليه فالتفسير بالرأي لايعني أن يقول المفسر في الآية مايشاء وما تتطلبه رغبته إنما هو فهم الجمل بواسطة مدلولاتها التي تدل عليها المعلومات اللغوية والنقلية التي توفرت لدى المفسر ليس إلا.

وقد كان كثير من المفسرين من الصحابة يفسرون بالرأي[3] خاصة بعد أن ثبت أن السنة لم تشمل في بيانها كل القرآن وهذا سبب اختلافهم أحياناً في تفسير الكلمة الواحدة مما يدل هذا على اعتمادهم على فهمهم الخاص مما لا نص فيه. وأضرب لهذا مثلاً: فقد اختلفوا في معنى (الشاهد والمشهود واليوم الموعود) على أحد عشر قولاً نُسِبَ جِلُّها إلى الصحابة أوردتها بالتفصيل في قسم التفسير من هذه الدراسة عند تفسير سورة البروج. ومثل هذا عن اختلافهم في معنى الطور في قوله تعالى. ﴿وإذْ أخذنا ميثاقَكُمْ ورفعنَا فوقَكُمُ الطُّورَ﴾ (سورة البقرة ٩٣). فمنهم من قال الطور: مطلق الجبل، وآخر قال جبل بعينه وثالث يرى أنه ما انبث من الجبال، فهذا الاختلاف بين الأصحاب ناشىء عن اختلاف في الاجتهاد والرأي لانتيجة للاختلاف في المنقول. هذا فيما يتعلق باللفظة الواحدة فما بالك حين يكون الرأي لمدلول جملة لا لمعنى لفظة.

ويعلل ابن تيمية رحمه الله اختلاف الصحابة فيقول: (وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير. وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد وذلك صنفان أحدهما: أن يعبر كل واحد منهما عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى بمنزلة

---

(١) تفسير القرطبي ٣٩/١.
(٢) تفسير القرطبي ٣٩/١.
(٣) ولقد حددت في بداية هذا البحث المقصود به وهو الاجتهاد وقوة الاستنباط.

الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة كما قيل في اسم السيف: الصارم والمهند)[1] .

جـ ـ حكم تفسير الصحابي:

قال النووي: (وأما قول من قال تفسير الصحابي مرفوع فذاك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية أو نحوه)[2] .

قال الزركشي: (تفسير الصحابي بمنزلة المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما قاله الحاكم في تفسيره)[3] .

ولكن هناك تفصيل في هذه المسألة أوردها السيوطي عن الزركشي قال السيوطي:

(قال الزركشي: الحق أن علم التفسير منه ما يتوقف عن النقل كسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم وتبيين المجمل ومنه ما لايتوقف ويكفي في تحصيله الثقة على الوجه المعتبر... واعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل وقسم لم يرد والأول إما أن يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابة أو رؤوس التابعين فالأول يبحث فيه عن صحة السند والثاني ينظر في تفسير الصحابي فإن فسر من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده أو بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه)[4]

نستخلص من هذا النص ما يلي:

١ ـ أن مارفعه الصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو في حكم المرفوع.

٢ ـ ما فسره الصحابي فيما يتعلق بسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم والمجمل مما لا دخل للرأي فيه. فهو في حكم المرفوع أيضاً.

٣ ـ قال ابن كثير في مقدمة تفسيره: (... وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها. ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين: والأئمة

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٨.
(٢) تدريب الراوي للحافظ السيوطي ١/١٩٣.
(٣) البرهان في علوم القرآن: للزركشي ٢/١٥٧.
(٤) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ٢/١٨٣.

المهتدين المهديين وعبد اللّٰه بن مسعود رضي اللّٰه عنهم[١] .

قلت: والظاهر أن مذهب جمهور المحققين والأصوليين في تفسير الصحابي ما أفادته النصوص المذكورة وهو الراجح واللّٰه أعلم.

د ـ ميزات التفسير في عهد الصحابة:

١ ـ لم يفسر القرآن كله، لأن الصحابة رضوان الله عليهم لقرب عهدهم بالوحي ومعاصرتهم لنزوله لم يكونوا بحاجة إلى أن يفسروا من القرآن إلا ماغمض عليهم إذ كلما ابتعد الناس عن عصر النبي صلى اللّٰه عليه وسلم كانوا أكثر حاجة لتفسير القرآن الكريم.

٢ ـ قلة الاختلاف بين الصحابة في فهم معانيه ـ لأن عقيدتهم كانت نقيّة واتجاهاتهم كانت موحدة وأفكارهم متقاربة وخالية من التكلف والشطط.

٣ ـ كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معانيه على سبيل التفصيل وكانوا أيضاً كثيراً ما يقتصرون على إدراك المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ. فيكفي أن يفهموا من مثل قوله تعالى. ﴿وفاكهةً وأبّاً﴾ أنها تعداد للنعم التي أنعم اللّٰه بها على عباده. وقد تراجع عمر بن الخطاب في البحث عن الأبّ في قوله تعالى: ﴿وفاكهةً وأبّاً﴾ وقال: إنه التكلف ياعمر. ويكفي أن يفهموا من قوله تعالى: ﴿غير متجانف لإثم﴾ أي غير معترض لمعصية.

٤ ـ وكان التفسير في هذه المرحلة جزءاً من الحديث النبوي وفرعاً من فروعه.

٥ ـ لم يكن التفسير مرتباً حسب النزول بل كانت تفاسيرهم متناثرة كما كان الشأن في رواية الحديث.

٦ ـ ندرة الاستنباط الفقهي من الآيات الكريمة لعدم جهلهم في الغالب بالأمور الفقهية إذ كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتطبيقه لأحكام الشرع ماثلة غضة في أذهانهم وهم الذين عاشوها مع الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم.

٧ ـ خلو تفسيرهم من المذاهب الكلامية.

٣ ـ التفسير في عهد التابعين:

وهي المرحلة الثالثة في نظري. وتبدأ بانتهاء عهد الصحابة وتنتهي بانتهاء عهد التابعين

---

(١) مقدمة تفسير ابن كثير ١/٣ ط. الحلبية.

اتسعت رقعة الفتوحات الإسلامية فانتشر بعض من الصحابة في الأمصار معلمين ودعاة. فذهب ابن عباس إلى مكة المكرمة - وسيَّر عمرُ بن الخطاب عبدَ اللّه بن مسعود إلى الكوفة بكتابٍ لأهلها قال فيه: (إني قد بعثت عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما. وقد آثرتكم بعبد اللّه على نفسي) اهـ. وأما سيد القراء أبيّ فبقي في المدينة المنورة. وأخذ هؤلاء الصحابة يعلمون التابعين الذين ازدحموا حولهم يتلقون منهم علوم التفسير والحديث. فنشأت بذلك ثلاث مدارس للتفسير عرفت فيما بعد: بمدرسة التفسير بمكة ورائدها ابن عباس. ومدرسة المدينة المنورة وكان شيخها سيد القراء أُبيّ بن كعب. ومدرسة الكوفة أسسها عبد اللّه بن مسعود فلما انقضى عهد الصحابة تولى تلاميذه هذه المدارس من التابعين حركة التفسير فيها. أتى ابن تيمية على ذكر هذه المدارس فقال: (وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير وأخذ عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن وعبد الله بن وهب)[1].

مدرسة مكة المكرمة:

اشتهر من تلاميذ ابن عباس فيها: سعيد بن جبير، ومجاهد وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح.

١ - سعيد بن جبير: بن هشام الأسدي الوالبي مولاهم، كان حبشي الأصل أخذ القراءة عن ابن عباس عرضاً وسمع منه التفسير، وكان يتورع عن التفسير برأيه وروي عنه قوله: (لأن يسقط شقي أحبّ إليّ من ذلك) ولقد جمع من العلوم ما جعله ينال ثقة ابن عباس به فيحيل إليه من يستفتيه. أجمع علماء الجرح والتعديل على توثيقه. قتله الحجاج بن يوسف الثقفي صبراً سنة خمس وتسعين.

مجاهد بن جبر:

أبو الحجاج المخزومي مولى السائب بن أبي السائب ولد سنة إحدى وعشرين

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لشيخ الاسلام ابن تيمية/ ٦١.

وتوفي وهو ساجد بمكة المكرمة سنة أربع ومائة. وكان أوثق تلاميذ ابن عباس وأقلهم رواية عنه،والبخاري في قسم التفسير من صحيحه يعتمد على رواية مجاهد، أخرج الطبري بسنده إلى مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها[1] وأخرج عن الثوري قال: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به[2] .

والذي يظهر من تفسير مجاهد أنه يطلق للذهنه تفسير بعض الآيات. فقد أخرج الطبري عن مجاهد في قوله تعالى: فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين قال. (لم يمسخوا إنما هو مثل ضربه الله لهم مثل ماضرب مثل الحمار يحمل أسفاراً)[3] .

جاء في ميزان الإعتدال للذهبي أن أبا بكر عياش قال: قلت للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟ قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب[4] .

تفسير مجاهد:

أغلب الروايات المشهورة عن مجاهد في التفسير من رواية ابن أبي نجيح وتأكد لدي هذا بعد اطلاعي على تفسير مجاهد المطبوع بتحقيق الشيخ عبد الرحمن السورتي. والمعلوم أن ابن أبي نجيح لم يسمع التفسير من مجاهد إنما الذي سمعه فقط من القاسم ابن أبي حمزة أملاه عليه - فابن أبي نجيح ،والليث بن أبي سليم والحاكم أخذوا تفسير مجاهد من كتاب القاسم ابن أبي حمزة وقد رووه إجازة عن مجاهد. وذلك للدليل التالي:

أخرج البسوي قال: سئل علي: سمع ابن أبي نجيح التفسير من مجاهد؟ قال. لا، وقال سفيان بن عيينة: (لم يسمعه أحد من مجاهد إلا القاسم ابن أبي حمزة أملاه عليه، وأخذ كتابه الحكم وليث وابن أبي نجيح[5] .

وأخرج البسوي أيضاً عن علي بن المديني قال: (قال سفيان بن عيينة قال لي فلان

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٣١ - وكذا في مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ١٠٢.
(٢) نفس المصدرين
(٣) تفسير الطبري ١/ ٢٦٥.
(٤) ميزان الاعتدال ٣/ ٤٣٩.
(٥) المعرفة والتاريخ ٢/ ١٥٤.

بن مسلم ـ سماه ـ قل لليث بن أبي سليم يتق الله ويرد كتاب القاسم ابن أبي بزة عن مجاهد في التفسير فإنه لاينام، فقلت له: ابن أبي نجيح لم يسمع التفسير؟ فقال: نعم إنما يدور تفسير مجاهد على القاسم بن أبي بزة[1].

وعلى كل فمكانة مجاهد في التفسير مرموقة وهو عند كثير من علماء الجرح والتعديل ثقة.

٣ ـ عكرمة مولى ابن عباس:

أصله من البربر بالمغرب نسب إليه ادعاؤه بمعرفة القرآن وجرأته عليه. كما نسب إليه كذبه على ابن عباس. ولكن أئمة الجرح والتعديل كابن حجر في تهذيب التهذيب وغيره نفوا هذه التهم عنه. والمتتبع لسيرة عكرمة وحياته يرى أن هذه التهم والموجهة إليه مردها إلى خلافات ـ الأقران وتنافسهم ولعل ابن عمر وسعيد بن المسيب صدقا ما نسب إلى عكرمة، وذلك لأن الاتهام كان في حياة عكرمة لا بعد مماته. روى حماد بن زيد عن أيوب أنه قال: قال عكرمة: رأيت هؤلاء الذين يكذبونني، يكذبونني في خلفي؟ أفلا يكذبونني في وجهي؟.

روى ابن سعد عن الواقدي الاتهامات الموجهة إلى عكرمة. فالواقدي ليس ثقة في نظر رجال الجرح والتعديل. وابن سعد وإن كان ثقة في نفسه فقد أخذ عن الواقدي. وحيث أن الواقدي من المتقدمين فقد أخذ الخلف عنه فأثبتها بعض وأنكرها البعض الآخر واستغل جولد تسيهر هذه الاتهامات وبنى عليها عدة افتراءات مضللة إحداها أن العرب من تحقيرهم للموالي لم يشهد أحد منهم جنازة عكرمة الذي توفي سنة أربع ومائة[2]. والخلاصة أن عكرمة ثقة ثبت عالم جليل من الصالحين.

٤ ـ طاووس بن كيسان:

اليماني الحميري. مولى بحير بن ريسان أخذ عن ابن عباس وغيره. كان تقياً ورعاً وعابداً مستجاب الدعوة. فقال فيه ابن عباس: (إني لأظن طاووساً من أهل الجنة). وقال فيه عمرو بن دينار: (ما رأيت أحداً مثل طاووس) وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ست ومائة[3].

---

(١) المعرفة والتاريخ ج٢/ ١٥٤.
(٢) مذاهب التفسير الإسلامي ٩٦.
(٣) تهذيب التهذيب ٥/ ٨ ـ ١٠.

٥ ـ عطاء بن أبي رباح:

المكي القرشي مولاهم ولد سنة سبع وعشرين وتوفي سنة أربع عشرة ومائة على الراجح كان رحمه الله أسود اللون، أعور، أفطس، أشل، أعرج ثم عمي بعد ذلك أدرك مائتين من الصحابة. وإليه انتهت فتوى أهل مكة. كان كثير الحديث غزير العلم[١].

والملاحظة أن جميع المذكورين من الموالي.

مدرسة المدينة المنورة في التفسير:

وممن اشتهر فيها من التابعين:

١ ـ أبو العالية:

رفيع بن مهران الرياحي مولاهم. مخضرم أسلم في السنة الثانية عشرة من الهجرة وثقة رجال الجرح والتعديل وأجمع عليه أصحاب الكتب الستة. قال فيه ابن أبي داود: ليس أحد أعلم بالقراءة من أبي العالية. روى عن أبي نسخة كبيرة في التفسير رواها: أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي. أخرج منها: ابن جرير وابن أبي حاتم، والحاكم، والإمام أحمد. وكانت وفاته على الراجح سنة تسعين للهجرة[٢].

٢ ـ محمد بن كعب القرظي:

محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي المدني. لم يأخذ عن أُبيّ مباشرة بل روى عنه بالواسطة. قال ابن حبان: من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً كان يقص في المسجد فسقط سقف فمات هو وجماعة تحت الهدم سنة ثماني عشرة ومائة من الهجرة. وهو ابن ثمان وسبعين سنة[٣].

٣ ـ زيد بن أسلم:

أبو أسامة العدوي المدني الفقيه المفسر مولى عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه وثقة جماعة منهم الإمام أحمد، وأبو زرعة، والنسائي... وكان يجلس إليه علي بن

---

(١) تهذيب التهذيب ٥/٨ ـ ١٠.

(٢) تهذيب التهذيب ٣/٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٣) خلاصة تهذيب الكمال ٣٠٥.

الحسين. اشتهر عنه أنه كان يفسر القرآن بالرأي ولا يتحرج. وله تفسير مخطوط روى عنه مالك بن أنس وولده عبد الرحمن بن زيد. توفي سنة ست وثلاثين ومائة[1].

مدرسة التفسير بالعراق:

اشتهر فيها:

١ ـ علقمة بن قيس النخعي:

كان من أمهر وأحفظ تلامذة ابن مسعود. من رجال الكتب الستة. قال فيه أحمد: ثقة من أهل الخير. قلت: وهو خال إبراهيم النخعي والأحناف يعتبرون علقمة من أجدادهم في الفقه لأن أبا حنيفة أخذ عن حماد بن أبي سليمان، وحماد أخذ عن إبراهيم النخعي، وإبراهيم النخعي أخذ عن خاله علقمة بن قيس.

٢ ـ مسروق:

ابن الأجدع بن مالك الهمذاني الكوفي أبو عائشة سماه عمر بن الخطاب قائلاً: الأجدع شيطان أنت مسروق بن عبد الرحمن. أكثرُ الجلوسَ مع الصحابة وأخذ عنهم جميعاً فاشتهر بسعة علمه. ثقة إمام في الحديث والتفسير عابد. عن أبي إسحاق أنه قال: حج مسروق فلم ينم إلا ساجداً. توفي سنة ثلاث وستين[2].

٣ ـ الأسود بن يزيد بن قيس النخعي:

قيل كان يصوم الدهر فذهبت إحدى عينيه من الصوم. قيل توفي سنة أربع وسبعين للهجرة.

٤ ـ مرة الهمذاني الكوفي:

لقب بمرة الخير لعبادته. كان يصلي كل يوم ستمائة ركعة توفي سنة ست وسبعين للهجرة.

٥ ـ عمر الشعبي:

أبو عمرو عامر بن شراحيل الشعبي الحميدي الكوفي قاضي الكوفة روى عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي هريرة وعائشة وابن عباس. قال الشعبي: أدركت خمسمائة من

---

(١) تهذيب التهذيب ٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧.
(٢) تهذيب التهذيب ١٠/ ١٠٩ ـ ١١١.

الصحابة: وقال ابن عيينة: كان الناس تقول بعد الصحابة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه، كان غزير العلم في جميع الفنون. وكان يفتي بوجود الصحابة. قيل إنه توفي سنة تسع ومائة.

٦ ـ قتادة:

قتادة بن دعامة السدوسي البصري كان قوي الحفظ واسع الاطلاع في الشعر العربي بصيراً بأيام العرب قال سعيد بن المسيب: ما أتاني عراقي أحسن من قتادة. ونسب إليه تكلمه في القدر. توفي سنة سبع عشر ومائة وعمره ست وخمسون سنة[١].

حكم تفسير التابعي:

إذا لم يرد نص من الكتاب والسنة أو من قول صحابي في تفسير آية ما من القرآن الكريم، وقام أحد التابعين بتفسيرها اجتهاداً من عنده، فهل يقبل تفسيره؟.

اختلفوا في هذه المسألة عن أقوال:

١ ـ منهم من جوز ذلك مطلقاً. إذ روى عن أحمد روايتان بالمنع والقبول.

٢ ـ منهم من منع ذلك مطلقاً منهم شعبة بن الحجاج، وابن عقيل.

٣ ـ ومنهم من فصل في المسألة كابن تيمية.

قال الزركشي: وفي الرجوع إلى قول التابعين روايتان عن أحمد واختار ابن عقيل المنع وحكوه عن شعبة[٢].

قال شعبة بن الحجاج: (أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير؟)[٣]

ومذهب ابن تيمية في هذه المسألة أن التابعي إذا تفرد بقبول ليس له شاهد أو مايؤيده رُفض. أما إذا اجتمع التابعون على شيء فلا شك في اعتباره حجة وأما إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم...

قال ابن تيمية في هذا: (... أما إذا اجتمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥١ ـ ٣٥٦.
(٢) الاتقان ٢/ ١٧٩.
(٣) مقدمة في أصول التفسير/ ١٠٥.

حجة. فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك)[١].

ورد عن أبي حنيفة أنه قال: (ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال[٢].

مصادر التفسير في عهد التابعين:

كان التفسير الغالب في هذه الفترة تفسير بالمأثور. لهذا فقد كان المشتغلون في التفسير يحرصون على النصوص الواردة في التفسير للاعتماد عليها ومصادرهم في هذا:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ السنة المطهرة.

٣ ـ أقوال الصحابة.

٤ ـ وما يفتحه الله للتابعين من فهم وقوة في الاستنباط.

وأقتصر هنا على المصادر الأربع ولا أقول أن الذين دخلوا في الإسلام من أهل الكتاب كانوا مصدراً خامساً. مع العلم بأن النصوص الإسرائيلية تفشت خلال هذه الفترة وكثرت ولكن ليس إلى الحد الذي يجعلها مصدراً رئيسياً خامساً إلى جانب الكتاب والسنة. ثم إن كل هذه الإسرائيليات كانت تروى موقوفة على قائليها مما لم يؤثر وجودها على اتجاه المدارس الإسلامية في التفسير بمعنى أنها لم تؤثر على الفكر الإسلامي ولا على عقيدته.

مزايا التفسير في عهد التابعين:

للتفسير في هذا العهد ميزات ومآخذ. فمن ميزاته:

١ ـ أنه ظل محتفظاً بطابع التلقي والرواية.

٢ ـ كان يغلب على روايات التفسير تسلسل أسانيدها إلى علماء البلد الواحد بمعنى أن تلاميذ مكة كانوا يتلقون عن مدرسة، وكذا الحال في المدينة والكوفة مما سبب

---

(١) مقدمة في أصول التفسير/١٠٥.
(٢) التفسير والمفسرون ١/١٢٨.

إضفاء صبغة خاصة على كل مدرسة ميزتها عن غيرها.

٣ ـ انفصل في هذه الفترة الحديث عن التفسير، إذ كان التفسير ينقل مع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم. أؤكد هذا رغم أن أكثر المتأخرين يرون أن الانفصال تم في نهاية القرن الثاني[١]. وأستدل على ماذهبت إليه بتلك التفاسير المحققة والكاملة التي وصلتنا عن التابعين: أمثال مجاهد، فتفسيره مطبوع محقق ـ وسفيان الثوري، وتفسيره مطبوع محقق وزيد بن أسلم وتفسيره مخطوط... وكلها مرتبة حسب سور القرآن وآياته وغير متضمنة إلا ما يتعلق بالتفسير.

٤ ـ ليس من الضروري أن يكونوا قد فسروا كل الآيات ولكنهم رتبوا ما فسروه حسب ترتيب المصحف وجعلوه بين دفتين وأصبح أكبر حجماً عما كان عليه في عهد الصحابة.

ومن المآخذ عليه:

١ ـ تسرب كثير من الروايات الاسرائيلية إلى التفسير عن طريق اليهود والنصارى الذين دخلوا في الإسلام ولكن هذه الروايات كثرت أو قلّتْ لم تؤثر في الفكر الإسلامي ولم تغير عقيدته ولم تكن إحدى مصادره ألبتة.

٢ ـ ظهور القول في القضاء والقدر وفي العهد بدأت سحائب عقائد المعتزلة تبرز.

٤ ـ التفسير في عهد أتباع التابعين:

وهي المرحلة الرابعة من مراحل التفسير. أطلق عليها المتأخرون: (مرحلة التدوين) إذ اعتبروا أن التدوين بدأ فيها.

المهم أن أشهر من عرف من المفسرين في هذا العهد:

سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ ـ وابن وهب المتوفى سنة ١٩٧ هـ ـ وعبد الرزاق الصنعاني المتوفى سنة ٢١١ هـ ـ وسعيد بن منصور المتوفى سنة ٢٢٧ هـ ـ وعبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩ هـ.

---

(١) قال محمد حسين الذهبي عن المفسرين في عهد أتباع التابعين مايلي:
(فهؤلاء جميعاً كانوا أئمة الحديث فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث ولم يكن جمعاً للتفسير على استقلال وانفراد... غير أن هذه التفاسير لم يصل إلينا شيء منها ولذلك لانستطيع أن نحكم عليها) إ هـ التفسير والمفسرون ١/ ١٤١. تأمل، بل حكم عليها فعلاً بأنها لم تكن مستقلة عن التفسير.

كما اشتهر أيضاً وكيع بن الجراح ـ وشعبة بن الحجاج ـ ويزيد بن هارون ـ وآدم بن أبي إياس ـ وإسحاق بن راهويه ـ وروح بن عبادة ـ وأبو بكر بن أبي شيبة[1] . وقد ثبت أن أغلب المذكورين كتبوا تفاسير نُسِبَتْ إليهم.

ولقد تنكّر صاحب القراءة المعاصرة لعلماء هذه الأمة قاطبة، وجعلهم وبالاً عليها، فيزعم في كتابه الذي أسماه بـ«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» ص١٨١ : «إنّ هؤلاء العلماء الرّبّانيين ماذا قدَّمُوا للّناس ؟ البنج والمحّرك البخاري والعمليات الجراحية والأدوية ووسائل الاتصال والمراكب البحرية والحاسبات الإلكترونية. .» ثم يصف علماء الإسلام في ص٢٠٩ بأنّهم: «قدَّمُوا لنا تراثاً إسلامياً ميّتاً. وكل الشواهد التي نراها في القرن العشرين هي أنّ الإسلام دين خارج الحياة جاء للناس جميعاً وهو عبءٌ عليهم، والمشكلة أنّهم نقلوه عن أموات. . . وبذلك أصبح الإسلام دينَ نقل ومات العقل والنظرة النقدية إلى النصوص، وعند مشايخنا فَهْمُ القرآنِ هو عَنْ. . عَنْ. . وقال مجاهد وعكرمة وابن عباس وابن كثير. . علماً بأن أقوال هؤلاء ليس لها قيمة علمية كبيرة بالنسبة لنا. .».

هذه هي نظرته إلى علماء الإسلام قديماً وحديثاً، ليس أحدٌ فيهم يحتلّ مكانةً مرموقةً، فهم الذين قدّموا الإسلام تراثاً ميّتاً، ولم يقدّموا للّناس شيئاً سوى الوهم، فأيّ جحُودٍ هذا ؟!! وأيّ نُكرانٍ هذا ؟!! حيث بلغ فيه أن أسقط نفسه من بين العقلاء، وحكم عليها بالجهل المركب الذي لاتبلغه العجماوات من الدّواب. .

ومَنْ يقدح بعلماء المسلمين فليس له أن يُنصّب نفسه حاملاً للعلم إلى النّاس، وهو في الحقيقة يُقَدّم للّناس الكذب والبُهتان باسم التّطوّر والمعاصرة !!؟.

ومَنْ يرى أنّ علماء المسلمين قدموا الإسلام تراثاً ميّتاً، فليس يعرفُ من الإسلام إلاّ ماعرفه عنه الحاقدون المارقون السّاعُون في القضاء عليه !!؟. .

ومَنْ يعتبر أنّ الإسلام دينَ خارج الحياة جاء للّناس جميعاً وهو عبءٌ عليهم، فلن يصّح أن ينسبَ إليه، أو أن يتكلّم عنه أو أن يبحث فيه، طالما قدّم أكبَر خدمةٍ لأعداء الإسلام من الطعن فيه وبعلمائه، وماذا يُرِيُد الكافرون أكثرَ من هذا ؟!. .

وهل هناك جناية على الإسلام أخطر من هذا الذي يُفتري على الإسلام والقرآن والعلماءتحت اسم «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» ؟؟!!. .

إنّها فتنةُ دجّالٍ. . ووسيلةُ شيطانٍ. .

---

(١) الاتقان ٢/ ١٩٠ وكذا كشف الظنون/ ٤٣٠.

البحث الثاني

القرآن الكريم وتهيب الصحابة في تفسيره

١ ـ نزل القرآن الكريم على نبيّ أميّ، وقوم أميين، ليس لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيينَ رسولاً مِنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ..﴾ (سورة الجمعة: ٢)، وكانت لهم فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم، ويتواردون عليها، وكانت هذه الفنون لاتكاد تتجاوز ضروباً من الوصف، وأنواعاً من الحكم، وطائفة من الأخبار والأنساب، وكان كلامهم مشتملاً على الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب.

٢ ـ وجرياً على سنة الله في إرسال الرسل، نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم بلغة قومه، وعلى أساليبهم في كلامهم: ﴿وما أرسَلنَا مِنْ رسولٍ إلاّ بلسانِ قومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة ابراهيم: ٤) فجاء على نمط العرب في كلامهم، غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربي، بمعانيه الرائعة التي افتن بها في غير مذاهبهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، تحقيقاً لإعجازه، ولكونه من لدن حكيم عليم.

٣ ـ وكان طبيعياً أن يفهم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن جملة وتفصيلاً، بعد أن تكفل الله تعالى بحفظه وبيانه: ﴿إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقرآنَهُ. فإذَا قرأناهُ فاتَّبِعْ قرآنَهُ. ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بيانَهُ﴾(سورة القيامة: ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩). كما كان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في جملته، ـ أي بالنسبة لظاهره وأحكامه ـ أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لاتغيب عنهم شاردة ولا واردة ـ فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن بل لابد لهم من البحث والنظر، والرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن فيه المجمل والمشكل، والمتشابه والمحكم، وغير ذلك مما لابد في معرفته من أمور أخرى يرجع إليها.

٤ ـ ولقد كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يتفاوتون في فهمهم لمعاني القرآن، فيشكل على بعضهم ما يظهر لبعضهم الآخر، ويرجع هذا إلى القوة العقلية لدى كل

منهم، فهي تختلف من شخص إلى شخص، وإلى درجة وقوف كل منهم على ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، ومعرفته للمعاني التي وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لايحيط بها إلا المعصومﷺ، ولا يدعي أحد أن كل فرد في أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها[1].

٥ ـ ومما يشهد لذلك ما روي أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وفاكِهَةً وأبّاً﴾ فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأبُّ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلّف يا عمر[2]! . وقرأ على المنبر يوماً: ﴿أو يأخذَهُمْ عَلَى تخوفٍ﴾ (سورة النحل: ٤٧). ثم سأل عن معنى التخوف فقام إليه رجل من هذيل فقال: التخوف عندنا: التنقص ثم أنشده:

تخـوَّفَ الـرَّحْـلُ منهـا تَـامِكـاً قَـرِداً كمـا تخـوّفَ عُـودُ النَّبعـة السَّفِـنُ[3]

وقال ترجمان القرآن ابن عباس: (كنت لا أدري ما «فاطر» السماوات، حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها)[4]

٦ ـ فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى الأب، ومعنى التخوف، ويسأل عنهما غيره، وابن عباس ـ ترجمان القرآن ـ لايظهر له معنى فاطر، إلا بعد سماعها من الأعرابي، فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟! هذا عدي بن حاتم لايفهم معنى قوله تعالى: ﴿وكُلُوا واشربُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الخَيْطُ الأبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأسودِ مِنَ الفَجْرِ﴾ (سورة البقرة: ١٨٧). فيأخذ عقالاً أبيض وعقالاً أسود، فما إن يمضي بعض الليل حتى ينظر إليهما فلا يستبينهما. وفي الصباح يخبر الرسول ـ رضي الله عنه ـ بشأنه، فيُعرِّض بقلة فهمه ويُفْهِمُهُ المراد[5].

---

(١) انظر التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ج١ ص ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) انظر الاتقان للسيوطي ج٢ ص ١١٣.

(٣) انظر الموافقات للشاطبي ج٢ ص ٨٧ ـ ٨٨. والتامك: السنام، والقرد: الذي تجعد شعره فكان كأنه وقاية للسنام، والنبع: شجر يُصْنَعُ منه السهام، والسفن: كل ما ينحت.

(٤) انظر الاتقان للسيوطي ج٢ ص ١١٣.

(٥) أخرج البخاري في صحيحه ج٦ ص ٢٦ عن الشعبي ـ قال: أخذ عدي عقالاً أبيض وعقالاً أسود حتى كان بعض الليل، نظر فلم يستبينا، فلما أصبح قال: يا رسول الله، جعلت تحت وسادتي عقالين. قال: إن وسادتك إذاً لعريض أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك. وأخرج البخاري أيضاً من طريق أخرى عن عدي بن حاتم ـ

٧ ـ والحق أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن، وبيان معانيه المرادة منه، بسبب اختلافهم في أدوات الفهم، وتبعاً لما ناله كل منهم من شرف ملازمته للنبي صلى الله عليه وسلم ومعرفته بقدر من أسباب النزول، لايعرفه غيره؛ ولهذا قال مسروق: «جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذ ـ يعني الغدير ـ فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم»[1].

٨ ـ وإذا أردنا أن نرسم بأذهاننا صورة متكاملة عن تفاضل الصحابة في فهم، وتفسير كتاب الله، فلا بد لنا من أن نبحث عن الخطة التي يتبعها الصحابة، والمصادر التي يرجعون إليها لفهم كتاب الله وتفسيره.

ولقد جنى صاحب القراءة المعاصرة فيما زعمه على السلف من الكذب والبهتان تحت اسم [الكتاب والقرآن] على الحقائق التاريخية التي تثبت عظيم شأن الصحابة علماً وفهماً حين تنكّر لفضلهم بدعوى المعاصرة والتطوّر، حيث زعم في ص٩١: «إننا في القرآن والسبع المثاني غير مقيّدين بأيّ شيء قاله السلف» !؟..

= رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود؟ أهما الخيطان؟! قال: إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين، ثم قال: لا، بل هو سواد الليل وبياض النهار. وانظر فتح الباري ج٨ ص ٢٧، وتفسير الألوسي ج١ ص ٤.

(١) انظر أعلام الموقعين لابن القيم ج١ ص ١٦، وتاريخ الفقه الاسلامي لكلية الشريعة بالجامعة الأزهرية للسايس ص ٣٩.

البحث الثالث

مصادر تفسير الصحابة للقرآن

لقد كان الصحابة يعتمدون على ثلاثة مصادر في تفسيرهم للقرآن الكريم:

١ ـ أولها: القرآن الكريم: إن الناظر في القرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على كلام فيه من الإيجاز والإطناب، ومن الإجمال والتفصيل، ومن الإطلاق والتقييد، ومن العموم والخصوص. ومآأوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر، وما أجمل في موضع قد يفصل في موضع آخر، وما جاء مطلقاً في سورة قد يلحقه التقييد في سورة أخرى، وما كان عاماً في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى[١] . ولهذا كان لابد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وبما جاء مفصلاً على ما جاء مجملاً، وليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله تعالى بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لايجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرف به من غيره.

٢ ـ وإذا غفل المرء عن بعضه لم يسلم استنباطه من الزلل، وتعرض تفسيره للفساد، فلا ينبغي ـ مثلاً ـ أن يفسر قوله تعالى: ﴿لاتدركُهُ الأبصارُ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٣). مع الغفلة عن قوله سبحانه: ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ. إلَى ربِّهَا ناظرةٌ﴾ (سورة القيامة: ٢٢، ٢٣)[٢] . ولايجوز أن يفسر آية: التيمم، ويغفل عن القيد بالمرافق الذي جاء قبلها في آية الوضوء: ﴿يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا إذَا قُمتُمْ إلَى الصلاةِ فاغْسِلُوا وجوهَكُمْ، وأيديكُمْ إلَى المرافِقِ﴾ (المائدة: ٦)[٣] .

---

(١) انظر المقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٥، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٢ ص ١٧٥.

(٢) انظر الاتقان ج٢ ص ١٩.

(٣) انظر مسلم الثبوت وشرحه لمحب الله عبد الشكور ج١ ص ٣٦١.

٣ ـ ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل بعض القراءات على بعضها الآخر[(١)]، فإن بعض القراءات يبين ماهو مجمل في القراءة الأخرى: فقراءة: (يطهرنَ) بالتشديد في قوله تعالى: ﴿ويسألونكَ عَنِ الْمَحِيْضِ قُلْ هُوَ أذىً فاعتزلُوْا النساءَ فِي المَحِيْضِ ولاَ تقربوهُنَّ حتَّى يطهرنَ﴾ (البقرة ٢٢٢)، تبين المعني بقراءة التخفيف، وقراءة: ﴿فامْضُوْا إلَى ذِكرِ اللّهِ﴾ تبين أن المراد بقراءة: «فاسْعَوْا» في قوله سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الذيْنَ آمَنُوا إذَا نوديَ للصلاةِ مِنْ يومِ الْجُمُعَةِ، فاسْعَوْا إلَى ذكْرِ اللّهِ وذروْا الْبَيْعَ..﴾ (سورة الجمعة: ٩)، هو الذهاب لا المشي السريع وقراءة ابن مسعود: ﴿فاقْطَعُوْا أيمانَهُمَا﴾ تحدد المراد بقراءة ﴿فاقْطَعُوْا أيديَهُمَا﴾[(٢)] وهكذا..

ومما يدل على أن القراءات مرجع هام من مراجع تفسير القرآن بالقرآن، قول مجاهد: (لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس، ما احتجت أن أسأله عن كثير مما سألته عنه)[(٣)].

٤ ـ هذا بيان موجز لتفسير القرآن بالقرآن، وما يحتاج إليه من النظر والتدبير والتعقل، وهو المصدر الأول من ثلاثة مصادر كان الصحابة يعتمدون عليها في تفسيرهم للقرآن.

٥ ـ أما المصدر الثاني فهو: النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان الصحابة إذا أشكلت على أحدهم آية من كتاب الله، رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسيرها، فيبين له ما خفي عليه من معناها، لأن من مهامه صلى الله عليه وسلم البيان، كما أخبر الله بذلك في كتابه حيث قال: ﴿وأنزَلْنَا إلَيْكَ الذكْرَ لتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِمْ، ولَعَلَّهُمْ يتفكرونَ﴾ (سورة النحل: ٤٤).

والأمثلة على أخذ الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير القرآن كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿حافِظُوْا عَلَى الصلواتِ والصلاةِ الوسْطَى وقومُوْا للّهِ قانِتِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٨) فالقنوت: يطلق على الذكر وعلى الطاعة، وعلى الخضوع. وهذا كله لا ينافي الكلام، غير أن السنة بينت أن من معاني القنوت: السكوت، وترك الكلام في

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج١ ص ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) انظر الاتقان للسيوطي ج١ ص ٨٢.
(٣) ارجع إلى: نظرة عامة لتاريخ التشريع الإسلامي لعلي حسن عبد القادر ص ١٦٣ وانظر «التفسير والمفسرون لمحمد خير الذهبي ج١ ص ٤١».

الصلاة، فقد روي عن ابن مسعود أنه قال: (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، فسلمت عليه، فلم يرد علي، فلما قضي الصلاة قال: إنه لم يمنعني أن أرد عليك السلام إلا أنا أمرنا أن نقوم لله قانتين، لانتكلم في الصلاة)[1] . وعن زيد بن أرقم أنه قال: (كنا نتكلم في الصلاة، يكلم أحدنا أخاه في حاجته، حتى نزلت: ﴿حافِظُوا عَلَى الصلواتِ والصلاةِ الوسْطَى وقومُوْا للّهِ قانِتِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٨)، فأمرنا بالسكوت[2] ، وروي عن رجل من الصحابة أنه قال: (يا رسول الله، أرأيت قول الله: «الطلاق مرتان» فأين الثالثة؟ قال: «أو تسريحٌ بإحسانٍ» (سورة البقرة، ٢٢٩)[3] وغير ذلك كثير مما ملئت به بطون كتب الحديث.

٦ ـ المصدر الثالث ـ الاجتهاد: وقد كان يلجأ إليه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في المرحلة الأخيرة، عندما يعييهم أن يجدوا التفسير في كتاب الله، ولا يتيسر لهم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم يجتهدون ويعملون عقولهم!

٧ ـ وأدوات الاجتهاد في التفسير عندهم أربعة:

أولاها ـ معرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها: فإن ذلك يعين على فهم الآيات التي لايتوقف فهمها على غير العرب، أما ترى عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول لأصحابه: (عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم)[4] .

٨ ـ والثانية ـ معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها، ومجاري أحوالها[5] في عصر التنزيل: فإن ذلك مما يعين على فهم القرآن، ويبعد من الوقوع في الشبه، فمن عرف من عادات العرب أن خزاعة منهم عبدت الشعري، ولم يعبد العرب كوكباً سواها ـ فهم سر تخصيصها بالذكر في قوله تعالى: ﴿وأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ (النجم:٤٩)[6]

---

(١) انظر مسند أحمد الأحاديث رقم: (٣٥٦٣ و ٣٥٧٥ و٣٨٨٤ و٣٨٣٥) وانظر البحث في أصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله ص ٢٤.

(٢) انظر صحيح البخاري ج٦ ص ٣٠، والموافقات ج٣ ص ٢٤٨، وأصول التشريع الإسلامي: للأستاذ علي حسب الله ص ٣٤.

(٣) انظر الاتقان في علوم القرآن ج٢ ص ١٩.

(٤) انظر الموافقات للشاطبي ج٢ ص ٨٨.

(٥) انظر المرجع السابق ج٣ ص ٣٥١.

(٦) انظر الموافقات للشاطبي ج٣ ص ٣٥٢، وأصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله ص ٣٦.

ومن علم أنهم كانوا يتخذون آلهة في الأرض: من جمادها أو حيوانها ـ عرف سبب ذكر صفة العلو لله في قوله تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ (الملك: ١٦)[١].

٩ ـ والثالثة: معرفة أسباب النزول[٢]، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، فإنها قرائن تعين على الفهم، قال الواحدي: «لايمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها، وبيان نزولها[٣]»، وقال ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن»[٤] ولا أدل على اعتبار الصحابة لأسباب النزول من قول عبد الله ابن مسعود: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت. ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني، تناله المطايا لأتيته»[٥]. وانظر إن شئت إلى جواب ابن عباس عندما سأله عمر عن سر اختلاف الأمة، فقال له: «كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟» فقال ابن عباس: «يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيما نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن، ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا»[٦].

١٠ ـ والرابعة ـ قوة الفهم وسعة الإدراك: وهذا فضل الله، يؤتيه من يشاء من عباده، وكثير من آيات القرآن الكريم يدقّ معناها، ويخفى المراد منها، ولا يظهر إلا لمن أوتي حظاً من الفهم، ونور البصيرة. ولقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأكبر، والحظ الأوفر من ذلك، ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل». وقد روى البخاري في صحيحه بسنده إلى ابي جحيفة أنه قال: «قلت لعلي ـ رضي الله عنه ـ هل عندكم شيء من الوحي إلا

---

(١) انظر الموافقات للشاطبي ج٣ ص ٣٥١، وأصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله ص ٣٦.
(٢) انظر الموافقات ج٣ ص ٣٤٧.
(٣) انظر الاتقان ج١ ص ١٩.
(٤) انظر المرجع السابق ج١ ص ١٩، ومنهج الفرقان لمحمد أبي سلامة ج١ ص ٣٦.
(٥) انظر المقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٥ ـ ٢٦، والاتقان للسيوطي ج٢ ص ١٨٧.
(٦) انظر الموافقات للشاطبي ج٣ ص: ٣٤٨، وأصول التشريع الإسلامي: للأستاذ علي حسب الله ص ٣٥.

ما في كتاب الله؟ قال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما أعلمه، إلا فهما يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل[1]، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر»[2].

هذه هي أدوات الفهم والاستنباط التي كان الصحابة يستعينون بها على فهم كثير من آيات القرآن، وتفسيرها، وهذا هو مبلغ أثرها في الكشف عن غوامض كتاب الله وأسراره.

ولقد تنكّر صاحب القراءة المعاصرة فيما أسماه [الكتاب والقرآن] لمنهج السلف في تفسير كتاب الله تعالى، وادّعى أنه لاحاجة له في تفسير القرآن إلاّ إلى البحث العلمي والفلسفة التي يصفها بأنها أم العلوم كما ص٣٢، ثم يزعم في ص١٠٣: أن «القرآن حقيقة موضوعية... وفهم هذه الحقيقة لايخضع إلا لقواعد البحث العلمي الموضوعي، وعلى رأسها الفلسفة... وأما الشريعة والأخلاق والعبادات والقانون والسياسة والتربية، فليس لها علاقة بالقرآن لامن قريب ولامن بعيد»هكذا يزعم بلاضابط ولارابط ليقلب الحقائق ويُغيّر الثوابت؟!..

---

(١) عقلت القتيل عقلاً: أديت ديته، قال الأصمعي: سميت الدية عقلاً، تسمية بالمصدر، لأن الإبل كانت تعقل بفناء ولي القتيل، ثم كثر الاستعمال حتى أطلق على الدية، إبلاً كانت أو نقداً. (المصباح المنير).

(٢) انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد ج٤ ص ٦٩. والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ج١ ص ٥٩.

البحث الرابع
التفسير والصحابة والمفسرون

١ - وقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الراشدون الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين -[١].

٢ - وكان معظم ما روي عن الخلفاء الراشدين في التفسير، هو ماروي عن علي - رضي الله عنه - والسبب في ذلك يرجع إلى بعده عن مهام الخلافة، إلى نهاية خلافة عثمان - رضي الله عنه - وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يفسر لهم ما خفي عنهم من معاني القرآن، واتسعت فيه رقعة الإسلام، بدخول كثير من الأعاجم في دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية!

٣ - وكذلك كثرت الرواية في التفسير عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، لحاجة الناس إليها، ولصفات عامة، مكنت لهم ولعلي بن أبي طالب أيضاً في التفسير. هذه الصفات هي: قوتهم في اللغة العربية، وإحاطتهم بأسرار أساليبها، وعدم تحرجهم من الاجتهاد، وتقرير ما وصلوا إليه باجتهادهم، ومخالطتهم للنبي صلى الله عليه وسلم باستثناء ابن عباس، مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن، أما ابن عباس، فإنه لم يلازم النبي صلى الله عليه وسلم في شبابه، لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في سن الثالثة عشرة أو مايقاربها، فاستعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يأخذ عنهم ويروي لهم[٢].

٤ - ولِيتضح لنا المنهج الذي كان عليه الصحابة - رضي الله عنهم - في تفسيرهم للقرآن، لابد من استعراض بعض النماذج التي صحت من تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم، بعد أن نعرض شيئاً مما صح في التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر الاتقان للسيوطي ج٢ ص ١٨٧.

(٢) انظر الاتقان للسيوطي ج٢ ص ١٨٧ وانظر التفسير والمفسرون للذهبي ج١ ص ٦٣ - ٦٥

فعلى ضوء ذلك، يمكننا أن نعيش فترة يسيرة في جو الصحابة - رضي الله عنهم - فنتلمس طريقهم في تفسيرهم لكتاب الله - عز وجل - والمنهل الذي نهلوا منه:

٥ - الرسول صلى الله عليه وسلمْ يلفت نظر الصحابة لتفسير القرآن بالقرآن، فيقول: (مفاتح الغيب خَمْسٌ[١] : إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير)[٢] (لقمان: ٣٤). وعن عبد الله بن مسعود قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿الذِيْنَ آمَنُوْا ولَمْ يَلْبِسُوْا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، شق ذلك على الناس وقالوا: يا رسول الله، فأينا لايظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: «يابني لاتشرك بالله، إن الشرك لظلم عَظِيْمٌ»؟ إنما هو الشرك)[٣] .

٦ - والرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الصحابة استنباط الأحكام من القرآن، وذلك فيما يرويه عنه ابن عباس فيقول: «ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة - تعني الشاة - فقال: فلولا أخذتم مسكها: فقالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قال الله - عز وجل -: ﴿قُلْ لا أجِدُ فِيْمَا أوحِيَ إلَيَّ محرماً عَلَى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاَّ أنْ يكونَ مَيْتَةً أو دماً مسفوحاً، أوْ لَحْمَ خنزيْرٍ﴾ (الأنعام: ١٤٥)، فإنكم لاتطعمونه، إن تدبغوه فتنتفعُوا به، فأرسلت إليها فسلخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قربة، حتى تخرقت عندها»[٤] .

٧ - كذلك يشرح النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة بعض الأمور الغيبية، حين يبين لهم رؤيته لجبريل فيما يرويه ابن مسعود فيقول: (في هذه الآية: ﴿ولَقَدْ رآهُ نزلَةً أخرَى﴾ (النجم:١٣). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيت جبريل عند سدرة

---

(١) الآية: ٥٩ من سورة الأنعام ﴿وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو﴾.
(٢) انظر البخاري ج٥ ص ١٩٣. باب وعنده مفاتح الغيب.. من كتاب التفسير.
(٣) انظر المسند لأحمد بن حنبل ج٥ ص ٢٠٧ رقم (٣٥٨٩) وقد نقله عنه ابن كثير في تفسيره ج٣ ص ٣٥١، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ج٣ ص ٢٦ - ٢٧ للبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وغيرهم، والآية الأولى: هي الآية ٨٢ من سورة الأنعام، والآية الأخيرة لقمان ١٣.
(٤) انظر مسند أحمد ج٥ ص ١٣، وهو في تفسير ابن كثير ج٣ ص ٥١٤ - ٥١٦ عن هذا الموضع، وكذلك في الفتح لابن حجر ج٩ ص ٥٩٦.

المنتهى، عليه ستمائة جناح، ينثر من ريشه التهاويل: الدر والياقوت)[1]، ويبين لهم وضع بني إسرائيل، وظلمهم، بتبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم فيقول. (قيل لبني اسرائيل: ﴿ادخُلُوا البابَ سُجَّداً وقولُوا حِطَّةٌ﴾ (البقرة: ٥٨)، فدخلوا يزحفون على أستاهم، فبدلوا وقالوا: حبة في شَعَره)[2].

٨ ـ والنماذج مما روي عن الصحابة في التفسير كثيرة: منها ما روي عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الفؤادُ مَا رَأَى﴾ (النجم: ١١). قال: (رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في حلة من رفرف، وقد ملأ ما بين السماء والأرض)[3].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يصعد به من الأرض» وقال مرة: «وما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها، ﴿إذْ يَغْشَى السدرةَ مَا يَغْشَى﴾ (النجم: ١٦). قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة خلال: الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لايشرك بالله ـ عز وجل ـ من أمته المقحمات[4].

وروى الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله أنه قال في هذه الآية: ﴿اقتربَتِ الساعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ﴾ (القمر: ١) قال: (قد انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين، أو فلقتين ـ الشك من شعبة ـ، فكان فلقة من وراء الجبل، وفلقة على

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ج٦ ص ٩ وذكره ابن كثير في تفسيره ج٨ ص ١٠٣ عن المسند من رواية أحمد عن حسن بن موسى عن حماد بن سلمة بنحوه، وقال: «هذا إسناد جيد قوي».

(٢) انظر البخاري ج٥ ص ١٤٨ باب وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم ـ وورد ص ١٩٧ بإسناد آخر.

(٣) انظر مسند أحمد ج٥ ص ٢٧٩، ورواه الترمذي وقال: «حديث حسن صحيح» والرفرف ما كان من الديباج وغيره رقيقاً حسن الصنعة.

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج٦ ص ٤٥.

الجبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم اشهد)[1] ..

٩ - وروى الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى أبي بكر الصديق أنه قام فحمد الله وأثنى عليه فقال: «يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ (المائدة: ١٠٥) إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقابه: (قال قيس - هو ابن أبي حازم، راوي الحديث - وسمعت أبا بكر يقول: (يا أيها الناس إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان)[2].

وروى البخاري في صحيحه قال: حدثنا إسحق، قال: حدثنا النضر، قال: حدثنا شعبة، عن سليمان، قال: سمعت أبا وائل، عن حذيفة، ﴿وأنفقوا في سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (البقرة: ١٩٥)[3] قال: نزلت في النفقة)[4].

ويزعم صاحبُ القراءة المعاصرة فيما أسماه بـ«الكتاب والقرآن» أنَّ السّنّة النبوية كانت «التفاعل الأولَ للإسلام في شبه جزيرة العرب» كما في ص٣٦ وفي ص٣٨: «أنّ آيات التشريع والعبادات... قد طبقها النبي ﷺ حسب الظروف الموضوعية لتشبه جزيرة العرب..» وكذا في ص١١٢، ويزعم في ص٥٤٩: «أنّ الذي فعله النبي ﷺ في القرن السابع [الميلادي] في شبه جزيرة العرب هو الاحتمال الأول لتفاعل الإسلام..» ويُشبّه كتاب الحديث النبوي بأناجيل النصارى، باعتبار أنها سيرة ذاتية للمسيح، وكذا الأحاديث هي السيرة الذاتية للنبي.. «فكما أن هناك عدّة أناجيل، فهناك عدّة كتب للحديث..».

وينفي علاقة أسباب النزول بالقرآن، فيزعم في ص١١٨: «.. الأحداث التي حصلت في أثناء بعثة محمد ﷺ «أسباب النزول» أما القرآن فليس له علاقة بالأحداث

(١) انظر المسند ج٦ ص ١٣٥ وقد ورد فيه: - شعبة الذي يشك -، والأصوب: - الشك عند شعبة

(٢) انظر المسند ج ٨ ص ١٦٣ رقم ١٦ وإسناد الحديث صحيح.

(٣) تمام الآية: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾.

(٤) انظر صحيح البخاري ج٥ ص ١٥٨.

التي حصلت في أثناء بعثة ﷺ..» ويزعم في ص٩٣: «أنّ القرآن ليس له أسباب نزول..».

فهذه المزاعم الباطلة قد قامت في فكر صاحبها حين ابتعد عن أصالة أمّته وتنكّرَ لعلومها، فحاول تغيير الثوابت العلمية في علوم القرآن العظيم والسّنّة النبوية المطهرة، كما حاول وضع البديل عنها من الأوهام والتخيّلات والأساطير التي يراها «تقدّماً ومعاصرة» نعم تقدماً نحو الهلاك.. ومعاصرة للضلال والضياع.. !!؟..

البحث الخامس

منهج ابن عباس في التفسير أنموذج

من منهج السلف في التفسير

لقد كان ابن عباس كغيره من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، يرجع في فهم معاني القرآن إلى القرآن أولاً وإنا لنرى شاهد ذلك واضحاً عندما يسأله مجاهد عن السجدة التي في سورة صّ، فيجيبه ترجمان القرآن: (أتقرأ هذه الآية: ﴿ومِنْ ذريَّتِهِ داودَ وسليمانَ﴾ (الأنعام: ٨٤)، وفي آخرها: ﴿فبهداهُمُ اقتدهْ﴾ (الأنعام: ٩٠)؟ ثم أتبع يقول: (أمِرَ نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بداود)[١].

فإذا لم يجد في القرآن ما يفسر به القرآن، رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثانياً: فيأخذ عنه تفسيره وبيانه للقرآن، وشواهد ذلك مستفيضة في كتب الحديث والتفسير بما يغني عن البيان. ولا ننسى في هذا المضمار أن ابن عباس كان إذا فاته سماع شيء من الرسول صلى الله عليه وسلم في بيان القرآن، لصغر سنه، وقصر مدة ملازمته له، فإنه يعوض ما فاته بتلقيه عن الأكابر من صحابته صلى الله عليه وسلم ويبدي ابن عباس في الأخذ عن الصحابة تثبتاً منقطع النظير، فيقول عن نفسه: (إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم)[٢].

وإذا مافاته الأخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، فإنه يلجأ أخيراً إلى إعمال عقله والاجتهاد برأيه، وهنا يظهر تفوقه ونبوغه، ويكاد يتميز منهجه عن

---

(١) انظر المسند للإمام أحمد ج٥ ص ١٣١ رقم الحديث (٣٣٨٨). ونقله ابن كثير في تفسيره ج ص ١٩٤ عن البخاري من طريق محمد بن عبيد الطنافيسي، عن العوّام، ونقله أيضاً في ج٣ ص ٣٥٧ عن البخاري من طريق سليمان الأحول عن مجاهد بمعناه.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ج٣ ص ٣٣.

منهج غيره من الصحابة.

لقد رأينا أن أدوات الاجتهاد عند الصحابة أربعة:

١ ـ معرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها.

٢ ـ معرفة عادات العرب في أقوالها، وأفعالها، ومجاري أحوالها في عصر التنزيل.

٣ ـ معرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات تعين على الفهم.

٤ ـ قوة الفهم، وسعة الإدراك.

وابن عباس لم يكن ليقول في كتاب الله برأيه دون علم ولا قواعد في اجتهاده، إنما كان كغيره من الصحابة، يعتمد على هذه الأدوات نفسها ويركن إليها عندما يجتهد في كتاب الله، لكنه بسق فيها على غيره كما تبسق النخلة السحوق على الودي الصغار:

أما عن قوة الفهم وسعة الإدراك: فلا تسل عن صاحبنا وعلو كعبه في هذا المضمار، مما كان نتيجة لمواهبه الفطرية وذكائه المتكامل، وبركة كثرة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم له[1]، وعنايته به، بعد توصية جبريل الأمين ـ عليه السلام ـ به[2].

ويكفينا لنعلم مدى اطلاع ابن عباس على أسباب النزول، أن نعرف أنه قد عرف ـ أو كاد يعرف ـ من ذلك ما عند الصحابة جميعاً، ومن البديهي أن ما يعرفه من أسباب النزول واحد منهم، ليس بلازم أن يعرفه الآخر، فكان ـ رضي الله عنه ـ كالنحلة التي تطير من زهرة إلى زهرة، لتمنحنا بعد ذلك عسلاً طيب المذاق، وقد ألمحنا من قبل إلى جلده ودأبه في أخذه عن أوعية العلم من الصحابة، وكيف سافر مع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ السفر الطويل، وقام على خدمته، ليعرف منه المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى لهما: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد

---

(١) انظر الاستيعاب ج٢ ص ٣٤٤، وتاريخ بغداد ج١ ص ١٧٣ وتذكرة الحفاظ ج١ ص٤٠، وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٥ ص ٢٧٨ و ٢٧٩، والاتقان ج٢ ص ١٨٨ وغيرها.

(٢) انظر تهذيب التهذيب ج٥ ص ٢٧٩، والاتقان ج٢ ص ١٨٨.

صفت قلوبكما﴾ (التحريم: ٤)[1] وكيف كان يجلس على باب أحد الصحابة وهو قائل، فيتوسد رداءه تسفي الريح عليه التراب[2]، متحدياً عوادي الطبيعة، غير آبه للحر والقر، والجوع والعطش، ليسأله عما نزل من القرآن بالمدينة، أو عن مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما نزل من القرآن في ذلك[3]، أو غير هذا وذاك، مما يريد من العلم[4]. أما معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها في عصر التنزيل، فقد كان حجة، يرجع إليه فيها، وكان مرجعاً يقصده الناس من كل حدب وصوب لمعرفة أيام العرب ووقائعها[5].

وإما إحاطته بأسرار اللغة العربية وأوضاعها: فحدث عنها ولا حرج[6]، لقد أوتي علم العربية، وخبر أسرارها، ووقف على دقائقها، حتى ليلفت الانتباه إلى مواقع الحروف، ومعانيها، ومواضع استعمالها في كتاب الله بأسلوب المربي الحكيم، كما في قوله: (الحمد لله الذي قال: «عن صلاتهم ساهون» ولم يقل: «في صلاتهم ساهون»[7].

وإذا أردت الأدب من شعر ونقد وغير ذلك، فقد كان أديباً ناقداً، اعترف له أكابر الصحابة بالتقدم في هذا الميدان، فهذا عمر مع بعض أصحابه يتذاكرون الشعر يوماً، فيقول بعضهم: فلان أشعر الناس ـ ويقول بعضهم: بل فلان أشعر، ويقبل ابن عباس عليهم حينئذ فيقول عمر لأصحابه: (قد جاءكم أعلم الناس بها)، ثم يسأله عن أشعر الشعراء، وعن دليل من شعره، فيجيبه حبر الأمة، بأن أشعر الشعراء زهير بن أبي سلمى، ويذكر من شعره ما يستدل به على ذلك[8]. والآن بعد أن عرضت منهج ابن

---

(١) انظر ذلك موسعاً في البخاري ج٣ ص ١٠٣، واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج٢ ص ١٢٩ ـ ١٣٥ ومسند الطيالسي ج١ ص٦ باختصار.
(٢) انظر تذكرة الحفاظ ج١ ص ٤١، والإصابة ج٢ ص ٣٢٣.
(٣) انظر طبقات ابن سعد ج٢ ص ٣٧١.
(٤) انظر طبقات ابن سعد ج٢ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.
(٥) انظر ما رواه ابن سعد في طبقاته: ج٢ ص ٣٦٨ عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وما ذكره الزركلي في الأعلام ج٤ ص ٢٢٩ عن عطاء، وانظر الاستيعاب ص ٤٢٦.
(٦) انظر طبقات ابن سعد: قصد الناس لابن عباس في الشعر والأنساب.
(٧) انظر الاتقان ج١ ص ١٤٥.
(٨) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري ج٣ ص ٢٤، وارجع إلى الفقرة ١٢٢ من

عباس في التفسير عرضاً مبسطاً، أستطيع أن أقول عنه. إنه كان يجمع في تفسيره للقرآن الكريم بين المنقول والمعقول، وأرى من المحتم عليّ في هذه المرحلة من البحث العلمي، أن ألقي الأضواء على النقاط التي تفرد بها في نهجه، فأبرزها بوضوح:

فقد امتاز حبر الأمة في الأمور النقلية بالتثبيت، وكأني به يريد أن يأخذ ما فاته أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق القطع، فيسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من الصحابة[1].

ولعله اقتبس هذه الخصيصة من أستاذه وابن عمه علي بن أبي طالب، الذي كان يتثبت بطلب اليمين ممن يروي له الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا لم يكن قد سمعه منه بنفسه، قال علي - رضي الله عنه -: «كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً، نفعني الله بما شاء منه. وإذا حدثني عنه غيري استحلفته، فإذا حلف صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من عبد يذنب ذنباً، ثم يتوضأ ويصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له)[2].

أما في الاجتهاد، فقد أكثر من الاعتماد على الشعر الجاهلي، لفهم الألفاظ الغريبة التي وردت في القرآن، وكان يقول: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه) ويقول أيضاً: (إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب)[3]. وليس هذا مجرد توجيه كلامي إلى طريقة معرفة غريب القرآن، فقد كان يمارس ذلك عملياً، عندما يسأل عن القرآن، فينشد الشعر ليستشهد على التفسير[4]، وقد روي عنه من ذلك الشيء الكثير.

وأوعب ما روي عنه في هذا مسائل نافع بن الأزرق وأجوبته عنها، وهي كثيرة، أخرج بعضها ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء، وأخرج بعضها الآخر الطبراني

هذه الرسالة.

(١) انظر ما مر في الفقرة (١٣٦) من هذه الرسالة.

(٢) انظر مسند أحمد ج١ ص ١٥٣ - ١٥٤ رقم ٢. وتذكرة الحفاظ ج١ ص ١٠.

(٣) انظر غاية النهاية في طبقات القراء ص ٤٢٦، والاتقان ج١ ص ١١٩.

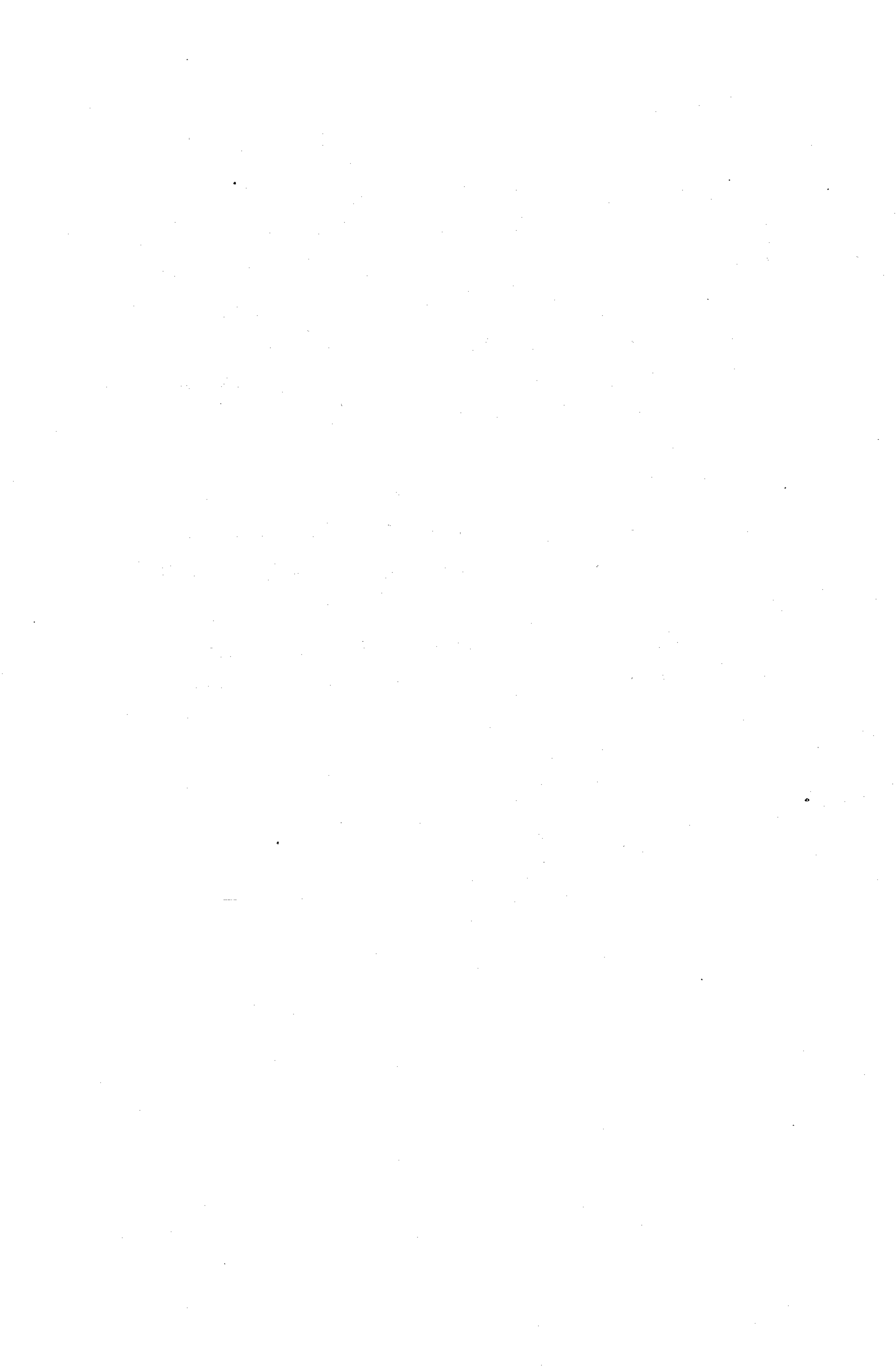
(٤) انظر الاتقان ج١ ص ١٢٠

في معجمه الكبير[1] ، وقد ذكر السيوطي في الاتقان مبدأ الحوار بين نافع وابن عباس، وسرد مسائل ابن الأزرق وأجوبة ابن عباس عنها.

وهكذا كانت عناية الصّحابة والتّابعين بتفسير القرآن العظيم على هذا المنهج العلمي الرصين، وإنّ المسمين جميعاً في كل زمان ومكان مَدِيْنُون لهم في هذا الجانب الكبير في حياتهم العلمية، فقد بذلوا رضي الله عنهم أقصى اهتمامهم لتبيُّن معاني القرآن ودلالاته وإشاراته وتوجيهاته، فتلقى ذلك عنهم التّابعون وتابعوهم جيلاً عن جيل حتى هذا العصر الذي ظهر فيه أنصاف الرجال، وأمساخ المستشرقين الذي يتلقّطون مغالطاتهم ويتلقّفون شُبهاتهم التي أثاروها حول القرآن العظيم وعلومه السّامية الكريمة، فكان صاحب القراءة المعاصرة فيما أسماه بـ«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» تحت شعار التّطوّر والمعاصرة والتقدّم والحداثة، فجاء بما تحمله العوادي من مغلطات جدلية ماكرة وتأويلات فلسفية باطلة حول آيات الله تعالى، فكان يسوق الآيات لأفكاره الوهمية سوقاً ويُحمِّلُها من المعاني المغلوطة تحميلاً، بل نراه يسوق الآيات الكريمة عن معانيها الأصيلة، وإلباسها زوراً وبهتاناً ثوب الحداثة والمعاصرة التي تعني عنده الإنسلاخ عن العلوم الإسلامية والضوابط الشرعية واللغوية، ولهذا نجده يُصَرِّح في ص٩١ فيقول: «نحنُ غيرُ مقيَّدين بأيّ شيءٍ قاله السّلف». فجاء بكتاب مخالفاً لأصول العلوم القرآنية والشرعية واللغوية، وداعياً إلى الخروج عنها والتنكّر لها. فأيّ خطر أدهى من ذلك ؟!!..

---

(١) انظر الاتقان ج١ ص ١٢٠.



الفصل الرابع

مراحل التفسير العلمي والموضوعي للقرآن العظيم

وهو يشتمل على الأبحاث التالية:

البحث الأول: أثر القرآن العظيم في العلوم الكونية.

البحث الثاني: دعوة القرآن العظيم إلى التفكّر في الأنفس والآفاق.

البحث الثالث: التفسير العلمي بين المنهج القديم والمنهج الحديث.

البحث الرابع: التفسير العلمي في رحاب إعجاز القرآن العظيم.

البحث الخامس: الآيات الكونية في القرآن العظيم.

البحث السّادس: التعريف بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

البحث السّابع: نشأة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

البحث الثّامن: التفسير الموضوعي بين الماضي والحاضر.

البحث التّاسع: ألوان التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.



البحث الأول

أثر القرآن العظيم في العلوم الكونية

للقرآن الكريم في هدايته التي يقصد بها إلى إيقاظ العقل وتحريره ألوان من الأساليب البيانية يستثير بها هذا العقل ليثير أسرار الحياة الدفينة في آيات الكون، ويتعرف حقائق الوجود، ويكشف عن عناصر الطبيعة، ويدرس ظواهرها المتفاعلة، ليقف على مدى تسخيرها للإنسان وانتفاعه بهذا التسخير قياماً بحق التكاليف الإلهية إلى أقصى مايمكن أن يدفع بالإنسانية في آفاق التقدم الحضاري بقدر ماتستطيع أن تصل إليه وتحققه الطاقة البشرية.

وهذه الألوان من الأساليب البيانية في هداية القرآن هداية توقظ العقل من غفوته وتحرره من عبوديته بلغت من الكثرة حداً لايبلغ الحصر استيفاءها، ولاالكتابة استيعابها، فلاجرم أن اكتفينا بالشواهد والأمثال نسوقها من آي القرآن نماذج لأشباهها[1].

نص النموذج الأول:

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَاذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِيْ سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا

---

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين: محمد الصادق عرجون ص٧٦ـ٨٥/ دار العلم ـ بدمشق.

مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيْهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لايَخْلُقُ أَفَلاَ تذكَّرونَ﴾[1].

نص النموذج الثاني:

وقال عز شأنه: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوْقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجينِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيْلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

والقرآن الكريم يجمل هذا التفصيل مبيناً حكمة الله في خلقه، وأنه تعالى خلق هذه النعم العامة والخاصة للإنسان خاصة، لينظر فيها نظر اهتداء بها إلى عظمة خالقها، ونظر انتفاع بمافيها فيها من خير وجمال وجلال فيقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الأَرْضِ جَمِيْعَاً﴾[3].

فأفاد بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ انفراده بالكمال الوجودي المتجلي في مظهر خالقيته، وأفاد بقوله: ﴿خَلَقَ﴾، مناط الدلالة في الكائنات على وجوده وقدرته، وسريان حكمته في الموجودات، وأفاد بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ اختصاص الإنسان ومدى سلطان خلافته في الأرض، وتسخير ماعليها من كائنات له، ليعتبر بمافيها من دلائل القدرة الإلهية، وينتفع بمافيها من نعم الله تعالى المكنونة في ذرات عناصرها، وهذا يقتضيه إجالة النظر والبحث في حقائقها لتتجلى له حكمة الله في خلقه، وأفاد بقوله: ﴿جَمِيْعَاً﴾، شمول العبرة لكل كائن على الأرض، والانتفاع بكل كائن حتى لايتعاظم الإنسانَ شيءٌ على الأرض إلا وهومقهور له بتسخير الله خاضع لسلطان عقله وتفكيره

---

(١) سورة النحل: الآيات(١٠ـ١٧).
(٢) سورة الرعد: الآيات(٢ـ٤).
(٣) سورة البقرة: الآية(٢٩).

ويجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الأَرْضِ وَالفُلْكَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾(١) . ويقول جل وجهه: ﴿وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنَ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢) .

وقد أكثر القرآن الكريم من إخبار الله تعالى بإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بعد موتها، ولكنه يخرج هذا الإخبار مخارجَ متنوعة، فتارة تراه يسوقه مثلاً للدنيا وزينتها وسرعة تقضّيها ونفادها مهما اخضرّت وزهت وأينعت ثمارها، كما في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ، حَتَى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣) ، وقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾(٤) .

وتارة يسوقه برهاناً على صحة البعث بياناً لقدرة الله في الأمور المشاهدة المحسوسة التي يؤمن الحس بوقوعها، وإن كان يجهل كيفيتها، ليقيس العقل أمر البعث على هذا الواقع المشاهد المحسوس، فلايتعاظمه التصديق به كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ

---

(١) سورة الحج: الآية(٦٥).
(٢) سورة النحل: الآيات(٦٥ـ٦٩)
(٣) سورة يونس: الآية(٢٤).
(٤) سورة الكهف: الآية(٤٥).

اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَارَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾(١).

وكما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

وتارة يسوقه لمجرد العبرة لتهدي به إلى معرفة الله والإقرار بوجوده وكمالاته كما في آية النحل ويرشد إليه تعقيبها بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، لأن المقصود به من يسمع سماع نعقل وتفكير فيهتدي إلى المعنى الذي من أجله كان ذلك آية من آيات الله وعبرة في أسرار خلقه.

ويؤكد ذلك مجيء العبرة في آية خلق الأنعام والانتفاع بها بعد آية إنزال الماء من السماء، وتفصيل العبرة في خلق الأنعام بأخص منافعها للإنسان، منفعة قد تدخل في تكوين عناصره وتقويم بدنه، وهي من أجلّ منافع هذه الأنعام في حياة الناس وأعمّها بيئة وزماناً وأجيالاً وخلاصة العبرة في هذه الآية التكوينية البديعة هي في تصوير الإنعام في خلق الأنعام لأجل نفع الإنسان بهذه النعمة، فالتعبير عنها بقوله: ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ فهي سقياً وشراب لاتعب بالإعداد والتهيئة والتحضير في طريقه إلى منافذ توزيعه على أعضاء الجسم للانتفاع به.

والإبهام في قول: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ آية من أعمق آيات العبرة، لأن مافي بطون الأنعام ليس فقط هو الغذاء والماء وإنما هناك إفرازات الغدد الكثيرة التي عرف العلم بعضها ولا يزال معها في طريق البحث، وهناك عناصر هذه الإفرازات، وكيفية تكوينها، ومن أي الأشياء تتكون، وهناك الأعضاء الداخلية المهيئة لهذه الإفرازات وتوزيعها بأقدار محددة، وهناك مالم يكشف عنه العلم مما في بطون الأنعام، وهناك العروق والأعصاب الداخلية في دقة نظامها، وإعداد الكل للقيام بمهماتها في تمثيل الطعام بما يشبه الأنابيب الدافعة والمستقبلة، وهناك أعضاء الخلط والمزج لما يدخل المعدة من الطعام والشراب، وهناك أعضاء الفرز والتمييز بعد التمثيل، وهناك الكثير مما يعجز العقل عن حصره.

---

(١) سورة الحج: الآيات(٥ـ٧).

(٢) سورة فصلت: الآية(٣٩).

وكل ذلك عبر عنه القرآن العظيم بقوله: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ بهذا الإيجاز المعجز، وهو أشبه بوحي الرمز والإِشارة، بيد أنه في إنهامه المعنى وأدائه المقصود أوضح من الإسهاب المطنب، والتفصيل المطيل.

ثم جاءت بعد ذلك عبرة العبر، فالقرآن في بيانه المعجز لم يكتف بقوله: ﴿نُسْقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ لما فيه من الإبهام الذي قد تنفر عنه بعض النفوس، وهذا الإِبهام كان يمكن دفعه بذكر مفعول الفعل﴿نُسْقِيكُمْ﴾ بلفظة متصلاً بمتعلق الفعل، فيقال: (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ لبناً خَالِصاً) ولكن البيان القرآني لم ينهج في أسلوبه هذا النهج، بل اتبع متعلق الفعل: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وقد أشرنا إلى بعض مافيه من لوامع الإعجاز، بما فوق مناره معجزة الإِعجاز في هداية القرآن، ومعجزته في براعة البيان، فقال: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ وهنا مجال العقل وغوصه إلى أعماق الآيات الكونية، ليعرف فيها عظمة القدرة الإِلهية، باحثاً متعمقاً منطلقاً في أجواء العلم والمعرفة ليهتدي إلى بديع صنع الله تعالى.

فهذا الشراب الشهي اللذيذ، الهنيء المريء، الحلو السائغ يتولد من بين(أزبال كرش الحيوان ودمه) يقول المتأففون: (أف. أف) وسيقول العلم الطبيعي، والتحاليل العنصرية، وتقول مخابر تفتيت المواد إلى عناصرها المعروفة، وتقول معامل الطبيعة في معاهد العلم ،ومدارسه ماتقول من نظريات وصلت إليها في طريق تركيب المواد وتحليلها وتحويل بعض المواد بنسب خاصة بين العناصر وذرات المادة، ولكن العلم بمخابره ومعامله وتحليلاته لايستطيع أن يقول: كيف خرج ذرات هذا الطعام اللذيذ الهنيء الذي تشغف بحبه النفوس من بين(الفرث - زبل الكرش - والدم) المستقذرين لدى النفوس؟ ويتساءل بعد ذلك: كيف تجمعت بهذه النسب الخاصة وتكونت لبناً خالصاً؟ وكيف امتزجت بنسبها الخاصة لم تزد عنها أو تنقص منها؟ وهل مجرد وجود هذه النسب الخاصة بين ذرات المواد كافٍ في تكوين مادة أخرى؟ أو أن هناك احتمالاً قائماً بوجود عوامل أخرى قد تكون مادية، وقد تكون غير مادية لها دخل في تكوين المادة الثانية بعد تحقق تلك النسب؟ سيقول العلمانيون من أحلاس المعامل والمخابر وعبيد المادة: أليس قد صنع(اللبن) بعيداً عن الفرث والدم، وبعيداً عن بطن الحيوان، وسرى بين الناس جافاً معلباً في علبة، وشربه الناس بعد أن أذابوه بالماء، فشربوا منه لبناً

خالصاً سائغاً للأطفال والشاربين؟ نعم، بلى، قد كان ذلك، ولكن سلوا أهل الاختصاص من أهل العلم المتواضعين لنعمة العلم هل هذا كذاك؟ وفي أهل الاختصاص من علماء تحليل العناصر المادية أدباء الأسلوب يجيبون عن هذا التساؤل بقول الشاعر: ليس التكحل في العينين كالكحل، والعقل يقول: ليس التطبع كالطبع، وليس المقلد كالأصل، فليمض العلم في بحثه ليكشف حقائق الآيات الكونية في بيان الهداية القرآنية عن طريق العقل الحر الطليق الذي أيقظته تلك الهداية من غفوته وحررته من عبودية الجمود على موروث الآباء والأسلاف.

ثم أتبع القرآن الكريم آية الإنعام بخلق الأنعام آية كونية عجيبة في أسلوب من براعة البيان القرآني فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١)

وموطن الإبداع في هذه الآية أنها تتحدث عن عظمة قدرة الله تعالى - الذي أخرج اللبن الشهي اللذيذ من بين زبل الكرش والدم طعاماً سائغاً للشاربين - في أنه تعالى جعل من ثمرات النخيل والأعناب خصائص الخير ومحض الإنعام إذا تناولها الإنسان كما خلقها بارئها دون عمل منه يحولها عن حقيقتها الإنعامية، وجعل منها خصائص إذا عولجت بعمل الإنسان تحولت عن حقيقة الخير والإنعام إلى مصدر شر وانتقام، فهي ثمرة واحدة أثمرتها شجرة واحدة، سقيت بماء واحد واستخلصت عناصر غذائها من تربة الأرض التي نبتت فيها، وفيها هذه الخصائص المتخالفة التي يستطيع الإنسان أن يتخذ منها رزقاً حسناً وطعاماً شهياً نافعاً، وفاكهة لذيذة مفيدة، ويتخذ منها سَكَراً يفسد عقله وجسمه، فتكون عليه شراً ووبالاً بعد أن كانت نعمة وخيراً، فهذه الآية من قبيل قوله تعالى: ﴿وفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِراتٌ وَجنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وغيرُ صنوانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعضٍ فِي الأُكُلِ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٢) ، ولذلك اتحدت فاصلتهما لتنبه العقل إلى مواطن الدلالة في الآيتين على عظمة قدرة الله ووحدانيته ومحكم تدبيره، وبالغ حكمته، وقد وقع الامتنان بهذه النعمة باعتبار أصل وجودها قبل بعث الإنسان بها، ووقع بها الاستدلال على عظمة القدرة

---

(١) سورة النحل: الآية(٦٧).
(٢) سورة الرعد: الآية(٤).

الإلهية باعتبار مافيها من الخصائص المتخالفة في غايتها.

أما حديث النحل ودلالة هذا الكائن العجيب البديع على جلال الله وعظيم صنعه وما أودعه الله فيه من خصائص يعجز العقل والعلم عن الإحاطة بها، ولكنها بيّنة الأثر، في دلالتها على إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود ليبحث ويفكر ويستنتج فهو حديث طويل عريض، متسع الجوانب، تبادله الباحثون من العلماء وأهل الاختصاص في دراسة طبائع الكائنات الحية وآثارها في الحياة وإن كانوا منه في النقطة التي يبدأ منها الخط المستقيم، وقد أصبح للنحل مناحل دولية، وله بحوث ودراسة عميقة في معاهد الزراعة وكلياتها الجامعية.

والذين فتحوا أنظارهم على ثمرات هذه الدراسات العلمية الحديثة عرفوا ماقال ويقول العلم عن طبائع هذا الكائن وعن منافع هذا الشراب الذي لاتفيه كلمة(حلو) حقه من وصف(الحلاوة) والذي لازال العلم منه في موقف البحث، كيف تكوّن؟ ومم تكوّن؟ وكيف اختلفت ألوانه؟ ومن أين تأتيه هذه الخصيصة، خصيصة(الشفاء للناس)؟ ومن أي الأمراض يشفي؟ وهنا أيضاً سيقول علماء الطبيعة وتحليل العناصر المادية وأحلاس المخابر والمعامل مثل ماقالوا في (اللبن) وسيقول لهم العقل الذي أيقظته هداية القرآن، تعالوا معي، فأنا وأنتم في نقطة البداية على الطريق الذي توثبه القرآن توثباً طُوِيَ له فيه المكان والزمان، وهو هنالك عند ذروة النهاية في انتظار المؤمنين من العلماء.

وقد كان الطب، وهو علم الحياة أجرأ الفنون العلمية على التجاوب مع الهداية القرآنية في إشارتها إلى العقل بالتحرر والبحث، فكتبت مجلاته العلمية في بلاد العالم المتعبد بالعلم إلحاداً أو إيماناً تذكر عن هذا الشراب الذي يخرج من بطون النحل أموراً كان المؤمنون يؤمنون بها تديناً ويجهلونها علماً ومعرفة وبحثاً، فلفتت أنظارهم إلى هداية كتابهم بإعجازها الفكري والمعنوي، وتلفتوا خلفهم يفتشون في تراثهم من تفسير هذا الكتاب الكريم، فوجدوا إشارات ورموزاً لاتغني غناء البحث الجاد المتعمق عن طريق العلم ووسائله المستحدثة.

ولعل ذلك يدفعهم إلى أن يسهموا في هذه البحوث العلمية بطرائقها الخاصة مستظلين بظل الإيمان بهداية القرآن العظيم في إيقاظ العقل الإنساني و تحريره من ربقة الجمود والتقليد، والعلم - أي علم - لاوطن له.

وفي فواصل هذه الآيات تنبيه إلى طريق الهداية القرآنية، وأنها عمل من أعمال العقل المتيقظ المتحرر، الذي يجعل من العلم والمعرفة بأوسع معانيهما، وأعلم فنونهما، وأشمل موضوعاتهما قوة كاشفة عن حقائق الآيات الكونية في القرآن العظيم، لتكون وسيلة إلى معرفة الله، ووحدانيته في إلهيته، وربوبيته، وبديع صنعه في خلقه، وبالغ حكمته في تقديره وهدايته، وتفرده بالكمال المطلق.

والهداية القرآنية وحي الله تعالى، فلامدخل للعقل في وجودها، ولكن الطريق إلى معرفتها والتحقق بها في واقع الإيمان البرهاني هو عمل العقل وواجبه، ولهذا جاءت فواصل الآيات الكونية منبّهة للعقل، لتوقظه حتى يتبين أنه عمله في الهداية القرآنية إنما هو الكشف عن حقائقها في آيات الله، و لتهدي بها في توطيد دعائم الإيمان في قلوب المؤمنين.

ومن هنا نعلم فسادَ الطريقة الجدلية السفسطائية الفلسفية التي قامت عليه القراءة المعاصرة للمدعو «محمد شحرور» فيما صَنّعه أو اصطنعه من الأغاليط والنظريات الوهمية تحت ما أسماه بـ«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة».

ومن مغالطاته الجدلية زعمه في ص١٠٣: «والقرآن حقيقة موضوعية مطلقة.. وفهم هذه الحقيقة لايخضع إلاّ لقواعد البحث العلمي الموضوعي، وعلى رأسها الفلسفة وكل العلوم الموضوعية من كوسمولوجيا وفيزياء وكيمياء وأصل الأنواع وأصل الكون والبيولوجيا وسائر العلوم الطبيعية. أما الشريعة والأخلاق والعبادات والقانون والسياسة والتربية، فليس لها علاقة بالقرآن لامن قريب ولامن بعيد..» كذا يزعم بلا مسكةٍ من علم!.. ويزعم في ص٩٥: «أن القرآن.. جاء من قَرْنَ قوانين أحداث الطبيعة مع أحداث التاريخ... أي قَرَنَ بين القوانين الناظمية لأحداث الطبيعة والقوانين الناظمة لأحداث التاريخ» ؟!!..

ويزعم في ص٩١: أن «القرآن حقيقة موضوعية مادّية وتاريخية لاتخضع لإجماع الأكثرية حتى ولو كانوا كلُّهم تُقَاةً، ويخضع لقواعد البحث العلمي حتى ولو كان الناس كلهم غير تُقَاةٍ، وعلينا أن نكسر هذا الحاجز الوهمي المبني على عبارة «هذا ماقاله الجمهور» أو «هذا ماأجمع عليه الجمهور - جمهور الفقهاء»!!..

هذه هي الأُسس التي قامت عليها قراءَتُه المعاصرة لكتاب الله تعالى، وتحت هذا

التحلّل من كل الضوابط والثوابت التي اتفق عليها علماء الإسلام، يطرح أفكاره الموهومة ونظرياته المزعومة كتجديد للإسلام وعلومه ؟!: .

وقد خاب كلُّ أفّاكٍ أثيم !! . .

البحث الثاني

دعوة القرآن الكريم
إلى التّفكر في الأنفس والآفاق

١ـ الدعوة إلى التفكر والتدبر :

نعلم جميعاً أن الله سبحانه وتعالى خلقنا لعبادته، فأودع فينا القدرات والإمكانات للتعرف عليه، فهو سبحانه أخرجنا من بطون أمهاتنا لانعلم شيئاً ثم منحنا أدوات المعرفة المختلفة، من سمع وبصر وفؤاد لنتعرف عليه سبحانه ﴿والله أخرجكم من بطون أمّهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكمُ السّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلّكم تشكرون﴾[١] فأنزل القرآن ليخاطب هذه الفطر والعقول لتصل إلى الحقيقة الكبرى حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وأن هناك خالقا يخلق ويأمر وعبدا يؤمر فيطيع.

ولقد دعانا القرآن الكريم للتفكر والتدبر والتأمل وتطبيق منهجه في ذلك للتوصل إلى هذه الحقائق فلانعطل هذه القدرات ﴿أفلا يتدبّرون القرآنَ أم على قلوبٍ أقفالُها﴾[٢] ثم دعانا للتأمل والتفكر في الأنفس والآفاق ليتعرف الإنسان على ذاته وعلى هذا الكون وهذه الحياة ليعرف من هو؟ ومن الذي خلقه وخلق الأكوان؟ وعلى حقيقة هذه الحياة بدايتها ونهايتها وبالتالي يتعرف على عقيدته التي ترشده إلى أرشد الطرق وأسعدها، ليفوز برضى الله في دنياه، وبالجنة التي وعد المتقون في أخراه، وذلك بأسلوب شيّق أخّاذ، وعرضٍ رائع جذاب.. ومن الذي يدعوك هذه الدعوة إنه رب الأكوان وخالق الإنسان يدعو خلقه على لسان رسوله ﷺ ﴿قلْ إنّما أعظكمْ بواحدةٍ

---

(١) سورة النحل: ٧٨.
(٢) سورة محمد: ٢٤.

بأن تقومُوا للهِ مثنىَ وفُرَادَى، ثمّ تتفكّروا..﴾[1].

دعوة من الرؤوف بالعباد إلى العباد.. تفكروا فيما حولكم، فيما تراه أعينكم وتشمه أنوفكم، دعوة تحدد منهج البحث ووسائله للوصول إلى الحق، والمعرفة الصادقة لنستبين الصدق من الكذب والحق من الباطل، واليقين من الافتراء، والظن والهوى من النور المبين، دعوة بعيدة عن المصالح والأغراض بعيدة عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة. وهي دعوة إلى منطق الفطرة الهادىء الصافي، وإلى التعامل مع الواقع البسيط لا مع القضايا النظرية والأقيسة المنطقية،[2] والدعاوي الرائجة التي تبعد القلب والعقل عن مواجهة الحقيقة في بساطتها وهي في نفس الوقت منهج البحث عن الحقيقة.

إنه منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والمؤثرات، يعتمد على مراقبة الله، فإن تحقق ذلك صح واستقام الطريق ﴿أن تقوموا لله﴾ لا لغرض أو هوى أو مصلحة، ﴿ثم تتفكروا﴾ تفكر القائمين لله المتجردين له..

ولقد منّ الله على عباده فجعل قراءة هذا الكتاب المنظور- كتاب الكون - وتدبره ميسوراً للجميع، للعالم والجاهل، والقارىء والأمي، وإن كان لايتدبر قراءته ولايفقهها إلا المتقون﴿واتَّقُوا اللهَ ويُعلِّمُكُمُ اللهُ﴾ كمالايعقل آياته إلا العالِمُون، فهل يبذل الإنسان جهده مع تقوى الله وهو يطالع هذا الكتاب المفتوح لهذا الكون الفسيح الذي يعيش فيه؟ وهو يشم هواءه ويأكل ثماره، ويشرب من أنهاره، ويركب بحاره، ويسير فجاجه، وينظر إلى سمائه، ويستخدم أنعامه، ثم يفكر تفكر العاقل.. يفكر فقط فيما وقع عليه حسه، فإنه بتوفيق الله له سيجد الدلالات التي لاتعد ولاتحصى من العبر والآثار الدالة على معاني صفاته جل شأنه فتثير هذه المطالعة في القلب إحساسات رقيقة ووجدانات عالية، لأنه اتصل بالله سبحانه وتعالى فاهتز القلب وخشعت النفس وفاضت العين، واستنار الطبع، فإذا بالإنسان في هذه اللحظة التي استغرق فيها بفكره وتدبر فيها بعقله قبضة من نور الله عز وجل، قلبه نور، ولحمه نور، وخلفه وأمامه كل ذلك نور على نور...

فإذا أحس الإِنسان بقلبه يختلج وبدنه يرتجف، ودمعه يفيض، وهو يسبح في

---

(١) سورة سبأ: ٤٦.(٢) كما هو واقع كتاب الدكتور «شحرور» في قراءته المعاصرة للكتاب والقرآن

ملكوت الله بفكره وعقله وقلبه، فليعلم أنه فهم سطراً من كتاب الوجود، فإن ثمرة التأمل أن تنفذ بعض آثار صفات الخالق، وفي الآثار عبرة، والعبرة إشعاع رقيق يسطع في القلب ليصله فى رفق بالله سبحانه وتعالى، فإذا أفضت إلى الله، وخرت مشاعرك ساجدة خاشعة، راجية محبة بلغت من أسباب الفهم والمعرفة مالا يبلغه إلا الراسخون فى العلم ولو كنت ممن لم يقرأوا كتاباً أو يجلسوا إلى أستاذ فى مدرسة أو جامعة[1].

٢ـ تساؤل عن السموات والأرض:

ولكى ينتشر هذا النور ليبصر العبد الصالح ـ الذى هداه الله لنوره ـ طريقه ويتدبر آياته ليكون من أولى الألباب، سلك القرآن معه أسلوب التساؤل الذى يثير العقل للتفكير الهادىء، ويشد انتباه المسلم شداً بهذا التساؤل، وهو بذلك لايطلب منك إجابة بلسانك على أسئلته التي يطرحها، لكنه يجعل داخلك ينطق بالحقيقة التي تراها العين الباطنة ويوقفك أمامها﴿ألمْ نجعلِ الأرضَ مِهَاداً، والجِبَالَ أوتاداً، وخلقنَاكُمْ أزواجاً، وجعلنا نومكم سُباتاً، وجعلنا الليلَ لباساً، وجعلنا النّهارَ معاشاً، وبنينا فوقكم سبعاً شِداداً، وجعلنا سِراجاً وَهّاجاً، وأنزلنَا مِنَ المعصرَاتِ ماءً ثجّاجاً، لنخرجَ به حَبّاً ونباتاً وجناتٍ ألفافاً﴾[2] فيجعل من هذه المقدمات العقلية إثباتاً ليوم البعث ﴿إنّ يومَ الفصلِ كان ميقاتاً﴾[3] فلاتملك حيال هذه التساؤلات إلا أن تقول حقاً حقاً صدقتَ ربّنَا.

ياله من أسلوب بديع مثير يدعو الإنسان الغافل ليفيق من غفوته، ويصحو من نومته بالإلحاح فى الدعوة إلى النظر فى السماء والأرض ومافيهما، من جمال وتنسيق بديع ودقة متناهية﴿كيف بنيناها وزيّنّاهَا، ومالها من فرُوج، والأرضَ مَدَدْنَاها وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ بهيج، تبصرةً وذكرى لكلِّ عبدٍ منيب﴾[4] وتتكرر الدعوة مرات ومرات دون ملل للنظر﴿ إلى الإبلِ كيف خُلِقَتْ، وإلى السماءِ كيفَ رُفِعتْ، وإلى الجبالِ كيف نُصِبتْ، وإلى الأرضِ كيفَ سُطِحَتْ﴾[5].

---

(١) تذكرة الدعاة، للبهي الخولي، ص١٩٠.
(٢) سورة النبأ: ٦ـ١٦.
(٣) سورة النبأ: ١٧.
(٤) سورة ق: ٦ـ٨.
(٥) سورة الغاشية: ١٧ـ٢٠.

ثم ينتقل بك نقلة أخرى، في مشهد يشارك فيه كل البشر ويلمسه كل إنسان بل يفعله في اليوم أكثر من مرة حتى ألفه كما ألف رؤية السماء والأرض ومافيهن فلاتستثيره المشاهد الكونية الجميلة، والآيات الربانية الكثيرة، فيقص عليك قصة طعامك الذى تأكله مرحلة مرحلة لتنظر إليها وتسأل نفسك هل لك من يد فى هذا الطعام الذى تأكل؟ هل لك من تدبير لأمره؟ ألاتعلم أن اليد التي أخرجتك إلى الحياة وأبدعت خلقتك هى ذات اليد التى أخرجت طعامك وأبدعت إخراجه، فطعامك الذى تضعه بين يديك ليتناوله فمك، وينبت به لحمك، وتقوى به على معيشتك، معجزة كمعجزة خلقك سواء بسواء، تمت بيد القدرة التي أبدعت وأتقنت كل شيء وتحدت الخلائق جميعا﴿أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟﴾[1] ياقوم هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه؟؟

إن الذى يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه ـ كما كشف العلم الحديث عن جوانب منهاـ يدركه الدهش والذهول، ولكن روعة الكون لاتحتاج إلى هذا العلم الحديث، فمن نعم الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل، فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل تلقياً مباشراً حيث ينفتح ويستشرف، ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحي مع الحي، قبل أن يعلم بفكره وبإرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب.

وليتك تقرأ كتاب ربك مرّةً متدبراً، مستشعراً معنى واحداً من هذه المعانى ولتكن وقفة تأمل وتفكر وتدبر فى السموات، ومافيها من نظام بديع، وتناسق جميل، فستجد القرآن يوجه النظر إلى خلق الله فى السماوات بصفة خاصة، وفى كل ماخلق بصفة عامة، ويوجه النظر إلى خلق الله، وهو يتحدى بكماله كمالاً لايرد البصر عاجزاً قليلاً مبهوراً مدهوشاً﴿ماترى في خلقِ الرحمٰنِ من تفاوت﴾[2] فليس هناك خلل ولانقص ولااضطراب ﴿فارجعِ البصر﴾ وانظر مرة أخرى لِلتأكد والتثبت ﴿هل ترىَ من فطور؟﴾ هل وقع نظرك على شق أو صدع أو خلل؟ ﴿ثم ارجعِ البصر كرتين﴾ فربما فاتك شيء في النظرة السابقة لم تتبينه، فأعد النظر ثم أعده

---

(١) سورة الواقعة: ٦٣.
(٢) الآيات من سورة الملك.

﴿ينقلبْ إليكَ البصرُ خاسئاً وهو حسيرٌ﴾.

أسلوب فيه تحدٍ، وأسلوب التحدى من شأنه أن يثير الاهتمام والجد فى النظر إلى السموات وإلى خلق الله كله، وهذه النظرة الجادة الفاحصة المتأملة المتدبرة هى التى يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها، فبلادة الألف تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الرقيق، الذى لاتشبع العين من تملى جماله وروعته، ولايشبع القلب من تلقى إيحاءاته، ولايشبع العقل من تدبر نظامه ودقته والذى يعيش منه من يتأمله بهذه العين فى مهرجان إلهي باهر رائع، لاتخلق بدائعه لأنها أبداً متجددة للعين والقلب والعقل.. ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر فى هذا الكون، وإلى تجلى مشاهده وعجائبه، ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعاً فى كل عصر، يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء، كمايخاطب ساكن المدينة ورائد البحار، وهو يخاطب الأمي الذى لايقرأ ولم يخط حرفاً، كمايخاطب العالم الفلكى والعالم الطبيعى والعالم النظري سواء، وكل واحد من هؤلاء يجد فى القرآن مايصله بهذا الكون، ومايثير قلبه بالتأمل والاستجابة والمتاع والجمال، ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السموات بعد أن وجه النظو إلى كمالها..

فهذا الفضاء الوسيع لايمل النظر امتداده، ولايبلغ النظر آماده إنه الجمال، الجمال الذى يملك الإنسان الذى يعيشه ويتملاه، ولكن لايجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ والعبارات..

والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء، وإلى جمال الكون كله، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك خالق الوجود، وهذا الإدراك هو الذى يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التي يتهيأ فيها للحياة الخالدة، فى عالم طليق جميل، بريء من شوائب العالم الأرضي والحياة الأرضية، وأن أسعد لحظات القلب البشرى لهي اللحظات التى يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي فى الكون، ذلك أنها هى اللحظات التى تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه[1]، فإذا بقلبه يتسع وصدره ينشرح للإسلام فيتلقى كل ماأوحى به الإله﴿أفمَنْ شرحَ اللّهُ صَدْرَهُ للإسلامِ فهو علىٰ نُورٍ مِنْ ربِّهِ فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهُمْ مِنْ ذكرِ اللهِ أولئكَ

---

(١) في ظلال القرآن، جزء٦، ص٣٦٣٢.

في ضلال مبين﴾[1].

٣ـ صفحات من آيات الكون:

وكثيراً ماتقرأ فى كتاب الله آيات تصف الكون ومافيه، وترى هذه الآيات توجه الأنظار إلى الماء النازل من السماء وإلى النخل الباسقات، وإلى الجنات والنبات، ليستدل بذلك على البعث والنشور، ويناقش المعترضين على هذه الحقيقة الإيمانية بعرض مظاهر الحق فى بناء الكون وبداهة من يؤمن بالبعث يؤمن بمالك يوم الدين ونظرة إلى الكون ومافيه تدل على أنه واحد أحد ولذا يقول القرآن﴿أفلم ينظروا إلى السّماءِ فوقَهُم كيفَ بنيناَهَا وزَيّنّاهَا ومالَها من فُروجٍ، والأرضَ مَدَدْنَاهَا وألقينَا فيها رواسيَ وأنبتنَا فيها من كلّ زوجٍ بهيجٍ، تبصرةً وذكرىٰ لكلّ عبدٍ مُنيبٍ، ونزّلنا من السماءِ ماءً مباركاً فأنبتنا به جناتٍ وحبَّ الحَصِيد، والنّخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ، رزقاً للعبادِ وأحيينا بهِ بلدةً مَيْتاً كذلكَ الخُرُوج﴾[2].

إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذى فارقوه، أفلم ينظروا إلى مافيها من تشامخ وثبات واستقرار؟ وإلى مافيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب، إن الثبات والكمال والجمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق هنا، مع الحق ومافيها من ثبات وكمال وجمال.. ومن ثم تجيء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج.

وكذلك الأرض صفحة من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس الجميل البهيج﴿والأرضَ مَدَدْنَاهَا، وألقينَا فيها رَواسِيَ، وأنبتنا فيها مِن كلّ زوجٍ بهيج﴾ فالامتداد فى الأرض والرواسي الثابتات والبهجة فى النبات.. تمثل كذلك صفة الاستقرار والثبات والجمال، التى وجه النظر إليها فى السماء، وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة، والأرض الممدودة الراسية البهيجة يلمس قلوبهم، ويوجهها إلى جانب من حكمة الخلق، ومن عرض صفات الكون﴿تبصرةً وذكرىٰ لكلّ عبدٍ منيب﴾ تبصرة تكشف الحجب، وتنير البصيرة، وتفتح القلوب، وتصل الأرواح بهذا الكون

---

(١) سورة الزمر: ٢٢.
(٢) سورة ق: ٦ـ١١.

العجيب وماوراءه من إبداع وحكمة وترتيب.. تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب، يرجع إلى ربه من قريب.

وهذه هى الوصلة بين القلب البشرى وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل، هذه الوصلة التى تجعل للنظر فى كتاب الكون، والتعرف إليه أثراً فى القلب البشرى، وقيمة في الحياة البشرية، فهذه هى الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذى يعرف ويعلم، وهى التى تهملها مناهج البحث التى يسمونها«علمية» فى هذا الزمان فتقطع ماوصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه، فالناس قطعة من هذا الكون لاتصح حياتهم ولاتستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون، وإلا حين تقوم الصلة وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير، وكل معرفة بنجم من النجوم، أو فلك من الأفلاك، أو خاصة من خواص النبات والحيوان، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال ومافيه من عوالم حية جامدة أو شيء واحد جامد فى هذا الوجود، كل معرفة«علمية» يجب أن تستحيل فى الحال إلى إيقاع فى القلب البشرى، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون، وإلى تعارف يوثق أواصر الصداقة بين الناس والأشياء والأحياء وإلى شعور بالوحدة التى تنتهي إلى خالق هذا الكون ومافيه ومن فيه.. وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموجهة المؤثرة في حياة البشر، هي معرفة ناقصة، أو علم زائف، أو بحث عقيم.

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح، الذى يقرأ بكل لغة، ويدرك بكل وسيلة ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور، كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده، فيجد فيه زاداً من الحق، حيث يطالعه بشعور التطلع إلى الحق، وهو قائم مفتوح: ﴿تبصرةً وذكرىٰ لكلِّ عبدٍ مُنيب﴾.. ولكن العلم الحديث يطمس هذه التبصرة أو يقطع تلك الوشيجة بين القلب البشرى والكون الناطق المبين، لأنه فى رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة«المنهج العلمي»، المنهج الذى يقطع بين الكون والخلائق التى تعيش فيه[1].

٤ـ المنهج الإيمانى:

والمنهج الإيمانى لاينقص شيئاً من ثمار«المنهج العلمي» فى إدراك الحقائق

---

(١) في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٣٦٠.

المفردة، ولكنه يزيد عليه ربط هذه الحقائق بعضها ببعض، وردها إلى الحقائق الكبرى، ووصل العقل البشرى بها، أى وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة فى مشاعر الناس وحياتهم، لامعلومات جامدة جافة متحيزة فى الذهان لاتفضي لها بشيء من سرها الجميل، والمنهج الإيماني هو الذى يجب أن يكون له الكرة فى مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التى يهتدى إليها بهذا الرباط الوثيق.. وانظر مثلاً إلى هذه اللفتة المؤثرة فى عرض صفحات الحق فى كتاب الكون وهو يربطها بقضية الإحياء والبعث ﴿ونزّلْنَا منَ السّماءِ ماءً مباركاً، فأنبتنا به جناتٍ وحبَّ الحَصِيد، والنّخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نَضيدٌ، رزقاً للعبادِ وأحيينَا بهِ بلدةً ميّتاً، كذلكَ الخُروج﴾ فالماء النازل من السماء آية تحيي موات القلوب قبل أن تحيي موات الأرض، ومشهده ذو أثر خاص فى القلب لاشك فيه، وليس الأطفال وحدهم هم الذين يفرحون بالمطر ويطيرون له خفافاً، فقلوب الكبار الحساسين تستروح هذا المشهد وتصفق له كقلوب الأطفال الأبرياء القريبي العهد بالفطرة.

ويصف الماء هنا بالبركة، ويجعله فى يد الله سبباً لإنبات جنات الفاكهة وحب الحصيد ـ وهو النبات المحصود ـ ومماينبته به النخل، ويصفها بالسموق والجمال ﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾.. وزيادة هذا الوصف للطلع مقصود لإبراز جمال الطلع فى النخل الباسق، وذلك تمشياً مع جو الخلائق وظلاله، الحق السامق الجميل.. ويلمس القلوب وهو يمتنّ عليها بالماء والجنات والحب والنخل الطالع ﴿رزقاً للعباد﴾ رزقاً يسوق الله سببه ويتولى نبته، ويطلع ثمره، للعباد وهو المولى، وهم لايقدرون ولايشكرون، وهى عملية دائمة التكرار فيما حولهم، مألوفة لهم، ولكنهم لاينتبهون إليها ولايلحظونها قبل الاعتراض والتعجب.. كذلك الخروج على هذه الوتيرة، وبهذه الوتيرة، وبهذه السهولة، الآن يقولها وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشرى ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر الموحى لكل قلب منيب فيوجهها إلى الرب المعبود صاحب هذا الوجود والذى سيجمع الناس فى يوم موقوت، وهكذا يعالج القلوب خالق القلوب[1].

---

(١) في ظلال القرآن، جزء٦، ص٣٣٦٠.

إن الجو الذى يحيا فيه قارىء القرآن يسع البر والبحر، والسماء والأرض، ويطلق الفكر سابحاً فى ملكوت لانهاية له، ويؤكد للإنسان أنه مَلِكٌ يخدمُه كلُّ شيء، وأن منابع الإيمان فى نفس الإنسان تنبجس[1] من علم عميق محيط دارس للكون، دراسة ملاحظة وتجربة واستقراء، لادراسة تخمين وظنون وخيال، وإذا لم تنبعث نهضتنا من هذا الأصل فلن تكون نهضة إسلامية صحيحة، وإن هذا العلم بالمادة، بالفطرة التي فطر الله الكون عليها، بالسنن التي تحكم هذا الكون علوه وسفله، وطوله وعرضه - أقول - إن هذا العلم ينظم الإنسان مع الملائكة فى الشهادة لله الكبير بالتوحيد والعدل، نعم إنّ أُولِي العِلم، والملأ الأعلى يُؤكدون هذه الحقيقة التى شهدَ اللهُ بها لنفسه فقال ﴿شهدَ اللهُ أنّهَ لاإلهَ إلّا هُوَ والملائكةُ وأُولُوا العلمِ قائماً بالقسطِ لاإلهَ إلّا هو العزيزُ الحكيم﴾[2].

ولذلك فنحن لانستطيع أن نتصور داعية إلى الله، يدعو الناس إلى الوحدانية دون أن يلفت نظرهم إلى مايحيط بهم من آثار القادر سبحانه، فهذا الوجود الذى أمامك هو كتاب الله المنشور، وهذه الكائنات العجيبة التى تملؤهُ هي سطور حية تقرأ فيها قدرته سبحانه، وعلمه، وحكمته، وكرمه ووِدّه، وعظمته﴿وفي الأرضِ آياتٌ للموقنين وفي أنفسِكُم أفلا تُبْصِرُون﴾[3]، وهكذا يكون نهج المسلم فى عرض عقيدته، نهجاً يترك أثره الطيب فى القلوب فيحييها- بإذن الله- كما يحيي الأرض بعد مَوَاتِها.

٥- الأنفسُ والآفَاقُ صِنْوَان:

وكما وجهنا المولى عز وجل، للتفكير والنظر، والتأمل والتدبر فى الكون ومافيه من شمس، وقمر، ونجوم وكواكب، وليل ونهار، وبحار وأنهار، ونبات وجماد، وكل مافيه ومن فيه، كذلك وجهنا إلى النظر إلى الناس وخلقه فكما قال﴿قُلِ انْظُرُوا ماذَا في السّمواتِ والأرضِ وماتُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لايُؤمنون﴾[4] قال﴿قُلْ سِيرُوا في الأرضِ فانظرُوا كيفَ بَدَءَ الخَلْقَ ثم اللهُ يُنْشِيءُ النشأةَ الآخرةَ إنّ اللهَ

(١) تنبجس: تنفجر- مختار الصحاح مادة: بجس.
(٢) سورة آل عمران: ١٨.
(٣) سورة الذاريات: ٢٠-٢١.
(٤) سورة يونس: ١٠١.

على كلِّ شيءٍ قدير﴾[1] وقال ﴿فلينظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ﴾.[2]

إنها دعوة من الله بل أمرٌ منه سبحانه وتعالى بالتفكر والتدبر فى خلق الإنسان الذي ﴿خُلِقَ مِنْ ماءٍ دَافِقٍ يخرجُ منْ بينِ الصُّلْبِ والتَّرائب﴾[3]، وكما جعل نتيجة النظر والتأمل فى خلق السموات والأرض أحدُ الأدلة على قدرة الله لإعادة الخلق والبعث والحساب، فإنه جعل أيضاً النظر فى خلق الإنسان والتأمل فى خلقه دليلاً أيضاً على هذا اليوم الذي لاريب فيه وهذا أكبر دليل على أنه رب الوجود كله واحد أحد ندين له بالوحدانية، فانصت إليه سبحانه وهو يقول ﴿إنّه علىٰ رجعهِ لقادرٌ، يومَ تُبلَى السّرائرُ﴾[4] وبنفس الأسلوب يدلل على هذا اليوم الذى يبعث فيه المولى الناس فيقول عزَّ من قائل ﴿أيحسَبُ الإنسانُ أنْ يُتْرَكَ سُدىً، ألمْ يَكُ نطفةً من مني يُمنىٰ، ثم كان علقةً فخلقَ فسوَّى، فجعلَ منه الزوجينِ الذَّكَرَ والأنثىٰ، أليسَ ذلكَ بقادرٍ على أن يُحييَ الموتىَ﴾[5]، ويجعل سبحانه من مراحل خلق الإنسان ومراحل نموه آية على قدرته، فيقول وهو أصدق القائلين ﴿هو الذي خلقكُم من تُرابٍ، ثم مِن نطفةٍ، ثم من علقةٍ ثم يُخرِجُكم طِفلاً، ثم لتبلغُوا أشُدَّكم، ثم لتكونُوا شيوخاً ومنكم من يُتوفَّى من قبلُ ولتبلغُوا أجلاً مُسمّىً ولعلَّكُم تعقِلُون، وهو الذي يُحيي ويُميتُ فإذا قضىٰ أمراً فإنّما يقولُ له كُنْ فيكون﴾[6].

ويوم أنكر الكافر الأحمق الذى جاء بعظم وفتته وكسره ووضعه أمام النبي ﷺ، وقال فى استهزاء: أترى يامحمد أن الله يحيي هذه العظام بعدما أرمت وبليت؟ فأجابه رسول الله ﷺ، بما يصلح لأمثاله من منكري البعث فقال له: «نعم يحييها ويبعثك ويدخلك النار».

وكان رسول الله ﷺ قادراً على أن يكتفي بإجابة﴿نعم يحييها﴾ وإنما أردف بقوله

---

(١) سورة العنكبوت: ٢٠.
(٢) سورة الطارق: ٥.
(٣) سورة الطارق: ٧.
(٤) سورة الطارق: ٨ـ٩.
(٥) سورة القيامة: ٣٦ـ٤٠.
(٦) سورة غافر: ٦٧.

ويبعثك ويدخلك النار، وذلك ليلقمه حجراً هو ومن على شاكلته من منكري البعث الذين يكشف القرآن زعمهم فيقول ﴿زعمَ الذينَ كفرُوا أنْ لنْ يُبْعَثُوا قُلْ بلىٰ وربِّي لتبعثُنّ ثم لتنبّؤنّ بما عملتمْ وذلكَ علىٰ اللهِ يسير﴾[1]، وهل كفروا إلا بالواحد الأحد؟

وتعال معى لننصت إلى كتاب الله وهو ينقل لنا صورة حية تترك أثرها العميق فى النفس، من هذا الحوار الذى دار بين رسول الله ﷺ وذلك الكافر الذى أنكر البعث والنشور فيقول القرآن ﴿أوَلمْ يرَ الإنسانُ أنّا خلقناهُ من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبين وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خلقَهُ قالَ مَنْ يُحيي العظامَ وهي رميمٌ، قُلْ يُحييها الذي أنشأها أوّلَ مرّةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليم، الذي جعل لكم مِنَ الشّجرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتمْ منهُ تُوقِدُون، أوَ ليسَ الذي خلقَ السّمٰواتِ والأرضَ بقادرٍ على أنْ يخلُقَ مِثْلَهم بلىٰ وهو الخلاقُ العليمُ، إنّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أنْ يقولَ لهُ كُنْ فيكونُ، فسُبْحَانَ الذي بيدهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ وإليهِ تُرْجَعُون[2]﴾.

وكثيراً مايجمع القرآن بين السماء والأرض وذلك المخلوق خليفة الله في الأرض، أو بين الأنفس والآفاق في آية واحدة، أو آيات متتالية تبين قدرة الله القادر وتوضح الترابط بين الإنسان والكون، وهاك مثالاً على ذلك في قول المولىٰ سبحانه وتعالى ﴿ياأيها النّاسُ إنْ كنتُمْ في ريبٍ مِنَ البعثِ فإنّا خلقناكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثم مِنْ نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ مخلّقةٍ وغيرِ مخلّقةٍ لنبيّنَ لكم ونُقِرُّ فى الأرحامِ مانشاءُ إلى أجلٍ مُسَمّى ثم نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثم لتبلغُوا أشدَّكم ومنكم مَنْ يُتوفّى ومنكم مَنْ يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ لكيلا يعلمَ مِنْ بعدِ علمٍ شيئاً، وترىٰ الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربتْ وأنبتتْ من كلِّ زوجٍ بهيج، ذلكَ بأنّ اللهَ هو الحقُّ وأنّه يُحيي الموتَى وأنّه علىٰ كلِّ شيءٍ قدير، وأنّ الساعةَ آتيةٌ لاريبَ فيها وأنّ اللهَ يبعثُ مَنْ في القُبور﴾[3].

والمتأمل فى آيات الله يرى ارتباطاً متلازماً بين الكون والإنسان بل يرى تعاوناً وثيقاً بينهما لتستمر الحياة إلى أن يشاء الله، وليعان علىٰ تأدية رسالته، ويحفظ نوعه ويستمر

---

(١) سورة التغابن: ٧.
(٢) سورة يس: ٧٨_٨٣.
(٣) سورة الحج: ٥_٧.

فى الحياة دون عناء..

وتعال لنتأمل وضع الأرض أمام الشمس، من الذى وضعها هكذا بإحكام على مساحة معينة دون أن تتقدم عنها أو تتأخر، إنها أن نقصت بحيث ازداد قربها للشمس احترقت أنواع الأحياء من نبات وحيوان ولاستحالت الحياة هانئة هادئة ذَلُولاً ولوبعدت لعم الجليد والصقيع وجه الأرض ولهلك الزرع والضرع، فهلّا سألتَ نفسك مَنْ قدر هذا وأحسن خلقه سبحانه؟ إنه القائل ﴿إنّا كلَّ شيءٍ خلقناهُ بقَدَرٍ﴾[1].

ثم تأمل معي وضع القمر فإنه لواقترب لسحب أمواج المحيطات سحباً يغطى وجه الأرض كلها ثم ينحسر منها وقد تلاشى كل شيء.. فماذا يقولون عن هذه السنن الربانية والقوانين الإلهية؟ أهي الصدفة العمياء ـ كما يقولون ـ؟ إن الذي خلقَ هذا كله هو الخبير البصير بالعباد.

ماأطيب ماقاله الشهيد الشيخ حسن البنا رضوان الله عليه ليوضح لنا هذه القضية:

«أنت إذا نظرت إلى هذا الكون ومافيه من بدائع الحكم، وغرائب المخلوق ودقيق الصنع، وكبير الإحكام، مع العظمة والاتساع، والتناسق والإبداع، والتجدد والاختراع، ورأيت هذه السماء الصافية بكواكبها وأفلاكها، وشموسها وأقمارها ومداراتها، ورأيت هذه الأرض بنباتها وخيراتها، ومعادنها وكنوزها وعناصرها وموادها، ورأيت عالم الحيوان ومافيه من غرائب الهداية والإلهام، بل لو رأيت تركيب الإنسان ومااحتواه من أجهزة كثيرة، كلٌّ يقوم بعمله، ويُؤدّي وظيفته، ورأيت عالم البحار ومافيه من عجائب وغرائب وعرفت القوى الكونية ومافيها من حكم وأسرار من كهرباء ومغناطيس وأثير وراديوم، ثم انتقلت من النظر إلى ذوات العالم وأوصافها إلى الروابط والصلات فيما بينها، وكيف أن كلاً منها يتصل بالآخر اتصالاً محكماً وثيقاً بحيث يتألف من مجموعها وحدة كونية كل جزء منها يخدم الأجزاء الأخرى كما يخدم العضو فى الجسم الواحد بقية الأعضاء، لخرجت من كل ذلك ـ من غير أن يأتيك دليل أو برهان، أو وحي أو قرآن ـ بهذه العقيدة النظرية السهلة وهي أن لهذا الكون خالقاً صانعاً موجداً، وأن هذا الصانع لابد أن يكون عظيماً فوق مايتصور العقل البشرى الضعيف من العظمة وقادراً فوق مايفهم الإنسان من معانى الحياة، وأنه مستغن عن كل هذه المخلوقات، لأنه كان

---

(١) سورة القمر: ٤٩.

قبل أن تكون، وعليماً بأوسع حدود العلم، وأنه فوق نواميس هذا الكون لأنه واضعها، وأنه قبل هذه الموجودات لأنه خالقها، وبعدها لأنه الذى سيحكم عليها بالعدم، وإجمالاً سترى نفسك مملوءاً بالعقيدة بأن صانع هذا الكون ومدبره متصف بكل صفات الكمال فوق مايتصورها العقل البشرى الصغير، ومنزه عن كل صفات النقص، وسترى هذه العقيدة وحي وجدانك لوجدانك، وشعور نفسك لنفسك ﴿فطرةَ اللهِ التي فطرَ النّاسَ عليها لاتبديلَ لخلقِ اللهِ ذلكَ الدّينُ القيم﴾[1]

٦ـ من غرائب هذا الكون:

ونسوق إليك بعد هذه المقدمة بعض غرائب الحوادث فى هذا الكون، وسترى أنها على قلتها، بالنسبة لعظمة الكون ومافيه من دقة وإحكام ستكون كافية لأن تشعر فى نفسك بماقدمت لك.

الملاحظة الأولى: هذا الهواء الذى نستنشقه مركب من عدة عناصر، منها جزءان هامان جزء صالح لتنفس الإنسان ويسمى باصطلاح الكيميائيين(الأوكسجين) وجزء ضار به ويسمى (الكربون) فمن دقائق الارتباط بين وحدات هذا الموجود المعجز أن هذا الجزء الضار بالإنسان يتنفسه النبات وهو نافع له، ففي الوقت الذى لايكون الإنسان فيه يستنشق الاوكسجين ويطرد الكربون يكون النبات يعمل عكس هذه العملية، فيستنشق الكربون ويطرد الاوكسجين، فانظر إلى الرابطة التعاونية بين الإنسان والنبات في شيء هو أهم عناصر الحياة عندهما، وهو التنفس، وقل لي بعد ذلك، هل يفعل هذا في الكون العظيم غير عظيم قادر واسع العلم، دقيق الحكمة؟

الملاحظة الثانية: أنت تأكل الطعام وهو يتركب من عدة عناصر نباتية وحيوانية يقسمها العلماء إلى مواد زلالية، أو نشوية، أو دهنية، مثلاً فترى أن الريق يهضم بعض المواد النشوية، ويذيب المواد السكرية ونحوها ممايقبل الذوبان، والمعدة يهضم عصيرها المواد الزلالية كاللحم وغيره، والصفراء المنفرزة من الكبد تهضم الدهنيات، وتجزئها إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها، ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك فيفرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منها تتميم الهضم في عنصر من العناصر الثلاثة: النشوية أو الزلالية أو الدهنية، والرابعة تحول اللبن إلى جبن، فتأمل هذا الارتباط

---

(١) سورة الروم: ٣٠.

العجيب بين عناصر الجسم البشرى، وعناصر النبات والحيوان والأغذية التي يتغذى بها الإنسان.

الملاحظة الثالثة: ترى الزهرة فى النبات فترى لها أوراقاً جميلة جذابة ملونة بألوان بهيجة، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك، أجابوك بأن هذا إغراء للنحل وأشباهه من المخلوقات التي تمتص رحيق الأزهار لتسقط على الزهرة حتى إذا وقفت على عيدانها علقت حبوب اللقاح وانتقلت من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتم التلقيح، فانظر كيف جعلت هذه الأوراق الجميلة فى الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان حتى يستخدم النبات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج.

كل مافي الكون ينبئك بوجود حكمة عالية، وإرادة سامية، وسيطرة قوية ونواميس في غاية الدقة والإحكام يسير عليها هذا الوجود، ورب هذه الحكمة، وصاحب هذه العظمة، وواضع هذه النواميس هو: الله.

وقد أفاض القرآن في ذلك، ليلفت الأنظار إلى هذه الحكم البارعة، والأسرار العالية، فلاتكاد تخلو سورة من سوره من ذكر آلاء الله ونعمه، ومظاهر قدرته وحكمته، وحث الناس على تجديد النظر في ذلك ودوام التفكر فيه. قال تعالى ﴿ومن آياته أنْ خلقكُم مِنْ ترابٍ، ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشِرُون، ومن آياتهِ أنْ خلقَ لكم مِنْ أنفسِكُم أزواجاً لتسكنُوا إليها وجعلَ بينكم مودّةً ورحمةً، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرُون، ومن آياته خَلْقُ السمٰواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتِكُم وألوانِكم إنّ في ذلكَ لآياتٍ للعالِمِين، ومن آياتهِ منامكم بالليلِ والنّهارِ وابتغاؤُكُم من فضلهِ إنّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يسمعُون، ومن آياتهِ يُريكمُ البَرْقَ خوفاً وطمعاً ويُنزِّلُ مِنَ السّماءِ ماءً فيُحيي به الأرضَ بعدَ موتِها، إنّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يعقِلُون[1]﴾.

٧ـ حقيقة لامفرّ منها:

إن القرآن بعد أن بث بين دفتيه دلائل قدرة الله ووحدانيته وضع العقل بهذه الصورة أمام الحق الذى يقرره فإما أن يعترف به وإما أن يجحد ويكابر، واقرأ إن شئت قوله

---

(١) سورة الروم: ٢٠ـ٢٤.

تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا من غيرِ شيءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُون؟ أَمْ خلَقُوا السّموَاتِ والأرضَ بلْ لايُوقِنُون﴾[1] فهو سبحانه يستفهم ليستثير عقولهم عن حقيقة وجودهم، هم أنفسهم، وهي حقيقة قائمة لامفر من مواجهتها، ولاسبيل لهم إلى تفسيرها بغير مايقوله القرآن، سواء بالنسبة لهم أو بالنسبة للسماوات والأرض من أن لهم خالقاً أوجدهم وأوجد السموات والأرض هو موجود بذاته وهم مخلوقون بديهية لاتستحق الكثير من الأدلة ولاالكثير من البراهين والحجج فهي حقيقة لايماري فيها عاقل.

وبنفس الأسلوب والإيقاع تهتز النفس وهي تسمع ﴿نحن خلقناكم فلولا تُصَدِّقُون، أفرأيتُمْ ماتمنُونَ أأنتم تخلقونَهُ أم نحنُ الخَالِقُون؟ نحنُ قدَّرنا بينكمُ الموتَ ومانحنُ بمسبوقِينَ علىٰ أن نُبدِّلَ أمثالكُم وننشِئَكُم فيما لاتعلَمُون، ولقد علمتمُ النّشأةَ الأُولَى فلولا تذكَّرُون، أفرأيتمْ ماتحرُثُون؟ أأنتم تزرعونَهُ أمْ نحنُ الزّارِعُون لونشاءُ لجعلنَاهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تفكّهون، إنّا لَمُغْرَمُون بلْ نحنُ محرومُون، أفرأيتُمُ الماءَ الذي تشرَبُون أأنتم أنزلتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أم نحنُ المنزِلُون، لو نَشَاءُ جعلنَاهُ أُجَاجاً فلولا تشكرُون، أفرأيتُمُ النَّارَ الّتي تُورون؟ أأنتمْ أنشأتمْ شجرتَها أمْ نحنُ المنشِئُونَ، نحنُ جعلنَاهَا تذكرةً ومتاعاً للمقوِين﴾[2].

بهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى، والنشأة الآخرة والكون ومافيه، وبهذه البساطة يشد الإنسان بفطرته أمام المنطق الذي تعرفه ولاتملك أن تجادل فيه بلا تعقيد ولاتجريد، ولافلسفة تكد الأذهان، ولاتبلغ الوجدان إنها طريقة الله مبدع الكون وخالق الإنسان ومنزل القرآن..

أرأيت كيف أن منهاج القرآن في إرساء العقيدة هو منهاج فريد يخاطب عقلك ووجدانك، قلبك وفؤادك، فيستثير العقل ويستجيش القلب، ويقف بك أمام بديهية لاتحتاج إلى دقة تأمل وعمق تفكير وطول تدبر لبساطتها ووضوحها للناس كافة على اختلاف مستوياتهم ﴿أمْ خُلِقُوا من غيرِ شيءٍ أمْ هُمُ الخَالِقُون؟ أمْ خلقُوا السّموَاتِ والأرضَ بلْ لايُوقِنُون، أمْ عندَهُمْ خزائنُ ربِّكَ أمْ هُمُ المُصَيْطِرُون؟﴾ واسمع إلى مارواه

---

(١) سورة الطور: ٣٥.

(٢) سورة الواقعة: ٥٧_٧٣.

البخاري عن جبير بن مطعم ـ وكان من أسرى بدرـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غيرِ شيءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُون، أَمْ خَلَقُوا السَّمواتِ والأرضَ بلْ لايُوقِنُون، أَمْ عندَهُمْ خزائنُ ربِّكَ أَمْ هُمُ المُصَيْطِرُون؟﴾[1] كاد قلبي أن يطير وجبير بن مطعم هذا قدم على النبي ﷺ بعد الغزوة ـ غزوة بدرـ فى فداء الأسرى وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ماحمله على الدخول فى الإسلام[2].

وبهذا التقرير الواضح وهذا المنهج البسيط وهذه الحقيقة الناصعة، يعلم المؤمن أن الله سبحانه وتعالى ماخلق السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى وأنه سبحانه على كل شيء قدير وأنه قد أحاط بكل شيء علماً، وهذا يقينُ مَنْ شرحَ اللهُ صدورَهُم للإيمان فهم على نور من ربهم فيوقنون بأن هذا هو الحق الذى يسعدهم في الدنيا والآخرة.

أما الذين ضلوا الطريق إلى الله ولم يتعرفوا على الحق أو عرفوه وجحدوه فقد حُرِمُوا نعمةَ العقل ونورَ القلب فليس لهم حظ من التدبر والتأمل والإدراك أو غرّهم علمهم وأضلهم فاتخذوا إلٰههم هَوَاهُم فخيّلَ إليهم أنهم قادرون على أن يبتغوا نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء لبلوغ الأسباب فيطلعوا على الاله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ فساروا في صحراء قاحلة كلما رأوا سراباً حسبوه ماء﴿حتى إذا جاءه لم يَجِدْهُ شيئاً ووجدَ اللهَ عندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابه﴾[3]، هؤلاء يعيشون كالسائمة سواء بسواء ﴿يتمتعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ والنّارُ مثوىً لهم﴾[4] لايلفت نظرهم تناسق الكون وجماله ولابديع صنعه ولايوقظ مشاعرهم الليل إذا عسعس، ولا الصبح إذا تنفس ﴿لهم قلوبٌ لايفقَهُونَ بها ولهم أعينٌ لايُبصِرُونَ بها ولهم آذانٌ لايسمَعُونَ بها أولئكَ كالأنعامِ بلْ هُمْ أضلُّ، أولئكَ هُمُ الغَافِلُون﴾[5] فهل يستوون وأولوا الألباب الذين يتفكرون ويتدبرون

---

(١) سورة الطور: ٣٧.
(٢) مختصر ابن كثير، جزء ٣، ص٣٩٣.
(٣) سورة النور: ٣٩.
(٤) سورة محمد: ١٢.
(٥) سورة الأعراف: ١٧٩.

خَلْقَ اللهِ ويقولُون: ﴿إِنّ في خَلْقِ السّمٰواتِ والأرضِ واختلافِ اللّيلِ والنّهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ الّذينَ يذكرُونَ اللهَ قِياماً وقُعُوداً وعلىٰ جُنوبِهم ويتفكّرُونَ في خَلْقِ السّمٰواتِ والأرضِ ربّنا ماخلقتُ هذا باطلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عذابَ النّارِ﴾[1] ورضوان الله عليك يابلال بن رباح حين سأل رسول الله ﷺ ، وقد رآه يبكي فسأله عن سبب بكائه، فقال رسول الله ﷺ: ويحك يابلال ومايمنعني أن أبكي وقد أنزل الله على هذه الليلة ﴿إِنّ في خَلْقِ السّمٰواتِ والأرضِ واختلافِ اللّيلِ والنّهارِ لآياتٍ لأولي الألباب ـ حتى قولهِ ـ فَقِنَا عذابَ النّار. . .﴾ الآيات، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها[2] .

فكيف لانتفكر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وهذا الكون بذاته كتاب مفتوح، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته، ويُوحي بأن وراءه يداً تدبره بحكمة، كمايوحي بأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة، وحساباً وجزاء، ولاشك أن الذي يدرك الدلائل ويقرأ هذه الآيات، ويرى هذه الحكمة ويسمع هذه الإيحاءات هم أولوا الألباب من الناس الذين لايمرون بهذا الكتاب المفتوح وبهذه الآيات الباهرة مغمضي الأعين غير واعين ﴿إِنّما المؤمِنُونَ الّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهم وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُهُ زادتْهُم إيماناً وعلىٰ ربّهم يتوكّلُون﴾[3] .

وهذه الحقيقة ـ حقيقة التفكر والتدبر ـ التى دعانا إليها رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، تمثل إحدى مقامات التصور الإسلامي عن هذا الكون والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الإنسان، والتفاهم الداخلي الوثيق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان، ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة، وعلى الناموس الذى يصرفه ومايصاحبه من غاية وحكمة وقصد من جهة أخرى، وهي ذات أهمية بالغة في تقرير موقف الإنسان من الكون وإلٰه الكون سبحانه وتعالى، فهي ركيزة من ركائز التصور الإسلامي للوجود[4] .

إن من يستمع إلى هذا القرآن يشعر أن هناك شيئاً ماوراء المعانى التى يدركها العقل من التعبير وأن هناك عنصراً ماينسكب فى الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن يدركه

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠ـ١٩١.
(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى كتابه «التفكر».
(٣) سورة الأنفال: ٢.
(٤) خصائص التّصور الإسلامي: لسيّد قطب، رحمه الله تعالى.

بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود، ثم تأتي بعد ذلك الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير كله، في التصور الكامل الصحيح الذى ينشئه في الحس والقلب والعقل، التصور لحقيقة الوجود الإنساني، وحقيقة الوجود كله، وللحقيقة الأولى التى تنبع منها كل حقيقة، حقيقة الله سبحانه وتعالى[1].

---

(١) في ظلال القرآن: لسيّد قطب ج٦/ بتصرف.

البحث الثالث

التفسير العلمى للقرآن بين المنهج القديم والمنهج الحديث

فخر الدين الرازي والتفسير العلمي:[1]

جاء بعد الإمام الغزالي فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ، فطبق فى تفسيره(مفاتيح الغيب) ما جدَّ في البيئة الإسلامية من ثقافة فكرية على آيات القرآن الكريم، مستدلاً بذلك على وحدانية الله تعالى وقدرته وإدارته وواسع علمه.

والرازي هو القائل في مقدمة تفسيره لسورة الفاتحة:

«اعلم أنه جرى على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة ـ الفاتحة ـ يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد وقوم من أهل الجهل والغي والعناد، وحملوا ذلك على ماألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني. فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ماذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول»[2].

وإذا كان الغزالي ومن قبله قد وضعوا الأسس النظرية للتفسير العلمي فإن الرازي قد طبق ذلك عملياً، وسنذكر أمثلة يتضح منها طريقته في تناوله تفسير بعض الآيات الكونية.

فهو في تفسير قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً...﴾[3]

---

(١) التفسير العلمي للقرآن في الميزان: أحمد عمر أبو حجر ص١٥٠ـ١٥٦/. ط دار قتيبة ـ دمشق.

(٢) مفاتيح الغيب: للرازي ج١/ ١/.

(٣) سورة البقرة آية ٢٢/.

الآية. يذكر أن كون الأرض فراشاً مشروط بأمور:

الأول: كونها ساكنة، وذلك لأنها لوكانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو بالاستدارة، فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشاً على الإطلاق، لأن من طفر من موضع عال كان يجب ألاّ يصل إلى الأرض، لأن الأرض هاوية وذلك الإنسان هاو، والأرض أثقل من الإنسان، والثقيلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما والأبطأ لايلحق الأسرع فكان يجب ألاّ يصل الإنسان إلى الأرض، فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشاً.

أما لوكانت حركتها بالاستدارة لم يكن انتفاعنا بها كاملاً، لأن حركة الأرض - مثلاً - لوكانت إلى المشرق، والإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب، ولاشك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى على مكانه وأنه لايمكنه الوصول إلى حيث يريد فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة بالاستقامة ولا بالاستدارة فهي ساكنة»[1]

ثم ذهب الرازي يذكر سبب هذا السكون الذى اعتقد أنه تمت له البرهنة عليه، مع أنه قد أصبح من المسلم به الآن أن الأرض متحركة وليست ساكنة، ولها دورتان: الأولى حول نفسها والثانية حول الشمس.

وقد يلتمس العذر للإمام الرازي في رأيه هذا بأن الأرض لما كانت متسعة جداً ولاتشاهد الحركة فيها في نظر العين المجردة كان القول بسكونها هو الأقرب إلى العقل، وأما حركتها فلاتثبت إلا بدليل، وهو لم يكن ليعلم إلا بإجراء التجارب والملاحظة.

ولماذكر الرازي بقية الشروط التي قال إنها ضرورية ليتحقق كون الأرض فراشاً لنا، نراه يرد على من زعم أن الأرض ليست كرة مستدلاً بهذه الآية فيقول: «ومن الناس من زعم أن الشرط في كون الأرض فراشاً ألاّ تكون كرة، واستدل بهذه الآية، وهذا بعيد جداً، لأن الكرة إذا عظمت جداً كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الاستقرار عليه.

والذي يزيده تقريراً أن الجبال أوتاد الأرض ثم يمكن الاستقرار عليها، فهذا أولى[2].

---

(١) مفاتيح الغيب: للرازي ج١/ ٢٢٣.
(٢) مفاتيح الغيب ج١/ ٢٢٥.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إنّ في خَلْقِ السّمٰواتِ والأرضِ واختلافِ اللّيلِ والنّهارِ والفُلْكِ التي تجري في البحرِ بماينفعُ النّاسَ وماأنزلَ اللهُ منَ السّماءِ منْ ماءٍ فأحيَا بهِ الأرضَ بعدَ موتِها وبثّ فيها منْ كلّ دابّةٍ وتصريفِ الرّيَاحِ والسّحَابِ المُسَخّرِ بينَ السّماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقلُونَ﴾[1] . يعود إلى الأسلوب العلمي فسيتدل بهذه الآية على وجودِ اللهِ وعلى وحدانيتهِ وبراءتهِ من الضّدّ والنّدّ، ويجد فيها ثمانية أنواع من الدلائل على ذلك ويعددها كما جاءت في الآية.

وقبل أن يعرض الرازي لهذه الأدلة بالتفصيل ويبين كيفية الاستدلال بهذه الأحوال على وجود الخالق ووحدانيته يثير عدة مسائل تتصل بالآية من بينها سبب نزولها، ثم يعود بعد إثارة هذه المسائل إلى بيان كيفية الاستدلال بأحوال السموات والأرض واختلاف الليل والنهار. . . إلى آخر ماورد في الآية الكريمة.

فبدأ بالنظر في أحوال السماء فطرق موضوعات كثيرة من علم الفلك وعقد لذلك فصولاً: (الفصل الأول) في ترتيب الأفلاك و(الثاني) في معرفة الأفلاك و(الثالث) في مقادير الحركات و(الرابع) في كيفية الاستدلال بهذه الأحوال على وجود الخالق.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان معرفة الأفلاك ومقادير حركاتها ويستعرض في ذلك آراء بطليموس وآراء الفلكيين القدماء من الهنود والصينيين والبابليين والمصريين وعلماء الروم والشام، ويعترض عليهم أحياناً.

ثم رجع إلى الأرض وذكر في أحوالها فصلاً، وفي بيان دلالة هذه الأحوال على وجود الخالق فصلاً آخر، وفي بيان أحوال السماء على وجود الخالق يذكر أربعة عشر وجهاً ترجع جميعها إلى أن الأفلاك رغم اتفاقها في الطبيعة الفلكية إلا أن كلاً منها قد اختص بمقدار معين وحيز معين وشكل معين وحركة معينة وترتيب معين وائتلاف معين ولون معين.

ولابد من مُخصّصٍ مُدَبّرٍ يخصص كلاً منها بمقداره وحيزه وشكله وحركته ولونه، ويجعلها على هذا الترتيب العجيب.

ثم يمضي الرازي على هذا النمط في بيان أحوال الأرض وسائر ماجاء في الآية

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٤/ .

الكريمة من الدلائل التي يستدل بها على وجود الله[1] .

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللّيلَ النّهارَ يطلبهُ حثيثاً والشّمسَ والقمرَ والنُّجومَ مسخّراتٍ بأمرهِ ألاَ لهُ الخَلْقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمين﴾[2] .

تكلم على حركة الشمس وحصول الليل والنهار، وعلى حركات الأفلاك. ثم نجده يستشعر استغراب المطالع لتفسيره جلب تلك المسائل المغرقة في علم الهيئة والفلك فيعود إلى التوبة بمنهجه والتعريض بأصحاب التفاسير الآخرين، فيقول:

«وربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال: إنك أكثرت في تفسير كتاب الله تعالى من علم الهيئة والنجوم، وذلك على خلاف المعتاد».

فيقال لهذا المسكين: إنك لوتأملت في كتاب الله تعالى حق التأمل لعرفت فساد ماذكرته... ثم قرر ذلك من وجوه.

الأول: إن الله تعالى ملأ كتابه بمثل تلك الاستدلالات الكونية، فلولم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالها جائزاً لماملأ الله كتابه منها.

الثاني: إنه تعالى قال: ﴿أفلَمْ ينظرُوا إلى السّماءِ فوقَهُمْ كيفَ بنيناهَا وزيّنّاهَا ومالهَا من فُروج﴾[3] . فهو قد حث على التأمل في كيفية بنائها، ولامعنى لعلم الهيئة إلا هذا.

الثالث: إن الله تعالى رغّب التأمل في أبدان الناس بقوله: ﴿وفي أنفسِكم أفلا تُبصِرُون﴾[4] فما كان أعلى شأناً وأعظم برهاناً منها أولى بأن يجب التأمل في أحوالها ومعرفة ماأودع الله فيها من العجائب والغرائب.

الرابع: إن الله تعالى مدح المتفكرين في خلق السموات والأرض، ﴿ويتفكّرون في خلقِ السّمٰواتِ والأرضِ ربَّنا ماخلقتَ هذا باطلاً سبحانَكَ﴾[5] ولوكان ذلك ممنوعاً منه لما فعل.

الخامس: إن الناس في ذلك التفكر على درجتيَن: منهم من يكتفي بالاستدلال

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢/ ٥٦-٧٠.

(٢) سورة الأعراف/ آية ٥٤/ .

(٣) سورة ق آية/ ٦/ .

(٤) سورة الذاريات آية ٢١/ .

(٥) سورة آل عمران آية/ ١٩١/ .

الإجمالي، ومنهم من يسمو إلى الاستدلال التفصيلي، وإن لكثرة الدلائل وتواليها أثراً في تقوية اليقين وإزالة الشبهات.

ثم ختم هذا البيان بقوله:

«فإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار لالتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية من الفوائد والحكايات الفاسدة، نسأل الله العون والعصمة».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وإنّ لكم في الأنعام لِعبرَةً نُسقيكُمْ ممّا في بطونهِ من بين فَرْثٍ ودَمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشّاربين﴾ نجده في هذا الموضع أمام أثر يرويه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال:

« إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً وأعلاه دماً وأوسطه لبناً، فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث كماهو، فذلك هو قوله تعالى:﴿من بينِ فَرْثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ لايشوبه الدم ولاالفرث.

فيقف الرازي أمام هذا الأثر موقف الناقد الواثق من علمه، البصير بما توصل إليه العلم في عهده في شأن اللبن وفي كيفية تكونه داخل الجسم: جسم الأنثى من الإنسان والحيوان، من الغذاء والدم، فلايتردد في رد هذا الأثر قائلاً: «والشيء الذي دلت المشاهدة على فساده لم يجز المصير إليه. الدليل الحسي لايثبت ذلك، فإن هذه الحيوانات تذبح ومارأى أحد في كرشها لادماً ولالبناً.

بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف إلى معدته إن كان إنساناً وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها، فإذا طبخ وحصل الهضم الأول فيه فماكان منه صافياً انجذب إلى الكبد، وماكان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذى يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها ويصير دماً، وذلك هو الهضم الثاني، ويكون ذلك الدم مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية. أما الصفراء فتذهب إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والماء إلى الكلية ومنها إلى المثانة. وأما ذلك الدم فإنه يدخل إلى الأوردة وهي العروق النابتة على الكبد وهنا يحصل الهضم الثالث، وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة، فينصب الدم في تلك العروق إلى الضرع، والضرع لحم غددي رخو أبيض، فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو الأبيض من صورة الدم إلى صورة اللبن.

ثم يقول: فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولد اللبن[1].

فهو بذلك لايتردد في الأخذ بحقائق الأشياء التي تثبتها التجربة وتدعمها المشاهدة، وتفسرها حقائق العلم.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وأوحىٰ ربُّكَ إلى النّحلِ أنِ اتّخِذِي منَ الجبالِ بُيوتاً ومنَ الشّجرِ وممّايعرِشُون ثمّ كُلِي من كلّ الثّمراتِ فاسْلُكِي سُبُلَ ربّكِ ذُلُلاً يَخرُجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُهُ فيه شفاءٌ للنّاس﴾[2]، يطيل القول في وصف بيوت النحل ودقة هذه البيوت، والعجائب التي في خلق النحل، وكيف أن هذه البيوت مبنية بطريقة هندسية عجيبة، وكيف اهتدت النحل إلى الأجزاء العسلية من أطراف الأشجار والأوراق، فيثير عدة مسائل[3].

هذا، وقد قصد الرازي من تفسيره للآيات الكونية على هذا المنهج أن يبين تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرق الفلسفية، وانفراد القرآن بهداية العقول البشرية إلى غايات الحكمة عن طريق العصمة.

ولهذا نجده يكتب في وصيته التي أملاها وهو على فراش الموت:

«لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتُها تشفي عليلاً ولاتروي غليلاً... ثم يقول: ومَنْ جرّب مثلَ تجربتي عرف مثلَ معرفتي»[4].

موقف ابن أبي الفضل المرسي من التفسير العلمي[5]:

لقد كان موقفه من هذا أنّ الله تبارك وتعالى جمع علوم الأولين والآخرين في القرآن العظيم كما نقل ذلك عنه الحافظ السيوطي في كتابيه: «الإتقان في علوم القرآن ج٢/ ١٢٦ـ١٢٨» و«معترك الأقران في إعجاز القرآن ج١/ ١٧ـ٢٢» حيث يقول:

---

(١) مفاتيح الغيب ج٥/ ٣٣٦ـ٣٣٧/.

(٢) سورة النحل آية/ ٦٨/ ٦٩/.

(٣) مفاتيح الغيب ج٥/ ٣٣٩/.

(٤) درء تعارض العقل والنقل: لشيخ الإسلام ابن تيمية ج١/ ٦٠/ وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج١/ ٩٣/.

(٥) ابن أبي الفضل المرسي هو محمد بن محمد بن عبدالله بن أبي الفضل المرسي[ت٦٥٥هـ] كان إماماً في القراءات واللغة والنحو، وكان يحفظ صحيح مسلم مجرّداً عن السند/ معجم الأدباء ج١٨/ ٢٠٩ـ٣١٢.

جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها ثم رسول الله ﷺ خلا ماستأثر به سبحانه وتعالى، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال: لوضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى.

ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ثم تقاصرت الهمم وفترة العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة وتابعون من علومه وسائر فنونه فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه

وبعد أن بيّن هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه قال:

وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك.

أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة. وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وكانَ بينَ ذلكَ قَوَاماً﴾[١]. وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة مع اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله: ﴿شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾[٢]. ثم ازداد على طب الأجساد طب القلوب وشفاء الصدور.

وأما الهيئة ففي تضاعيف سورة من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ومابث فيها في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك، ومناظرة ابراهيم نمروذ ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم[٣].

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل: إنّ أوائل السور فيها ذكر عدد وأيام وأعوام لتواريخ أمم سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة الدنيا ومامضى ومابقي مضروب بعضها في بعض.

وأما النجامة ففي قوله: ﴿أو أثارة من علم﴾[٤]، وقد فسره بذلك ابن عباس.

وذكر علوماً كثيرة مستشهداً على ثبوتها بآيات من القرآن الكريم، كما ذكر من أسماء الآلات وأنواع المأكولات وغير ذلك، محتجاً بقوله تعالى: ﴿مافرّطنا في

---

(١) سورة الفرقان آية /٦٧.
(٢) سورة النحل آية /٦٩.
(٣) سورة البقرة آية /٢٥٨.
(٤) سورة الأحقاف آية/ ٤.

الكتاب مِنْ شيءٍ﴾[1]

وهذا المنهج الذى انتهجه ابن أبي الفضل المرسي في بيان اشتمال القرآن على هذه العلوم والفنون هو منهج غريب وبعيد عن مقصد القران وهدايته، لأن هذه العلوم والفنون والصنائع والآلات التي ذكرها وجعلها من العلوم التي احتواها القرآن لم يكن المقصود في ورودها في القرآن وروداً عابراً اقتضاه المقام في ذكر قصة أو عظة وعبرة، أو الإشارة إليها في آيات القرآن تقريراً أنها علوم ومعارف وفنون أنزل القرآن بمسائلها وقضاياها وموضوعاتها لتبحث في تفسيره كما تبحث في مصانعها ومعاملها بآلاتها ووسائلها التجريبية الخاصة،لأن ذلك ممالا ينبغي أن يكون مما يعرض له القرآن. هذا من جهة. ومن جهة أخرى لوتأملنا في هذه الأمثلة التي ساقها وأخذ منها دلالتها على قضايا معينة هي في واقع الأمر لاتدل عليها.

وعلى سبيل المثال لاالحصر: أخذ من قوله تعالى: ﴿أو أثارةٍ مِنْ علم﴾ دلالتها على النجامة، مستشهداً بتفسير ابن عباس بذلك. مع أن التفسير السليم لها هو أن المراد بها(بقية من علم الأولين) بذلك فسرها ابن قتيبة. وأصل الكلمة من الأثر وهو الرواية. وبذلك يكون المعنى: أو بقية بقيت عندكم تروونها عن أهل العلم السابقين غير مسطورة في الكتب، وهو توسيع عليهم في أنواع الحجة ليكون عجزهم عن الإتيان بشيء من ذلك أقطع لعذرهم. فهم لايستطيعون الإتيان بحجة لامن جانب العقل ولامن جانب النقل المسطور المشار إليه بقوله تعالى: ﴿بكتابٍ مِنْ قبلِ هذا﴾ أو المأثور المشار إليه﴿أو أثارةٍ منْ علم﴾.

ولهذا نجد الشوكاني في تفسيره(فتح القدير) يسوق روايات من بينها رواية عن ابن عباس قال: «خط كان يخطه العرب في الأرض» ثم يعلق بقوله:

«ومن أين لنا أن هذه الخطوط الرملية(خط الرمل) موافقة لذلك الخط؟ وأين السند الصحيح، فليس مايفعله أهل الرمل إلاّ جهالات وضلالات»[2]

وكذلك أخذه من قوله تعالى: ﴿انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثلاثِ شُعَب﴾ دلالتها على قاعدة هندسية وهي أن الشكل المثلث لاظل له، في حين أن الآية تثبت ظلاً ولكنه مسلوب خصائص الظل، ذلك لأن من شأن الظل أن ينفس عن الذي يأوي إليه ألمَ الحرِّ، ولكن هذا الظل الذي يؤمر المكذبون بجهنم في الدنيا بالانطلاق إليه في الآخرة

---

(١) سورة الأنعام آية/ ٣٨/ .

(٢) فتح القدير ج٥ / ١٥/ .

وهو ظل لاظليل أي ليس هو مثل ظل المؤمنين الذي يقول الله في جزائهم: ﴿وَنُدْخِلُهُم ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾[١] . والمراد بالظل هنا في الآية التي استشهد بها: دخان جهنم لكثافته، عبّر عنه بالظل تهكماً بهم لأنهم يتشوقون إلى ظل يأوون إلى برده، والشعب جمع شعبة وهي الطائفة من الشيء، وأريد بها طوائف من الدخان، فإن النار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من طرفيها ووسطها، لشدة انضغاطه في خروجه منها[٢] .

الزركشي والتفسير العلمي:

بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة٧٩٤هـ، من العلماء الذين يرون أنه يمكن استخراج كل شيء من القرآن.

ولهذا نجده في كتابه(البرهان في علوم القرآن) ينقل أقوال بعض الصحابة في هذا الموضوع، كما ينقل أقوال الإمام الغزالي التي ذكرها في كتابه (إحياء علوم الدين)، فهو يعقد فصلاً في حاجة المفسر إلى الفهم والتبحر في العلوم يقول فيه:

«كتاب الله بحره عميق، وفهمه دقيق لايصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم وعامل الله بتقواه في السر والعلانية وأجلّه عند مواقف الشبهات.

واللطائف والحقائق لايفهمها إلا من ألقى السمع وهوشهيد، فالعبارات للعموم وهي للسمع، والإشارات للخصوص وهي للعقل، واللطائف للأولياء وهي المشاهد، والحقائق للأنبياء وهي الاستسلام...

وقد قال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: «لايفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً». وقال ابن مسعود: «من أراد علم الأولين والآخرين فَلْيُثَوِّرِ القرآنَ أي لينقل عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءاته»[٣] .

وقال ابن سبع(أبو الربيع سليمان بن سبع السبتي) في شفاء الصدور: «هذا الذي قاله أبو الدرداء وابن مسعود: لايحصل بمجرد تفسير الظاهر، وقد قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم ومابقي من فهمها أكثر. وقال آخر: القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ لكل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحدّ ومطلع.

---

(١) سورة النساء آية/ ٥٦ .

(٢) التحرير والتنوير/ ٢٩/ ٤٣٥/ .

(٣) البرهان في علوم القرآن: ج٢/ ١٥٤/ .

وبالجملة: فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله تعالى وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وصفاته وأفعاله، فهذه أمور تدل على أن في فهم القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس ينتهي الإدراك فيه بالنقل، والسماع لابد منه في ظاهر التفسير ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط.

والغرئب التي لاتفهم إلا باستماع فنون كثيرة ولابد من الإشارة إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها، ويعلم أنه لايجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولاً ولامطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر

ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب».

ثم يقول في فصل آخر من هذا الكتاب:

«إن في القرآن علم الأولين والآخرين، ومامن شيء إلا ويمكن استخراجه منه لمن فَهّمَهُ اللهُ تعالى، حتى أن بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ولنْ يُؤخِّرَ اللهُ نفساً إذا جاءَ أجلُها﴾[1] فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وأعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده.

وقوله تعالى مخبراً عن عيسى: ﴿قالَ إنّي عبدُ اللهِ آتانيَ الكتابَ وجعلنِي نبياً وجعلنِي مُباركاً أينَ ماكنتُ وأوصاني بالصّلاةِ والزّكاةِ مادمتُ حياً وبرّاً بوالدتي ولمْ يجعلْني جبّاراً شقياً والسّلامُ عليّ يومَ ولدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أبعثُ حياً﴾[2] ثلاث وثلاثون كلمة وعمره ثلاث وثلاثون سنة. وقد استنبط الناس زلزلة عام اثنين وسبعمائة من قوله تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾[3] فإن الألف باثنين والذال بسبعمائة. وكذلك استنبط بعض أئمة العرب فتح بيت المقدس وتخليصه من أيدي العدو من أول سورة الروم بحسب الجمل، وغير ذلك[4].

وتعقيبنا على هذه الاستنباطات أن القرآن أبعد مايكون عن هذا الحساب الفلكي، فإنه هداية ودستور عمل يسعد المسلمون عند العمل بمقتضاه، ويشقون عندما يعرضون عن تعاليمه وأحكامه. كما أنه لايتعرض لجزئيات المسائل بهذه الصورة الشكلية، وإنما يمس جوهر الموضوع ومناط العبرة.

---

(١) البرهان ج٢/ ١٥٣-١٥٥.

(٢) سورة مريم آية ٣٠-٣٣/.

(٣) سورة الزلزلة آية/ ١/.

(٤) البرهان ج٢/ ١٨١-١٨٢/.

الجلال السيوطي والتفسير العلمي:

ثم جاء جلال الدين السيوطي المتوفى[عام٩١١هـ] وصاحب المؤلفات الكثيرة فتابع من قبله من العلماء القائلين بأن القرآن يشتمل على علوم الأولين والآخرين، ففي كتابه الإتقان في علوم القرآن نجده - في النوع الخامس والستين منه - يتكلم على العلوم المستنبطة من القرآن الكريم. كمايجعل اشتمال القرآن على العلوم المختلفة وجهاً من وجوه الإعجاز فيه في كتابه(معترك الأقران) فيسوق الآيات والأحاديث والآثار وأقوال العلماء التي تدل على أن القرآن مشتمل على كل العلوم.

فمن الآيات التي يستشهد بها قوله تعالى: ﴿مافرَّطْنَا في الكتابِ منْ شيء﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ونزَّلْنَا عليكَ الكتابَ تِبْيَاناً لكلِّ شيء﴾[٢]

ومن الأحاديث ماأخرجه الترمذي وغيره أن رسول الله ﷺ قال:«ستكون فتن قيل: فما المخرج منها؟ قال كتاب الله فيه نبأُ ماقبلكم وخبرُمابعدَكم وحُكْمُ مابينَكم».

وماأخرجه أبو الشيخ عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ:«إن الله عز وجل لو أغفل شيئاً لأغفل الذّرّةَ والخردلةَ والبعوضَ».

ومن الآثار ماأخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال:«من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين».

وماأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود- أيضاً- أنه قال: أنزل في القرآن كل علم وبُيِّنَ لنا فيه كلُّ شيء، ولكن علمنا يقصر عما بُيِّنَ لنا في القرآن.

وأخرج البيهقي عن الحسن قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب وأودع علومها في أربعة منها التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة في القرآن.

ثم يحكي السيوطي عن ابن سراقة أنه روى في كتاب الإعجاز عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال يوماً: مامن شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله تعالى، فقيل له: فأين ذكر الخانات؟[٣] فيه؟ فقال في قوله تعالى: ﴿ليسَ عليكُمْ جُنَاحٌ أن تَدْخُلُوا بُيوتاً غيرَ مسكونةٍ فيها متاعٌ لكم﴾[٤]، فهي الخانات.

---

(١) سورة الأنعام آية/٢٨/ .

(٢) سورة النحل آية/٨٦/ .

(٣) التحرير والتنوير/١٨/ ٢٠٢/ .

(٤) سورة النور آية/٢٩/ .

وقال غيره: مامن شيء إلا ويمكن استخراجه من القرآن لِمَنْ فَهَّمَهُ اللهُ.

ثم يورد السيوطي قول ابن سراقة في إعجاز القرآن يقول:

وقال ابن سراقة: «من بعض وجوه إعجازالقرآن ماذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة والتصنيف والمضاعفة، ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب أنه ﷺ صادق في قوله، وأن القرآن ليس من عنده إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولاتلقى الحساب وأهل الهندسة. ويورد قول الراغب الأصفهاني فيقول:

وقال الراغب: إن الله تعالى كما جعل نبوة النبيين بنبوة محمد ﷺ مختتمة وشرائعهم من وجه منتسخة، ومن وجه مكملة متممة.

جعل كتابه المنزل عليه متضمناً لثمرة كتبه التي أولاهاأولئك كما نبه عليه بقوله: ﴿يتلوُ صُحفاً مطهرةً فيها كتبٌ قيّمةٌ﴾[1] ، وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم بحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه. والآلات الدنيوية عن استيفائه، كما نبه عليه بقوله: ﴿ولو أنّماَ فِي الأرضِ مِنْ شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمدُّهُ من بعدِهِ سبعةُ أبْحُرٍ مانَفِدَتْ كلماتُ اللهِ إنّ اللهَ عزيزٌ حكيم﴾[2] .

ويذكر عن القاضي أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه(قانون التأويل): «علوم القرآن خمسون علماً وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، إذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع. وهذا مطلق دون اعتبارالتركيب، ومابينهما من روابط، وهذا مالايحصى ومالايعلمه إلا الله.

ثم يعقب الجلال السيوطي على هذه الأقوال وغيرها فيقول:

أما أنواع العلوم فليس منها باب ولامسألة هي أصل إلا وفي القرآن مايدل عليها. وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض، ومافي الأفق الأعلى وماتحت الثرى... إلى غير ذلك ممايحتاج شرحه إلى مجلدات.

وقد ألفت كتاباً سميته(الإكليل في استنباط التنزيل) ذكرت فيه كل مااستنبط منه من مسألة فقهية أو أصلية أو اعتقادية، وبعضاً مماسوى ذلك، كثير الفائدة جم العائدة يجري مجرى الشرح لما أجملته في هذا النوع.

---

(١) سورة البيّنة آية/ ٢_٣/ .

(٢) سورة لقمان آية/ ٢٦/ .

القائلون بالتفسير العلمي في العصر الحديث:

إذا كان العلماء القدامى قد وضعوا للتفسير تعريفات كثيرة تلتقي كلها عند معنى الإبانة لكلام الله تعالى والكشف عن مقاصده، فإنه من الممكن في حدود الإطار العام لهذه التعريفات نفسها أن يعد من التفسير كل نشاط ثقافي يعتمد في تأسيس موقفه على فهم معين للنص القرآني، سواء في ذلك النمط المسلسل الذي ورثناه عن السلف في خطة التفسير أم غير ذلك من الأنماط التي تأخذ شكل المقالة أو طريقة التفسير الموضوعي للقرآن. وبهذا تتسع دائرة التفسير ويصبح أفقه على هذا شاملاً لكل ألوان التفكير المؤسس على فهم معين للنص القرآني، مهما تكن الصورة الفنية لهذا التفسير[1].

ولّما أصاب المسلمين ماأصابهم من جمودفكري في القرون الأواخر، قام بعض العلماء للدعوة إلى الانفتاح على العلوم العصرية، للاستفادة منها فيما ينفع المسلمين في دينهم ودنياهم.

يقول الدكتور الذهبي رحمه الله تعالى[2]:

«فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى التحرر من قيد هذا الركود، فنظروا في كتاب الله تعالى نظرات، وإن كان لها اعتماد ـ من غير شك ـ على مادونه الأوائل في التفسير، إلا أنها تحمل شيئاً من التجديد والتطور، وكان ذلك بالعمل على التخلص من كل الاستطرادات التي حشرت في التفسير والعمل على تنقيته من الإسرائيليات والموضوعات التي كادت تذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ماجاء فيه من الأحاديث الضعيفة، وإلباس التفسيرثوباً أدبياً اجتماعياً يُظهر روعةَ القرآن ويكشف عن مقاصده الدقيقة وأهدافه السامية، والتوفيق بجد بالغ وجهد ظاهر من بعض العلماء بين القرآن وماجدّ من نظريات علمية، على تفاوت بين هؤلاء في الغلو والاعتدال ـ كما سبق القول ـ وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون وغير المسلمين أن القرآن ـ وهو كتاب الإسلام الخالد ـ يتمشى مع الزمن في كل أطواره ومراحله.

الشيخ محمد عبده والتفسير العلمي

كان الشيخ محمد عبده[١٩٠٥م] صاحب اتجاه حديث في التفسير وغيره من الأفكار الدينية والاجتماعية، غير أنه لم يترك للناس إلا ثروة يسيرة في التفسير بالقياس

---

(١) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث/ ١٨، ٨٢/ .
(٢) التفسير والمفسرون ج٣/ ١٦٢/ .

إلى مكانته العلمية. فقد ترك تفسيراً لجزء(عمّ) وهو مطبوع في كتاب ذائع شائع بين المثقفين، ولكنه كتاب مدرسي ألفه ليكون مرجعاً لمدرسي مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان له فضل في رعايتها، وهو لهذا لايكشف كشفاً تاماً عن منهجه في تفسير القرآن، وقد توخى فيه سهولة العبارة وقلة وجوه الإعراب، كما ترك تفسيراً مطولاً لسورة العصر وتفسيراً لبعض الآيات التي يثير حولها أعداء الإسلام كثيراً من الشبهات والأباطيل مثل الآيات:

﴿وماأرسلنَا منْ قبلِكَ منْ رسولٍ ولانبيٍ إلاّ إذا تمنَّى ألقىَ الشّيطانُ في أُمنيَّتِهِ فينسخُ اللهُ مايُلقِي الشّيطانُ ثم يُحكِمُ اللهُ آياتهِ واللهُ عليمٌ حكيم﴾ الآيات[١]. وقد فند فيها قصة(الغرانيق) تنزيهاً للنبي ﷺ عماقيل عنه فيها[٢].

وكتفسيره للآية ﴿وإذْ تقول للذي أنعمَ اللهُ عليهِ وأنعمتَ عليهِ أمْسِكْ عليكَ زوجَكَ واتّقِ اللهَ وتُخْفِي في نفسِكَ مااللهُ مُبْدِيهِ وتخشَى النّاسَ واللهُ أحقُّ أن تخشَاهُ﴾[٣].

وكتفسيره لسورة البقرة وآل عمران والنساء، وكان ذلك تدريساً لتلاميذه في الأزهر الشريف، وقد دون تفسيره لما ذكر تلميذه وترجمان أفكاره الشيخ محمد رشيد رضا[٤].

وبالرجوع إلى تفسير جزء عمّ نجد أنه يفسر بعض الآيات في ضوء العلم الحديث، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا البِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[٥] يقول:

أما تسجير البحار فهو أن يفجر الزلزال مابينها حتى تختلط وتعود بحراً واحداً، وهو بمعنى الملء فإن كل واحد منها يمتلىء حتى يفيض ويختلط بالآخر...

ثم قال: وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً، فإن مافي بطن الأرض من النار إذ ذاك يظهر بتشققها وتمزق طبقاتها العليا، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً، ولايبقى في البحار إلا النار.

---

(١) سورة الحج آية /٥٠ـ٥١/ .

(٢) وهي قصة باطلة تذكر أن النبي ﷺ جرى على لسانه تعظيم «تلك الغرانيق العُلى..» وقد صنف الشيخ محمد ناصرالدين الألباني رسالةً في إبطالها أسماها «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق» جزاه الله خيراً.

(٣) سورة الأحزاب آية/٣٧/ .

(٤) اتجاه التفسير: مصطفى الطير الحديدي/٤٦/ .

(٥) سورة الحديد آية/٦/ .

أما كون باطن الأرض يحتوي على نار فقد ورد به بعض الأخبار، ورد أن البحر غطاء جهنم وإن لم يعرف في صحيحها. . . ولكن البحث العلمي أثبت ذلك، ويشهد عليه غليان البراكين وهي جبال النار، كما تشهد عليه الزلازل الشديدة التي تشق الأرض والجبال في بعض الأطراف كما وقع في(جاوا) من عدة سنوات، فإن آثار النار في بطن الأرض قد ظهرت فيه ظهوراً لاشبهة تطرأ على الذهن بعده[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إذا السماء انشقت﴾ يقول:

«انشقاق السماء مثل انفطارها الذي مر تفسيره. . . وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه، وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليها سير العالم كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ويحدث من ذلك غمام وأي غمام يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره»[2].

وقد انتقده بعض العلماء في هذا التفسير لخراب العالم، لأن الكون أعظم من أن يختل نظامه بمجرد ضرب كوكب آخر من المجموعة الشمسية. فما أكثر المجموعات الشمسية التي تتجاوز الأرقام الحسابية التي عرفها البشر! وماأصغر أفكار البشر في شأن مستقبل العالم خراباً أو عماراً. فمثل ذلك يجب تفويض الأمر فيه إلى الله تعالى فهو علام الغيوب[3].

وفي تفسيره لسورة الفيل نراه يجمل معنى آياتها في عبارة موجزة تصور مافي السورة من هداية وعظة، ثم يقول:

«وكان يمكننا أن نكتفي بذلك المعنى من الآيات ولانزيد عليه أدنى تفصيل، وهو كاف في الاعتبار والعظة - وليته فعل - ولكنه تابع الكلام وذكر ماقال أنه تواتر من الواقعة، إلى أن قال: وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبش داء الجدري والحصبة.

ثم ذكر رواية عكرمة أن أول مارؤيت الحصبة والجدري ببلادالعرب في ذلك العام. . ثم عقب على ذلك بقوله:

---

(١) تفسير جزء«عمّ» /٢٦/ ط بولاق.

(٢) تفسير جزء«عمّ»/ ٤٩/ .

(٣) اتجاه التفسير في العصر الحديث: مصطفى الطير/ ٥٤/ ط مجمع البحوث الإسلامية.

«هذا ماتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به» واستطرد قائلاً:

«وقد بينت لنا هذه السورة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير ممايرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن (بالميكروب) لايخرج عنها.

هذا مايصح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وماعدا ذلك فهو ممالايصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته»[1].

هذا ماقاله الشيخ محمد عبده في تفسيره لسورة الفيل، وقد أخذت عليه في تفسيره هذا مآخذ كثيرة:

أولاً: أن حديث الجدري والحصبة ماكان ينبغي له أن يعول عليه في تفسير سورة بدأها الله بصيغة التعجيب والتعظيم لصنعه بما أنزله بهؤلاء الطغاة تمهيداً لمبعث نبيه محمداً ﷺ.

وقد عرض ابن الأثير في كتابه(الكامل في التاريخ) لهذا الحديث فقال: «وقال كثير من أهل السير: إن الحصبة والجدري أول مارؤيا في العرب بعد الفيل، وهذا ممالاينبغي أن يُعَرَّجُ عليه، فإن هذه الأمراض قبل الفيل منذ خلق الله العالم»[2].

ثانياً: قوله، بعد أن ذكر حديث الجدري والحصبة: «هذا ماتفقت عليه الروايات»، مع أنها في حقيقة الأمر لم تتفق على هذا الذي ذكره، بل ذكرت بعض الروايات أن هذه الطير كانت أشبه ماتكون بالطير المسمى بالخطاف. وبعضها ذكر أنها أشبه باليعاسيب، وقد أقبلت من وجهة البحر في جماعات إثر جماعات حاملة في مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة في حجم الحمصة أو حصى كحصى الخذف فألقتها على الجيش الظالم، فتساقط هلاكاً وفناء.

---

(١) تفسير جزء«عمّ»/١٥٨.

(٢) الكامل في التاريخ: لابن الأثير ج١/١٩٩/ ط أولى.

والسورة الكريمة لم تبين نوع الطير الذي رمى أصحاب الفيل بالحجارة ولاوصفت الحجارة التي رمتها، لأن فهم الآية المقصود منها لايتوقف على هذا التفصيل.

فالسورة صريحة في أن أسراباً من الطير أرسلها الله على هؤلاء المعتدين فأضعفت قواهم وأبطلت كيدهم، وردتهم على أعقابهم خاسرين.

والحمل على هذا أولى لأنه به تبقى السورة على ظاهرها ويبقى الحادث على وضعه الإعجازي إرهاصاً للنبوة الخاتمة.

ثالثا: إنه لم يعرف في اللغة العربية التي نزل بها القرآن واستعمالاتها إطلاق لفظ(الطير) على الحيوان المسمى(بالميكروب) وأن العرب المخاطبون في وقت المواجهة بالخطاب التعجيبي الذي افتتحت به السورة لايعلمون شيئاً عن هذا الحيوان.

رابعاً: قوله:«وقد بينت لنا السورة الكريمة أن ذلك الجدري وتلك الحصبة من حجارة يابسة. السورة الكريمة يقرؤها ويحفظها عن ظهر قلب أكثر المسلمين، وهي لم تتعرض لذكر الجدري والحصبة فضلاً عن أن تبين حقيقتهما ومنشأهما».

خامساً: تفريعه على مافرضه واقعاً من حديث الجدري والحصبة إنه يجوز لمن يريد فهم معاني القرآن ليؤمن بها أن يعتقد أن هذا الطير الذي أرسله الله على أصحاب الفيل من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم الأمراض. وأن هذا الحيوان الذي يسمى(الميكروب) من هذا الطير. فهو تحميل لآيات القرآن فوق طاقة أساليب اللغة العربية، وفوق طاقة أفهام من نزل القرآن لتعجيبهم من شأن هذه الحادثة المبدعة إرهاصاً لمقدم بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين[1].

سادساً: ماهو الوباء الذي يصيب في أرض واحدة طائفة من الناس من جنس معين ويستثني بقية سكان البلد. والمعهود في الأمراض السارية انتشارها مع الهواء بين سكان المنطقة دون تفريق، وإن المألوف في الجدري والحصبة لايتفق مع ماروي من الآثار التي تركها الحادث بأجسام الجيش وقائده، فإن الجدري وكذا الحصبة لايسقط الجسم عضواً عضواً وأنملة أنملة ولايشق الصدر عن القلب، مع أن هذه الصورة هي التي يوحي بها النص القرآني إيحاءً مباشراً وقريباً، حيث جاء فيه ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾[2].

---

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه: لمحمد الصادق عرجون/ ٢٤١.

(٢) ظلال القرآن: لسيد قطب رحمه الله تعالى ج٦ /٣٦٧٨/ ط دار الشروق.

الشيخ طنطاوي جوهري والتفسير العلمي:

ولد الشيخ طنطاوي جوهري عام ١٨٦٢م، وقد نشأ محباً لدينه ذا رغبة قوية في توجيه المسلمين إلى الإيمان الراسخ بالله تعالى عن طريق النظر في ملكوته وآثار نعمته ورحمته[1] . وقد كان يؤمن بأن القرآن لايفسر إلا بالعلم الحديث، فألف تفسيراً للقرآن الكريم سماه(الجواهر في تفسير القرآن الكريم) وضعه في خمسة وعشرين جزءاً مزج فيه كما قال ـ الآيات القرآنية بالعجائب الكونية[2] .

ولقد أمّل من تأليف هذا التفسير- كما يقول ـ أن يشرح الله به قلوباً ويهدي به أمماً وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين فيفهموا العلوم الكونية.

كمايقرر أن في القرآن من آيات العلوم مايربو على سبعمائة وخمسين آية، في حين أن علم الفقه لاتزيد آياته الصريحة على مائة وخمسين آية، كمايقرر- في الوقت نفسه ـ أن الإسلام جاء لأمم كثيرة، وأن سور القرآن الكريم متممات لأمور أظهرها العلم الحديث.

كما يتحدث عن تفسيره هذا ويصرح بأنه نفحة ربانية وإشارة قدسية وبشارة رمزية أمر به بطريق الإلهام.

وكثيراً مايهيب بالمسلمين أن يتأملوا في آيات القرآن التي ترشد إلى علوم الكون ويحثهم على العلم بمافيها، ويندد بمن يغفل هذه الآيات على كثرتها، وينعي على من أغفلها من السابقين، ووقف عند آيات الأحكام وغيرها مما يتعلق بأمور العقيدة. ويكرر هذا القول في كثير من مواضع الكتاب.

طريقته في التفسير:

أما طريقته في تفسيره فإنه يبدأ بالتفسير اللفظي للآيات التي يعرض لها، ثم يتلوه بالشرح والإيضاح والكشف، متوسعاً في الفنون العصرية والعلوم الكونية.. كما نراه ينقل عن التوراة والإنجيل كثيراً.

كما يرد على بعض النصارى والمستشرقين[3] .

كما يستشهد بكلام علماء الغرب، وكثيراً مايضع في تفسيره صور النباتات

---

(١) اتجاه التفسير في العصر الحديث، ص٥٥/ .
(٢) تفسير الجواهر ج١/ ٢/ .
(٣) تفسير الجواهر ج٢/ ١٢٢/ .

والحيوانات ومناظر الطبيعة والتجارب العلمية والجداول الإحصائية.

وقد طبق في تفسيره القرآن على النظريات العلمية الحديثة واستخرج هذه النظريات من القرآن، فجاء تفسيره مزيجاً من علوم الأمم قديماً وحديثاً، مع التوفيق بين الآراء الحديثة والأفكار الدينية.

وأول مايتصفح القارىء هذا التفسير يصادفه تفسيره لسورة الفاتحة، وفيها يظهر تطبيقه لمنهجه في التفسير.

ومن ضمن ماجاء في تفسيره لها قوله:

«لما كان أكثر الناس لايلحظون العجائب الكائنة فيهم، ولايعرف نفسه إلا قليل منهم وهم أكابر الحكماء والأولياء وجب أن أبين في هذا المقام بعض رحمته ـ عز وجل ـ في العالم المشاهد... وذكر قصة طريفة لرحمة الله ببعض الحيوانات الضعيفة... وبعد كلام طويل أبان فيه اختصاص الحمد بالله تعالى وأن العرب كانوا يحمدون ملوكهم وأمراءهم والمحسنين منهم. فلما جاء القرآن أمرهم أن يقصروا الحمد على الله تعالى. وكيف أثّر ذلك في نفوس العرب حتى فتحوا الأمم شرقاً وغرباً وأخرجوا الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام. أتبع ذلك بهذه الترجمة:

«الشريعة الإسلامية والنظر في الآفاق وفي الأنفس».

وتحت هذا العنوان كتب صفحة ونصفاً في الحض على النظر في آيات العلوم الكونية القرآنية، وذكر أننا ينبغي أن ندرس علوم الهيئة والفلك والحساب والهندسة وعلم المعدن والنبات والحيوان وسائر علوم هذه الدنيا، وأن دراستها من الدين، فيكون علم الدين على قسمين:

العلم الأول: علم الآفاق، والأنفس. والعلم الثاني: علم الشريعة. وبذلك ترى العالم الديني شارحاً للنبات والحيوان، والآخر يدير المعمل الكيماوي، وهذا من قوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِم آياتِنَا في الآفَاقِ وفي أنفسِهم حتّى يتبيَّنَ لهم أنَّهُ الحقُّ﴾[1].

ومن قوله هنا ـ سورة الفاتحة ـ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾..

ثم ذكر في معنى قوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾ أنه تعالى مربي العوالم كلها ومرقيها من حال النقص إلى حال الكمال وغايات التمام، فهو الذي يتعهد النباتات بالتغذية

---

(١) سورة فصلت آية/ ٥٢/.

والإنماء، وهكذا الحيوان والإنسان، وكذا العوالم العلوية. وهذه هي التربية التي كان مبدؤها الرحمة. ثم ذكر عدداً من المسائل في هذه التربية: (الأولى) في الذّرة و(الثانية) في القمح و(الثالثة) في تربية الثمرة في النخلة و(الرابعة) في تربية اللؤلؤ في البحر و(الخامسة) في تربية الجنين في بطن أمه و(السادسة) في تربية الولد باللبن و(السابعة) في التربية الطبية و(الثامنة) في التربية بالمدارس و(التاسعة) في تربية الله للعقول بعلم المنطق لإدراك العلوم العالية، وبلغ ماكتبه في ذلك أربع صفحات.

ثم تكلم عن معنى العالمين، فعرّف العالم بأنه ماسوى الله تعالى، وقسمه إلى قسمين: عالم علوي وعالم سفلي. والعلوي هو الكواكب والشمس والقمر والسيارات وأقمارها، ثم وضح ذلك بضرب مثل، ثم قال:

وهذه الشموس وحركاتها ونظامها لايتسنى لك معرفتها إلا بعلم العدد والحساب والهندسة وعلم الجبر والفلك ﴿هو الذي جعلَ الشّمسَ ضياءً والقمرَ نوراً وقدَّرَهُ منازِلَ لتعلَمُوا عددَ السّنِينَ والحِسَابَ ماخلقَ اللهُ ذلكَ إلاّ بالحقِّ نُفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلَمُونَ﴾[1].

ثم تكلم عن العالم السفلي وقال: إنه مافي البر من مخلوق حي ومافي الأرض من معدن ونبات وحيوان وإنسان. ثم تكلم عن عالم البحار بإسهاب. ثم ذكر النبات والحيوان وعلم التشريح وقال: ألا فليعلم المسلمون أنهم لايحمدون الله حق حمده ولايشكرونه حق شكره إلا إذا درسوا هذه العلوم وعرفوا ماتفرع عنها وانتفعوا بها ونفعوا الناس بفوائدها.

والشيخ الطنطاوي جوهري في تفسيره ينخدع بدعوى علم تحضير الأرواح ودعاته، بل ويؤمن به ويدافع عنه ويستنبطه من القرآن، فهو عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لقومه إنّ اللهَ يأمرُكم أنْ تذبَحُوا بقرةً قالُوا أتتخِذُنَا هُزُوَاً قالَ أعوذُ باللهِ أنْ أكونَ منَ الجاهلين...﴾ الآيات[2].

نجده يعقد بحثاً في عجائب القرآن وغرائبه، فيذكر ماانطوت عليه هذه الآيات من عجائب ويذكر من بينها(علم تحضير الأرواح) الذي ظهر أخيراً. والمناسبة التي يستطرد منها إلى هذا البحث هي إحياء الله لقتيل بني اسرائيل لما ضرب بشيء من لحم البقرة

---

(١) سورة يونس آية/ ٥/ .
(٢) سورة البقرة الآيات/ ٦٦ـ٧٢/ .

التي أمروا بذبحها، فيقول:

«وأما علم تحضير الأرواح فإن من هذه الآية استخراجه، إن هذه الآيات تُتْلَى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمريكا أولاً ثم بسائر أوروبا ثانياً». ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم وكيف كان انتشاره بين الأمم، وفائدة هذا العلم واستغرق ذلك منه خمس صفحات، ثم قال:

ولما كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم الله، وعلم الله أننا عاجزون عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة مايرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة، كأنه يقول:

إذا قرأتم ماجاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة من أواخرها فلاتيأسوا من ذلك فإني قد بدأت بذكر استحضارالأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ﴿فاسألوا أهلَ الذكرِ إنْ كنتُمْ لاتعلَمُون﴾، ولكن ليكن محضر الأرواح ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والرسل كالعزير وإبراهيم وموسى، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ليطمئنوا وأنا أمرت نبيكم أن يقتدي بهم فقلت: ﴿فبهداهم اقتده﴾ فاقتدوا بهم في تعلم ماتطمئنون وتوقنون، ولكن قبل ذلك اقتدوا بالأنبياء في طهارة القلوب وزوال الرجس من النفوس، فإن هذه الأمور إنما تعرف بالتجربة والعمل لابالقياس العقلي ولابالنظر والحدس الفكري»[(١)]

هكذا يقول الشيخ طنطاوي جوهري عن تحضير الأرواح وأخذه من القرآن، وهو أمر غريب في تفسير القرآن لأنه بعيد عن معناه ومن أهدافه وأغراضه السامية، فكيف يسوغ القول بأن علم تحضير الأرواح يستخرج من هذه الآية؟ وهي أبعد ماتكون عن ذلك.

وهذا العلم ذاته لم يكن مسلماً به عند المسلمين على الأقل، وكيف يجوز أن نُقَوِّلَ القرآن مالم يقل؟.

«إن علم تحضير الأرواح علم كاذب فلايوافق الدين على الإيمان به فضلاً عن جعله تفسيراً لآية من القرآن الكريم، ولايعترف بأخبار الأرواح التي تحضر عن طريقه فهي أرواح جن تكذب بادعائها أنها الأرواح المطلوب إحضارها ومكالمتها. وكيف يمكن

---

(١) تفسير الجواهر ج١ / ٨٤-٨٩/ .

أن تكون صادقة وهي تقول عن نفسها أخباراً غير مطابقة لحالتها في الحياة؟ وكيف يمكن استحضار الأرواح حقيقة في حين أن السلطان عليها لله وحده»[1].

وعن هذا الموضوع يحدثنا الدكتور محمد جمال الدين الفندي فيقول:

«ولقد نجم عن تعرف الناس على بعض معالم ماوراء المادة عن طريق الدين أن راحت طائفة منهم تجري محاولات الاتصال بمن في ذلك العالم بطريقة يسمونها(تحضير الأرواح)، ونحن لانستطيع أن نطلق على تلك المحاولات اسم(التجارب) لاختلافها في جوهرها عن المألوف في التجارب العلمية، ولعدم إمكان تعميم إجرائها. وقد فهم خطأ أن بعض جامعات الغرب أقرت دراسة علم الأرواح، ولكن الحقيقة أن ماوافقت عليه هو دراسات علم النفس على غرار ماهو قائم في بعض جامعاتنا العربية.

ثم يقول:

وأغلب الظن إذا سلمنا ببعض تلك الاتصالات ثم محصناها نجدها إنما تتم عن عالم غير مادي حدثتنا عنه الأديان يسمى عالم الجن[2].

إن تفسير الجواهر يقال فيه ـ كما قدمنا ـ وكما قال الشيخ محمد حسين الذهبي: أنه موسوعة ضربت في كل فن من فنون العلم بسهم وافر، مماجعل هذا التفسير يوصف بما وصف به تفسير الفخر الرازي فقيل: فيه كل شيء إلا التفسير بل هو أحق من تفسير الفخر لهذا الوصف وأولى به[3]. وإن المانعين لهذا التفسير لاحظوا جنوح صاحبه بل ولوعه الشديد بإخضاع الآيات القرآنية وقهرها لكي تتحمل الكثير من مسائل العلوم الكونية. وهذا تعسف ظاهر وميل بالقرآن عن مقصده الأسمى وهو سعادة البشرية في الدنيا والآخرة[4].

التفسير العلمي للآيات الكونية:

هذا كتاب جمعه الباحث«حنفي أحمد» وهو عالم مصري معاصر تأثر بمنهج الشيخ طنطاوي جوهري في تفسير القرآن تفسيراً علمياً إلى جانب ثقافته التي كان لها أثر كبير

---

(١) اتجاه التفسير في العصر الحديث: لمصطفى الطير الحديدي/ ٧٥/ ويأتي مزيد بيان في الرد على مثل هذا في فصل«أخطار المناهج المنحرفة في التفسير».

(٢) الكون بين الدين والعلم/ ٢٤/ .

(٣) التفسير والمفسرون ج٣/ ١٨٣/ .

(٤) اتجاهات التفسير في العصر الحديث: عبد المجيد المحتسب/ ٢٧٧/ .

في منهجه، فهو حاصل على دبلوم المعلمين العليا بمصر وبكالوريوس في العلوم من جامعة درهام ببريطانيا، وقد شغل منصب عميد مفتشي العلوم ومدير عام لتعليم البنات بوزارة المعارف المصرية سابقاً.

يقول في مقدمته:

وبعد فقد وضعنا هذا الكتاب بفضل من الله وعون منه تعالى، إذ كانت الحاجة ماسة إليه في هذا الزمان الذي التبس فيه الحق بالباطل وأسميناه(معجزة القرآن في وصف الكائنات) وموضوع هذا الكتاب ـ كمايدل اسمه ـ ذو أهمية بالغة لأنه يبحث في تصوير القرآن للكائنات تصويراً يكشف عن دقيق معناه ويبين مافيه من آيات الإعجاز الدالة على صدق وحيه وسمو رسالته. ويرى المؤلف أنه على الرغم من ذيوع العلم الحديث وتقدمه العظيم في النصف الأول من القرن العشرين فإنه لم يعرف إلى الآن عن دقائق معاني حديث القرآن عن الكائنات سوى نَزْرٍ يسير. ويرجع السبب في ذلك إلى عوامل شتى أهمهاـ في رأيه ـ وراثة العقيدة التي كانت ولاتزال سائدة في الأذهان بأن القرآن رسالة هداية وإرشاد لاشأن لها بأصول العلوم الكونية، وأن حديثه عن الكائنات لايحتاج في فهمه إلا لمجرد التعقل والخبرة العادية، وأنه بذلك لايحوي دقائق أو تفاصيل عن طبائع الكائنات تتطلب علماً خاصاً لإبانتها وإدراكها.

كمايرى المؤلف أن أهل العلم والفكر قد استبعدوا وجود علم مفصل عن الكائنات في القرآن، ولهذا غاب عنهم مفتاح طريقة البحث فيه، وهو جمع آياته المتفرقة وتبويبها على حسب موضوعاتها ثم بحثها بحثاً كاملاً، وهو المنهاج الذي سار عليه في كتابه.

ويرى ـ أيضاً ـ أنه من الواجب الاعتراف بالجهود الطيبة التي بذلها بعض أفاضل العلماء المعاصرين في كشف مكنون الآيات الكونية من أمثال الدكتور محمد أحمد الغمراوي والدكتور عبد العزيز إسماعيل والشيخ طنطاوي جوهري.

وفي الفصل الأول من المقدمة يقرر أن الناحية العلمية هي إحدى الأوجه التي حصل بها الإعجاز، بل هي الآن أوضح الأوجه لغير من يفهمون اللغة العربية.

ولما كان القرآن منزلاً لجميع الناس في كل زمان ومكان من أهل العربية وغيرهم، ويصعب على غير العرب إدراك معجزته الكبرى في بلاغته وأسلوبه كان لهم من معجزاته الأخرى عن طريق ترجمة معانيه مايمكنهم من إدراك إعجازه، ويلزمهم الحجة بصدق دعواه، إذ يفي نقل المعاني دون النص الأصلي بالغرض المقصود في هذا الشأن.

وطريقته في البحث أنه يجمع الآيات التي تدور حول موضوع واحد ثم يكون منها بعد الجمع والترتيب والاستنباط الأصول والقواعد العامة. وقد ضرب لذلك مثلاً من عديد الأمثلة التي يقوم عليها البحث في كتابه فقال: «وردت النجوم في ثلاث عشرة آية ووردت باسم السموات في آيات أخرى متعددة، وهذه الآيات وتلك تفيد خصائص علمية شتى من النجوم، فمنها ثلاث تتحدث عن حالتها من حيث الضياء والحركة والسكون، وأخرى عن علومها وهي:

١ـ يقول الله تعالى: ﴿وهو الذي جعلَ لكُمُ النُّجُومَ لتهتدُوا بها في ظلماتِ البرِ والبحرِ﴾[1].

٢ـ وقال تعالى: ﴿وعلاماتٍ وبالنّجمِ هم يهتدون﴾[2].

٣ـ وقال تعالى: ﴿والسّماءِ والطّارقِ وماأدراكَ ماالطّارقُ النّجمُ الثّاقب﴾[3].

وقد وضح المفسرون هذه الآيات كل آية في موضعها من السورة التي وردت فيها على حسب ظاهرها الذي تدل عليه المشاهدة العادية.

ففسروا الأولى بمعنى أنه تعالى جعل النجوم ليهتدي بضيائها الناس في ظلمة الليل على الأرض.

والثانية: بأنه تعالى جعلها ترى كعلامات ثابتة في السماء كالجبال والأنهار يهتدي بها الناس ـ أيضاً ـ في ظلام الليل.

والثالثة: بأن الطارق معناه الآتي أو الظاهر ليلاً أو نهاراً »أن الثاقب معناه المضيء، مع أن القرآن استعمله للأجسام المتقدة المضيئة كالنار في وصف الشهب والسراج. وبالإجمال فقد فسروا الطارق النجم الثاقب بمعنى النجم الذي يظهر ليلاً مضيئاً بضياء يثقب الظلام. وظاهر هذه الآيات في مجموعها يفيد أنه تعالى جعل النجوم تظهر في الليل مضيئة في السماء كالعلامات لكي يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر.

وما من شك في أن هذه المعاني من دلائل قدرة الله العظيمة وحكمته البالغة مايتنفع به الناس في الإيمان بالحق جل وعلا.

ولكن الباحث الخبير بأحوال النجوم وبمايقتضيه نظام البحث، يجمع بين هذه

---

(١) سورة الأنعام آية/ ٩٧/ .

(٢) سورة النحل آية/ ١٦/ .

(٣) سورة الطارق آية/ ١ـ٣/ .

الايات ثم يبحثها فيجد فيها مايستلفت النظر، يجد أنه تعالى قد اختص النجوم بالذكر في الآية الأولى دون الكواكب ـ مع أنها نيرات مثل النجوم وضياؤها يصل إلى الأرض مثل ضياء النجوم في الليل ـ فيستدل من ذلك على أن هذا التخصيص بالنجوم فيه إشارة إلى أن النجوم هي مصدر الضياء الأصلي في السماء، وأن ضياء الكواكب غير أصلي فيها بل هو مكتسب من ضياء النجوم ولذلك لم يذكرها. أرأيت وجه الحكمة في الذكر؟ إنها حكمة العلي القدير.

ويجد أن قوله ﴿لتهتدوا به﴾ وفي الآية الثانية ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ معناه لتهتدوا بذاتها وبذات النجوم هم يهتدون، أي أن الباء للسببية مثل قولك يكتب بالقلم، وأن الهداية حاصلة من ذات النجوم فيكون ضوؤها ذاتياً، هكذا يقول، وتمثيله بهذا غير صحيح لأن الباء فيه للاستعانة ـ وهي الداخلة على المستعان به أي الوسيلة التي بها حصل الفعل ـ أما باء السببية فهي الداخلة على سبب الفعل وعلته التي من أجلها حصل مثل قوله تعالى: ﴿فكلا أخذنا بذنبه﴾ العنكبوت: ٤٠.

ويجد أنه تعالى وصف النجوم بلفظ الثاقب في الآية الثالثة الذي تستعمله العرب في وصف النار ولهب السراج واستعمله تعالى في وصف الشهب بقوله: ﴿فأتبعه شهابٌ ثاقب﴾[١].. والشهب معروفة عند الناس بأنها أجسام نارية مضيئة فيستدل منه مع الإشارتين الواضحتين سابقتي الذكر على أن النجم الثاقب معناه: النجوم المتقدة المضيئة بذاتها كالنار أو السراج، أو بعبارة أخرى يرى الأخذ بالمعنى الكامل للثاقب وهو أن النجوم أجرام نارية ملتهبة ومضيئة معاً، وهذا فيما يختص بحال الضياء في النيرات.

ويرى الباحث في الآية الثالثة أنه تعالى وصف النجوم(بالطارق) ومعناه: القادم و الآتي ليلاً، ثم استعمل للقادم مطلقاً فيستدل منه على أنه تعالى نعت النجوم بالحركة في السماء، ولكنه في الوقت نفسه يرى أن هذا المعنى يتعارض مع مشاهدة النجوم ثابتة في السماء، كما نص تعالى بذلك في الآية الثانية، فتدفعه روح البحث إلى النظر في الآيات المختلفة ليرى كيف يقول تعالى: إن النجوم متحركة وفي الوقت نفسه يقول إنها ترى ثابتة فيعثر على ضالته في آية رابعة في قوله تعالى: ﴿تنزيلاً ممّنْ خلقَ الأرضَ والسّمٰواتِ العُلَىٰ﴾[٢] التي يصف فيها ارتفاع السموات عن الأرض بأنه ارتفاع عظيم

---

(١) سورة الصافات آية/ ١٠/ .

(٢) سورة طه آية/ ٤/.

جداً فوق مايمكن تقديره فيعلم من ذلك أنه تعالى قد قال: أن النجوم ترى ثابتة وقال مايعارضه بأنها متحركة ولكنه أزال هذا التعارض الظاهري ببيان بُعْدِها الساحق عن الأرض فدل بذلك على أن ثبوتها المشاهد ظاهري، وذلك كما تدل المشاهدة العادية على الأرض حين ترى العين الأجسام المتحركة بسرعة والبعيدة جداً كأنها ساكنة غير متحركة.

وبالإجمال يرى الخبير بحال الكائنات في حدود معاني هذه الآيات الأربع بعد جمعها وبحثها معاني دقيقة عن صفات النجوم، من صريح النص تارة، وبالإشارة القوية المحدودة تارة أخرى، وأن هذه الصفات تتفق فعلاً مع ماوصل إليه العلم الحديث، وهذا مالايراه الناظر غير العليم بالكائنات.

وهذه المعاني الدقيقة عن النجوم تفيد دلائل تزيد من المعرفة والإيمان بقدرة الله تعالى، كما تفيد صفات عن النجوم لم يكن يعرفها أحد عند(ظهور)[1] القرآن، ثم أظهرها البحث العلمي الدقيق بعد ذلك بقرون عديدة.

ومغزى ذلك أنها صادرة من لدن خبير عليم بأحوال الكائنات وليست من كلام البشر، وهذه وتلك هي الغاية الخاصة من المعاني الدقيقة للآيات الكونية».

وفي موضوع(آيات الشهب والحاصب أو الحجارة من سجيل المرسلة من السماء على شياطين الجن والإنس) يذكر إيضاح المفسرين - كعادته في كل موضوع - ومن بينهم رأي الشيخ محمد عبده الذي قدمناه في بداية هذا الفصل ثم يعلق عليها.

وفيما يختص في معنى(الطير الأبابيل) في سورة الفيل يضرب صفحاً عن دلالة اللغة وسياق الآية ليأتي برأي جديد خلاصته أن المقصود بالطير؛ الحجارة نفسها لأنها- على رأيه - كالطير في الكثرة ولأن هذه الحجارة كانت من السرعة بحيث لايقوى الطير على إيصالها لأهدافها أي على قذفها بهذه السرعة الهائلة حتى تدمر فيقول:

«وحيث تبين مما تقدم - فيما ساقه من إيضاح - أن حجارة قوم لوط وحجارة أصحاب الفيل شيء واحد فإني أرى الأخذ برأي المفسرين دون رأي الشيخ محمد عبده في أن الحجارة من سجيل هي التي أهلكت أصحاب الفيل على الصورة التي أوضحوها: لأنها كانت من نوع حجارة قوم لوط ذات القدرة العظيمة على التدمير.

---

(١) قوله«ظهور القرآن» غير لائق، كان الواجب عليه أن يقول:«نزول القرآن» كماهو الثابت في الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية.

بيد أني أخالفهم جميعاً في أن تلك الحجارة رمتها طيور حقيقية، إذ المعقول والمعروف أن الطير مهما كان قوياً فليس له قدرة على قذف حجارة يحملها بحيث يكسبها سرعة سقوط هائلة مدمرة مثل سرعة حصباء قوم لوط. وأن المقصود من الطير في قوله: ﴿طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل﴾ إنما هو نفس الحجارة التي رجم بها أصحاب الفيل لأنها في حركة سقوطها عليهم كانت طيراً في الهواء، إذ الطير في اللغة ـ كماقال الشيخ محمد عبده في إيضاحه: هو كل مايطير أو ينتقل في الهواء، فالطائرة التي تحمل المسافرين والمقذوف الذي ينطلق في الهواء وماتحمله الرياح وينتقل في الهواء من أجسام كل منها يطلق عليه لفظ الطير، كمايطلق على الطائر الحقيقي.

أما كيف انتشر وباء الجدري والحصبة بين جنود أبرهة أصحاب الفيل بعد رجمهم بالحجارة فتعليله سهل وبسيط، فالحجارة التي رموا بها كانت مدمرة للغاية فمزقت ـ بطبيعة الحال ـ جلودهم وهشمت عظامهم وأحدثت فيها جروحاً عميقة وخطيرة، ولم تكن وسائل الإسعاف الطبي السريع للطوارىء متوافرة لدى الجيش على نطاق واسع وكاف بالنسبة لظروفهم، فأدت هذه الحالة السيئة إلى تفشي الأمراض بين الجنود وخاصة الميكروبية المعدية أو الوبائية ومنها وباء الجدري والحصبة».

هذا التأويل الذي ذهب إليه واختاره في تفسير قصة إهلاك أصحاب الفيل يؤخذ عليه المآخذ التي تقدمت عند تفسير الشيخ محمد عبده لهذه القصة. ويضاف إليها مآخذ أخرى في تفسيره الطير بالحجارة:

١ـ إن فيه صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز والتمثيل من غير سبب يدعو إلى ذلك، إلا إذا كان ممن يستكثرون على قدرة الله تعالى أن تجعل من الطير الضعيف قوة هائلة تستطيع إهلاك من يريد الله إهلاكه، أو ممن يقيسون الأمور بمقاييس العقل، ونحن نعيذه من ذلك.

٢ـ إن القرآن في جميع الآيات التي ذكر فيها إهلاك قوم لوط ـ عليه السلام ـ عبّر بالحجارة وبالحاصب فهو يقول: ﴿فلما جاءَ أمرُنَا جعلنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وأمطرنَا عليْهَا حجارةً من سجّيلٍ منضودٍ مسوَّمةً عندَربّك﴾[1] ويقول: ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارةً من سجّيل﴾[2]، ويقول: ﴿لنرسلَ عليهم حجارةً من طينٍ مسوَّمةً عندَ

(١) سورة هودآية/ ٨٢ـ٨٣/ .
(٢) سورة الحجر آية/ ٧٤/ .

ربّكَ للمسرِفين﴾[1]، ويقول: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آلَ لوطٍ نجّيناهُم بسَحَرٍ﴾[2].

كما جاء التعبير بالحاصب في قوله تعالى: ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم... الآية﴾[3].

فلو كان المقصود من الطير هو الحجارة لجاء التعبير القرآني بذلك. أما وقد عبر القرآن بقوله: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل﴾ فلابد أن يكون هذا التعبير مقصوداً في الدلالة على معناه الظاهر منه.

٣ـ إن كل أحد يفرق بين(وأرسل عليهم حجارة ترميهم بحجارة)، وبين النص القرآني، ذلك أنه أوّلَ الطير بالحجارة فإما أن تكون أحد اللفظين تكراراً لامعنى له وإما أن يكون له معنى غير مايفيده اللفظ الآخر.

٤ـ لوكان هذا الفهم صحيحاً وأن المراد من الطير هي الحجارة نفسها لقال العرب الذين تحداهم القرآن، وكانوا يتحينون لويجدون أي مغمز فيه وأكثرهم قد سمع بحادثة الفيل إن لم يكن قد شاهدها عِياناً، لقالوا: إن القرآن لايذكر الحقيقة لأنه قال أرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة مع أنه لاوجود للطير، وهذا خلاف الواقع، فالواقع أن العرب قد سمعوا بهذه الحادثة وتناقلوها حتى عدوها من الأحداث العظام التي يؤرخون بها، وقد وجدوا القرآن أخبر عنها كما وقعت وكما شاهدوها أو سمعوا بها، ولاأدل على ذلك من اختلافهم في شكلها ولونها، وقد وصفها القرآن(بأبابيل) وهي جمع إِبَّالة ـ بكسر الهمزة وتشديد الباء ـ الحزمة من الحطب ـ شبهت جماعة الطير في تضامنها بإبالة الحطب، والمعنى«جماعات من الطير كثيرة»[4].

والقرآن لم يذكر نوع الطير ولاوصفه لأن فهم الآية لايتوقف عليه فكفى أن يكون هلاك هؤلاء المعتدين على أيدي طير، مع أنهم مصحوبون بالفيل، وكم بين الفيل والطير من فروق.

وفي الفصل الثاني من الباب الثاني يعقد المبحث الثالث عن مد الأرض وتمهيدها

---

(١) سورة الذاريات آية/ ٣٣ـ٣٤/ .
(٢) سورة القمر آية/ ٣٤/ .
(٣) سورة العنكبوت آية/ ٤٠/ .
(٤) التحرير والتنوير/ ٣٠/ ٥٥٠/ .

وجعل إلقاء الرواسي فيها، فيسوق عدة آيات في هذا الخصوص.

وبعد أن ساق إيضاح المفسرين لمعنى الألفاظ الواردة في هذه الآيات جاء بالمعنى العام فقال: «قد صارت المعاني العامة للآيات بعد إيضاح ألفاظها واضحة، ولذلك سنكتفي بعرض إيضاح المفسرين لما أوّلوه منها ويحتاج إلى تعليق عليه، قالوا في قوله: ﴿جعل فيها رواسي﴾ ﴿وجعلنا في الأرض من رواسي﴾ ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ أن الرواسي هي الجبال وأن معناها أنه تعالى ثَبت الجبال على الأرض لكي تسكن ولاتميل أو تهتز بالناس إذ كان الاعتقاد قديماً أنها ساكنة غير متحركة، وقال المرحوم الشيخ محمد عبده في قوله: ﴿والجبال أوتاداً﴾ مامعناه أنه تعالى جعل الجبال لتثبيت الأرض ومنعها من الاهتزاز والاضطراب كما تثبت الخيام بشدها إلى الأوتاد، وأنه لولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب بما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان، أي أنه ـ أي الشيخ محمد عبده ـ كان يعتقد أن الأرض متحركة من غير اهتزاز أواضطراب وأن الجبال هي التي تحول بينها وبين الاهتزاز والاضطراب.

وبعد أن علق على مانقله من أقوال المفسرين، وتحت عنوان المعاني العامة للآيات نجده يفسر الرواسي بأنها عبارة عن أراضي جامدة راسية غير الجبال لكي لاتميل ولاتهتز بالناس عند إقامتهم عليها[1].

والذي يؤخذ عليه في هذا التفسير هو:

١ـ أن القرآن في كل الآيات التي جاء فيها ذكر الرواسي كان تعبيره بحرف الجر(في)[2]، وعلى حسب تفسيره لهاباعتبارها جزءاً من الأرض يكون المقام الحرف الجر(من) التي تفيد أو من معانيها التبعيض.

٢ـ كيف يفسر قوله تعالى: ﴿وجعلنا فيها ـ الأرض ـ رواسي شامخات﴾[3] على اعتبار أن الرواسي هي الأرض الجامدة الراسية غير الجبال، فهذه الآية تصفها بأنها شامخات ومعناها ـ كماقال الراغب الأصفهاني ـ عاليات، ومنه شمخ بأنفه عبارة عن الكبر، وفي القاموس المحيط: (شمخ الجبل) علا وطال.

ـ ممايدل على أن المراد بالرواسي في جميع الآيات التي وردت فيها هي الجبال أن

---

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية/ ٣٩٨.

(٢) كما تقدمت الإشارة إليه أول الكلام عن منهجه

(٣) سورة المرسلات آية/ ٢٧.

الله تعالى عندما يذكر الجبال كثيراً مايقرن بها الأنهار»، وهذا واضح في الآيات السابقة ممايدل على أن الجبال لها دخل كبير في نزول المطر. ومن المعلومات العامة أن الأنهار مرد منابعها إلى الجبال.

والعلم يقول: إن أهم العوامل الطبيعية لتبريد الهواء الجوي هي الرياح والجبال فالجبال العاليات الشامخات ـ كماوصفها الحق سبحانه ـ في تعرضها للرياح الأفقية المنخفضة تجبرها على الصعود إلى أعالي الجو حيث تبرد ويتكاثف بخار الماء فيها إلى سحاب، كما أن قمم الجبال العالية التي تكون دائماً مكسوة بطبقة من الجليد تبرد السحاب الذي يمر بها وتعمل على تكثيفه وإنزال الماء منه.

الأستاذ عبد الرزاق نوفل والتفسير العلمي[١].

الأستاذ عبد الرزاق نوفل أصدر عدة مؤلفات تدور حول التفسير العلمي. وهو يقول في أحد كتبه: «إن البشرية أوجدت في القرآن الكريم أوجه الإعجاز المختلفة البيانية والتشريعية والخلقية والإنسانية، وفي عصر العلم وجد العلماء في آياته الشريفة معجزة علمية ضخمة يكفي لأن ينشر بها الإسلام في أوساط العلم والعلماء، وفي كل مكان لايعرف أهله لغة القرآن.

ويقول: «إن الله تعالى قد أمدّه بفيض منه فأصدر عدة مؤلفات في هذه الناحية كان منها(القرآن والعلم الحديث) الذي ضمنه بعض آيات القرآن الكريم العلمية، وأوجه الإعجاز فيها. ولما توصل العلم إلى حقائق مثيرة في قطاعاته المختلفة، ووجد أن آيات القرآن الكريم قد سبقت كذلك إلى هذه الحقائق فرأى أن يعرضها على قرائه الذين يلتمس منهم أن يروا أن هذه المحاولات إن أصاب فيها فمن فضل الله وإن لم يصب فإنما هو خطأ منه، والآية الشريفة أبعد وأقدس من أن ينالها الخطأ.

وقد أحسن في افتراض الخطأ والصواب فيما فسر به الآيات الكونية القرآنية وفي قوله: إن كان قد أخطأ فالخطأ منه، وأما الآية الشريفة فهي أبعد وأقدس من أن ينالها

---

(١) عبدالرزاق نوفل كاتب مصري معاصر وعالم جامعي، ألف كثيراً من الكتب التي تعالج قضية الإعجاز العلمي في القرآن وتبين أن الإسلام دين العلم والمعرفة، وتتلمس الحكمة في أحكام الإسلام وفرائضه. تخرج في كلية الزراعة بعد أن درس العلوم المختلفة فيها من نبات وحيوان وحشرات وتشريح، ويقول إنه بقي ستة عشر عاماً بعد تخرجه يعيد قراءة مادرسه ويتابع ماوصل إليه العلم من تقدم يقضي على كل شبهة يركن إليها الملحد أو المتشكك. (انظر كتابه الله والعلم الحديث ـ المقدمة).

الخطأ.

وقد ألف كتابه(الله والعلم الحديث) الذي عقد فيه فصلاً(للإعجاز العلمي في القرآن) عالج فيه ربط بعض الآيات القرآنية بالعلوم الحديثة.

ثم أتبع كتابه السابق بكتاب(الإسلام والعلم الحديث) لفائدة المسلمين وغيرهم ممن يودون أن يعرفوا حقائق هذا الدين.

كماألف كتاباً بعنوان(بين الدين والعلم) يثبت فيه أنه لاتعارض ولاجفوة بين الدين والعلم إطلاقاً.

وفي كتابه(القرآن والعلم الحديث) ينطلق عبد الرزاق نوفل من فكرة أساسية عند القائلين بالتفسير العلمي وهي صلاحية القرآن لكل زمان ومكان لأن فيه إشارات إلى كل مستحدث من العلوم.

ويرى عبدالرزاق نوفل أن القرآن معجزة علمية قد حوى أصول العلم الحديث وسبق إلى كل مستحدث من العلوم، وأن هذا الوجه من الإعجاز كان لإقناع غير العرب بمعجزة القرآن، وأنه السبيل إلى تبليغ الدعوة الإسلامية لغير الناطقين بالضاد.

ويقول: إن اليوم الذي ننشر فيه على العالم بلغاته المختلفة ماقد سبق القرآن إلى القول به وأثبته التقدم العلمي في مختلف العلوم لهو اليوم الذي نكون فيه قد أدينا الرسالة وأبلغنا الدعوة وأظهرنا معجزة القرآن لغير العرب[١] .

كما نراه يدافع عن اتجاهه في تفسير بعض آيات القرآن الكريم علمياً فيقول في كتابه(بين الدين والعلم): «وقد يكون لبعض المعترضين الحق إذا كان ما ندعو إليه هو التفسير بنظريات علمية، ولكن لم يتجه أي إنسان مخلص في دعوته إلى النظريات العلمية بل إلى الحقيقة العلمية. والفارق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية كبير وكبير جداً، إذ أن النظرية العلمية هي مالم يقم الدليل على صحتها بدرجة تجعلها حقيقة غير قابلة للتطور أو التغيير أو التبديل».

ثم ضرب للفرق بين النظرية والحقيقة العلمية مثلاً فقال:

كان من المعروف أولا أن الأرض منبسطة بدليل أن الإنسان إذا نظر أمامه يراها هكذا منبسطة، ولم تكن هذه حقيقة علمية ولم ترتفع إلى درجتها، بل عندما رأى العلماء أنه عند رصد السفن في البحار فإن أول مايرى منها أعلاها قالوا بنظرية كروية الأرض،

---

(١) القرآن والعلم الحديث/ ٣٠/ ط٢/ .

ولم تقرر كروية الأرض كحقيقة إلا بعد أن أضيف إلى هذا الدليل أدلة متعددة وضعت موضع الاختبار القياسي فقيست أبعادها وأخذت أقطارها وصورت من خارجها فإذا بها كروية، وعندئذ أصبحت كروية الأرض حقيقة، فهل من خوف الآن من أن نجد الأرض غير ذلك.

فإذا فسرنا الآيات الشريفة الواردة في القرآن والتي تشير إلى كروية الأرض قبل أن يصل العلم إلى ذلك بعشرات المئات من السنين أيكون هناك من خوف على هذه الآيات ونكون قد عرضناها لنظريات متغيرة؟!

ثم هذه الأوجه في هذه الآية الواحدة والتي وصل المفسرون إلى مايقرب من عشرة أوجه فيها ماضرّ لو زادت وجهاً علمياًمؤكداً؟!

ثم هل إذا ظهر العلم بعد ذلك بحقيقة أخرى تغاير مافسرت به الآية، هل يمكن أن يقول قائل: إن الخطأ في الآية؟ أم ترى سيقول الناس: لقد أخطأ المفسر. كما أن مما قد يثيره الخصوم الشك في تفسير كل آية في موضع من القرآن تفسيراً يغاير تفسير آية مماثلة في سورة أخرى لاسيما الآيات العلمية أو التشريعية.

إن إعجاز القرآن ليظهر بوضوح أكثر إذا مادرست آيات الموضوع الواحد وربطت بعضها ببعض وفسر بعضها بعضاً، وثم التعليق عليها بما أوضحه العلم، وهكذا فإنه لاتعارض بين العلم والدين إطلاقاً»[1] .

ويلوم عبد الرزاق نوفل من فسر بعض الآيات تفسيراً علمياً لايتفق مع سياق الآية مثل تفسير الآيات ﴿والفجرِ وليالٍ عشرٍ والشَّفْعِ والوَتْرِ واللّيلِ إذا يَسْرِ هلْ في ذلك قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾[2] ، ومحاولة الربط بينها وبين تحنيط الفراعنة لأجسادهم حيث كا يتم ذلك في الفجر بعد عشر ليال، وكذلك تفسير الآيات ﴿والتينِ والزيتونِ وطُورِ سِينِيْنَ وهذا البلدِ الأمينِ﴾[3] ، بادعاء أن هذه الآيات تشير إلى(بوذا) حيث بات ليلة تحت شجرة من فصيلة التين، والزيتون إشارة إلى رسالة عيسى وطوررسينين إشارة إلى رسالة موسى، وهذا البلد الأمين رمز النبوة المحمدية.

والمعروف أن بوذا يقرر أنه لم يرسل من السماء ولانزل عليه وحي أو كتاب، كما

---

(١) بين الدين والعلم / ١٤٤ـ١٤٦ ط١/ .
(٢) سورة الفجر آية/ ١ـ٥/ .
(٣) سورة التين آية/ ١ـ٣/ .

أنه لايقول بالآخرة، فكيف يربط البعض بينه وبين باقي المرسلين؟

كما يرى أن من الأسباب التي قد يتخذها الخصوم - يقصد المعارضين للتفسير العلمي - سبيلاً إلى إشاعة معارضة العلم للإسلام المحاولات الفردية لتفسير القرآن بأكمله ويقول: إن هذا من أخطر مايمكن على التفسير، إذ لايمكن للفرد مهما كانت طاقته ودرجة علمه القيام بتفسير آيات القرآن كلها، فكيف يعلم الإنسان متفرداً بكل ماتضمنه القرآن الكريم من علوم وإعجاز إلماماً يجعله على درجة من العلم تمكنه من القيام بهذا العمل الضخم الجليل الخطير(١) ؟!

التفسير العلمي للقرآن بثوابت العلوم:

بعد هذه الجولة مع التفسير العلمي بين المنهج القديم والمنهج الحديث نأتي لاستخلاص الحقيقة الراسخة التي أتى بها القرآن العظيم، ألا وهي: قول الله تعالى: ﴿ سنريهم آيَاتِنَا في الآفاقِ وفي أنفسِهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحق﴾!! [سورة فصلت آية ٥٣].

وعلى هذا فإنّ الحقائق القرآنية لايتوصل إليها الإنسان إلاّ بعد سبر العلوم الموصلة إليها، وهذا يحتاج إلى دأب متواصل وتحصيل مستمر للوقوف على حقائق العلوم وثوابتها، وعندها يستطيع الباحث أن يكشف جوانب ممّا في آيات الله تعالى في القرآن العظيم، لاجميعها، فإنّ هذا العلم سيبقى أبد الدهر وراء آيات الله تعالى لايعلوها ولايتقدم عليها، ولايتهي من بيانها، وهذه المكتشفات الحديثة ماهي إلاّ غيض من فيضٍ لاينضبُ معينُهُ أبداً، ولهذا لايجوز للباحث المُسارعةُ إلى الخوض في التفسير العلمي إلاّ بعد استيفاء شروطه والتقيد بقواعده وأصوله وضوابطه.. (٢)

وإنّ أهم شروطه وقواعده مايلي:

١- أن يكون التفسير العلمي للآيات الكونية مطابقاً لمعنى النظم القرآني.

٢- أن لايخرج عن حدّ البيان إلى عرض النظريات العلمية المتضاربة.

٣- أن يتحقق الباحث من ثبوت القضايا العلمية التي يُفسَّر بها معاني الآيات الكونية.

---

(١) التفسير العلمي في الميزان: أحمد عمر أبو حجر/ ٢١٠/ ط دار قتيبة دمشق.

(٢) انظر «أصول التفسير وقواعده» للمؤلف/ ط دار النفائس / ص٢١٧-٢٢٤./

٤ـ أن لايحمل الآيات حملاً على النظريات العلمية.

٥ـ أن يلتزم بالمعاني اللغوية للآيات، لأنّ القرآن عربي مبين.

٦ـ تجريد البحث عن جميع الاحتمالات المظنونة، فلاتفسير إلاّ بماهو ثابت.

٧ـ جعل الآيات الكونية أصلاً في البحث لاتبعاً له.

فيجب الالتزام بهذه الشروط والتقيّد بهذه القواعد حتى يكون المنهج سليماً والتفسير صحيحاً.

نماذج من التفسير العلمي:

إن القرآن الكريم قد ساق الأدلة الكثيرة التى تثبت وجود الله تعالى، وترينا آثار رحمته بنا وتدبيره في الكائنات. وقد أكثر من الآيات الكونية القرآنية وساقها في أساليب مختلفة وألوان شتى من البيان، يفصل تارة ويجمل أخرى، ولكل مقام مقال.

وفي هذه الآية يخص القرآن بالذكر الأرض التي نعيش فوقها والنفس التي تعبر عن الذات.

الأرض هذا الكوكب المعد للحياة المجهز لاستقبالها وحضانتها بكل خصائصه، ولواختلت خصيصة واحدة من تلك الخصائص الكثيرة جداً لتعذر وجود هذا النوع من الحياة عليها. لوتغير حجمها صغراً أو كبراً، لوتغير ميل الأرض عن محورها هنا أو هنا، لوتغيرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أوبطئاً،لوتغير حجم القمر أو بُعْدُهُ عنها. لوتغيرت نسبة الماء واليابس فيها زيادة أو نقصاً،لو..لو الخ الموافقات المعروفة والمجهولة التي تتحكم في صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة[1]. والتي لايمكن أن تتم مصادفة وأن تتناسق كلها هذا التناسق. لوتغير شيء من هذا أدنى أدنى تغيير لماكانت الأرض صالحة للحياة.

يقول(فرانك ألن)العالم الطبيعي في مقال نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم)[2] عندما يتحدث عن الأرض وعن نشأة الحياة فيها، يقول:

«إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لايمكن تفسيرها على أساس المصادفات أو العشوائية، فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها فيكون في

(١) في ظلال القرآن: ج٢٧/ ٣٣٧٨/ .ط دار الشروق.

(٢) ص ٥/ ط٣/ .

ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام، فيكون في ذلك تتابع الفصول الذي يؤدي بدوره إلى زيادة المساحة للجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر ممالوكانت ساكنة.

ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير(يزيد على٥٠٠ ميل). ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يومياً إلينا منقضّةً بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية، والغلاف الجوي المحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يحيي الأرض بعد موتها. والمطر مصدر الماء العذب، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة. ومن هنا نرى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة، ولو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر أو أن قطرها كان ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين: الجوي والمائي اللذين يحيطان بها، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت.

أما لوكان قطرها ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف، وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ماهي عليه، وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائي، وزاد الضغط الجوي من كيلو جرام واحد إلى كيلوجرامين على الستيمتر المربع. ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر في الحياة على سطح الأرض، فتتسع مساحة المناطق الباردة اتساعاً كبيراً، وتنقص مساحة الأراضي الصالحة للسكنى نقصاً ذريعاً.

ولوكانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها(١٥٠) ضعفاً، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوي إلى أربعة أميال ولأصبح تبخر الماء مستحيلاً ولارتفع الضغط الجوي إلى مايزيد على(١٥٠) كيلوجراماً على الستيمتر المربع ولوصل وزن الحيوان الذي يزن حالياً رطلاً واحداً إلى ١٥٠ رطلاً، ولتضاءل جسم الإنسان حتى صار في حجم ابن عرس، ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولوأزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض.

ولونقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ماهي عليه الآن لبلغت الحرارة

التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي إذا كانت هناك فصول مطلقاً ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة.

وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبُعْدِها الحاليين عن الشمس وسرعتها في مدارها يهيء للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها في صورها المادية والفكرية والروحية على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا[1]

هذا ماقاله العلم.

وصدق الله في قوله: ﴿وخلق كل شيء فقدّره تقديرا﴾[2] قدّر حجمه وشكله وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير. وإن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه ممايدعو إلى الدهشة حقاً وينفي فكرة المصادفة نفياً باتاً ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير. وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني ﴿وخلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقديراً﴾.

«وربما كان المخاطبون إذ ذاك غير مدركين كل هذه العجائب المتعلقة بالأرض ولكنهم كانوا يرون أن الأرض التي خلقها اللهلتكون مستقراً ومستودعاً لهم صالحة للحياة على وجه الإجمال، وهذا يكفي. ثم يبقى النص القرآني بعد ذلك مفتوحاً للأجيال، وكلما اتسع نطاق علم البشر أدركوا شيئاً من معناه المتجدد على توالي الأجيال. وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول على توالي الأزمان[3].

﴿وفي أنفسِكُمْ أفلا تُبْصِرُون﴾؟!

لقد أطال القرآن الحديث عن الإنسان في أصل وجوده وفي تطور خلقه في بطن أمه وفي خصائصه وتميزه عن سائر المخلوقات بالإجمال تارة وبالتفصيل تارة أخرى. ومماجاء في القرآن من الاحتجاج على وجود الله وقدرته وتدبيره وحكمته لخلق الإنسان، هذه الآية التي قرنت بين الأرض وبين النفس الإنسانية.

وقال فخر الدين الرازي: «سبحان من أسمع بعظم وبصرّ بشحم وأنطق بلحم،

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص٦ـ٩/ ط٣/ .

(٢) سورة الفرقان آية/ ٢/ .

(٣) في ظلال القرآن ج٢٠/ ٢٦٥٧/ .

واعلم أن كتاب التشريح لبدن الإنسان مشهور، وكل ذلك يدل على تربية الله تعالى للعبد[1] .

أما بواطن عجائب الإنسان فتعرف فيما وصل إليه الطب الحديث من دقائق الخلق في كل عضو من أعضائه بل في كل خلية من خلاياه، ويعرف كثير من الناس اليوم كيف تفرعت علوم الطب والنفس إلى عشرات من الفروع لتبحث في تحليل وظائف الأعضاء ومايعتريها من الأمراض وماهي في حاجة إليه من العلاج للشفاء.

إن الإنسان عجيب في تكوينه الجسماني، وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تُدهش وتُحيّر، تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف عملية الهضم العجيبة والامتصاص. عملية التنفس والاحتراق دورة الدم في القلب والعروق. الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسم ونشاطه وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها وتجاوبها الكامل الدقيق.

وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب، وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب.

وللعلم الحديث محاولات في معرفة شيء عن نعمتي البصر والسمع، نذكر منها مايلي: تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية ولايعلم إلا الله تعالى أين تنتهي، ويقول العلم: إن الاهتزاز الذي يحدثه الصوت في الهواء ينقل إلى الأذن التي تنظم دخوله ليقع على طبلة الأذن، وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن. والتيه يشتمل على نوع من الأقنية بين لولبية ونصف مستديرة. وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس. فماطول القوس منها وماحجمه؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التي تبلغ عدة الاف؟ وماالحيز الذي وضعت فيه؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتماوجة. هذا كله في التيه الذي لايكاد يُرى.

وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة دقةً وعظَمةً تُحيّر الألباب. ومركز حاسة الإبصار العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء، وهي أطراف أعصاب الإبصار. وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية، وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية. وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات، وقد نظمت كلها في تناسب محكم.

---

(١) مفاتيح الغيب ج١/ ١٢٥.

ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذي يقيها ليلاً ونهاراً والذي تعتبر حركته حركة لاإرادية، والذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة، كمايكسر من حدة الشمس بماتلقي الأهداب على العين من ظلال.

وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين. أما السائل المحيط بالعين والذي يعرف باسم الدموع فهو أقوى مُطهّر، كما أنه يجعل حركة العين سهلة ميسورة وبدونه تصاب العين بمايمنعها عن الإبصار والحركة.

ويكفي أن تعلم أن صورة الشيء المنظور تطبع معكوسة على الشبكية، وينقل العصب البصري هذه الصورة المعكوسة الشكل إلى المخ فيعيدها المخ إلى العين وقد عكسها مرة أخرى أي عدلها، فيراها الناظر معدولة وغير معكوسة»[١].

ويقول كريسي موريسون[٢] عن عملية الهضم والجهاز الهضمي:

إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيميائي أدركنا أنه عملية عجيبة حقاً، إذ تهضم كل شيء يؤكل ماعدا المعدة نفسها.

فنحن نأكل شرائح اللحم والخبز والخضر والفول وغيرها ثم نشرب الماء وغيره فتختار المعدة من بين هذا الخليط الأشياء ذات الفائدة وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيميائية دون مراعاة للفضلات، وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة تصبح غذاءً خفيفاً لمختلف الخلايا. وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية، وتعنى بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية، وبإمكان إنتاج الهرمونات وبأن تكون الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منتظمة ومستعدة لمواجهة كل ضرورة وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى للقاء كل حالة طارئة مثل الجوع، وتفعل ذلك كله بالرغم من تفكير الانسان أو تعليله.

وحين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد تقدم باستمرار إلى كل خلية من ملايين الخلايا. ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً والايورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة لتحويلها إلى عظام وأظافر ودم ولحم وشعر وعينين وأسنان، كما تتلقاها الخلية المختصة.

فهاهنا معمل كيمياوي ينتج من المواد أكثر مماينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان،

---

(١) الله والعلم الحديث: عبد الرزاق نوفل/٤٦ـ٥٠/.

(٢) العلم يدعو للإيمان ص٥/ ترجمة محمود صالح الفلكي.

وهاهنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل والتوزيع عرفه العالم ويتم فيه كل شيء بمنتهى النظام.

وفي حالة العدوى بجراثيم معادية يحتفظ الجسم بجيش قائم على قدم الاستعداد باستمرار ليلاقي الغزاة، وهو يتغلب عليها عادة.

ومثل هذه المجموعة من المعجزات لايوجد ولايمكن أن يحدث بأي حال في غيبة الحياة، وكل ذلك يتم في نظام كامل«أليس ذلك كله من صنع الخالق؟!»[1].

لقد منح الله الإنسان القدرة على فهم أسرار الكون ولكن ذلك شغله عن الوصول إلى معرفة أسرار ذاته، تلك النفس التي وضعها القرآن الكريم في كفة الكون كله بمافيه من عوالم ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[2].

وإذا نجح الإنسان في اكتشاف الكون من حوله فإنه عجز عن اكتشاف النفس بمافيها من أبعاد وبمالها من قوى دافعة واتجاهات في دروب الحياة المختلفة، وفي الاحتجاج بأصل خلق الإنسان يقرر الإنسان هذه الحقيقة ليتخذها مجالاً للتدبر في صنع الله ولتتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان. لقد نشأ الجنس الإنساني من سلالة من طين ﴿وبدأ خلقَ الإنسانِ منْ طين﴾[3]، فأما نشأة الفرد الإنساني بعد ذلك فتمضي في طريق آخر ﴿ثم جعلَ نَسْلَهُ منْ سُلالَةٍ منْ ماءٍ مَهِين﴾[4].

وهنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام ماكشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا بعد تقدم علم الأجنة فتبارك الله أحسن الخالقين.

وكما استدل القرآن بالإنسان من حيث نشأته وتكوينه بالأرض على وحدانيته سبحانه وقدرته على البعث وإبداعه في الخلق. استدل بالسموات وقرنها في كثير من الآيات بالأرض في مثل قوله تعالى: ﴿إنّ في السّمٰوات والأرضِ لآياتٌ للمؤمنين﴾[5] وقوله تعالى: ﴿قل انظرُوا ماذَا في السّمٰوات والأرضِ﴾[6]. وآيات السماء كثيرة ومتنوعة بعضها تدرك بأدنى تأمل وبعضها يدركه المتخصصون من أولي العلم في هذا الشأن.

---

(١) العلم يدعو للإيمان ص١٥٣/ .
(٢) سورة فصلت آية/ ٥٢ .
(٣) سورة السجدة آية/ ٦ .
(٤) سورة السجدة آية/ ٧ .
(٥) سورة الجاثية آية/ ٢ .
(٦) سورة يونس آية/ ١٠١ .

ففي كيفية بنائها آية، وفي رفعها بلاعمد مرئية لنا آية، وفي تزيين الكواكب لها آية، وفي عدم تصادم هذه الكواكب بعضها مع بعض آية، وفي جعلها سقفاً محفوظاً من الوقوع آية، ﴿وجعلنا السّماءَ سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها مُعرضون﴾[1] .

ولاشك أن الذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذه الكواكب ونظامها- كماكشف العلم الحديث عن جوانب منها- تدركه الدهشة والذهول.

وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ماترى في خَلْقِ الرحمٰنِ من تفاوتٍ فارجعِ البصرَ هلْ ترىٰ من فُطور. ثم أرجعِ البصرَ ينقلبْ إليكَ البصرُ خاسئاً وهو حَسِير﴾[2] .

كما تعرض القرآن لبعض خواص النبات ولفت نظر الإنسان إلى بعض تصاريف القدرة الإلهية في عالم النبات الذي لايمكن أن يصدر إلا عن قدرة واسعة وعلم تام وحكمة بالغة.

فقد أمر الله الإنسان أن ينظر إلى طعامه والمراحل التي يمر بها حتى يصل إليه فقال: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيه حباً وعنباً وقصباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا وفاكهة وأبّا متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[3] .

إن الله تعالى صب الماء من السماء صباً، ثم شق النبات بجذر الأرض شقاً، ومع أن باطن الأرض قد يكون صلباً لاتنفذ فيه الأشياء القوية فضلاً عن الضعيفة لكن جذور الشجر والنبات - مع أنها في غاية الدقة واللطافة - تأخذ طريقها فيه وتغوص لتأخذ ماتحتاج إليه من غذاء فيصير النبات أشكالاً مختلفة وألواناً متعددة بعضه صالح لطعام الإنسان، وبعضه صالح لطعام الحيوان ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾.

إن خروج النبات من الأرض كان ينظر إليه الناس على أنه أمر عادي وطبيعي، حتى كشف العلم عن بعض خصائص الخلايا التي تحتويها كل بذرة من البذور مهما دقّت. ولكن العلم وقف عاجزاً أمام القوة الكامنة التي تجعل الخلايا الحية في البذور تقوم بتلك الوظائف المعقدة من إنبات جذور النبات وسوقه، ومايتبع ذلك من فروع وأوراق وثمار.

---

(١) سورة الأنبياء آية/ ٣٢/

(٢) سورة الملك آية/ ٣-٤/ .

(٣) سورة عبس الآيات٢٤/ ٣٢/ .

لقد نجح العلم في اكتشاف مايسمى بالتمثيل الكلوروفلي، وبأن الجذر يمتص مايحتاج إليه من غذاء من تربة الأرض.

ولكن لماذا تمتص بذرة الحنظل مثلاً العناصر الشديدة المرارة وتمتص بذرة البطيخ ـ رغم التشابه الكبير بينهماـ العناصر الحلوة.

لم ينجح واحد من العلماء في ذكر سبب علمي معقول حتى قال العالم الألماني(تشارلز أرتست)(وكيل الأكاديمية العلمية في أنديانا):

«إن كل خلية حية من الخلايا الموجودة في البذور أوفي النباتات بلغت من التعقيد درجة من المستحيل على العقل البشري حل طلاسمها. وانا لاأملك إلا القول إن ذلك يرجع إلى قدرة هائلة في تكوينها، وهي قدرة خالق هذا الكون». وقال عالم آخر وهو(جون زمرمان) ـ ويعمل استاذاً للزراعة في كلية(جوشن):

«إننا نخدع أنفسنا إذا اعتقدنا أن النظريات العلمية التي لدينا تكفي لإنبات البذور وإنماء النبات، نحن نقول إنّ الماء والهواء والمواد الكيميائية التي تمتصها الجذور من الأرض هي التي تنبت النباتات، ولكن ذلك كله هراء، إذا لم نؤمن بوجود قوة قادرة هي التي توجه التفاعلات الكثيرة المتشابكة التي تعمل في توافق عجيب. والدليل القاطع على ذلك أننا على الرغم مماندعيه من تقدم العلوم لايمكننا صنع أي بذرة من البذور مهما بلغ صغر شأنها»[1].

وبهذه الطريقة وبتتبع الآيات الكونية القرآنية التي تتعلق بالإنسان أو الحيوان أو السموات والأرض وغيرها، بهذا الأسلوب الذي يعتمد على التحليل العلمي المبين للخصائص والمميزات واستخلاص الدلائل من كل ذلك على وجود الله وقدرته وإبداعه، هذه الطريقة المثلى للاستفادة من مقررات العلم وحقائقه في تعميق نصوص القرآن الكريم دون ربطه بالعلم في فروضه ونظرياته.

وقال الله تعالى: ﴿وإنّ لكم في الأنعامِ لعبرةً نُسقيكم ممّافي بطونهِ من بينِ فَرْثٍ ودَمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾[2].

إن هذه الآية من الآيات التي تستدعي تأملاً دقيقاً لمعرفة حكمة الخلق والتدبير الإلهي العظيم، وفيها عبرة وآية دالة على وحدانية الله وقدرته وحمكته في خلقه.

---

(١) القرآن والقصة الحديثة: محمد كامل حسين ص/ ٧٣/ ط١.

(٢) سورة النحل آية/ ٦٦/ .

وقد كتب الأستاذ أحمد كامل ضو تعليقاً عليها في كتابه(القرآن والعلوم الحديث) يقول: إن الجهاز الهضمي يقوم بهضم الغذاء وامتصاص الصالح منه، وهذا الجزء الصالح منه يذهب إلى الدم فيختلط به، وباستمرار دخوله في القلب وخروجه منه ثم مروره في أجزاء الجسم المختلفة يغذي مايحتاج منها إلى غذاء، فالغذاء إذاً تحول جزء منه إلى دم وجزء إلى (فرث) فالدم يسير في أوعية وهي الشرايين والأوردة المنتشرة في جميع أجزاء الجسم صغيرها وكبيرها حاملاً المواد الغذائية الذاهبة إليه من القناة الهضمية ليوزعها في أنحاء الجسم لبناء الأنسجة وتعويض المستهلك أثناء تأدية الوظائف الحيوية، وهو يغذي الغدد التي منها الغدد اللبنية(ضرع الحيوان) المنوط بها إفراز اللبن.

فالغذاء يتحول جزء منه إلى دم، وهذا الدم يذهب إلى ضرع الحيوان حيث يغذي الغدد اللبنية بما يحمله من مواد مهضومة فتتمكن من القيام بوظيفتها وهي إفراز اللبن أو بعبارة أوضح تحول هذا الجزء من الدم إلى لبن.

أما الجزء الآخر فإنه يتحول إلى براز غير صالح وهو الفرث فإنه تعالى سيطر بقدرته على الطعام فشطره شطرين هما الدم والفرث وأخرج من بينهما اللبن خالصاً من كل شائبة تشوبه من أثر الطعام المهضوم ورائحته، صافياً من كل المواد التي كانت في الدم ناصع البياض طاهراً، وذلك بعملية الغدد اللبنية التي خلقها سبحانه كمعمل كيميائي يتحول الدم فيه إلى لبن، ثم يصفى بأدق مصفاة وأنظف أداة حتى يخرجه تعالى«لبنا خالصاً سائغاً للشاربين» لاتشوبه شائبة من لون الدم ولامن قذارة الفرث ورائحته. ولواجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا من الدم الأحمر القاني لبناً أبيض خالصاً، له طعم ورائحة وقوام وتركيب يخالف الدم الذي نشأ منه نتيجة واتفق معه أصلاً، أو حتى يجعلوه صافياً كماخلقه الله ـ جلّتْ قدرته ـ لأخفقوا ولما استطاعوا.

وقد جعله الله تعالى سائغاً للشاربين سهل المرور في حلوقهم حلو الطعم في أفواههم وأوجد فيه ذلك اليسر لما فيه من فوائد جمة تعود على مخلوقاته إنسية وحيوانية. واللبن يتكون من الماء والدهن والسكر والزلال والأملاح والفيتامينات، فهو يحتوي على جميع العناصر الغذائية التي يحتاج إليها الإنسان والحيوان، ويعتبر بحق أهم الأغذية على الاطلاق[1].

ومماجاء في تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور حول هذه الاية

---

(١) القرآن الكريم والعلم الحديث/ ٥٦ـ٦٠/ ط٢.

قوله: وجه العبرة في ذلك أن ماتحتويه بطون الأنعام من العلف والمرعى ينقلب بالهضم في المعدة ثم الكبد ثم غدد الضرع مائعاً يسقى وهو مفرز من بين إفراز فرث ودم. والفرث: الفضلات التي تركها الهضم المعدي فتنحدر إلى الأمعاء فتصير فرثاً. والدم: إفراز تفرزه الكبد من الغذاء المنحدر إليها، ويصعد إلى القلب فتدفعه حركة القلب الميكانيكية إلى الشرايين والعروق ويبقى يدور كذلك بواسطة القلب.

ومعنى كون اللبن من بين الفرث والدم أنه إفراز حاصل في حين إفراز الدم وإفراز الفرث، وعلاقته بالفرث أن الدم الذي ينحدر في عروق الضرع يمر بجوار الفضلات البولية والثفلية، فتفرزه غدد الضرع لبناً، كماتفرزه غدد الكليتين بولاً بدون معالجة زائدة، وكماتفرز تكاميش الأمعاء ثفلاً بدون معالجة، بخلاف إفراز غدد المثانة للمني لتوقفه على معالجة ينحدر بها الدم إليها. وليس المراد أن اللبن يتميّع من بين طبقتي فرث ودم وإنما الذي أوهم ذلك من توهمه حمله(بين) على حقيقتها من ظرف المكان، وإنما هي تستعمل كثيراً في المكان المجازي فيراد بها الوسط بين مرتبتين كقولهم: الشجاعة صفة بين التهور والجبن، فمن بلاغة القرآن هذا التعبير القريب للأفهام لكل طبقة من الناس بحسب مبالغ علمهم، مع كونه موافقاً للحقيقة.

والمعنى: إفراز ليس هو بدم لأنه ألين من الدم، ولأنه غير باق في عروق الضرع كباقي الدم في العروق فهو شبيه بالفضلات في لزوم إفرازه، وليس هو بالفضلة لأنه إفراز طاهر نافع مغذ، وليس قذراً ضاراً غير صالح للتغذية كالبول والثفل.

وموقع ﴿من بينِ فَرْثٍ ودَمٍ﴾ موقع الصفة للبنا، قدمت عليه للاهتمام بها لأنها موضع العبرة فكان لها مزيد اهتمام، وقد صارت بالتقديم حالاً.

ولما كان اللبن يحصل في الضرع لافي البطن جعل مفعولاً لفعل(نسقيكم) وجعل ﴿ممافي بطونه﴾ تبييناً لمصدره لالمورده، فليس اللبن مما في البطون، ولذلك كان ﴿ممافي بطونه﴾ متقدماً في الذكر ليظهر تعلقه بفعل نسقيكم وليس وصفاً للبن. وقد أحاط بالأوصاف التي ذكرناها للبن قوله تعالى ﴿خالصاً سائغاً للشاربين﴾ فخلوصه: نزاهته مماأشتمل عليه البول والثفل، وسوغه للشاربين: سلامته ممايشتمل عليه الدم من المضار لمن شربه، فلذلك لايسيغه الشارب ويتجهمه. وهذا الوصف العجيب من معجزات القرآن العلمية، إذ هو وصف لم يكن لأحد من العرب يومئذ أن يعرف دقائق تكوينه ولاأن يأتي على ماوصفه بما لووصفه به العالم الطبيعي لم يصفه بأوجز من هذا وأجمع.[1]

---

(١) التحرير والتنوير / ١٤/ ٢٠٠/ .

الميتة والدم ولحم الخنزير والتماس الحكمة في تحريمها:

أحل الله تعالى لعباده المأكولات والمشروبات وحرم عليهم أشياء قليلة منها لضررها البين بصحة الأجسام والعقول. كماحرمها ابتلاءً واختباراً ليعلم المطيع من العاصي، فالميتة حرم الله أكلها في عدة آيات من القرآن الكريم(١) وهي الحيوان الذي فقد حياته بغير ذكاة شرعية، وذلك بأن يكون سبب وفاته مرضاً من الأمراض أو حادثة من الحوادث كالخنق والتردي ومايشبهها.

ويكفي أن يموت الحيوان من مرض فتبقى جراثيم هذا المرض في دمائه، فأكل الميتة مقدم على عمل ضار بصحته لامحالة.

قال الرازي في تفسيره: «تحريم الميتة موافق لنا في العقول، لأن الدم جوهر لطيف جداً، فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم في عروقه وتعفن وحصل من أكله مضار عظيمة(٢).

وقد جاء في القرآن من قبل أن يكتشف الناس مافيها من أضرار قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عليكُمُ الميتةُ والدّمُ ولحمُ الخنزيرِ وماأُهِلَّ لغيرِ اللهِ بهِ والمنخنقةُ والموقُوذَةُ والمتردِّيَةُ والنَّطِيحةُ وماأكلَ السَّبُعُ إلاّ ماذكّيتُمْ وماذُبِحَ على النُّصُبِ﴾(٣).

والمنخنقة: هي التي خنقت بحبل أو غيره حتى ماتت، ومن المعروف علمياً أن الكائن الحي إذا اختنق أي منع دخول الأوكسجين إلى رئتيه فإنه تتراكم في جسمه غازات ثاني أوكسيد الكربون السامة، كما تتراكم جميع الإفرازات السامة التي تخرج عادة مع التنفس في عملية الزفير، وهذه المواد إذا احتسبت عادت لتمتص في الجسم فتحدث التسمم في كل أنسجته ثم الوفاة.

والموقوذة: هي التي ضربت فماتت.

والمتردية: هي التي سقطت من مكان مرتفع فماتت.

والنطيحة: هي التي نطحها حيوان آخر فتسبب في موتها، وهذه كلها في حكم الميتة.

---

(١) كما في سورة البقرة آية/ ١٧٢/ والمائدة آية/ ٤/ والأنعام آية١٤٦/ والنحل آية١١٥/ .

(٢) مفاتيح الغيب: للرازي ج٣/ ٣٦٥/ .

(٣) سورة المائدة آية/ ٤/ .

وماأكل السبع: أي الحيوان الذي افترسه حيوان من السباع فأكل بعضه وأبقى البعض الآخر، وحكمة ذلك علمياً أن هذا الحيوان قد يكون مصاباً بمرض يظهر في فمه ولعابه وتبقى آثاره على اللحم فتؤذي من يأكل منه«ولأن أكيلة السبع تموت بغير سفح الدم غالباً بل بالضرب على مقاتل الحيوان»[1] .

والدم: المقصود به الدم المسفوح لاماخالط اللحم، لأن الله تعالى يقول في آية سورة الأنعام: ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ وحمل المطلق في بقية الآيات على المقيد هنا.«والدم يعتبر أصلح الأوساط لنمو الجراثيم فبمجرد ذبح الحيوان يصبح عرضة لانتشار الجراثيم فيه، فإذا ماشرب الدم إنسان فكأنما شرب مزرعة نمت فيها الجراثيم وتكاثرت»[2] .

وقد ثبت علمياً أن أي مرض يستعصي تشخيصه فإن تحليل الدم يكشف عن أصل هذا المرض لمايحتويه الدم من ميكروبات المرض.

يقول الدكتور: محمد توفيق صدقي:«الدم عسر الهضم جداً حتى أنه إذا انصب جزء منه في المعدة تقيأه الإنسان أو يخرج مع البراز بدون هضم على صورة مادة لزجة سوداء، والسبب في عسر هضمه هو وجود المادة الحمراء الحديدية فيه، وفي أثناء مرور الدم في القناة الهضمية يتحلل ويتعفن. وبذلك يضر الجسم أيضاً. ثم قال:

فإن قيل: لم لايطبخ الدم ويؤكل بعد قتل هذه الميكروبات بالغلي؟ ويجيب عن هذا السؤال بقوله:

إن الغلي يجمد جميع المواد الزلالية التي في الدم وبذلك تصير أشد عسراً مماكانت.

إن من هذه السموم مالايتغير بالغلي تغيراً يجعلها صالحة للجسم، ومنها مالايتغير مطلقاً»[3] .

وهنا ملحوظات يجب أن تؤخذ في الاعتبار:

أولاً: إن الإسلام لايحرم على المسلم تناول أي نوع من هذه الأطعمة إذا كان مضطراً، كمن يتعرض للهلاك جوعاً ولايجد مايتناوله ليحفظ به حياته.

---

(١) التحرير والتنوير: لابن عاشور ج٦/ ٩٢/ .
(٢) بين الطب والإسلام: حامد الغزالي ص٩٠/ دار الكتاب العربي ـ القاهرة.
(٣) دروس سنن الكائنات ج١/ ٥٤/ .

ثانياً: إن هناك جانباً روحياً وأخلاقياً في التحريم - كماذكرت سابقاً- يجب ألا يغفل، فليس الطب الجسمي هو العامل الوحيد، ولكن هناك الطب الروحي والأخلاقي أيضاً، فالإسلام يحرم تحريماً قاطعاً كل أنواع العنف والعدوان للحصول على الطعام، فيحرم ضرب الحيوان أو خنقه أو تعذيبه، كمايكرم الإسلام الإنسان تكريماً عظيماً حين ينهاه عن أكل لحم حيوان أكل منه حيوان آخر أو أنهيت حياته بغير الذكاة المشروعة.

ثالثاً: إن الإسلام يحرم أكل ماأُهِلَّ لغير الله به، والقصد من ذلك ألا يؤكل إلا ماذبح ذبحاً شرعياً فيه إكرام للحيوان نفسه وصيانته له من التعذيب، وصيانة المسلم عن مخالطة عقيدة الشرك بأكل حيوان ذكر عليه اسم غير الله كأسماء الأصنام التي كانت تعبد من دون الله العلي الأعلى»[1].

لحم الخنزير: وهو ينقل مرضاً من أخبث الأمراض، فقد نشرت مجلة الدكتور عدد نوفمبر١٩٤٧ كلمة للدكتور سالم محمد بعنوان«صحتك من أدب القرآن» نقتطف منها مايلي:

أورد المقال آيتي البقرة والمائدة الخاصتين بتحريم بعض الأطعمة، ثم أخذ يشرحهما ويبين الحكمة في التحريم من الناحية الصحية إلى أن قال:

«ولكن أغرب مافي هاتين الآيتين هو تحريم لحم الخنزير بالذات فنص عليه ذبح أو لم يذبح، ولله حكمة في ذلك كشف عنها الطب الحديث.

ثم أشار إلى ان آكل لحم الخنزير يصاب بالدودة الشريطية المسماة(تيتا السوليم) وهي تعيش في أمعائه الدقاق، ويبلغ طولها متران إلى ثلاثة، وهذه الدودة لاتنمو ولاتتكامل إلا بين الإنسان والخنزير، ولاتصيب بعدواها سواهما.

ذلك أن الإنسان المصاب بها يكون برازه متلوثاً ببيضها فيأتي الخنزير وهو ولوع بأكل الأقذار فيتناول البراز فيفقس البيض في جوفه ويتحول إلى علقة تسمى بالدودة الكيسية وهي تعيش في عضلات الخنزير وأعضائه- فيأتي الإنسان فيأكل لحم الخنزير، وهذه الديدان فيه تتحول في جوفه - إن لم تكن قد- قتلت أثناء الطبخ - إلى الدودة الشريطية التي تبيض بدورها وهكذا».

كما أن لحم الخنزير يحتوي على كمية كبيرة من الدهن بين جميع اللحوم، ومن المعروف طبياً أن اللحوم المختلفة التي يأكلها الإنسان تتوقف سهولة هضمها في المعدة

---

(١) الوعي الإسلامي/ بحث للدكتور أحمد الفنجري عدد/ ١٣٩/ سنة١٩٧٦/ .

على كميات الدهن الذي تحويه، وعلى نوع هذه الدهون، فكلما زادت كميات الدهنيات كان اللحم أصعب في الهضم.

هذا بعض ماكشفه الطب الحديث من الأمراض التي تصيب آكل لحم هذا الحيوان. ويقول قوم: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر، لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توفرها وسائل الطهو الحديثة. وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة، فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف عنها بعد؟.

أفلا تستحق الشريعة التي سبقت العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها وندع كلمة الفصل لها، ونحرم ماحرمت ونحلل ماحللت، وهي من لدن حكيم خبير[١].

وقد عللت آية الأنعام تحريم أكله بكونه رجساً حيث قال: ﴿أو لحم الخنزير فإنه رجس﴾ وهو لفظ عام يطلق على كل ضار مستقبح حساً أو معنى، فتعليل آية الأنعام يشمل الأمرين، فهي من إيجاز القرآن الذي يشمل كل مايصل الناس إلى معرفته وتفصيله باتساع دائرة علومهم وتجاربهم من أضرار، ولولا العادة التي تسهل على كثير من الناس تناول السموم أكلاً وشرباً وتدخيناً، ولولا مايعالجون به لحم الخنزير لتخفيف ضرره لماأمكن أن يأكلوه ولاسيما أهل البلاد الحارة[٢].

الخمر وحكمة تحريمها علمياً

لقد وصف القرآن الخمر بأنها رجس من عمل الشيطان، وبأنها تصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ولايوجد إثم من الآثام يدخل ضرره في كل شيء كالخمر من الأفعال والكذب من الأقوال. فإلى جانب أضرارها الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وإذهابها للعقل لها أضرارها الصحية، وهي كثيرة أثبتها الطب الحديث. فمنها إفساد المعدة وفقد الشهية للطعام، ومرض الكبد والكلي وداء السل.

وقد قال الأطباء: إن المسكر لايتحول إلى دم كما تتحول سائر الأغذية بعد الهضم بل يبقى على حاله فيزاحم الدم في مجاريه فتسرع حركة الدم وتختل موازنة الجسم وتتعطل وظائف الأعضاء أو تضعف وتخرج عن وضعها الطبيعي المعتدل.

ومن تأثير الخمر في اللسان: إضعاف حاسة الذوق، وفي الحلق الالتهاب، وفي

---

(١) في ظلال القرآن ج١/ ١٥٥ـ١٥٦/ .
(٢) تفسير المنار: لرشيد رضا ج٦/ ١٣٦/ .

المعدة ترشيح العصارة الفاعلة في الهضم حتى يغلظ نسيجها وتضعف حركتها. وقد يحدث فيها احتقاناً والتهاباً، وتحدث في الأمعاء التقرح، وفي الكبد تمديده وتوليد الشحم الذي يضعف عمله وكل هذا يتعلق بالجهاز الهضمي.

ومن تأثيرها في جهاز التنفس إضعاف مرونة الحنجرة وتهيج شعب التنفس، وأهون من ذلك بحة الصوت والسعال، وأعظمها تدرن الرئة.

وفي الجهاز العصبي تولد الجنون، وفي التعامل مع الناس وقوع النزاع والخصام بين السكارى بعضهم مع بعض وبينهم وبين من يعاملهم أو يعاشرهم(١).

كما تزيد الخمر من سرعة النبض وتسبب اتساع أوعية الدم السطحية، وهذا يفسر سبب احمرار وجوه متعاطي الخمر، فليس هذا الاحمرار علامة على الصحة ولادليلا على القوة، إنما هو دم اتسعت أوعيته الخارجية فوضح، في حين أن الأوعية الداخلية انقبضت. وأن الخمر فوق ذلك تسبب ارتفاعاً في ضغط الدم، وبذلك تعرض مرتفعي الضغط للخطر.

أما تأثير الخمر في حرارة الجسم فقد ثبت طبياً أن كأساً من الخمر إلى ثلاثة كؤوس تسبب انخفاضاً في درجة حرارة الجسم بمقدار نصف درجة ستجراد تقريباً، وذلك بسبب اتساع أوعية الدم السطحية، وعلى ذلك تزيد في فقد الحرارة فينشأ عن ذلك فقد حرارة من الجسم أكثر(٢).

يقول الدكتور محمد توفيق صدقي:

«يظن كثير من الناس أن استعمال الخمور في البلاد الباردة ضروري للحياة، وقد أثبت جميع أطباء العالم بلا خلاف بينهم نقيض هذه الدعوى وظهر لهم أن الخمر من أعظم مايخفض الحرارة الجسمانية للأسباب:

أحدها: أنها تقلل الاحتراق الداخلي في الجسم المسمى بالتفاعل الحيوي.

ثانيها: أنها تمدد جميع أوعية الجلد وتكثر العرق، وبذلك يخرج كثير من حرارة الجسم.

ثالثها: أنها إذا تعوطيت بمقادير كبيرة انتهى الأمر بها إلى إضعاف جميع قوى الجسم، فيضعف القلب والدورة الدموية، ولذلك شوهد في البلاد الباردة كثير من

---

(١) تفسير المنار ج٢/ ٣٢٦/ .

(٢) بين الطب والإسلام ص/ ١٢١/ .

الناس الذين قتلتهم الخمر.

نعم إن جزءاً منها يحترق في الجسم فيولد فيه حرارة، ولكنها لاتعدّ شيئاً في جانب تبريدها الشديد للجسم، كمابينا.

أما الإحساس بالحرارة عقب تعاطيها فذلك ناشىء من ورود الدم بكثرة إلى الجلد لاللزيادة في الاحتراق فهو إحساس كاذب ضار بالجسم ـ اهـ [(١)].

كما أثبت الطب الحديث أن الأشخاص الذين يتعاطون الخمر أكثر استعداداً للمرض وأقل مقاومة له من الذين لايتعاطونها، وكذلك يكونون أقل تحملاً لأن تجري في أجسامهم العمليات الجراحية.

وقد يدعي بعض الناس أن الخمر قد تستعمل كدواء لبعض الأمراض، ولكن هذا الادعاء لاأساس له من الصحة، وقد نقل كثير من أطباء العالم قولهم: إنها لاتصلح كدواء، فهذا طبيب انجليزي يصرح في قوة قائلاً: «أنا لاأعلم مريضاً شفي من الخمر». ويقول طبيب آخر اسكتلندي: «الخمر لاتشفي شيئاً» ويقول طبيب ثالث: «إن الخمر تدخل الجسم وتخرج منه ولاأثر لها إلا ماتحدثه من أضرار» [(٢)].

وهكذا تتوارد أقوال الأطباء في أنها لاتصلح أن تكون علاجاً لأي مرض ولقد روىٰ مسلم في صحيحه أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء فقال الرسول ﷺ: إنه ليس بدواء ولكنه داء [(٣)].

وقد انتقد مؤتمر الأطباء الدولي سنة١٩٢٩ الخمر كدواء، وقرر أن انتشارها هدم لسعادة الأمم وتقويض لبناء الأخلاق [(٤)].

المحيض وحكمة النهي عن القرب

لقد بين الله تعالى في كتابه الكريم أسس الزواج، وتولى تلك العلاقة بالعناية والرعاية فوضح أهميتها ونأى بها عن أن تكون مجرد علاقة حيوانية لارابط لها ولاهدف منها. ومن هنا نهى القرآن الرجل عن مباشرة زوجته أثناء العادة الشهرية كمثل صادق ملزم بتحديد الأوقات المناسبة للمباشرة التي يراعى فيها قبول المرأة، كمايراعى فيها

---

(١) دروس من الكائنات / ١٣ـ١٤/ .

(٢) تفسير الجواهر: للطنطاوي جوهري ج١/ ١٩٧/ .

(٣) أخرجه مسلم / شرح النووي ج١٣/ ١٥٢/ .

(٤) الغذاء والدواء في القرآن للدكتور مهران والدكتور حفني صابر ص١٤٩/ .

شعور الرجل. وقد سئل رسول الله ﷺ عن المحيض في وقت لم يكن يعرف عنه إلا أنه إفراز داخلي، فنزل القرآن مقرراً أن المحيض أذى وأمر باعتزال النساء فيه وعدم قربهن.

ففي صحيح مسلم عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن[1] في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي، فأنزل الله تعالى: ﴿ويسألونَكَ عن المَحِيضِ قُلْ هو أذىً فاعتَزِلُوا النّساءَ في المَحِيضِ ولاتقربوهنّ حتى يطهرنَ فإذا تطهرنَ فأتوهنّ من حيثُ أمركم اللهُ إنّ اللهَ يُحبُّ التوابين ويُحبُّ المتطهرين﴾[2] فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كلّ شيء إلا النكاح. فبلغ ذلك اليهود فقالوا: مايريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يارسول الله: إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد[3] عليهما فخرجا فاستقبلهم هدية من لبن رسول الله فأرسل في أثرهما فساقهما فعرف أن لم يجد عليهما[4]».

قال العلماء: كانت اليهود المجوس تجتنب الحائض، وكانت النصارى يجامعون الحيّض فأمر الله بالقصد بين هذين[5].

وهذا النهي الوارد من الله تعالى لعباده لفتة إلى تلك العلاقة بين الرجل والمرأة تسمو بأهدافها عن لذة الجسد، لأن المباشرة المترتبة على تلك العلاقة وسيلة لاغاية، وسيلة لتحقيق هدف أسمى في طبيعة الحياة هدف النسل وامتداد الحياة على هذه الأرض والمباشرة في الحيض قد تحقق اللذة الحيوانية مع ماينشأ عنها من أذى وأضرار صحية، ولكنها لاتحقق الهدف الأسمى، ومن ثم جاء ذلك النهي إجابة عن ذلك السؤال[6].

و(الأذى) لفظ عام صالح لأن يكون بمعنى إيذاء وضرر، وصالح لأن يكون بمعنى قذر تعافه النفس. والاتصال الجنسي أثناء الحيض فيه هذان النوعان من الأذى لكل من

---

(١) يجامعوهن في البيوت: أي لم يخالطوهن فيها.
(٢) سورة البقرة آية ٢٢٠/.
(٣) وجد عليهما: أي غضب عليهما.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه النووي ج٢/ ١١/.
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٣ / ٨١/.
(٦) في ظلال القرآن ج١/ ٤١/..

المرأة والرجل.

ولم تظهر حكمة النهي بوضوح إلا بعد أن تقدمت علوم الصحة الوقائية. يقول الدكتور عبد العزيز إسماعيل: «إن إفرازات الجسم على نوعين: نوع له فائدة في الجسم كإفرازات الغدد الهاضمة والتناسل، وكافة الإفرازات الداخلية التي تنظم أجهزة الجسم وأنسجته. وهذا النوع من الإفراز ضروري للحياة وليس فيه ضرر إلا انعدام إفرازه.

ونوع آخر ليس فيه فائدة بل بالعكس يجب إفرازه من الجسم إلى خارجه إذ أنه مواد سامة يجب أن يتخلص منها الجسم، فإذا بقيت فيه أضرت به ضرراً بليغاً، بل تكاد تودي به ومثل هذه الإفرازات البول والبراز والعرق وأهمها الحيض. وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يخرج من المرأة وإلا قتلها عن طريق التسمم، أفليس هذا المحيض أذى[1].

أما حكمة اعتزال النساء في المحيض فإن القرآن أول من نبه على ذلك.

ويحدثنا العلم الحديث فيقول: إن الأعضاء التناسلية للأنثى تكون أثناء الحيض في حال احتقان، وأعصابها في حالة اضطراب بسبب إفرازات الغدد الداخلية، ويصحب ذلك أعراض مرضية معينة كالصداع وآلام في الظهر وهبوط في الجسم. وقد تزيد هذه الأعراض فتصبح شديدة شدة الأمراض.

فالاختلاط الجنسي في هذه الفترة يضر بالمرأة أكبر ضرر، فربما منع نزول الحيض، ومايترتب على ذلك معروف، وقد يحدث اضطراباً عصبياً يطول علاجه. ولابد أن يسبب الاختلاط التهاباً في الأعضاء التناسلية قد يصعب علاجه. فحالة الأنثى وقت الحيض حالة مرضية غير عادية، ولذا فإن الطبيب يصعب الكشف على الأنثى وقت الحيض.

«وهناك ضرر بالغ للرجل، فقد يكون بالرجل حالة من المرض الذي لايلاحظه كالتهاب أو خدش أو جروح، فإذا ماتلوث بإفراز الحيض كانت الكارثة. وقد يحدث عقماً في الذكر والأنثى. ولذلك نجد أطباء العالم ينصحون بعدم الاتصال في ذلك الوقت، كما نهى القرآن عنه، فإنه لاشك أذى للرجل والمرأة»[2].

كمايقرر علم الصحة ضرورة اغتسال المرأة بعد الحيض بعد أن قررت ذلك الآية

---

(١) الإسلام والطب الحديث ص/ ٣٩.

(٢) دروس سنن الكائنات ص٥٧/.

بعشرات المئات من السنين، وذلك لإزالة ماخالط جسمها من الإفرازات والأوساخ والميكروبات، هذا من الناحية الطبية.

«وهناك ناحية نفسية أفصح عنها التقدم العلمي وهي ضرورة الاغتسال لتبدو المرأة بعد الحيض في زينة ونظافة تبعث الرضا والسرور في نفس زوجها، وتزيل عنه مايكون قد لاحظه من وعكتها وسوء حالها»[1].

الظواهر الطبيعية في آثار الله تعالى:

من هذه الآيات الكريمة آية الحجر ﴿وأرسلنَا الرياحَ لَوَاقِحَ فأنزلنَا مِنَ السّماءِ ماءً فأسقينَاكُمُوهُ ومَاأنتمْ له بخَازِنين﴾ الآية / ٢٢/.

ومفتاح الفهم لهذه الآية الكريمة هو ترتيب إنزال الماء ـ لسقيا الناس ـ على إرسال الرياح لواقح. والناس يحملون وصف الرياح بأنها لواقح على أنها لواقح للزرع والشجر. وفي هذا الفهم إغفال للنصف الثاني من الآية، إذ لوكان ماذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه إنماء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه لاإنزال الماء يشربونه. أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء لسقي الناس، فقد تحتم أن يكون للواقح معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع، ويكون مع ذلك شبيهاً بلقاح الأحياء من زروع وحيوان، كمايكون بينه وبين نزول الماء مابين العلة والمعلول أو السبب والمسبب.

فالمراد من وصف الرياح بأنها لواقح هو الإشارة إلى أثرها في الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة في السحاب، فالتلقيح هنا بين قطيرات وقطيرات أو بين سحاب وسحاب لابين زهر وزهر أو نبات ونبات[2].

ومما يقوي هذا الفهم لهذه الآية الكريمة الذي قال به الغمراوي إن بعض الآيات التي ذكرت فيها تلك المعاني تربط دائماً بين إثارة السحب وهطول الأمطار وإرسال الرياح أي هبوبها لهذا الغرض، ومن هذه الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿وهو الذي يُرسلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بينَ يَدَيْ رحمتِهِ حتى إذا أقلّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْنَاهُ لبلدٍ مَيْتٍ فأنزلنا بهِ الماءَ فأخرَجْنَا بهِ منْ كُلِّ الثمراتِ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿واللهُ الذي أرسلَ الرِّيَاحَ فتُثيرُ

---

(١) القرآن والعلم الحديث: عبد الرزاق نوفل ١٤٥ .
(٢) الإسلام في العصر الحديث ص٣٥٢/ .
(٣) سورة الأعراف آية٥٧/ .

سحاباً فسقناه إلى بلدٍ مَيْتٍ فأحيينا به الأرضَ بعدَ موتِها كذلكَ النُّشُور﴾[1] .

فآية الحجر هذه مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن، لأن تلاقي السحاب وأثره في نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث، وهي مثل رائع من التطابق التام، بين العلم والدين في الإسلام[2] .

وآية أخرى أكثر تفصيلاً من آية الحجر هي قوله تعالى: ﴿ألم ترَ أنّ اللهَ يُزجِي سَحاباً ثم يُؤلِّفُ بينَهُ ثمّ يجعلُهُ رُكاماً فترى الوَدْقَ يخرجُ من خلالِهِ، ويُنزِّلُ من السّماءِ من جبالٍ فيها من بَردٍ فيصيبُ بهِ مَنْ يشاءُ يكادُ سَنَا بَرْقهِ يَذْهَبُ بالأبصار﴾[3] . ومفتاح هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى: ﴿ثم يُؤلِّفُ بينَهُ﴾ لأنها حقيقة من أمهات الحقائق الكونية لأنها تدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها تلك الظواهر الجوية، فإن التأليف بين السحاب ماهو إلا إشارة واضحة ووصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلفة الكهربائية حتى يتجاذبا ويتعبأ في الجو تعبئة تتفق مع مايريد الله أن يخلقه من بين السحاب من برق أو صواعق ومن مطر أو برد، فإذا كانت السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض نشأ السحاب الركام، فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض ـ كما هو الغالب ـ نزل المطر الناشيء عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات وهو الودق، فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية في ذلك السحاب الركام من القوة ومن الاضطراب مايسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة: ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية علوية ومطرية سفلية تكون البرد ونما حتى يصير أثقل من أن يظل في أسر تلك القوى فيسقط على الأرض رحمة إن كان صغيراً هيناً، ونقمة إن كان كبيراً راجماً فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء». والإنسان لايدري كثيراً عن الظروف التي يتكون فيها البرد ولكنه يدري أنها ظروف يسودها اضطراب جوي عظيم، هذا الاضطراب أشارت إليه الآية وإلى طبيعته إشارتين:

الأولى: حين شبهت السحاب الركام الذي يتكون البرد داخله بالجبال.

الثانية: حين أشارت إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوين بعضها على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة ودرجة الابيضاض أو مافوق ذلك ﴿يكادُ سَنَا بَرْقِهِ

---

(١) سورة فاطر آية٩ / .
(٢) الإسلام في عصر العلم ص٣٥٢/ .
(٣) سورة النور آية٤٣/ .

يَذْهَبُ بالأبصار﴾[1] .

وهناك آيات أخرى أشارت إلى الطبيعة الكهربائية لتلك الظواهر إشارة من نوع آخر **﴿أفرأيتُمُ الماءَ الذي تشربُون أأنتُمْ أنزلتمُوهُ من المُزْنِ أمْ نحنُ المنزِلُون لو نشاءُ جعلناهُ أُجَاجَاً فلولا تشكُرُون﴾**[2] .

نستطيع بعد معرفة العوامل المتعددة التي لابد من تعاونها على تكوين المطر أن ندرك شيئاً من سر الحجة في هذا السؤال **﴿أأنتم أنزلتموه... الخ﴾**؟. لكن الإشارة التي أردنا أن تلفت الأنظار إليها هي في قوله تعالى: **﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾**، والناس يسلمون بالقدرة الإلهية على قلب الماء العذب أجاجاً، ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق، ولايتساءلون هل في سنن الله مايسمح بهذا؟ ولوتساءلوا وتطلبوا الجواب في العلم لوجدوه قريباً، ولعرفوا أن عذوبة الماء هي بمحض رحمة الله.

إن الماء عذب بطبيعته، وماء المطر معروف أنه أعذب المياه ولكن طبيعة تكونه تعرضه لأن ينقلب أجاجاً لاينتفع به الإنسان.

إن الهواء ـ كما هو معروف ـ أربعة أخماسه(آزوت) وهو لايكاد يتحد في العادة بشيء حتى بالأوكسجين الذي يكاد يتحد بكل شيء، لكن الكيماويين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية أن يحولوا(الآزوت) غير الفعال إلى فعّال يتحد بأشياء كثيرة في درجة الحرارة العادية، كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الآزوت على الاتحاد بالأوكسجين بإمرار الشرر الكهربائي في مخلوط منهما. ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للآزوت قابل للذوبان في الماء، وإذا ذاب فيه اتحد به وكوّن حمضين آزوتيين أحدهما حمض الآزوتيك أو ماء النار كما كان يسمى وإليه يصير الحمض الثاني، وقليل من حمض الآزوتيك في الماء كاف لإفساد طعمه.

وأظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذي يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماء أجاجاً من غير خرق لأي سنة من سنن الله الكونية فهو نفس الطريق الكهربائي الذي يتكون به المطر، وكل الذي يلزم هو أن يتعدل أو يتكيف التفريغ الكهربائي ويتكرر في الهواء، ومايتكون من الأكاسيد الآزوتية يذوب في ماء السحاب ويحوله حمضياً لايستسيغه الناس، وهذا هو موضع المَنّ من الله على الناس أن يكيف التفريغ بالصورة التي ينزل

---

(١) الإسلام في عصر العلم ص ٣٥٣ / .

(٢) سورة الواقعة الآيات ٦٨ ـ ٧٠ .

بها المطر ولايؤج بها الماء.

إن شيئاً من ذينك الحمضين لابد أن ينزل إلى ماء العواصف، وهذا ضروري للحياة لأن يتحول في الأرض إلى الآزوتات الضرورية لحياة النبات، لكن الله برحمته وحكمته يقدر تكونه بحيث لايتأذى به إنسان ولاحيوان، ولوشاء الله لكثّره في ماء المطر فأفسده على الناس. وسواء أشكر الناس هذه النعمة أم كفروها فإن قوله تعالى: ﴿لونشاء جعلناهُ أُجَاجاً﴾ إشارة إلى تلك الحقائق السابقة، ومن يعرف أن الطريق الكهربائي هو أحد الطرق العملية التي يمكن بها تحويل الآزوت الجوي إلى حمض.

إن نعمة الله في الماء العذب أكبر من أن يقوم الناس بشكرها، لأن كل ماء عذب في الأرض كان أجاجاً في الأصل إذ هو آت من ماء البحار[١].

هذه بعض النماذج من التفسير العلمي المقبول لتكونِ مثلاً يُقتفَى ومنهجاً يُحتذَى. والله تعالى وحده الموفق لطاعته ورضاه سبحانه.

وفي البحث التالي مزيد من البيان والإيضاح والتفصيل لهذا الجانب الهام من جوانب تفسير القرآن العظيم.

(١) الإسلام في عصر العلم / ٣٥٤ ـ ٣٥٥ / بتقدير يسير / .

البحث الرابع

التفسير العلمي في رحاب إعجاز القرآن العلمي «الاعجاز العلميّ في القرآن العظيم»

﴿سَنُرِيْهِمْ آيَاتِنَا في الآفَاقِ وفي أنفُسِهِمْ حتّىٰ يتبيَّنَ لهُمْ أنَّهُ الحَقُّ﴾ [فُصلّت/ ٥٣]

تمهيد: بين يدي البحث في الآيات الكونية:

إن الهدف الأساسي للقرآن الكريم هو تبصّير الإنسان بطريق الهداية ودعوته لسلوكها، ﴿إن هذا القرآنَ يهدي للتي هي أقومُ ويبشِّرُ المؤمنين الذين يعملونَ الصالحاتِ أن لهم أجراً كبيراً﴾ الإسراء/ ٩.

وجاءت هذه الهدايات والدعوة إليها بأساليب متنوعة، فمن مخاطبة للفطرة الإنسانية، ومن استدلال بواقع الأشياء المحسوسة، إلى مجادلة عقلية، إلى تذكير بعاقبة الأمم السابقة، إلى لفت نظر إلى واقع القصور البشري... ولما كان المخاطبون هم جملة الناس بمختلف طِبقاتهم وفئاتهم وعلى اختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية، جاء في القرآن الكريم من البراهين والأدلة والأمثال مايعم الشرائح الاجتماعية على مختلف العصور والبيئات لأن المنطلقات الإنسانية محكومة بالفطرة والعقل والتجارب، وكل ذلك في دائرة المحدود الممكن، لذا كانت قواعد المخاطبات وأسسها العامة تعمّ كل من كان في عصر نزول الوحي ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة. ﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآنِ للنّاسِ مِنْ كلِّ مَثَلٍ وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلاً﴾ الكهف/ ٥٤.

وإذا أدركنا هدف القرآن ومنهجه في الخطاب أدركنا أن ورود الآيات الكونية سواء مايتعلق منها بالآفاق ومايتعلق منها بالأنفس البشرية شيء بدهي أيضاً، لأن من فئات الناس المكلفين المخاطبين بالقرآن الكريم من ينصبّ جلّ اهتمامه علىٰ هذه الجوانب من مخلوقات الله، ولابد من إقامة الحجة عليهم وإظهار أن القرآن كلام الله المنزل على محمد ﷺ ليبشر به المؤمنين وينذر به قوماً لُدّاً، ومن العسير أن تتذوق هذه الطوائف

الجمال البياني وتدرك فصاحته وبلاغته لتعترف بالتالي أنه كلام الله المعجز... ولكنهم يدركون أن هذه المعارف الإنسانية وهذه الحقائق الكونية لايتصوّر أن يدركها بشر من ذاته، لأن كثيراً منها لم تكتشف إلا في عصور متأخرة جداً بعد التقدم العلمي في العلوم الكونية وبعد اختراع آلات دقيقة لم يكن للسابقين عهد بها.

فإن ورود هذه الحقائق الضخمة والدقيقة في نفس الوقت على لسان رجل لم يكن له إلمام بمثل هذه العلوم دليل على أنه تلقّاها ممن يعلم السرّ في السماوات والأرض ﴿قُلْ أنزلَهُ الذي يَعْلَمُ السّرَّ في السّماواتِ والأرضِ إنّهُ كانَ غفوراً رحيماً﴾ الفرقان/٦.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن مئات الآيات قد تحدثت عن سنن الله سبحانه وتعالى في هذا الكون ونظامه وألوان العناية الربانية بمخلوقاته فيه[١]، لذا كان لزاماً على المهتمين بالدراسات القرآنية أن يولوا هذا الجانب اهتمامهم.

إلا أن دراسات سابقة اتجهت هذا الاتجاه[٢]، من غير ضوابط، على الرغم من حماس أصحابها وصدق مشاعرهم قد أدت إلى نتائج عكسية، مماجعل كثير من الناس يحملون علىٰ هذا الاتجاه حرصاً منهم على إبعاد القرآن الكريم من مجال الإخضاع للنظريات العلمية المتقلّبة، أو التعسف في تأويل النصوص أو تحميلها مالاتحتمل من الدلالات[٣].

إلا أن طرفي القضية قد وقعا في محظور، فالذين اتجهوا هذا الاتجاه من غير ضوابط تكبح جماح الفكر والخيال والسعي وراء النظريات قد أفرطوا ووقعوا في أخطاء ينبغي تنزيه القرآن الكريم من مثل ذلك. وكذلك الطرف الآخر الذين منعوا هذه البحوث وحاولوا سد الباب أمام الباحثين قد فرّطوا في مئات الآيات ولم يعطوها حقها في التدبر والبحث، ومنعوا الدعاة من حمل سلاح من أمضى الأسلحة في العصر الراهن لإقامة الحجة على ملاحدة العصر، وإثبات صحة الرسالة وصدق الرسول. هذا مايجعلنا نضع ضوابط محددة قبل البدء في تقليب النظر في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الآفاق والأنفس.

---

(١) يقدر بعض الباحثين عدد الآيات التي تحدثت عن الكون (الآفاق والأنفس) بما يزيد عن/ ٩٠٠/ آية مبثوثة في ثنايا القرآن الكريم. انظر كتاب «القرآن والعلوم» للدكتورجمال الدين الفندي.

(٢) انظر على سبيل المثال: «تفسير الجواهر» للشيخ طنطاوي جوهري.

(٣) انظر كتابات الدكتورة بنت الشاطىء في هذا الخصوص.

ضوابط التفسير العلمي للقرآن العظيم:

قبل البدء ببحث الآيات الكونية ينبغي أن نضع نصب أعيننا الضوابط التالية:

١ـ القرآن كتاب هداية:

إن القرآن الكريم كتاب هداية، هداية الناس إلى باريهم، للقيام بالدور الذي أوكل إليهم في خلافة الأرض ولأداء المهمة التي خُلقوا من أجلها **﴿وماخلقتُ الجنّ والإنسَ إلا ليعبدون، ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يُطعمون. إن الله هو الرزّاقُ ذو القوة المتين﴾** الذاريات/٥٦ـ٥٨. وقد سلك القرآن الكريم جميع الأساليب والمسالك العقلية والفطرية لحمل الإنسان على هذا الهدف فلفت الأنظار من أجل ذلك إلى الكون المحيط بأفلاكه وكواكبه وليله ونهاره وسهوله وجباله وبحاره وأنهاره وسحبه وأمطاره ونباته وأشجاره.

ولفت النظر كذلك إلى أعماق النفس الإنسانية بعواطفها ومشاعرها وطاقاتها وقدراتها وإمكانات جوارحها، وارتفاعها أو إخلادها إلى الأرض.

وشد الانتباه إلى مايحيط بالإنسان مماهو مسخّر له لخدمته وتيسير المشقّات عليه من الحيوان والنبات والجماد... فينبغي أن تبقى الدراسات القرآنية المتعلقة بالآيات الكونية في حدود هذا الغرض، ولاتؤثر على الهدف الأساسي للقرآن الكريم.

٢ـ ترك الإفراط والتفريط:

عدم التفريط في البحث في الآيات الكونية، وبشرط التقيد بالمنهج القرآني وعدم تحميل النصوص مالاتحتمل، فلاينبغي أن تهمل التوجيهات بصدد مافي الكون المسخر لمصلحة الإنسان فإن أهملنا فقد فرطنا في مئات الآيات التي تشدّنا إليها شداً. إلا أن هذا الشد والتنبيه ينبغي أن نقف عند حدوده فلانتجاوزه إلى البحث عن دقائق خصائص هذه الأمور الكونية أو الإنسانية أو الحيوانية أو النباتية، فنفصل القول في ذلك ونجعل تفاسير القرآن وكأنها كتب لهذه العلوم المتخصصة ولانترك شاردة ولاواردة ولانظرة مستحدثة إلا ونربطها بتفسير الآية الكريمة. إن هذا العمل يخرجنا عن حد الاعتدال، كمايخرج القرآن الكريم والتفسيرـ الذي هو بذل الجهد في بيان مراد الله من الآية ـ يخرج كل ذلك عن الهدف الأساسي وهو أن القرآن الكريم كتاب هداية، وأن تفاسيرنا ينبغي أن تكون لشرح وبيان الأساليب المستخدمة لتحقيق هذه الهداية.

٣ـ مرونة الأسلوب القرآني:

الأسلوب القرآني في الآيات مرن يقبل وجوهاً في التأويل فينبغي أن يكون معلوماً لدينا أن القرآن الكريم عندما يعرض القضايا الكونية أو الجوانب المادية أو المعنوية في الإنسان أو مايحيط به، يستعمل أسلوباً مرناً يقبل وجوهاً للتأويل. فعند إرادة فهم الكلمة القرآنية أو العبارة القرآنية لابد من الرجوع إلى دلالات الكلمة الحقيقية والمجازية، واستعمالاتها في اللغة العربية، لتكون المعاني التي تحتملها الكلمة واضحة في الذهن عند الإقدام على تفسيرها في هذا المجال.

٤ـ الحقائق العلمية مناط الاستدلال:

الاقتصار على الحقائق العلمية في صدد تفسير الآيات بأن نبعد عن الساحة الفرضيات والنظريات العلمية التي لم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية، وينبغي عدم ذكر النظريات ولومن باب الاستئناس بها، لأن ربط نظرية قابلة للتغيّر والإبطال بتفسير آية قرآنية يورث شعوراً معيناً لدى القراء، وفي حال ظهور بطلان هذه النظرية فلن يَسْلم الفهم الخاص بالآية من تشويش واهتزاز، وكلام الله سبحانه وتعالى منزه عن أن يطرأ عليه مثل ذلك، ومن هنا كان خطأً بعض المفسرين الذين ذكروا الروايات الإسرائيلية ـ التي تدخل تحت نص: «حدِّثوا عن بني إسرائيل ولاحرج» ـ عندما وضعوها في تفاسيرهم وقرنوها بالآيات الدالة على ماهو قريب منها، حتى أصبح الناس ينظرون إليها على أنها تفسير للآية لامحيد عنه. ثم ظهر بطلان كثير من هذه الروايات ومناقضتها للحقائق التاريخية والكونية والفلكية مماهزّ ثقة الناس بالتفسير بالمأثور.

٥ـ عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة:

عند إحاطتنا بدلالات الكلمة اللغوية الحقيقية والمجازية واستعمالات العرب لها، إن وجدنا أن حقيقة علمية تؤيد إحدى هذه الدلالات، لابأس عندئذ أن نرجح الدلالة التي أيدتها الحقيقة العلمية على أن لانحكم بالبطلان والفساد على الدلالات الأخرى للكلمة من جهة، وأن لانحصر معنى الآية على الدلالة التي رجحناها من جهة أخرى فقد تكون الحقيقة العلمية التي رجحنا على ضوئها هذه الدلالة إحدى وجوه دلالات الآية، وظلالها ممتدّة إلى حقائق أخرى لم نتمكن من التوصل إليها حسب ثقافة عصرنا، إلا أن التقدم العلمي والحضاري كفيل أن يُميط اللثام لنا عن جوانب أخرى.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿بلى قادرين على أن نُسَوِّيَ بنانَه﴾. القيامة/ ٤.

كان إلى مايقرب من مائة سنة يُنظر إلى دلالة(تسوية البنان) نظرة تختلف عن نظرتنا

لها الآن بعد معرفة قضية البصمات، إلا أننا لانبطل كلام السلف في معنى الآية، فالآية تدل على ماقالوه ومافهموه.

والشعور الذي استقر في نفوسهم عن أن هناك حكمة عظيمة في خلق البنان وتسويته على هذه الشاكلة شعور مرهف وصحيح. وإن كان فهمنا الآن لدلالة الآية على ضوء معطيات العلم الحدبث أعمق وأدل، وكذلك فإن شعورنا في دقة صنعة الخالق سبحانه وتعالى وحكمته سليم وصحيح. ومع ذلك فإننا لانستطيع أن نقول: إن معنى الآية هو هذا فحسب، وليس بعد فهمنا لها فهم آخر، بل قد يكشف لنا المستقبل عن أسرار إلهية في البنان فوق ماتصورناه ووصلت إليه مداركنا العصرية، وتبقى الآية الكريمة مجال بحث الباحثين واستنباط المفكرين وبصمة إعجاز على جبين العصور ﴿بلى قادرين على أن نسوِّي بَنَانه﴾.

٦ـ استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية:

يستحيل التصادم بين الحقائق القرآنية وبين الحقائق العلمية لأنهما من مشكاة واحدة. وينبغي أن يكون من المسلَّمات في أذهاننا أن الحقائق القرآنية المتعلقة بأيّ جانب من جوانب الكون أو الإنسان و الحيوان و النبات ـ إذا كانت قطعية الدلالة ـ لايمكن أن تصادمها حقيقة علمية توصّل الجهد البشري إليها بناء على جهود المختصين خلال التاريخ الحضاري للبشرية.

ومايثيره بعض الناس من توهم بوجود تناقض فهو سوء فهم للحقيقة العلمية بأن يظنها حقيقة علمية وهي لاتزال في طور النظرية. ونحن نقول جازمين باستحالة وقوع مثل هذا التناقض ، لأننا نؤمن بأن القرآن منزل من خالق السماوات والأرض وواضع سننه ومدبِّر شؤونه وأن الحقائق العلمية التي تكتشف هي من صنعه ووضعه في الكون، ولايليق بحكمة الحكيم الخبير أن يخلق شيئاً على هيئة معينة ثم يخبرنا بخلافها. حاشاه سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ﴿ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللطيف الخبير﴾ الملك/ ١٤، ﴿قل أَنْزَلَهُ الذي يعلمُ السرَّ في السماواتِ والأرضِ إنه كان غفوراً رحيماً﴾ الفرقان/ ٦.

٧ـ اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة:

من البر والحكمة سلوك سبل الأسباب للوصول إلى حقائق المعرفة «دخول البيوت من أبوابها» وعدم تعجل النتائج بأن نعلم أن الأمور مرهونة بأوقاتها وأن خير مفسر للقرآن الزمن، وأن نضع نصب أعيينا قوله تعالى ﴿وليس البرُّ بأن تأْتُوا البيوتَ من

ظهورها ولكنّ البرَّ من اتّقى وأْتوا البيوتَ من أبوابها، واتقوا الله لعلّكم تُفلِحون﴾ البقرة/ ١٨٩، فإنه التوجيه القرآني لسلوك المنهج الذي ينبغي أن يُسلك في هذه المجالات.

وبما أن أمور الكون قائمة على سنن خلقها الله سبحانه وتعالى، وسيّر الكون بموجبها، فإنه من تعرّف على هذه السنن أمكنه تسخيرها لمصالحه والإفادة منها في تيسير سبل العيش وإحراز التقدم المادي، بغضّ النظر عن معتقده وسلوكه. وذلك بمقدار مايشاء الله ويخص بذلك من يريد.

وهذه سنة الله في أمور الحياة الدنيا، فهي تُعطى لمن أحبه الله ولمن لم يحبه، أما الآخرة والهدايات الربانية فلاتعطى إلا لمن يحبه الله. وإلى مثل هذا تشير الآيات الكريمة: ﴿من كان يُريدُ العاجلة عجّلنا له فيها مانشاءُ لمن نريد ثم جعلنا له جهنّم يصلاها مذموماً مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعى لها سَعْيَها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً. كلاًّ نُمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك وماكان عطاءُ ربك محظوراً﴾ الإسراء/ ١٨ـ٢٠.

تفسير آيات بدء الكون:

يقول تعالى: ﴿قل أَئِنّكُمْ لتكفرون بالذي خلق الأرضَ في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعلنا فيها رواسيَ من فوقها. وبارك فيها، وقدَّرَ فيها أقواتَها في أربعة أيام سواءً للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهنّ سبعَ سموات في يومين، وأوحىٰ في كلّ سماءٍ أَمْرَهَا وزينّا السماءَ الدنيا بمصابيح وحِفْظاً ذلك تقديرُ العزيز العليم﴾ فصّلت/ ٩ـ١٢.

في الآيات الكريمة إشارة إلى ثلاث حقائق كونية:

١ـ خلق الأرض وتقدير الأقوات في أربعة أيام قبل السماء.

٢ـ أصل الكون المادي من الدخان.

٣ـ الدورات التكوينية للأرض والسماء ومجموعها ستة أيام.

إن العلوم الفضائية والعلوم الطبيعية لازالت تحبو للتعرف على أصل الكون ونشأته والمادة الأولية التي تتكوّن منها الأجرام السماوية وطريقة تشكيلها. ولقد درسوا مليّاً

مايقع على الكرةِ الأرضية من خارج مجالها من النيازك[1] والأتربة الكونية وماحصلوا عليه أخيراً من قِطَع من سطح القمر.

كل ذلك يؤكد وحدة أصل الكون المادي. وأصبح ذلك حقيقة علمية عندهم ولكنهم لم يستطيعوا تحديد الحالة الأولية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمُّعها في مجموعات من النجوم والكواكب والمَجَرّات ولن يستطيعوا ذلك إلا ظناً وتخميناً. يقول تعالى: ﴿ماأشهدتُهُمْ خلقَ السماواتِ والأرضِ ولاخلقَ أنفسِهم وماكنتُ متَّخِذَ المُضِلِّين عَضُداً﴾ الكهف/ ٥١.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل الموحد وساق حقائق كونية في غاية الوضوح، يقول تعالى: ﴿أوَلَمْ يرَ الذين كفروا أنّ السماواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيّ أفلا يؤمنون. وجعلنا في الأرضِ رواسيَ أنْ تميدَ بهم وجعلنا فيها فِجَاجاً سُبُلاً لعلهم يهتدون. وجعلنا السماءَ سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ الأنبياء/ ٣٠ـ٣٢.

ويفصل في آيات أخرى مراحل الخلق والتكوين، فيقول جلّ جلاله: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ فصّلت/ ١٠/ .

لم يصل العلم الحديث للآن إلى معرفة أصل الوجود المادي للكون على الرغم من توصل العلم إلى نجاحات كبيرة في المسائل التطبيقية والاستفادة من دراسة خصائص المادة واستخدام الطاقات الكونية المختلفة.

فنحن نعرف طرقاًشتى لاستخدام الكهرباء في التدفئة والعلاج والإنارة وإدارة الآلات وتسيير القاطرات والسيارات وغير ذلك من الاستخدامات إلا أننا لانعرف تماماً ماهي الكهرباء.

وقل مثل ذلك في الضوء والحرارة...

فنطلق على كل ذلك لفظاً مبهماً هو الطاقة التي أُودعت بين ثنايا الكون وأرجائه المختلفة. «ويمكن أن يتحول بعضها إلى بعض، إلا انه لايمكن خلقها أو استحداثها من العدم»

---

(١) النيزك: كتلة صلبة تخترق الغلاف الجوي وتصل الأرض، أما الكتل التي تحترق في الغلاف الجوي للأرض بفعل الحرارة الناتجة عن دخول الغلاف الجوي فتسمى(شهباً). وقد أمكن للآن التعرف على مائة نيزك،أما الشهب فهي كثيرة جداً تشاهد كل ليلة. «من روائع الإعجاز»، د. جمال الدين الفندي، ص٥٢.

وعلى الرغم من محاولة العلم الحديث التعرف على اللبنات الأولى التي ينبى عليها الكون المادي ومحاولة التعرف على الذرة، إلا أنه لم يخرج بطائل من دراسته هذه. يقول العلم الحديث:

قوام الذرات جسيمات متناهية في الصغر تتشابه في جميع ذرات العناصر المختلفة، ويتوقف على عددها وترتيبها داخل كل ذرة - بالإضافة إلى النواة - نوع المادة أو العنصر، وأبسط الذرات تركيباً على الإطلاق ذرة الأيدروجين وهو الغاز المعروف باسم الغاز الكوني، أو الغاز الذي خلقت منه الأجرام السماوية وتطورت داخل الشموس والنجوم سائر المواد المعروفة. وقد كان المعتقد إلى عهد ليس ببعيد بين جمهرة العلماء أنّ الذرة غير قابلة للتجزئة إلى جسيماتها أو طاقاتها الأولية... ولكن لما عرفت وسائل تحطيم الذرة في هذا العصر أمكن الجزم بإمكان اقتسام الذرة وانطلاق طاقات عظمى مما يُدّخر بين ثناياها أساسها الطاقة التي استخدمت في الأصل في ربط جسيماتها الأولية. فهل هذا الغاز الكوني هو الدخان الذي شكّل أصل التكوين المادي أو أن المراد بالدخان هي تلك السدم الغازية الملتهبة التي تتجمع في ساحات هائلة من الكون تشكل نجوماً أو مجموعات منها؟

والأمر الآخر في آيات «فُصِّلت» هوخلق الأرض ووضع البركة فيها وتقدير الأقوات في أربعة أيام. كل ذلك قبل تشكيل السماء وجعلها سبع سماوات.

وهذه الحقيقة لايستطيع العلم البشري أن يصل إليها إلا من طريق الوحي من خالق السماوات والأرض، لأن وسائل البشر محدودة فلايستطيع أن يخترق بوسائله المادية حجب غيب الماضي ليعرف تكوين الأجرام الكونية والسابق منها عن اللاحق.

وهنا لابد من الإشارة إلى آيات سورة «النازعات» فقد يفهم بعضهم أنها تتعارض مع آيات سورة «فصلت».

وقد ثار هذا الاشكال في عصر الصحابة رضوان الله عليهم:

في صحيح البخاري قال.. وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولايتساءلون﴾، ﴿وأقبَلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءلون﴾، ﴿ولايكتمون الله حديثاً﴾ ﴿والله ربِّنا ماكنا مشركين﴾ فقد كتموا في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماء بناها﴾ إلى قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فذكر خلق السماء

قبل الأرض ثم قال تعالى: ﴿قل أئنكُمْ لتكْفُرون بالذي خلقَ الأرضَ في يومين﴾ إلى قوله تعالى: ﴿طائعين﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء، قال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾، ﴿سميعاً بصيراً﴾ فكأنه كان مضى.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فلاأنسابَ بينهم يومئذٍ ولايتساءلون﴾ في النفخة الأولى ﴿ثم نُفِخَ في الصور فصَعِقَ مَنْ في السماواتِ ومَنْ في الأرضِ إلا ماشاء الله﴾ فلا أنسابَ بينهم عند ذلك ولايتساءلون بينهم. وفي النفخة الأخرى ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾، وأما قوله: ﴿واللهِ ربِّنا ماكنّا مشركين﴾ ﴿ولايكتمون اللهَ حديثاً﴾ فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول لم نكن مشركين فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم فعند ذلك يُعرف أن الله تعالى لايكتُم حديثاً وعنده ﴿يودّ الذين كفروا...﴾ الآية. وخلَقَ الأرض في يومين ثم خلَقَ السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحي الأرض ودحيها أَنْ أخرج منها الماء والمرعى وخلَقَ الجبال والرمال والجماد والآكام ومابينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى ﴿ودحاها﴾، وقوله: ﴿خلق الأرض في يومين﴾. فخلق الأرض ومافيها من شيء في أربعة أيام وخلق السماوات في يومين. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ سمى نفسه بذلك وذلك قوله: أي لم يزل كذلك فإن الله تعالى لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد. فلايختلفن عليك القرآن فإن كلًّا من عند الله عزَّ وجلَّ[1].

يقول ابن كثير: (فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص. وفي قوله تعالى: ﴿والأرضَ بعد ذلك دحاها﴾ أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو مفسر بقوله: ﴿أخرجَ منها ماءها ومرعاها﴾).

أما الحقيقة الثالثة في آيات سورة«فصلت» فهي الدورات التكوينية للأرض والسماء ومجموعتها ستة أيام.

وقد اختلف المفسرون قديماً في مقدار اليوم المقصود في الآيات الكريمة، فاليوم الاصطلاحي الذي ترتبط به الأحكام التكليفية من الصوم والصلاة والعدة وغير ذلك من مطلع الفجر أو الشمس إلى غروبها.

إلا أن هذه المدة الزمنية المعيَّنة لاتقدَّر بهذا المقدار إلا بعد وجود الأرض والشمس

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير جـ٦ ص٣٥.

ووجود دوراتهما في أفلاكهما. والحديث هنا عن خلق الأرض والسماء، فكيف تقدر قبل وجودهما؟!

وهذا مادفع بعض المفسرين للذهاب إلى تقدير تلك الأيام بفترات زمنية تتناسب مع أدوار التكوين. فعن مجاهد: يوم من الستة الأيام كألف سنة مماتعدُّون. وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿وإنّ يوماً عندَ ربِّكَ كألفِ سنةٍ ممّا تعدُّون﴾ الحج/ ٤٧. وجاء في سورة المعارج قوله تعالى ﴿تعرجُ الملائكةُ والروحُ إليه في يومٍ كانَ مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنة﴾ المعارج/ ٤. وفي سورة السجدة ﴿يدبِّرُ الأمر مِنَ السماءِ إلى الأرضِ ثم يعرُجُ إليه في يومٍ كان مقدارُهُ ألفَ سنةٍ مما تعدُّون﴾ السجدة/ ٥.

ويذهب علماء الفلك المعاصرون إلى مايُطلقون عليه(النسبية الزمنية) وأن لكل كوكب وحداته الزمنية الخاصة به، وذلك يقدر بالنسبة لسبحها في الفضاء ودورانها في أفلاكها[1].

وإطلاق القرآن الكريم اسم اليوم على مقدار ألف سنة تارة وخمسين ألف سنة تارة أخرى يشير إلى مفهوم النسبية هذا.

هذا ماجعل الباحثين في أصل تكوين الأجرام السماوية يُطلقون اصطلاح الدوران التكوينية. فالدور الأول: كون الأرض مع السماء رَتْقاً، ودور انفصال الأرض عن السماء هو الثاني، والدور الثالث والرابع هما دور تهيئة الأرض للحياة بإرساء الجبال فيها وتقدير الأقوات، وخلق الحياة.

إلا أن تقدير هذه الدورات بالمدد الزمنية تتفاوت أقوالهم فيها، وهم في ذلك يتّبعون الظن وماهم بمستيقنين.

يتساءل بعضهم: (هل يمكن أن يصل العلم إلى الزمن المحدَّد الصحيح المؤكَّد

---

(١) ـ يوم القمر نحو(٣٠) يوماً وهو مقدار دورته حول الأرض.
ـ يوم الزهرة حوالي(٣٠) يوماً تقريباً من أيام الأرض أما دورتها حول الشمس فسبعة أشهر ونصف.
ـ يوم عطارد(٨٨) يوماً من أيام الأرض أي بمقدار طول سنته فهو يتم دورته حول الشمس وحول محوره في مدة واحدة.
ـ يوم الشمس أطول من ثلاثة أسابيع: عند خط استواء الشمس ٢٥ يوماً. وعند القطبين أكثر من شهر.
ـ يوم المريخ يزيد عن يوم الأرض بمقدار سبع وثلاثين دقيقة.

لخلق الأرض؟ هذا مستحيل. . . فالتوقيت الزمني الذي خُلقت فيه الأرض لايوجد مايدل عليه إطلاقاً، وإذا وصل العلم إلى التوقيت السليم فسيكون هو الأقرب إلى الصحيح اجتهاداً. وهل يمكن أن يصل العلم إلى الطريقة التي خُلقت فيها الأرض، والأزمنة الصحيحة التي تطورت فيها منذ كانت دخاناً إلى أن أصبحت صالحة لإقامة الإنسان؟ وكذلك بالنسبة للإنسان وخلقه. . . والسماء وخلقها ومافيها. . .).

فطالما أن الإنسان ـ أي إنسان ـ لم يشهد خلق السماوات والأرض وكذلك لم يشهد خلق نفسه ولاخلق غيره فكيف يعرف الحقيقة إذن؟ وصدق الله العظيم ﴿ما أشهدتُهُمْ خلقَ السماواتِ والأرضِ ولاخَلْقَ أنفُسِهِمْ وماكنتُ مُتَّخِذَ المُضلِّينَ عَضُداً﴾ الكهف/ ٥١.

تفسير آيات خلق السموات والفضاء والأرض:

يقول الله تعالى: ﴿والسماءَ بنيناها بأَيْدٍ وإنا لموسِعون﴾ الذاريات/ ٤٧.

إن بناء الكون المادي المترامي الأطراف المشتمل على بلايين المجرات التي تحتوي كلُّ مجرة منها بلايين الشموس والنجوم ومايتبع كل شمس أو نجم من كواكب وأقمار، وكل ذلك إلى جانب مايعُجّ به الفضاء من طاقات وإشعاعات مختلفة القدر والصفات. وقد اتسعت له قدرة الخالق عزَّ وجلَّ، ولديه أكثر وأكثر يضاف إلى ذلك. إنالموسعون السماء حين خلقنا الكون ابتداءً على اتساع لانهاية له، ولذلك فهو يتسع لكل المجرات مهما تباعدت عن بعضها بعضاً.

ومن الوجهة العلمية لم يثبت حجم الكون على حال منذ راح العلماء يقيسون أبعاده. ولقد جعل العلماء للنجوم أقداراً بحسب درجات بريقها أو لمعانها. وعدد النجوم التي يمكن أن تُرى في القبة السماوية وتلمع بدرجات متفاوتة القدر بالنسبة للعين المجردة لايزيد عن نحو ستة آلاف نجم تقريباً.

وعندما استخدمت المناظير الفلكية المكبِّرة صوّر الفلكيون مجرّتنا وحدها على هيئة قرص أو عدسة، تقع شمسنا على بعد ٣٠ ألف سنة ضوئية من مركزها، ويبلغ قطرها نحو مائة ألف سنة ضوئية، أما سمكها فيبلغ زهاء ستة آلاف سنة ضوئية[١].

ويقول تعالى: ﴿اللهُ الذي رفعَ السّماواتِ بغير عَمَدٍ ترَوْنها ثم استوى على العرش، وسخّر الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجري لأجلٍ مسّمى يدبرُّ الأمر يُفَصِّلُ الآياتِ لعلَّكم بلقاء

---

(١) «القرآن والعلم»، د. جمال الدين الفندي، ص٢١٣ مختصراً.

ربّكم توقنون. وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغشي الّليلَ النّهارَ إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾ الرعد/ ٢-٣.

ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ السماواتِ بغيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وألقى في الأرضِ رواسيَ أن تميدَ بكم، وبثَّ فيها من كلِّ دابّةٍ، وأنزلنا من السّماءِ ماءً فأنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ كريم. هذا خَلْقُ اللهِ فأروني ماذا خلَقَ الذين مِنْ دُونه بلِ الظالِمُونَ في ضَلالٍ مبين﴾ لقمان/ ١٠-١١.

الحقيقة الواردة في الآيتين في«الرعد» و«لقمان» حول السماء هو ذكر العمد، وذكر المفسرون تأويلين للآيات:

- فمنهم من أثبت أن للسماوات أعمدة إلا أنها لاتُرى. فمعنى الآية: الله الذي رفع السماوات - بغير عمد مرئية - وذلك بجعل جملة (ترونها) صفة (لعمد) والضمير يعود إلى عمد.

- ومنهم من ذهب إلى أن ليس للسماوات عمد أصلاً. ويكون معنى الآية: الله الذي رفع السماوات كما ترونها، بغير عمد، وذلك بجعل جملة(ترونها) حالاً من السماوات ويعود الضمير إلى السماوات.

ويميل علماء الفلك المعاصرون إلى التأويل الأول فيقولون: إن الأجرام السماوية كلها قد بناها الخالق سبحانه وتعالى وجعل كل جرم فيه بمثابة لبنة من بناء شامخ، ورفع هذه الأجرام كلها بعضها فوق بعض بقوى هي من نوع القوة الطاردة المركزية، كما ربطها في نفس الوقت برباط الجاذبية العالية، والجاذبية تتعادل مع القوى الطاردة المركزية الناجمة عن الدوران في مسارات شبه دائرية أو قطاعات ناقصة، وهي بمثابة الأعمدة المقامة بالفعل. ورغم أننا لانبصرها بأعيننا إلا أن ذلك لايعني أن تلك الأعمدة غير موجودة بحال من الأحوال، فنحن نستطيع أن نتصورها في مجال كل جسم مادي وربما إذا مُنح شخص منا حاسة أخرى زيادة على مالدينا من حواس يستطيع ذلك الشخص أن يرى تلك الأعمدة أو يُحس بها تماماً كما ندرك بحواسنا العادية أيّ جسم مادي عادي[1].

---

(١) «القرآن والعلم»، د. جمال الدين الفندي، ص٢٢٨، ط دار المعرفة، رئيس قسم الفلك وأستاذ الطبيعة الجوية بجامعة القاهرة.

تفسير آيات خلق الأرض ومالها من خصائص:

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن الأرض خصائصها ومزاياها مبدأ خلقها ونهايتها.

يقول تعالى: ﴿خلقَ السماواتِ والأرضَ بالحقِّ يكوِّرُ الليلَ على النّهارِ ويكوِّرُ النّهارَ على الليلِ وسخَّرَ الشمسَ والقمَرَ، كلٌّ يجري لأجلٍ مسمّىً، ألاَ هُوَ العزيزُ الغفار﴾ الزمر/ ٥.

في«مفردات الراغب» في مادة(كور)[١] : كَوْر الشيء: إدارته وضم بعضه إلى بعض ككور العِمامة، وقوله تعالى: ﴿يكوِّر الليلَ على النهار ويكوِّر النهارَ على الليل﴾ فإشارة إلى جريان الشمس في مطالعها وانتقاص الليل والنهار وازديادهما.

وفي«لسان العرب»[٢] : وتكوير الليل و النهار : أن يُلْحِقَ أحدهما بالآخر، وقيل تكوير الليل والنهار تغشية كل واحد منهما صاحبه، وقيل: إدخال كل واحد منهما في صاحبه، والمعاني متقاربة.

وفي«الصحاح»: وتكوير الليل على النهار تغشيته إياه، ويقال زيادته في هذا من ذلك. وفي التنزيل العزيز: يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، أي يدخل هذا على هذا وأصله من تكوير العمامة وهو لفها وجمعها. وكُوِّرت الشمس جُمع ضوؤهاولُفّ كما تُلَفّ العمامة، وقيل معنى كُوِّرت غوِّرت.

يقول سيد قطب[٣] عند تفسير هذه الآية: ﴿يُكوِّرُ الليلَ على النّهارِ ويُكوِّرُ النّهارَ على الليلِ﴾: (وهو تعبير عجيب يُقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ماكشف حديثاً عن كروية الأرض، ومع أنني في هذه الظلال حريص على ألاّ أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان لأنها نظريات تخطىء وتصيب وتثبت اليوم وتبطل غداً، والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه في ذاته ولايستمدها من موافقة أو مخالفة لمايكشفه البشر الضعاف المهازيل.

مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرني قسراً على النظر في موضوع كروية

---

(١) ص٦٦٥.
(٢) ٥/ ١٥٦.
(٣) «في ظلال القرآن ٦/ ٣٠٣٨.

الأرض، فهو يصوِّر حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس. فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهاراً، ولكن هذا الجزء لايثبت لأن الأرض تدور وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار، وهذا السطح مكوّر فالنهار كان عليه مكوراً والليل يتبعه مكوراً. وكذلك وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل، وهكذا في حركة دائبة: يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل.. واللفظ يرسم الشكل ويحدد الوضع، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها، وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أي تفسير آخر لايستصحب هذه النظرية).

خصائص الكرة الأرضية:

﴿ألمْ نجعلِ الأرضَ كِفَاتَاً. أحياءً وأمواتاً. وجعلنا فيها رواسيَ شامخاتٍ وأسقيناكم ماءً فراتاً﴾ المرسلات/ ٢٥ـ٢٧.

في «مفردات الراغب»: كَفَت: الكَفْت: القبض والجمع. قال تعالى: **﴿ألم نجعل الأرضَ كِفاتاً أحياءً وأمواتاً﴾**.

وقيل معناه: تضم الأحياء التي هي الإنسان والحيوان والنبات، والأموات التي هي الجمادات من الأرض والماء وغير ذلك.

والكفات: قيل هو الطيران السريع وحقيقته قبض الجناح للطيران.

والكفت: السوق الشديد)[١].

وفي «لسان العرب» لابن منظور: (الكفت: صرفك الشيء عن وجهه. وكفت يكفت كفتاً وكفاتاً: أسرع في العَدْو والطيران وتقبض فيه... وفرس كَفْتٌ سريع... وعَدْوٌ كفيت: أي سريع)[٢].

وقال الجوهري: (الكَفْتُ: السوق الشديد. والكفات: الموضع الذي يُضم فيه الشيء ويُقبض.. وفي التنزيل العزيز: **﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياءً وأمواتاً﴾** قال ابن سيده: هذا قول أهل اللغة، قال: وعندي أن الكفات هنا مصدر من كَفَتَ إذا ضم وقبض، وأن أحياءً وأمواتاً منتصب به أي ذات كفات للأحياء والأموات. وكفات

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني، ص٦٥٢.
(٢) ٢/ ٧٨، ٧٩.

الأرض ظهرها للأحياء وبطنها للأموات، ومنه قولهم للمنازل: كفات الأحياء وللمقابر كفات الأموات... وفي الحديث: «نُهينا أن نكفت الثياب في الصلاة» أي نضمها ونجمعها من الانتشار، يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود. وهذا جراب كفيت إذا كان لايضيع شيئاً ممايجعل فيه...).

هذا هو أدق وصف وأجمعه لواقع الأرض فهي كرة كفات من حيث الجريان والسرعة مسوقة بقدرة إلهية في مدارها، وفي نفس الوقت تضم سكانها على ظهرها في حال الحياة والموت.

وفي تسلسل الحديث: من ذكر خلق الإنسان في الرحم ـ القرار المكين الذي يضم الإنسان في مراحله الأولى في النشأة والتكوين ـ وهو الشكل الكُمَّثريُّ الهيئة، وقد جعله قراراً مكيناً للجنين بشدِّه بتلك الأربطة من العضلات وجعل مستنده الحوض المحاط من أغلب جهاته بجدران الحوض المقعَّر، وهيأ له وسائل التغذية والراحة لمدة معلومة إلى قدر محدد محسوب عند القادر ونعم القادر.

ثم عقب ذلك بضم الكرة الأرضية لهم أحياءً وأمواتاً تكفت بهم وتسرع في مجراها تضنمهم على ظهرها أحياءً وفي بطنها أمواتاً، وهي محتفظة بهم في كلتا الحالين فلاتقذف بهم بعيداً.

ووسائل الحياة متوفرة لهم على ظهرها من هواء وماء وغذاء، كما وفرت لهم في القرار المكين قبل هذا الطور.

ووسائل حفظ الأشلاء موجودة في الأرض إلى يوم الوقت المعلوم..

إنها مناسبات معبِّرة دقيقة في ذكر المستقرّ لكل طور من الطورين: **﴿ألم نخلقكم من ماءٍ مَهين. فجعلناه في قَرارٍ مَكِين. إلى قدَرٍ معلوم. فقَدَرنا فنِعْمَ القادرون. ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين. ألم نجعلِ الأرضَ كِفاتاً أحياءً وأمواتاً. وجعلنا فيها رواسيَ شامخاتٍ وأسقيناكم ماءً فُراتاً. ويلٌ يومئذٍ للمكذبين.﴾**

يقول جلّ جلاله: **﴿أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بناها. رفع سَمْكَهَا فسوّاها. وأَغطشَ ليلَها وأخرج ضحاها. والأرضَ بعدَ ذلك دَحَاها. أخرجَ منها ماءَها ومرعَاها. والجبالَ أرْسَاهَا. متاعاً لكم ولأنعامِكُم﴾** النازعات/ ٢٧ـ٣٣.

ويقول تعالى: **﴿والشمسِ وضُحَاها. والقمرِ إذا تَلاها. والنّهارِ إذا جَلَّاها. واللّيلِ إذا يَغْشَاهَا. والسّماءِ ومابناهَا. والأرضِ وماطحَاها﴾** الشمس/ ١ـ٦.

وهنا كلمتان معبرتان تتعلقان بالأرض وهما كلمتا(دحاها، وطحاها﴾. فلننظر إلى دلالات الكلمتين في قواميس اللغة ثم نتدبر مايقوله العلم الحديث.

في«مفردات الراغب»/ ٢٣٩: (دحاها، قال تعالى: ﴿والأرضَ بعد ذلك دحاها﴾ أي أزالها عن مقرها، وكقوله: يوم ترجف الأرض والجبال. وهو من قولهم: دحا المطر الحصى من وجه الأرض أي جرفها.

ومرّ الفرس يدحو: إذا جرّ يده على وجه الأرض فيدحو ترابها).

وفي«لسان العرب»[1] لابن منظور: (دحاها: الدحو: البسط. دحا الأرض يدحوها دحواً: بسطها.

وقال الفرّاء في قوله عزَّ وجلَّ: (والأرضَ بعد ذلك دحاها﴾ قال: بسطها.

- وقال شمر: دحا الأرض: أوسعها.

- وفي حديث علي وصلاته رضي الله عنه: اللهم داحي المدحوات، يعني باسط الأرض موسعها.

- والأدحية: مبيض النعام في الرمل، لأن النعامة تدحوه برجلها ثم تبيض فيه.

- وفي حديث ابن عمر: فدحا السيل فيه بالبطحاء أي رمى وألقى.

- وقال ابن الأعرابي: يقال: هو يدحو الحجر بيده أي يرمي به بيده ويدفعه، قال: والداحي الذي يدحو الحجر بيده،.. ودحا المطر الحصى عن وجه الأرض دحواً: نزعه.

- وفي حديث أبي رافع: كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحي، هي أحجار أمثال القرصة، كانوا يحفرون حفُرة ويدحون فيها بتلك الأحجار، فإن وقع الحجر فيها غلب صاحبها، وإن لم يقع غُلِب، والدحو: هو رمي اللاعب بالحجر والجوز وغيره.

- وقال شمر: المدحاة لعبة يلعب بها أهل مكة، قال: وسمعت الأسدي يصفها ويقول: هي أحجار أمثال القرصة وقد حفروا حفرة بقدر ذلك الحجر فيتحون قليلاً، ثم يدحون بتلك الأحجار إلى تلك الحفرة، فإن وقع فيها الحجر فقد قَمَرَ وإلا فقد قُمِرَ).

---

(١) ج١٤ ص٢٥١ ومابعدها.

وأما كلمة« طحاها»:

ففي «مفردات الراغب»: الطحو كالدحو، وهو بسط الشيء والذهاب به، قال تعالى: ﴿والأرض وماطحاها﴾. قال الشاعر: طحا بك قلب في الحسان طروب: أي ذهب.

وفي«لسان العرب» تدور المادة كلها حول البسط والامتداد والذهاب، وبعضهم جعلها مثل الدحو.

ولورجعنا إلى مايقوله العلم الحديث في فلك الأرض وواقعه لوجدنا أن أدق وصف وأبلغه يتضمن في وصف الأرض بالدحو.

فالدحو وفق الاستعمال اللغوي يتضمن دفعاً من الداحي وحركتين للمدحوّ إحداهما على خطّ مسارٍ ما، والأخرى حركة دورانية حول نفسه.

والأرض كرة مدحوّة في الفضاء ذات حركتين: حركة في مسار دائريّ حول الشمس، وحركة حول نفسها.. وتعقيب الدحو بإخراج الماء والمرعى، وهي من مستلزمات دحو الأرض فلولم يكن دوران الأرض حول نفسها لما وُجد الليل والنهار، ولو لم يكن دورانها حول الشمس لما وُجدت الفصول، فنتيجة الدحو كان أن تهيأت لإخراج الماء والمرعى وبالتالي وجود الحياة عليها.

تفسير آيات خلق الشمس والقمر:

﴿وجَعَلَ القَمَرَ فيهنّ نوراً وَجَعَلَ الشمسَ سراجاً﴾ نوح/١٦.

﴿تبارك الذي جعَلَ في السماءِ بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ الفرقان/ ٦١.

﴿وهو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾ يونس/ ٥.

﴿وجعلنا الّليلَ والنّهارَ آيتين فَمَحَوْنا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النّهارِ مُبْصِرَةً لتبتغُوا فضلاً من ربّكم ولتعلموا عدَدَ السنينَ والحسابَ. وكلَّ شيءٍ فصّلنَاهُ تفصيلاً﴾ الإسراء/ ١٢.

إن الآيات الكريمة تفرق بدقة متناهية بين صفة كل من الشمس والقمر، ووظيفة كل منهما. فالشمس سراج وهاج يعطي الضوء من ذاته.. والقمر كالمرآة التي تعكس الضوء الساقط على سطحها نوراً يبدّد به الظلام.

يقول العلم الحديث في هذا التفريق بين الجِرْمين السماويين:

تبلغ حرارة سطح الشمس ستة آلاف درجة مئوية، وحرارة جوفها تصل إلى ٢٠

مليون درجة مئوية. وألسنة اللهب ترتفع عن سطحها إلى نصف مليون كيلومتر ناثرة في الفضاء طاقة سوى تساوي١٦٧,٤٠٠ حصان من كل متر مربع، لايصل منها للأرض سوى جزء من مليون جزء[1] .

أما القمر فقد تجلت الأسرار وزالت الأستار عن وجهه بعد نزول الإنسان عليه فهو كوكب هامد جامد لاأثر للماء والحياة فيه. وهو يعكس ضوء الشمس الذي يقع عليه ليعيده إلى الكرة الأرضية ثانية للجانب المظلم منها.

﴿الشمسُ والقمرُ بحُسْبان﴾ الرحمن/ ٥.

يتبادر إلى الذهن أنهما جُعلا لإدراك حساباتنا بهما كما جاء في قوله تعالى: ﴿لتعلموا عدَدَ السنينَ والحسابَ﴾ الإسراء/ ١٢.

ولكن هناك حسبان يتعلق بذات الشمس والقمر:

(إن الشمس هي أهم نجم بالنسبة لنا ـ نحن سكان الكوكب الأرضي الصغير الذي يعيش هو وسكانه جميعاً على ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها ـ وكذلك القمر وهو تابع صغير للأرض ولكنه ذو أثر قوي في حياتها وهو العامل الأهم في حركة الجزر والمدّ في البحار.

وحجم الشمس، ودرجة حرارتها، وبُعدها عنا وسيرها في فلكها، كل ذلك بحسبان. وكذلك حجم القمر وبُعده ودورته، كلها محسوبة حساباً كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الأرض، وبالقياس إلى وضعهما في الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى.

إن الشمس تبعد عن الأرض حوالي/ ٩٣/ مليون ميل ولوكانت أقرب إلينا من هذا لاحترقت الأرض وانصهرت أو استحالت بخاراً يتصاعد إلى الفضاء. ولوكانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ماعلى الأرض من حياة إذ الذي يصل إلينا من حرارة الشمس لايتجاوز جزءاً من مليون جزء من حرارتها. وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا، ولوكانت الشعرى بضخامتها وبإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضيةَ، وذهبت بدداً.

وكذلك القمر في حجمه وبعده عن الأرض، فلوكان أكبر من هذا لكان المدّ الذي

---

(١) «النجوم في مسالكها» للدكتور أحمد الكرواني نقلاً عن «وجوه من الإعجاز القرآني» لمصطفى الدباغ.

يحدثه في بحار الأرض كافياً لغمرها بطوفان يعم كل ماعليها وكذلك لوكان أقرب مما وضعه الله بحسبانه الذي لايخطىء مقدار شعرة.

وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في وزن وضعها وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب، والذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة ألف ميل في اتجاه واحد نحو(برج الجبار)، ومع هذا لاتلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين[١] .

والأشعة فوق البنفسجية التي تطلقها الشمس يصل منها مقدار بحسبان وهو المقدار الضروري لهذه الحياة على الكرة الأرضية، ولووصلت كلها إلى الأرض لقضت على الحياة على وجه الأرض. لذلك كان على ارتفاع معين من قشرة الأرض طبقة من الأوزون لاتسمح بالمرور إلا للقدر المعلوم.

تفسير آيات النجوم والكواكب:

يقول تعالى: ﴿فلاأقسمُ بمواقعِ النّجُومِ وإنّه لقَسمٌ لوتعلَمُون عظيم﴾ الواقعة/ ٧٥.

هذه الآية من الآيات التي تظهر إعجاز القرآن الكريم في تقرير حقائق الكون. فلم يكن يدور بخلد أحد عند نزول القرآن أن مواقع النجوم شيء جدير بأن يقسم به الخالق ويقرر عظمته.

والحديث عن مواقع النجوم يتناول جانبين: بعدها، منازلها:

يقرر العلم الحديث أن أقرب نجم[٢] إلينا داخل مجرتنا ممثلاً في مجموعة النجم(قنطوس) مثلاً، يبعد عنا بمسافة تقدَّر بعدد من السنين الضوئية. وشمسنا في طرف مجرّتنا تبعد آلاف السنين الضوئية عن المركز، حيث تتكدس الشموس والنجوم.

وعندما نخرج إلى خضم الفضاء الفسيح نجد أن أقرب المجرات تبعد عنا بعدة مئات آلاف السنين الضوئية، ويتزايد بُعد المجرّات الأخرى عنا حتى تصل حدود الكون المرئي على مسافة نحو خمسة آلاف مليون سنة ضوئية. وهكذا نرى أننا نعيش على كوكب يقع شمسه في طرف ذراع مجرة من بين بلايين المجرات التي تقبل إلينا أضواؤها خافتة لشدة بُعْدها عنا. إنها مواقع النجوم التي أقسم الخالق جلّ شأنه بها

---

(١) «في ظلال القرآن» ٢٧/ ١١٢، ولفتات علمية من القرآن/ ٣٥.

(٢) اصطلح الفلكيون على التفريق بين النجم والكوكب. فالنجوم والشموس: أجرام سماوية مستعِرّة ومضيئة بذاتها. أما الكواكب: فهي التي بردت سطوحها كالأرض.

﴿وإنه لقَسَم لوتعلمون عظيم﴾.

ويقرب أحد الفلكيين أحجام الكواكب والنجوم إلينا بمثال حسي مصغّر فيقول:

لوأننا أردنا وضع نموذج صغير جداً للكون نجعل فيه الأرض بحجم حبة الخردل فإن القمر سيكون ذرة بحجم ربع حبة الخردل. وعلى مسافة بوصة واحدة ستكون الشمس بحجم التفاحة وبقية الكواكب السيارة ستتباعد وتقترب من حجم الذرة إلى أكبر من ذلك، ومسافاتها عن الشمس تختلف بين عشرة أقدام إلى ربع ميل، هذه المجموعة الشمسية على نموذج نصف ميل، وبَعدها لابد أن تقطع فضاء ـ على هذه النسبة نفسها ـ مساحتُهُ أعرض من قارة أمريكا حتى تستطيع أن ترى جرماً سماوياً، وهكذا تبتعد النجوم بعضها عن بعض بحيث إن نموذجاً مساحته مساحة الكرة الأرضية لايتسع لأكثر من ثلاثة نجوم على فرض أن حجم الكرة الأرضية فيه بحجم حبة الخردل. فمابالنا بالمساحة التي عليها أن تكفي وتحتوي على مائة مليون نجم مثلاً؟![1].

وهذا العدد الهائل من النجوم مايمكن رؤيته بالعين المجردة، ومالايرى إلا بالمجاهر والأجهزة، ومايمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، وكلها تسبح في الفلك الغامض ولايوجد أيّ احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر أو يصطدم بكوكب آخر إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخرٍ في المحيْط الهادي يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة وهو احتمال بعيد وبعيد جداً، إن لم يكن مستحيلاً[2].

﴿هذا خَلْقُ الله فأروني ماذا خَلَقَ الذين منْ دُونهِ بلِ الظالِمُون في ضَلالٍ مبين﴾ لقمان/ ١١.

وجانب آخر من مواقع النجوم هو تلك المنازل والمدارات التي لاتتبدل ولاتتغير بنسبة بعضها إلى بعض على مرّ العصور، وقد أمكن الوصول إلى معرفة نسب مقدرة تقديراً دقيقاً في المجموعة الشمسية.

يقول علماء الفلك في ذلك:

إن أبعاد السيارات في المجموعة الشمسية جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق(٩)منازل، أولها الصفر ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد(٣) ثم تندرج مضاعفة هكذا:

---

(١) «وجوه من الإعجاز القرآني» لمصطفى الدباغ ص٨٩.
(٢) «الله والعلم الحديث» لعبد الرزاق نوفل، نقلاً عن«لفتات علمية من القرآن» ص١٩.

(٠، ٣، ٦، ١٢، ٢٤، ٤٨، ٩٦، ١٩٢، ٣٨٤).

فإذا أُضيف إلى كل واحد من هذه الأعداد العدد(٤) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ظهرمقدار بعد الكوكب عن الشمس.

ومن المعلوم المقرر أن ترتيب هذه الكواكب حسب بعدها عن الشمس كالتالي:

(عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون)

٣ ٦ ١٢ ٢٤ ٤٨ ٩٦ ١٩٢ ٣٨٤

فإذا أردنا معرفة بعد كوكب(الزهرة) مثلاً، وهو في المنزلة الثانية من الترتيب إذ ليس أمامه غير عطارد ومنزلته الصفر، فمنزلة الزهرة رقم(٣). وإذا أضفنا إلى رقم منزلة الكوكب العدد(٤) كما أفادت القاعدة ثم ضربنا الناتج في(٩) ملايين يكون الناتج(٦٣) مليون ميل وهو بعده عن الشمس.

وإذا أخذنا المريخ ومنزلته الرابعة بعد(عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ) لأمكننا بكل سهولة حساب بُعْده عن الشمس بتطبيق القاعدة المتقدمة: (١٢+٤)× ٩ مليون= ١٤٤ مليون ميلاً تقريباً وهكذا سائر الكواكب.

وقد لفت نظر الفلكيين في بداية الأمر إشكال لم يلبس أن وضح حله وزال من أذهانهم، فقد لاحظوا أن المنازل التي تقدرها حساباتهم هي تسعة منازل في حين أن الكواكب المعروفة لديهم في المجموعة الشمسية ثمانية، فمنزلة العدد(٢٤) ليس فيها كوكب بل يأتي بعد المريخ ـ صاحب العدد(١٢) ـ كوكبُ المشتري وهو صاحب العدد(٤٨)، فأثيرت الشبهة في اطراد هذه النسبة بين المجموعة الشمسية، ثم وجدوا بعد الرصد والبحث الدقيق المتواصل، وجدوا في هذا الفراغ الذي قدروا أنه لابد من وجود كوكب فيه وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في الفراغ المذكور بين المريخ والمشتري، أي في المنزلة رقم(٢٤).

ومما يقرره علماء الفلك بهذا الصدد أن المجموعة الشمسية وغيرها من المجموعات التي تسير في مواقعها وتسبح في أفلاكها لوحادت قيد شعرة عن مسارها المخصَّص لاختل نظام الكون كله باختلال نظام الجاذبية بين الكواكب. فسبحان الذي عظم من هذه الحقائق بقوله: ﴿فلاأُقسِمُ بمواقعِ النّجومِ وإنّهُ لَقَسَمٌ لوتعلَمُون عظيم﴾.

﴿هو الذي جعلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً وقدَّرَهُ منازلَ لتعلموا عدَدَ السنينَ والحسابَ. ماخلقَ اللهُ ذلك إلا بالحقّ. يفصِّل الآياتِ لقومٍ يعلمون. إنّ في اختلاف الليلِ والنهارِ وماخلقَ اللهُ في السّماواتِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يتقون﴾ يونس/ ٥، ٦.

تفسيرَ آيات الجبال:

يقول الله تعالى: ﴿والجبالَ أوتاداً﴾ النبأ/ ٧.

﴿وجعلنا فيها رواسيَ شامخاتٍ وأسقيناكم ماءً فُراتاً﴾ المرسلات/ ٢٧.

﴿أمّنْ جعلَ الأرضَ قَراراً، وجعلَ خِلالَهَا أنهاراً، وجعلَ لها رواسيَ، وجعلَ بينَ البحرينِ حَاجِزاً، أإلهٌ معَ اللهِ بلْ أكثرُهُمْ لايعلَمُونَ﴾ النمل/ ٦١.

﴿خلقَ السّماواتِ بغيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وألقىٰ في الأرضِ رواسيَ أن تَمِيدَ بكم، وبثَّ فيها من كلِّ دابّةٍ وأنزلنَا منَ السّماءِ ماءً فأنبَتْنَا فيها من كلِّ زوجٍ كريمٍ، هذا خلقُ اللهِ فأروني ماذا خَلَقَ الذينَ منْ دُونهِ بلِ الظّالِمُون في ضَلالٍ مبينٍ﴾ لقمان/ ١٠ـ١١.

نجد في الآيات المتعددة التي تتحدث عن الجبال ودورها ثلاث كلمات تحدد دور الجبال ووظائفها وهذه الكلمات: رواسي، أن تميد، أوتاداً.

يقول الراغب في شرح هذه الكلمات: (رسا، يقال رسا الشيء يرسو: ثبت، قال تعالى: ﴿رواسي شامخات﴾ أي جبالاً ثابتات. ﴿والجبال أرساها﴾ وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والجبال أوتاداً﴾)[1].

وفي«مَيَدَ» يقول: (المَيْدُ اضطرابُ الشيء العظيم، كاضطراب الأرض)[2].

فدور الجبال يبرز في ترسية الأرض وتثبيتها من المَيَدان وهو الاضطراب فهي كالأوتاد التي تمسك الخيمة من الاضطراب والسقوط. ويفسر العلم الحديث هذا الدور فيقول:تقرر الحقيقة العلمية القاطعة أن توزيع الجبال على الكرة الأرضية إنما قصد به حفظها من أن تميد إلى الشمس أو تحيد عنها، وأنها فعلاً السبب الأول لحفظ توازن الأرض، فكأن الجبال هي أوتاد للأرض تحفظها في مكانها وتحفظ عليها حركتها[3].

والحقيقة العلمية التي ذكرها القرآن الكريم في دور الجبال في حفظ توازن الأرض والمَيَدان وأنها كالأوتاد ﴿والأرضَ مددناها وألقينا فيها رواسي﴾ الحجر/ ١٩، ﴿ألم نجعلِ الأرضَ مهاداً والجبالَ أوتاداً﴾ النبأ/ ٦ـ٧.

---

(١) الجبال: هي المرتفعات من الأرض التي يزيد ارتفاعها عن ألف متر وتكون مساحة قمتها أقل من مساحة قاعدتها.

(٢) مفردات الراغب ص٢٨٥.

(٣) مفردات الراغب ص٧٢٥.

هذه الحقيقة أدركها علماء طبقات الأرض(الجيولوجيا) في العصر الحديث، ولنسمع مايقوله أهل الاختصاص في هذا الشأن:

لوكانت الأرض بحجمها الحالي مكوّنة من الماء لبلغ وزنها خمس ماهي عليه ولما أمكنها حفظ نسبة بُعدها عن الشمس بل لانجذبت إليها، ولوكانت مكوّنة كلها من اليابس لبلغ ضعف ماهي عليه ولبعدت عن الشمس البعد الذي لاتتحقق معه الحياة.

ولاتقف الدراسات عند هذا الحد، بل وصلت إلى مزايا للجبال ودورها في القشرة الأرضية نفسها، فلكل قارة جبالها التي تتميز بها، وهناك سلسلة من الجبال موزعة على سطح الأرض توزيعاً دقيقاً محكماً، وارتفاع الجبل يتناسب ومكانه من الكرة الأرضية، ونوع الصخور المكونة له وطبيعة الأرض من حوله.

والجبال الثقيلة يتكون أسفلها من مواد هشة خفيفة، وتحت المياه توجد المواد الثقيلة الوزن، وذلك حتى تتوزع الأوزان في المناطق المختلفة للكرة الأرضية، ووجد العلماء أن هذا التوزيع يتماشى مع مرونة القشرة الأرضية ودرجة حرارتها. ثم كانت الحقيقة القاطعة في إثبات دور الجبال في ترسية الأرض في فلكها الذي تدور فيه، كما تقدم، ومما يلفت النظر كثرة ذكر المياه، والمياه العذبة على الخصوص عند ذكر الجبال﴿ألم نجعلِ الأرضَ كفاتاً أحياءً وأمواتاً. وجعلنا فيها رواسيَ شامخاتٍ وأسقيناكم ماءً فُراتاً﴾ المرسلات/ ٢٥ـ٢٧، ﴿وهو الذي مدّ الأرضَ وجعلَ فيها رواسيَ وأنهاراً﴾ الرعد/ ٣.

وقد توصل العلماء بعد الاستقراء إلى أن أعذب المياه وأغزرها ماكانت ينابيعها من الجبال وسفوحها.

تفسير آيات البحار:

يقول تعالى: ﴿أمن جعل الأرضَ قراراً. وجعل خلالها أنهاراً، وجعلَ لها رواسيَ وجعلَ بينَ البحرينِ حاجزاً، أإلهٌ معَ اللهِ بلْ أكثرُهُم لايعلَمُونَ﴾ النمل/ ٦١.

ويقول جلّ شأنه ﴿مَرَجَ البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لايَبْغِيان، فبأيِّ آلاء ربّكما تكذّبان. يخرج منها اللؤلؤ والمرجان فبأيِّ آلاء ربّكما تكذّبان وله الجوارِ المنشآتُ في البحر كالأعلام فبأيِّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ الرحمن/ ١٩ـ٢٥.

الكلمات المعبرة ذات الدلالة في هذه الآيات وهي: حاجز، مرج، برزخ.

يقول الراغب في«مفرداته» في مادة«حجز»[1] : (يقال: الحجز المنع بين الشيئين بفاصل بينهما، قال عزَّ وجل: ﴿وَجَعَلَ بينَ البحرينِ حاجزاً﴾).

وفي مادة«مرج»[2] يقول الراغب: (والمروج الاختلاط، يقال : مرج أمرهم اختلط. ويقال: أمر مريج: أي مختلط، ومنه غصن مريج مختلط).

وفي مادة«برزخ»[3] يقول الراغب: (البرزخ: الحاجز، والحد بين الشيئين. والبرزخ في القيامة: الحائل بين الإنسان وبين بلوغ المنازل الرفيعة في الآخرة، وقيل البرزخ في القيامة مابين الموت إلى القيامة).

إن الكلمات المذكورة تفيد إطلاق ماء البحرين فيختلطان، ولكن لايتجاوز ماء أحدهما على ماء الآخر.

ولقد توصل العلم الحديث إلى صور شتى وحالات متعددة لايتجاوز فيها ماء أحد البحرين على الآخر ولايتعدى الحاجز الموضوع للفصل بينهما. فمن هذه الصور قالوا:

١ـ إن دورة المياه في الكون والتي تبدأ بتبخر كميات هائلة من سطح المحيطات وتتكون منها السحب وتنزل على اليابسة مطراً ينبت به الزرع وتحيا الأرض بعد موتها، وهذه المياه كميات لايستهان بها وهي مياه عذبة، فارتفاعها من المحيطات لايزيد من نسبة ملوحة المياه في البحر وتبقى نسبة الملوحة كماهي، كما أن الأمطار التي تشكل السيول والأنهار تصب ثانية في البحار والمحيطات حاملة معها ملوحة الأرض وشيئاً من المعادن والأتربة لايجعلها تطغى على البحر بل يبقى البحر ملحاً أجاجاً بنسبة واحدة.

٢ـ وقالوا: إن مستوى سطح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر، ومن ثم لايبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه، ويغير مجاريها بمائه الملح فيحولها عن وظيفتها ويبغي على طبيعتها، وبينهما دائماً هذا البرزخ من صنع الله فلايبغيان.

٣ـ ويقرر علماء البحار أن الأنهار الضخمة تشكل عند مصباتها أشبه مايكون ببحيرات خاصة، لها خواصها من حيث المذاق فليست هي بالمياه العذبة كمياه النهر، وليست بالمياه المالحة الأجاج كما هي الحال في مياه البحر. وهذه المنطقة تعيش فيها الكائنات الحية التي لاتستطيع الخروج إلى مياه البحر لعدم ملائمة البيئة لها فتهلك،

---

(١) مفردات الراغب ص١٥٦.

(٢) مفردات الراغب ص٧٠٦.

(٣) مفردات الراغب ص٥٦.

ولاتستطيع الخروج إلى مياه النهر لعدم إمكان العيش فيها أيضاً. فهذه المنطقة حجر محجور، يحجر كائناته الخاصة وطبيعة مياهه عن الاختلاط بغيره، ومحجور عن المياه الأخرى، فسبحان الذي جعل بين البحرين برزخاً وحجراً محجوراً.

٤ـ وقال بعضهم: إن هنالك حاجزاً بين البحار أنفسها يمكن تمييز خاصيات ماء كل بحر على جانبي الحاجز، وكذلك مافيها من معادن وكائنات حية. يقول صاحب لفتات علمية[١] : نشرت بعثة السيرجون افرى مع بعثة الجامعة المصرية وخفر السواحل لدرس أعماق البحر الحمر، والمحيط الهندي في جنوب عدن، نشرت بعض الملاحظات منها:

أـ أن البعثة وجدت المياه في خليج العقبة تختلف في خواصها وتركيبتها الطبيعية والكيميائية عن المياه في البحر الأحمر، وحققت البعثة(بواسطة قياس الأعماق) وجود حاجز مغمور عند مجمع البحرين يبلغ ارتفاعه أكثر من ألف متر.

ب ـ وكذلك تبين وجود حاجز مغمور بين المحيط الهندي والبحر الأحمر، وأثبتت التحاليل الكيميائية أن مياه المحيط الهندي تختلف في خواصها الطبيعية والكيميائية عن مياه البحر الأحمر، ومرجع ذلك إلى وجود هذا الحاجز المغمور عند ملتقى كل بحرين.

٥ـ وقال بعضهم: إن هنالك حاجزاً من نوع آخر أيضاً وفي داخل المحيطات إذ ثبت أعظم الأنهار على الإطلاق موجودة داخل البحار، يقول فرديناندلين[٢] :

وتوجد أعظم أنهار الدنيا في البحر، ويبدو نهر المسيسبي أو حتى نهر النيل أو نهر الأمازون بجانبها وكأنه غدير، يبدو غريباً أن تستطيع تيارات المياه أن تتحرك لمثل هذا البعد خلال مياه أخرى دون أن تختلط بها. ولكن أيَّ مجرى من الماء أدفأ أو أبرد من الماء المحيط من كل الجهات يستمر في جريانه بمفرده لزمن طويل، وفي بعض الأحيان تتميز ضفتاه بوضوح يشبه تقريباً وضوحهما لوكان المجرى على الأرض اليابسة، وقد يختلف أيضاً تيار الماء المتحرك في لونه عن ماء البحر المحيط به.

وتوجد حركات أخرى في البحر هي أعظم حتى من التيارات السطحية، وهذه هي صعود المياه الأدفأ والمياه الأخف، وهبوط المياه الأثقل والمياه الأبرد. وفي البحار القطبية تغوص المياه الباردة إلى أسفل وتزحف على قاع المحيط كما أن المياه الدافئة

---

(١) ص٥٧.
(٢) «كل شيء عن البحر» ترجمة الدكتور محمود محمد رمضان، ص ٤١.

في المناطق الحارة تندفع ببطء على السطح تجاه القطبين. ومثل هذه الحركات تمد كل الكائنات الحية في البحر باحتياجاتها فهي تحمل الأوكسجين الضروري للحياة إلى أسفل قاع المحيط، وتوزع الأملاح والمعادن الأخرى هنا وهناك في الماء تماماً مثلما يضع الفلاحون السماد في التربة. وهذه المعادن ضرورية لحياة النباتات التي هي غذاء الحياة الحيوانية في البحر. وتيارات السطح، وصعود المياه ونزولها، والزحف البطيء على طول القاع في المحيط، كل هذه تُنَظِّفُ البحر وتنقِّيه، فهي تحميه من أن يأسن كما يأسن ماء البركة الراكد. ويقدر العلماء أن مياه المحيط القطبي الشمالي تتغير كل ١٦٥ سنة كما يتغير الماء في حمام السباحة، ويجري هذا في كل مكان في المحيطات وفي أغلب الخلجان والمداخل الصغيرة[١].

وهكذا نجد أن النص القرآني المعجز يحتمل كل ماقيل واكتشف من الحواجز سواء كانت بين الأنهار العذبة وبين مصباتها في البحار، أو بين البحار الملحة أنفسها، أو بين التيارات المائية في المحيط ومائه. وقد يكتشف غير هذا في المستقبل، وتبقى الحقيقة الخالدة ﴿ومايستوي البحران، هذا عَذْبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ، ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً، وتستخرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبِسُونَهَا، وترى الفُلْكَ فيه مواخِرَ لتبتغوا من فَضْلِهِ ولعلَّكم تشكرون﴾ فاطر/ ١٢، ﴿وهو الذي مَرَجَ البحرين، هذا عَذْبٌ فُراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ، وجعل بينهما بَرْزَخاً وحِجْراً محجوراً﴾ الفرقان/ ٥٤.

تفسير آيات الظواهر الجوية:

(الرياح ـ السحب ـ المطر ـ الرعد والبرق)

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿واللهُ الذي يُرسِلُ الرياحَ فتثيرُ سحاباً فَيَبْسُطُهُ في السماءِ كيفَ يشاءُ ويجعلُهُ كِسَفاً فترَى الوَدْقَ يَخْرُجُ من خلالهِ، فإذا أصابَ بهِ مَنْ يشاءُ مِنْ عبادهِ إذا هم يستبشرون﴾ الروم/ ٤٨، ﴿وأرسلنا الرياحَ لوَاقِحَ..﴾ الحجر/ ٢٢.

إن الحقائق التي ذكرتها آيات القرآن الكريم عامة ومايتعلق منها بتأثير الرياح في إنشاء السحب وتلقيحها وتشكيلها، ثم نزول المطر أو البَرَد منها، هذه الحقائق من أعجب الأمور وأدقها التي توصل إليها العلم الحديث فلو لم يكن في القرآن الكريم إلا هذه الحقائق لكانت كافية في تعريفنا بأن منزل القرآن هو خالق السماوات والأرض ومصرِّف الرياح ومنزِّل الماء من السماء يحيي به الأرض بعد موتها.

---

(١) «كل شيء عن البحر»، ص٤٧.

ولنسمع مايقوله العلم الحديث في هذا الشأن:

الأصل في تكوين السحب على اختلاف أنواعها وأشكالها إنما هي الرياح، فالسحب الطبقية وهي التي تنمو في اتجاه أفقي يكون الهواء الذي يحملها صاعداً إلى أعلى ببطء، أما السحب الركامية الرأسية تكون الرياح التي تحملها صاعدةً إلى أعلى بسرعة﴿.. فتثيرُ سحاباً فَيَبْسُطُهُ في السماءِ كيفَ يشاء﴾.

وحقيقة أخرى أشارت إليها الآية الكريمة ﴿وأرسلنا الرياحَ لواقحَ فأنزلنا من السماءِ ماءً فأسقيناكُمُوهُ وماأنتُمْ لهُ بخازِنين﴾ الحجر/ ٢٢، فقد حملها كثير من المفسرين على أن الرياح اللواقح تلقح النباتات فتحمل الطّلع من الذكر إلى الأنثى فتلقح بويضاتها. والحقيقة أن هذا الأمر ممايتحقق بواسطة الرياح، إلا أن سياق الآية في هذا المقام لايحتمل ذلك بل يشير إلى حقيقة أخرى أدق وهي«تلقيح السحب». [١]

وقد توصل العلم الحديث إلى أن نمو السحب ونزول المطر يتطلب أن تلقح الرياح هذه السحب بأكداس من جسيمات مجهرية تسمى(نويات التكاثف)، ومن أهم خواص هذه النويات أنها تمتص الماء أو تذوب فيه، وتحمل الرياح كذلك بخار الماء وتلقح به السحاب لكي يمطر. وتتم العملية بتجمع جزئيات الماء المنفصلة والموجودة في الهواء حول نويات التكاثف حيث إن أصغر نقط الماء تحتوي على مالايقل عن(١٠٠) جُزَيء وليس من السهل أن يتجمع مثل هذا العدد مع بعضه لمجرد الصدفة مالم توجد نويات تترسب عليها الجزئيات وتحتفظ بها. وعلى هذا النحو عرف الناس الآن أن الآية الكريمة إنما تشير إلى تلقيح الرياح للسحب ببخار الماء ثم بنويات التكاثف كخطوة أساسية لكي تجود بالمطر[٢].

أما قوله تعالى: ﴿ألم ترَ أنّ الله يُزجي سحاباً ثم يؤلِّفُ بينَهُ ثم يجعلُهُ رُكاماً فترى الوَدْقَ يخرجُ من خِلاَلهِ، وينُزِّل منَ السماءِ مِنْ جبالٍ فيها من برَدَ، فيصيبُ به مَنْ يشاءُ ويَصْرِفُه عمَّنْ يشاءُ يكادُ سَنا بَرْقِهِ يذهبُ بالأبصار﴾ النور/ ٤٣، فيشير إلى جملة من الحقائق الباهرة التي لم تُكتشف إلا بعد تقدّم علوم الأرصاد الجوية في العصر الحديث، من ذلك:

---

(١) أشار ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة»، ص ٢٠١إلى ذلك، حيث يقول: (... فجعله رخاء - أي الهواء - ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولاقحا للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل).

(٢) «من روائع الإعجاز في القرآن» للدكتور جمال الدين الفندي، ص ٨٤.

يقول علماء الأرصاد الجوية: إن المطر يتوقف على تكوين السحب الماطرة(المُزن) ومن هذه المزن مايسمى(المزن الركامي). وهي سحب تنمو في الاتجاه الرأسي، وقد تمتد إلى علو عشرين كيلو متراً، وداخل السحب الركامية ثلاث طبقات، وهي الطبقة السفلى وقوامها نقط نامية من الماء ثم الطبقة الوسطى وتكون درجة حرارة نقط الماء فيها تحت الصفر المئوي، ومع ذلك فهي باقية في حالة السيولة[1] ، أما الطبقة العليا فتتكون من بلّورات الثلج ذات اللون الأبيض الناصع. وجعل الله سبحانه وتعالى نقط الماء فوق المبردة غير المستقرة قابلة للتجمد بمجرد ارتطامها بجسم صلب، لذا فبمجرد أن تتساقط بلورات الثلج من الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وتلتقي بنقط الماء فوق المبردة تلتصق البلورات بنقط الماء وتتجمد فينمو حجمها سريعاً، وينشط عليها التكاثف فتتساقط على هيئة برد﴿وينَزّلُ من السماءِ من جبالٍ فيها من برَدٍ﴾. وأثناء سقوط هذا البرد يلتقي بنقط الماء النامية فيتجمع معها، ويزداد حجم النقط كثيراً ولايقوى الهواء على حملها فتتساقط على هيئة مطر، ويذوب أغلب البرد قبل وصوله إلى سطح الأرض.

ولنمو البرد وذوبانه أهمية عظيمة في عمليات شحن السحابة بالكهربائية التي تسبب البرق والرعد، فالبرد عندما ينمو فوق(٢) ملمتر يشحن بالكهربائية، وعندما يذوب يشحن أيضاً بشحنة مضادة، وفي كلتا الحالتين يحمل الهواء الصاعد شحنة كهربائية مضادة عظمى. والآية الكريمة ذكرت كلمة(ركاماً) وأعقبتها بالـ(برد) وقد أثبت العلم أن هذا النوع(السحب الركامية) هي الوحيدة التي تعطي البرد. وفي التعبير بقوله: ﴿ثم يؤلِّف بينه﴾ سرٌ من الأسرار الدقيقة الرائعة التي تعتبر الآن من أمهات الحقائق الجوية، إذ فيها الدلالة على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها تلك الظواهر الجوية كلها. فإن التأليف بين السحاب وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذب ويتعبّأ في الجو تعبئة الجيوش، وهو يتفق مع مايريد الله أن يخلقه من بين السحاب من برق وصواعق، ومطر أوبرد.

وتشبيه الآية الكريمة هذه السحب بالجبال لايدركه إلا من ركب الطائرة وعلت به فوق السحب أو بينها، فإنه سيدهش لدقة الوصف فإنه يجد مشهد الجبال حقاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها.

---

(١) يجمد الماء تحت الضغط العادي في درجة الصفر المئوي، أما إذا اختل الضغط الجوي الذي يقدر بـ (٧٦) سنتمتر زئبق، فإن تجمد الماء وكذلك غليانه يختلفان، لذا تكون درجة الحرارة أقل من الصفر ولا يجمد الماء لضعف الضغط الجوي.

وأشارت الآية الكريمة إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوين البرد بالنص على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض، الذي يخطف بالأبصار ويصيبها بالعمى المؤقت، وأكثر من أن يعاني من هذه الظاهرة هم الطيارون ﴿يكادُ سَنا برقِهِ يذهبُ بالأبصار﴾[1].

تفسير آيات خلق الحيوان:

يقرر القرآن الكريم حقائق عن الحيوان لاتقل في الأهمية والدقة عن الحقائق التي يقررها في كل جانب من جوانب الكون والحياة، فهو يلفت النظر تارة إلى المنافع التي يحصل عليها الإنسان من تسخير هذه الدواب ركوباً وحملاً ولباساً وطعاماً وشراباً وزينة، فهي مسخَّرة للإنسان مذلَّلة له منقادة.

إن ظاهرة انقياد الحيوان للإنسان ظاهرة تستدعي شكر المنعم الذي جعل فيها هذه الطبائع، ولولا وجود هذا الطبع فيها لما استطاع الإنسان إلى التغلب عليها سبيلاً.

﴿أوَلَمْ يرَوْا أنّا خلقنَا لهم مِمّا عَمِلَتْ أيدينا أنعَاماً فهم لها مالِكُون، وذلّلناها لهم فمِنْهَا رُكُوبُهُمْ ومنها يأكلون، ولهم فيها منافعُ ومشارِبُ أفلا يشكرون﴾ يس/ ٧٣.

يقول الإمام الغزالي: اعلم ـ وفقك الله وإيانا ـ أن الله خلق البهائم لمنافع العباد وامتناناً عليهم.. فخلقها سميعة بصيرة لبلغ الإنسان حاجته لأنها لوكانت عمياء صماء لم ينفع الإنسان بها ولاوصل بها إلى شيء من مآربه. ثم مُنعت العقل والذهن حكمة من الله، لتذل للإنسان فلاتمتنع عليه إذا أكدَّها عند حاجته إلى إكدادها في الطحن وحمل الأثقال إلى غير ذلك.. أما ترى الحمار يذلّ للحمولة والطحن، والبعير لاتطيقه عدة رجال لو استعصى وينقاد لصبي صغيرة والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرثه، والفرس تركب وتحمل عليها السيوف والأسنة في الحروب وقاية لراكبها، والقطيع من الغنم يرعاها صبي واحد، فلوتفرقت فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها، لتعذرت رعايتها، وربما أعجزت طالبها.

وكذلك جميع الحيولن المسخر للإنسان، وماذلك إلا لأنها عدمت العقل والتروي فكان ذلك سبباً لتذليلها[2].

---

(١) «سنن الله الكونية» للدكتور محمد أحمد الغمراوي، نقلا عن «الفتات علمية في القرآن» ص٥٣.

(٢) «الحكمة في مخلوقات الله» للإمام الغزالي ص١٠١.

وعبرة أخرى يلفت القرآن الكريم الأنظار إليها في الحيوان وهي مسألة رزق الحيوان؛ إن الإنسان يعقل ويفكر ويخطط ويسعى في سبيل تحصيل معيشته وكسبه وإذا حصل على الكسب بطريقة ما، فكّر في ادخاره وخزنه للمستقبل، أما الحيوان فليست عنده القدرة على التفكير والتخطيط، وليس من طبعه ذلك، إلا أنواع قليلة منها يعدها علماء الحيوان في الطبقة الراقية من الحيوان كالنمل والنحل. إن قدرة الحكيم الخبير المحيطة بكل شيء قد تكفّلت بأرزاقها، وتوفر سبل البقاء أمامها. يقول عز من قائل:

﴿وكأيٍّ مِنْ دابّةٍ لاتحمِلُ رِزْقَهَا، اللهُ يرزقُهَا وإيّاكُمْ وهو السّميعُ العليم﴾ العنكبوت/ ٦٠.

هكذا شأن الألوهية في المخلوقات: العلم والإحاطة بالمكان وتكفل الرزق في جميع الظروف، فالحيوان مرزوق في كل مكان، في أعماق البحار والمحيطات، وفي الصحراء المحرقة، والأصقاع المتجمدة، تحت الصخور الصماء وفي أجواء الفضاء. كل ذلك في كتاب لايضل ربي ولاينسى.

﴿ومامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلمُ مستقرّها ومستودَعها كلٌّ في كتابٍ مبين﴾ هود/ ٦.

يقول الإمام الغزالي: ولما كانت البهائم لاأذهان لها ولاأكفّ، ولاأصابع تهيأ للأعمال، كُفِيَتْ مؤونة مايضر بها، بأن جعلت كسوتها في خلقها باقية عليها مابقيت، فلاتحتاج إلى استبدال بها وتجديد بغيرها، بخلاف الآدمي فإنه ذوفهم وتدبير، وأعضاءٍ مهيأة لأعمال مايقترحه، وله في إشغاله بذلك صلاح، وفيه حكمة، فإنه خُلق على قابلية لفعل الخير والشر.

انظر إلى النمل وماأُلهمت له، في اجتشادها في جمع قوتها وتعاونها على ذلك وإعدادها لوقت عجزها عن الخروج والتصرف بسبب حرّ أو برد. وأُلهمت في تقلب ذلك من الحزم مالم يكن عند من يعرف العواقب حتى تراها في ذلك إذا عجز بعضها عن حمل ماحمله أو جهد به أعانه آخر منه، فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذي لايتم إلا بالتعاون.

ثم إنها أُلهمت حفر بيوت في الأرض، تبتدىء في ذلك بإخراج ترابها وتقصد إلى الحب الذي فيه قوتها، فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض فما خلق هذا في جبلتها إلا الرحمن الرحيم، ثم إذا أصاب الحب بلل أخرجته فنشرته حتى يجف، ثم إنها

لاتتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض، خوفاً من السيل أن يغرقها[1].

لقد نص القرآن الكريم أن هذه المخلوقات من الدواب والحشرات المتباينة في الأشكال والحجوم وطريقة الحركة والسير أمم وفصائل أمثال الناس: ﴿واللهُ خَلَقَ كلَّ دابةٍ من ماءٍ، فمنهم من يمشي على بطنهِ، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلقُ اللهُ مايشاءُ، إن اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير﴾ النور/ ٤٥.

﴿ومامن دابّة في الأرض ولاطائرٍ يطيرُ بجناحيهِ إلّا أممٌ أمثالُكُمْ مافرَّطْنا في الكتابِ من شيء ثم إلى ربِّهم يُحشرون﴾ الأنعام/ ٣٨.

لقد أدرك العلم الحديث شيئاً جزئياً من حياة الحيوان بالمخالطة والتتبع والاستقراء، وتأكد لدى كل الباحثين أن كل حيوان ينتمي إلى فصيلة معيَّنة تجمع بين أفرادها خصائص واحدة وتربطها فيما بينها نظم ثابتة ولها وسائلها الخاصة في التفاهم.

ومن دراسة ظواهر الحيوانات الأليفة أثبتوا أن لكل صنف منها لغة خاصة يتفاهم بها ويتعارف مع غيره على أحواله، وأحوال مايحيط به.

فالدجاجة تُصدر أصواتاً خاصة مميزة عندما تدعو صغارها إلى التقاط الحبوب وترى الصغار تتجمع حولها بسرعة، ولكنها تصدر أصواتاً أخرى عند تحذيرها من خطر وشيك، فترى الصغار تهرب للاختباء في القنّ أو تحت أجنحتها.

يقول«ألن يفو» أحد علماء الحيوان: إنه وقف يوماً يرقب ثلاثة من صغار الثعالب تلعب حول أمها، وإذا بصغير منها يدخل الغابة ويبتعد عنها كثيراً حتى غاب عن النظر، فاستوت الأم قائمة ومدت أنفها إلى الناحية التي ذهب منها وبقيت على حالها هذه برهة عاد بعدها الصغير في اتجاه لايلتفت يمنة ولايسرة كأنما تجذبه بخيط لاتراه العين.

والنحلة إذا حصلت على حقل مزهر عادت إلى الخلية، وماأن تتوسطها حتى ترقص رقصاً خاصاً فإذا بالنحل يندفع إليها ويسير خلفها إلى حيث تهديها النحلة إلى الزهور، بل برقصاتها المعينة تكون قد حددت الجهة والبعد ونوع المرعى.. فلابد لكل هذه الفصائل من الحيوانات والحشرات من لغة للتفاهم ونظام تسير عليه.

لقد قرر القرآن الكريم هذه الحقائق بكل وضوح قبل أن يتطور علم الحيوان الذي لايزال يدرس الحالات الظاهرة، وبيَّن أن هذه اللغة يمكن إدراكها إذا شاء الله سبحانه وتعالى، بأن أودع في الإنسان خاصية تمكّنه من استقبال إشارات هذه اللغة، وأخبر

---

(١) «الحكمة في مخلوقات الله» للإمام الغزالي، ص١١٢.

القرآن الكريم أن ذلك قد تحقق لأحد من أصفياء الله من البشر وهو سليمان عليه السلام: ﴿ووَرِثَ سليمانُ دوادَ وقال ياأيها النّاسُ عُلِّمْنَا منطِقَ الطيرِ وأُوتِينا من كلِّ شيء إنّ هذا لهوَ الفَضْلُ المبين. وحُشِرَ لسليمانَ جُنودُهُ منَ الجنِّ والإنسِ والطيرِ فهم يُوزَعون. • حتى إذا أَتَوْا على وادِ النّملِ قالتْ نملةٌ: ياأيها النملُ ادْخُلوا مساكِنكُمْ لايَحْطِمَنّكُمْ سليمانُ وجنودُهُ وهم لايشعُرون. فتبسّمَ ضاحكاً مِنْ قولِها، وقالَ ربِّ أوزِعْني أنْ أَشْكُرَ نعمَتَكَ التي أنعمتَ عليَّ وعلىٰ والديَّ وأن أعملَ صالحاً ترضَاهُ، وأَدْخِلني برحمتِكَ في عبادِكَ الصالحين﴾ النمل/ ١٦ـ١٩.

وهناك فصائل من الحيوان تمتاز عن غيرها بصفات أودعها الله سبحانه وتعالى فيها غريزة وفطرة يعجز عنها العقل البشريّ مع وسائله المتطورة المتقدمة.

فمثلاً النحل ومملكته، والتنظيم الرائع بين أفراد النحل عامة، إن دراسات مستفيضة قامت حول هذه المملكة فأظهرت العجب العجاب.

فالتقسيمات الدقيقة بين أصناف النحل وتحديد مهمة كل صنف منها: صنف مهمته جمع رحيق الأزهار وإيداعه في مستودعاته من الخلية، وصنف يعمل داخل الخلية لبناء بيوت سداسية الشكل، واختيار الشكل السداسي لم يأت اتفاقاً، بل عن اختيار وحكمة فإنّ أيّ شكل هندسي آخر لايمكن أن يملأ كل الفراغات، بل تبقى زوايا مهملة لايستفاد منها، أما الشكل السداسي فلاتبقى معه أية زاوية مهملة، وهناك صنف من النحل يجهز للملكة طعاماً خاصاً، ومهمة الملكة هي الإنجاب ليس إلاّ، إذْ بعدَ أن تضع بيوضها تموت لتختار ملكة جديدة من بين الجيل القادم وتقتل كلّ الأصناف الشبيهة بالملكة المختارة حتى لاتنازع الملكة سلطتها وهنالك على باب الخلية حرس يفتشون العلامات بدقة متناهية، فالتي تقع على نجاسة أو شيء خبيث الرائحة يكون جزاؤها القتل أو الطرد والمنع من دخول الخلية.

فسبحان الذي أوحى إلى النحل مهمتها في الحياة، وخصها بهذا الدور العظيملإخراج مافيه الشفاء للناس ﴿وأوحى ربُّك إلى النحلِ أنِ اتّخذي من الجبالِ بُيوتاً ومن الشجرِ ومما يَعْرِشُون. ثم كُلِي من كلِّ الثّمراتِ فاسلُكي سُبُلَ رَبّك ذُلُلًا، يَخْرجُ من بطونِها شَرابٌ مختلفٌ ألوانُهُ فيه شفاءٌ للنّاسِ إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون﴾ النحل/ ٦٨ـ٦٩.

وليظهر الله سبحانه وتعالى معجزات كتابه ويُري آياته للناس في هذا العصر فقد سخر أناساً لدراسة طبيعة العسل وتركيبه. وذهبوا إلى تشريح جسم النحلة واستخراج السم الذي في بطنها وتحليله للتعرف على خاصياته، وتوصلوا إلى نتائج باهرة تميط

اللثام عن معجزة الكتاب الخالد ﴿يَخرجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُهُ فيه شفاءٌ للنّاس﴾، وفيما يلي إشارات إلى بعض هذه النتائج:

أما عن تركيب العسل فقد وجدوا أنه يتركب من:

(٢٥ـ٤٠)	دكستروز	(جلوكوز)
(٣٠ـ٤٥)	لفيلوز	(فروكتوز)
(١٥ـ٢٥)	ماء	

والجلوكوز الموجود فيه بنسبة أكثر من أي غذاء آخر هو سلاح الطبيب في أغلب الأمراض، واستعماله في ازدياد مستمر بتقدم الطب، فيُعطى بالفم والحقن الشرجية وتحت الجلد وفي الوريد، ويُعطى بصفته مقوّياً ومغذّياً ومضاداً للتسمم الناشىء عن مواد خارجية مثل الزرنيخ والزئبق والذهب. وضد التسمم الناشىء عن أمراض الكبد والاضطرابات المعدية والمعوية، وضد التسمم في الحميات مثل التيفوئيد والالتهاب الرئوي والسحائي المخي والحصبة، وفي حالات ضعف القلب، وحالات الذبحة الصدرية، وبطريقة خاصة في الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكُلَى الحادة، وفي احتقان المخّ وفي الأورام المخيّة.

واتجهت الأبحاث العلمية التي تُجرى على النحل والعسل إلى دراسة سم النحل، إذ تقوم حالياً بعض المؤسسات الطبية باستخراج سمّ النحل الذي يفرزه عن طريق آلة اللسع لاستعماله في معالجة بعض الأمراض المستعصية، وفي أمريكا وانجلترا حالياً مناحل لاغرض لها إلا تربية النحل لاستخراج مصله، وعمل حقن منها لعلاج كثير من الأمراض الروماتيزمية، اللمباجو وعرق النساء، ونجحت في علاج التراخوما«الرمد الحبيبي» ومازال العلم يحمل إلينا في كل يوم فائدة طبية من فوائد مايخرج من بطون النحل من عسل وسم.

قام الدكتور«أف. ج. ساكيت» بكلية كولورادو الزراعية بتجربةٍ فزرع جراثيم مختلف الأمراض على العسل الصافي، ولبث ينتظر النتيجة، وقد أثارت النتائج إعجابه، إذماتت الجراثيم وقضى عليها كلها في فترة بضع ساعات، أو في مدة أقصاها بضعة أيام. ماتت جراثيم حمّى التيفوس بعد(٢٤) ساعة، وماتت جراثيم الالتهاب الرئوي(المكورات الرئوية) في اليوم الرابع، وكذلك بعض الأنواع الأخرى كجراثيم التهاب البريتون والبلورا والخراجات والمكورات العنقودية والمكورات العقدية، أما جراثيم الدوسنتاريا فقد قضى عليها بعد(١٠) ساعات.

وخلال الحرب العالمية الثانية استعمل الأطباء العسل في علاج الجروح المتسببة

عن الإصابات بالرصاص، وكانت النتيجة مذهلة من حيث سرعة التئام الجروح وشفائها. واستعمل المرهم المكون من المزيج التالي في شفاء الجروح المستعصية التي فشل علاجها بالأشعة وسائر المضادات الحيوية، ويتكون من: ٨٠ غ عسل نحل+ ٢٠ غ زيت كبد الحوت+٣زيرونورم.

وقد وجد في نتائج هذه الوصفة مايأتي:

أحد المصابين في الحرب وعمره(٣٥) عاماً عنده ندبة كبيرة في ظهر قدمه اليمنى وفي وسط الندبة قرحة مساحتها ٣× ٥ سم وقاعها عميق. ظل الجرح على هذه الحالة لمدة ثلاثة شهور ولم تجد المراهم والعلاج بالأشعة وغيرها من الطرق معها نفعاً. وقد استعمل مرهم العسل لمدة(٢٢) يوماً فشفيت القرحة.

وقد استعمل العسل ولايزال علاجاً عالمياً للزكام بإضافته إلى بعض أنواع السوائل. فبعض الأطباء مثل«ك. أ. منيبس» و«س. كنيب» ينصحون بالعسل مع اللبن الدافىء، وآخرون ينصحون باستعمال العسل الممزوج بعصير الليمون، أما الدكتور«أورتل» فأوصى باستعمال العسل الممزوج بعصير البرسيم الدافىء في علاج الزكام علاجاً ناجحاً.

وللعسل تأثير قوي لعلاج السعال. أما العسل مع الرمان فينصح به ابن سينا لعلاج أمراض القلب والذبحة الصدرية. وفي العصر الحديث يقول الدكتور «م.س. جولدمب ورافي، وغيرهم» إن تناول مابه ٥٠ـ١٤٠غ يومياً من العسل لمدة شهر أو شهرين للمرضى الذين يشكون من علل خطيرة في القلب يحدث تحسناً ملحوظاً في حالتهم ويرجع حالة الدم إلى الحالة العادية ويزيد من الهيموجلوبين وقوة الجهاز الدوري.

ويتفق الأطباء الأمريكيون والروس على أن العسل أفضل علاج للمصابين بقرح المعدة والاثنى عشر، على أن يؤخذ قبل وجبات الطعام بساعة أو أكثر، وأفضل الأوقات هو قبل الإفطار، ومذاباً في كوب ماء دافىء.

ويقرر«أ. أويرتل دي» أن عسل النحل علاج ممتاز للاضطرابات العصبية، وأن كوب ماء مذاب فيه العسل إذا أُخذ قبل النوم كفيل بتوفير نوم هادىء.

وقد وصف بعض الأطباء الروس والصينيين العسل لعلاج أمراض الجلد والخراريج والدمامل، أما علاج القرنية في العين بالعسل، فقد أعطى نتائج مذهلة.

ويقول الدكتور«بيك» الأمريكي، إنّ مرض السرطان غير معروف بين النحالين في الغالب، وهذا يرجع إما إلى العسل الذي يتناوله النحالون باستمرار أو نتيجة الغذاء

الملكي أو حبوب اللقاح الموجودة بالعسل أو أنها نتيجة لسم النحل الناتج من اللسع.

وإذا أخذ مرضى السكر العسل تحت إشراف الطبيب فقد أثبتت التجارب انخفاض نسبة السكر في دمائهم وعودتها إلى الحالة الطبيعية[1].

هذا بعض ماتوصلوا إليه من شأن النحل والشراب الخارج من بطونها، ومن يدري ماذا يكون بعد تطور مسائل المعرفة والاكتشاف؟ فقد تكتشف خصائص للعسل أضعاف ماعرفوا الآن، وستبقى المعجزة الخالدة تحدوهم ﴿فيه شفاء للناس﴾. وستبقى الحقيقة الإيمانية ماثلة في الأذهان: «اسقِهِ عسلاً.. صدق الله العظيم وكَذَبَ بطنُ أخيك»[2].

الإنسان سيّد المخلوقات في الأرض:

لقد حظي الإنسان بالجانب الأكبر من اهتمام القرآن الكريم، كيف لا، وهو سيد المخلوقات الذي سخّر له كل مافي السماوات والأرض، وخُصَّ بملكة العقل والبيان، فكان أهلاً لحمل الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال وأشفقت منها وحملها الإنسان.

لقد بيّن القرآن مبدأ خلق النوع البشري، ثم سنة الله في تطوّره وتكاثره من الزوجين الذكر والأنثى، وبيَّن أطوار خلقه في الظلمات الثلاث داخل القرار المكين إلى أن يخرج خَلْقاً مكتمل الخلقة سويًّها، كما تحدّث القرآن الكريم عن خصائص هذا الإنسان الذي أكرمه ربه من بين سائر المخلوقات، إلا أن الإنسان كثيراً مايتنكّر لهذه النعم ويُسيء الأدب مع خالقه المتفضِّل عليه بالنعم الوافرة، كما يتحدَّث القرآن الكريم عن مصير الإنسان باعتباره كائناً حياً فمصيره الموت، ثم البعث والنشور للحساب.

إن دراسة الإنسان من خلال آي الذكر الحكيم لن يصل إلى دقائق أسرارها جيل من الأجيال مهما بُذلت الجهود من المختصين ومهما رُصدت الأموال للأبحاث في مخلوق يكتنف الغموض جوانب كينونته وتلتف الأسرار حقيقة ماهيته.

وفي عصرنا الحاضر وعلى الرغم من تقدم العلوم الهائل في مجالات الحياة المختلفة فلايزال الإنسان ذاك اللغز المحيِّر، ولاتزال جوانب كثيرة مجهولة تماماً في الإنسان لم يستطع العلماء أن يفهموا حتى ظواهرها البسيطة: كيف يفكر الإنسان؟ كيف

---

(١) انظر في استعمالات العسل في الطب: كتاب «الأدوية والقرآن الكريم» للدكتور محمد هاشم، ص٦٨ ومابعدها.

(٢) رواه البخاري، كتاب الطب، جـ ٧ ص١٣.

يحلل الأمور؟ كيف ينام؟ كيف يضحك؟ كيف يحب؟ كيف يغضب؟ كيف..؟ كيف..؟

قائمة من التساؤلات التي قد تبدو بسيطة لأول وهلة للإنسان العادي، ولكنها تحير الدارسين المتعمقين في دراسة الإنسان.

إن الدراسات لاتزال تقف على عتبة الظواهر التشريحية لمعرفة وظائف الأعضاء ولم تصل إلا إلى بعض وظائفها، إلا أنها عاجزة تمام العجز عن إدراك كيفية عملها، فإن خلف ذلك سر الروح والحياة ﴿ويسألونَكَ عَنِ الرُّوحِ. قُلِ الرُّوحُ من أمرِ ربِّي ومَا أوتيتم مِنَ العلمِ إلّا قليلاً﴾ الإسراء/ ٨٥.

تفسير آيات خلق الإنسان:

قال تعالى: ﴿فلينظُرِ الإنسانُ ممَّ خُلِق، خُلِقَ من ماءٍ دافق، يَخْرُجُ مِنْ بينِ الصُّلْبِ والتَّرائب﴾ الطارق/ ٥ـ٧.

يقول ابن القيّم :(فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وماصارت إليه ثانياً، وأنه لواجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً بل عظماً واحداً من أصغر عظامها بل عرقاً من أدق عروقها بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك، بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين. فمن هذا صنعه في قطرة ماء. فكيف صنعه في ملكوت السماوات وعلوّها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها)[1].

يقول تعالى: ﴿وإذ أخذَ ربُّكَ مِنْ بني آدمَ مِنْ ظهورِهم ذريَّتهم وأشهدَهم علىٰ أنفسِهم ألستُ بربّكم؟ قالوا: بلىٰ شهِدنا، أنْ تقولوا يومَ القيامة إنّا كنّا عَنْ هذا غَافِلين﴾ الأعراف/ ١٧٢.

ويقول جلّ ثناؤه: ﴿فلينظُرِ الإنسانُ ممَّ خُلِق. خُلِقَ من ماءٍ دافق. يَخْرُجُ من بينِ الصُّلْبِ والترائب﴾ الطارق/ ٥ـ٧.

تشير الآية الأولى أن الله سبحانه وتعالى أخذ من ظهور بني آدم ذريتهم، وذلك في عالم الذّر، وأشهدهم على أنفسهم الإقرار بربوبية الله سبحانه وتعالى وعبوديتهم لخالقهم. وموطن الشاهد في الآية أن مكمن الذرية هي الظهور. وتشير الآيات في

---

(١) «مفتاح دار السعادة»١/ ١٩٦.

سورة الطارق إلى أن الماء الدافق مصدره من بين الصلب والترائب. يقول خبراء علم الأجنّة: إن الجنين عند تكوينه في الرحم تنبت الخصيتان في ظهره عند أسفل الكليتين تماماً وتبقيان كذلك في ظهره حتى أشهره الأخيرة في بطن أمه ثم تنحدران إلى الأسفل، وعند الولادة تكونان في المركز المعتاد.

وكذلك مركز المبيض في الأنثى فإنه في الظهر تماماً تحت الكلية ذكراً كان أم أنثى، ومعلوم أن الخصيتين والمبيض هما مستقرّا النطفة التي هي مبدأ خلق الإنسان وهما في الظهر. ويقولون: إنّ الخصيتين والمبيض يعتمدان على شريان يمدهما بالدم، وأصل هذا الشريان من الشريان اللاورطي في مكان يقابل مستوى الكلية الذي يقع بين الصلب والترائب. ويقولون إن الخصية والمبيض يعتمدان على الأعصاب التي تتصل بالضفيرة اللاورطية ثم بالعصب الصدري العاشر الذي يخرج من النخاع بين الضلع العاشر والحادي عشر. وهذا أيضاً من بين الصلب والترائب[1].

النشأة الجنينية في الرحم:

يقول الله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سُلالةٍ من طين، ثم جعلنَاه نطفةً في قَرارٍ مَكين﴾ المؤمنون/ ١٢.

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ نخلُقْكُمْ من ماءٍ مَهِين، فجعلنَاهُ في قَرارٍ مَكين، إلى قدرٍ معلوم، فقدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُون﴾ المرسلات/ ٢٠ـ٢٣.

ويقول جلّ جلاله: ﴿يخلقَكُمْ في بُطونِ أمهاتِكُم خلقاً مِنْ بعدِ خَلْقٍ في ظُلماتٍ ثلاثٍ﴾ الزمر/ ٦.

الآيات الكريمة تشير إلى أصل الخلقة من الماء المهين ـ النطفة ـ التي تودَع في القرار المكين ـ الرحم ـ، وتسمية الرحم بالقرار المكين الذي يستقر فيه الجنين إلى قدر معلوم حدده الله سبحانه وتعالى تسمية ذات دلالة، وقد وفّر له وسائل الراحة والاستقرار والعناية الربانية التي تفوق التصور، وتبرز هذه الوسائل ودقتها في الأمور التالية:

١ـ الحوض وشكله: ويتكون من مجموعة من العظام متصلة ببعضها اتصالاً دقيقاً، فتكون مثل الصندوق الخشبي، ونظراً لاختلاف وظيفة حوض المرأة عن وظيفة حوض الرجل في قضية المحافظة على وضع الرحم فإن الله قد هيأه بعناية لاحتواء الرحم

---

(١) «القرآن والعلوم»، ص١٢ـ١٤.

المتنامي الذي يبلغ آلاف المرات في نهاية الحمل عن حجمه قبل الحمل، حيث لاتتجاوز سعة الرحم قبل الحمل لأكثر من(٢,٥) ميليلتر عند الأنثى البالغة، أما في نهاية الحمل فيتسع لسبعة آلاف ميليلتر.

لذا كان تجويف الحوض عند الأنثى أوسع وأقصر، وعظام الحوض أرق وأقل خشونة وأبسط تضاريساً، كل ذلك ليكون حصناً ودرعاً للرحم الذي يشتمل على هذه الدرة الثمينة التي تتجلى عظمة الخالق في تكوينها.

ولتسيير طروء التغيرات على هذه العظام عند الولادة فتكوين عظام الحوض يتناسب تماماً مع مايتطلب منها القيام بعمل تنفرد به دون غيرها من عظام الهيكل، وهكذا يحفظ الحوض العظمي الرحم بداخله بحيث لايصله شيء من الكدمات والهزات التي تتعرض لها المرأة، بل لو أصيبت المرأة في حادث أو سقطت من شاهق وتكسرت عظامها فإننا نجد الرحم في أغلب الأحوال سليماً لم يمسسه سوء، ولوأن شخصاً اعتدى على امرأة ومزق أحشاءها بالسكين فإنه لن يستطيع أن يصل إلى الرحم، إلا إذا كانت المرأة حاملاً في الشهر الرابع فمابعده، وأما قبل ذلك فيكاد يكون من المستحيل الوصول إلى الرحم بأي أذىً.

والحوض على متانته له مفاصل أربعة يمكن من خلالها أن يتحرك قليلاً حتى يزداد اتساعه وخاصة عند الحمل والولادة، بينما حوض الرجل لايكاد يتزحزح.

٢ـ العضلات والأربطة: تكاد العضلات تحيط بالرحم من جميع جوانبه لتحفظ توازنه وبقاءه معلقاً في متصف الحوض. فمنها العضلات التي تمسكه من أعلى، ومنها ماتشده إلى أسفل، ومنها ماتجرّه يمنة ويسرة، ومنها التي تشده إلى عظام الحوض، وإلى جهات أخرى من الأحشاء تعرف بالصفاقات الحشوية والصفاقات الجدارية.

وهذه الأربطة جميعاً تتعاون في حفظ الرحم في موضعه الطبيعي، وفي نفس الوقت تسمح له بالحركة الحقيقية والنمو الهائل في فترة الحمل، ولكأنما الرحم جسر معلق تربطه مجموعة محكمة من الأربطة والأعمدة المتينة المحكمة، بل إنه أعظم من ذلك بكثير، إذلايمكن للجسر المعلق أن ينمو أو يغيِّر وضعه وهو متصل بمكانه لايبرحه، كما أن وجود وفرة من الأحشاء الطرية اللينة وامتلاء الحوض بها يهيِّء فراشاً وثيراً للرحم عند امتلائه بالجنين وتعاظمه خلال الأشهر الأخيرة من الحمل.

٣ـ هرمون الحمل(البروجسترون) ويؤثر هذا الهرمون على تقلصات عضلات الرحم فيجعلها متَّئدة وقورة بدلاً من تلك الحركات النزقة الطائشة التي يسبّبها هرمون الأنوثة(الأوستروجين). ولهرمون الحمل تأثير هام في استقرار الرحم في فترة الحمل،

حتى لايقذف الجنين وخاصة في أشهره الأولى.

وهكذا تتضافر هذه العوامل لجعل الرحم القرار المكين وهل هناك وصف أعظم من هذا الوصف، وتحديد أدق للوظيفة من التحديد الرباني لطبيعة تكوين الرحم ومهمته، إنه وصف الخالق لمخلوقه(ألا يعلمُ من خلق وهو اللطيف الخبير؟) المُلك/١٤. إنها العناية الإلهية بهذا المخلوق المعزَّز المكرم، إنه الله سبحانه وتعالى الذي قدّر وأحكم. وإنه الإعجاز القرآني الباهر الذي جاء على لسان النبي الأمي **﴿ألم نخلُقْكُمْ من ماءٍ مَهينٍ فجعلنَاهُ في قَرَارٍ مَكِينٍ إلى قَدَرٍ معلُوم، فقدَرْنَا فنِعْمَ القَادِرُون﴾** المرسلات/ ٢٠-٢٣.

أما الظلمات الثلاث: فإن اكتشافها أحدث، وإن واقعها أعجب، وإن وظائفها أعظم. يقول الطب الحديث عن الظلمات الثلاث مايلي: إنها ثلاثة أغشية تحيط بالجنين داخل الرحم وتسمى:

(أ) غشاء السلي أو(الأمنيون) ويحيط بالجنين مباشرة.

(ب) غشاء الكوريون(الغشاء المشيمي).

(ج) الغشاء الساقط.

(أ) غشاء السلي«الأمنيون»: وهو عبارة عن كيس غشائي رقيق ومُقفل يحيط بالجنين إحاطة تامة وبه سائل يزداد مع نمو الجنين.. والجنين يلعب وسط هذا السائل ويتقلب يمنة ويسرة بل ويتشقلب رأساً على عقب.. ويمسك بالحبل السري وهو في أمان تام، وللسائل الأمنيوني فوائد جمة من أهمها:

أ- تغذية الجنين: حيث يحتوي السائل على مواد زلالية وسكرية وأملاح يمتصها الجنين ممايساعد على تغذيته ونموه.

ب - حماية الجنين ووقايته من الصدمات المفاجئة والحركات الخفيفة والسقطات التي تتعرض لها الأم.

جـ - يحتفظ الجنين بحرارة ثابتة تقريباً فهو مكيَّف جيد بحيث لاتزيد الحرارة ولاتقل إلا في حدود ضئيلة جداً.

د - يمنع السائل الأمنيوني غشاء الأمنيوني من الالتصاق بالجنين، وذلك لأن التصاق الغشاء بالجنين من العوامل الهامة في حدوث التشوهات الخلقية فوجود السائل عامل مهم في تجنب هذه التشوهات الخلقية.

(ب) غشاء الكوريون(الغشاء المشيمي): وهو الغشاء الثاني من الأغشية التي تحيط بالجنين، والزغابات الكثيرة الموجودة. في هذا الغشاء يتقل الغذاء والأوكسجين بواسطتها من الأم إلى الجنين، كما يتتقل غاز أوكسيد الكربون والبولينا من الجنين إلى دم الأم.

وبداية تكوين هذا الغشاء عند تكوّن النطفة الأمشاج بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوي. وتنقسم البويضة الملَّقحة وتصبح مثل الكرة أو مثل ثمرة التوت وتسمى(التوتة). وتتكون من طبقات فالطبقة الداخلية يتكون منها الجنين أما الطبقة الخارجية فيتكون منها هذا الغشاء المشيمي وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ياأيها النّاسُ إنْ كنتُم في رَيْبٍ من البعثِ فإنّا خلقناكُمْ من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ مخلَّقةٍ وغَيرِ مخلَّقةٍ لنبيِّنَ لكم. ونُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاء﴾ الحج/ ٥، فهي المضغة غير المخلَّقة التي تقوم بمهمة مصنع كامل لتهيئة الغذاء المبسط المناسب للجنين، وإبعاد الفضلات التي يطرحها إلى الدورة الدموية للأم، حيث تفرزها بواسطة الكلى عن طريق البول.

(ج) الغشاء الساقط: وهو الغشاء الثالث الذي يحيط بالجنين من جميع جوانبه، وهو مكوَّن من الغشاء المخاطي المبطن للرحم، وسمي الساقط لأنه يسقط ويخرج مع دم النفاس.

فسبحان من خلق فسوّى، وقدّر فهدى وجلّ جلاله وعظمت حكمته.. ﴿أفرأيتم ماتمنون ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ الواقعة/ ٥٨، ٥٩.

النشأة الجنينية: يقول تعالى:

﴿ولقد خلقْنا الإنسانَ من سلالةٍ[1] من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مَكين، ثم خَلَقْنَا النطفةَ علقةً فَخَلَقْنا العلقةَ مُضْغةً، فَخَلَقْنا المضغةَ عظاماً فكسَوْنا العظامَ لحماً ثم أنشأناهُ خلقاً آخرَ، فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين﴾ المؤمنون/ ١٢ـ١٤.

تشير الآيات الكريمة إلى أطوار التكوين السبعة التي يمر فيها الإنسان حتى يصبح بشراً سوياً. ولقد أصبحت هذه الأطوار من أهم دراسات العلوم الطبية الحديثة، وكشفت هذه العلوم أسرار التعبير بهذه الألفاظ المخصوصة في هذه الأطوار«نطفة،

---

(١) في«مفردات» الراغب:... وقوله تعالى﴿من سلالةٍ من طين﴾ أي من الصفو الذي يسل من الأرض.

علقة، مضغة، تكوّن العظام، تكوّن اللحم على العظام».

ولايتسع المجال لذكر ماقالوه هنا، وإنما نشير إلى مقتطفات من أقوالهم تُلقي الضوء على جوانب من أسرار التعبير المعجز.

ولنستمع إلى رأي العلم الحديث في الطب في هذا الصدد فهم أهل الذكر في هذا المجال:

يقول الدكتور محمد علي البار في كتابه القيم«خلق الإنسان بين الطب والقرآن»:

من هذه الآيات[1] الكريمة نستطيع أن نحدد معالم أطوار الجنين الإنساني وهي: (١) نطفة، (٢) علقة، (٣) مضغة مخلّقة وغير مخلّقة، (٤) عظام، (٥) لحم يكسو العظام، (٦) التسوية والتصوير، (خلق آخر) والتعديل، (٧) نفخ الروح.

مرحلة النطفة

والنطفة تطلق على ثلاثة أشياء هي:

١ـ نطفة الذكر وهي الحيوانات المنوية.

٢ـ نطفة الأنثى وهي البويضة.

٣ـ النطفة الأمشاج وهي النطفة المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة أي البويضة الـملَقحة، والنطفة الأمشاج هي بداية مرحلة خلق الإنسان حيث يلقح الحيوان المنوي البويضة. ﴿إنّا خلقنَا الإنسانَ من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليهِ فجعلنَاهُ سميعاً بصيراً﴾ الإنسان/ ٢.

فإذا مالُقّحت البويضة وصارت بويضة ملقحة، ابتدأت انقسامات متعددة. وتُعرف هذه المرحلة بمرحلة الانقسام والانشقاق وتتحوّل البويضة الملقحة(النطفة الأمشاج) إلى مايشبه التوتة.. ويبقى قطر النطفة الأمشاج حتى بعد أن تصبح كرة جرثومية لايزيد عن(١/ ٤)(ربع) مليمتر. وتستغرق هذه المرحلة أسبوعاً كاملاً حتى تعلق هذه النطفة الأمشاج التي تحولت إلى كرة جرثومية لها خلايا آكلة وقاضمة تعلق بواسطتها وبواسطة خملات دقيقة بجدار الرحم، وتتحول حينئذ إلى المرحلة التي تليها وهي:

مرحلة العلقة:

وهي الطور الثاني الذي تنتقل إليه النطفة، ويبدأ العلوق منذ اليوم السابع(منذ التلقيح) عندما تلتصق الكرة الجرثومية بجدار الرحم.. وهناك جملة تعلقات في هذه

---

(١) آيات سورة: السجدة، الانفطار، آل عمران، الحج، المؤمنون.

المرحلة: تعلّق أوّلي بواسطة الخملات الدقيقة، ثم تعلّق ثانٍ بواسطة الخلايا الآكلة، ثم تعلق ثالث بواسطة الخملات المشيمية، ثم تعلق رابع يربط بين الجنين الحقيقي وبين الغشاء المشيمي بواسطة المعلاق، ولاشك أن أهم مايميِّز هذه المرحلة هو هذا التعلق، وإن وصف العلقة العالقة بجدار الرحم والمحاطة بالدم المتجمد(المتخثر) هو أدق وصف لهذه المرحلة.

وتستغرق هذه المرحلة أسبوعين تقريباً ينمو خلالها القرص الجنيني إلى لوح كمثريّ الشكل. وفي نهاية هذه المرحلة تنكشف الطبقة المتوسطة القريبة من محور الجنين لتشكل الكتل البدنية، ويبدأ ظهور أول كتلة بدنية في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين منذ التلقيح، وعندئذ تكون العلقة قد تحوّلت إلى مضغة.

وفي هذه المرحلة نجد أن الكرة الجرثومية التي كانت قبيل العلوق لاتزيد عن(١/ ٢) نصف ميليمتر قد أصبحت بعد العلوق بأسبوع واحد فقط مليمتر ونصف.

وفي نهاية الأسبوع الثالث، منذ التلقيح، يصبح اللوح الجنيني مليمترين ونصف.

مرحلة المضغة«الأسبوع الرابع»(١):

ويبدأ هذا الطور بظهور الكتل البدنية ويكون أول ظهورها في أعلى اللوح الجنيني جهة الرأس ثم يتوالى ظهور هذه الكتل من الرأس إلى مؤخرة الجنين.. ويبدأ ظهورها في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين منذ التلقيح.. ثم تستمر في الظهور واحدة على كل جانب من محور الجنين.. ويكون وصف المضغة أو القطعة من اللحم التي مضغتها الأسنان ولاكتها ثم قذفتها هو أصدق وصف وأدقه لهذه المرحلة.

مرحلة العظام واللحم:

وهي مرحلة تستغرق الأسبوع الخامس والسادس والسابع، وفي الأسبوع السادس تكون هذه الهياكل الغضروفية لعظام الأطراف العلوية والسفلية قد ظهرت بوضوح وإن كان الطرف العلوي يسبق الطرف السفلي ببضعة أيام، وأول علامة على وجود عضلات

---

(١) عندما يكون عمر الجنين أسبوعين«مرحلة العلقة» فإن حجمه لايزيد عن نقطة، وفي بداية المضغة(٢٤) يوماً لايزيد عن حرف، وفي نهايتها يبلغ حجمه حجم حبة القمح، وفي قمة تكوين الأعضاء في الأسبوع السادس والنصف ليبلغ حجمه حجم حبة الفاصولياء، وفي نهاية تلك المرحلة في الأسبوع السابع والنصف لايزيد كثيراً عن حبة الفول، وفي الأسبوع التاسع يكون شكله الإنساني مميزاً، ويستمر النمو بعد ذلك.. «خلق الإنسان بين الطب والقرآن»، ص٤١٨.

الأطراف تظهر في الأسبوع السابع.

ومعنى هذا أن العظام تسبق العضلات.. ثم تكسو العضلات العظام وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿فخلقنا المُضْغَةَ عِظَاماً فكسَوْنا العِظَامَ لحماً﴾.

ثم أنشأناه خلقاً آخر:

هو التصوير والتسوية والتعديل ثم نفخ الروح، لقوله تعالى: ﴿ هو الذي يصوِّركم في الأرحام كيف يشاء﴾ آل عمران/٦.

ويقول عزّ من قائل: ﴿ياأيها الإنسانُ ماغرَّك بربِّك الكريم، الذي خلقك فسوّاك فعَدَلَكَ، في أيِّ صورةٍ ماشاءَ ركّبك﴾ الانفطار/٦ـ٨.

وأما التسوية فهي تتم مع التصوير وقبله وبعده.. فهي تشمل جميع الأعضاء، إن عملية الهدم والبناء والتسوية والتعديل مستمرة في الجنين بشكل مثير.. إذكل يوم بل كل ساعة تشهد جديداً.. هذه أنبوبة القلب المستطيلة تتحول إلى شكل(s) ثم تتكون الغرف المتتالية: الأذين العام، والبطين العام، وبصلة القلب، والجيب الوريدي. ثم يعاد التركيب ليدخل الجيب الوريدي في الأذين الأيمن، وتدخل بصلة القلب في البطين الأيمن والأيسر. ومن بصلة القلب تنشأ جذور الشريان الأورطي والشريان الرئوي.

إن عملية التسوية والتعديل مستمرة في بناء جسم الإنسان منذ أن كان جنيناً إلى أن يصبح شيخاً هرماً.. ولكن هذه التسوية والتعديل أبرز ماتكون في الجنين. ولايمكن أن تتم التسوية والتعديل إلا بعد وضع الأسس.. والأسس لجميع الأعضاء توضع في الفترة مابين الأسبوع الرابع والثامن.. ولهذا تعتبر هذه الفترة هي الفترة الحرجة التي تكون فيها الجينات أشد ماتكون قابلية للتغيير، ولذا فإن تأثير الأدوية والعقاقير أو الأشعة أو الحميات.. يكون في اوج تأثيرها على الجنين في هذه الفترة.

وقد شرحت بعض الأحاديث النبوية جوانب في هذه المراحل، فقد جاء في صحيح مسلم قول الرسول ﷺ: «إذا مرّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله مَلَكاً فصوَّرَها وخلق سمعها وبصرَها وجلدَها ولحمَها وعظامَها، ثم قال: يارب ذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك مايشاء ويكتبه المَلَك»[1].

---

(١) صحيح مسلم/ كتاب القدر ج٧/ ٤٥.

ويقول الطب الحديث: في نهاية الأسبوع السادس تكون النطفة قد بلغت أوج نشاطها في تكوين هذه الأعضاء وهي قمة المرحلة الحرجة الممتدة من الأسبوع الرابع وحتى الأسبوع الثامن.

والمبيض والخصية لايمكن التعرف عليهما إلا في الأسبوع السابع والثامن حيث يمكن التعرف على الغدة التناسلية خصية هي أم مبيض.

وفي رواية أخرى عند مسلم: «إن النطفة إذا استقرت في الرحم أربعين ليلة ثم يتسور عليها المَلَك فيقول: يارب ذكر أم أنثى؟» وفي رواية: «بضع وأربعين ليلة» وفي رواية: «لخمس وأربعين»[1].

وهكذا نرى من مجموع الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أن قمة تكوين الأعضاء وتحديد الذكورة والأنوثة على مستوى الغدد التناسلية إنما يكون في الأربعين.

وفي هذه الفترة يستطيل الحميل من(٥) مليمترات إلى(٢٣) مليمتراً، وتظهر علامات خارجية كثيرة وواضحة، وإن كان بعضها لم يكتمل في هذه الفترة.

ومماتقدم يبدو أن التقسيم القرآني لمراحل نمو الجنين الإنساني أدق من وصف علم الأجنة، ولايركز بعض علماء الأجنة على مرحلة العلقة كمايركز عليها التقسيم القرآني، وكذلك مرحلة التصوير والتسوية والتعديل، أما نفخ الروح فهو لايزال في طي الغيب الذي لايعلمه إلا الله ﴿والراسِخُون في العلمِ يقولُونَ آمَنَّا بهِ، كلٌّ مِنْ عندِ ربِّنا﴾ آل عمران/ ٧[2].

﴿أفرأيتم ماتُمْنُون. أأنتمْ تخلقُونَهُ أم نحنُ الخَالِقُون؟﴾ الواقعة/ ٥٨-٥٩.

﴿هذا خَلْقُ اللهِ فأروني ماذا خَلقَ الذين من دونه بلِ الظالِمُون في ضَلالٍ مبين﴾ لقمان/ ١١، ﴿وفي أنفسِكم أفلاتبصرون﴾ الذاريات/ ٢١.

تفسير آية تسوية البَنَان«البصمات»:

يقول تعالى ﴿لاأُقسمُ بيومِ القيامةِ ولاأُقسمُ بالنفسِ اللّوّامةِ أيحسَبُ الإنسانُ أنْ لنْ نجمَعَ عِظَامَهُ؟ بلىٰ قادرينَ على أنْ نُسَوِّيَ بَنَانَه﴾ القيامة/ ٣-٤.

---

(١) صحيح مسلم كتاب القدر ج٨/ ٤٦.
(٢) من كتاب«خلق الإنسان بين الطب والقرآن» للدكتور محمد علي البار ص٣٦٥-٣٧٩/ باختصار.

لقد أثارت الإشارة في الآيات الكريمة انتباه المفسرين ودهشتهم، حيث أقسم الله سبحانه وتعالى بيوم القيامة وبالنفس الباقية على فطرتها التي تلوم صاحبها على كل معصية أو تقصير في طاعة، أقسم بهما على شيء عظيم يُعتبر الركن الثاني من أركان العقيدة، ألاوهو بعث الإنسان بعد موته وجمع عظامه للحساب والجزاء. فبعد القسم على ذلك بيَّن الله سبحانه وتعالى أن ذلك غير مستحيل، لأن من كان قادراً على تسوية بنان الإنسان يقدر على جمع عظامه وإعادة الحياة إليها.

والشيء المستغرب لأول وهلة في هذا الاستدلال، هو أن القدرة على تسوية البنان، والبنان جزء صغير من تكوين الإنسان، لايدل بالضرورة على القدرة على إحياء العظام وهي رميم، لأن القادر على خلق الجزء لايستلزم بالضرورة القدرة على بناء الجسم كله.

وعلى الرغم من محاولات المفسرين لإلقاء ضوء على البنان وإبراز جوانب الحكمة والإبداع في تكوين رؤوس الأصابع من عظام دقيقة وتركيب الأظافر فيها ووجود الأعصاب الحساسة وغير ذلك، إلا أن الإشارة الدقيقة أدركت فيما بعد في القرن التاسع عشر الميلادي، عندما اكتشف علماء الطب أن الخطوط الدقيقة الصغيرة الموجودة على البشرة في رؤوس الأصابع تختلف من شخص لآخر وأن هذه الخطوط تكون على ثلاثة أنواع«أقواس»، أو عراوٍ، أودومات ـ بمعنى دوائر متحدة المركز» وهناك نوع رابع يختلف عن الأنواع المذكورة ويطلق عليه اسم(المركبات) لأنها مركبة من أشكال متعددة.

وهذه الخطوط تظهر في جلد الجنين وهو في بطن أمه عندما يكون عمره بين ١٠٠ـ١٢٠ يوماً، وتتكامل تماماً عند مولده، ولاتتغير مدى الحياة ومهما عرض له من إصابات وحروق وأمراض، كما أنها لاتتطابق تمام التطابق من شخص إلى آخر بل لابدّ من فوارق تميز أحدهما عن الاخر.

لقد قلب الأطباء هذا الاكتشاف العجيب على وجوهه، وأجريت الدراسات العميقة حولها وعلى أعداد كبيرة من الناس من مختلف الجنسيات والأعمار، ثم وقفوا أمام الحقيقة عارية ليحنوا الرؤوس للقادر على أن يُسَوِّي البنان، وفي سنة١٨٨٤م استعملت البصمات في إنجلترا رسمياً كوسيلة للتعرف على شخصية الشخص المراد، ولاتزال البصمات أمضى سلاح يشهر في وجه الجَريمة إلى يومنا هذا.

وتبرز عظمة الخالق سبحانه وتعالى في تشكيل هذه الخطوط على مسافة ضيقة

لاتتجاوز بضعة سنتمترات مربعة، فلاتشابه بين بنان اثنين من ألوف الملايين من البشر.

ولوأُعطي إنسان مساحة بمقدار قعر الكف مثلاً وطلب منه أن يرسم لوحات كثيرة لاتتشابه في خطوطها وتقسيماتها، إن هذا الإنسان مهما كان واسع العقل، ومهما بلغت حيلته في هذا الشأن يمكن أن يرسم ألفاً أو عدة آلاف من النسخ، تتباين أشكالها وتقسيماتها، ومن ثم تنتهي إمكانياته، وتأتي الأشكال بعد ذلك متماثلة مع بعض ماسبق رسمه. أما خلق الله وإبداعه فلايعجزه شيء في ذلك.

هذا ماتوصل إليه العلماء إلى وقتنا الحاضر، ولانقصر دلالة الآية القرآنية على هذا الجانب حصراً بل قد يأتي اليوم الذي تكشف فيه أسرار ربانية أخرى في تسوية البنان، وتبقى الحقيقة الخالدة ﴿بلى قادرين على أن نُسَوِّيَ بنانه﴾ مَعْلَمَاً بارزاً على مرّ الأجيال والعصور تشير إلى مصدر القرآن الكريم.

﴿قُلْ أنزلَهُ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السّماواتِ والأرضِ﴾ الفرقان/ ٦.

وشيء قريب من سرّ الخالق في البنان، قضية اختلاف ألوان الناس وأصواتهم فلانجد شخصين متطابقين في تقاسيم الوجه والبشرة واللون، وكذلك نبرات الصوت وطريقة الكلام، إنها قدرة الخالق العظيم الذي لاتنتهي بدائع صنعه، ولاتنقضي عجائب مخلوقاته، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً﴿ومن آياتِهِ خَلْقُ السماواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتِكُمْ وألوانِكُمْ إنّ في ذلك لآياتٍ للعَالمين﴾ الروم/ ٢٢.

تفسير آية الضغط الجوي:

الضغط الجوي وتأثيره على الانسان:

يخبرنا القرآن الكريم عن حالة الذين يضيقون ذرعاً بهدايات الإسلام ووعيده وإنذاره، يشبّه حالتهم عند سماعها بحالة من يصعد في السماء وذلك في قوله تعالى:

﴿فمن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يشرحْ صَدْرَه للإسلامِ، ومنْ يُرِدْ أن يُضلَّهُ يجعلْ صدْرَه ضيّقاً حَرَجاً كأنّما يَصَّعَّدُ في السّماءِ، كذلكَ يجعلُ اللهُ الرِّجْسَ علىٰ الذينَ لا يُؤمنون﴾ الأنعام/ ١٢٥.

قال المفسرون: إن الآية الكريمة تشير إلى أن حالة الكفار عند سماع الإسلام كحالة من يزاول أمراً غير ممكن لأن الصعود إلى السماء مثل فيما يمتنع ويبعد عن الاستطاعة، فكأن الكافر في نفوره من الإسلام وثقله عليه بمنزلة من يتكلّف الصعود إلى السماء،

فحاله كحال من يزاول مالا يقدر عليه[1] .

وهذا الفهم محتمل من حيث ظاهر الآية، ولم يكن يتصور قبل صعود الإنسان في الفضاء أكثر من ذلك.

إلا أن آفاقاً جديدة فتحت في دلالة الآية الكريمة عندما صعد الإنسان في الفضاء وعرف تأثير الضغط الجوي على أجهزة الإنسان الداخلية.

يقول العلم الحديث في هذا الصدد: إن الله سبحانه وتعالى جعل الضغط في داخل الجسم متناسباً تماماً مع الضغط الجوي المحيط بالجسم، وقدر قياس هذا الضغط بما يساوي وزن ستة وسبعين سنتمتراً من زئبق.

ففي الأحوال الاعتيادية للإنسان ليس هنالك أي تغلّب من الضغط الداخلي على الخارجي ولا العكس، وبعد اكتشاف الوسائل الحديثة للارتفاع في أجواء السماء فقد لاحظوا مدى التأثير عند الصعود بهذا الضغط وما يرافقه من انقباض وضيق في الصدر وآلام مبرحة في الرأس والأذنين وجميع المناطق الحساسة في الجسم، وكلما ارتفع في الجو تخلخل الضغط الجوي وزاد الضغط الداخلي واشتد هذا الضيق والشعور بالاختناق، وإذا ما استمرّ الانسان في الصعود يأتي الوقت الذي يكون فيه هلاكه المُحَتَّم، لذا يضطر روّاد الفضاء والطيّارون الذين يُحلّقون عالياً في الأجواء إلى استخدام الألبسة المجهَّزة الخاصة بهذه الحالات. والتفسير العلمي لهذه الظواهر هو:

- كلما ارتفع الانسان في الجو، انخَفض الضغط الجوي، وتغلب عليه الضغط الداخلي للإنسان.

- تخلخل الهواء وعدم وجود الأوكسجين الكافي للتنفس.

- برودة الجو وعدم حفظ درجة الحرارة بنسبة معينة.

- يصل الإنسان عند الخروج من الغلاف الجوي إلى انعدام الوزن وهي مرحلة دقيقة خطيرة.

وكل هذه الظواهر تؤدي إلى تغيّر في وظائف أعضاء الإنسان الداخلية فالغازات والأمعاء تتمدَّد وتسبِّب تقلّصات عنيفة، وقد يؤدي تمدّد هذه الغازات إلى انتفاخ يدفع الحجاب الحاجز إلى أعلى، فيضغط على القلب والرئتين مما يسبِّب الإغماء أو

---

(١) انظر في ذلك «غرائب القرآن» للنيسابوري، ٢/ ٢١، و«تفسير البيضاوي»، ص١٧٨.

الاختناق في الحالات الشديدة، ويختل نظام الدورة الدموية فقد تنفجر بعض العروق والأغشية في الجسم كغشاء الطبل في الأذنين والإصابة برُعاف شديد.. إلخ.

هذه هي الحالة التي يشبه بها القرآن الكريم حالة الذين يضيقون ذرعاً بسماع آيات القرآن وهدايات الإسلام، إنها كحالة من يصعد في السماء من شعور بالضيق والاختناق، ﴿.. ومَنْ يُرِدْ أن يُضِلَّهُ يجعلْ صَدْرَه ضيّقاً حَرَجاً كأنّما يَصَّعَّدُ في السّماء﴾.

هكذا تنكشف الحجب عن الآيات المعجزة كلما تقدم العلم وتطور على مرّ العصور.

الجلود وشبكة الإحساس العصبي:

يقول الله في معرض بيان ألوان العذاب التي يلاقيها يوم القيامة الذين كفروا بآيات الله وأغمضوا بصرهم وبصيرتهم عن نور الحق:

﴿إنّ الذينَ كفرُوا بآياتِنَا سوفَ يُصْليهم ناراً كلّما نَضجتْ جلودُهم بدّلنَاهم جُلُوداً غيْرَها ليذُوقُوا العذابَ إنّ اللهَ كان عزيزاً حكيماً﴾ النساء/ ٥٦.

إن قدرة الله سبحانه وتعالى لا يقف أمامها شيء فتبديل الجلود المحترقة بأخرى جديدة أمر غير معجوز عنه، وقد أعاد بعث العظام وهي رميم، إنما الإشارة المعجزة في قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا العذَابَ﴾.

لقد قرر الأطباء أن حدود الشعور بألم الكيّ في الجلد السطحي، فلو احترق الجلد ووصل إلى اللحم لما كان هناك شعور بالألم بدرجة الحالة السابقة لأن الأعصاب التي تشعر بالألم موجودة في الجلد الخارجي.

أما في الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية، فالإحساس فيها ضعيف، لذلك يقول الأطباء: إن الحرق الذي لا يتجاوز الجلد يُحدث ألماً شديداً بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة لأنه مع شدته وخطره لايُحدث ألماً كثيراً، فكأن الآية الكريمة تبين أن النار كلما أنضجت الجلد الذي يحتوي على أعصاب الإحساس بالألم جُدّدتْ هذه الجلودُ بجلودٍ جديدة ليستمر الشعور بالألم بلا انقطاع ويذوقوا العذاب الأليم[١].

---

(١) «الجانب العلمي في القرآن الكريم» للدكتور صلاح الدين خطاب، ص٤٩ بتصرف.

إنه علم الله الذي أحاط بكل شيء، ودليل على أن هذا الكتاب الخالد هو تنزيل الذي خلق الجلود والأنفس وأودع فيها خاصيات الإحساس بالألم، وإلا فمن علّم الأمي هذه الحقائق المذهلة في نفس الإنسان وتكوينه وميزاته التي تميَّز بها عن سائر المخلوقات.

خاتمة هذا البحث:

إن الإشارات التي وردت في ثنايا آي الذكر الحكيم تتحدث عن بديع صنع الخالق سبحانه وتعالى في هذا الكون الفسيح في مختلف مجالاته، وتتحدث عن النفس الإنسانية وأعماقها وعواطفها ومشاعرها.

بلغت هذه اللَّفَتات والإشارات من السعة والشمول مبلغاً لاتستطيع أجيال من العلماء الإحاطة بها مهما أوتوا من وسائل وإمكانات وجهود وطاقات، فهي من الشمول بحيث تمتد في البعد الزمني إلى أصل الكون بمجرّاته وأفلاك نجومه وكواكبه.

ومن الإحاطة بحيث تتعرض للأنظمة المرئية وغير المرئية التي تسير عليها الكائنات الحية والجمادات من رياح، وسحب، وبحار، ونبات، وحيوان، وإنسان، وبلغت هذه الإشارات والتلميحات مبلغاً من الدقة بحيث تعجز أحدث الوسائل والمختبرات العلمية عن متابعة هذه الحقائق، وكما رأينا من الأمثلة المتقدمة يقف العلم التجريبي الحديث فاغراً فاه عند بعض هذه الحقائق الدقيقة.

إنّ سَوق القرآن الكريم هذه الحقائق بهذه السعة والشمول، وبهذه الدقة المتناهية يحمل كل صاحب عقل منصف إلى القول بأن هذا تنزيل العزيز الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً.

إن البشرية كلها عاجزة عن الإحاطة بهذه الحقائق والوصول إلى ماهيتها وأسرارها، فهل يعقل أن يكون هذا القرآن من عند رجل أميّ عاش في بيئة أميّة لم يذكر التاريخ عن أسلافها تقدّماً في فنون علوم الكون أو النفس البشرية؟

﴿وقالَ الذينَ كفرُوا إنْ هذا إلّا إفْكٌ افترَاهُ وأعانَهُ عليهِ قومٌ آخَرُون. فقدْ جاؤُوا ظُلْماً وزُوْراً، وقالوُا أساطيرُ الأوّلين اكْتَتَبَها فهي تُمْلَى عليهِ بُكْرةً وأصِيْلاً. قُلْ أنزلَهُ الذي يعلَمُ السِّرَّ في السّماواتِ والأرضِ إنّه كان غفوراً رحيماً﴾ الفرقان/ ٤ـ٦.

هذا هو وجه الإعجاز العلمي في القرآن العظيم:

آياتٌ بيّنات!! ودلائل واضحات!! وحقائق ثابتات!! وبراهين ساطعات!! وحججٌ دامغات!! ومعالمُ شامخاتٌ!! على صدق القرآن!! وأصالة الإسلام!!..

البحث الخامس:

الآيات الكونية في القرآن العظيم

الله خالق السموات والأرض

٢ البقرة﴿٢٢﴾ الَّذى جَعَل لكم الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَآءَ بِنآءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعلُوا لله أَنْدَاداً وأنتم تعْلَمُوْنَ.

﴿٢٩﴾ هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ استَوى إِلَى السَّمَآءِ فَسَوّىٰهنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ.

﴿١١٧﴾ بَدِيعُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ.

٣ آل عمران ﴿١٩٠﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ الَّليْلِ وَالنَّهارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ

﴿١٩١﴾ الَّذِيْنَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرونَ فِي خَلْقِ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار.

٦ الأنعام ﴿١٠١﴾ بَدِيْعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُوْنُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ

﴿١٢٥﴾ فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ الله الرِّجْسَ عَلَى الَّذينَ لاَيُؤْمِنُونَ.

٧ الأعراف ﴿٥٤﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَىٰ العَرْشِ يُغْشِي الَّليْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ.

١٠ يونس ﴿٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَىٰ العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَامِنْ شَفِيْعٍ إِلاّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرونَ.

١١ هود﴿٧﴾ وَهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِيْنٌ.

١٣ الرعد ﴿٣﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.
﴿٤١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَمُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.
١٥ الحجر ﴿١٩﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ.
١٩ مريم ﴿٤٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ.
٢٠ طه ﴿٥٣﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخرجنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى.
٢١ الأنبياء ﴿١٦﴾ وَمَاخَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ ومَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ.
﴿٣٠﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا. . . .
﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ.
﴿٤٤﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ.
٢٢ الحج ﴿٦٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ.
٢٣ المؤمنون ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَاكُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ.
٢٥ الفرقان ﴿٥٩﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً.
٢٩ العنكبوت ﴿٤٤﴾ خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ.
٣٠ الروم ﴿٢٢﴾ وِمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُم وأَلْوَانِكُم إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمينَ.
﴿٢٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ. . . .
٣١ لقمان ﴿١٠﴾ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ.
٣٢ السجدة ﴿٤﴾ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ. . . . ﴿٥﴾ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ

مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ.

٣٤ سبأ ﴿٢﴾ يَعْلَمُ مَايَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَايَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَايَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ.

٣٥ فاطر ﴿١﴾ الحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلٰئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَايَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٣٦ يس ﴿٣٣﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ.

٣٨ ص ﴿٢٧﴾ وَمَاخَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

٤٠ غافر ﴿٥٧﴾ لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ.

﴿٦٤﴾ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً. . . .

٤١ فصلت ﴿٩﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرونَ بِالَّذى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْكَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٢﴾ فَقَضٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ.

٤٢ الشورى ﴿١١﴾ فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً. . . .

٤٣ الزخرف ﴿١٠﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

٤٦ الأحقاف ﴿٣﴾ مَاخَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ.

٥٠ ق ﴿٦﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٧﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَامَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ.

٥١ الذاريات ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ﴾.

﴿٤٧﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ.

٦ الأنعام ﴿٩٦﴾ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيْمِ

﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

٧ الاعراف ﴿٥٤﴾ .... وَٱلشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ألَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِيْنَ.

١٠ يونس ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً والقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِيْنَ وَالْحِسَابَ مَاخَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلاّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

١٣ الرعد ﴿٢﴾.... وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِاَجَلٍ مُسَمّى يُدَبِّرُ الاَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ.

١٤ ابراهيم ﴿٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ ٱللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

١٥ الحجر ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَآءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِيْنَ.

١٦ النحل ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ ٱللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

١٨ الكهف ﴿٨٦﴾ حَتَّى اِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً....

﴿٩٠﴾ حَتَّى اِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُوْنِهَا سِتْراً.

٢١ الأنبياء ﴿٣٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَار وَٱلشَّمس وَالقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.

٢٥ الفرقان ﴿٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِلَّ وَلَوْشَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمسَ عَلَيْهِ دَلِيْلاً.

﴿٤٦﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً.

﴿٦١﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيْهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيْراً.

٢٩ العنكبوت ﴿٦١﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ.

٣١ لقمان ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارِ فِى ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي اِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير....

٥٢ الطور ﴿٩﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْراً ﴿١٠﴾ وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْراً.
٥٥ الرحمن ﴿٧﴾ وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ.
﴿١٠﴾ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ.
٥٧ الحديد ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَايَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَايَخْرُجُ مِنْهَا وَمَايَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَايَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَاكُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.
٦٥ الطلاق ﴿١٢﴾ اللهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.
٦٧ الملك ﴿٣﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً مَاتَرَى فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَٱرْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ.
٧١ نوح ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً.
﴿١٩﴾ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ بِسَاطاً ﴿٢٠﴾ لِتَسْلُكُوا مِنهَا سُبُلاً فِجَاجاً.
٧٨ النبأ ﴿٦﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً ﴿٧﴾ وَالجِبَالَ أَوْتَاداً.
﴿١٢﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً.
٧٩ النازعات ﴿٢٧﴾ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنٰهَا ﴿٢٨﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوّٰهَا ﴿٢٩﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحٰهَا ﴿٣٠﴾ والأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحٰهَا ﴿٣١﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعٰهَا
﴿٣٢﴾ وَالجِبَالَ أَرْسٰهَا.
٨٥ البروج ﴿١﴾ والسَّمَآءِ ذَاتِ البُرُوجِ.
٨٦ الطارق ﴿١﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ ﴿٢﴾ وَمَآأَدْرٰكَ مَاالطَّارِقُ ﴿٣﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ.
٨٨ الغاشية ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٢٠﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ.
٩١ الشمس ﴿٥﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَابَنٰهَا ﴿٦﴾ والأَرْضِ ومَاطَحٰهَا.

اللهُ خَالِقُ الشمس والقمر والنجوم

٢ البقرة ﴿١٨٩﴾ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ....
﴿٢٥٨﴾.... قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لَايَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ.

٣ فاطر (١٣) يُولِجُ الّيْلَ في النّهارِ ويُولِجُ النّهارَ في اللّيلِ وسَخَّرَ الشّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يجري إلى لِأجَلٍ مُسَمًّى ذٰلِكم اللهُ رَبُّكم لَهُ المُلْكُ.

٣٦ يس ﴿٣٨﴾ وَٱلشَّمسُ تَجري لِمُستَقَرٍ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ العَزيزِ العَلِيْم ﴿٣٩﴾ وَالقَمَرَ قَدَّرنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرجُونِ القَدِيم ﴿٤٠﴾ لَاالشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا اَنْ تُدرِكَ القَمَرَ وَلَاالَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسبَحُوْنَ.

٣٩ الزمر ﴿٥﴾.... وَسَخَّرَ ٱلشَّمسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجرِي لِاجَلٍ مُسَمّى اَلَا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ.

٤١ فصلت ﴿٣٧﴾ وَمِنْ اٰيَاتِهِ ٱلَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ لَاتَسْجِدُوا لِلْشَّمْسِ وَلَالِلْقَمَرِ واسْجُدُوا للهِ ٱلَّذِى خَلقَهُنَّ اِنْ كُنْتُمْ اِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.

٥٣ النجم ﴿١﴾ وَالنَّجْمِ اِذَا هَوَى

٥٤ القمر ﴿١﴾ اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ.

٥٥ الرحمن ﴿٥﴾ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ.

٥٦ الواقعة ﴿٧٥﴾ فَلَااُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم ﴿٧٦﴾ وَاِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْتَعْلَمُونَ عَظِيْمٌ.

٧١ نوح ﴿١٦﴾ وَجَعَلَ القَمَرَ فِيْهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً.

٧٤ المدثر ﴿٣٢﴾ كَلَّا وَالقَمَرِ﴿٣٣﴾ وٱللَّيْلِ إِذْ اَدْبَرَ ﴿٣٤﴾ والصُّبْحِ إِذَا اَسْفَرَ.

٧٥ القيامة ﴿٧﴾ فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ ﴿٨﴾ وَخَسَفَ القَمَرُ ﴿٩﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ.

٧٧ المرسلات ﴿٨﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ.

٨١ التكوير ﴿١﴾ اِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ.

٨٤ الانشقاق ﴿١٦﴾ فَلَااُقْسِمُ بِالْشَّفَقِ ﴿١٧﴾ وٱللَّيْلِ ومَاوَسَقَ ﴿١٨﴾ وَالقَمَرِ اِذَا اتَّسَقَ.

٨٥ البروج ﴿١﴾ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ البُرُوجِ.

٨٦ الطارق ﴿١﴾ وٱلسَّمَآءِ والطَّارِقِ ﴿٢﴾ وَمَااَدْرَاكَ مَاالطَّارِقُ ﴿٣﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ.

٩١ الشمس ﴿١﴾ وَالشَّمْسِ وَضُحٰهَا﴿٢﴾ وَالقَمَرِ اِذَا تَلٰهَا.

اَللهُ خالق الكواكب والشهب

١٥ الحجر ﴿١٦﴾ وَلقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِيْنَ ﴿١٧﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيْمٍ ﴿١٨﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ.

٣٧ الصافات ﴿٦﴾ اِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ ﴿٧﴾ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٨﴾ لَايَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلَإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٩﴾ دُحُوراً وَلَهُمْ

عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿١٠﴾ إِلاّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ.

٤١ فصلت ﴿١٢﴾ .... وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ.

٦٧ الملك ﴿٥﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلْشَيَاطِينِ....

٧٢ الجن ﴿٨﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُبَا ﴿٩﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً.

٨٢ الإنفطار ﴿٢﴾ وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ.

الله خالق الليل والنهار

٢ البقرة ﴿١٦٤﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ.... لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٣ آل عمران ﴿٢٧﴾ تُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلحَيَّ مِنَ ٱلمَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

﴿١٩٠﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ ٱللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُوْلِى الألْبَابِ.

٦ الأنعام ﴿٩٦﴾ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرِ العَزِيزِ العَلِيمِ.

٧ الأعراف ﴿٥٤﴾.... يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ.

١٠ يونس ﴿٦﴾ إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَاخَلَقَ اللهُ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ.

﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.

١٣ الرعد ﴿٣﴾.... يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

١٤ ابراهيم ﴿٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

١٦ النحل ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ ٱللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ والقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

١٧ الاسراء ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارَ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنَ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً

٢١ الأنبياء ﴿٣٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.
٢٢ الحج ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ وَأَنَّ اللهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.
٢٣ المؤمنون ﴿٨٠﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ.
٢٤ النور ﴿٤٤﴾ يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الأَبْصَارِ.
٢٥ الفرقان ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً.
﴿٦٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً.
٢٧ النمل ﴿٨٦﴾ أَلَمْ يرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.
٢٨ القصص ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القِيٰمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُم النَّهَارَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكنونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُون ﴿٧٣﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.
٣٠ الروم ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ في ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.
٣١ لقمان ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَ اللهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.
٣٥ فاطر ﴿١٣﴾ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ في اللَّيلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ....
٣٦ يسٓ ﴿٣٧﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ.
﴿٤٠﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلااللَّيْلَ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.
٣٩ الزمر ﴿٥﴾ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ.
٤٠ غافر ﴿٦١﴾ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكُرُونَ.
٤١ فصلت ﴿٣٧﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ....

٤٥ الجاثية ﴿٥﴾ وَاخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَاأَنْزَلَ اللهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٥٧ الحديد ﴿٦﴾ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

٧٣ المزمل ﴿٢٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ ٱللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ....

٧٨ النبأ ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاساً ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً.

٨١ التكوير ﴿١٧﴾ وَٱللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٨﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ.

٨٤ الانشقاق ﴿١٦﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٧﴾ وَٱللَّيْلِ وَمَاوَسَقَ ﴿١٨﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ.

٨٩ الفجر ﴿٤﴾وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ.

٩١ الشمس ﴿٣﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٤﴾ وَاللَّيل إِذَا يَغْشٰهَا

٩٢ الليل ﴿١﴾ والليل إذا يغشىَ ﴿٢﴾ والنهارِ إذَا تجَلَّى

٩٣ الضحى ﴿٢﴾ وَٱللَّيْلِ إِذَاسَجَىٰ.

اللهُ مصرف ومرسل الريح

٢ البقرة ﴿١٦٤﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ ٱلسَّماءِ مِنْ مَآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٧ الأعراف ﴿٥٧﴾ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

٢٥ الفرقان ﴿٤٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءَ مَاءً طَهُوراً.

٢٧ النمل ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

٣٠ الروم ﴿٤٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ

الفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ.
﴿٤٨﴾ اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.
٣٥ فاطر ﴿٩﴾ وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ.
٤٥ الجاثية ﴿٥﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَاأَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءَ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

تسخيرُ الرّياح لتسييرِ السُّفن

١٠ يونس ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِى البَرِّ وَالبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ.
١٧ الإسراء ﴿٦٦﴾ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِي لَكُمُ الفُلْكَ فِى البَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴿٦٧﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً.
﴿٦٩﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً.
٤٢ الشورى ﴿٣٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلَامِ ﴿٣٣﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٤﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ.

تسخيرُ الرِّياح لتلقيح الأشجار

١٥ الحجر ﴿٢٢﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَاأَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ.

تسخيرُ السّحاب بقدرة الله تعالى

﴿٦٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.
٢٣ المؤمنون ﴿١٨﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ.

٢٥ الفرقان ﴿٤٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَاءً طَهُوراً.

٢٧ النمل ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَآءً . . . .

٢٩ العنكبوت ﴿٦٣﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ. . . .

٣٠ الروم ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا. . . .

٣١ لقمان ﴿١٠﴾ . . . . وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ.

٣٥ فاطر ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا. . . .

٣٩ الزمر ﴿٢١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ. . . .

٤٣ الزخرف ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ.

٥٠ ق ﴿٩﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ.

اللهُ مسخِّرُ البحار والأنهار

٢ البقرة ﴿١٦٤﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِي فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَاأَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٥ المائدة ﴿٩٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ. . . .

١٤ ابراهيم ﴿٣٢﴾ اللهُ ٱلَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ.

١٦ النحل ﴿١٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

١٧ الإسراء ﴿٦٦﴾ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴿٦٧﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً.

﴿٧٠﴾ ولقَدْ كرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى البَرِّ وَالْبَحْرِ وَرزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفضَّلناهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خلَقنَا تَفْضِيلاً.

٢٢ الحج﴿٦٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الأَرْضِ وَالفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيْمٌ.

٢٤ النور ﴿٤٠﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجّي يَغْشَهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخرَجَ يَدَهُ لَمْ يكَدْ يرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورَاً فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ.

٢٥ الفرقان ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخَاً وَحِجْراً محجُوراً.

٢٧ النمل ﴿٦١﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً ءَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرهُمْ لاَيَعْلَمُونَ.
﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

٣٠ الروم ﴿٤١﴾ ظَهَرَ الفَسَادُ فِى البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

٣١ لقمان ﴿٣١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِى فِى البَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

٣٥ فاطر ﴿١٢﴾ وَمَايَسْتَوِى البَحْرَانِ هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرونَ.

٤٢ الشورى ﴿٣٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ ﴿٣٣﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٤﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ.

٤٥ الجاثية ﴿١٢﴾ اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ.

٥٢ الطور ﴿٦﴾ وَالبَحْرِ المَسْجُورِ.

٥٥ الرحمن ﴿١٩﴾ مَرَجَ البَحْرَينِ يَلْتَقِيَانِ ﴿٢٠﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَيَبْغِيَانِ.

﴿٢٤﴾ وَلَهُ الجَوَارِ ٱلْمُنْشَاتُ فِى البَحْرِ كَالأَعْلَامِ.

٨١ التكوير ﴿٦﴾ وَإِذَا البِحَارُ سُجِرَتْ.

٨٢ الانفطار ﴿٣﴾ وَإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ.

اللهُ مُنشيء السّحاب ومسخّره

٢ البقرة ﴿١٦٤﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَاأَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٧ الأعراف ﴿٥٧﴾ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرَاً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

١٣ الرعد ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفَاً وَطَمَعَاً وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ.

٢٤ النور ﴿٤٠﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِيّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ.

﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ.

الله فالق الحب والنوى. مخرج الثمرات والنبات

٢ البقرة ﴿٢٢﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشَاً وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقَاً لَكُمْ فَلَاتَجْعَلُوا للهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

٦ الانعام ﴿٩٥﴾ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ.

﴿٩٩﴾ وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرَاً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ

وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.
﴿١٤١﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَتُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ.

٧ الأعراف ﴿٥٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَيَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ.

١٣ الرعد ﴿٣﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤﴾ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

١٤ ابراهيم ﴿٣٢﴾ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ....

١٥ الحجر ﴿١٩﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَانُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَاأَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ.

١٦ النحل ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. ﴿١٣﴾ وَمَاذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ.
﴿٦٧﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ورزقاً حَسَناً إِنَّ في ذلك لآيَةً لِقَوم يَذَّكَّرُونَ.
﴿٦٧﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ورزقاً حَسَناً إِنَّ في ذلك لآيَةً لقَومٍ يعقلون.

٢٠ طه ﴿٥٣﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٤﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى.

٢٢ الحج ﴿٥﴾ .... وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

﴿٦٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

٢٣ المُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٠﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ.

٢٦ الشعراء ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٨﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَاكَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

٢٧ النمل ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَاكَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ.

٣٠ الروم ﴿١٩﴾ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ.

﴿٢٤﴾ وَ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ.

﴿٤٨﴾ اللهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.

٣١ لقمان ﴿١٠﴾ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ.

٣٢ السجدة ﴿٢٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى الْأَرْضِ الجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ.

٣٥ فاطر ﴿٩﴾ وَاللهُ ٱلَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ.

﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجنا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا....

٣٦ يٰسٓ ﴿٣٣﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٤﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرنَا فِيهَا مِنَ العُيُونِ ﴿٣٥﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَاعَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ

الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَيَعْلَمُونَ.
﴿٨٠﴾ اَلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ.

٣٩ الزمر ﴿٢١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبَابِ.

٤١ فصلت ﴿٣٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.
﴿٤٧﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَاتَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَاتَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَتَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَامِنَّا مِنْ شَهِيدٍ.

٥٠ ق ﴿٧﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٨﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١٠﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١١﴾ رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ.

٥٥ الرحمٰن ﴿١٠﴾ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١١﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴿١٢﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ.

٥٦ الواقعة ﴿٦٣﴾ أَفَرَءَيْتُمْ مَاتَحْرُثُونَ ﴿٦٤﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٥﴾ لَوْنَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ.
﴿٧١﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٢﴾ ءَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ.

٧٨ النبأ ﴿١٤﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً ﴿١٥﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ﴿١٦﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً.

٧٩ النازعات ﴿٣٠﴾ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحٰهَا ﴿٣١﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعٰهَا.

٨٠ عبس ﴿٢٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٥﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً ﴿٢٦﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً ﴿٢٧﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ﴿٢٨﴾ وَعِنَباً وَقَضْباً ﴿٢٩﴾ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ﴿٣٠﴾ وَحَدَائِقَ غُلْباً
﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴿٣٢﴾ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ.

٨٧ الأعلى ﴿٤﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٥﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ.

٩٥ التين ﴿١﴾ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ.

اللهُ خالقُ الطّير أمما

٦ الأنعام ﴿٣٨﴾ وَمَامِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلَاطَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ. . . .

١٦ النحل ﴿٧٩﴾ أَلَمْ يَرَوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوّ السَّمَآءِ مَايُمْسِكُهُنَّ إِلاّ اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

٢٤ النور ﴿٤١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبّحُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ.

٦٧ الملك ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَايُمْسِكُهُنَّ إِلاّ الرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ.

اللهُ خالقُ كلّ حيّ ودابّة من مآء

٢١ الأنبياء ﴿٣٠﴾ . . . . وَجَعَلْنَا مِنَ المَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ.

٢٤ النور ﴿٤٥﴾ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَآءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَايَشَاءُ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الأنعام

٦ الانعام ﴿١٤٢﴾ وَمِنَ الأَنْعَام حُمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَاتَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٣﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعزِ اثْنَيْنِ قل الذَّكَرَين حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَين أَمَّا اشْتَملَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبّؤُنِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمِنَ الإِبل اثْنَيْنِ وَمِنَ البَقَرِ اثنين قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ امَ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا. . . .

١٦ النحل ﴿٥﴾ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٧﴾ وَتَحمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاّ بِشِقّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ.

﴿٦٦﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّافِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ.
﴿٨٠﴾ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينَ.

٢٢ الحج ﴿٢٨﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ.
﴿٣٦﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

٢٣ المؤمنون ﴿٢١﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٢﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ.

٣٦ يس ﴿٧١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٢﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ.

٣٩ الزمر ﴿٦﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ....

٤٠ غافر ﴿٧٩﴾ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ.

٤٢ الشورى ﴿١١﴾ فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ.

٤٣ الزخرف ﴿١٢﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَاوجعلَ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَاتَرْكَبُونَ ﴿١٣﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَاكُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ.

٨٨ الغاشية ﴿١٧﴾ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ.

الخيل والبغال والحمير

٣ آل عمران ﴿١٤﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيٰوةِ الدُّنْيَا

وَالله عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ.

١٦ النحل ﴿٨﴾ وَالخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَالاتَعْلَمُونَ.

٣٨ ص ﴿٣١﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ ﴿٣٢﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِالخَيْرَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٣﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوْقِ وَالأَعْنَاقِ.

١٠٠ العاديات ﴿١﴾ وَالعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴿٢﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ﴿٣﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ﴿٤﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴿٥﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً.

النّحل

١٦ النحل ﴿٦٨﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

اللهُ خالقُ الإنسان

٣ آل عمران ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ.

٦ الأنعام ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ.

﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ.

٧ الأعراف ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ مَامَنَعَكَ أَلاّتَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْنٍ.

١١ هود ﴿٦١﴾ .... هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

١٥ الحجر ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ.
﴿٢٨﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ.

﴿٣٣﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ.

١٦ النحل ﴿٤﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ.

١٧ الاسراء ﴿٦١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً.

١٨ الكهف ﴿٣٧﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً..

٢١ الانبياء ﴿٣٧﴾ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونُ.

٢٢ الحج ﴿٥﴾ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَانَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً....

٢٣ المؤمنون ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاًآخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ.

٢٤ النور ﴿٤٥﴾ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِنْ مَآءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَايَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ.

٢٥ الفرقان ﴿٥٤﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَآءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً.

٣٢ السجدة ﴿٧﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٩﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَاتَشْكُرُونَ.

٣٥ فاطر ﴿١١﴾ وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَاتَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَتَضَعُ إِلاّ بِعِلْمِهِ وَمَايُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاَيُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ.

٣٦ يس ﴿٧٧﴾ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ.

٣٧ الصافات ﴿١١﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ.

٣٨ ص ﴿٧١﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ.

﴿٧٦﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ.

٤٠ غافر ﴿٦٤﴾ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ....

﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

٥٣ النجم ﴿٣٢﴾ .... هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ.

﴿٤٥﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٤٦﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ.

٥٥ الرحمن ﴿١٤﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ.

٥٩ الحشر ﴿٢٤﴾ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ....

٦٤ التغابن ﴿٣﴾ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

٧١ نوح ﴿١٧﴾ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً.

٧٥ القيامة ﴿٣٦﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٧﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٩﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ.

٧٦(الدهر) ﴿٢﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً.

٨٠ عبس ﴿١٧﴾ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَاأَكْفَرَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٩﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ.

٨٢ الانفطار ﴿٧﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٨﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ.

٨٦ الطارق ﴿٥﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٦﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿٧﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ.

٩٥ التين ﴿٤﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ.

٩٦ العلق ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ.

العِلمُ والعُلَماء

٢ البقرة ﴿١٥١﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

٣ آل عمران ﴿٧﴾ .... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللهُ وَالرَاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَايَذَّكَرُ إِلاّ أُولُوا الأَلْبَابِ.

﴿١٨﴾ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَإِلَهَ إِلاّ هُوَ وَالمَلٰئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ.... ﴿١٩﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَااخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاّ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ.

٤ النساء ﴿١١٣﴾ .... وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً.

﴿١٦٢﴾ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَاأُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ....

٦ الأنعام ﴿٩١﴾.... قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدَىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَآبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ.

١٠ يونس ﴿٣٩﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ....

١٤ إبراهيم ﴿١﴾ الَر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ.

١٧ الإسراء ﴿٨٥﴾ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَاأُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً.

٢٢ الحج ﴿٥٤﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ امَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

٢٩ العنكبوت ﴿٤٣﴾ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَايَعْقِلُهَا إِلا العَالِمُونَ.

استحباب الرحلة لطلب العلم

٩ التوبة ﴿١٢٢﴾.... فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ.

١٨ الكهف ﴿٦٦﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدَاً.

رفعةُ درجاتِ العلماء

٦ الانعام ﴿٨٣﴾ .... نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ اِنَّ رَبَّكَ حَكِيْمٌ عَلِيمٌ.

١٢ يوسف ﴿٧٦﴾ .... نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيْمٌ.

٥٨ المجادلة ﴿١١﴾ .... يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ امَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ اُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

وجوبُ الاسترشاد بالعلماء

١٦ النحل ﴿٤٣﴾ وَمَاأَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الَّذِكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَتَعْلَمُونَ.

٢١ الانبياء ﴿٧﴾ وَمَاأَرْسَلْنَا قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي اِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا اَهْلَ الَّذِكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لاَتَعْلَمُونَ.

مشروعية الاستنباط

٤ النساء ﴿٨٣﴾ .... وَلَوْ رَدُّوهُ اِلَى الرَّسُولِ وَاِلَى اُولِى الاَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ....

الوعظ والارشاد

٣ آل عمران ﴿١٠٤﴾ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ اُمَّةٌ يَدْعُونَ اِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ....

١٤ ابراهيم ﴿٥﴾ .... وَذَكِّرْهُمْ بِاَيَّامِ الله اِنَّ فِى ذَلِكَ لاَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

١٦ النحل ﴿٤٤﴾ ..... وَاَنْزَلْنَا اِلَيْكَ الَّذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَانُزِّلَ اِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.

٣٣ الاحزاب ﴿٣٤﴾ وَاذْكُرْنَ مَايُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ اَيَاتِ الله وَالحِكْمَةِ اِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفَاً خَبِيْرَاً.

فراسة المؤمن

١٥ الحجر ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ.

مايُصيبَ من علم علما فكتمه

٢ البقرة ﴿١٥٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَابَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهِ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴿١٦٠﴾ إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُوا وَاَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

الحث على التعلم والتعليم

٣ آل عمران ﴿٧٩﴾ .... وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ.

المناظرة في العلم

٢ البقرة ﴿٢٥٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذي حَاجَّ إِبراهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبراهِيمُ رَبِّيَ الَّذى يُحيي ويُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحيِي وَأُمِيتَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتي بالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهتَ الَّذي كَفَرَ واللهُ لايَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ.

٤٦ الأحقاف ﴿٤﴾ .... اِيتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ آثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

النهي عن المجادلة بغير علم

٢٢ الحج ﴿٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بَغَيْرِ عِلْمٍ....

﴿٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِىَ اللهِ بَغَيْرِ عِلْمٍ وَلَاهُدَىً وَلَاكِتَابٍ مُنِيرٍ.

﴿٣١﴾ لقمان وَمِنَ النَاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَاهُدَىً وَلَاكِتَابٍ مُنِيرٍ.

النهى عن اتباع اشياء غير متأكد من صحتها

١٧ الاسراء ﴿٣٦﴾ وَلَاتَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ اِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً.

١٨ الكهف ﴿٢٢﴾ .... فَلَاتُمَارِ فِيهِمْ إِلاّ مِراءً ظَاهِراً وَلَاتَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً

الذي يُولّىٰ أمراً يجبُ أن يكونَ عارفاً به

٢ البقرة ﴿٢٤٧﴾ .... قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ....

١٢ يوسف ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ.
﴿٥٥﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ.

٢١ الأنبياء ﴿٧٤﴾ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً....
﴿٧٩﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَاه حُكْماً وَعِلْماً....

٢٨ القصص ﴿١٤﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نُجْزِى المُحْسِنِينَ.

تعليم الحيوانات والطيور

٥ المائدة ﴿٤﴾.... قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَاعَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ....

٢٧ النمل ﴿٢٧﴾ .... سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾ اِذْهَبْ بِكِتَابِي هٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ.

المجادلة بالباطل استوجبتْ عقاب الله

٤٠ غافر ﴿٥﴾ .... وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ.

ذَمُّ الجَدل والمِرَاء

٤٣ الزخرف ﴿٥٨﴾ .... مَاضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ.

الحث على تعلم عددَ السنين والحساب

٦ الأنعام ﴿٩٦﴾ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سكناً وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ حُسبَاناً....

٩ التوبة ﴿٣٦﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهراً في كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ....

١٠ يونس ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِنِينَ وَالحِسَابَ. . . .

١٧ الإسراء ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِنِينَ وَالحِسَابَ. . . .

١٨ الكهف ﴿٢٥﴾ وَلَبِثُوا في كَهفِهِمْ ثَلاثَ مائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً.

٥٥ الرحمٰن ﴿٥﴾ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ.

البحث السادس

التعريف بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم

أما تعريف مصطلح (التفسير الموضوعي) بعد أن أصبح عَلَماً على لون من ألوان التفسير فقد تعددت تعاريف الباحثين المعاصرين له. منها:

- هو بيان مايتعلق بموضوع من موضوعات الحياة الفكرية أو الاجتماعية أو الكونية من زاوية قرآنية للخروج بنظـرة قرآنية بصدده.

- وعرفه بعضهم بقوله: هو جمع الآيات المتفرّقة في سور القرآن المتعلّقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية.

- وقيل: هو بيان موضوع مامن خلال آيات القرآن الكريم في سورة واحدة أو سور متعددة.

- وقيل: هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتّحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها، على هيئةمخصوصة، بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع[1].

- وقيل: هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر.

ولعل التعريف الأخير هو الأرجح، لخلوه عن التكرار ولإشارته إلى نوعَيْه الرئيسيين.

والتعاريف السابقة يغلب عليها طابع الشرح والتوضيح لمنهج البحث في التفسير الموضوعي.

أمّا تعريفه بشكل تفصيلي فهو كما يلي:

واقع التفسير الموضوعي:

في هذا اللون من التفسير، يعمد الباحث والناظر في القرآن، إلى الآيات التي تتصل بموضوع واحد، فيجمعها، ويجعلها نصب عينيه، وموجودة بين يديه، ثم يقلّب الطرف

---

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي: ٢٠؛ ودراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر عواض: ٧.

فى أنحائها، ويجيل الفكر في جوانبها، ويكوّن منها الموضوع الذي تتصل به، ثم يعمد إلى جوانب ذلك الموضوع، ويجعله في إطار متناسب، وهيكل متناسق، ملوّناً لنواحيه، مبرزاً لمراميه. حتى يكون هيكلاً تاماً، متكاملَ الأجزاء، تامَّ البنيان، قائمَ الأركان. . فإن أعوزه كمال ذلك الموضوع إلى حديث، جاءت به السنة حتى يكمل له هيكله، ويتم له صرحه، جاء به.

وعلى ذلك ينجلى للقارىء ـ بوضع الآية بجوار الآية ـ الهدف الذى يقصد القرآن إليه، والمعنى الذى يعول عليه، وبهذا يستكشف القارىء للقرآن هدايته، ويبرز للناس من مواضع القرآن، ماجاء به لأداء مهمته ورسالته[1].

هذا اللون من التفسير الموضوعي، وإن نحا نحوه علماء العلوم المختلفة، كعلم الكلام، عند الاستدلال على صفات الله ـ تعالى ـ بالدليل النقلى، من مثل قوله تعالى: ﴿فعَّال لِماَ يُرِيد﴾ [البروج: ١٦] وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ﴾ [السجدة: ٦] وقوله عز شأنه: ﴿خَالِقُ كلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وكذلك فى علم الأخلاق، والتصوف، والفقه. . فإن تلك العلوم بوبّت فيها أبوابها، واستشهد بها، ودعمت بما يلائم تلك الأبواب من أدلة قرآنية، وآيات تنزيلية.

نقول: إن ذلك اللون من التفسير وجد مايدانيه في علوم أخرى، إلا أنه على النحو التفسيري لم يتم بنيانه، ولم تقم أركانه، ولم ينحُ نحوه أحد من العلماء السابقين، بل لم يتعرض له من اللاحقين إلا القليل.

وهذا اللون من التفسير، يتطلب جمع الآيات المتصلة بالموضوع، وإمعان النظر فيها، بوصفها وحدة واحدة، وتحريك النظر في اتجاهاتها، لاستكشاف مايكون فيها من معان ثانية، وبذلك نقتطف من كل غصن من أغصان ذلك البحث مايناسبه، حتى تكون فروع ذلك الموضوع الواحد مستوفاة مستكملة، ويكون لكل فرع من الآيات مايناسبه ثم ينتقل إلى موضوع آخر، وهكذا. . حتى تتحقق الأهداف التي توخاها القرآن، وتبرز وحدة الموضوع، التي قصد إليها هذا التفسير الموضوعي، كموضوعات الرسالة، والتوحيد، والبعث والنشور، والجنة والنار، وموضوع الخمر، والزواج والطلاق، والمعاملات المالية، والجهاد، وحقوق الأفراد إلى غير ذلك. . وقد سمي بالتفسير الموضوعي نسبة إلى وحدة الموضوع الذي يعالجه.

---

(١) الدكتور أحمد السيد الكومى: التفسير الموضوعي طبع، دار الهدى بمصر سنة ١٩٨٠ ص١٣

ويتصل بهذا اللون من التفسير، لون آخر ـ يمكن أن نطلق عليه التفسير المقارن أو الموازن.

وفي هذا اللون من التفسير، القائم على الموازنة، يعمد المفسر إلى جملة من الآيات القرآنية في مكان واحد، ويستطلع آراء المفسرين، متتبعا ماكتب في تفسير تلك الجملة من الآيات، سواء كانوا من السلف، أم كانوا من الخلف، وسواء أكان تفسيرهم من التفسير النقلي، أم كان من التفسير العقلي، ويوازن بين الاتجاهات المتباينة، والمشارب المتنوعة، فيما سلكه كل منهم في تفسيره، وماانتهجه في مسلكه، فيرى من كان منهم متأثراً بالخلاف المذهبي، ومن كان منهم معبراً عن آراء فرقة معينة، أو مذهب من المذاهب.

وقد يكون هذا اللون من التفسير المقارن ذا مجال أوسع، ونشاط أفسح، فيتجه فيه الباحث المفسر إلى مقارنة النصوص القرآنية المشتركة في موضوع واحد، وماجاء في السّنّة كذلك من الأحاديث، ثم يوازن بين النصوص القرآنية بعضها مع بعض، كما يوازن بين ماجاء في القرآن الكريم، وبين ماجاءت به السّنّة، وذلك مما يكون ظاهره الاختلاف.

من مثل قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْئُولُون﴾ [الصافات: ٢٤] ـ أي احبسوهم، احبسوا أيها الملائكة هؤلاء المشركين، إنهم مسؤولون عما كانوا يعبدون من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَايُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِه إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] ـ أي لايسأل الملائكة المجرمين عن ذنوبهم، لأن الله قد حفظها عليهم، ولايسأل بعضهم عن ذنوب بعض.

ومثل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُون. . ﴾ الآية. . [التوبة: ١١١]

وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُوْرِثْتُمُوهَا بِماَ كُنْتُم تَعْمَلُون﴾ [الزخرف: ٧٢] ـ أي أورثكموها الله ـ عز وجل ـ عن أهل النار الذين أدخلهم جهنم.

وقوله ـ ﷺ ـ في الحديث الصحيح: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله».

وذلك مـاعني به العلماء تحت عنوان آخر، وهو «موهم الاختلاف والتناقض في علوم القرآن» ومختلف الحديث في علوم الحديث.

وقد تكون المقارنة بين النصوص القرآنية ذات القصة الواحدة، أو الموضوع الواحد. لتظهر المفارقات بين مختلف التعبيرات عن المعنى الواحد، بعبارات تختلف إيجازاً وإطناباً، وأكثر مايكون ذلك في القصص القرآني، فتكون مهمة المفسر في ذلك،

البحث عن الأسباب، والكشف عن الأسرار والحكم التي من أجلها كانت المخالفة بين التعبيرين، والمغايرة بين الأسلوبين، إيجازاً تارة، وإطناباً تارة أخرى، وتعبيراً بلفظ مرة، ووضع لفظ آخر بدله مرة أخرى، وذلك وإن بحث في مشتبه القرآن إلا أنه نوع آخر من المقارنة والموازنة[1] .

---

(١) التفسير الموضوعي للقرآن ص١٦ .

البحث السابع:

نشأة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم[1]

لم يظهر هذا المصطلح (التفسير الموضوعي) إلا في القرن الرابع عشر الهجري، عندما قُرِّرت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر. إلا أن لَبِنات هذا اللون من التفسير وعناصره الأولى كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة رسول الله ﷺ.

فإن تتبع الآيات التي تناولت قضية ما والجمع بين دلالاتها وتفسير بعضها لبعض، مما أطلق عليه العلماء فيما بعد بتفسير القرآن بالقرآن، كان معروفاً في الصدر الأول، وقد لجأ رسول الله ﷺ إليه عندما سُئل عن تفسير بعض الآيات الكريمة:

- روى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانَهم بظلمٍ..﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على الناس، فقالوا: يارسول الله وأيُّنا لايظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تَعْنون، ألم تسمعوا ماقال العبد الصالح: ﴿إنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، إنما هو الشرك»[2].

- روى البخاري[3] أن رسول الله ﷺ فسّر مفاتح الغيب في قوله تعالى: ﴿وعندَهُ مَفَاتِحُ الغيبِ لايعلمُها إلاّ هو﴾ [الأنعام: ٥٩] فقال: «مفاتح الغيب خمس: ﴿إنّ اللهَ عندَهُ علمُ السّاعةِ، وينزِّلُ الغيثَ ويعلمُ مافي الأرحامِ وماتدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وماتدْرِي نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إنّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]».

- ومن هذا القبيل ماكان يلجأ إليه الصحابة رضوان الله عليهم من الجمع بين الآيات القرآنية التي يظن بها بعضهم التعارض، كما روى البخاري قال: وقال المنهال عن

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي: للدكتور مصطفى مسلم/ ٢٣-٣١/ ط دار القلم - دمشق. بتصرف يسير.
(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير: ٦/ ٢٠، صحيح مسلم، كتاب الإيمان: ١/ ٨٠.
(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير: ٥/ ١٩٣.

سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ﴿فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولايتساءَلُون﴾ ﴿وأقبلَ بعضُهم على بعض يتساءلون﴾، ﴿ولايكتمُونَ اللهَ حديثاً﴾، ﴿واللهِ ربِّنا ماكُنَّا مُشرِكين﴾ فقد كتموا في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بناها ـ إلى قوله: والأرضَ بعدَ ذلكَ دَحَاها﴾ فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قلْ أئنكم لتكفرون بالذي خلقَ الأرضَ في يومينِ إلى قوله: طائعين﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء... وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسوّاهن في يومين آخرين ثم دحى الأرض ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام ومابينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى ﴿دحَاهَا﴾...)[1].

وقد وضع العلماء بعد ذلك قاعدة في أصول التفسير بضرورة العودة إلى القرآن الكريم نفسه لمعرفة تفسير آيةٍ ما، فما أُجمل في مكان فُصِّل في مكان آخر، وماأُطلق في سورة مقيَّد في سورة اخرى... يقول ابن تيمية: (... إن أصح الطرق في ذلك ـ أي في تفسير القرآن ـ أنْ يفسَّر القرآن بالقرآن، فماأُجمل في مكان فإنه قد فُسّر في موضع آخر، وماأختُصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر)[2].

ومن أبرز تلك الأمثلة قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وعلى الذينَ هادُوا حرَّمْنَا مَاقَصَصْنَا عليكَ مِنْ قَبْلُ﴾ [١١٨]، فقد أفادت الآية الكريمة أن ماحُرِّم على اليهود قد قصّه الله سبحانه وتعالى على نبيّه، وبالرجوع إلى الآية التي ورد فيها ذكر المحرمات عليهم، نجد أن آية الأنعام قد فَصَّلتْ هذا الإجمال وأزالت ذاك الإبهام في قوله تعالى: ﴿وعلى الذينَ هادُوا حَرَّمْنَا كلَّ ذِي ظُفُر ومنَ البقرِ والغنمِ حرَّمْنَا عليهم شُحُومَهُمَا إلاّ ماحملتْ ظهورُهُمَا أو الحَوايَا أو مااختلطَ بعظمٍ ذلكَ جزيناهُمْ ببغيهم وإنّا لَصَادِقُون﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وكذلك مايتعلق بالمحرمات من بهيمة الأنعام على هذه الأمة نجد في ذلك عدة آيات:

كقوله تعالى: ﴿... أُحِلَّتْ لكم بهيمةُ الأنعامِ إلاّ مايُتلى عليكم﴾ [المائدة: ١].

وقد جاء تفصيل هذه المحرمات في عدة آيات كقوله تعالى:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير: ٦/٣٦.

(٢) مقدمة في اصول التفسير لابن تيمية بتحقيق عدنان زرزور: ٩٣.

﴿قلْ لاأجِدُ فيما أُوحيَ إليَّ محرَّماً على طَاعِمٍ يطعَمُهُ إلّا أنْ يكونَ ميتةً أو دَماً مَسْفُوحاً أو لحمَ خِنْزير فإنّه رِجْسٌ أو فسقاً أُهِلّ لغيرِ اللهِ به﴾ [الأنعام: ١٤٥].

﴿ياأيّها الذينَ آمنُوا كُلُوا من طيّباتِ مارزَقْنَاكم واشْكُرُوا للهِ إنْ كنتُمْ إيّاهُ تعبدُونَ، إنّما حرَّمَ عليكم المَيْتةَ والدَّمَ ولحمَ الخِنْزيرِ وماأُهِلَّ لغيرِ اللهِ﴾ [البقرة: ١٧٢، ١٧٣].

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمتْ عليكُمُ الميتَةُ والدَّمُ ولحمُ الخِنْزيرِ وماأُهِلَّ بهِ لغيرِ اللهِ بهِ والمنخنقةُ والموقوذَةُ والمتردّيَةُ والنطيحَةُ وماأكلَ السَّبُعُ إلّا ماذَكَّيتم وماذُبِحَ على النُّصُبِ وأن تستقسِمُوا بالأزلَامِ ذلكُمْ فِسْقٌ. . .﴾ [المائدة: ٣].

وقد جمع الفقهاء هذه الآيات ذات الصلة بموضوع واحد في كتبهم الفقهية فجمعوا مايتعلق بالوضوء والتيمم تحت كتاب الطهارة واستنبطوا منها الأحكام الخاصة بها، كما جمعوا ماورد في الصلاة وقيامها وركوعها والقراءة فيها تحت كتاب الصلاة، ومايتعلق بالصدقات وجوباً ومصارف وأنواع المال التي تخرج الصدقة منها تحت كتاب الزكاة، وهكذا في سائر أبواب الفقه من العبادات والمعاملات والفرائض والسير.

وكل ذلك لون من ألوان التفسير الموضوعي في خطواته الأولى.

وقد أخذت هذه الدراسات الموضوعية اتجاهاً آخر في نفس الوقت وهو الاتجاه اللغوي وذلك بتتبع اللفظة القرآنية ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة. فقد ألّف مقاتل بن سليمان البَلْخي المتوفى سنة ١٥٠هـ كتاباً سماه (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم)، وذكر فيه الكلمات التي اتحدت في اللفظ واختلفت دلالاتها حسب السياق في الآيات الكريمة.

وألّف يحيى بن سلام المتوفى سنة ٢٠٠هـ كتابه (التصاريف)[١]، تفسير القرآن مماشتبهت أسماؤه وتصرّفت معانيه على طريقة الأشباه والنظائر.

ألف الراغب الأصفهاني المتوفي سنة ٥٠٢ هـ كتابه (المفردات في غريب القرآن) حيث تتبع مادة الكلمة القرآنية وبين دلالاتها في مختلف الآيات .

ثم ألّف ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابه (نزهة العين النواضر في علم الوجوه والنظائر).

وعلى هذه الشاكلة كتاب الدامغاني المتوفى سنة ٤٧٨هـ بعنوان (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم).

وكتاب الفيروزآبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ بعنوان (بصائر ذوي التمييز في لطائف

---

(١) حققتِ الكتابَ هند شلبي ، وطبعته الشركة التونسية للتوزيع.

الكتاب العزيز).

وكتاب ابن العماد المتوفى سنة ٨٨٧هـ بعنوان (كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر).

وكان الغالب على هذه المؤلّفات الجانب اللغوي للكلمات الغريبة التي تتعدد دلالاتها حسب الاستعمال.

وإلى جانب هذا اللون من التفسير فقد برزت دراسات تفسيرية لم تقتصر على الجوانب اللغوية بل جمعت بين الآيات التي يربطها رابط واحد أويمكن أن تدخل تحت عنوان معيّن:

فقد ألّف الإمام أبو عبيد القاسم بن سلّام، المتوفى سنة ٢٢٤هـ كتابه في الناسخ والمنسوخ.

وألّف الإمام علي بن المديني (شيخ البخاري) والمتوفى سنة ٢٣٤هـ كتابه في أسباب النزول.

وألّف الإمام ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ كتابه (تأويل مشكل القرآن).

وألّف أبو بكر الجصاص الحنفي المتوفى سنة ٣٧٠هـ كتابه (أحكام القرآن).

وألّف ابن العربي المالكي المتوفى سنة ٥٤٣هـ كتابه (أحكام القرآن) أيضاً.

وألّف إلْكِيَا الهراسي الشافعي المتوفى سنة ٥٠٤هـ كتابه (أحكام القرآن) أيضاً.

وظهرت مؤلفات أخرى جمع أصحابها مايشمله عنوان الكتاب:

مثل (أمثال القرآن) للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ.

وكتاب (مجاز القرآن) للعز بن عبد السلام المتوفى سنة٦٦٠هـ.

وكتاب (أقسام القرآن) و (أمثال القرآن) لابن القيم المتوفى سنة ٧٥١هـ.

ولازال هذا الخط من التأليف في التفسير الموضوعي مستمراً إلى يومنا هذا، وقد توجهت أنظار الباحثين إلى هدايات القرآن الكريم حول معطيات الحضارات المعاصرة وظهور المذاهب والاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية، والعلوم الكونية والطبيعية.

فنجد مؤلفات كثيرة تحت عناوين شتى مثل:

* الإنسان في القرآن.
* المرأة في القرآن.

* الأخلاق في القرآن.
* اليهود في القرآن.
* سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن.
* الصبر في القرآن.
* الرحمة في القرآن.

ومثل هذه الموضوعات لاتكاد تتناهى، فكلّما جدّ جديد في العلوم المعاصرة، التفت علماء المسلمين إلى القرآن الكريم ليسترشدوا بهداياته وينظروا في توجيهات الآيات الكريمة في مثل هذه المجالات الجديدة.

أهمية التفسير الموضوعي:

أولاً: إن تجدد حاجات المجتمعات وبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة لايمكن تغطيتها ورؤية الحلول الصحيحة لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

وذلك أن الباحث المسلم عندما يجابه مشكلة في الحياة، أو تقدّم له نظرية مستحدثة في علم النفس، أو علم الاجتماع، أو في علوم الحضارة الإنسانية، أو العلوم الفلكية، او العلوم الطبيعية أو نظرية في الاقتصاد... فإنه لايستطيع أن يجد لكل هذه النظريات المستجدة نصوصاً من آيات الذكر الحكيم تناقش مثل هذه القضية المطروحة وتبين حكم الله تعالى فيها، بل يلجأ الباحث عندئذ إلى معرفة الهدايات القرآنية وإرشادات السنة النبوية في هذا الاتجاه ويجمع الأفكار الرئيسية في هذا المجال، بحيث تتكوّن لديه ملكة لإدراك مقاصد القرآن الكريم في هذا الصدد، وبمنظار القرآن الكريم ينظر إلى حلّ هذه المشكلة أو يقوّم هذه النظرية.

إن نصوص القرآن الكريم محددة والقضايا التي تتناولها بالتوضيح والبيان والتفصيل محددة أيضاً. أما المشاكل الإنسانية وآفاق المعرفة فغير محددة مادامت الحياة مستمرة على هذه الكرة الأرضية، ولايمكن أن نجابه هذه المشكلات بظواهر النصوص المحددة. بل نجد المرونة والسعة في الخطوط الأساسية التي تعرض لها آيات التنزيل الحكيم.

ومن خلال علل النصوص وهداياتها العامة ودلالاتها وظلالها نستطيع أن نصل إلى

أنوار كاشفة ترسم لنا الطريق وتحدد لنا المعالم لتقويم كل مستحدث جديد.

لذا لايمكن أن نجابه مشاكل العصر ومعطيات الحضارة إلا بأسلوب الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم أو بأسلوب (التفسير الموضوعي).

إن جمع أطراف موضوع مامن خلال نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة والإحاطة بدلالاتها يمكّن الباحث من القيام بدور اجتهادي للتوصّل إلى أفكار وقواعد عامة جديدة، وعلى ضوء هذه القواعد والهدايات المستمدّة من مقاصد النصوص الشريفة يستطيع الباحث أن يدرك معالجة الإسلام لهذه المعضلات والمشكلات.

ثانياً: إن تخصيص موضوع بالبحث والدراسة وجمع أطرافه والاطلاع على أسباب النزول للآيات المتعلقة به، وتحديد المرحلة التي نزلت الآيات الكريمة تعالج بعض جوانبه، وتوجيه ماظاهره التعارض، كل ذلك يهيّىء للموضوع جوّاً علمياً لدراسة هذا الموضوع بعمق وشمولية تُثري المعلومات حوله وتبلور قضاياه وتبرز معالمه.

ومثل هذا العمق ومثل هذا التوسع لإبراز معالم الموضوع لايتيسر للباحث في أي نوع من أنواع التفاسير سواء التحليلي، أو الإجمالي، أو المقارن، بل التفسير الموضوعي هو الأسلوب الأمثل في بحث مثل هذه الأمور.

ثالثاً: عن طريق التفسير الموضوعي يستطيع الباحث أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لاتنقضي عجائبه.

فكلما جدّت على الساحة معطيات جديدة لتطور الفكر البشري، يعايشها المفسّر ويحيط بدقائقها وحقائقها ثم يلجأ إلى القرآن الكريم وإلى السنّة النبوية الشريفة ليستنطق النصوص الشريفة ويميط اللثام عن وجوه جديدة من الهدايات القرآنية.

ويجد أهل الاختصاص في كل فن أن المعجزة الخالدة الباقية تقيم الحجة على الأجيال وأن في القرآن من الكفاية والغناء عن كل شيء: ﴿وقالوا لولاَ أُنزل عليه آياتٌ من ربّهِ قلْ إنّما الآياتُ عندَ اللهِ وإنّما أنَا نذيرٌ مبين، أولَمْ يكفِهم أنّا أنزلنا عليكَ الكتابَ يُتلى عليهم إنّ في ذلكَ لرحمةً وذكرَى لقومٍ يُؤمنون﴾[العنكبوت: ٥٠، ٥١].

رابعاً: تأهيل الدراسات القرآنية وتصحيح مسارها: لقد نالت بعض العلوم القرآنية حظاً وافراً من جهود العلماء وصُنِّفت فيها المصنفات الكثيرة مثل العلوم المتعلِّقة بالجوانب اللغوية، والدراسات الفقهيّة لآيات الأحكام، إلاّ أن علوماً جديدة برزت

تحتاج إلى تأهيل قواعدها على ضوء القرآن الكريم مثل (الإعجاز العلمي)، فقد برز هذا العلم وكثرت الكتابات فيه إلا أنه يحتاج إلى ضبطه بقواعد علمية مستمدّة من هدايات القرآن الكريم لتجنّب الإفراط والتفريط في إدخال الآيات مجال البحث والمتعلقة بالعلوم التجريبية من علوم الفلك والطبيعة والإنسان.

وكذلك علم (أصول التربية القرآنية) فبعد بروز المدارس الاجتماعية ومدارس علم النفس في الغرب، وغزوها للأمم والشعوب، ومحاولة إقامة صرح التعليم والتربية حسب مناهجها، رأى المفكرون المسلمون أن من الضرورة بمكان استخلاص مبادىء هذا العلم من هدايات القرآن الكريم ولازالت الكتابات في هذا الجانب قليلة جداً، إذ تحتاج مثل هذه العلوم إلى علماء راسخين في علوم الشريعة، إلى جانب استيعابهم لثقافة العصر ومناهج المدارس الحديثة في الغرب والشرق، إلى جانب مَلَكة قوية في الإبداع والاستنباط، ليقوم هذا العلم على أسس راسخة.

ومثل هذا (أصول علم الاقتصاد الإسلامي) و (أصول الإعلام الإسلامي).

إن كثيراً من العلوم تلعب دوراً هاماً في حياتنا المعاصرة، ولازالت معالم هذه العلوم غير واضحة الصلة بهدايات القرآن، ولايمكن أن نجد نصوصاً محدّدة من القرآن الكريم أو السنّة النبوية تناولتها، وإنما نستشفّ أصولها من خلال روح النصوص الكريمة وهدايات القرآن الكريم والسوابق القضائية والفقهية لسلف هذه الأمة. ولاوسيلة لوضع أسس هذه العلوم وبيان ضوابطها إلا من خلال التعامل مع الآيات الكريمة وفق منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

البحث الثّامن:

التفسير الموضوعي بين الماضي والحاضر

نزل القرآن الكريم على قلب النبي الأميّ - ﷺ - ولم يكد يقرع آذان القوم حتى وصل إلى قلوبهم، وتملك عليهم حسّهم ومشاعرهم - ولم يعرض عنه إلا نفر قليل، إذ كانت على القلوب منهم أقفالها، ثم لم يلبث أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، ورفع الإسلام رايته خفاقة فوق ربوع مكة، وأقام المسلمون صرح الحق، مشيّدا على أنقاض الباطل.

سعد المسلمون بهذا الكتاب الكريم، الذي جعل الله فيه الهدى والنور، ومنه طب الإنسانية، وشفاء مافي الصدور، وأيقنوا بصدق الله، حيث يصف القرآن، فيقول:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]

وبصدق رسول الله، حيث يصف القرآن، فيقول:

«فيه نبأ من كان قبلكم، وخبر مابعدكم، وحُكم مابينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لاتزيغ به الأهواء، ولاتلتبس به الألسنة، ولاتشبع منه العلماء، ولايخلق على كثرة الرد، ولاتنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: «إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد» من قال به صَدَق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدىٰ إلى صراط مستقيم[1]».

صدّقَ المسلمون هذا، وأيقنوا أن لاشرف إلا والقرآن سبيل إليه، ولاخير إلاّ وفي آياته دليل عليه، فراحوا يبحثون عن معانيه، ليقفوا على مافيه من مواعظ وعبر، وأخذوا يتدبرون في آياته، ليأخذوا من مضامينها، مافيه سعادة الدنيا، وخير الآخرة.

وكان القوم عربا خُلّصاً، يفهمون القرآن، ويدركون معانيه، ومضامينه ومراميه، بمقتضى سليقتهم العربية، وبما يتمتعون به من صفاء الذهن، وقوة العارضة، وكانوا يعرفون من أسراره مالايعرفه أحد، ولكنهم لم يدوّنوها، لأن القرآن قد ملأ عليهم

---

(١) أخرجه الترمذي ج٢/١٤٩

حياتهم، فكانوا دائبين على دراسته وفقهه، ونشره بين المسلمين.

وكانت للقوم وقفات أمام بعض النصوص القرآنية، التي دقت مراميها، وخفيت معانيها، ولكن لم تطل بهم هذه الوقفات، إذ كانوا يرجعون في مثل ذلك، إلى رسول الله - ﷺ. فيكتشف لهم مادقّ عن أفهامهم، ويجلي لهم ماخفي عن إدراكهم، وهو الذي عليه البيان، كما عليه البلاغ، تحقيقا لقول الحق سبحانه:

﴿وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَانُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُم يَتفكَّرون﴾ [النحل: ٤٤]

كان النبي - ﷺ - يفسر القرآن، فيربط بين الآيات والآيات، وبين الآيات ومناسبات النزول، ويوازن بين المعاني..

تذكر لنا المصادر القديمة، أن بذوراً من التفسير الموضوعى، نبتت على عهد رسول الله - ﷺ - وعهد صحابته. رضوان الله عنهم أجمعين.

من ذلك ماجاء في مناسبة نزول الآية الكريمة:

﴿واللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ، وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]

يقول تعالى، مبيناً لعِدّة الآيسة، وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها، أنها ثلاثة أشهر، عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية البقرة، وكذا الصغار اللائى لم يبلغن سن المحيض، أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر.

فقد أُشكل على بعض الصحابة هذا الشرط، وجاء سبب النزول معينا لهم على فهم المراد منه.

فقد أخرج الحاكم، عن أبيّ بن كعب، أنه لما نزلت التي في سورة البقرة في عدد النساء وهي:

﴿والمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ماَ خَلَقَ اللهُ في أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]

والآية الأخرى ﴿والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُون أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَربَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ [البقرة: ٢٣٤]

قالوا: قد بقيت عِدد لم تذكر، وهي عدد الصغار، والكبار، فنزل قول الله:

﴿واللَّائي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُم فَعِدَّتُهن ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ.. الآية﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ارْتَبْتُم﴾ فيه قولان:

أحدهما: وهو قول مجاهد والزهري. أي إن رأينَ دماً وشككتم في كونه حَيْضاً أو استحاضة، وارتبتم فيه.

والثاني: وهو قول سعيد بن جبير ـ إن ارتبتم في حكم عدتهن، ولم تعرفوه، فهو ثلاثة أشهر، وهو أظهر في المعنى. وقد احتج عليه بقول أُبيّ بن كعب: يارسول الله: إن عِدَداً من عِدَد النساء لم تذكر في الكتاب، الصغار والكبار وأولات الأحمال، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَاللَّائي يَئِسْنَ مِنَ المَحيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ ـ إِنِ ارْتَبْتُم ـ فعِدَّتُهُن ثلاثةُ أشْهُر..﴾ [الآية]

ويضع علي بن أبي طالب، بفكره الثاقب، ونظره الصائب ـ لبنة أخرى من لبنات التفسير الموضوعي. فقد كان عليّ يجمع الآيات في الموضوع الواحد، ليستخلص منها جميعاً، حكماً صادقاً، يفسر فيه القرآن بعضه بعضاً. من ذلك قصة مراجعته لعمر بن الخطاب في إقامة حدِّ الزِّنا على امرأة وضعت بعد زواجها بستة أشهر.

يقول ابن حزم: إن علياً ذَكَّر عمر بن الخطاب بقوله تعالى:

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ [الأحقاف: ١٥]

مع قوله تعالى: ﴿والْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أوْلاَدَهُنّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

فرجع عمر عن إقامة الحد عليها(١)

أي أن عمر بن الخطاب، حَكَّمَ العادة الجارية، من أنه لاتلد المرأة لأقل من سبعة أشهر، فاعتبر ولادتها قبل ذلك قرينة لإقامة الحد عليها.

لكن علياً ـ كرم الله وجهه ـ استدرك عليه، وتدارك الأمر، حيث حَكَّم القاعدة التي تدرأ الحدود بالشبهات، وفهم من الآيتين السابقتين مجتمعتين، أن مدة الحمل يمكن أن تكون ستة أشهر، وهي المدة التي تكتمل بستي الرضاع (٢٤ شهراً)، ثلاثين شهراً، واعتبر ذلك شبهة تحول دون القطع بوقوع الزنا، ومن ثم فلا يقع الحدّ.

وبمرور الزمن، تطورت الحياة العلمية تطوراً كبيراً، ونشط التأليف في معظم العلوم والفنون، نشاطاً ملحوظاً، وشمل هذا النشاط تفسير القرآن الكريم، والتأليف في

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ٢/ ١٢٥

علومه، ونرى ممن اهتموا بالتأليف في موضوعات القرآن، علماء كثيرين، يختلفون في عصورهم، ومذاهبهم، ونوع اهتماماتهم..

- فقد ألف في الناسخ والمنسوخ:

قتادة بن دعامة السدوسي، المتوفى سنة ١١٨هـ

وأبو عبيد القاسم، المتوفى سنة ٢٢٤هـ

وأبو جعفر النحاس، المتوفى سنة ٣٣٨هـ

- وألف في معاني القرآن:

أبو زكريا الفراء، المتوفى سنة ٢٠٧هـ

- وألف في غريب القرآن:

أبو بكر السجستاني، المتوفى سنة ٣٣٠هـ

والراغب الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٠٣هـ

- وألف في مشكل القرآن:

ابن قتيبة، المتوفى سنة ٢٧٦هـ

- وألف في مجاز القرآن:

أبو عبيدة، المتوفى سنة ٢٠٦هـ

والشريف الرضي، المتوفى سنة ٤٠٦هـ

- وألف في إعجاز القرآن:

الجاحظ، المتوفى سنة ٢٥٥هـ

والرماني، المتوفى سنة ٣٨٦هـ

والخطابي، المتوفى سنة ٤٨٨هـ

والباقلاني، المتوفى سنة ٤٠٣هـ

والجرجاني، المتوفى سنة ٤٧١هـ وغيرهم

- وألف في أقسام القرآن:

ابن قيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٢١هـ

- وألف في أسباب النزول:

علي بن المديني، المتوفى ٢٣٤هـ

وأبو الحسن الواحدي، المتوفى سنة ٤٦٨هـ

ـ وألف في تناسب الآيات والسور:

البقاعي، المتوفى سنة ٨٨٥هـ

وفيما يتصل بالتفسير، نجد ابن تيمية ـ في القرن السابع ـ يحمل حملة شعواء على الإسرائيليات المدسوسة في التفاسير، وفي رأيه أن هذا هو الذي دفع الإمام أحمد بن حنبل، إلى أن يقول: «ثلاثة لاأصل لها: التفسير، والملاحم، والمغازي»

كما حمل ابن تيمية ـ في تفسيره ـ على المعتزلة والباطنية، الذين يصرفون ألفاظ القرآن عن معانيها الظاهرة، إلى معان بعيدة، تتطابق مع آرائهم ومعتقداتهم، وحمل أيضاً على الصوفية، ملاحظاً أنهم قد يفسرون القرآن بمعان صحيحة، غير أن القرآن لايتضمنها، وقد ينزلقون فيحملون بعض الآيات على مايؤمنون به من وحدة الوجود، ووحدة الشهود، والفناء في حقيقة الله.

وخلُص ابن تيمية ـ في تفسيره ـ إلى أن خير طرق التفسير، أن يفسّر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في موضع ، بُسِط في موضع آخر، وماذُكر موجزاً في آية، جاء مفصَّلا في آية أخرى، وإنْ لم يَفِ القرآن أحيانا بالمراد، رجع المفسر إلى الحديث النبوي، فإن الرسول ـ ﷺ ـ فسّر بعض الآيات. ويضم المفسر إلى ذلك أقوال الصحابة، الذين رافقوا الرسول ـ ﷺ ـ وفهموا منه التنزيل، وكذلك أقوال التابعين، الذين خالطوهم، ووقفوا منهم على معاني القرآن الكريم.

ويرى ابن تيمية ـ في منهجه التفسيري ـ أن يفتح الأبواب أمام المفسر، ليجتهد ويستنبط، ولكن بعد أن يكون قد استوفى العُدَّة لذلك، باستيعابه للذكر الحكيم، وآياته، ومعانيه المتقابلة، ولأقوال الرسول والصحابة والتابعين فيه، وبعد أن يُتقن العربية، ويتعمق علوم الشريعة، وبعد علمه الدقيق بدلالات القرآن، وتذوقه لخصائصه البيانية الرائعة.

وتلك هي العناصر التي ترتبط في معظمها بالتفسير الموضوعي بمفهومه الشامل.

ولقد مضى ابن تيمية يطبق منهجه التفسيري هذا على بعض السور القرآنية، وفي مقدمتها سورة النور، وبعض سور قصار من جزء عم، وخصّ سورتي المعوذتين برسالة مستقلة، وأفرد كتاباً لتفسير سورة الإخلاص، وتفسير كل آية من آيات هذه السور عنده، يتحوّل إلى بحث في مضمونها من خلال القرآن كله.

وسار على نهجه، تلميذه الإمام ابن قيم الجوزّية (ت ٧٢١هـ) في تفسير أقسام القرآن، وفي تفسيره للمعوذتين، إذ كثيراً مايتوقف إزاء مضمون آية ليشير إلى مضمون مماثل لآية أخرى، ابتغاء الدقة في التفسير.

هذا وقد وضع الراغب الأصفهاني - في القرن الخامس الهجري - معجماً عظيماً لألفاظ القرآن، عرض فيه كل لفظة من ألفاظه، وجميع استعمالاتها المبثوثة فيه، لتكون دائما تحت أعين المفسرين، فلا يختلط عليهم معنى، ولاتضطرب عليهم دلالة. فكان هذا المعجم منبعاً خصباً يرده كل من تصدى لتفسير القرآن حسب المنهج الموضوعي.

والحقيقة إن العلماء الأوائل، خاصة رجال التفسير - لم يتركوا للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله، والكشف عن معانيه ومراميه، إذ أنهم نظروا إلى القرآن باعتباره دستورهم، الذي جمع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة، فتناولوه من أول نزوله بدراستهم التفسيرية التحليلية، دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ وتلون بألوان مختلفة.

والباحث المدقق، الذي يعكف على دراسة بحوث التفسير على اختلاف ألوانها، لايدخله شك في أن كل مايتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة، قد وفّاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقّه، من البحث والتحقيق، والدراسة والتدقيق، فالناحية اللغوية، والناحية البلاغية، والناحية الأدبية، والناحية النحوية، والناحية الفقهية، والناحية الكونية.

كل هذه النواحي وغيرها، تناولها المفسّرون الأول بتوسّع ملموس، لم يترك لمن جاء بعدهم - إلى ماقبل العصر الحديث بقليل - من عمل جديد، أو أثر مبتكر، يقومون به في تفاسيرهم التي ألفوها، اللهم إلا عملاً ضئيلاً، لايعدو أن يكون جمعاً لأقوال المتقدمين، أو شرحاً لغامضها، أونقداً وتفنيداً لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحاً لرأي على رأي، مما جعل التفسير يقف وقفة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار[1].

وفي العصر الحديث.. ظل الأمر على هذا، وبقي التفسير واقفا عند هذه المرحلة، مرحلة الركود والجمود، لايتعداها، ولايحاول التخلص منها، حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فاتجهت أنظار العلماء، الذين لهم عناية بدراسة التفسير، إلى أن

---

(١) الدكتور محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون ج٢ ص٤٩٥. طبع مصر سنة ١٩٦٨م

يتحرروا من قيد هذا الركود، ويتخلصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا في كتاب الله نظرة - وإن كانت تعتمد على مادوّنه الأوائل، إلا أنها أثرت في الاتجاه التفسيري للقرآن، تأثيراً لايسعنا إنكاره، ذلك هو العمل على التخلص من كل هذه الاستطرادات العلمية، التي حُشرت في التفسير حشراً. ومزجت به على غير ضرورة لازمة، والعمل على تنقية التفسير من القصص الإسرائيلي، الذي كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ماجاء فيه من الأحاديث الضعيفة، أو الموضوعة على رسول الله - ﷺ - أو على صحابته - عليهم .رضوان الله تعالى، وإلباس التفسير ثوباً أدبياً اجتماعياً، موضوعيا، يظهر روعة القرآن، ويكشف مراميه الدقيقة، وأهدافه السامية، والتوفيق بجد بالغ، وجهد ظاهر، بين القرآن وما جَدّ من نظريات علمية صحيحة. وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون، وغير المسلمين، أن القرآن هو كتاب الله الخالد، الذي يتمشى مع الزمن في جميع أطواره ومراحله.

وهناك غير هذه الآثار، آثار أخرى ظهرت في الاتجاه التفسيري - في هذا العصر الحديث - نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها التوسع العلمي، وانتشار الثقافة، واتساع الحضارة[1]. في مقدمتها: التفسير العلمي، التفسير الأدبي الاجتماعي، والتفسير الموضوعي.

التفسير الموضوعي:

نشأ التفسير الموضوعي، في العصر الحديث، مقترناً وممتزجاً بالتفسير الأدبي، ذلك التفسير الذي تظهر فيه ذاتية المفسِّر، وشخصيته، وملكته الأدبية، وقدرته على بلورة الأفكار، وتقديم التصورات الممكنة، والمحتملة، والجائزة، في غلاف شفاف من الأسلوب الأدبي المؤثر، المحرك لمشاعر القارىء أو السامع ووجدانه، وهو يعتمد أيضا على التفنن في استجلاء مكامن علوم البلاغة، لإظهار مايؤديه من جمال التصوير، وروعة التعبير، في إطار من حُسْن العرض، وكمال التحليل، وجودة التعليل، ويُعَدّ السابق في هذا المضمار:

الشهيد سيد قطب:

يعد الشيخ سيد قطب - رحمه الله - من أوائل العلماء، الذين اهتموا بهذا اللون من التفسير الموضوعي. الذي يقترن بالتفسير الأدبي الفني فله تفسير يدعى (في ظلال

---

(١) التفسير والمفسرون ج٢ ص٤٩٥

القرآن)، وله إلى جانب هذا التفسير كتابان، درس فيهما موضوعين من موضوعات القرآن، أولهما يتناول (مشاهد القيامة في القرآن)، والثاني يحلل الصور الفنية والجمالية في القرآن، وهو (التصوير الفني في القرآن)

والتفسير (الظلال) و (التصوير) و (المشاهد) ثلاثتهم تنبع من روح واحدة، وتتجه وجهة واحدة، هدفها: محاولة تفسير القرآن الكريم تفسيراً أدبياً وموضوعياً، يبرز جمال الصور الفنية، ويحللها تحليلاً أدبياً جميلاً.

يتحدث الشيخ سيد قطب ـ في مقدمة كتابه التصوير الفني، عن الحافز الذي أغراه بانتهاج هذا المنهج، وسلوك هذه الطريقة من التفسير، فيقول:

«إنه قرأ القرآن وهو طفل صغير، لاترقى مداركه إلى آفاق معانيه، ولايحيط فهمه بجليل أغراضه، ولكنه كان يجد في نفسه منه شيئاً، وكان خياله الساذج الصغير، يجسّم له بعض الصور من خلال تعبير، وإنها لصُور ساذجة، ولكنها كانت تُشوِّق نفسه، وتُلِذّ حسَّه، فيظل حقبة غير قصيرة يتملاها، وهو بها فرح، ولها نشيط.

وضرب الشيخ سيد قطب ـ على الصور الساذجة ـ أمثلة عدة، كانت ترتسم في خياله كلما قرأ شيئا من القرآن. ومن تلك الأمثلة، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وجْهِهِ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]

قال: (كان يشخص في مخيلتي رجل قائم على حافة مكان مرتفع ـ مصطبة، فقد كنت في القرية، أو قمة تل ضيقة، فقد رأيت التل المجاور للوادي، وهو قائم يصلي، ولكنه لايملك موقفه، فهو يتأرجح في كل حركة، ويهمّ بالسقوط، وأنا بإزائه أتتبع حركاته، في لذة وشغف عجيبين)[١].

«تلك أيام.. ولقد مضت بذكرياتها الحلوة، وبخيالاتها الساذجة، ثم تلتها أيام، ودخلتُ المعاهد العلمية، فقرأت تفسير القرآن في كتب التفسير، وسمعتُ تفسيره من الأساتذة، ولكنني لم أجد فيما أقرأ، أو أسمع، ذلك القرآن اللذيذ الجميل، الذي كنت أجده في الطفولة والصبا».

«وا أسفاه، لقد طُمِسَت كل معالم الجمال فيه، وخلا من اللذة والتشويق، تُرى هل هما قرآنان؟ قرآن الطفولة العذب، الميسَّر المشوق، وقرآن الشباب المَعَسر المعقد

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص٧(الطبعة الثانية)

الممزّق؟.. أم تلك جناية الطريقة المتبعة في التفسير.

«وَعُدت إلى القرآن أقرؤه في المصحف، لافي كتب التفسير، وعُدْتُ أجد قرآني الجميل، الحبيب، وأجد صوري المشوقة اللذيذة، إنها ليست في سذاجتها، التي كانت هناك، لقد تغيّر فهمي لها، فعُدت الآن أجد مراميها وأغراضها، وأعرف أنها مَثَلٌ لاحادث يقع ولكن سحرها مايزال، وجاذبيتها ماتزال...»(١)

«لقد بدأت البحث، ومرجعي الأول فيه هو المصحف، لأجمع الصور الفنية في القرآن، وأستعرضها، وأبين طريقة التصوير فيها، والتناسق الفني في إخراجها، فبرزت لي حقيقة واحدة هي:

«أن الصور في القرآن ليست جزءا منه يختلف عن سائره، إن التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل، القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض، فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال، فليس البحث إذن عن صور تجمع وتُرتب، ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز.

وعلى هذا الأساس قام البحث، وكل مافيه إنما هو عَرْض لهذه القاعدة، وتشريح لظواهرها، وكشف عن هذه الخاصية في التعبير القرآني».

«وحين انتهيت من التحضير للبحث، وجدتني أشهد في نفسي مولد القرآن من جديد، لقد وجدته كما لم أعهده من قبل أبداً، لقد كان القرآن جميلاً في نفسي، نعم.!، ولكن جماله كان أجزاء وتفاريق، أما اليوم، فهو عندي جملة موحدة، تقوم على قاعدة خاصة، قاعدة فيها من التناسق العجيب، مالم يكن أحلم من قبل به، ومالا أظن أحداً تصوّره».

إن تفسير الشيخ سيد قطب، وإن كان قد اهتم اهتماماً كبيراً بإبراز الصور الفنية، والقيم الجمالية، إلا أنه اهتم أيضاً بالموضوعات القرآنية، فأبرزها من خلال تحليله وتناوله للصور الفنية، فكان يربط بين الموضوعات، مستغلاً في ذلك كل العناصر التوضيحية، من آيات القرآن الكريم، ومناسبات نزوله، ومن الأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين، فكان الموضوع القرآني بين ذهنه وتفسيره، وكأنه بحث متناسق متكامل، يرتبط أوله بآخره، مشتملاً على كل مايتصل به من جزئيات.

والحقيقة.. إن تفسير الشيخ سيد قطب، كان وحيد عصره، على الرغم من وجود

---

(١) التصوير الفني ص٨

بعضِ المحاولات التفسيرية، لاستنباط الصور الفنية، والموضوعات القرآنية، فإن واحداً من تلك البحوث أو المؤلفات، لم يبلغ مابلغه الشيخ سيد قطب في هذا المضمار، خاصة وأنه فسّر القرآن الكريم جميعه، بهذه الطريقة الفنية، الأدبية والموضوعية الفريدة والفذّة رحمه الله تعالى!.

البحث التّاسع

ألوان التفسير الموضوعي للقرآن الكريم[1]

من خلال الاستعراض التاريخي لنشأة التفسير الموضوعي والمؤلفات التي وضعت فيه يظهر أنه تنوّع إلى ثلاثة ألوان:

اللون الأول:

أن يتتبع الباحث لفظة من كلمات القرآن الكريم ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها.

وكثير من الكلمات القرآنية المتكررة أصبحت مصطلحات قرآنية.

فكلمات: الأمة، الصدقة، الجهاد، الكتاب، الذين في قلوبهم مرض، المنافقون، الزكاة، أهل الكتاب، الربا، نجدها تأخذ وجوهاً في الاستعمال والدلالة.

فالمتتبع لمثل هذا يخرج بلون من التفسير لأساليب القرآن الكريم في استخدام مادة الكلمة ودلالاتها.

وقد سبقت الإشارة إلى أن كتب غريب القرآن وكتب الأشباه والنظائر قد تضمنت هذا اللون من التفسير، وهي العمدة في مثل هذه الأبحاث.

إلا أن المؤلفات القديمة من هذا اللون بقيت في دائرة دلالة الكلمة في موضعها. ولم يحاول مؤلفوها أن يربطوا بينها في مختلف السور، فبقي تفسيرهم للكلمة في دائرة الدلالة اللفظية.

أما المعاصرون الذين كتبوا في هذا اللون فقد تتبعوا الكلمة وحاولوا الربط بين دلالاتها في مختلف المواضع فكان أشبه مايكون باللون الثاني من التفسير الموضوعي.

وفيما يلي ننقل نموذجاً على هذا اللون من التفسير الموضوعي من كتاب الدامغاني:

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي: للدكتور مصطفى مُسْلِم ص٢٣ـ٢٩/ ط دار القلم - دمشق.

نموذج من كتاب: (إصلاح الوجوه والنظائر)، للدامغاني:

قال الدامغاني تحت مادة(خ ي ر)[1]:

«خ ي ر على ثمانية أوجه:

المال، الإيمان، الإسلام، أفضل، العافية، الأجر، الطعام، الظفر والغنيمة.

فوجه منهاالخير بمعنى المال، قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿إذا حضر أحدَكم الموتُ إن ترك خيراً﴾ يعني مالاً. كقوله تعالى فيها: ﴿قل ماأنفقتم من خير فللوالدَيْن والأقربين﴾ وكقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وماتُنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ أي لاتنفقوا مالاً وقوله تعالى فيها: ﴿وماتنفقوا من خير يُوَفَّ إليكم﴾ يعني من مال، وقوله تعالى في سورة(ص): ﴿إني أحببتُ حبَّ الخير﴾ يعني حب المال، وكقوله تعالى في سورة النور: ﴿إن علمتم فيهم خيراً﴾ يعني مالاً.

الثاني: الخير يعني الإيمان. قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ولو علمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمعهم﴾ يعني لو علم الله فيهم إيماناً، كقوله تعالى فيها: ﴿ياأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إنْ يعلمِ اللهُ في قلوبِكم خيراً﴾ يعني إيماناً، كقوله تعالى في سورة هود: ﴿ولا أقولُ للذين تزدري أعيُنكم لنْ يؤتيَهُمُ اللهُ خيراً﴾ يعني إيماناً.

الثالث: الخير يعني الإسلام. قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿مايودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولاالمشركين أن ينزَّل عليكم من خير من ربكم﴾ يعني الإسلام، نظيرها في سورة (ق): ﴿منّاعٍ للخير﴾ يعني الإسلام نزلت في الوليد بن المغيرة منع ابن أخيه أن يسلم، نظيرها في سورة (ن).

الرابع: خير يعني أفضل. قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وقلْ ربِّ اغفرْ وارحمْ وأنتَ خيرُ الراحمين﴾ يعني أفضل الراحمين، كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وهو خيرُ الحاكمين﴾ أي أفضل الحاكمين، ونحوه قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مَهين﴾ يقول أفضل من هذا.

الخامس: الخير يعني العافية. قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وإنْ يَمْسَسْكَ الله بضُرٍّ فلا كاشفَ له إلّا هو وإنْ يَمْسَسْكَ بخير فهو على كل شيء قدير﴾ يعني بعافية.

---

(١) إصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني: ١٦٧ ـ ١٦٩، ط. دار العلم للملايين.

السادس: الخير يعني الأجر. قوله تعالى: ﴿لكم فيها خير﴾ يعني لكم فيها أجر. يعني البُدْن.

السابع: الخير يعني الطعام. قوله تعالى في سورة القصص: ﴿قال رب إني لماأنزلتَ إليّ من خير فقير﴾ يعني الطعام.

الثامن: الخير يعني به الظفر والغنيمة والطعن في القتال قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ يعني ظفراً وغنيمةً.

ونلاحظ أن المؤلف لم يربط بين أصلِ الكلمة واستعمالاتها وسياق الآيات التي وردت فيها الكلمة: ليبني عليها هداية قرآنية أو ليستنبط من دلالات اللفظة وسياق استعمالاتها توجيهاً قرآنياً معيناً.. وإنما بقيت الكلمة حيث وردت في نطاق الدلالة اللفظية المفردة.

* * *

نموذج من كتاب (المفردات في غريب القرآن)، للراغب الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٠٢هـ في كلمة (أمّة):

والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما: إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً. وجمعها أمم.

وقوله تعالى: ﴿وما من دابّةٍ في الأرضِ ولاطائرٍ يطيرُ بجناحَيْه إلا أممٌ أمثالُكم﴾ أي كل نوع منها على طريقة قد سخّرها الله عليها بالطبع. فهي بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسُرْفة[1]، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقته كالعصفور والحمام إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع.

وقوله تعالى: ﴿كان الناس أمةً واحدة﴾ أي صنفاً واحداً وعلى طريقة واحدة في الضلال والكفر.

وقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربُّك لجعلَ النّاسَ أمةً واحدة﴾ أي في الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير﴾ أي جماعة يتخيّرون العلم والعمل الصالح يكونون أسوة لغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ أي على دين مجتمع.

---

(١) السُرْفة: بضم السين وسكون الراء وفتح الفاء، دودة القز.

قال الشاعر: وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع.

وقوله تعالى: ﴿وادّكر بعد أمّةٍ﴾ أي حين. وقُرِىء بعد أَمَهٍ[1]: أي نسيان. وحقيقة ذلك بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين.

وقوله تعالى: ﴿إن إبراهيمَ كان أمّةً قانتاً لله﴾ أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة.

وروي انه يُحشر زيد بن عمرو بن نفيل أمةً وحده[2].

وقوله تعالى: ﴿ليسوا سواءً من أهلِ الكتابِ أمة قائمة﴾ أي جماعة.

وجعلها الزجاج ههنا للاستقامة، وقال تقديره ذو طريقة واحدة، فترك الإضمار[3].

ثم انتقل إلى لفظة (أمّيّ) ودلالات الكلمة، ثم إلى كلمة(الإمام) ودلالاتها، ثم إلى كلمة (الأمّ) بمعنى القصد، وختم المادة بالحديث عن حرف (أمّا).

وفي كل ذلك لم يتعرض لسياق الآيات التي استُخدمت فيها كلمة (أمّة) وإنما تعرّض لها في مواطنها ولم يفصل القول في عناصر تكوين دلالات اللفظة ولامقومات استمرارها ودورها.

اللون الثاني:

تحديد موضوع مايلحظ الباحث تعرض القرآن الكريم له بأساليب متنوعة في العرض والتحليل والمناقشة والتعليق.

فيتتبّع الموضوع من خلال سور القرآن الكريم، ويستخرج الآيات التي تناولت الموضوع، وبعد جمعها والإحاطة بتفسيرها يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من خلال الآيات الكريمة، فينسّق بين عناصره، ويقدم له بمقدمة حول أسلوب القرآن الكريم في عرض أفكار الموضوع. ويحاول أن يقسمه إلى أبواب وفصول ومباحث، ويستدل بالآيات القرآنية على كل مايذهب إليه ويتحدث عنه مع ربط ذلك كله بواقع الناس ومشاكلهم ومحاولة حلها وإلقاء أضواء قرآنية عليها.

ويتجنب خلال بحثه التعرض للأمور الجزئية في تفسير الآيات فلايذكر القراءات،

---

(١) هي قراءة الحسن، انظر: القراءات الشاذة لعبد الفتاح القاضي: ٥٧.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة: ٢/١٤٣.

(٣) انظر: المفردات للراغب: ٢٧ ـ ٢٨.

ووجوه الإعراب والنكات البلاغية إلا بمقدار ماتُلقي أضواءً على أفكار الموضوع الأساسية، ويعرض مايتحدث عنه بأسلوب جذّاب لتوضيح مرامي الآيات ومقاصدها والحكمة الإلهية في عرض أفكار الموضوع بأساليب معينة واختيار ألفاظ محددة لها.

وهذا اللون من التفسير الموضوعي هو المشهور في عرف أهل الاختصاص، وإذا أُطلق اسم (التفسير الموضوعي) فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه.

ولقد كثرت المؤلفات قديماً وحديثاً في هذا اللون من التفسير الموضوعي.

فما كُتب: إعجاز القرآن.

والناسخ والمنسوخ في القرآن.

وأحكام القرآن.

وأمثال القرآن.

ومجاز القرآن... قديماً إلا أمثلة ناطقة على أهمية هذا اللون من التفسير عند السلف الصالح من علماء هذه الأمة.

وكذلك الموضوعات المختلفة المعاصرة: المتعلقة بمجالات المعرفة المختلفة حيث ربطها الباحثون بالقرآن الكريم ونظروا بمنظاره إلى هذه المجالات وكيفية البحث عنها، سواء كانت هذه المجالات مما يتعلق بالكون المحيط بالإنسان من أرض وسماوات وكواكب ونجوم وبحار ومحيطات وجبال وأنهار ونبات وحيوان، أو كانت مما يتعلق بالإنسان خلقه وتكوينه وعواطفه وغرائزه ومشاعره ونفسه وعقله، وأخلاقه وسموه وتسفّله، أو بالحياة الاجتماعية التي يحياها الإنسان في مجتمعه بدءاً بالعلاقات الأسرية والاجتماعية في القوم والعشيرة، والعلاقات الدولية والأمور الاقتصادية والسياسية، وأنظمة السلم والحرب والدعوة إلى الله، وأخذ العبر والعظات من سير الأقوام والأمم الماضية.

ومايتعلق كذلك بأمور الغيب من البعث بعد الموت والحشر والحساب والجنة والنار، وصنوف النعيم في دار السعادة للمتقين، وصنوف الشقاء للتعساء في دار الجحيم.

ولاتكاد تنتهي مثل هذه الموضوعات، بل كلما جدّت علوم وصنوف من المعرفة لدى الإنسان يجد الباحث في القرآن الكريم مايشبع فكره اقتناعاً، وقلبه طمأنينة من عرض القرآن الكريم لأساسيات هذا اللون من المعرفة بوضع الأسس العامة والتوجيهات الأساسية في هذا الشأن.

اللون الثالث من التفسير الموضوعي:

وهذا اللون شبيه باللون الثاني إلا أن دائرة هذا اللون أضيق من دائرة سابقه. حيث يبحث في هذا اللون عن الهدف الأساسي في السورة الواحدة، ويكون هذا الهدف هو محور التفسير الموضوعي في السورة.

وطريقة البحث في هذا اللون هو:

أن يستوعب الباحث هدف السورة الأساسي، أو أهدافها الرئيسية، ثم يبحث عن سبب النزول للسورة أو الآيات التي عرضت الموضوع الأساسي للسورة، ثم ينظر إلى ترتيب نزول السورة من بين السور المكية أو المدنية، ثم يدرس الأساليب القرآنية في عرض الموضوع والمناسبات بين مقاطع الآيات في السورة.

وسيجد الباحث أن لكل سورة شخصيتها المستقلة وأهدافها الأساسية. فمن المعلوم أن السور المكية قد عرضت أسس العقيدة الإسلامية الثلاثة بشكل مفصَّل: الألوهية، الرسالة، البعث بعد الموت، لذا يمكن أن يتناول الباحث في كل سورة مكية أحد الجوانب الثلاثة من العقيدة، كما اشتمل كثير منها على الحث على أمهات الأخلاق والتنفير من مرذولها.

ولم يظفر هذا اللون من التفسير الموضوعي بعناية المفسرين القدماء بل جاء في ثنايا تفاسيرهم الإشارة إلى بعض أهداف السور وخاصة القصيرة منها، وكذلك التوخّي لوجه المناسبة بين مقاطع بعض السور، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وكما فعل البقاعي في نظم الدرر، وعبد الحميد الفراهي في كتابه نظام القرآن.

أما في العصر الحديث فقد كان سيد قطب مولعاً بعرض أهداف وأساسيات كل سورة، قبل البدء في تفسيرها، وبيان شخصية كل سورة وملامحها المتميزة عن بقية السور. والأساليب المتبعة في عرض أفكارها. فيعتبر كتابه (في ظلال القرآن) نموذجاً جيداً وبخاصة مقدمة تفسيره لكل سورة.

كما كتب غيره ممن جاء بعده مستفيداً من منهجه، كما فعل إبراهيم زيد الكيلاني في كتابه (تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام)، وكتابه (معركة النبوة مع المشركين) أو: قضية الرسالة كما تعرضها سورة الأنعام وبيّنها القرآن الكريم.

أما ماكتبه د. محمد البهي في رسائله المسماة بالتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم فلا أعتبره من التفسير الموضوعي وإنما هو تفسير إجمالي للآيات في السورة كما لم يحدِّد موضوع كل سورة فسّرها، وإنما جاء بكلام إنشائي للمعنى الإجمالي للآيات.

الفصل الخامس

تاريخ

تفسير القرآن العظيم

بعدَ نُشوء العلوم المستحدثة والمنقولة إلى كتب التفسير

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:

التمهيد: نبذة تاريخية عن نشوء علم التفسير وتطوّره.

البحث الأول: أثر نشأة الفِرَق على مسيرة التفسير.

البحث الثاني: أثر العلوم الفلسفية على مسيرة التفسير.

البحث الثالث: أثر الفلسفة الصوفية على مسيرة التفسير.

البحث الرابع: أثر العلوم العقلية على مسيرة التفسير.

البحث الخامس: أثر منهج الإمام الرازي في التفسير.

البحث السادس: أثر منهج الإمام الألوسي في التفسير.

البحث السابع: تفسير المنار وبيان منهجه ومايُؤخذ عليه.

البحث الثامن: تفسير المراغي وبيان منهجه مع مناقشة بعض تفسيراته.

البحث التاسع: مناقشة علمية لتفسير الشيخ محمد عبده لسورة «الفيل».

البحث العاشر: الإعجاز العلمي ودلالته في تفسير القرآن الكريم.

البحث الحادي عشر: الآيات الكونية في القرآن وسلطان العقل.



التمهيد:

نبذة تاريخية عن نشوء علم التفسير وتطوّره

لم يكن بمستغرب عند من يدرك سنن الله في خلقه، في رقيّ المجتمعات وتقدمها عندما يدرك الأسباب التي أوجدها الله سبحانه وتعالى لتكوين هذه الأمة وتقدّمها وتفوّقها.

وما أن رسّخت الدولة الإسلامية قواعدها في أرجاء المعمورة، وما أن هدأت اندفاعة الفتوحات الإسلامية، حتى التفت العلماء إلى مدارسة القرآن الكريم الذي يشكل أساس النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، لتدوين تفسيره والعلوم التي تخدم توضيح المراد من كلام رب العالمين، وتعين على فهمه وتطبيقه وكانت الأجيال السابقة إلى عهد بني العباس تعتمد بشكل أساسي على التلقّي والرواية مشافهة إلا في حالات استثنائية قليلة.

وتنوّعت المجالات التي توجّهت الجهود إليها لخدمة آي الذكر الحكيم. فمنهم من توجّه إلى جمع ماأُثر عن رسول الله ﷺ من أمور الدين، وعن صحابته الكرام، ومنهم من توجّه إلى حفظ وجوه الأداء للفظ القرآني، ومنهم من حافظ على لغته وبيان معاني غريبه، ومنهم من توجّه إلى استنباط القواعد التي تكفل سلامة التحدث به وعدم اللحن فيه...

وقام صرح العلوم كلها لخدمة القرآن الكريم حفظاً وفهماً وتطبيقاً، ولسنا بصدد تعداد العلوم المختلفة التي قامت وتاريخ تدوين هذه العلوم، وإنما نرمي إلى بيان نشوء علم التفسير بإيجاز.

نشوء علم التفسير وتطوره

بيّنت الآيات القرآنية الحكمة الإلهية من خلق الإنس والجن في قوله تعالى:
﴿وماخلقت الجن والإنس إلاليعبدون...﴾ [الذاريات: ٥٦].

كما بيّنت السنة الإلهية في بعثهم بعد موتهم لمحاسبتهم عن الأمانة التي حملوها:
﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثاً وأنكم إلينا لاترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وبيّن الخلق والتكليف والإعادة بعد الموت.

لم يتركه لعقله واجتهاداته وأهوائه في التعرف على أسلوب العبادة، ومنهجه في

الحياة الدنيا، بل أرسل إليه الرسل وأنزل الكتب لهدايته: ﴿وماكنا معذّبين حتى نبعث رسولاً...﴾ [الإسراء: ١٥].

وكانت السنة الإلهية أن يكون الرسل من الأقوام المرسل إليهم وبلسانهم. وذلك أداء للرسالة على أحسن وجه، وليتحقق الغرض من إرسالهم ببيان الهدايات بأيسر الطرق إلى الأقوام ﴿وماأرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبيّن لهم...﴾ [إبراهيم: ٤].

لذلك كان الرسول المكلَّف بالتبليغ هو أوعى الناس لمهمته وأكثرهم علماً وإحاطةً برسالته، وبالتالي أقدرهم على بيان مراد الله سبحانه وتعالى من كتابه وآياته.

وهذه السنن والحِكَم الإلهية تتجلى في خاتم النبيين ﷺ ورسالته. وقد نزلت الآيات الكريمة تبين هذه الجوانب بياناً كاملاً:

فتارة يتكفل له ربه سبحانه وتعالى بحفظ القرآن: ﴿إنّا نحن نزلنا الذكْرَ وإنّا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩].

وتارة أخرى يتعهد له ربه سبحانه وتعالى بجمع القرآن له وتوضيحه لاستيعابه: ﴿إنّ علينا جمعَه وقرآنَه، فإذا قرآناه فاتّبع قرآنه، ثم إنّ علينا بيانه﴾[القيامة: ١٧ـ ١٩].

وتارة يأمره ربُّه بتبليغ الآيات الكريمة للناس ومجاهدتهم بالقرآن: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ [الفرقان: ٥٢].

لذا كان رسول الله ﷺ أعلم عباد الله بكتاب الله، إذ إن تبليغ الرسالة على الوجه الأكمل مترتبٌ على فهمه لمحتوى الرسالة جملةً وتفصيلاً، وهذا أمر تفرضه بدهيات الأمور ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس مانُزِّل إليهم﴾ [النحل: ٤٤].

ويأتي بعد فهم الرسول ﷺ للقرآن الكريم فهم الصحابة رضوان الله عليهم وإن كان فهمهم له جملة (لظاهره على الإجمال ولأحكامه على التفصيل).

وليس من الضروري إحاطتهم التامة بمعاني القرآن الكريم بحيث لاتغيب عنهم شاردة ولاواردة، نقول ذلك لما نُقل إلينا عن الصحابة رضي الله عنهم. فعلى الرغم من رجوعهم إلى النبي ﷺ المرة تلو الأخرى لبيان ماأشكل عليهم فهمه، أو لإزالة غموض اعْتَوَر فهمهم للآيات البيّنات، تنقل إلينا كتب التفسير والروايات الصحيحة من السنّة النبوية أن بعض الصحابة كان يستفسر عن بعض الآيات والمعاني إلى مرحلة متأخرة من حياتهم بعد وفاة رسول الله ﷺ، فمثلاً تنقل لنا الروايات أن عمر بن

الخطاب سأل على المنبر في إحدى خطبه عن (الأبّ) في قوله تعالى: ﴿وفاكهةً وأبّاً﴾ [عبس: ٣١]، ثم عاد إلى القول: ومايضرك لو لم تعلم معناها[١]، فإن في بحث هذه الأمور التي لاينبني عليها حكم عملي تكلّفاً لافائدة منه، لذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يكتفون فيما يتعلق بالجوانب النظرية من فروع العقائد، أو مايتعلق بسير الأمم، أو تخليق السماوات والأرض... فكانوا يكتفون بموطن العظة والعبرة ومجمل الاعتقاد فيها. بل جاء النهي القرآني الصريح عن الخوض في مثل هذه الأمور التي لاتدخل في إطار الأحكام العملية، يقول تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤكم وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّلُ القرآن تبْدَ لكم، عفا الله عنها والله غفورٌ حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم اصبحوا بها كافرين﴾ [المائدة: ١٠١ ـ ١٠٢].

كما ورد عن رسول الله ﷺ النهي عن الاستفسارات التي لايكون لها واقع عملي في حياة المسلمين. يقول عليه الصلاة والسلام: «إن أعظم المسلمين جُرْماً من سأل عن شيء لم يحرَّم فحُرِّم من أجل مسألته»[٢]. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ذروني ماتركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»[٣].

وفي الحديث الآخر الصحيح: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيِّعوها وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها وحرّم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»[٤].

والحكمة الإلهية في ذلك ـ والله أعلم ـ أن انصراف الأمة إلى الأمور النظرية والفرعيات التي لاترتبط بالأحكام العملية يؤدي إلى الفرقة والنزاع وإلى الجدل العقيم والترف الثقافي، والأمة الإسلامية أمة جهاد ودعوة وعمل فلا يليق بها مثل هذه المشاغل، وبخاصة في الصدر الأول وفي مرحلة تأسيس الدولة الإسلامية.

بالإضافة إلى ماتقدم فإن إمكانات الصحابة رضوان الله عليهم الثقافية واللغوية لم تكن على مستوى واحد في الإدراك والفهم والاستنباط.

روى البخاري في صحيحه عن الشعبي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أخذ

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٢/ ١١٣.
(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام: ٨/ ١٤٢، ومسلم في كتاب الفضائل: ٧/ ٩٢.
(٣) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل: ٧/ ٩١.
(٤) أخرجه ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه. انظر الدر المنثور للسيوطي ٣/ ٢٠٨.

عديّ عقالاً أبيض وعقالاً أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا، فلما أصبح قال: يارسول الله جعلت تحت وسادتي فقال: «إن وسادك إذاً لعريض أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك»[1].

وكان منهم من لازم الرسول ﷺ ولم يفارقه في سفر ولاحضر، فاطلع على أسباب النزول وماكان يرافق أحوال الوحي مما لم يدركه الآخرون، كل ذلك أوجد مَلَكة ذهنية وعلمية لم تتوافر لغيرهم.

يقول مسروق: (جالست أصحاب محمدﷺ فوجدتهم كالإخاذ - الغدير - فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم)[2].

﴿أنزل من السماء ماءً فسالتْ أوديةٌ بقَدَرها...﴾ [الرعد: ١٧].

وفي الرواية التي أخرجها أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم في صحيحه عن ابن عباس مايدل أن بعض الصحابة كان يفهم بعض الآيات على غير وجهها الصحيح فيقع في محظور. يقول ابن عباس: إن الشُّرّاب كانوا يضربون على عهد رسول الله ﷺ بالأيدي والنعال والعصيّ، حين توفي رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: لو فرضنا لهم حدّاً فتُوفي ماكانوا يضربون في عهد رسول الله ﷺ، فكان أبو بكر يجلدهم أربعين حتى توفي ثم كان عمر من بعدهم كذلك أربعين، حتى أُتي برجل من المهاجرين الأوّلين قد شرب فأمر به أن يُجلد، فقال: لِمَ تجلدني؟ بيني وبينك كتاب الله، قال: وفي أيّ كتاب الله تجد أن لاأجلدك؟ قال: فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طَعِموا﴾ فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا. شهدت مع رسول الله ﷺ بدراً وأحداً والخندق والمشاهد، فقال عمر: ألا تردُّون عليه؟ فقال ابن عباس: هؤلاء الآيات نزلت عذراً للماضين وحجةً على الباقين، عذراً للماضين لأنهم لقُوا الله قبل أن حرّم عليهم الخمر، وحجة على الباقين لأن الله يقول: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام...﴾ حتى بلغ الآية الأخرى، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، فإن الله نهى أن يشرب الخمر، فقال عمر: فماذا ترون؟ فقال علي بن أبي طالب: نرى أنه إذا شرب سكر وإذا سكر هَذَى وإذا هَذَى

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير: ٥/١٥٦.
(٢) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٠.

افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة فأمر عمر فجلد ثمانين[١].

وفي عهد التابعين اتسعت دائرة الأقوال في التفسير نظراً لحاجة الناس إلى تفسير القرآن الكريم، وذلك:

ـ لبعد العهد عن عصر النزول، ولانتشار الإسلام.

ـ ودخول أقوام فيه ممن لم تكن لديهم خلفيّة عن الثقافة الإسلامية، بل كان لبعضهم خلفيات ثقافية أخرى ممن اعتنقوا ديانات قبل الإسلام.

ـ كما وُلد في الإسلام جيل لم يكن على علم تام بأساليب العربية ومارافق نزول القرآن إلا ماتلقَّوْه عن الصحابة رضوان الله عليهم.

وكان إلى هذا العهد يُتناقَل التفسير بطريق الرواية، فالصحابة يروون عن رسول الله ﷺ كما يروي بعضهم عن بعض، والتابعون يروون عن الصحابة كما يروي بعضهم عن بعض.

ـ وفي أواخر عهد بني أمية وأوائل العصر العباسي بدأ عصر التدوين، فجُمع حديث رسول الله ﷺ. فطاف الآفاق رجال كان شغلهم الشاغل جمع مارُوي عن رسول الله ﷺ وكان على رأس هؤلاء:

ابن شهاب الزهري، المتوفى سنة ١٢٤هـ.
وشعبة بن الحجاج، المتوفى سنة ١٦٠هـ.
ووكيع بن الجراح، المتوفى سنة ١٩٧هـ.
وسفيان بن عيينة، المتوفى سنة ١٩٨هـ.
وروح بن عبادة البصري، المتوفى سنة ٢٠٥هـ.
وعبد الرزاق بن همّام الصنعاني، المتوفى سنة ٢١١هـ.
وآدم بن إياس، المتوفى سنة ٢٢٠هـ.
وأحمد بن حنبل، المتوفى سنة ٢٤١هـ.
وعبد بن حميد، المتوفى سنة ٢٤٩هـ.
وابن ماجة، المتوفى سنة ٢٧٣هـ.
وابن جرير الطبري، المتوفى سنة ٣١٠هـ.
وغيرهم كثير...

---

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي: ٣/ ١٦٢.

ولكن لم يصلنا شيء عن تفاسيرهم سوى تفسير مجاهد، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني، وتفسير ابن ماجه، وتفسير ابن جرير الطبري.

وكان إلى هذا العهد يجمع التفسير على أنه باب من أبواب الحديث، يُدوَّن فيه ماروي عن رسول الله ﷺ أو كبار الصحابة ممايتعلق بتفسير آية أو آيات.

ولم يبحث عن تفسير كل آية من آيات القرآن الكريم، وإنما يُذكر فيه ماثبت بطريق السند نسبتُه إلى رسول الله ﷺ أو أحد الصحابة.

ولم نجد تفسيراً مستقلاً للقرآن الكريم تتبع القرآن سورة سورة أو آية آية قبل بداية القرن الثالث الهجري، على الرغم من أن روايات تذكر أنّ مجاهداً المتوفى سنة ١٠٤هـ سأل ابن العباس ومعه ألواحة، فكتب تفسير القرآن كاملاً إلا أن التفسير المطبوع لايختلف عن التفاسير المأثورة لإيات مُتفرقة. كما قيل ان سعيد ابن خبير المتوفى عام٩٤هـ كتب تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم. كما يقال إن عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة كتب تفسيراً للقرآن عن الحسن البصري المتوفى سنة ١١٦هـ. إلا أننا لانستطيع أن نجزم بصحة هذه الروايات لأن هذه التفاسير لم يصلنا منها إلا القليل، ووصلت أجزاء من بعضها.

ولعل أقدم تفسير كامل لآيات القرآن الكريم، وصلنا وتحت أيدينا، هو تفسير شيخ المفسرين ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ.

ثم توالت المؤلَّفات في التفسير وتشعّبت ألوانها حسب اتجاهات أصحابها والفنون التي أجادوا فيها، إلا أن الذي يهمّنا هنا هو تاريخ تفسير القرآن العظيم بعد نشوء العلوم المستحدثة والمنقولة في كتب التفسير.

البحث الأول

أثر نشأة الفِرَق على مسيرة التفسير[1]

لمّا اتسعت الفتوحات الإسلامية لنشر راية الهداية والعدل بين الأمم والشعوب دخل في غمار المسلمين ـ تقيةً ـ كثير ممن لايرجون لله وقاراً من الموتورين والحاقدين على الإسلام من اليهود والمنافقين، والزنادقة، ليفسدوا على المسلمين تدينهم ويشككوهم في إسلامهم عن طريق الأكاذيب والأساطير والخرافات والقصص الزائف، بعد أن عجزوا عن مواجهته بالحجة والمنطق المعقول، بعد أن عجزوا أيضاً عن مواجهته بقوة السلاح في ميادين الجهاد، واتخذوا من تفسير القرآن مادة لأغراضهم ووسيلة خفية لأهدافهم الخبيثة وحملوا إليه من موروثاتهم في عقائدهم وأقاصيصهم بلايا من الأكاذيب والترهات التي قبلها بعض ذوي البلَه والغفلة من المتسببين للعلم من المسلمين الذين ربما لايتهمون في إخلاصهم، والتي دسها عليهم عمداً بعض الملاحدة، حتى ضاعت كثرة الحقائق في غمرة الأساطير.

وكان من آثار دخول الأعاجم في الإسلام، وظهور اللحن في القرآن أن ظهر إلى جانب ذلك قوم من أهل اللغة والأدب، شغفوا بالإعراب واتخذوا من نصوص القرآن وآياته مادة لإظهار براعتهم في علوم اللغة وفنون الأدب، وراحوا يعقدون مجالس الإملاء في توجيه آيات من القرآن جاءت على غير السّنن الذي يعرفونه من قواعدهم التي قعّدوها، وغفلوا عن النظر البلاغي الذي اقتضى مجيء الآيات كما أنزل الله تعالى كقوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُم وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِين الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجراً عَظِيماً﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

---

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين المحمد الصادق إبراهيم عرجون/ ص٢١١ـ٢١٥/ ط دار القلم: دمشق ـ الدار الشامية: بيروت.

(٢) سورة النساء/ آية١٦٢/ .

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]

ثم أخذ فريق منهم يؤلفون الكتب والدواوين في إعراب القرآن آية آية، وكلمة كلمة، ويكثرون من الشواهد شعراً ونثراً على مايذكرون من وجوه في الإعراب، أو لهجات عن بعض قبائل العرب، واتسعوا في ذكر وجوه الأعاريب، وتفننوا في التخريج تعالماً باللغة وأساليبها، وقد اضطر بعضهم إلى أن يصطنع شواهد من الشعر لم ينطق بها العرب ولا عرفوها، ولكنها العصبية المذهبية هي التي حملتهم على هذا الباطل، واختلفوا إلى مدارس، لكل مدرسة مذهب في النحو والتصريف وفقه اللغة، ولاتزال الكتب الدراسية تحمل الخلاف العريض بين مدرستَي الكوفة والبصرة.

وقد زاد من حدة هذا الخلاف التنافسُ على الدنيا والتقرب من أهلها في دواوين الحكم وقصور الخلافة، وكان بعض الخلفاء يزكي نار هذا الخلاف ويختص بعض الأدباء والنحويين بالزلفى ويسند إليهم مناصب التدريس والتأديب في قصور الخلافة، ويثير بين المتنافسين من علماء مدرستَي الكوفة والبصرة المسائلَ الخلافية كالذي قيل: إنه وقع بين الكسائي زعيم نحويّي الكوفة وسيبويه إمام البصرة في مسألة العقرب والزنبور المشهورة، وقد قيل: إن أنصار الكسائي استنطقوا بعض الأعراب أن ينطق بما يوافق رأيهم وينتصر لصاحبهم.

وإذا تجاوزنا هذا الجانب مما أتخمت به بعض كتب تفسير القرآن التي نزعت في طريقتها إلى الجانب اللغوي الإعرابي، وجدنا إلى جانبه منزعاً آخر يتصل به من قريب، ذلك هو جانب البحث البلاغي في القرآن لتبيين إعجازه وعلو طبقته في البلاغة والبيان، وهذا الجانب وإن كان لم يستكمل المدى المطلوب منه ولم يف بالغرض الذي أنشىء له لأن السرعة التي كتب بها حصرته في دائرة ضيقة من القواعد الخاصة، والضوابط المصطنعة والتعاريف المتكلفة، والتفريعات المتكثرة، وقعدت به دون أن يبلغ الغرض الذي كان ينبغي أن يبلغه وما هو ببالغه إلا أنه شغل العلماء ببحوث لفظية لاتعني في العلم شيئاً.

بيد أن هذا اللون من البحث البلاغي ـ مع أنه لم يؤد إلى الهدف الذي قصد به ـ أحدث لوناً من الخلاف في بيان إعجاز القرآن، وظهر لمنافسته القول بالإعجاز بالصرفة، وهو قول مال إليه أكثر المتكلمين، وأسنده القاضي عياض إلى الإمام أبي الحسن الأشعري وجماعة من أصحابه، وجنح إليه الفخر الرازي في مواضع من

---

(١) سورة المائدة/ آية٦٩ .

تفسيره، وفي كتابه «نهاية الإيجاز» ـ الذي لخص به كتابَي عبد القاهر «دلائل الإعجاز» و «وأسرار البلاغة» ورتبهما كما شاء ـ انتهى إلى أن إعجاز القرآن في فصاحته وقد حاول إبطال كل وجه غير هذا الوجه.

والرازي مضطرب الرأي جداً في وجه إعجاز القرآن في تفسيره وسائر مؤلفاته التي يعرض فيها لهذا الموضوع.

وقد صور مذهب الصرفة في كتابه (نهاية الإيجاز) ونسبه إلى إبراهيم النظّام أحد شيوخ المعتزلة فقال: قال النظّام: إن الله تعالى ماأنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به.

وقد أدى هذا الخلاف إلى أن يزدحم المختلفون في ساحة القرآن، يتجادلون ويتدافعون، ودخل هذا الجدل العقيم في تفسير القرآن، وكون جانباً منه قامت عليه كثرة من الكتب والمؤلفات، وصرف كثيراً من المفسرين عن العناية بجانب الهداية العلمية والمعنوية في القرآن.

تفسير الكشاف وابتعاده عن مقاصد القرآن:

ولعل أظهر مثل لذلك بين أيدينا هو كشاف الزمخشري الذي يشبه أن يكون قد قصره على غرضين اثنين، الغرض الأول منهما هو تبيين مافي آيات القرآن من سمو في التعبير وفوق في البيان وعلو في البلاغة والفصاحة، بما جاء فيه من بارع التمثيل، ودقيق الاستعارة، ولطيف الكناية. والغرض الثاني هو نصر مذهب المعتزلة بأخضره ويابسه وعجزه وبجره، وحمل آيات القرآن قسراً على أن تنهض حجة لمزاعمه، وهذا الاتجاه دعا بعض العلماء إلى أن يشمر للرد عليه، مما زهد الكثيرين في النظر فيه والإفادة بنفي عبارته عن مقاصد القرآن، مما فتح باب الجدل في المسائل الكلامية وجعل القرآن ميداناً لها، تحمل آياته عليها حملاً، وتنزل في فهمها على ماتقتضيه مسائلهم وقواعدهم، حتى إن الناظر في تلك الكتب يظن أن القرآن الكريم كتاب من كتب فلسفة الكلام نزل ليفتح ميداناً للجدل وليس كتاب هداية نزل ليبعث اليقين والسكينة في القلوب.

أصول المعتزلة:

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية في رسالته أصول التفسير: فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه

الأمة الوسط الذين لايجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم، تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولادلالة فيها وتارة يتأولون مايخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه، وهذا كالمعتزلة فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدلاً، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم، مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان، وتفسير الجبّائي، وتفسير القاضي عبد الجبار، وتفسير الروماني، والكشاف لأبي القاسم الزمخشري، فهؤلاء اعتقدوا مذهب المعتزلة وأصولهم الخمسة التي هي التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم قال ابن تيمية: والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لافي رأيهم ولا في تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد مافسروا به القرآن: إما دليلاً على قولهم، أو جواباً على المعارض لهم، ومن هؤلاء من يكون حسَن العبارة فصيحاً، ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لايعلمون، كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لايعتقد الباطل من تفاسيرهم ماشاء الله.

وقال ابن قتيبة في الرد على المعتزلة ومن سلك مسلكهم من المتكلمين في حمل آيات القرآن على مذاهبهم: وفسروا القرآن بأعجب تفسير، يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم ويحملوا التأويل على نحلهم، فقال فريق منهم في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: علمه، وجاؤوا على ذلك بشاهد لايُعَرف، وهو قول الشاعر* ولابكرسي علم الله مخلوق * كأنه عندهم، ولا يعلم علم الله مخلوق، يستوحشون أن يجعلوا لله تعالى كرسياً... وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ أي: فقيراً إلى رحمته وجعلوه من الخلة استيحاشاً من أن يكون الله تعالى خليلاً لأحد من خلقه... فأي فضيلة في هذا لإبراهيم؟ أما تعلمون أن الناس كلهم فقراء إليه، وهل إبراهيم في خليل الله إلا كما قيل: موسى كليم الله! وعيسى روح الله؟.

البحث الثاني

أثر العلوم الفلسفية على مسيرة التفسير(١)

ولما تسللت العلوم المترجَمة والفلسفات الأجنبية عن الإسلام بأصولها وعقائد أهلها إلى ساحة الإسلام أسرع إليها أقوام، واعتنقوا مبادئها، وتوغلوا في دراستها، وكأن أعقلهم وأذكاهم من جعل نفسه عبداً لآراء أرسطو يتعبّد بها وينافح عنها وينشر أصولها، وأدخلوها في تفسير القرآن، يحتجون بها له، ويدافعون بمنطقها عنه، وهو في غُنية عنها وعن منطقها، لأن له منطقاً هو منطق الفطرة، ويحتجون به لها ليقربوها إلى العقول، ويخدعوا عامة المسلمين ببريقها، وقد يعتسفون الرأي اعتسافاً لايتمشى مع سماحة البيان القرآني، واتخذوا من آيات العقائد وبيان دلائل القدرة الإلهية وعظمة ملك الله ميداناًلأوسع خلاف وأشد جدل يذهب بنضارة الهداية القرآنية في تعاريج الجدل المنطقي الجاف.

ومن هذا الباب - باب الفلسفة الأجنبية - دخل طوائف الباطنية من القرامطة والروافض الذين حرفوا آيات الله عن مواضعها، فحملوا على كتاب الله في تفسيره غثاء من الرأي الخبيث التافه لاتساوي ضرطة عير ولا عفطة عنز، وإنما أملاها على قائليها حقد أبله وجهل بليد، كقولهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ هي عائشة أم المؤمنين وكقولهم في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ هم طلحة والزبير، وكقولهم في قول عز شأنه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ علي وفاطمة، من أمثال هذه الترهات التي لايعقلها إلا المبرسمون كما نقل عن أبيِ مسلم الأصفهاني أنه قال: رأيت في بعض التفاسير، قول مَن قال في ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾: إن الحاء حرب علي ومعاوية، والميم ولاية المروانية، والعين ولاية العباسية، والسين ولاية السفيانية، والقاف قدوة المهدي، قال أبو مسلم: وإنما حكيت ذلك لأني أردت أن يُعلَم أن فيمن يدعي العلم حمقى.

---

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين/ لمحمد الصادق بن إبراهيم عرجون ص٢١٥-٢١٧/ ط دار القلم: دمشق - الدار الشامية: بيروت.

وقد خدع بهذا النوع من الخرافات السخيفة قوم من أهل السلامة من المتصوفة، فذكروا منها الكثير وحسبوه تفسيراً، قال ابن الصلاح في الفتاوى: وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر رحمه الله تعالى أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير. فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر، قال ابن الصلاح: وأنا اقول الظن بمن يوثق به منهم أنه قال شيئاً من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيراً ولاذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة في القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ماورد به القرآن فإن النظير يذكر بالنظير، ومن ذلك قتال النفس في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس.

البحث الثالث

أثر الفلسفة الصوفية على مسيرة التفسير[1]

لانريد أن نعرج على ماينسب إلى بعض الصوفية من أقوال في تفسير القرآن يسودها الغموض والإبهام، وكثير من ظاهرها يشم منه رائحة الإلحاد والكفر الباطني الخبيث، وأكثر مايظهر ذلك في التفسير المنسوب إلى ابن عربي الحاتمي، والناس مختلفونَ أشد الاختلاف في نسبته إليه والمحققون على أنه أو الكثير منه مكذوب عليه، وقد قطع صاحب المنار بأن هذا التفسير من تأليف القاشاني الباطني.

ونكتفي بذكر مثل واحد من هذا التفسير المنسوب إلى ابن عربي في الفتوحات.

ولهذا الشيخ كلام في الفتوحات ـ وهو كتاب محقق النسبة إليه في جملته لافي تفصيله فقد قال الشعراني رحمه الله: إن فيه كثيراً مما دس على الشيخ، والله عليم بحقيقة حاله ـ يفسر به بعض الآيات تفسيراً يقلب قواعد الشريعة رأساً على عقب، والله تعالى لم يطلب من عباده إلغاء عقولهم ليصلوا إلى مقاصد من يرمي بالقول على حسب مايكنه في ضميره.

رفض المناهج المنحرفة في تفسير الصوفية:

وكيف يمكن فهم ما ينسب إلى الشيخ في الفتوحات تفسيراً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2]، تقول الفتوحات في تفسيرها: يامحمد إن الذين كفروا ستروا محبتهم فيّ، دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذي أرسلتك به أم لم تنذرهم، لايؤمنون بكلامك فإنهم لايعقلون غيري، وأنت تنذرهم بخلقي وهم ماعقلوه ولا شاهدوه وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعاً لغيري، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاماً في العالم إلا مني، وعلى

---

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص٢٢٠ - ٢٣٠/.

(٢) سورة البقرة الآيتان: ٦ -٧/.

أبصارهم غشاوة من بهائي عند مشاهدتي، فلايبصرون سواي ولهم عذاب عظيم عندي، أردهم بعد هذا المشهد السني إلى إنذارك وأحجبهم عني كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قرباً، أنزلتك إلى من يكذبك ويرد ماجئت إليه مني في وجهك... إلخ.

أفكان أبو جهل وحزبه من رؤوس الكفر الفاجر ممن يحبون الله محبة ستروها وكانوا مستغرقين في الله لايعقلون غيره ولا يفهمون عن رسوله، وكانت قلوبهم معمورة بالله فلم تتسع لغيره، ولايسمعون كلاماً إلا منه سبحانه، وعلى أبصارهم غشاوة من بهاء الله فلا يبصرون سواه؟!

هذا كلام يهدم الشريعة ويرد رسالات الرسل ويدعو إلى الكفر والإلحاد بصورة بشعة ونحن ننزه عامة المسلمين بله علمائهم عن صدور هذه الكفريات الإلحادية من أقلامهم وأقل درجات نشر هذا الكلام وأمثاله بين العامة والخاصة في سوء العواقب أنه فتنة للعقول وإفساد للقلوب، والحديث الذي يرويه البخاري عن علي رضي الله عنه وكرم وجهه يقول: حدثوا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله؟ هل هناك دعوة لتكذيب الله ورسوله من شر القول بأن أكفر الكافرين وألعن الملعونين مستغرقون في محبة الله لايعقلون غيره ولايسمعون إلا منه، ونحن نرد هذا الباطل الفاجر، ولانجزم بنسبته إلى شخص معين، والله تعالى هو المتولي لسرائر الناس بعلمه.

وهكذا صور لاتنتهي عند حصر، أتخم بها تفسير القرآن ووقف عندها ولم يتجاوزها إلى تفصيل هدايته العلمية ودلائله الفكرية وبراهينه الكونية، والهداية في القرآن هي أصل أصوله، ومعقد مقاصده، وأهم أغراضه، يجب أن تتوجه إليها العزائم، وتقصد إليها الهمم بأساليب تستجيب إلى نداء العلم والمعرفة في هذا العصر وفيما يستقبل من زمن الحياة والناس، بما لايخالف الأصول الإسلامية التي جاء بها القرآن الحكيم وبينتها السنة المطهرة وأجمعت عليها الأمة.

وقد عرض الإمام جلال الدين السيوطي صورة للألوان التفسيرية التي ظهرت في المؤلفات وكتب التفاسير واستغرقت حياة المسلمين إلى عصره في القرن التاسع الهجري فقال: ثم ألف في التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظاناً أن له أصلاً غير ملتفت إلى تحرير ماورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليه في التفسير، حتى رأيت

من حكى في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّين﴾، نحو عشرة أقوال، وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم، حتى قال ابن أبي حاتم: لاأعلم في ذلك اختلافاً بين المفسرين، ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه.

فالنحوي تراه ليس له هم إلا الإعراب، وتكثير الأوجه المحتملة فيه ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في البحر والنهر، والإخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفائها، والأخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبي.

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لاتعلق لها بالآية، والجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبي.

البحث الرابع

أثر العلوم العقلية على مسيرة التفسير[1]

وصاحب العلوم العقلية خصوصاً الإمام فخر الدين الرازي، فقد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج من شيء إلى شيء يقضي الناظر فيه العجب من عدم مطابقة المورد للآية. قال أبو حيان في البحر: جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لاحاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: تفسير الرازي فيه كل شيء إلا التفسير.

ونحن قبل أن نسترسل في نقل كلام السيوطي نقول لأبي حيان بشهادة السيوطي: رمتني بدائها وانسلت، لأن كثيراً مما ذكره الإمام الرازي مفيد جداً في موضعه، وهو أحد المفسرين القلائل الذين مسوا الآيات الكونية بالنظر بما كان عنده من معارف عصره، وقد يكون من الحق أنه أغرق وبالغ في الاستطراد في بعض المواضع، وأكثر من الحديث عن العرض والجوهر للاستدلال بحدوثها على وجود الخالق تفسيراً لبغض الآيات كما أكثر من اللجاج مع المعتزلة يثير شبههم ويرد عليها بعد أن يستفرغ جهده في تقرير مذهبهم وهذا مما عيب عليه، وأما أبو حيان فقد حشى كتابيه البحر والنهر بمسائل من النحو وتفريعاته وعلله لاحاجة لها مطلقاً في تفسير القرآن سوى أنها تشتت الفكر وتغطي معاني الآيات بغشاوة من الخلافات النحوية لاطائل تحتها.

ثم قال السيوطي: والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث إنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه، قال البلقيني: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش، من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، حيث قال: وأي فوز أعظم من دخول الجنة، أشار به إلى عدم الرؤية.

والملحد فلا تسأل عن كفره وإلحاده في آيات الله وافترائه على الله مالم يقله، كقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، ماعلى العباد أضر من ربهم، قال

---

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص٢٢٣-٢٣٠ط دار القلم دمشق.

صاحب كشف الظنون: وينسب هذا القول إلى صاحب قوت القلوب أبي طالب المكي.

وهنا جانب للتأمل يرينا كيف أن القرآن الكريم جُعل مصيدة للمذاهب والآراء، وتصيدها من ثنايا أقوال أصحابها مع خفائها، وليت الزمخشري أخلص كشافه للتفسير البياني على نهجه وطريقته في بيان البراعة البيانية التي يتجلى فيها أسلوب القرآن، وترك الجدل العقيم لمذهبه في الاعتزال.

وفي الحق أن جار الله كان بنهجه البياني إماماً من أئمة الفصاحة وجودة التعبير عن بلاغة القرآن حتى نأسى به كل من جاء بعده من صنعة التفسير، فكلهم وردوا حياضه، واستقَوا من كوثره، ونهلوا من منابعه، ودرجوا في مدارج البيان معتمدين على بيانه، يقتبسون ألفاظه وعباراته، ويحلون عرائس تفسيرهم بحلى تفسيره، ويزينون معاصم جملهم بأساور من إبريز جمله، ولكنها العصبية المذهبية دفعت به إلى أن يخلط هذه الروعة البيانية بما أصدأ مرآتها فجاءت صورته فيها كما قال الإمام ابن تيمية في المقدمة: ومن هؤلاء من يكون حسَن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه ولكن أكثر الناس لايعلمون كصاحب الكشاف ونحوه حتى يروج على خلق كثير ممن لايعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ماشاء الله، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم مايوافق أصولهم التي يعلم اويعتقد فسادها ولايهتدي لذلك.

مكانة تفسير الطبري بين التفاسير:

وتصوير السيوطي في عرضه للتفاسير المؤلفة منذ أول عصر التدوين والتأليف - لايستثنى منها سوى تفسير الطبري، لأنه أجلّ التفاسير وأعظمها، لأن صاحبه أبا جعفر تعرض فيه إلى جانب الإسناد عن الصحابة والتابعين لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض - يوجب أن نتساءل ماذا كان موقف السيوطي من هذا التصوير وهو من أكبر المفسرين في عصره وأكثرهم إنتاجاً في التأليف؟ هل استفاد من ذلك شيئاً تفادى به المؤاخذات التي أخذها على أولئك المفسرين من حشد المذاهب والآراء والعلوم ومسائلها مما يتصل أولا يتصل بتفسير القرآن؟.

سندع السيوطي نفسه يجيب عن هذا التساؤل، وهو يقول في ذلك: وقد شرعت في تفسير جامع لجميع مايحتاج إليه من التفاسير المنقولة والأقوال المقولة والاستنباطات والإشارات والأعاريب واللغات ومحاسن البدائع وغير ذلك بحيث

لايحتاج معه إلى غيره وسميته «مجمع البحرين ومطلع البدرين» وجعلت كتاب «الإتقان في علوم القرآن» مقدمة لهذا التفسير.

ترى هل صنع السيوطي رحمه الله شيئاً؟ نعم أفادنا أنه ألف دائرة معارف عربية إسلامية تجمع فنوناً من اللغة والأدب والعقائد والروايات الحديثية وأقوال العلماء ومذاهبهم في وجوه الإعراب واستباط الأحكام ونكت البلاغة ومحاسن البديع تحت عنوان تفسير القرآن.

ونحن وإن كنا لم يتح لنا أن نطلع على هذا الكتاب الذي لانسميه تفسيراً، ولكنا نصر على تسميته دائرة معارف إسلامية عربية إن كان قد وفى السيوطي بشرطه فيه، فليس ذلك من موجبات الأسف عندنا على فائت لاينال، لأن السيوطي رحمه الله دلنا في صدق وإخلاص على أصول كتابه، وهي مبثوثة في الكتب والمكاتب الإسلامية، فمن أرادها فهي منه على طرف الثمام كما يقول الأدباء.

وهذا اللون من دوائر المعارف من تفريعات الفنون كثير جداً في المكتبات العربية الإسلامية وكان للسيوطي فضل توجيهنا إلى فهم مااشتملت عليه كتب الطبقات والفهارس من وصف بعض الكتب بأنها تقع في عشرات المجلدات مما قد تجاوز المائة مجلد وبعضها المئات، وقد كنا نقرأ هذا الكلام فنقف منه موقف الحائر المتشكك، ولكن صنيع السيوطي كان مفتاحاً لفهمنا له على نحو مايأخذ به نفسه في تفسيره الجامع لأشتات العلوم والمعارف.

من ذلك ماذكره المقريزي أن الإمام أبا الحسن الأشعري ألف تفسيراً في سبعين مجلداً ويزعم ابن عربي أنه في خمسمائة مجلد، ويقول العسكري في «تبيين كذب المفتري» مبيناً منهج الإمام في هذا التفسير: إن أبا الحسن كتب كتاباً في التفسير يسمى «المختزن» لم يترك آية تعلق بها بدعي إلا أبطل تعلقه بها وجعلها حجة لأهل الحق.

ومن ذلك تفسير ابن النقيب المسمى بالتحرير والتحبير، قال في «كشف الظنون»: إنه في نيف وخمسين مجلداً، وقال بعض العلماء: إنه في مائة سفر.

ومن ذلك التفسير المنسوب إلى عبد السلام بن محمد بن يوسف القزويني المعتزلي تلميذ القاضي عبد الجبار، قال صاحب «كشف الظنون»: يقال إنه أزيد من ثلثمائة مجلد، وقال غيره: إنه في خمسمائة مجلد، ويقول عنه ابن النجار: حشد فيه من العجائب حتى رأيت منه مجلداً في آية واحدة، هي ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[1].

(١) سورة البقرة: الآية (١٠٢).

ومن ذلك ماذكره ـ بلديُّنا ـ كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الإدفوي في كتابه (الطالع السعيد) في ترجمة الإمام أبي بكر محمد بن علي المقرىء الإدفوي إذ يقول بعد أن نقل قول أبي الحسن القفطي في أن لأبي بكر الإدفوي تصانيف في التفسير والقراءة واللغة والنحو وغير ذلك، وأنا ـ صاحب الطالع ـ قد وقفت على كتابه المسمى بـ «الاستغنا» في التفسير في مجادات رأيت منها من نسخة عشرين مجلداً ويقال :أنه في مائة مجلد أو ما يقاربها ويقول صاحب كشف الظنون تفسير الإدنوي محمد بن أحمد المقري النحوي المتوفى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة المسمى (الاستغنا) في علم القرآن مائة وعشرون مجلداً صنفه في اثنتي عشرة سنة.

ومنهج السيوطي في كتابه«مجمع البحرين» يسهل علينا ماروي عن الإمام أبي جعفر الطبري أنه حينما أراد أن يملي تفسيره قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى فيه الأعمار قبل تمامه، فاختصره لهم في ثلاثة آلاف ورقة، فكان المختصر هو هذا التفسير الذي بين أيدي الناس، وهو ـ على ذلك ـ أضخم ماأخرجته المطبعة من كتب التفسير كما أنه أفخمها وأعلاها منزلة، يقول عنه الإمام ابن تيمية في المقدمة: إنه من أجلّ التفاسير وأعظمها قدراً. ويقول عنه الإمام النووي في التهذيب: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله. ويقول السيوطي: وكتابه أجلّ التفاسير وأعظمها، وإليه أرشد حيث يقول: فإن قلت: فأي التفاسير ترشد إليه، وتأمر الناظر بالتعويل عليه؟ قلت: تفسير الإمام أبي جعفر الطبري الذي أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف مثله في التفسير.

ويقول الإمام القاضي أبو بكر بن العربي المعافري المالكي في كتابه «أحكام القرآن»: من أجلّ من فسر القرآن الطبري شيخ الدين فجاء فيه بالعجب العجاب، ونثر فيه لباب الألباب وفتح فيه لكل من جاء بعده إلى معارفه الباب، فكل أحد غرف منه على قدر إنائه، ومانقصت قطرة من مائه.

يقول الإمام الطبري في خطبة كتابه العظيم: (فإن من جسيم ماخص الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة وحباهم به من الكرامة السنية، حفظه ماحفظ عليهم ـ جل ذكره وتقدست أسماؤه ـ من وحيه وتنزيله، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيهم ﷺ دلالة، وعلى ماخصه به من الكرامة علامة واضحة وحجة بالغة، أبانه به من كل كاذب ومفتر، وفصل به بينهم وبين كل جاحد وملحد، وفرق به بينهم وبين كل كافر ومشرك، الذي لو اجتمع جميع من بين أقطارها من جنّها وإنسها، وصغيرها وكبيرها على أن يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله ولو

كان بعضهم لبعض ظهيراً...) إلى أن يقول مبتهلاً إلى الله تعالى مبيناً لمنهجه بذكر رؤوس المسائل التي عول عليها في تفسيره: (اللهم فوفقنا لإصابة صواب القول من محكمه ومتشابهه، وحلاله وحرامه، وعامه وخاصه، ومجمله ومفسره، وناسخه ومنسوخه، وظاهره وباطنه، وتأويل آيه، وتفسير مشكله...) إلى أن يقول: (ونحن في شرح تأويله وبيان مافيه من معان ـ منشئون إن شاء الله ذلك ـ كتاباً مستوعباً لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعاً، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافياً، ومخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه منه، واختلافها فيما اختلفت فيه منه ومبينو علل كل مذهب من مذاهبهم، وموضحو الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ماأمكن من الإيجاز في ذلك وأخصر ماأمكن من الاختصار فيه).

ولنتصور مع أبي جعفر الطبري ـ رحمه الله ـ أن تفسيره الموجود بين أيدي العلماء هو أوجز ماأمكنه من الإيجاز، وأخصر ماأمكنه من الاختصار، وهو ـ على ذلك ـ عشر ماكان يزمع أن يمليه على أصحابه وتلاميذه في ثلاثين ألف ورقة، فماذا يكون الحال لو أن اصحابه نشطوا لقبول عرضه الأول، وأطلق أبو جعفر لقلمه العنان وأورد ماكان يريد أن يمليه؟.

وهل يمكن أن نتصور نوع البحوث والأفكار والمعاني التي كان تفسير أبي جعفر يبلغ بها عشرة أمثال ماهو بأيدي العلماء؟ والتي أعرض عنها الطبري رحمة بأصحابه؟ أكانت تلك البحوث مجرد روايات وأسانيد مختلفة الطرق للمعاني التي ذكرها في هذا التفسير الموجز بأمكن مايمكن من الإيجاز؟ أم كانت بحوثاً في معامي الآيات وتبيين هداية القرآن لإصابة صواب القول في فنون القرآن وعلومه التي ذكرها أبو جعفر في خطبته والتي طواها ولم يذكرها بأوسع وأعمق مما ذكره في هذا التفسير الذي هو أخصر ماأمكن من الاختصار؟

وفضل الطبري وغزارة علمه وإحاطته بثقافة عصره مع البصيرة النافذة لايبعد الاحتمال بأن الطبري كان عنده في خزائن تفكيره علوم ومعارف في هداية القرآن وفنونه احتسبها لنفسه، لأنه لم يجد من ينشط لحملها عنه وليته فعل؟

ومارأيناه في استكثار أبي جعفر في تفسيره الموجود من الروايات للمعنى الواحد بطرق مختلفة وأسانيد متعددة لايبعد الاحتمال بأن كثيراً مما اختزنه الطبري كان من نوع تلك الروايات والأسانيد المتعددة للمعنى الواحد في الأية من نوع ماذكره في مواضع من تفسيره وكان لها أكبر الأثر في تضخم الكتاب والصد عن دراسته تهيباً له واستطالة لما فيه من الأسانيد التي رغب الناس عنها اتكالاً على وجودها في كتبها الخاصة،

والطبري يذكر هذه الروايات تأييداً لرأيه وفهمه وتفكيره استقلالاً دون تقليد لأحد من المفسرين الذين سبقوه، لأن الطبري لاينازع أحد في إمامته وفضله وهو ـ على ذلك ـ يؤثر أن يؤثر عن السلف رأياً بموافقة رأيه ويتأيد به فهمه.

البحث الخامس

أثر منهج الإمام الرازي في التفسير(١)

وهناك منهج آخر غير منهج الطبري في تطويل كتب التفسير، تكثر به المسائل وتزدحم به المؤلفات دون أن يكون لها كبير صلة بتفسير آيات القرآن، وهذا المنهج ذكره الإمام فخر الدين الرازي في مقدمة تفسيره إذ يقول: اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة ـ الفاتحة ـ يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد وقوم من أهل الجهل والغي والعناد، وحملوا ذلك على ماألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني، فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على ماذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول، فنقول ـ وبالله التوفيق:

إن قولنا: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لاشك أن المراد منه الاستعاذة بالله من جميع المنهيات والمحظورات ولاشك أن المنهيات: إما أن تكون من باب الاعتقاد أو من باب أعمال الجوارح، أما الاعتقادات فقد جاء في الخبر المشهور قولهﷺ: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة: كلهم في النار إلاّ فرقة واحدة» وهذا يدل على أن الاثنتين والسبعين موصوفون بالعقائد الفاسدة، والمذاهب الباطلة، ثم إن ضلال كل واحدة من أولئك الفرق غير مختص بمسألة واحدة، بل هو حاصل في مسائل كثيرة من المباحث المتعلقة بذات الله تعالى وبصفاته، وبأحكامه، وبأفعاله، وبأسمائه، وبمسائل الجبر، والقدر، والتعديل والتجوير، والثواب والمعاد، والوعد والوعيد، والأسماء والأحكام والإمامة، فإذا وزعنا عدد الفرق الضالة ـ وهو الاثنتان والسبعون ـ على هذه المسائل الكثيرة بلغ العدد الحاصل مبلغاً عظيماً وكل ذلك أنواع الضلالات الحاصلة من فرق الأمة، وأيضاً فمن المشهور أن فرق الضلالات من الخارجين عن هذه الأمة يقربون من سبعمائة، فإذا ضمّت أنواع ضلالاتهم إلى أنواع الضلالات الموجودة في

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين/لمحمد الصادق عرجون ص٢٣٠ـ٢٣٣/ ط دار القلم.

فرق الأمة في جميع المسائل العقلية المتعلقة بالإلهيات والمتعلقة بأحكام الذوات والصفات، بلغ المجموع مبلغاً عظيماً في العدد، ولاشك أن قولنا (أعوذ بالله) يتناول الاستعاذة من جميع تلك الأنواع، والاستعاذة من الشيء لاتمكن إلاّ بعد معرفة المستعاذ منه، وإلاّ بعد معرفة كون ذلك الشيء باطلاً وقبيحاً فظهر بهذا الطريق أن قولنا (أعوذ بالله) مشتمل على الألوف من المسائل الحقيقية اليقينية.

وأما الأعمال الباطلة فهي عبارة عن كل ماورد النهي عنه: إما في القرآن، أو في الأخبار المتواترة، أو في أخبار الآحاد أو في إجماع الأمة أو في القياسات الصحيحة، ولاشك أن تلك المنهيات تزيد على الألوف، وقولنا (أعوذ بالله) فتناول لجمعها وجملها، فثبت بهذا الطريق أن قولنا(أعوذ بالله) مشتمل على عشرة آلاف مسألة أو أزيد أو أقل: من المسائل المهمة المعتبرة، اهـ.

وهذه طريقة عجيبة.ومنهج غريب في التوصل إلى تضخيم الكتب وتطويلها، تكشف لنا ماكان يسود بعض العصور من تنافس في استخراج المسائل واستنباط القضايا العلمية من العبارات التي لاتدل عليها ولاتقصد للدلالة عليها إلا من أبعد الاحتمالات التعسفية وفي غمار هذا التكديس والاستطراد في المناسبات والخروج من موضوع إلى موضوع آخر تضيع الإشارات العابرة التي قد تنبه على مواطن الهداية القرآنية في آيات القرآن العظيم.

وعلى ضوء هذا المنهج الذي اعتمد عليه الإمام الرازي في تفسيره نستطيع أن نفهم مسلك المفسرين العقليين الذين لن تصل إلينا كتبهم، ولكنا عرفنا سبيلها ومنهجها عن طريق الفهارس والطبقات التي تحدثت عن تلك الكتب حديث المعجب بكثرة مافيها من العلوم والآراء والمسائل التي طالت بها طولاً أخرجها عن منهج التفسير المبين لهداية القرآن، سواء أكانت تلك الكتب الموغلة في الطول لمؤلفين من أهل السنة كتفسير الإمام أبي الحسن الأشعري أم كانت من وضع المعتزلة كتفسير أبي يوسف القزويني تلميذ القاضي عبد الجبار شيخ المعتزلة في عصره.

وطريقة الإمام الرازي التي أراد أن يبرهن بها على أن فاتحة الكتاب تتضمن ألوف المسائل والفوائد طريقة أشبه ماتكون بالعمليات الحسابية لايهش لها العلم ولاسيما في تفسير القرآن الكريم الذي أنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وهي طريقة يمكن لكل عالم أو متعلم أراد أن يقتل فراغ وقته أن يعمد إليها ويجريها في كلام آحاد الناس، بله القرآن العظيم.

فلو قال قائل ـ على طريقة الرازي ـ: إن قولنا (الحمد لله) يمكن أن يستنبط منه

ألوف الألوف من المسائل والفوائد لما أبعد الشقة في طريق الإمكان، لأنه يستطيع أن يقول (الحمدلله) جملة اسمية تثبت الحمد لله على أكمل وجه، وهي أقوى في الدلالة على الإثبات من الجملة الفعلية، وهذا يقتضي بيان الجملة الاسمية وأركانها وبيان الجملة الفعلية وأركانها، ونوع فعليتها من جهة المضي والحضور والاستقبال إلى آخر مايمكن الاستطراد فيه من فن النحو والمعاني في الموازنة بين الجملتين في تقرير المعنى المراد وثبوته.

ثم يقول: لاشك أن الحمد إماأن يكون مطلقاً لمجرد التعبد والتقديس، وإما أن يكون مقيداً بنعمة، والنعمة إما أن تكون عامة أو خاصة ، النعمة العامة اما سماوية أو ارضية ، والخاصة إما أن تكون في خلق الإنسان وتكوينه مما امتن الله به على الإنسان. وإما أن تكون في وسائل حياته وعيشه، وهي إما مادية أو معنوية، والنعم العامة السماوية والأرضية لاتدخل تحت حصر، والنعم الخاصة مادية أو معنوية لايدخل حصرها في دائرة الإمكان.

فثبت بهذا التوليد أن قولنا (الحمد لله) يتضمن ألوف ألوف الألوف من المسائل والفوائد، بل يتضمن مالا يمكن حصره، أفيكون هذا الكلام علماً يفسر به القرآن؟!

البحث السادس

أثر منهج الإمام الألوسي في التفسير[1]

ولو أردنا أن نضرب مثلاً مشهوداً للناس على هذه التفاسير الجامعة التي وضع منهجها السيوطي كخلاصة لجمع الطرق التفسيرية التي سبقته لكان ذلك في آخر صورها التي وصلت إلينا عن عالم من علماء القرن الثالث عشر الهجري، كانت له مكانته العلمية في عصره، وله معارفه الواسعة التي تهيىء له الأسباب المساعدة لوضع تفسير القرآن الكريم على طريقته الجمعية الخاصة هو كتاب «روح المعاني» لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، وهو كتاب ضخم يشبه أن يكون صورة عريضة لمنهج السيوطي في كتابه.

ثم وقف الناس بعد الألوسي عن التأليف في التفسير، والمحاولات التي جاءت بعده لاتبلغ أن تسمى كتب تفسير للقرآن، وأمثل من حاول ذلك كان يقصر محاولته على تفسير سورة أو آية يجرد تفسيرها من جملة التفاسير التي تقع له، ويجعل ذلك كتاباً أو رسالة تحمل اسمه، حتى وصلت إلى الشرق الإسلامي أعلام النهضة العلمية قادمة من الغرب ترعد وتبرق وتنذر وتحذر وكان لابد أن يحس بعض أبناء الإسلام الذين أيقظتهم نذر هذه النهضة بحاجتهم إلى الأخذ منها بسبب، فأسرع إليها طلائع الرواد، ونظروا فيها فهالهم مارأوا من المذاهب المستحدَثة في العقائد والفلسفات ومارأوا من مذاهب في الاجتماع والاقتصاد، ومارأوا من نظريات مبتدعة في العلوم والمعارف ومارأوا في أنظمة الحكم من أوضاع مما لفت أنظارهم إلى تعرف موقف الإسلام من هذه المذاهب والآراء والنظم، والإسلام دستوره الخالد الذي يستمد بقاءه منه هو القرآن العظيم، فتساءلوا هل لدينا تفاسير للقرآن تسعفنا بما يجب أن نبني عليه مستقبل أمتنا في هذه الحياة الفوارة بكل جديد من العلم والمعرفة؟ فنظروا وأمعنوا في النظر، وبحثوا وشددوا في البحث فلم يجدوا على قرب منهم سوى هذه التفاسير الجمعية التي تجمع معارف العصور الماضية بغثها وسمينها، وحقها وباطلها مما عرفه تاريخ الإسلام في ظل اللغة العربية.

---

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال التفسير ص٢٤٠-٢٤٢/.

بيد أنهم وجدوا الهداية القرآنية في تلك التفاسير مبددة هنا وهناك مغمورة بين الروايات والأسانيد في التفاسير المأثورة عن العصر الأول، ووجدوها تائهة بين المذاهب والتفريعات في التفاسير الاجتهادية، واستخراجها من بين ركام الروايات والمذاهب يحتاج إلى جهد ومشقة وأعمار تفنى ولايبلغ منها ماتريد، ولكنهم وجدوا آيات القرآن تهيب بهم أنْ تقدَّموا إلى الحياة وخذوا حقكم من النهضات العلمية والتقدم العقلي، وتبوّؤا مكانكم في ميادينها فأنتم أهلها وأحق بها، وهذه النهضة منكم خرجت وإليكم يجب أن تعود.

وشمر فريق من العلماء النابهين واتجهوا إلى القرآن العظيم باعتباره الدستور الخالد للإسلام يتلونه حق تلاوته وينظرون فيه على ضوء ماوصل إليه اجتهادهم من الإلمام بشيء من هذه العلوم والمعرفة التي أيقظت عقولهم لها هذه النهضة، وفتح لهم القرآن الحكيم أبواب الفكر الحر على مصاريعها فولج منهم القليل إلى مداخل الحياة الفكرية معتصمين بهدى القرآن يستنبئونه عن تاريخهم من العزة والكرامة، وعن مكانهم من العلم والمعرفة، فجاءهم الجواب من آفاق وحيه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

بيد أن هذه الطليعة كانت متفاوتة التفكير والمعرفة بتاريخ الإسلام، وفهم أسلوب القرآن، والصبر على مرارة البحث، ومشقة استطلاع الحقائق، فمنهم من تعجل واندفع إلى أحضان النظريات الجديدة وآمن بها دون قيد أو شرط على أنها حقائق ثابتة لاتقبل الجدل، فراح يعتسف الطريق اعتسافاً، ليطبق هذه النظريات على تفسير القرآن ويخضعه لها ويحمله عليها حملاً لاترتضيه لغة العرب التي نزل بها القرآن المبين، ولايحتمله أسلوب القرآن، ولا يتفق مع جوه وروحه، ولا نعرف تفسيراً كاملاً جرى على هذا النهج المتعجل الجماع لكل ماوصل إليه من نظريات مستحدثة لم تستحكم طاقات فتلها سوى تفسير «الجواهر» للشيخ طنطاوي جوهري، وقد ذاع هذا التفسير وانتشر في بعض بلاد الشرق الإسلامي التي استيقظت من النوم حديثاً، وهي عطشى لاتزال تمسح رمص النوم من عينيها، وتتمطى على نفسها من طول ماعاشت تحت كابوس الكسل البليد، والجهل بتاريخ الإسلام وحقائقه العلمية والتشريعيّة، وما أدخله الغرباء المغتصبون معهم من نظريات علمية تخدمهم وتخدم استغلالهم، وتباعد هؤلاء الأصلاء في أوطانهم الإسلامية عن الإسلام وتاريخه وشرائعه فشغلت تلك البلاد بهذا التفسير، لأنها تخيلته في تصورها المنعكس عليها من حياتها الواقعية أنه هو التفسير لكتاب الإسلام ودستوره القرآن العظيم، وكان لها عذرها لأنها لم تجد من تفاسير الهداية

القرآنية مايروي غلتها، ويشبع نهمها، ويرضي رغائبها، ويقرب إليها معاني القرآن بأسلوب سهل ميسر رغيب.

البحث السابع

تفسير المنار وبيان منهجه ومايُؤخذ عليه[1]

أما تفسير المنار فهو من وضع الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار وتلميذ الأستاذ الشيخ محمد عبده[2]، ويمكن أن يكون فيه أفكار وآراء من أفكار الشيخ محمد عبده، استقاها السيد رشيد رضا من دروس أستاذه، وكان أخص تلاميذه به.

وقد صرح السيد رشيد بأنه بعد وفاة الإمام أنه استقل بالتفسير وأدخل عليه كثيراً من المسائل والبحوث، فقال: (وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنّة الصحيحة سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر أو يقوي حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس).

وقد أحس السيد رشيد رضا بأن تفسيره أصبح تفسيراً جمعياً كغيره من التفاسير الحاطبة في ليل أو نهار بما أدخله عليه بعد وفاة الإمام من الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد إليها حاجة المسلمين ـ كما يقول ـ، ولا تتصل بتفسير القرآن إلا كما يتصل فن النغم بفن النحو ولذلك نراه يعتذر عن هذه الاستطرادات إذ يقول: وأستحسن للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتداء به في نفسه، وفي النهوض بإصلاح أمته، وتجديد شباب ملته الذي هو المقصود بالذات منه.

وهو بهذا يكلف القارىء لتفسيره شططاً حتى يستطيع أن يفيد منه شيئاً من الهداية التي هي الهدف الأصيل من تفسير القرآن، على أن هذا الذي يستحسنه للقارىء قد

---

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص٢٤٣ـ٢٤٦/ .

(٢) انظر البحث الرابع من فصل أخطار المناهج المتحرفة في تفسير القرآن «نماذج من انحراف تفسير أصحاب المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن».

يمكن تحقيقه في فصول طوال متميزة بعنوانات خاصة، أما ماأدرج في التفسير من هذه الاستطرادات وهوكثير فلا يمكن تمييزه إلا بتمزيق الاتصالات البيانية في أسلوب التفسير، وبذلك يفوت على القارىء كثير من الفوائد والملابسات.

وتفسير المنار إلى جانب هذا المأخذ الذي اعترف به مؤلفه تظهر فيه العصبية المذهبية فهو شديد الحملة في مسائل فرعية على من يسميهم «المبتدعة» وهذه المسائل اختلف فيها العلماء، ويشتد صاحب المنار فيرفع النزاع فيها إلى درجة الإيمان والكفر، ولو أنه صرف همته إلى تعليم الجاهلين وهداية الضالين بالاقتصار على بيان هداية القرآن لكان في تفسيره خير كثير وقد أساء إلى تفسيره عند كثير من الناس تحمُّسُه الشديد لرأيه ومذهبه، مما رفع الثقة به عندهم فيما يقول أو يروي.

وصاحب المنار أقوم بعلم الحديث والسنّة دراية ورواية ـ وهو أصل أصيل في تفسير القرآن ـ من شيخه الذي يدل ماعرف من منهجه في التفسير أنه كان قليل الرعاية للسنّة وعلومها أو كان على مذهب من يَرون تفسير القرآن بمايرون من الرأي والاجتهاد في دائرة قواعد اللغة واطراح الأحاديث التي تعجز عقولهم عن فهمها ولو كانت صحيحة الإسناد.

البحث الثامن

تفسير المراغي وبيان منهجه مع مناقشة بعض تفسيراته[1]

ولقد كان أمثل من نهَج نهْج الأستاذالشيخ محمد عبده ـ في عمومه ـ هو الأستاذ الشيخ محمد المراغي شيخ الأزهر، في دروسه التفسيرية الرمضانية التي كان يلقيها ـ غالباً ـ في كل أسبوع من أسابيع شهر رمضان المعظم.

كان ـ رحمه الله ـ يختار لدروسه آيات من الكتاب الكريم، يفسرها بطريقة هادية مهدية يعرض إلى مفردات الكلمات في الآيات مبيناً معانيها اللغوية، ثم معانيها القرآنية، ثم يأخذ في بيان معنى الآية ملماً بما فيها من دلائل الهداية عارضاً لها في أسلوب رغيب مهذب العبارة نقي الجمل، وقد يعرض عرضاً خفيفاً لمسألة نحوية أو بلاغية حسب مايحتمله المقام.

وهي دروس أشبه بالمحاضرات العامة، لاتتعمق، ولاتستطرد إلا لحاجة ماسة تدعو إليها ضرورة بيان الحق والنصح للمسلمين «وكان ـ رحمه الله ـ شجاعاً في بيان الحق إذا عرض للبيان مناسبة صالحة لايُكره الآيات، ولايقسرها على استجلاب المعاني، ولكنه يعرض الرأي بعد بيان معنى الآية على أنه استنباط واضح من مدلولاتها التي تقصد من عامة مبادىء الهداية في القرآن، وكان يستهدف النصح في مواجهة من يملكون الإصلاح، أداء لواجب أمانة الحق والعلم.

وذلك كقوله وهو يفسر هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي، لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[2] : (من الناس فريق مؤمن بالقرآن إجمالاً وبرسالة محمد ﷺ ويعظمها ويجلهما، فإذا قلت له: لم لاتقطع يد السارق، وتحد القاذف؟ ولم لاتحكّم القرآن في الحياة ونحن مؤمنون به؟ هز كتفيه وابتسم أو زاد إنها رجعية لايحتملها تمدين العصر الحديث، أليس هذا

---

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص٢٤٦ـ٢٥١/ .
(٢) سورة لقمان/ آية٦/ .

استهزاء بالآيات واشتراء للباطل وضلالاً عن سبيل الله؟ هناك مقلدون للمذاهب في العقائد والأحكام إذا عرضت عليهم الآيات الدالة على فساد مذهبهم ولّوا عنها وإن كانوا لايسخرون بها بل يسخرون بمن يعرضها، أليس هذا شراء للباطل وبيعاً للحق بغير علم؟).

وكان رحمه الله - يرى تجنيب القرآن للهزات التي استحدثها العلم الحديث بنظرياته، فلا ينبغي في نظره أن ينهج مفسر القرآن منهجاً يحمّل آيات القرآن الدلالة على نظرية علمية لتكون هذه النظرية هي بيان المعنى المقصود من الآية وذلك إذ يقول تحت عنوان «غرور المسلمين بالعقل والفلسفة»: (وجد خلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية، ووجد مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاماً لاتزيد على هذيان المصاب بالحمى والنظريات التي لم تستقر لايصح أن يرد إليها كتاب الله».

ولكن يظهر أن الضعف البشري في جميع أفراد البشريّة قد جعله الله تعالى برهاناً على تفرده بالكمال المطلق.

فالأستاذ المراغي - رحمه الله - إذ يقرر هذا يقرر في تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[1]، أن الكتاب الكريم - القرآن - قرر أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها... وهذا الذي قرره الكتاب الكريم - القرآن - هو الذي دل عليه العلم، وقد قال العلماء: إن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعاً كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات. وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبها والأرض واحد من هذه السيارات، فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات، اهـ.

أما أن العلماء قالوا ذلك فلا حرج علينا أن ننظر فيما قالوا، بل يجب علينا أن ننظر فيه ونعلم علمه، ونعرف بقدر مانستطيع مصادر وموارد مايقوله العلماء.

وأما أن الكتاب الكريم - القرآن - قرر، هكذا بصيغة الجزم والإيمان فهذا ماكان ينبغي للأستاذ أن يتحرز من التصريح الجازم به، لأنه يناقض مبدأه في عدم تأويل القرآن

(١) سورة لقمان: الآية (١٠).

ليرجع إلى بعض النظريات العلمية.

ثم قد يتساءل قارىء هذا الكلام، أين قرر القرآن أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها؟ والمفروض أن المعنى «قرر» أنه نص على ذلك نصاً لايحتمل التأويل؟ وفي القرآن الحكيم آية واحدة هي التي يتشبث بها أصحاب هذه النظرية الانفصالية، تلك هي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوات وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] ، وهذه الآية قرأها المؤمنون من عهد رسول الله ﷺ وفهمها مَن فهمها قبل أن تظهر هذه النظرية الانفصالية ومن لم يفهمها لم يسكت على جهله ولكنه سأل أهل الذكر، وفسرها الحبر ابن عباس في رواية صحيحه النقل عنه. روى ابو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما؟ فقال له ابن عمر: اذهب إلى ابن عباس فاسأله، ثم تعال أخبرني، فذهب الرجل فسأل ابن عباس، فقال له ابن عباس: كانت السموات رتقاً لاتمطر، وكانت الأرض لاتنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: قد كنت أقول مايعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه أوتي علماً.

فما الذي يدعو إلى صحة هذا التفسير؟ ومالذي يدعو إلى استبعاد احتمال الآية له، إن لم يكن هو المعنى القريب الاحتمال؟ فلو أن الشيخ رحمه الله قرر أن أسلوب الآية صالح لفهم مايقرره العلم الصحيح، مع صلاحيته لفهم ماقرره أئمتنا في معنى الآية لكان ذلك أنسب بمقامه العلمي بين أئمة المسلمين، ولكان أنسب برأيه الذي قرره صراحة في تجنيب القرآن التأويل الذي يعرضه للهزات التي استحدثها العلم.

فالقرآن لم يقرر أبداً النظرية الانفصالية بين الشمس والأرض، ولكنه وهو في أفقه الأعلى من براعة البيان المعجز تحدث عن السموات والأرض في صدد بيان جلال القدرة الإلهية حديثاً صبه في إطار لايناقض علماً ثبت أو يثبت ثبوتاً لايخالبه ريب، ولاتتوارد عليه الشبه والشكوك، على أن المتتبع لحديث القرآن عن السموات والأرض يراه يذكر الأرض في مقابلة السمٰوات بصورة قد تدل بفحواها - إن لم يكن بظاهرها - على استقلال الأرض في خلقها كوكباً تعيش عليه الحياة الخاصة به بمن عليه وما عليه وما فيه من الموجودات، بل إن القرآن ينفسح لأكثر من هذه في دلالة ظاهرة على استقلال خلق الأرض عن السموات، فهو يقول في سورة «فصّلت»: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي

(١) سورة الأنبياء: الآية (٣٠).

خَلَقَ الأَرضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعَاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1].

فهذه الآيات الكريمة ظاهرة الدلالة على أن الأرض خلقت خلقاً مستقلاً عن السموات، وجعلت فيها الجبال الرواسي لحفظها أن تميد فتختل الحياة فوقها، وأن الله بارك فيها بما شاء من أنواع البركة في إعدادها وتهيئتها للحياة، وأنه قدر فيها أقواتها، وأنه سبحانه وتعالى حدد لذلك الخلق مع مايتبعه مما ذكر ربنا تبارك وتعالى أوقاتاً خاصة معينة عنده مقربة لعقولنا بما نعرف ونألف.

ثم ذكر ربنا تبارك وتعالى السموات ذكراً مستقلاً بحرف يفيد عند أهل اللغة الوجود المتراخي لتقريب مراتب الخلق لعقول الخلق التي لاتدرك إلا ما عرفت وما ألفت وما يصح قياسه على المعروف لها المألوف ـ وشأن الله أعظم من مدركات العقول ـ وأخبرنا أن السمٰوات كانت دخاناً فخوطبت ـ كما شاء رب العالمين في خطابه لأصناف خلقه ـ هي والأرض معاً، ثم ذكر أنه أحكم خلق السموات وأكملها سبعاً من العنصر الذي أخبر أنها كانت عليه وهو الدخان وأنه خص السماء الدنيا التي هي أقرب السموات في ترتيبها الذي اقتضته إرادته ومشيئته بزينة المصابيح من اللوامع، وجعل فيها شهباً لحفظها، ثم أثنى على نفسه بما هو أنسب صفاته وأسمائه بهذا المقام فقال جل شأنه: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وكلمة ﴿تَقْدِيرُ﴾ في هذا المقام لاتوجد كلمة تؤدي المقصود منها غيرها، والاسمان الكريمان ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ هما منبع الفيض بما اشتملت عليه الآيات من معان منزلة من خزائن القهر والجود.

على أنه لاذكر في القرآن الكريم للشمس باعتبارها السماء التي انفصلت عنها الأرض ـ كما يقول العلم في نظريته ـ بل المذكور السمٰوات بعنوانها ومفهومها الشرعي الذي لايفهم منه إرادة الشمس إلا بضرب متعسف من التأويل، والشمس في القرآن الكريم تذكر مقابلة للقمر وقرينة له باعتبارهما كوكبين مغايرين للسموات بمفهومها الشرعي.

---

(١) سورة فصلت: الآيات (٩ـ١٢).

فنظرية انفصال الأرض عن الشمس لم يقررها القرآن الحكيم، فلا تصلح تفسيراً لآياته على أنه هو المعنى الذي يتحتم في فهم تعبير البيان القرآني.

ولو أن الناظرين في هداية القرآن أمعنوا النظر في مقاصد هذه الهداية لوجدوا أن تفسير رتق السموات والأرض وفتقهما بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وتلقاه الأئمة بالرضا والقبول، أقرب إلى تحقيق تلك المقاصد، لأنه المعنى الذي يفهمه كل من يتجه إليه بنظر الحس والعقل من عامة الناس وخاصتهم.

وتفسير آية رتق السموات والأرض الانفصال الشمسي التي قال بها العلم المستحدث بعيد عن مقاصد الهداية القرآنية، لايفهمه من أسلوب البيان القرآني إلا من قصده متأوّلاً، ولايفهمه علمياً إلا أخص الخاصة من العلماء الكونيين، والقرآن لم ينزل بهدايته لهؤلاء العلمانيين وحدهم، وإنما نزل لهداية كافة البشرية على مستويات عقولهم وثقافاتهم.

وقد استكمل الأستاذ الشيخ المراغي تفسير بعض السور، كسورة لقمان، وسورة الحجرات، وسورة الحديد، وسورة العصر، وفسر آيات متفرقات من سور متعددة، وكان من غير شك بعيد النظر فيما حاضر به عند إرادة إخراجه للناس كتباً ورسائل مطبوعة لتقرأ على مكث وتدبر فهي مأمونة الجانب أن تنالها السرعة فالآراء التي فيها محسوبة في مذهب الأستاذ في فهم القرآن الحكيم.

ولو أتيح للأستاذ الشيخ المراغي تفسير القرآن العظيم كله تفسيراً كاملاً على نهجه الذي سلكه لكان للناس اليوم منه تفسير يرضي الكثير من رغائبهم ويسد مكاناً من الفراغ الذي يشعر به المسلمون نحو تفسير كتابهم الكريم ودستور هدايتهم القرآن العظيم.

البحث التاسع

مناقشة علمية لتفسير الشيخ محمد عبده لسورة «الفيل»(١)

ولقد كان الأستاذ الشيخ محمد عبده حذراً في لباقة عندما عرض لمثل هذا التأويل العلمي في بعض آيات القرآن فنراه في تفسير سورة «الفيل» يجمل معنى آياتها في عبارة موجزة تصور ما في السورة من هداية وعظة، ثم يقول: وكان يمكننا أن نكتفي بذلك المعنى من الآيات، ولانزيد عليه أدنى تفصيل، وهو كاف في الاعتبار والعظة. وليته فعل وسكت عند هذا، ولكنه تابع الكلام، وذكر ماقال إنه تواتر من الواقعة إلى أن قال: وفي اليوم الثاني أي لخروج أهل مكة فزعين إلى شعف الجبال بعد مابلغهم خبر جيش الفيل، فشا في جند الحبشي داء الجدري والحصبة وذكر رواية عكرمة في قوله: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب، ثم ذكر قول يعقوب بن عتبة إن أول مارؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام.

ثم عقب على ذلك بقوله: هذا مااتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به، وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري، أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح. فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض... وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جند الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن (بالمكروب) لايخرج عنها، اهـ ملخصاً.

وحديث الجدري والحصبة في هذا المقام حديث مقحم متهافت، ماكان ينبغي أن يعول عليه مثل الشيخ في تفسير القرآن الحكيم في سورة يبدؤها الله بصيغة التعجيب والتعظيم لصنعه بماأنزله بهؤلاء الطغاة الجبابرة تقدمة لمبعث نبيه ﷺ.

---

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين / لمحمد الصادق عرجون / ص٢٥١ ـ ٢٥٧ / ط دار القلم: دمشق ـ الدار الشامية: بيروت/.

وقد عرض بيان تهافت هذا الرأي ابن الأثير في تاريخه الكامل فقال: وقال كثير من أهل السير: إن الحصبة والجدري مارؤيا في العرب بعد الفيل، وهذا مما لاينبغي أن يعرج عليه... فإن هذه الأمراض... قبل الفيل مذ خلق الله العالم.

وقول الشيخ بعد أن ذكر حديث الجدري والحصبة: هذا ماانفقت عليه الروايات غريب في باب العلم، وعجيب في تفسير القرآن، لأن الروايات لم تتفق على هذا، بل ذكرت بعض الروايات أن هذه الطير كانت أشبه ماتكون بالطير المسمى بالخطاف، وهو طائر من طيور الليل، وبعض الروايات ذكر أنها أشبه بالوطاويط، وبعضها ذكر أشبه باليعاسيب، وهي ذكور النحل وأمراؤها، وقد أقبلت من جهة البحر في جماعات إثر جماعات، تحمل في مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة في حجم الحمصة، أو حصى كحصى الخذف، فألقتها على الجيش الظالم فتساقط هلاكاً وفناء، فأي محال يترتب على تجويز ذلك، وبه تبقى السورة على ظاهرها، ويبقى الحادث على وضعه الإعجازي إرهاصاً للنبوة الخاتمة؟ وقد قال الحافظ ابن كثير في تفسيره بعد ذكر بعض الروايات: وهذه أسانيد صحيحة.

أو ليس هذا أقرب إلى الأسلوب العربي من حديث الجدري والحصبة والذباب والبعوض والمكروب؟ وهل في عرف اللغة العربية واستعمالاتها إطلاق لفظ (الطير) على الحيوان المسمى بـ «المكروب» وهل كان القوم المخاطبون في وقت المواجهة بالخطاب التعجيبي الذي افتتحت به السورة يعلمون شيئاً عن هذا الحيوان المسمى بـ «المكروب».

وقول الشيخ: وقد بينت السورة الكريمة أن ذلك الجدري وتلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة، إغراق في الغربة عن العلم، وإيغال في العجب أن يكون في تفسير القرآن، وأين تعرضت السورة الكريمة لذكر الجدري والحصبة، بله بينت إنهما من حجارة يابسة، والسورة بين دفتي المصحف كاملة، كما أنزلت يتلوها الناس، ويقرؤها القرأة من حفظة القرآن وليس فيها إشارة من بعيد أو قريب إلى الجدري والحصبة.

وقد فرع الشيخ على مافرضه واقعاً من حديث الجدري والحصبة أنه يجوز لمن يريد فهم معاني القرآن ليؤمن بها أن يعتقد أن هذا الطير الذي أرسله الله على أصحاب الفيل من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم الأمراض، وأن هذا الحيوان الذي يسمى بـ «المكروب» من هذه الطير.

أليس هذا تحميلاً لآيات القرآن فوق طاقة أساليب العربية، وفوق طاقة أفهام من

نزل القرآن لتعجيبهم من شأن هذه الحادثة المبدعة إرهاصاً لمقدم بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ؟

لقد كان حديث الجدري والحصبة على تهافته أيسر أمراً من حديث «المكروب» وأنه من الطير الذي أرسله الله على جيش الفيل، وهو ضرب من التعسف في التأويل المتملق لنظريات العلم المستحدثة، وهو مذهب لكثير من المجددين في تفسير القرآن، والمتسورين على تبيين مفاهيم الإسلام الذين يرفضون قبول الخوارق المادية، سواء أكانت إرهاصاً قبل النبوة أو معجزات بعد الرسالة.

والأستاذ الشيخ محمد عبده يسلك هذه الطريقة التي تبدأ ببيان الهداية القرآنية في الآيات بياناً لايستطرد ولايتعسف التأويل، ثم يبدو له أن يتولج إلى مداخل التأويل الذي يبعده عن اختياره لمذهب السلف، ولكنه لايبقى به مع الخلف في الوصول إلى نتائج مذهبهم.

ويستبين ذلك بصورة واضحة في تفسيره ـ الذي نلخصه من تفسير تلميذه صاحب المنار، وقد أسنده إليه صراحة ـ لآيات قصة آدم، وجعله خليفة، وحوار الملائكة في هذه القصة، وأمرهم بالسجود لآدم، وإباء إبليس عن ذلك الأمر الإلهي استكباراً وعتواً.

فبعد أن ذكر الشيخ مذهب السلف والخلف في المتشابهات، وذكر أن آيات هذه القصة منها، ولايمكن حملها على ظاهرها، وصرح بأنه على مذهب السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بصفات الله تعالى وعالم الغيب، ذكر رأي السلف والخلف في حقيقة الملائكة بعبارة مبسوطة وافية. . إلى أن قال: الملائكة خلق غيبي، لانعرف حقيقته، وإنما نؤمن بإخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه، والقرآن ناطق بأن الملائكة أصناف، لكل صنف وظيفة وعمل، وأن إلهام الخير والوسوسة بالشر قد أسند إلى هذه العوالم الغيبية، وخواطر الخير التي تسمى إلهاماً وخواطر الشر التي تسمى وسوسة كل منهما محله الروح، فالملائكة والشياطين إذن أرواح تتصل بأرواح الناس.

وهذا ـ لو وقف عنده الشيخ ـ كان كافياً في بيان الهداية القرآنية التي تفسر الآيات في هذه القصة في ظلها، لكن الشيخ تابع السير، فقال: وذهب بعض المفسرين مذهباً آخر في فهم معنى الملائكة، وهو أن مجموع ماورد في الملائكة في كونهم موكلين بالأعمال من إنماء ونبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص

نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان، فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده فإنما قوامه بروح إلهي، سمي في لسان الشرع ملكاً، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية إذا كان لايعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة...

إلى أن يقول الشيخ: فإذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لايتعداه ولايتعدى ماحدد له من الأثر الذي خص به، خلق الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستعداً للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض. وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد الذي لاحد له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه، لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس، وهي القوة التي لزها الله بهذا العالم لزاً، وهي التي تميل بالمستعد للكمال أو بالكامل إلى النقص، وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم... ثم قال الشيخ: ولو أن نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين مايمنعها من ذلك.

وقد أحس صاحب تفسير المنار بما في هذا الكلام من غموض وإبهام وعدول عن سنن السلف الذي اختاره الشيخ مذهباً له في المتشابه من الآيات وجعل منه آيات هذه القصة فأراد أن يعتذر عن الشيخ ويذكر سبباً لذلك، وساق كلاماً قال: إن الشيخ كتبه بنصه وحروفه، وهو كلام يزيد الغموض غموضاً والإبهام إبهاماً، وقد عقب عليه بقوله: هذا ماكتبه شيخنا في توضيح كلامه في تقريب مايفهمه علماء الكائنات من لفظ القوى إلى مايفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة، ولا يفقهه من هؤلاء إلا من له إلمام بما يقوله أولئك في القوى، وإسناد كل أحداث الكائنات وتطوراتها إليها مع اعترافهم بجهل كنهها... إلخ.

ونحن نتساءل: هل كان العرب الذين نزل القرآن بلسانهم يفهمون من أسلوبه وعباراته هذه المعاني التي ذهب إليها الشيخ في كلامه؟ وهل كان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون هذا العلم ونشروه على الناس في تبليغهم رسالة نبيهم ﷺ؟ أو كانوا يعلمونه وكتموه عنهم؟ أو كانوا لايعلمونه ولا تلقوه من رسول الله ﷺ في بيانه للقرآن الكريم؟ وهل هذا الكلام يتفق مع ما ورد في السنّة الصحيحة من شأن الملائكة، وشأن

آدم وقصته مع إبليس وشأن إبليس وذريته؟

إن الباطنية المحرفين لكلمات الله عن مواضعها لم يدخلوا إلى تأويلاتهم إلا من هذا الباب الذي يجعل من كل كلام يتعاصى فهمه على بعض العقول تمثيلاً وحقيقة له، وإيماء إلى معان أدق من ظاهر العبارات.

وهل تسور المتحمسون لنظريات العلم المستحدثة في هذا العصر على آيات القرآن يحرفونها عن مقاصد الهداية إلى تحميلها مقاصد معان تخضعها لتطبيق تلك النظريات التي لاتزال في مهب الرياح إلا من طريق التعسف في التأويل؟

إن هذا القرآن العظيم أنزله الله تعالى على خاتم أنبيائه محمد ﷺ بلسان عربي مبين هدى للناس وبينات ورحمة، ولم ينزل بالإشارات والرموز، والإيحاء، وأنزل فيه ـ كما أخبر الله تعالى ـ آيات محكمات هن معظمه وجماعه كما قال الطبري: أُحكِمت بالبيان والتفصيل، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ماجعلن أدلة عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعبر.

كما أنزل فيه آيات متشابهات، وهي كل مالا حاجة إلى العباد بمعرفته، لأنه مما استأثر الله بعلم حقيقته ووقته، وإنما أنزله الله امتحاناً لعبودية خلقه، وتمييزاً لأهل المعرفة بجلال الله الذين يسلمون وجوههم لله تعالى لائذين بساحة الإيمان يقولون معبرين عن تسليمهم: آمنا بالمحكم والمتشابه كل من عند ربنا، نعلم ماعلمنا ونقف على سدة الأدب رادين علم مالم نعلم إلى علّام الغيوب.

وإظهاراً لحقيقة من في قلوبهم زيغ وانحراف عن هداية القرآن الذين يتبعون مالا حاجة إليهم بمعرفته ليلبسوا على المؤمنين دينهم تضليلاً لهم وميلاً بهم عن مهيع الحق إلى طرائق الفتنة والتشكيك.

قال الطبري: إن جميع ماأنزل الله عز وجل من آي القرآن على رسوله ﷺ فإنما أنزله عليه بياناً له ولأمته وهدى للعالمين، وغير جائز أن يكون فيه مالا حاجة بهم إليه، ولا أن يكون فيه مابهم إليه الحاجة ثم لايكون لهم إلى علم تأويله سبيل.

البحث العاشر

الإعجاز العلمي ودلالته في تفسير القرآن الكريم[(١)]

ولا نقصد بالفهم العلمي ما ذهب إليه بعض القدامى من المفسرين، كالذي يحكيه السيوطي في كتابه «الإتقان» عن أبي الفضل المرسي في تفسيره إذ يقول: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين... وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل: الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة، إلى أن يقول: وفيه - أي القرآن - أصول الصنائع، وأسماء الآلات... كالخياطة.. والحدادة.. والنجارة.. والغزل.. والنسج.. والفلاحة.. والصيد.. والغوص.. والصياغة.. والزجاجة.. والفخارة.. والملاحة.. والكتابة.. والخبز.. والطبخ.. والقصارة.. والجزارة.. والبيع والشراء.. والصبغ.. والحجارة.. والكيالة.. والوزن.. والرمي.. وفيه من أسماء الآلات ضروب والمأكولات والمشروبات.. وجميع ماوقع ويقع في الكائنات مايحقق معنى قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وهذا منهج في التفسير غريب جداً عن مقصد القرآن وهدايته، لأن هذه العلوم والفنون، والصنائع والآلات التي عرض لذكرها هذا المفسر وجعلها من العلوم التي احتواها القرآن، لم يكن المقصود من ورودها في القرآن وروداً عابراً اقتضاه المقام في ذكر قصة أو عظة وعبرة، أو الإشارة إليها في آيات القرآن، أنها علوم ومعارف وفنون أنزل القرآن بمسائلها وقضاياها وموضوعاتها لتبحث في تفسيره كما تبحث في مصانعها ومعاملها بآلاتها ووسائلها التجريبية الخاصة، لأن ذلك مما لاينبغي أن يكون مما يعرض له القرآن، لأن القرآن لم ينزله الله كتاب فن وصناعة وإنما أنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

وقد سلك نحو هذا المسلك في الإشارة إلى جمع القرآن للعلوم مع اختلاف

---

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين / لمحمد الصادق عرجون ص٢٦٥ - ٢٧٤ / ط دار القلم: دمشق - الدار الشامية: بيروت.

الأسلوب الإمام أبو حامد الغزالي، فذكر في كتابه «إحياء العلوم» أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم، ومائتي علم، ثم فصل في كتاب «جواهر القرآن» ماأجمله في «الإحياء» فذكر من العلوم التي احتواها القرآن: علم الطب، والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات... ثم ذكر بعض الآيات التي تشير إلى بعض الحقائق الكونية في صدد الاستدلال على عظمة ملك الله وباهر قدرته وبالغ حكمته، وبيّن أن فهمها، وبيان ما فيها من دلالة على مقصودها لايقوم به إلا من فهم العلم الذي تشير إليه، فذكر الشفاء والمرض في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وقال: فهذا الفعل الواحد لايعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لامعنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه، ثم قال: ومن معرفة الله تعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِيْنَ وَالْحِسَابَ﴾، وقال: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، وقال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ﴾، وقال: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيْزِ الْعَلِيْمِ﴾. ولايعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما، وولوج الليل في النهار، وكيفية تكرر أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه، ولايعرف كمال معنى قوله: ﴿يَاأَيُّها الإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيْمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَك فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّاشَاءَ رَكَّبَكَ﴾، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً، وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها.

وهذا المسلك إذا نظر إليه في ضوء الهداية القرآنية ـ التي تستهدف بيان مقاصد القرآن في الكشف عن الحقائق الكونية لتتبين دلالتها على عظمة خالقها ووحدانيته، وباهر قدرته، وبالغ حكمته، ومحكم تدبيره لملكوته ـ كان مسلكاً علمياً صحيحاً في تفسير القرآن، على معنى أن من يتعرض لتفسير القرآن يجب أن يكون متضلعاً من العلوم الشرعية أصولاً وفروعاً، ومن الفنون العربية بجميع ضروبها المختلفة، وأن يكون متشبعاً من العلوم الكونية، ملماً بحقائقها، ليستطيع في ظلها وظل العلوم الشرعية والعربية أن يتبين معالم الهداية القرآنية في إقامة الحجة على مقاصد القرآن، فسبيل هذه العلوم الكونية في تفسير القرآن سبيل غيرها من الوسائل التي تساعد على فهم النص القرآني فهماً يحقق الغرض منه.

وليس سبيلها أن تكون بنظرياتها تفسيراً للقرآن، ولا أن تكون مما يُعتقَد أن القرآن

قصد إليها في آياته لتحمل عليها في تفسيرها، وهذا هو مايظهر أنه مقصود الإمام الغزالي كما يدل عليه قوله تعقيباً على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وهذا لايعرفه إلا من عرف الطب بكماله، وهكذا في تعقيباته على سائر ماساقه من الآيات الكونية.

وقد جاء بعد الغزالي الإمام فخر الدين الرازي فحاول أن يطبق هذا المنهج العلمي في تفسيره، غير أنه بالغ في الإيمان بنظريات العلم الكوني الذي عرفه العقل البشري في عصره مبالغة طمست معالم الهداية القرآنية، وصرفت الآيات عن مقاصدها في الهواية إلى التوغل في بحوث علمية جافة، ونظريات فلسفية معقدة.

فأنت تراه في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ يذكر كلاماً، يؤمن به ويعتقده، في الدلالة على كون الأرض فراشاً للخلق لاتسلمه له النظريات المستحدثة، فهذه النظريات انتهت إلى بداهة أن الأرض متحركة بدورانها حول الشمس، فهو يقول: اعلم أن كون الأرض فراشاً مشروط بأمور، الشرط الأول كونها ساكنة، وذلك لأنها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو بالاستدارة، فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشاً لنا على الإطلاق، لأن من طفر من موضع عالٍ كان يجب أن لايصل إلى الأرض، لأن الأرض هاوية، وذلك الإنسان هاوٍ، والأرض أثقل من الإنسان، والثقيلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما والأبطأ لايلحق الأسرع، فكان يجب أن لايصل الإنسان إلى الأرض، فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشاً.

أما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يكتمل انتفاعنا بها، لأن حركة الأرض مثلاً إذا كانت إلى المشرق، والإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب، ولاشك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى الإنسان على مكانه وأنه لايمكنه الوصول إلى حيث يريد، فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة لا بالاستقامة ولا بالاستدارة فهي ساكنة.

ثم ذهب يذكر سبب هذا السكون الذي زعم أنه قد تم له البرهنة عليه فأطال رشاء القول، وذهب فيه كل مذهب إلا مذهب الإبانة عن هداية القرآن في آيات الله الكونية.

ثم عاد الرازي إلى منهجه وأسلوبه في تطبيق النظريات العلمية في عصره على تفسير آيات القرآن فكتب في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾، نحو خمس وعشرين

صفحة من الحجم الكبير في فصول، الأول منها (في ترتيب الأفلاك) والثاني (في معرفة الأفلاك) والثالث (في مقادير الحركات) والرابع (في كيفية الاستدلال بهذه الأحوال على وجود الصانع) وهذه الفصول في أحوال السموات فقط، وقد ذكر أنه كتب ذلك في الوجه المختصر الذي يليق بهذا الموضع، ثم رجع إلى الأرض وذكر في أحوالها فصلاً وفي بيان دلالة هذه الأحوال على وجود الصانع فصلاً آخر. وهكذا أتخم الرازي كتابه بنظريات العلم الذي ملأ عصره وجعل هذه النظريات تفسيراً لكتاب الله تعالى، وقد نقض العلم نفسه تلك النظريات بنظريات أخرى قد ينقضها في المستقبل القريب أو البعيد.

هذا المنزع الذي نزع به طائفة من العلماء في تفسير القرآن بإدخال نظريات العلم التي هي نتاج تفكير بشري على مناهج التفسير، وتحكيم تلك النظريات في معاني القرآن حمل طائفة من العلماء القدامى والمحدثين على الوقوف في مقابلة أولئك، زاعمين أنه لاينبغي مطلقاً أن تدخل نظريات العلم ساحة تفسير القرآن بل لاينبغي أن يستعان بشيء من هذه النظريات على تبيين معاني القرآن.

وأظهر من يمثل هذا الطرف الإمام الشاطبي صاحب كتاب «الموافقات» فإنه رحمه الله ذهب مذهباً عجيباً لايلائم منصبه في العلم وحرية التفكير، ونباهة الذكر، يذهب الإمام الشاطبي إلى أن شريعة الإسلام شريعة أمية، لأن أهلها كذلك، وهذا أجرى وأوفق باعتبار المصالح التي يقصدها الشارع من التشريع. ثم راح «الشاطبي» يسوق الأدلة من الكتاب والسنّة على مازعمه من أن الشريعة الإسلامية شريعة أمية، لاتقوم على العلم بأوسع معانيه، ولا على التفكير العقلي بأبلغ مراميه، وساق الآيات والأحاديث التي جاءت لإثبات أمية النبي ﷺ تحقيقاً لمعجزة القرآن الكريم وإظهاراً لدلالته على صدق رسالة من أرسل به محمد خاتم النبيين، والتي جاءت للتنبيه على واقع الأمة العربية في أنها أمة أمية لم تكن تعرف العلم بالتعلم والمدارسة والكتابة والقراءة، وأنها اختبرت على وصفها هذا الحمل أعظم رسالة سماوية تؤاخي العقل وتظاهر العلم، وتحمل أمانة خلافة الله في الأرض بإقامة معالم التفكير الإنساني ودفع العقل إلى مجالات الفتوحات العلمية في ميادين الوجود السماوية والأرضية، وذلك أثبت في إثبات معجزة القرآن وشريعته.

وموقف الشاطبي في هذه القضية متهافت لايقوم على دعائم من الأصول القوية التي تسنده، إذ لادخل أبداً لأمية النبي ﷺ التي فسرها العلماء بأنه ﷺ كان لايكتب ولايقرأ، وأنه لم يجلس إلى العلماء لمدارسة العلم عن الكتب والصحف، كما يشير إلى ذلك ماساقه الشاطبي نفسه في أدلته من نحو قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ

النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[2].

ويسوق الشاطبي دليلاً عقلياً على مُدّعاه، وهذا الدليل عند التأمل عليه لا له، فيقول: إن الشريعة التي بعث بها النبي الأميّ ﷺ إلى العرب خصوصاً وإلى من سواهم عموماً إما أن تكون على نسبة ماهم عليه من وصف الأمية أو لاتكون كذلك، فإن كانت على نسبة ماهم عليه من الأمية فهو معنى كونها شريعة أمية، أي منسوبة إلى الأميين، وإن لم تكن على نسبة ماهم عليه من الأمية لزم أن تكون على غير ماعهدوا، فلم تكن لتنزل من أنفسهم منزلة ماتعهد، وذلك خلاف ماوضع عليه الأمر فيها، فلابد أن تكون على مايعهدون، والعرب لم تعهد إلا ماوصفها الله من الأمية فالشريعة إذاً أمية.

ونحن حين نناقش هذا الدليل نعكسه على الشيخ الإمام الشاطبي، فنقول: إن الشريعة التي بعث بها النبي ﷺ إلى الناس كافة، وفيهم العرب الأميون إماأن تكون على نسبة ماكان وتكون عليه عامة الإنسانية كلها في أممها وشعوبها من العلم والمعرفة الحاصلة والمتجددة إلى يوم القيامة أو لاتكون كذلك، فإن كانت على نسبة ماعليه الإنسانية المبعوث إليها رسول الله ﷺ من حصائل الفكر الإنساني في العلم والمعرفة، ومايكون لها في مستقبل حياتها من التفكير العلمي المستكشف لحقائق الكون وأسرار الطبيعة وذلك هو معنى كونها شريعة علمية أي منسوبة إلى العلم والمعرفة، على معنى أن كتابها الذي هو دستورها الأعظم فتح للعقل الإنساني مجالات البحث والتفكير، وحث على العلم والمعرفة بمالم يبلغه كتاب سواه.

وإن لم تكن شريعة الإسلام على نسبة ماعليه الإنسانية ومايكون لها في مستقبل حياتها من العلم والمعرفة لزم أن تكون هذه الشريعة على غير ماتعهد الإنسانية وماتعرف من تاريخها العلمي وأطوارها الفكرية في المعرفة، فلم تكن لتنزل من أنفس الأمم والشعوب العالمة التي تعنى بالمعرفة وحصيلة الفكر الإنساني المتجددة منزلة ماعهدوا، وذلك خلاف ماجاءت به الشريعة ووضع عليه أمرها، فلابد أن تكون على ماتعهد الإنسانية وتعرف من واقعها وتاريخها العلمي، فالشريعة إذاً علمِيَة، لاتقف أبداً دون البحث العلمي، ولاتأبى أن تؤاخي العلم والمعرفة، وهي بهذا تنافي الأمية في طبيعتها

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٨).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٤٨).

وحقيقتها، وأمية نبيها ﷺ مفخرة لها ومعجزة لنبيها وكتابها، وأمية العرب واقع تاريخي تحدث عنه النبي ﷺ في صدد بيان حكم الشرعي يتعلق بعامة من كان في عصره مؤمناً برسالته، وهم جمهور العرب الذين كانوا أميين لايقرؤون ولايحسبون، ولم يكن الإسلام قد امتد إلى الأمم التي تقرأ وتحسب، وهي بلا شك لو وصلت إليها الدعوة لم يُحكم عليها بالأمية التي هي واقع العرب في وقت نزول الشريعة، والأحكام الشرعية تناط بأعم الوسائل المحققة عند كافة الخلق، لأن التشريع للكافة لا للخاصة.

ثم ذكر الإمام الشاطبي دليلاً آخر على أن القرآن نزل على مايعهد العرب فقال: لو لم يكن ـ القرآن ـ على مايعهدون لم يكن عندهم معجزاً، ولكانوا يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم: هذا على غير ماعهدنا إذ ليس بمفهوم ولا معروف فلم تقم الحجة عليهم به ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ فجعل الحجة على فرض كون القرآن أعجمياً، ولما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ رد الله عليهم بقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ لكنهم أذعنوا لظهور الحجة، فدل ذلك لعلمهم به وعهدهم بمثله مع العجز عن مماثلته.

وهذا الدليلُ أيضاً يُعكَس على الإمام الشاطبي، فلقائل أن يقول: لو لم يكن القرآن في هدايته العامة الشاملة لجميع مايقوم بحاجة الإنسانية الفكرية والاجتماعية قياماً عاماً باقياً ببقاء رسالته على الأرض على ماتعهد الإنسانية كلها باعتبارها مدعوة للإيمان برسالة القرآن من العلم والمعرفة الشاملين لجميع فنونهما لم يكن عندهم معجزاً، ولكان كثير من الأمم والشعوب يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم: هذا القرآن على غير ماعهدنا ونعهد، فأسلوبه وألفاظه وعباراته ليست من أسلوبنا وألفاظنا وعباراتنا، فليس لنا بأسلوبه وألفاظه وعباراته عهد ولا معرفة، ومعانيه وأفكاره قاصرة على مايعهد الأميون من المعاني والأفكار المعهودة لهم، وليس فيه مما نعهد من المعاني الفكرية والأفكار العلمية شيء، فلا تلزمنا الحجة به.

وماساقه الإمام الشاطبي من الآيات خاص بأسلوب القرآن وعباراته وألفاظه، والمراد بها الاحتجاج على العرب بأن التحدي وقع بكتاب عربي مبين، فلو نزل بأسلوب وعبارات غير عربية لقالوا دفعاً لحجيته عليهم: لولا أنزل بلساننا وعباراتنا، فإذعانهم لحجيته إنما كان باعتبار الأسلوب والألفاظ والعبارة، لا باعتبار معانيه وفنون هدايته وأفكاره وعلومه ومعارفه، لأن كثيراً من هذه المعاني والأفكار لم يكن من معهود العرب ومعارفهم.

وللإمام الشاطبي بعض العذر في وقوفه في الطرف المقابل لخط القائلين بأن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين فجاء فيه الطب والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة والصنائع التي تتغير وتتطور بتغير التفكير وتطور الحياة، وكان هذا من غير شك إغراقاً في تحميل القرآن مالم يقصد إليه، ولذلك نجد الشاطبي يصرح بذلك فيقول: إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع مانظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها.

معنى الإعجاز العلمي في الإشارات القرآنية للحقائق الكونية:

وقضية موقف القرآن العظيم من العلم قديمه وحديثه، ونظرياته وفنونه وأصوله وفروعه، وقضاياه ومسائله، يجب ألا ينظر إليها بهذه النظرة التي ذهب إليها المتحمسون الذين جعلوا القرآن كتاباً يحتوي على مسائل العلوم الطبيعية والنظريات التجريبية والحِرَف والصناعات مما ذكروه.

كما يجب ألا ينظر إليها بهذه النظرة التي تقف بالقرآن في هدايته ومعانيه عند معهود العرب الأميين، وإنما يجب أن يجري النظر فيها على أساس أن القرآن كتاب هداية ودعوة إلى الله الواحد الأحد، الخالق المبدع، القادر الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأنه أنزل من عند الله بشريعته خاتمة للشرائع الإلهية، قائمة على نظام شامل للحياة يعتمد على العدل والرحمة.

وقد اقتضت دعوة القرآن وهدايته أن تكون حجته عقلية، تقوم على النظر في الكون وآياته في الأنفس والآفاق، وبيان مافيها من آثار اقتدار الله تعالى وحكمته وجلال كبريائه، ولايمكن الوصول إلى إقامة هذه الحجة لتكون برهاناً يقنع غير الأميين من أبناء الإنسانية في أرجاء الأرض في حاضرها ومستقبلها إلا إذا اعتمدت على دعائم العلم والبحث.

والقرآن الكريم أعطى العلم من العناية والرعاية والحث والإغراء ما رفعه فوق جميع خصائص الإنسانية، وفتح باب البحث في جميع فنونه بصورة لم تعرفها الإنسانية لغيره من الكتب، وقد أوضحنا ذلك فيما سبق، ونزيده إيضاحاً فيما يأتي.

البحث الحادي عشر

الآيات الكونية في القرآن وسلطان العقل

إن الله تعالى أمد الإنسان بسلطان العقل، وسخر له مافي السموات ومافي الأرض، ودعاه إلى كشف أسرار الوجود ببذل أقصى الطاقة البشرية التي أودعها الله فيه، ليعرف جلال الله تعالى في عظمة ملكه، وعظيم قدرته في إبداع خلقه، وحكمته في بديع صنعه، ورحمته في لطيف تدبيره، فقال عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمْوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]، وقال تبارك: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمْوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] وقال سبحانه﴿ أَلَمْ تَرَوْا ان الله سَخَرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَواتِ وَمَافِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَهُدىً وَلاَكِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[3].

وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾ نص لايحتمل التأويل على أن الله تعالى ينبه العقل البشري في كافة أفراده بأن خلق هذا الكون بجميع آياته السماوية والأرضية، وتسخير مافيه من عناصر الحياة ومظاهر النعم إنما كان لأجل الإنسان الذي كرمه الله تعالى بخصيصة العقل وفضله به على سائر ماحواه الوجود من مخلوقات لينتفع به، ولاشك أن الانتفاع بأي من هذه المخلوقات لايتم ولايتحقق إلا بعد معرفة فائدة كل مخلوق من هذه المخلوقات التي امتن الله بخلقها وتسخيرها للإنسان، ومعرفة فائدة المخلوقات لاتتحقق إلا بعد معرفة حقائقها تفصيلاً، لأن معرفة الحقيقة يرشد إلى مواطن الانتفاع، وهذه مهمة تستنفد أعمار الأحياء في هذه الحياة، فالبحث عن حقائق الموجودات سماوية أو أرضية، هو في نظر القرآن، مهمة الإنسان مادام على ظهر هذه الأرض لأنه وسيلته إلى استخلاص أكبر قسط من المنافع المادية والروحية التي يحيا بها الحياة طيبة يغمره فيها الإيمان بجلال الخلاق العظيم. قال الإمام الرازي في تفسير قوله

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٩).

(٢) الجاثية (١٣)

(٣) لقمان الآية : (٢٠).

أن المذكور بعد قوله: ﴿خَلَقَ﴾ لأجل انتفاعنا في الدين والدنيا، أما في الدنيا فلنصلح أبدننا ولنتقوى به على الطاعات، وأما في الدين فللاستدلال بهذه الأشياء والاعتبار بها، وجمع بقوله: ﴿مَافِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ جميع المنافع، فمنها مايتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال، ومنها مايتصل بضروب الحِرَف والأمور التي استنبطها العقلاء، وبيّن تعالى أن كل ذلك إنما خلقه لكي ننتفع به.[1]

فهم الآيات الكونية خصيصة العلماء الراسخين:

ومما يجري مجرى إيقاظ العقل الإنساني وتنبيهه إلى تعمق الوجود وكشف حقائقه وتعرف آيات الله في عناصر ذلك الوجود المفعم في كل ذرة من ذراته بالأسرار قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلعَالِمِينَ﴾[2].

ولباب هذه الآية وخلاصة حكمتها تجمع ـ بعد نثره في مفرداتها وجملها ـ فكان في فاصلتها، لأن تخصيص «العالِمين» بالذكر في هذه الفاصلة توجيه لذوي العقول المستضيئة بنور العلم إلى البحث عن أسرار آيات الله الكونية في آفاق السموات وأرجاء الأرض لكشفها ورفع الحجب والأغطية عن حقائقها لتقع من الحياة موقعها، وينتفع بها الأحياء لأنها مخلوقة لأجلهم، حتى تظهر خصيصة العلم في العلماء ويمتازوا بها عن سائر العقلاء لانفرادهم بإدراك حقائق آيات الله الكونية التي نصبها الله حجة على وجوده وإحاطة سلطان قدرته وعلمه.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَايَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[3]، تسجيلاً لامتياز العلماء القائمين بحجة الله على الخلق في الأرض، وبياناً لفوقهم على من باينهم في المعارف من سائر الناس بإدراكهم ماوراء حجب الحس المادي فهماً لمرامي إشارات الله تعالى في دلائله الآفاقية والأنفسية، وقد جاء التصريح ببعض مظاهر هذا الامتياز ـ الذي اختص به العلماء بالله لإدراكهم أسرار آياته الكونية ـ في سورة فاطر، حيث أثنى عليهم هذا الثناء الذي تتقطع له أعناق الربانيين فوصفهم باختصاصهم بخشيته فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وسياق هذه المدحة العظيمة بيّن

---

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين/ امحمد الصادق عرجون/ ص٢٧٥ـ ٢٨٦ و ٣٢٨ـ ٣٣١/ .

(٢) سورة الروم: الآية (٢٢).

(٣) سورة العنكبوت: الآية (٤٣)

جلي في أن المراد من العلماء المميزين بهذا المقام هم العلماء بالله الذين عرفوه بمعرفة آياته في خلقه معرفة تقوم على إدراك أسرار ظواهر ماخلق من أشياء، والمتأمل في موقع هذه المدحة مما سبقها يفهم من هم العلماء في هذا المقام. قال عز شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1]، فالذين علموا ـ بعد البحث ـ حكمة الله في إنزاله الماء من السماء وكيفية تجمع هذا الماء في مكانه، والذين علموا بديع صنع الله تعالى في إحداث مايحدث من تفاعلات العناصر الحية في باطن الأرض حتى تتكون فيها أجنة الثمرات المختلفة في طعومها وألوانها وأشكالها ومقاديرها فتخرج بإذن الله طيبة شهية نافعة كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2].

والذين علموا صنع الله وعظيم قدرته في خلقه، ونظروا نظرة تدبر إلى خلق الجبال وتلوينها من طرائق مختلفة وطبقات متنوعة الألوان والمنافع بين بيض وحمر وسود، والذي ينظر نظر تدبر في خلق الناس وتكوينهم وفي الدواب وخلقها واختلاف الألوان في الناس والدواب، هو الذي يصدق عليه وصف العالِم بالله الذي بجلاله يعرفه حق معرفته ويخشاه حق خشيته.

أسلوب الآيات الكونية في القرآن:

والقرآن الكريم أكثر جداً من الآيات الكونية، لكنه ساقها في أساليب مختلفة، وألوان شتى من التعبير، يفصّل مرة، ويجمل أخرى، ولكل مقام مقال، يذكر الشيء مع قرينه وصاحبه، ثم يفرده ليذكر حكمته المستقلة بوجوده، ودلالته، ثم يعود إلى صاحبه فيذكره بحكمة استقلاله في القيام بحق الحجة النيرة والبرهان المستقيم، يجمع مرة الآيات السماوية إلى الآيات الأرضية في إطار واحد، وأخرى يذكر الآيات الأرضية منفردة للتنبيه على عموم الاستدلال بها، لقربها من مشاهد الحس الممد للعقل العام عن طريق الحواس، والحواس هي النوافذ المادية التي يستطيع العقل أن يدرك بوساطتها ـ في أوائل خطوه نحو الحقائق الكونية ـ الروابط العنصرية والوشائح الطبيعية بين ذرات الموجودات على تنوع أشكالها واختلاف أنواعها، فيحكم ويستنبط.

---

(١) سورة فاطر: الآيتان (٢٧، ٢٨).
(٢) سورة الحج: الآية (٥).

وقد يفرد الآيات السماوية بالذكر تنبيهاً لأهل الاختصاص من العلماء لينقلهم على سفائن الفكر من عوالم الأرض إلى آفاق السماء، لينظروا إلى ماأودع الله فيها من آيات أجلّ وأعظم مما أودع في الأرض، مع تيسير السبيل للعامة في النظر المتأمل الذي يحرك وجداناتهم ويوقظ إحساسهم لتتوثق عرى الإيمان القطعي في قلوبهم.

والمقام هنا لايتسع لاستيعاب الآيات الكونية التي جاء بها القرآن الحكيم لكثرتها واختلاف مسافاتها، وهي مبثوثة فيه، تنساب في محيطه، وتتخلل سوره، فقلما تخلو سورة من سوره الكريمة من لون من ألوانها أو لفتة إلى ظاهرة من ظواهرها.

وحسبنا أن نشير على سبيل المثال والشاهد إلى قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] ، وإلى قوله جل شأنه في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾[2] ، ففي الآية الأولى تفصيل بالتنصيص على آيات هي دلائل قاطعة على وجود الله وقدرته وحكمته، وهي أيضاً نعم من الله على عباده ينتفعون بها في معاشهم وذلك أنجع في البيان، كما سبقت الإشارة إليه.

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾[3] ، ففيه إرشاد إلى النظر التفصيلي بما اشتمل عليه من تعميم الجزئيات في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقد جاء هذا التعميم الكلي في قوله: ﴿مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ لبيان أن جملة الكون دليل قاهر على وجود الصانع الحكيم، وأن كل ذرة من ذراته برهان مستقل في الدلالة عليه سبحانه، والإجمال يناسب العوام ومن كان على شاكلتهم في عدم الخوض في بحار الدلائل الكونية بالتفصيل.

وعلى ضوء هذا ننظر في قوله تعالى من سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ

---

(١) سورة البقرة: (١٦٤).
(٢) آل عمران: الآية (١٢٠).
(٣) سورة الأعراف: آية (١٨٥).

السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[1] ، لنجد إجماله مفصلاً بعض التفصيل المنبّه على مواطن الهداية والاستدلال بذكر آيات النعم، وبيان جهات المنافع في تسخيرها، وذلك في قوله تعالى من السورة نفسها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنِيْنَ وَالْحِسَابَ مَاخَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2] ، وتأمل قوله: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ وقوله: ﴿وَالْقَمَرَ نُوراً﴾، وقوله: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أفيفرد القرآن الحكيم، وهو بصدد إقامة البرهان على عظمة ملك الله وجلال ملكوته، الشمسَ بخصيصة الضياء ويخص القمر بوصف النور لغير حكمة كونية ترجع إلى طبيعة كل من الكوكبين؟ وهل يتم الاستدلال بهما على الغرض الذي سيقا بوصفهما لإثباته دون معرفة العلة في هذه التفرقة؟ وإذا كان ذلك كذلك أفلا يكون من البداهة أن يُطلَب من القوّامين على فهم القرآن أن يحيطوا علماً بالظواهر العلمية الطبيعية التي تميز طبيعة الضياء عن طبيعة النور حتى يمكن فهم الآية على حقيقتها التي أنزلها الله في كتابه من أجلها؟ ثم ألا يكون من البداهة ـ لأجل فهم الآية فهماً مثمراً ـ أن يطلب من القوامين على دراسة القرآن أن يحيط علماً بقدر الطاقة البشرية ببعض الظواهر الطبيعية للشمس التي جعلها الله «ضياء» وببعض الظواهر الطبيعية للقمر الذي جعله الله «نوراً» حتى يتبين للدارسين ولمن ينقلون إليهم معاني القرآن في آياته الكونية موقع وصف كل من الكوكبين ـ بوصفه الملائم بطبيعة موقعه، ومن هنا تجيء نتيجة البرهان علي صدق الدعوى بتخصيص كل كوكب بوصفه المنبعث من طبيعته التي خلقه الله عليها بحكمته واختياره.

موقف العلماء من الآيات الكونية في القرآن:

والعجب أن كثيراً من أئمتنا من حكماء الإسلام وعلمائه لم يغفلوا هذا النظر عند دراستهم لآيات القرآن الكونية باعتبارها دلائل أقامها الله تعالى على وجوده وباهر قدرته وجلال كبريائه، بل خاضوا بحاره، بقدر ماوسعه علمهم ومعارفهم، ووسائل الفكر والمعرفة في عصورهم، قال الإمام الفخر الرازي: (الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدِّر هو أن يقال: الأجسام في ذواتها متماثلة، وفي ماهياتها متساوية، ومتى كان الأمر كذلك كان اختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه

---

(١) سورة يونس الآية (٣).

(٢) سورة يونس: الآية (٥).

القاهر، واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص لأجل الفاعل المختار)، ثم بين تساوي الأجسام وماهياتها في الحجمية والتحيّز والجرمية، وقال: (وإذا ثبت أن الأجسام متماثلة في ذواتها، متساوية في ماهياتها، كانت متساوية في جميع لوازم الماهية فكل ماصح على بعضها وجب أن يصح على الباقي، فلما صح على جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر الباهر، وجب أن يصح مثل ذلك الضوء القاهر على جرم القمر وبالعكس، وإذا كان كذلك وجب أن يكون اختصاص جرم الشمس بضوئه القاهر، واختصاص القمر بنوره الضعيف بتخصيص مخصص، وإيجاد موجد وتقدير مقدر، وذلك هو المطلوب فثبت بالدليل القاطع صحة قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾.

ومعنى هذا في كلام الإمام وأسلوبه الاصطلاحي بأسلوب متقارب أن المادة في حقيقتها الأولى واحدة في ذاتها فإذا عرض لها اختصاص بطبيعة خاصة، تقبل بسببها بعض اللوازم والعوارض وتختص منها الشمس بالضوء ويختص القمر بالنور كان ذلك ترجيح مرجح، وتخصيص مخصص، وإيجاد موجد، وتقدير مقدر، وذلك المخصص والمرجح والموجد والمقدر هو الله تعالى، وهذا هو الغرض الذي سيقت الآية لإثباته وتحقيقه في البرهنة على قدرة الله ووراء ذلك معان كثيرة تتفجر من ينابيع الآية إذا فجرها العقل بالنظر في عناصر الموجودات وخصائصها ليتفع بها الإنسان فأنت ترى هذا الإمام الحكيم لم يقف مع الآية عند أسلوبها البلاغي المعجز ببراعة بيانها ولكنه أدار البحث حول الآيات الكونية فيها، وفي كيفية دلالتها على الغرض المقصود منها حسب معارف عصره، وأسلوب العلم في ذلك العصر.

ثم ألا يكون من البداهة أن يطلب من القوّامين على فهم القرآن فهماً علمياً صحيحاً أن يحيطوا علماً بمنازل القمر وسيره في تلك المنازل وكيفية علم عدد السنين والحساب من معرفة تلك المنازل وسير القمر فيها؟ وهل للشمس سير ومنازل كسير القمر ومنازله، وهل لها دخل في علم عدد السنين والحساب؟ بلى، كل ذلك يجب أن يعلم، ولقد علم أسلافنا من ذلك مابلغ إليه جهدهم، وبهذا العلم استعانوا على تفسير هذه الآيات وأمثالها.

ثم كيف يستطيع القوامون على دراسة القرآن الحكيم فهم قوله تعالى في ختام الآية: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فهماً يدعون به الناس ـ ولا سيما الماديون وعلماء الطبيعة والفلك ـ إلى عقيدة الإسلام المؤسسة على وجود الصانع، الخلاق العليم، الواحد الأحد القادر الحكيم، لو لم يكونوا على علم راسخ

بخواص الأفلاك، وماأودع الله في أجرامها من القوى حتى يعرف الحق الذي خلقها الله به، ليقع تفصيل الآيات موقعه من العقول والقلوب لقوم يعلمون؟ يقول الرازي: (قال حكماء الإسلام: هذا يدل على أنه سبحانه أودع في أجرام الأفلاك والكواكب خواص معينة وقوى مخصوصة باعتبارها تنتظم مصالح هذا العالم السفلي، إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد في هذا العالم لكان خلقها عبثاً وباطلاً وغير مفيد، وكونها كذلك ينافي هذه الآيات).

وإذا كان أسلافنا من أعلام العلماء، وحكماء الإسلام قد خاضوا بحار العلوم، ولجج المعارف واقتحموا حصون الأفكار في أزمانهم، ولم يتركوا منها مشرعاً إلا وردوه واتخذوا من كافة معارفهم وأفكارهم معيناً لفهم كتاب الله فهماً يقوم على حقائق العلم الصحيح لتبيين هدايته وإقامة حجته، فما موقفنا نحن من عصرنا ومعارفه ووسائله وأفكاره ومذاهبه؟ هل نقف من آيات الله عند مبلغ ماوصل إليه أسلافنا في أعصرهم، وهو نهاية أقدام العقول في بيئاتهم وأزمانهم ومجتمعهم؟ أو نتقدم في شجاعة كما تقدموا إلى البحث بوسائل عصرنا، ونخوض في بحار معارفه بعقولنا التي رباها القرآن الكريم بحكمته وحريته وبراعة أسلوبه، ولطف مدخله ودقة تصويره، وروائع تناوله لقضايا الحياة والكون، مع عنايته بتثبيت قواعد الإيمان في قلوب دارسيه من المؤمنين؟.

طريقة تفسير الآيات الكونية في القرآن:

إن الجانب الكوني في آيات القرآن الحكيم ـ وهو جانب مهم جداً، لأنه عماد الدلائل الإلهية على وجود الله تعالى، وتوحيده، وباهر قدرته، وواسع علمه، ولطيف حكمته وسائر مايجب له تعالى من الكمال ـ في حاجة ماسة إلى إعادة النظر فيه للتفسير والبيان بأسلوب علمي يبرز عن طريق ملاحظة الظواهر الكونية حجة الله على خلقه، ويكشف عما في الآيات من أسرار وحقائق ناط الله بها كثيراً من منافعنا ومصالحنا في الدين والدنيا، وقد أشار إليها القرآن في آياته ودلائله وبدأ العلم يكشف عنها الحجب، ولكن على شرط أن نحذر، فلا نخضع القرآن لنظريات لاتزال في مهب التجارب، وقد تعصف بها فتصبح من قبيل الأساطير فنقول إنها تفسير لآيات القرآن كما صنع ذلك بعض المتحمسين وبعض المخدوعين ببريق العلم التجريبي.

والقرآن كتاب الله الذي أُحكِمت آياته ثم فصّلت من لدنْ حكيم خبير، فهو لايخضع لأسلوب حديث ولا أسلوب قديم، وإنما تفسره الحقائق والبراهين التي يحققها البحث العلمي المستنِد إلى الأصول الإسلامية، وقضايا العقول المستقيمة.

والنظر في تفسير الآيات الكونية يجب أن يقصد أولاً إلى تبيين هداية القرآن تبييناً علمياً، لا على أساس أن نجعل النظريات العلمية هي تفسير الآيات القرآنية ومعانيها التي قصدها القرآن الكريم، ولكن على أساس أن القرآن الكريم لايصادم علماً ثبت بالبرهان القطعي ثبوتاً لايحتمل الارتياب، وهذا يتطلب بإلحاح من علماء الإسلام أن يتسلحوا بالعلم والمعرفة بأوسع معانيهما بقدر ماتتسع له الطاقة البشرية.

والراسخون في العلم من المؤمنين تزيدهم النظريات العلمية في حقائق الكون وظواهر الطبيعة إيماناً بجلال الله وعظمة الخلاق العليم لأنهم قرؤوا في لوح الوجود قول خالق الوجود: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَاخَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[2]، وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾[3]، وإذا احتملت قضية خلق الإنسان من طين الجدل والتأويل فإن قضية جعل الأنسال الإنسانية من سلالة من ماء مهين، لايختلف فيها ملحد مع مؤمن ولا دارويني مع آدمي، لأنها أكبر وأدخل في الصدق الواقعي من أضخم قضاياهم التجريبية التي يؤمنون بها، بل هي أصدق في نظر التجربة المتكررة التي لم تشذ عنها المرة الواحدة في ملايين الملايين من السنين من أي قضية تدخل تحت البداهة المسلّمة.

والقرآن الحكيم ـ دستور الإسلام ـ هو الكتاب الذي أنزل على النبي الأمي يوجه العقل الإنساني بكل مامنحه الله من قوة وجبروت إلى النظر في ملكوت الله ليكشف حقائق الكون ويرفع الحجب عن أسراره ويفسر آياته في الأنفس وفي الآفاق، وكلما عظم شأن الكون عظم في نظر المؤمنين جلال المكوّن الخلّاق العظيم وانفتحت مغاليق الإيمان الراسخ أمام العقلاء المتدبرين ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَمَاخَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ﴾[4]. ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي

---

(١) أول سورة الملك.

(٢) سورة الروم: الآية (٨).

(٣) سورة السجدة: الآيتان (٧،٨).

(٤) سورة يونس: الآية (١٠١).

لأجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١] .

وإذا كان هذا شأن القرآن في آيات الله الكونية وتوجيه النظر إليها، فلن يضيق ذرعاً بكشف علمي يصل السماء بالأرض، لو قدر لذلك أن يكون، بله للسعي لكشف عن حقيقة بعض الكواكب ومعرفة عمارها ومافيها من ألوان الحياة والخلق والأشياء، وحسبنا هذا لكتابنا الكريم وديننا القويم، وسلامة عقيدتنا، ولايجمل بنا أن نتطلب من القرآن شرح نظريات العلم والتحدث في تركيب الأشياء، وبيان جزئياتها وأشكالها ومايطرأ عليها من تغير كيماوي أو طبيعي كما تتحدث كتب الطبيعة والكيمياء والفلك وطبقات الأرض، لأن القرآن كتاب عقيدة وهداية، وعبر وتهذيب للنفوس، وتوجيه للعقول، وتطهير للأرواح والقلوب، فإذا عرض لشيء من الآيات الكونية - وكثر ماعرض لها - فإنما يعرض لها باعتبارها مصدر هداية إلى عظمة الكون لنصل على ضوئها إلى تعظيم الله خالق الكون، ومافيه من آيات وأسرار، لنستفيد بما فيها من منافع خلقها الله لأجلنا في ديننا ودنيانا.

العقول الصحيحة لاتصادم آيات القرآن الكريم:

إذا حاول العقل الإنساني القيام بمهمته في تبيين عجائب آيات الله، وحاول أن يكشف عن أسرار هذه الكائنات بوسائله العلمية وآلاته التجريبية كان محققاً لوعد الله تعالى في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حتى يظهر للعقلاء أن القرآن حق من عند الله وأن الرسول الأمي الذي نزل عليه صادق مؤيد من الله الذي أرسله للعالمين، وإذا وصل العقل في محاولته إلى حقيقة من الحقائق الكونية الصادقة فلا يمكن أن يصادم شيئاً من نصوص القرآن الحكيم الذي وكل إليه البحث عن هذه الآيات، وناط ببحثه الكشف عن أسرارها، وحينئذ يكون كشفه لشيء منها تفسيراً لقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَيَخْلُقُ مَالاَتَعْلَمُونَ﴾. وعلماء الإسلام منذ صدره الأول فقهوا عن الله مارمز إليه من جلال ملكه وعظمة ملكوته، وذكروا في تفسير آية النحل

---

(١) سورة الرعد: الآيات (٢، ٤).

عجائب لو ذكرت قبل أن يبلغ العقل البشري رشده، ويكشف عن آثار غوصه في آيات الله لقال عنها الجاهلون ـ كما قال أسلافهم ـ: إنها أساطير الأولين.

بل إن علماء الإسلام منذ عصر الصحابة والتابعين فهموا أن هذا الكوكب الأرضي الذي نعيش فيه ماهو إلا واحد من سبعة كواكب أرضية كلها معمورة بخلق من خلق الله تعالى، يقول الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿الله الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: (قال الجمهور: مثلية الأرض هنا في كونها طباقاً بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض، وفي كل أرض سكان من خلق الله عز وجل، لايعلم حقيقتهم إلا الله تعالى. قال العلماء: وهذا تأويل ماورد في صحيح البخاري من قول النبي ﷺ في دعائه: «اللهم رب السموات السبع، وماأَظْلَلْن ورب الأرضين السبع وماأَقلَلَن»).

ثم قال رحمه الله: (وحيث كان من أصولنا ـ نحن المسلمين ـ أنه متى عارض الدليل العقلي، أو الواقع القطعي القائم على التجربة والمشاهدة التي لاتحتمل الشك، الدليل السمعي، وجب تأويل الدليل السمعي، لأجل مطابقة الدليل العقلي في مقتضاه، لأن الدليل العقلي أصل الدليل السمعي، ولو أبطل الدليل العقلي بالدليل السمعي لزم بطلان الدليل السمعي نفسه، وباب التأويل أوسع من فلك الثوابت، ولا أرى بأساً في ارتكاب تأويل بعض ظواهر النصوص المستبعدة بما لايستبعد، وإن لم يصل الاستبعاد بالمعنى الذي دل عليه ظاهر النص إلى حد الامتناع، إذا تضمن ذلك مصلحة دينية، ولم يستلزم مصادرة معلوم من الدين بالضرورة، وقد يستلزم الإبقاء على الظاهر، وتفويض الأمر إلى قدرة الله تعالى التي لايتعاصاها شيء، رعاية لأذهان العوام المقيدين بالظواهر، الذين يعدون الخروج عنها لاسيما إلى مايوافق الحكمة الجديدة (العلم الحديث) ضلالاً محضاً، وكفراً صرفاً، وبالجملة: من صدق بسعة ملك الله تعالى، وعظيم قدرته عز وجل ينبغي أن لايتوقف في وجود سبع أرضين على الوجه الذي قدمناه وليس في ذلك مايصادف ضرورياً من الدين، أو يخالف قطعياً من أدلة المسلمين)، اهـ. والحرص على صيانة عقائد العوام وعدم الإلقاء بهم في لجج الحيرة بإسماعهم مايتعاصى على عقولهم فهمه، وعدم تعريضهم للفتنة في عقائدهم السليمة هو الذي استهدفه حديث البخاري عن علي كرم الله وجهه: (حدثوا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله).

والناس في عقولهم الفطرية المكتسبة درجات متفاوتون، فمنهم الذكي العليم الذي يطلب الحق على البحث عنه، لأنه حق، يرغب فيه لذاته، ومنهم الجدلي المنحرف

عن الجادة الذي لايطلب حقاً، ولايقصد إلى هدف، ومنهم العامي الساذج الذي تحركه الرغبة والرهبة، وتتملكه العواطف الفوارة، حظه من العقل الفطري حظ عامة الأحياء، ولا حظ له في عقل مكتسب.

وقد جعل الله تعالى لكل صنف من هؤلاء لوناً من الخطاب يليق به وذلك في رأي حكماء العلماء هو تأويل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، فجعل الدعوة إلى سبيل الله، وهو الحق والخير، والبر والإحسان، والعدل والرحمة، على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: الدعوة بالحكمة، وهي خصيصة العلماء الراسخين الذين يلتمسون الحق للحق، فالحق في ذاته غايتهم وهدفهم.

الوجه الثاني: الدعوة بالموعظة الحسنة، وهذه وسيلة العامة الذين يسكنون إلى الوعد طمعاً في الجزاء ورغبة في الثواب، ويفيئون إلى الوعيد خوفاً من الآلام ورهبة من العقاب.

الوجه الثالث: المجادلة بالتي هي أحسن، وهذه خصيصة العقول التي لا تقصد إلى شيء ولكنها تجادل للجدل فحسب، وقد أوصى القرآن الحكيم بأن يكون الحديث والحوار مع هؤلاء - تلطفاً معهم - بالطريقة التي هي أحسن الطرق وأمثلها أدباً وعلماً ورحمة، لتجذبهم إلى جانب الحق ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾[2].

---

(١) سورة النحل: الآية (١٢٥).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٩).

الفصل السادس

أثر شيخ الإسلام ابن تيمية

في علم التفسير وأصوله، وفي الكشف عن تأثير الفلسفة وعلم الكلام على بعض علماء المسلمين

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:

البحث الأول: قواعد التفسير وأصوله.

البحث الثاني: التأويل والتفسير.

البحث الثالث: حكم تفسير القرآن بالرأي.

البحث الرابع: حكم ترجمة معاني القرآن لغير العرب.

البحث الخامس: أثر علم الكلام على بعض علماء الإسلام.

البحث السادس: لمحات من تاريخ نقض مذاهب الفلاسفة والمتكلمين.

البحث الأول

قواعد التفسير وأصوله

الأصل الأول والقاعدة الأم:
النبي ﷺ بيّنَ لأصحابهِ معانيَ القرآن

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ:[1]

يجب أن يُعْلَمَ أنّ النبي ﷺ بيّنَ لأصحابه معاني القرآن، كما بيّنَ لهم ألفاظَهُ، فقولهُ تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ للنّاسِ مانُزِّلَ إليهم﴾ [سورة النحل / ٤٤]، يتناول هذا وهذا.

وقد قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي: حدّثنا الّذين يُقرئوننا القرآنَ، كعثمان بنِ عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: «أنّهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشرَ آيات لم يُجاوِزُوْها حتى يتعلّموا مافيها من العلم والعمل؛ قالوا: فتعلّمنا القرآنَ والعلمَ والعملَ جميعاً»![2] ولهذا كانوا يبقون مدّة في حفظ السورة.

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلَّ في أعيننا!!. وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدّة سنين، قيل: ثمان سنين، ذكره مالك[3].

وذلك أنّ الله تعالى قال: ﴿كتابٌ أنْزَلنَاهُ إليكَ مُبارَكٌ لِيَدَّ بَّروا آيَاتِهِ﴾[سورةصٓ/ ٢٩] وقال تعالى: ﴿أفلا يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ﴾؟! [سورة النساء / ٢٨ / ومحمد / ٢٤] وقال تعالى: ﴿أفَلَمْ يدَّبَّرُوا القَوْلَ﴾؟ [سورة المؤمنون / ٦٨]؛ وتدبّر الكلام بدون فهم معانيه لايمكن!!؟.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿إنّا أنْزَلنَاهُ قُرْآناً عربياً لعلّكم تَعْقِلُون﴾[سورة يوسف/ ٢]

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص٣٥ـ٣٨/ .

(٢) وذكره القرطبي في مقدمته لتفسيره ج١/ ٣٩/ وأبو عبد الرحمن هو عبد الله بن حبيب الكوفي المقرىء، من كبار التابعين، ثقة ثبت، ولأبيه صحبة. تقريب التهذيب لابن حجر ج١/ ٤٠٨/ .

(٣) الموطأ ج١/ ٢٠٥/ بتحقيق عبد الباقي.

وعَقْلُ الكلامِ مُتضمّنٌ لِفهمِهِ. ومن المعلومِ أنّ كلّ كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرّد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك!. وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قومٌ كتاباً في فَنٍّ من العلم كالطب والحساب، ولايستشرحوه؛ فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودُنياهم!!.

ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة، فهو قليلٌ بالنسبة إلى مابعدهم. وكلّما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر.

ومن التابعين مَنْ تلقّى جميعَ التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد: عرضتُ المصحفَ على ابن عباس، أوقِفهُ عندَ كلِّ آية منه وأسأله عنها!!. ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبُكَ به!!. ولهذا يعتمد على تفسيره: الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم، وكذلك الإمام أحمد، وغيره ممّن صنّف في التفسير، يكرّر الطرقَ عن مجاهد أكثر من غيره.

والمقصود: أنّ التابعين تَلَقَّوا التفسيرَ عن الصحابة، كما تلقوا عنهم علمَ السنّة، وإن كانوا قد يتكلّمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، كما يتكلّمون في بعض السُّنن بالاستنباط والاستدلال.

الأصل الثاني:

بيان أنّ اختلافَ السَّلفِ في التفسيرِ؛ اختلافُ تنوُّع!

لقد بيّن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في هذا الأصل من أصول التفسير أنّ الاختلاف الذي وقع للسّلف في تفسير القرآن كان راجعاً إلى اختلاف تنوّع لاإلى اختلاف تضاد؛ وذلك لأنّ كلام الله تعالى يشتمل على المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، فذهب كل مفسر منهم إلى المعنى الّذي ظهر له وتبيّنَ معنَاهُ من خلال تبحره في اللغة العربية بالإضافة إلى مامعه من علوم السنّة والفقه!!.

فيقول رحمه الله تعالى[1] :

الخلافُ بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير. وغالب مايصح عنهم من الخلاف تنوّع لااختلاف تضادّ!!.

وذلك صنفان: أحدهما أن يُعبِّر كلُّ واحد منهما عن المراد بعبارة غير عبارة

---

(١) مقدمة في أصول التفسيرص٣٨ـ٥٥/ .

صاحبه، تدلُّ على معنىً في المسمّى غير المعنى الآخر، مع اتحاد المسمّى، بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة، كما قيل في اسم السيف: الصارم، والمهنّد. وذلك مثل أسماء الله الحسنى... فإنّ أسماء الله كلها تدلّ على مسمىً واحدٍ؛ فليسَ دعاؤه باسمٍ من أسمائه سبحانه الحُسْنَى مضاداً لدعائه باسم آخر؛ بل الأمر كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعوا الله أو ادْعُوا الرحمنَ أيّاً مّا تدْعُوا فلَهُ الأسماء الحُسْنَى﴾ [سورة الإسراء / ١١٠]، وكلُّ اسم من أسمائه يدلُّ على الذات المسماة وعلى الصفة التي تضمنها الاسم؛ كالعليم؛ يدلُّ على الذات والعلم، والقدير، يدل على الذات والقدرة، والرحيم، يدل على الذات والرحمة.

والمقصود: أنّ كلَّ اسم من أسمائه يدلُّ على ذاته وعلى مافي الاسم من صفاته، ويدلُّ أيضاً على الصفة التي في الاسم الآخر بطريق اللزوم.

ثم قال: فالسلف كثيراً مايُعبِّرون عن المسمّى بعبارة تدلُّ على عينه، وإن كان فيها من الصفة ماليس في الاسم الآخر؛ كمن يقول: القُدُّوس: هو الغفور الرحيم، أي: إنّ المسمّى واحد، لاأنّ هذه الصفة هي هذه!.

ومعلوم أنّ هذا ليس اختلاف تضاد كما يظن بعض النّاس؛ مثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم، فقال بعضهم: هو القرآن، أي اتباعه، وقال بعضهم: هو الإسلام.. فهذان القولان متفقان؛ لأنّ دينَ الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كلٌّ منهما نبّهَ على وصفٍ غيرِ الوصف الآخر، كما أنّ لفظ «صراط» يشعر بوصف ثالث، وكذلك قول مَنْ قال: هو السنّة والجماعة، وقول مَنْ قال: هو طريق العبودية، وقول مَنْ قال: هو طاعة الله ورسوله ﷺ، وأمثال ذلك.

فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذاتٍ واحدةٍ، لكنْ وصَفَها كلٌّ منهم بصفةٍ من صفاتها!!.

الصنف الثاني: أن يذكر كلٌّ منهم من الاسم العامّ بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لاعلى سبيل الحد المطابق للمعدود في عمومه وخصوصه؛ مثل سائل أعجمي سأل عن مُسمّى لفظ «الخبز» فأري رغيفاً، وقيل له: هذا؛ فالإشارة إلى نوع هذا، لاإلى هذا الرغيف وَحْدَه.

مثالُ ذلك: مانُقِلَ في قوله تعالى: ﴿ثُمّ أوْرَثْنَا الكتابَ الّذينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عبادِنَا فمنهم ظالمٌ لنفسِهِ ومنهم مُقْتَصِدٌ ومنهم سَابِقٌ بالخيراتِ﴾ [سورة فاطر / ٣٢]، فمعلومٌ أنّ الظالمَ لنفسه يتناول المضيّعَ للواجبات، والمنتهك للحرمات. والمقتصدَ يتناولُ فاعلَ الواجبات، وتاركَ المحرّمات. والسّابقَ يدخل فيه مَنْ سبق فتقرّب بالحسنات مع

الواجبات. فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقرَّبُون.

ثم إنّ كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابقُ: الذي يُصلّي في أول الوقت، والمقتصدُ: الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه: الذي يؤخر العصرَ إلى الاصفرار.

أو يقول: السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة؛ فإنّه ذكر المُحْسِنَ بالصَّدَقَةِ، والظالم بأكل الربا، والعادل بالبيع[1]. والنّاس في الأموال: إمّا محسنٌ وإمّا عادل وإمّا ظالم؛ فالسابق: المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات، والظالم: آكل الرِّبا، أو مانع الزكاة، والمقتصد: الذي يُؤدّي الزكاة المفروضة، ولايأكل الرِّبا، وأمثال هذه الأقاويل.

فكلُّ قولٍ: فيه ذِكْرُ نوعٍ دخَلَ في الآية، ذُكِرَ لتعريف المستمع بتناول الآية له، وتنبيه به على نظيره؛ فإنّ التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحَدِّ المطابق. والعقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أُشير له إلى رغيف فقيل له: هذا هو «الخبز» [كما مرّ مثاله].

من أسباب الاختلاف تعدّد أسباب النزول:

وقد يجيء كثيراً من هذا الباب قولُهم: هذه الآية نزلتْ في كذا، لاسيما إذا كان المذكور شخصاً، كأسباب النزول المذكورة في التفسير؛ كقولهم: إنّ آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس بن شماس، وإنّ آية اللعان نزلت في عُويمر العجلاني، أو هلال بن أميّة. وإنّ آية الكَلاَلَة نزلت في جابر بن عبد الله، وإنّ قوله تعالى: ﴿وأنِ احْكُمْ بينهم بماأنزلَ الله﴾ [سورة المائدة / ٤٩] نزلت في بني النضير وقريظة، وإنّ قوله تعالى: ﴿ومن يُولِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ﴾ [سورة الأنفال / ١٦]، وإنّ قوله تعالى: ﴿شهادةُ بينِكُمْ إذا حضَرَ أحَدكُمُ الموتُ﴾ [سورة المائدة / ١٠٦] نزلت في قضية تميم الداري وعديّ بن بدّاء. ونظائر هذا كثير ممّا يذكرون أنّه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، أو في قومٍ من المؤمنين.

والنّاس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سببٍ، هل يختص بسببه؟ فلم يقُلْ أحدٌ من علماء المسلمين: إنّ عمومات الكتاب والسنّة تختص بالشخص المعيَّن، وإنّماغاية مايُقال: إنّها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعمُّ مايشبهه، ولايكون العموم فيها

---

(١) انظر الآيات من سورة البقرة/ ٢٧٠ فما بعد.

بحسب اللفظ! والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص، ولغيره ممّن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذمٍّ فهي متناولة لذلك الشخص، ولمن كان بمنزلته.

معرفة سبب النزول يُعينُ على فهم الآية:

فإنّ العلم بالسبب يُورّث العلمَ بالمُسبّب[1]؛ ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنّه إذا لم يعرف مانواه الحالف: رجع إلى سبب يمينه، وماهيَّجها وأثارها.

وقولهم: نزلتْ هذه الآية في كذا؛ يُراد به تارة أنّه سبب لنزول، ويُراد به تارة أنّ هذا داخلٌ في الآية، وإن لم يكن السَّبب كما تقول: عنَى بهذه الآية كذا.

وقد تنازعَ العلماءُ في قول الصاحب [أي: الصحابي] نزلت هذه الآية في كذا؛ هل يجري مجرى المسند ـ كما يذكر السبب الذي أنزلتْ لأجله ـ أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لايُدْخله في المسند [أي: في الحديث المرفوع أو في حكمه]. وأكثرُ المَسَانِدِ على هذا الاصطلاح، كمسند أحمد وغيره، بخلاف ماإذا ذكر سبباً نزلت عقبه، فإنّهم كلهم يُدْخِلُون مثلَ هذا في المسند.

وإذا عُرف هذا فقول أحدهم: نزلت في كذا، لايُنافي قولَ الآخر: نزلت في كذا إذا كان اللفظ يتناولهما، كما ذكرناه في التفسير بالمثال [الذي تقدم قبلُ].

وإذا ذكرَ أحدُهم لها سبباً نزلت لأجله، وذكر الآخر سبباً، فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين؛ مرّة لهذا السبب، ومرّة لهذا السبب.

وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوّع التفسير: تارة لتنوّع الأسماء والصفات، وتارة لذكر بعض أنواع المسمّى وأقسامه، كالتمثيلات: هما الغالب في تفسير سلف الأمّة، الذي يُظَنُّ أنّه مخالف!!.

أسباب التنازع الموجود عنهم:

ومن التنازع الموجود عنهم: مايكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين:[2]

إمّا لكونه مشتركاً في اللغة، كلفظ «قَسْوَرَة» [من سورة المدثر/ ٥١] الذي يُراد به الرامي، ويُراد به الأسد، ولفظ «عَسْعَسَ» [من سورة التكوير/ ١٧] الذي يُراد به إقبال الليل وإدباره.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص٤٧ـ٥١/ .

(٢) مقدمة في أصول التفسير/ ٤٩ـ٥١/ .

وإمّا لكونه متواطئاً [يقصد به التوافق] في الأصل، لكنّ المرادَ به أحدُ النوعين، أو أحد الشخصين؛ كالضمائر في قوله تعالى: (ثم دَنَا فتَدَلّى فكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أو أدْنَى) [سورة النجم/ ٩] وكلفظ «الفجر، والشفع، والوتر» وماأشبه ذلك.

فمثل هذا قد يجوز أن يُراد به كل المعاني التي قالتها السلف، وقد لايجوز ذلك. فالأول إمّا لكون الآية نزلت مرّتين، فأريد بها هذا تارة، وهذا تارة. وإمّا لكون اللفظ المشترك يجوز أو يُراد به معنياه؛ إذْ قد جوَّز ذلك أكثر الفقهاء المالكية والشافعية والحنبلية، وكثيرٌ من أهل الكلام. وإمّا لكون اللفظ متواطئاً، فيكون عامّاً إذا لم يكن لتخصيصه موجب. فهذا النوع إذا صحَّ فيه القولان كان من الصنف الثاني.

الاختلاف لاحتمال وجوه اللغة:

ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض النّاس اختلافاً: [١]

أن يعبّروا عن المعاني بألفاظٍ متقاربة لامترادفة، فإنّ الترادف في اللغة قليل، وأمّا في ألفاظ القرآن فإمّا نادر وإمّا معدوم، وقَلَّ أن يُعبَّرَ عن لفظٍ واحدٍ بلفظٍ واحدٍ يُؤدّي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه.

وهذا من أسباب إعجاز القرآن؛ فإذا قال القائل: ﴿يومَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً﴾ [سورة الطور/ ٩] إنّ المور هو الحركة؛ كان تقريباً إذ المور حركة خفيفة سريعة. وكذلك إذا قال: الوحيُ الإعلامُ، أو قيل: ﴿أوحينا إليك﴾ [سورة النحل/ ١٢٣]: أنزلنا إليك، أو قيل: ﴿وقَضَينا إلى بني إسرائيل﴾ [سورة الاسراء/ ١٧]: أي أعلمنا، وأمثال ذلك.

فهذا كله تقريب لاتحقيق؛ فإنّ الوحي هو إعلامٌ سريع خفيّ، والقضاء إليهم أخص من الإعلام؛ فإنّ فيه إنزالاً إليهم وإيحاءً إليهم!!.

والعرب تضمِّنُ الفعلَ معنى الفعل، وتعدِّيه تعديته. ومن هنا غلط من جعلَ بعض الحروف تقوم مقام بعض، كما يقولون في قوله تعالى: ﴿لقَدْ ظَلَمكَ بسؤال نعجتِكَ إلى نِعَاجه﴾ [سورة صٓ/ ٢٤]، و: ﴿مَنْ أنصاري إلى الله﴾ [سورة آل عمران/ ٥٢] أي: مع الله، ونحو ذلك.

والتحقيق: ماقاله نُحاة البصرة من التضمين؛ فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليَفتِنُونَكَ عَنِ الذي أوحينَا إليك﴾[سورة الإسراء/ ٧٣]؛ ضمّن: يزيغونك ويصدُّونكَ، وكذلك قوله تعالى: ﴿ونصرناهُ مِنَ القومِ الّذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا﴾ [سورة الأنبياء/ ٧٧]، ونظائر كثيرة..

---

(١) مقدمة في أصول التفسير/ ٥١ـ٥٥/ .

ومَنْ قال: ﴿لاريب فيه﴾ [سورة البقرة/ ٢]: لاشك فيه، فهذا تقريب، وإلاّ فالريب فيه اضطراب وحركة، فكما أنّ اليقين ضمن السكون والطمأنينة، فالريب ضده، ولفظ الشك وإن قيل إنّه يستلزم هذا المعنى لكن لفظه لايدلُّ عليه.

وكذلك إذا قيل: ﴿ذلك الكتاب﴾ [سورة البقرة/ ٢] هذا القرآن، فهذا تقريب، لأنّ المشار إليه وإن كان واحداً فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البُعد والغيبة، ولفظ ﴿الكتاب﴾ يتضمن من كونه مكتوباً مضموناً مالايتضمن لفظ القرآن من كونه مقروءاً مُظهَراً بادياً، فهذه الفروق موجودة في القرآن.

فإذا قال أحدهم: ﴿أنْ تُبسَلَ﴾ [سورة الأنعام/ ٧٠] أي تُحبس، وقال الآخر: ترتهن، ونحو ذلك؛ لم يكن من اختلاف التضاد، وإن كان الحبوس قد يكون مرتهناً وقد لايكون؛ إذ هذا تقريبٌ للمعنى كما تقّدم.

وجمعُ عبارات السلف في مثل هذا نافع جدّاً، فإنّ مجموعَ عباراتهم أدلُّ على المقصود من عبارةٍ أو عبارتين، ومع هذا فلابُدّ من اختلاف مُخَفَّفٍ بينهم، كما يوجد مثل ذلك في الأحكام!!.

ثم يقول: والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل والذهول عنه، وقد يكون لعدم سماعه، وقد يكون للغلط في فهم النص، وقد يكون لاعتقادِ معارضٍ راجح، فالمقصود هنا: التعريف بمجمل الأمرِ دُونَ تفاصيله[1].

نوعَي الاختِلافِ في التفسير:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:[2]

الاختلاف في التفسير على نوعين:

منه مامستنده النقل فقط، ومنه مايُعلم بغير ذلك؛ إذِ العلمُ إمّا نقلٌ مُصَدَّقٌ، وإمّا استدلالٌ محقَّقٌ. والمنقول إمّا عن المعصوم، وإمّا عن غير المعصوم.

[النوع الأول: الاختلاف الواقع في التفسير من جهة النقل]:

والمقصود بأنّ جنس المنقول سواءٌ كان عن المعصوم أو غير المعصوم؛ فمنه يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف، ومنه مالايمكن معرفة ذلك، وهو مالاطريق لنا إلى الجزم بالصدق منه، وهذا عامّته ممّا لافائدة فيه، والكلام فيه من فضول الكلام.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير/ ٥٥/ .

(٢) مقدمة في أصول التفسير/ ٥٥-٦٠/ .

وأمّا مايحتاج المسلمون إلى معرفته فإنّ الله تعالى نصب على الحق فيه دليلاً.

فمثال مالايفيد [أي: في التفسير] ولادليل على الصحيح منه: اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، وفي مقدار سفينة نوح وما كان خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك.

فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنّه الخضر، فهذا معلوم[1].

ومالم يكن كذلك، بل كان مما يُؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب، ووهب، ومحمد بن اسحاق، وغيرهم، ممن يَأْخُذُ عن أهل الكتاب.

حكم الأخبار الإسرائيلية:

فهذا لايجوز تصديقه ولاتكذيبه إلاّ بحجّة، كما ثبتَ في الصحيح عن النبي ﷺ أنّه قال: (إذا حدّثكم أهل الكتاب فلاتصدِّقوُهم ولاتكذِّبُوهم؛ فإمّا أن يُحدِّثوكم بحقٍّ فتكذِّبوه، وإمّا أن يحدِّثوكم بباطلٍ فتصدّقوُهُ).

وكذلك مانُقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنّه أخذه عن أهل الكتاب فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض.

حكم أقوال الصحابة في التفسير:

ومانُقل في ذلك عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مّما نُقل عن بعض التابعين؛ لأنّ احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ، أو مِنْ بعضِ مَنْ سمعه منه أقوى، ولأنّ نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقلّ من نقلِ التابعين، ومع جزم الصحابي بما يقوله: كيف يقال إنّه أخذه عن أهل الكتاب، وقد نهوا عن تصديقهم.

والمقصود: أن الاختلاف الذي لايعلم صحيحه، ولايفيد حكاية الأقوال فيه، هو كالمعرفة لمايُروى من الحديث الذي لادليل على صحته، وأمثال ذلك.

وأمّا القسم الأول الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه ولله الحمد، فكثيراً مايُوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبيّنا ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ـ والنقلُ الصحيحُ يدفع ذلك ـ بل هذا موجود فيما مستنده النقل، وفيما يُعرف بأمورٍ أخرى غير النقل.

---

(١) ورد ذلك في صحيح البخاري، انظر فتح الباري ج٦/١٣٧.

فالمقصود أنّ المنقولات التي يحتاج إليها في الدِّين قد نصب الله الأدلّة على بيان مافيها من صحيح وغيره.

ومعلومٌ أنّ المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم؛ ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثةُ أمور ليس لها إسناد: التفسير، والملاحم، والمغازي.

ويُروى: ليس لها أصل. أي: إسناد؛ لأنّ الغالب عليها المراسيل، مثل مايذكره عروة بن الزبير، والزهري، وموسى بن عقبة، وابن اسحاق، ومن بعدهم كيحيى بن سعيد الأموي، والوليد بن مسلم، والواقدي، ونحوهم من كتاب المغازي.

فإنّ أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق؛ فأمّا أهل المدينة فإنّهم أعلم بها لأنّها كانت عندهم، وأهل الشام كانوا أهل غزوٍ وجهاد، فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ماليس لغيرهم..

أعلم النّاس بالتفسير:

وأمّا التفسير فإنّ أعلم النّاس به أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب عبد الله بن مسعود؛ ومن ذلك ماتميّزوا به على غيرهم!.

وعلماء أهلِ المدينة في التفسير: مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب.

التحذير من الأحاديث الموضوعة في الفضائل:

وكما أنّ على الحديث أدلّة يُعلم بها أنه صدق، وقد يُقطع بذلك[1]؛ فعليه أدلة يُعلم بها أنّه كذب، ويُقطع بذلك. مثل مايُقطع بكذب مايرويه الوضاعون من أهل البدع والغلو في الفضائل، مثل حديث يوم عاشوراء، وأمثاله ممّا فيه أنّه مَن صلى ركعتين كان له كأجر كذا وكذا..

وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة، مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سُوَرِ القرآن، سورة سورة، فإنّه موضوع باتفاق أهل العلم.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص٧٤ـ ٧٨/ .

والثعلبي: هو في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل، ينقل ماوجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

والواحدي: صاحبه كان أبصر منه بالعربية، لكن هو أبعد عن السلامة واتّباع السلف.

والبغوي: تفسيره مختصر من الثعلبي؛ لكنّه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة، والآراء المبتدعة.

والموضوعات في كتب التفسير كثيرة؛ منها الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة، وحديث عليّ الطويل في تصدّقه بخاتمه في الصلاة؛ فإنّه موضوع باتفاق أهل العلم. ومثل مارُوي في قوله تعالى: ﴿ولكلٍّ قومٍ هادٍ﴾[سورة الرعد/ ٧] إنّه عليّ. وقوله تعالى: ﴿وتَعِيَها أذنٌ وَاعِيَةٌ﴾[سورة الحاقة/ ١٢] إذنكَ ياعليّ!!؟.

الخلاف الواقع في التفسير من جهة الاستدلال:

وهو النوع الثاني من سببي الاختلاف[١] ؛ وهو مايعلم بالاستدلال لابالنقل، فهذا أكثر مافيه الخطأ من جهتين حَدَثَتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان.

فإنّ التفاسير التي يُذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً لايكاد يُوجد شيءٌ من هاتين الجهتين، مثل تفسير عبد الرزاق، ووكيع، وعبد بن حُميد، وعبد الرحمن بن إبراهيم دُحَيم. ومثلُ تفسير الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وبقيّ بن مَخلَدَ، وأبي بكر بن المنذر، وسفيان بن عيينة، وسُنَيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي سعيد الأشج، وأبي عبد الله بن ماجه، وابن مَرْدَوَيْه.

أحدهما: قومٌ اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها!!.

والثاني: قوم فسّروا القرآن بمجرّدِ مايسوغ أن يريده مَنْ كان مِنَ النّاطقين بلغة العرب بكلامه، من غير نظر إلى المتكلّم بالقرآن، والمنزّل عليه والمُخَاطب به!!؟.

فالأوّلُون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ماتستحقه ألفاظ القرآن من الدّلاَلة والبيان. والآخرون راعوا مجرّدَ اللفظ، ومايجوز أن يريد به عندهم العربي من غير نظرٍ إلى مايصلح للمتكلّم، وسياق الكلام.

ثم هؤلاء كثيراً مايغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة، كما يغلط في

(١) مقدمة في أصول التفسير ص٧٩ـ٩٣/ .

ذلك الذين من قبلهم. كما أنّ الأوّلين كثيراً مايغلطون في صحة المعنى الذي فسّروا به القرآن، كما يغلط في ذلك الآخرون، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق.

والأوّلُون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن مادلّ عليه، وأُريد به، وتارة يحملونه على مالم يدلّ عليه يُرَدْ به. وفي كلا الأمرين قد يكون ماقصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول. وقد يكون حقاً فيكون خطؤهم فيه في الدليل لافي المدلول.

وهذا كما أنّه وقع في تفسير القرآن؛ فإنّه وقع أيضاً في تفسير الحديث. فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع؛ اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الوسط الذين لايجتمعون على ضلالة، كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأوّلُوهُ على آرائهم تارةً، يستدلون بآياتٍ على مذهبهم ولادلالة فيها، وتارة يتأوّلُون مايُخالف مذهبهم بما يُحرِّفُون به الكَلِمَ عن مواضعه.

ومن هؤلاء فرق الخوارج، والروافض، والجهمية، والمعتزلة، والقدرية، والمرجئة، وغيرهم. وهذا كالمعتزلة مثلاً: فإنّهم من أعظم النّاس كلاماً وجدالاً، وقد صنّفُوا تفاسير على أصول مذهبهم؛ مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم، شيخ إبراهيم بن إسماعيل بن عُلَيَّة الذي كان يُناظر الشافعي. ومثل كتاب أبي عليّ الجبائي، والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، والجامع لعلم القرآن لعليّ بن عيسى الرماني، والكشاف لأبي القاسم الزمخشري، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذهب المعتزلة، وأصول المعتزلة خمسة، يُسمُّونَها هُمْ: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

توحيد المعتزلة:

وتوحيدهم هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات، وعن ذلك قالوا: إنّ الله لايُرىٰ، وإنّ القرآن مخلوق، وإنّه تعالى ليس فوق العالم، وإنّه لايقوم به علم ولاقدرة ولاحياة ولاسمع ولابصر ولاكلام ولامشيئة، ولاصفة من الصفات.

وأمّا عدلهم فمن مضمونه أنّ الله لم يشأ جميع الكائنات، ولاخلقها كلها، ولاهو قادر عليها كلها، بل عندهم أنّ أفعال العباد لم يخلقها الله، لاخيرَها ولاشرَّها، ولم يُرِدْ إلاّ ماأمرَ به شرعاً، وماسوى ذلك فإنّه يكون بغير مشيئة.

وقد وافقهم على ذلك متأخرو الشيعة، كالمفيد، وأبي جعفر الطوسي، وأمثالهم.

ولأبي جعفر هذا تفسير على هذه الطريقة، لكن يضم إلى ذلك قول الإمامية الإثنى عشرية، فإنّ المعتزلة ليس فيهم مَنْ يقول بذلك، ولامَنْ ينكر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ.

ومن أصول المعتزلة مع الخوارج: إنفاذ الوعيد في الآخرة، وأنّ الله لايقبل في أهل الكبائر شفاعة، ولايخرج منهم أحداً من النّار.

ولاريب أنّه قد رَدَّ عليهم طوائف من المرجئة والكرّامية والكُلاّبية، وأتباعهم. فأحْسَنُوا تارة وأساؤوا أخرى، حتى صاروا في طرفي نقيض، كما قد بُسِطَ في غير هذا الموضع.

والمقصود: أنّ مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولامن أئمة المسلمين، لافي رأيهم ولا في تفسيرهم.

تفاسير المبتدعة عباراتها حسنة ومعانيها باطلة:

ومامن تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلاّ وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة؛ وذلك من وجهين: تارة من العلم بفساد قولهم. وتارة من العلم بفساد مافسّروا به القرآن؛ إمّا دليلاً على قولهم، أو جواباً عن المُعَارِض لهم.

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة، فصيحاً، ويدسّ البدعَ في كلامه، وأكثر النّاس لايعلمون، كصاحب «الكشاف» ونحوه، حتى إنّه يروج على خلق كثير ممن لايعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ماشاء الله!!.

وقد رأيتُ من العلماء المفسرين وغيرهم مَن يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم مايوافق أصولهم التي يعلم، أو يعتقد فسادَها، ولايهتدي لذلك!؟.

ضلالات الفِرق المنحرفة في التفسير:

ثم إنّه بسبب تطرّق هؤلاء [إلى هذه التأويلات الباطلة] وضلالهم دخلتِ الرافضةُ الإمامية، ثم الفلاسفة والقرامطة وغيرهم، فيما هو أبلغ من ذلك، وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة، فإنّهم فسّروا القرآن بأنواع لايقضي منها العالم عجبه!!..

فتفسير الرافضة: كقولهم: ﴿تبّتْ يَدَا أبي لهب﴾[سورة المسد/ ١] هما أبو بكر وعمر، و﴿لئنْ أشركتَ لَيَحْبَطَنَّ عملُكَ﴾[سورة الزمر/ ٦٥] أي: بين أبي بكر وعمر،

وعليّ، في الخلافة!؟ و﴿إنّ الله يأمرُكم أن تذبحُوا بقرَةً﴾[سورة البقرة/ ٦٧] هي عائشة [والخطاب من موسى لبني إسرائيل، فحرّفوه] و﴿فقاتِلُوا أئمةَ الكفر﴾ هما طلحة والزبير!؟ و﴿مَرَجَ البحرين يلتقيان﴾[سورة الرحمن/ ١٩] علي وفاطمة!؟ و﴿اللؤلؤ والمرجان﴾ [الرحمن/ ٢٢] الحسن والحسين. ﴿وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ في إمام مبين﴾ [سورة يس/ ١٢] في عليّ بن أبي طالب!؟ و ﴿عمَّ يتساءلُون عن النبأ العظيم﴾ [سورة النبأ/ ١-٢] عليّ بن أبي طالب. و﴿إنّما وَلِيُّكُمُ الله ورسولُهُ والّذينَ آمَنُوا الّذينَ يُقيمُون الصّلاةَ ويُؤتون الزّكاةَ وهُمْ راكعُون﴾ [سورة المائدة/ ٥٥] هو عليّ!؟ وهم يذكرون الحديثَ الموضوعَ بإجماع أهل العلم، وهو تصدّقه بخاتمه في الصلاة!؟. وكذلك قوله تعالى: ﴿أولئك عليهم صلواتٌ مِنْ ربِّهم ورحمةٌ﴾ [سورة البقرة/ ١٥٧] نزلت في عليّ لمّا أصيب بحمزة!؟..

انحرافات بعض المفسرين:

وممّا يُقارب هذا من بعض الوجوه: مايذكره كثيرٌ من المفسرين، في مثل قوله تعالى:

﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾[سورة آل عمران/ ١٧] إنّ الصابرين رسول الله، والصادقين أبو بكر، والقانتين عمر، والمنفقين عثمان، والمستغفرين عليّ!؟.

وفي مثل قوله تعالى: ﴿محمدٌ رسولُ الله والذين معه﴾[سورة الفتح/ ٢٩]: أبو بكر ﴿أشدّاءُ على الكُفّار﴾ عمر، ﴿رُحماء بينهم﴾ عثمان ﴿تراهم رُكّعاً سُجّداً﴾ عليّ!!؟.

وأعجب من ذلك قول بعضهم: ﴿والتّين﴾[سورة التين/ ١-٣]: أبو بكر، ﴿والزيتون﴾ عمر، ﴿وطور سِنين﴾ عثمان، ﴿وهذا البلدِ الأمين﴾ عليّ!؟.

وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لايدلُّ عليه بحال، فإنّ هذه الألفاظ لاتدلُّ على هؤلاء الأشخاص بحال، وقوله تعالى: ﴿والّذينَ معه أشدّاءُ على الكُفّار رُحماءُ بينهم تراهم رُكّعاً سُجّداً﴾ كلُّ ذلك نعتٌ للذين معه، وهي التي يسمّيها النُّحاة: خبراً بعدَ خبرٍ.

والمقصود هنا أنّها كلها صفاتٌ لموصوف واحد، وهم الذين معه، ولايجوز أن يكون كلُّ منها مراداً به شخص واحد!؟ وتتضمن تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصراً في شخص واحد، كقوله: إنّ قوله تعالى: ﴿إنّما وَلِيُّكُمُ الله ورسولُهُ والّذين

آمنوا﴾ [سورة المائدة/ ٥٥] أُريد بها عليٌّ وحده!؟ وقول بعضهم: إنّ قوله تعالى: ﴿والذي جاءَ بالصّدْقِ وصدّقَ به﴾[سورة الزمر/ ٣٣] أُريد بها أبو بكر وحده!؟ وقوله تعالى: ﴿لايستوي منكم مَنْ أنفقَ مِنْ قبلِ الفتحِ وقاتل﴾[سورة الحديد/ ١٠] أريدَ بها أبو بكر وحده!؟ ونحو ذلك.

حكم من عدل عن مذهب السلف:

وفي الجملة: مَنْ عدَلَ عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى مايخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه!!.

فالمقصود: بيان طُرق العلم وأدلّته، وطُرق الصواب. ونحن نعلم أنّ القرآن قرأه الصحابة والتابِعُون وتابِعُوهم، وأنّهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنّهم أعلم بالحقّ الذي بَعثَ الله به رسولَهُ ﷺ، فمن خالفَ قولَهم وفسَّرَ القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً. ومعلومٌ أنّ كُلَّ مَنْ خالف قولَهم له شبهةٌ يذكرها؛ إمّا عقلية، وإمّا سمعية، كما هو مبسوط في موضعه.

والمقصودُ هُنَا: التنبيهُ على مَثَارِ الاختلاف في التفسير، وأنّ من أعظم أسبابه: البدع الباطلة التي دعتْ أهلَها إلى أن حرَّفُوا الكَلِمَ عن مواضعه، وفسّروا كلامَ الله ورسولهﷺ بغير ماأُريدَ به، وتأوّلُوه على غير تأويله!!.

فمن أصول العلم بذلك: أن يعلمَ الإنسانُ القولَ الذي خالفوه، وأنّه الحق، [يعني قول السلف] وأن يعرف أنّ تفسير السلف يُخالف تفسيرهم، وأن يعرف أنّ تفسيرهم محدَث مبتدَع، ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فسادَ تفسيرهم بما نصبَهُ الله من الأدلّة على بيان الحقِّ!!.

وكذلك وقع من الذين صنّفُوا في شرح الحديث وتفسيره من المتأخرين من جنس ماوقع بما صَنَعُوهُ من شرح القرآن وتفسيره.

وأمّا الذين يُخطئون في الدليلِ لافي المدلول؛ فمثل كثيرٍ من الصوفية، والوعاظ، والفقهاء، وغيرهم؛ يفسّرون القرآن بمعانٍ صحيحةٍ لكنّ القرآن لايدلُّ عليها، مثل كثير ممّا ذكره أبو عبد الرحمن السلمي [النيسابوري] في «حقائق التفسير» وإن كان فيما ذكروه ماهو معان باطلة، فإن ذلك يدخل في القسم الأول، وهو الخطأ في الدليل والمدلول جميعاً، حيث يكون المعنى الذي قصدوه فاسداً.

الأصل الثالث: أحسَنُ طُرقِ التفسير

قال رحمه الله تعالى:[1]

فإنْ قال قائل: فماأحسنُ طُرق التفسير؟

فالجوابُ: إنّ أصحَّ الطرق في ذلك أن يُفسَّرَ القرآنُ بالقرآنِ؛ فما أُجْمِلَ في مكان فإنّه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وماختصر في مكان فقد بُسِط في موضع آخر.

فإن أعياك ذلك فعليك بالسُّنّة؛ فإنّها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ماحكم به رسول الله ﷺ فهو ممّا فهمه من القرآن! قال الله تعالى: ﴿إنّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ لتحكُمَ بينَ النّاس بما أراكَ الله ولاتكُنْ للخائنينَ خصيماً﴾ [سورة النساء/ ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وأنزلنا إليكَ الذِّكْرَ لِتُبيِّنَ للنّاسِ مانُزِّلَ إليهم ولعلّهم يتفكَّرُون﴾ [سورة النحل/ ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وماأنزلنا عليكَ الكتابَ إلاّ لِتُبيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفُوا فيهِ وهُدىً ورحمةً لقومٍ يُؤْمِنُون﴾ [سورة النحل/ ٦٤]، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألاَ إنّي أُوْتِيْتُ القرآنَ ومِثْلَهُ معَهُ» [أخرجه أبو داود والترمذي] يعني السنّةَ، والسنّةُ أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن، لاأنّها تُتْلَى كما يُتْلَى.

وقد استدلَّ الإمامُ الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلّة كثيرة، ليسَ هذا موضع ذلك.

والغرضُ: أنّك تطلب تفسير القرآن منه، فإنْ لم تجدْهُ فمِنَ السنّة، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذٍ حين بعثَهُ إلى اليمن: (بِمَ تحكم)؟ قال: بكتاب الله، قال: (فإن لم تجدْ)؟ قال: بسنّة رسول الله، قال: (فإنْ لم تجدْ)؟ قال: أجتهِدُ رأيي، قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال (الحمدُ لله الذي وفّقَ رسولَ رسولِ الله لِما يُرضِي رسولَ الله)!! وهذا الحديث في المسانيد والسنن بإسنادٍ جيِّدٍ!!.

تفسير القرآن بأقوال الصَّحابة:

وحينئذ إذا لم تجدِ التفسيرَ في القرآن ولا في السّنّة رجعتَ في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنّهم أدْرى بذلك؛ لِما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصُّوا بها، ولِما لهم من الفهمِ التامِّ والعلمِ الصحيح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص٩٣ـ١٠٥/

الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود؛ قال الإمام أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري:

حدّثنا أبو كريب، قال: أنبأنا جابر بن نوح، أنبأنا الأعمش عن أبي الضُّحىَ عن مَسْرُوقٍ، قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: «والذي لاإلهَ غيره مانزلتْ آيةٌ من كتابِ الله إلاّ وأنا أعلمُ فيمَنْ نزلتْ وأينَ نزلتْ، ولو أعلم مكانَ أحدٍ أعلمَ بكتاب الله، منّي تناله المَطَايَا لأتيتُه»!!.[1]

وقال الأعمش - أيضاً - عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: «كان الرجلُ منّا إذا تعلّمَ عشرَ آياتٍ لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانِيَهُنَّ والعملَ بهنّ»[2].

ومنهم الحَبْرُ البحرُ «عبد الله بن عباس» ابن عمِّ رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: (اللّهمّ فَقِّهْهُ في الدِّين وعَلِّمْهُ التأويل). وقال ابن جرير.. قال عبد الله بن مسعود: «نِعْمَ ترجمان القرآن ابن عَباس»!!.

تفسير السّدّي:

ولهذا فإنّ غالب مايرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين: ابن مسعود، وابن عباس! ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكون من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: (بَلِّغُوا عنّي ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيلَ ولاحَرجَ، ومَنْ كذبَ عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعَدَهُ فِي النّار)، رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو.

ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكانَ يحّدث منهما، بما فهِمَهُ من هذا الحديث من الإذْنِ في ذلك.

الغاية من ذكر الأخبار الإسرائيلية:

ولكنّ هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذْكَرُ للاستشهاد لاللاعتقاد؛ فإنّها على ثلاثة أقسام، أحدها: ماعلمنا صحتّهُ ممّا بأيدينا ممّا يشهدُ له بالصدق، فذاك صحيح. والثاني: ماعلمنا كذبَهُ بما عندنا ممّا يُخالفه. والثالث: ماهو مسكوت عنه، لامن هذا القبيل، ولامن هذا القبيل؛ فلا نُؤمن به ولانكذّبه، وتجوز حكايته، لِما تقدّم. وغالب ذلك ممّا لافائدة فيه تعود إلى أمرٍ دينيٍ!!.

---

(١) تفسير الطبري ج١/ ٨٠/.

(٢) وقد تقدم نحو هذا عن أبي عبد الرحمن السلمي في أول البحث.

تفسير القرآن بأقوال التابعين:

إذا لم تجدِ التفسير في القرآن ولافي السنّة، ولاوجدته عن الصحابة؛ فقد رجعَ كثيرٌ من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، فإنّه آيةٌ في التفسير!! كما قال محمد بن إسحاق: حدّثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضتُ المصحفَ على ابن عباس ثلاث عَرَضاتٍ من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عندَ كلٍّ منه وأسأله عنها!!.

وبه إلى الترمذي قال: حدّثنا الحسين بن مهدي البصري، حدّثنا عبد الرزاق، عن معمر عن قتادة قال: مافي القرآن آية إلاّ وقد سمعتُ فيها شيئاً!!.

وبه إليه: عن الأعمش قال: قال مجاهد: لو كنتُ قرأتُ قراءةَ ابن مسعود لم أحتجْ أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن ممّا سألتُ.

وقال ابن جرير: عن ابن أبي مُليكة قال: رأيتُ مجاهداً سأل عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، قال ابن عباس: اكتبْ، حتى سأله عن التفسير كله!!.

ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءَكَ التفسيرُ عن مجاهد فحسبُكَ به!!. وكسعيد بن جُبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم، ومَنْ بعدهم!!.

فتُذكر أقوالُهمُ في الآية، فيقعُ في عباراتهم تباينٌ في الألفاظ يحسبها من لاعلم عنده اختلافاً، فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك؛ فإنّ منهم مَنْ يُعبّرُ عن الشيءِ بلازمه أو نظيره. ومنهم مَنْ ينصُّ على الشيء بعَينه. والكلُّ بمنىً واحدٍ في كثيرٍ من الأماكن، فليتفطن اللّبيبُ لذلك. والله الهادي.

قاعدة مهمة في مكانة أقوال التابعين:

وقال شعبةُ بنُ الحجاج وغيرهُ: أقوال التابعينِ في الفروع ليست حُجّة، فكيف تكون حجة في التفسير؟! يعني: أنّها لاتكون حُجّةً على غيرهم ممّن خالفهم. وهذا صحيح، أمّا إذا اجتمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه حُجّة، فإنِ اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجّة على بعض، ولا على مَن بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السُّنّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك!!.[1]

---

(١) مقدمة في أصول التفسير/ ١٠٥.

البحث الثاني

التأويل والتفسير

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى[1]:

التأويلُ: في عُرْفِ المتأخرين من المتفقهة والمتكلّمة والمتصوّفة ونحوهم هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذي يتكلّمون عليه في أصول الفقه، ومسائل الخلاف. فإذا قال أحدهم: هذا الحديث أو هذا النّصُّ مؤوّلٌ أو هو محمولٌ على كذا؛ قال الآخر: هذا نوعُ تأويلٍ، والتأويل يحتاج إلى دليل.

والمتأوّل عليه وظيفتان: بيانُ احتمال اللفظ للمعنى الذي ادّعاه، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر، وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات إذا صنّفَ بعضُهم في إبطال التأويل، أو ذمّ التأويل، أو قال بعضهم: آياتُ الصفات لاتُؤوّل، وقال الآخر: بل يجب تأويلها، وقال الثالث: بل التأويل جائزٌ يُفعل عندَ المصلحة ويُترك عندَ المصلحة، أو يصلح للعلماء دون غيرهم، إلى غير ذلك من المقالات والتنازع.

التأويل عند السلف:

وأمّا التأويل في لفظ السلف فله معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أم خالفه، فيكون التأويلُ والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً. وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي عناه مجاهد: أنّ العلماء يعلمون تأويله، ومحمد بن جرير الطبري، يقول في تفسيره: القولُ في تأويل قوله تعالى كذا وكذا، واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك، ومراده التفسير.

والمعنى الثاني: في لفظ السلف ـ وهو الثالث من مسمّى التأويل مطلقاً هو: «نفس

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج١٣/٢٨٨ـ٣١٣/ باختصار.

المراد بالكلام»؛ فإنّ الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المُخْبَر به.

وبين هذا المعنى والذي قبله بَوْنٌ؛ فإنّ الذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام؛ كالتفسير والشرح والإيضاح، ويكون وجود التأويل في القلب واللسان له الوجود الذهني واللفظي والرسمي.

وأمّا هذا [وهو الثالث من مسمّى التأويل] فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج، سواء كانت ماضية أو مستقبلة... فتأويل الكلام هو الحقائق الثابتة في الخارج بما هي عليه من صفاتها وشؤونها وأحوالها، وتلك الحقائق لاتعرف على ماهي عليه بمجرّد الكلام والإخبار إلاّ أن يكون المستمع قد تصوّرها أو تصوّر نظيرها بغير كلام وإخبار، لكن يعرف من صفاتها وأحوالها قدر ماأفهمه المُخَاطِبُ: إمّا بضرب المثل، وإمّا بالتقريب، وإمّا بالقدر المشترك بينها وبين غيرها، وإمّا بغير ذلك.

وهذا الوضعُ والعُرْف الثالث هو لغة القرآن التي نزلَ بها.

قال الله تعالى: ﴿فإن تَنَازَعْتُمْ في شيءٍ فردُّوهُ إلى الله والرَّسولِ إنْ كنتُمْ تؤمنُون بالله واليومِ الآخرِ، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾ [سورة النساء/٥٩]؛ قالوا: أحسن عاقبة ومصيراً. فالتأويل هنا: تأويل فعلهم الذي هو الردُّ إلى الكتاب والسنّة. والتأويلُ في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا؛ فتأويلها هي نفس مدلولها التي تؤول إليه[1]. والتأويل في الأعراف ويُونس[2] تأويل القرآن، وكذلك في سورة آل عمران[3].

فالتأويل: هو ماأُوّل إليه الكلام أو يؤول إليه، أو تأوّل هو إليه. والكلامُ إنّما يرجع ويعود ويستقرّ، ويَؤُول ويُؤوّل إلى حقيقته التي هي عين المقصود به، كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿لكلِّ نبأٍ مستقرّ﴾ [سورة الأنعام/٦٧] قال: حقيقة، فإنّه إن كان خبراً فإلى الحقيقة المخبر بها يَؤُول ويرجع، وإلاّ لم تكن له حقيقة ولامآل ولامرجع، بل كان كذباً. وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع، وإن لم يكن مقصوده موجوداً ولاحاصلاً. ومتى كان الخبرَ وعداً أو وعيداً فإلى الحقيقة

---

(١) سورة يوسف آية/ ٦، ٢١، ٤٤، ١٠٠، ١٠١/.

(٢) سورة الأعراف/ ٥٣/ وسورة يُونس/ ٣٩/.

(٣) سورة آل عمران/ ٧/ : ﴿ومايعلمُ تأويلَهُ إلاّ الله..﴾. والتأويل في سورة الكهف/ ٧٨، ٨٢/ : ﴿ذلك تأويل مالم تسطعْ عليه صبراً﴾ فهو تأويل عمل لاتأويل قول.

المطلوبة المنتظرة يؤول، كما رُوي عن النبي ﷺ أنّه تلا هذه الآية: ﴿قُلْ هو القادِرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً مِن فوقِكم أو مِن تحتِ أرجلِكم أو يلبسَكم شيعاً﴾ [سورة الأنعام/ ٦٥] قال: (إنّها كائنةٌ ولم يأتِ تأويلها بعدُ).

تأويل الأسماء والصفات:

وأمّا إدخال أسماء الله تعالى وصفاته في المتشابه الذي لايعلم تأويله إلاّ الله، أو اعتقاد أنّ ذلك هو المتشابه الذي استأثرَ الله بعلم تأويله.. وأنّه لايُفهم معناه؛ فإني ماأعلم عن أحد من سلف الأمة ولامن الأئمة، لاأحمد بن حنبل ولاغيره أنّه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية، ونفَى أن يعلم أحدٌ معناه. وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لايُفهم، ولاقالوا: إنّ الله يُنزِّل كلاماً لايفهم أحدٌ معناه، وإنّما قالوا كلمات لها معان صحيحة. قالوا في أحاديث الصفات: تمرُّ كما جاءت. ونهَوْا عن تأويلات الجهمية وردُّوها وأبطلوها..

ونصوص أحمد والأئمة قبله بيّنةٌ في أنّهم كانوا يُبطلون تأويلات الجهمية ويُقرّون النصوص على مادلّتْ عليه من معناه، ويفهمون منها بعض مادلّت عليه، كما يفهمون ذلك من سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وأمّا التأويل الذي اختصَّ الله به فحقيقة ذاته وصفاته؛ كما قال مالك: والكيف مجهول. فإذا قالوا: ماحقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره؟ قيل: هذا هو التأويل الذي لايعلمه إلاّ الله!!.

وماأحسن مايُعاد التأويل إلى القرآن كله!!.

فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ لابن عباس: (اللهم فَقِّهْهُ في الدِّين وعلّمْهُ التأويل)؟ قيل: أما تأويل الأمرِ والنهي فذاك يعلمه، واللام هنا للتأويل المعهودَ، ولم يقلْ: تأويل كل القرآن؛ فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لايعلم حقيقة مخبرها إلاّ الله، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله، وهذا كقوله تعالى: ﴿هَلْ ينظرون إلاّ تأويله، يومَ يأتي تأويله﴾ [سورة الأعراف/ ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿بل كذَّبوا بما لمْ يُحيطوا بعلمِه ولمّا يأتِهم تأويله﴾ [سورة يونس/ ٣٩]؛ فإنّ المراد تأويل الخبر الذي أخبرَ فيه عن المستقبل، فإنّه هو الذي «ينتظر» و «يأتي» و«لمّا يأتِهم». وأمّا تأويل الأمر والنهي فذاك في الأمر والنهي. وتأويل الخبر عن الله وعمّن مضىَ إن أُدخل في التأويل

لايُنتظَرُ. والله سبحانه أعلم.

وقال رحمه الله في قول الإمام مالك: «والكيف مجهول» لما سُئل عن الاستواء:

ولو أراد لقال: معنى الاستواء مجهول، أو تفسير الاستواء مجهول، أو بيان الاستواء غير معلوم؛ فلم ينفِ إلاّ العلم بكيفيّة الاستواء لاالعلم بنفس الاستواء.

وهذا شأن جميع ماوصف الله به نفسه[1].

فلو قال أحدٌ في قوله تعالى: ﴿إنّني معكما أسمعُ وأرىَ﴾ كيفَ يسمعُ؟ وكيف يَرىَ؟ لقلنا: السمعُ والرؤيا معلومٌ والكيف مجهول!! ولو قال: كيفَ كلَّمَ موسى تكليماً؟ لقلنا: التكليمُ معلومٌ والكيفُ غير معلومٍ!!.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج١٣/٣١٠.

البحث الثالث

حكم تفسير القرآن بالرّأي

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

فأمّا تفسير القرآن بمجرّد الرأي فحرام؛ حدّثنا مؤمّل، حدّثنا سفيان، حدثنا عبد الأعلى، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ قال في القرآنِ بغيرِ علمٍ فليتبوَّأ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ) [ورواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن / ١/ وقال: هذا حديث حسن صحيح].

وهكذا رُوي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنّهم شدّدوا في أنْ يفسَّرَ القرآن بغير علم.

وأمّا الذي رُوي عن مجاهد وقتادة، وغيرهما من أهل العلم أنّهم فسّروا القرآن؛ فليس الظنّ بهم أنّهم قالوا في القرآن أو فسّروه بغير علم، أو من قبل أنفسهم.

وقد رُوي عنهم مايدلّ على ماقلنا: أنّهم لم يقولوا مِن قِبلِ أنفسهم بغير علم. فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلّف مالاعلم له به، وسلك غير مَاأمر به. فلو أنّه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنّه لم يأت الأمرَ من بابه![1] كمَنْ حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن رافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممّن أخطأ. والله أعلم. وهكذا سمّى الله تعالى القَذَفَةَ كاذبين، فقال: ﴿فإذ لم يأتُوا بالشُّهَداءِ فأولئِكَ عندَ الله هُمُ الكاذِبون﴾[سورة النور/ ١٣]، فالقاذف كاذب، ولوكان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنّه أخبر بما لايحلُّ له الإخبار به، وتكلّف مالاعلم له به. والله أعلم[2].

ولهذا تحرّج جماعة من السلف عن تفسير مالاعلم لهم به، كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرّة، عن أبي معمر، قال: قال أبو بكر الصديق: أيُّ أرضٍ

---

(١) وقد روى أن رسول الله ﷺ قال: (مَن قال في القرآن برأيه فأصابَ فقد أخطأ) رواه الترمذي، وقال: غريب/ كتاب التفسير/ ١/.

(٢) مقدمة في أصول التفسير / ١٠٥ـ١١٥/ باختصار.

تقِلُّني وأيُّ سماءٍ تُظِلّني إذا قلتُ في كتاب الله مالاأعلم؟![1] .

وقال الليث عن يحيى بن سعيد: عن سعيد بن المسيب إنه كان لايتكلّم إلاّ في المعلوم من القرآن!!.

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السَّفَر، قال: قال الشعبي: والله مَامِن آيةٍ إلا وقد سألت عنها، ولكنّها الروايةُ عن الله!!.

وقال الشعبي عن مسروق، قال: اتّقوا التفسيرَ؛ فإنّما هو الرواية عن الله!!. فهذه الآثار الصحيحة وماشاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرّجهم عن الكلام في التفسير بمالاعلم لهم به، فأمّا مَن تكلّم بما يعلم من ذلك لغةً وشرعاً فلا حَرَجَ عليه.

ولهذا رُوي عن هؤلاء وغيرهم أقوالاً في التفسير، ولامُنَافاة؛ لأنّهم تكلّمُوا فيما علموه، وسكتوا عمّا جهلوه. وهذا هو الواجب علىٰ كل أحد، فإنّه كما يجب السكوتُ عمّا لاعلمَ له به، فكذلك يجب القول فيما سُئل عنه ممّا يعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ للنّاس ولاتَكْتُمُونَهُ﴾ [سورة آل عمران/١٨٧]، ولِما جاء في الحديث المرويّ من طُرُقٍ: (مَنْ سُئِلَ عَنْ علمٍ فكتَمَهُ أُلجِمَ يومَ القيامة بِلِجامٍ مِنْ نارٍ) [رواه الطبراني ورجاله موثّقون].

وروى ابن جرير أنّ ابْن عباس قال:

التفسيرُ على أربعة أوجهٍ: وجهٌ تعرفهُ العربُ من كلامها. وتفسيرٌ لايُعْذَرُ أحدٌ بجهالته. وتفسيرٌ يعلمهُ العلماءُ. وتفسيرٌ لايعلمُه إلاّ الله تعالى. والله سبحانه أعلم.

حكم تفسير الباطنية:

قال رحمه الله تعالى:[2]

وأمّا الباطنُ المخالف للظاهر لمعلومٍ فمثل مايدعيه الباطنية القرامطة من الإسماعيلية وأمثالهم، ممّن وافقهم من الفلاسفة وغُلاة المتصوّفة والمتكلمين.

وشرّ هؤلاء «القرامطة» فإنّهم يدّعون أنّ للقرآن والإسلام باطناً يخالف الظاهر؛ فيقولون: الصلاة المأمور بها ليست هذه الصلاة، أو هذه الصلاة إنّما يُؤمر بها العامّة، وأمّا الخاصة فالصلاة في حقهم معرفة أسرارنا. والصيامُ كتمان أسرارنا. والحجُّ السفرُ

---

(١) وذلك لمّا سُئل عن قوله تعالى: ﴿وفاكهةً وأبّاً﴾ ماهو الأبّ؟ فقال ذلك، وكان هذا اللفظ لم يطرق سمعه من لغة العرب.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج١٣/ ٢٣٦ـ٢٤٠/ .

إلى زيارة شيوخنا المقدّسين.

ويقولون: إنّ الجنّة للخاصّة: هي التمتع في الدنيا باللّذات. والنّار: هي التزام الشرائع والدخول تحت أثقالها.

ويقولون: إنّ الدابّة التي يخرجها الله للنّاس هي العالم الناطق بالعلم في كل وقت. وإنّ إسرافيل الذي ينفخ في الصور هو العَالِمُ الذي ينفخ بعلمه في القلوب حتى تحيا. وجبريل: هو العقل الفعّال الذي تفيض عنه الموجودات. والقلمُ: هو العقل الأول الذي تزعم الفلاسفة: إنّه المبدع الأول. وأنّ الكواكب والقمر والشمس التي رآها إبراهيم هي النفس والعقل وواجب الوجود. وأنّ الأنهار الأربعة التي رآها النبي ﷺ ليلة المعراج هي العناصر الأربعة. وأنّ الأنبياء التي رآها في السماء هي الكواكب، فآدم هو القمر، ويوسف هو الزهرة، وإدريس هو الشمس، وأمثال هذه الأمور.

وقدْ دخلَ في كثير من أقوال هؤلاء كثيرٌ من المتكلّمين والمتصوّفين؛ لكنّ أولئك القرامطة ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفرُ المحض!؟.

وعامّة الصوفية والمتكلّمين ليسوا رافضة يُفسّقون الصحابة، ولايكفرونهم؛ لكن فيهم مَنْ هو كالزيدية الذين يُفضّلون علياً على أبي بكر، وفيهم مَنْ يفضل علياً في العلم الباطن كطريقة الحربيّ وأمثاله، ويدّعون أنّ علياً كان أعلم بالباطن، وأنّ هذا العلم أفضل من جهته، وأبو بكر كان أعلم بالظاهر. وهؤلاء عكس محققي الصوفية وأئمتهم، فإنّهم متفقون على أنّ أعلم الخلق بالعلم الباطن هو أبو بكر الصديق، وقد اتفق أهل السنّة والجماعة على أنّ أبا بكر أعلم الأمّة بالباطن والظاهر، وحكي الإجماع على ذلك غير واحد.

تفسيرات الباطنية:

وهؤلاء الباطنية قد يفسّرون: ﴿وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ في إمامٍ مُبين﴾[سورة يسٓ/ ١٢]؛ أنّه عليّ!؟ ويُفسّرون قوله تعالى: ﴿تبّتْ يَدَا أبي لهبٍ وتبَّ﴾ [سورة المسد/ ١] بأنهما أبو بكر وعمر!؟ وقوله تعالى: ﴿فقاتِلُوا أئمةَ الكفر﴾ [سورة التوبة/ ١٢] أنّهم طلحة والزبير. وقوله: ﴿والشجرةَ الملعونةَ في القرآنِ﴾ [سورة الإسراء/ ٦٠] بأنّها بنو أميّة!؟.

الباطنية الصوفيه:

وأمّا باطنية الصوفية فيقولون في قوله تعالى: ﴿اذهبْ إلى فرعون﴾ [سورة طه/ ٢٤] إنّه القلب!؟ وقوله: ﴿إنّ الله يأمرُكم أن تذبحوا بقرة﴾ [سورة البقرة/ ٦٧]؛ إنها

النفس!؟ ويقول أولئك [أي الرافضة] هي عائشة!؟ ويُفسّرون هم والفلاسفة تكليم موسى بما يفيض عليه من العقل الفعّال أو غيره، ويجعلون: ﴿فاخْلَعْ نعليك﴾ [سورة طه/ ١٢] ترك الدنيا والآخرة!؟ ويفسّرون الشجرة التي كلّم منها موسى و﴿الوادِي المقدّس﴾ [سورة طه/ ١٢] ونحو ذلك بأحوالٍ تعرض للقلب عند حصول المعارف له، وممّن سَلَكَ ذلك صاحب «مشكاة النوار» وأمثاله، وهي ممّا أعظم المسلمون إنكاره عليه، وقالوا: أمرضَهُ «الشفاء»[1]، وقالوا: دخل في بطون الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج فما قدر!! ومن النّاس من يطعن في هذه الكتب، ويقول: إنّها مكذوبة عليه. وآخرون يقولون: بل رجع عنها، وهذا أقرب الأقوال؛ فإنّه قد صرّح بكفر الفلاسفة في مسائل، وتضليلهم في مسائل أكثر منها وصرّح بأنّ طريقتهم لاتوصل إلى المطلوب.

باطنية الفلاسفة:

وباطنية الفلاسفة يُفسّرون الملائكة والشياطين بقوى النفس، وماوعد النّاس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم مايقوم بالنفس بعد الموت من اللّذة والألم، لابإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها ويتألّم بها، وقد وقع في هذا الباب في كلام كثير من متأخري الصوفية، مالم يُوجدْ مثلُهُ عن أئمتهم ومتقدّمين، كما وقع في كلام كثير من متأخري أهل الكلام والنظر من ذلك مالايُوجد عن أئمتهم ومتقدّميهم.

وهؤلاء المتأخرين ـ مع ضلالهم وجهلهم ـ يدّعون أنّهم أعلمُ وأعرف من سلفِ الأُمّة ومتقدّميها، حتى آل الأمرُ بهم إلى أن جعلوا الوجودَ واحداً، كما فعل ابن عربي صاحب «الفصُوص» وأمثاله، فإنّهم دخلوا من هذا الباب حتى خرجوا من كلّ عقلٍ ودين!! وهم يدّعون مع ذلك أنّ الشيوخ المتقدمين: كالجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري، وإبراهيم الخواص، وغيرهم ماتوا وماعرفوا التوحيد...

ثم إنّهم [أي باطنية الفلاسفة] يدّعون أنّهم أعلم بالله من المرسلين، وأنّ الرسل إنّما تستفيد معرفة الله من مشكاتهم!؟ ويُفسّرون القرآن بما يُوافق باطنهم الباطل، كقوله تعالى: ﴿مما خطيئاتِهم﴾ [سورة نوح/ ٢٥] فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله!؟ وقولهم: إنّ العذاب مشتق من العذوبة!؟ ويقولون!؟ ويقولون: إنّ كلام نوحٍ في حقّ قومه ثناءٌ عليهم بلسان الذم!؟ ويُفسّرون قوله تعالى: ﴿إنّ الّذين كفرُوا سواءٌ عليهم أنذرتهم أمْ لمْ تُنْذِرْهُم لايُؤمنون﴾ [سورة البقرة/ ٦] بعلم الظاهر، بل ﴿خَتَمَ الله

---

(١) وهوكتاب في الفلسفة وضعه ابن سينا، والمقصود هنا الإمام الغزالي.

على قلوبهم﴾ فلا يعلمون غيره ﴿وعلى سمعهم وعلى أبصارهم﴾ فلا يسمعون من غيره ولايرون غيره، فإنّه لاغير له فلا يرون غيره[1] !؟.

ويقولون في قوله تعالى: ﴿وقضى ربُّكَ ألاّ تعبُدُوا إلاّ إيّاهُ﴾ [سورة الإسراء/ ٢٣]، أنّ معناه: قدّرَ ذلك، لأنّه ليس ثَمَّ موجود سواه، فلا يُتصوّر أن يُعبد غيره، فكلّ مَنْ عبد الأصنام والعجل ماعبَدَ غيرَهُ، لأنّه ماثَمَّ غيرا؟ وأمثال هذه التأويلات والتفسيرات التي يعلم كلُّ مؤمن وكلُّ يهودي ونصراني علماً ضرورياً إنّها مخالفة لِما جاءتْ به الرسل، كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين.

مزاعم ابن سينا وأصحاب رسائل إخوان الصفا:

إنّ القرامطة وأمثالهم من الفلاسفة يقولون[2] :

إنّه [أي النبي ﷺ] أظهر خلاف ماأبطن؛ وأنّه خاطب العامّة بأمورٍ أرادَ بها خلاف ماأفهمهم لأجل مصلحتهم؛ إذْ كان لايمكنه صلاحهم إلاّ بهذا الطريق، وقد زعم ذلك ابن سينا وأصحاب «رسائل إخوان الصفا» وأمثالهم من الفلاسفة والقرامطة الباطنية؛ فإنّ ابن سينا كان هو وأهل بيته من أتباع الحاكم القرمطي العبيدي، الذي كان بمصر.

وقول هؤلاء كما أنه من أكفر الأقوال فجهلهم من أعظم الجهل!!..

الملاحدةُ شرٌّ من المنافقين:

والملاحدةُ يُظهرن موافقة المسلمين ويُبطنون خلاف ذلك.

وهم شرٌّ من المنافقين؛ فإنّ المنافقين نوعان:

نوعٌ يُظهر الإيمانَ ويبطِنُ الكفرَ، ولايدّعي أنّ الباطن الذي يُبطن من الكفر هو حقيقة الإيمان، والملاحدةُ تدّعي أنّ ماتبطن من الكفر هو حقيقة الإيمان!!؟ وأنّ الأنبياء والأولياء هم من جنسهم، يُبطنون مايُبطنونه ممّا هو كفرٌ وتعطيل، فهم يجمعون بين إبطان الكفر وبين دعواهم أنّ ذلك الباطن هو الإيمان عند أهل العرفان، فلا يظهرون للمستجيب لهم أنّ باطنَهُ طعنٌ في الرسول ﷺ والمؤمنين، وتكذيب له، بل يجعلون ذلك من كمال الرسول وتمام حاله، وأنّ الذي فعله هو الغاية في الكمال...

---

(١) ومثل هذا التفسير الإلحادي في تفسير القاشاني ـ أحد الملاحدة ـ الذي وضعه ونسبه إلى ابن عربي؛ ليروّجه بين الناس.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج١٣/ ٢٤٩/ .

وهذا قد يظنّه طوائف حقّاً باطناً وظاهراً، فيؤول أمرُهم إلى أن يكون النفاق عندهم هو حقيقة الإيمان، وقدْ عُلِمَ بالاضطرار أنّ النفاقَ ضِدُّ الإيمان.

مدخل الملاحدة: التشيع والرفض:

ولهذا كان أعظم الأبواب التي يدخلون منها باب التشيّع والرفض؛ لأنّ الرافضة هم أجهل الطوائف وأكذبها وأبعدها عن معرفة المنقول والمعقول، وهم يجعلون التقية من أصول دينهم، ويكذبون على أهل البيت كذباً لايحصيه إلاّ الله، حتى يرووا عن جعفر الصادق أنّه قال: «التقيةُ ديني ودين آبائي»!؟ و«التقيةُ» هي شعار النفاق؛ فإنّ حقيقتها عندهم أن يقولوا بألسنتهم ماليس في قلوبهم، وهذا حقيقة النفاق!!.

ثم إذا كان هذا من أصول دينهم صارَ كلُّ ماينقله الناقلون عن عليّ أوغيره من أهل البيت ممّا فيه موافقة أهل السنّة والجماعة يقولون: هذا قالوه على سبيل التقيّة؛ ثم فتحوا باب النفاق للقرامطة الباطنية.. ونحوهم؛ فجعلوا مايقوله الرسول ﷺ هو من هذا الباب [باب النفاق والإلحاد][1] !..

فنسأل الله العظيم أن يصلح ظواهرنا وبواطننا، ويوفّقنا لما يحبه ويرضاه من جميع أمورنا بمنّه وكرمه..

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج١٣/ ٢٦٢ـ٢٦٤/

البحث الرابع

حكم ترجمة معاني القرآن لغير العرب

جواز اتخاذ المترجم:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:[١]

وكذلك يمكن أن يُقرأَ من نسخةٍ مترجمة بالعربية؛ قد ترجمها الثقات من المسلمين، كزيد بن ثابت ونحوه لمّا أمره النبي ﷺ أن يتعلّم ذلك، والحديث معروف في السنن[٢]، وقد احتج به البخاري في باب «ترجمة الحاكم، وهل يجوز [اتخاذ] ترجمان؟ قال: وقال خارجة بن زيد بن ثابت عن زيد بن ثابت: «أنّ النبي ﷺ أمره أن يتعلّم كتاب اليهود، حتى كتبتُ للنبي ﷺ كتبه، وأقرأتُهُ كتبَهم إذا كتبُوا إليه»[٣].

يشترط في المترجم أن يكون مسلماً ثقةً:

قال رحمه الله تعالى:[٤]

[تجوز] بواسطة المترجمين الثقات من المسلمين.

[فإنّ غير المسلمين كاليهود] فإنّهم كانوا: ﴿يلوون ألسنتَهُمْ بالكتابِ لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب﴾ [سورة آل عمران/٧٨] و﴿يكتبون الكتابَ بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾ [سورة البقرة/٧٩]، ويكذبون في كلامهم وكتابهم، فلهذا لاتقبل الترجمة إلا من ثقة [من المسلمين].

وإذا كان من المعلوم: أنّ أكثر المسلمين، بل أكثر المتسبين منهم إلى العلم، لايقومون بترجمة القرآن وتفسيره وبيانه؛ فلأن يعجز غيرُهم عن ترجمة ماعنده وبيانه

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٤/ ١١١/ وكتاب نقض المنطق: لابن تيمية ص٩٣/ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب العلم.

(٣) البخاري تعليقاً في كتاب الأحكام/ ٤٠/ .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج٤/ ١١٢/ ونقض المنطق له ص٩٢/ ٩٣/ .

أولى بذلك؛ لأنّ عقل المسلمين أكمل.. ولغتهم أوسع..[1]

ترجمة معاني القرآن ليست قرآناً:

قال رحمه الله تعالى:[2]

فكذلك إذا قُدّر أنّا ترجمنا القرآن ترجمة جائزة؛ لم يُقَلْ: إنّ الترجمة «قرآن»، ولم نُسَمِّها «قرآناً».

وذلك إن كان للترجمة ضرورة، كتعليم غير العرب معاني العقيدة من القرآن، وكذلك لتبليغ الدعوة إلى الأمم. ولغير ذلك فإنه رحمه الله تعالى يقول:[3]

ونحن مُنِعْنَا من ترجمة القرآن؛ لأنّ لفظَهُ مقصودٌ!!.

والترجمة [التفسيرية] ثلاث طبقات:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:[4]

والترجمة والتفسير ثلاث طبقات:

أحدها: ترجمة مجرّد اللّفظ، مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف، ففي هذه الترجمة تريد أن تعرف أنّ الذي يعني بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذي يعني باللفظ عند هؤلاء. فهذا علمٌ نافع؛ إذْ كثير من النّاس يقيّد المعنى باللفظ، فلا يجرده عن اللّفظين جميعاً.

والثاني: ترجمة المعنى وبيانه، بأن يصوّر المعنى للمخاطب، فتصوير المعنى له وتفهيمه إيّاه قدرٌ زائد على ترجمة اللفظ، كما يشرح للعربي كتاباً عربياً قد سمع ألفاظه العربية، لكنّه لم يتصوّر معانيه ولافهمها، وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أو نظيره، إذْ هو تركيب صفات من مفرداتٍ يفهمها المخاطب يكون ذلك المركبُ صور ذلك المعنى: إمّا تحديداً وإمّا تقريباً.

الدرجة الثالثة: بيانُ صحة ذلك وتحقيقه بذكر الدليل والقياس الذي يُحقق ذلك المعنى، إمّا بدليل مجرّد وإمّا بدليل يبيّن علّة وجوده.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج٤/١١٦/ ونقض المنطق ص٩٨/ .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٦/ ٥٤٣/ .
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٢٢/ ٤٧٧/ .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٤/ ١١٥ـ١١٧/ ، ونقض المنطق له ص٩٧ـ٩٨/ .

وهنا قد يحتاج إلى ضرب أمثلة ومقاييس تفيده التصديق بذلك المعنى، كما يحتاج في «الدرجة الثانية» إلى أمثلة تصوّر له ذلك المعنى. وقد يكون نفس تصوّره مفيداً للعلم بصدقه. وإذا كفى تصوّر معناه في التصديق به لم يحتج إلى قياسٍ، ومَثَلٍ ودليلٍ آخرٍ.

فإذا عُرف القرآنُ هذه المعرفة؛ فالكلام الذي يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب... لابدّ فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضاً. وحينئذ فالقرآن فيه تفصيل كلِّ شيء، كما قال تعالى: ﴿ماكانَ حديثاً يفترىَ ولكنْ تصديق الذي بين يديهِ وتفصيلَ كلِّ شيءٍ﴾ [سورة يوسف/ ١١١]، وقال تعالى: ﴿ونزّلنا عليكَ الكتابَ تبياناً لكلِّ شيءٍ﴾ [سورة النحل/ ٨٩].

ومعلوم أنّ الأُمّة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه، كما أُمِرَ بذلك الرسول ﷺ، ولايكون تبليغ رسالة الله إلاّ كذلك.

وأنّ تبليغه إلى العجم قد يحتاج إلى ترجمة لهم، فيُترجم لهم بحسب الإمكان. والترجمة قد تحتاج إلى ضرب أمثال لتصوير المعاني؛ فيكون ذلك من تمام الترجمة.

البحث الخامس

أثر علم الكلام على بعض علماء الإسلام

حالة علم الكلام من نشأته إلى تأصيله ثم تفنيده

كانت العقيدة الإسلامية في عهدها النبوي صافيةَ المأخذ، سليمةً من كلّ العوائق التي لحقتها من جرّاء نشوء علم الكلام، يأخذها المسلمون عن كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ من غير مناقشة أو تردّد، فكانوا يعتقدون بآيات الصفات الإلٰهية وأحاديثها من غير أن يقفوا عند شيءٍ منها، ولايرون أنفسهم في حاجة إلى التصرّف بمعانيها من تأويل أو تشبيه أو تعطيل، بل كانوا يحرصون على الإيمان بها مع إدراك معانيها والتسليم في حقائقها لله تبارك وتعالى؛ من غير تكييف ولاتشبيه ولاتعطيل ولاتأويل، فكانوا بذلك يُؤمنون بما جاء عن الله تعالى على مراد الله تعالى، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ.

وقد كانت الآيات تنزل بالعقيدة واضحةً دُون لَبْسٍ أو غموض، ولم تُثِر هذه الآيات أيّة شبهة لدى الصحابة [الذين فَارَقُوا عقائدَ الوثنية والإشراك ودخلوا في عقيدة التوحيد والتنزيه والتقديس للإلٰهِ الخالق سبحانه] بل عَمِلَتْ على إزالة الشكوك من حول جذور الإيمان، فضلاً عن التعّرض لعقائد المشركين وأهل الكتاب؛ تُجادلُهم بالتي هي أحسن، تهزُّ فيهم العقولَ لإسقاط شوائبِ الشرك والإلحاد، في نفس الوقت الذي كانت هذه الآيات تهزُّ أفئدةَ المسلمين هزّاً عنيفاً لإثبات عقيدة التوحيد وغرس الإيمان الجازم في أنفسهم . .

وبذلك فهم الصحابةُ كلَّ ماطُلِبَ منهم الإيمان به بتصديق جازم، وتسليم كامل لجميع نصوص العقيدة من آياتٍ منزَّلة من عند الله أو أحاديث واردة عن رسول الله ﷺ! . .

فآمنوا بالله تعالى وتوحيد ربوبيّته وألوهيّته، وبالقضاء والقدر والبعث وأحواله

وأهواله.. وبأنّ القرآنَ كلامُ الله تعالى القديم، دون أن تثار لديهم أيّة تساؤلاتٍ مُريبة حول آيات وأحاديث الصفات من تشبيه أو تعطيل أو تأويل، ولاحول القرآن أهو مخلوق أم غير مخلوق؟! ولم يتعرّضوا لمسألة القضاء والقدر.. وهل الإنسان مسيّر أو مخيّر؟! وهل للعبد كسب في أفعاله؟ أو هو خالق لأفعال نفسه أو هي مخلوقة فيه؟!..

واستمرَّ حالُ السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم على ذلك المنهاج السويّ والطريق المستقيم في فهم العقيدة الإسلامية وحملها وتبليغها للشعوب الداخلة في دين الإسلام أفواجاً أفواجاً!.. إلى أن هبّتْ على المسلمين رياح الفلسفة اليونانية وماتبعها من هنديّة وفارسيّة وسواها من فلسفات عقائد الأمم السابقة..

فثارَ غبارُ الشك.. وعصفتْ رياحُ الجدال العنيف بين أصحاب الفرق التي تأثّرت بتلك الفلسفات الغربية الدخيلة.. حتى آلَ أمرُ غالبها إلى تكفير من يخالفها الرأي، ولوكان من صميم المسلمين وأهل التوحيد!؟..

وقد كانت بداية انتشار الأفكار الفلسفيّة في عهد الأمويين [٤١-١٣٢هـ]، عندما احتدم النقاش والحوار والجدال بين أصحاب تلك الفرق، وبخاصّة بين أولئك الذين كانوا متأثرين بتصوّرات معتقداتهم السابقة حول بعض المسائل التي سُرْعَانَ مااقتحمتِ الساحةَ الفكرية الإسلامية، مثل مسألة القضاء والقدر التي أثارها «معبد الجهني» [ت/ ٨٠هـ] وكان أول من تكلّم بالقدر، وأنّه أخذ ذلك عن نصراني يعرف بـ«الاسواري»[١]. وتبنّاها من بعده «غيلان الدمشقي» الذي بالغ بنفي القدر إلى أن همَّ به عمر بن عبد العزيز، فلم ينته عن مقالته في القدر، إلى أن أمر هشام بن عبد الملك بصلبه على باب دمشق[٢].

وكذلك مسألة القول بأنّ «القرآن مخلوق» وماأثاره «الجعد بن درهم» الفارسي الأصل، وكان مؤدباً لمروان بن الحكم، قتله خالد بن عبد الله القسري سنة/ ١٢٠هـ/ لمّا كان والياً لهشام بن عبد الملك على العراق. ومن بعده «الجهم بن صفوان» الذي ذهب إلى نفي الصفات الإلهية.

ونتجَ عن ذلك ظهورُ فرقٍ مختلفة متنازعة في فهم العقيدة، وكلها تدعو إلى أفكار غريبة عن الإسلام، كالجُهَنِيّة والجَهْمية والقدرية والمعتزلة والمرجئة، ومن قبلها

---

(١) الملل والنحل: للشهرستاني ج١/ ٤٧/ الهامش.
(٢) الملل والنحل: للشهرستاني ج١/ ٤٧/ الهامش.

الخوارج والشيعة.

وعلى أثر ظهور تلك الفرق نشأ علم الكلام، حيث لم ينشأ ضمنَ مرحلةٍ واحدة، بل تقلّب كثيراً بين أطوار مختلفة، ومرّت عليه مراحل عديدة.

يقول المؤرخ ابن خلدون [ت٨٠٨هـ] في علم الإلهيات[١] : يزعمون أنّه يوقفهم على معرفة الوجود على ماهو عليه، وإنّ ذلك عين السعادة في زعمهم، وهو تالٍ للطبيعيات في ترتيبهم، ولذلك يسمونه «علم ماوراء الطبيعة». وكتب المعلم الأوّل فيه موجودة بين أيدي الناس، ولخصه ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاء، وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الأندلس.

ولمّا وضعَ المتأخرون في علم القوم ودوّنوا فيها، وردَّ عليهم الغزالي ماردّ منها، ثم خلط المتأخرون من المتكلّمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لعروضها في مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الإلهيات، ومسائله بمسائلها، فصارت كأنّها فنّ واحد، ثم غيّروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والإلهيات، وخلطوهما فنّاً واحداً قدّموا الكلام في الأمور العامّة، ثم أتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها إلى آخر العلم.. وهو غير صواب؛ لأنّ مسائل علم الكلام إنّما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل، ولاتعويل عليه بمعنى أنّها لاتثبتُ إلاّ به، فإنّ العقل معزول عن الشرع وأنظاره، وما تحدَّثَ فيه المتكلّمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها. فالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة؛ بل إنّما هو التماس حجّة عقلية تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها، وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أنّ مداركهم فيها عقلية؛ وذلك بعد أن تُفْرَضَ صحيحة بالأدلّة النقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها، وكثير منها بين المقامين، وذلك أنّ مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتّساع نطاقها عن مداركنا لأنظار العقلية فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف، والمَدَارك المُحاط بها، فإذا هدانا الشارع إلى مدرك فينبغي أن نقدِّمَهُ على مداركنا ونَثِقَ به دونها، ولانتظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه، بل نعتمد ماأمرنا به اعتقاداً وعلماً. ونسكت عمّا لم نفهم من ذلك ونفوّضه إلى الشارع، ونعزل العقل عنه، والمتكلّمون إنّما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية، فاحتاجوا إلى الردّ عليهم من جنس معارضاتهم، واستدعى ذلك

---

(١) مقدمة تاريخه ج١/ ٤١٣.

الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها.

ويقول في «علم الكلام»[1] هو علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلّة العقلية، والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنّة، وسرّ هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد. . . وأمرنا بالتوحيد المطلق: ﴿قُلْ هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ ولاتثقنّ بما يزعم لك الفكر من أنّه مقتدر الاحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفّهْ رأيه في ذلك، واعلم أنّ الوجود عند كل مدرك في بادىء رأيه منحصر في مداركه لايعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلك، والحق من ورائه، ألاَ ترى الأصمّ كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ويسقط من الوجود عنده ضعف المسموعات، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات، ولولا مايردّهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم، والكافة لمّا أقرّوا به لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لابمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم. . والعقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينيه لاكذب فيها، غير أنك لاتطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوّة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ماوراء طوره فإنّ ذلك طمع في محال.

ثم يقول[2] : وإذا تأمّلتَ حالَ الفنّ في حدوثه، وكيف تدرّجَ كلامُ الناس فيه، صدراً بعد صدرٍ، وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلّة علمتَ حينئذٍ ماقرّرناهُ لك في موضوع الفنّ وأنّه لايعدوه، ولقد اختلطت الطريقتان عندَ هؤلاء المتأخرين، والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لايتميّز أحدُ الفنين من الآخر، ولايحصل عليه طالبه من كتبهم. . وأمّا محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام، فإنما هو للطريقة القديمة للمتكلمين. . فينبغي أن يُعلم أنّ هذا العلم هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم؛ إذِ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنّة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودوّنوا، والأدلة العقلية إنّما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا، وأمّا الان فلم يبقَ منها إلاّ كلام تنزّه الباري عن كثير إيهاماته وإطلاقه. ولقد سأل الجنيد رحمه الله عن قوم مرّ بهم من المتكلمين يفيضون فيه، فقال: ماهؤلاء؟ فقيل: قوم ينزّهون الله بالأدلّة عن صفات الحدوث وسمات النقص،

---

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ج١/ ٣٨٢ ـ٣٨٤/ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ج١/ ٣٨٩ـ٣٩٠/ .

فقال: نفيُ العيبِ حيثُ يستحيلُ العيبُ عيبٌ!!.

هكذا يعرض ابن خلدون [ت٨٠٨هـ] تاريخ هذا العلم من أول نشوئه إلى أن امتزج بالفلسفة على يَدِ المتأخرين من غير تعرّضٍ لِما حدث في عهد ابن تيمية وتلامذته لإحياء مذهب السلف على طريقة مذهب الإمام أحمد، ومقاومة تيار الذين مزجوا علم الكلام بالفلسفة. ونحن هنا لانرى توجيه النقد إلى ابن خلدون وحده في إغفاله لتلك الحركة التي قام بها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته بل هناك كثير من المؤرخين ممن ألف في تاريخ علم الكلام ومسائله من المتأخرين لم يتعرّضوا لبيان تلك الحركة، حتى إن الإمام محمد عبده عرض لتاريخ هذا العلم في مقدمة رسالته في التوحيد دون أن يشير إلى تلك الحلقة الهامة من تاريخ علم الكلام، ممّا جعل تلميذه السيد محمد رشيد رضا يستدرك عليه في تعليقه على تلك الرسالة بقوله:[1]

فات المؤلف أن يذكر في هذه الخلاصة التاريخية أنّه بعد أن استفحل سلطان الأشعرية في القرون الوسطى، وضعف أهل الحديث ومتّبِعُو السلف، ظهر في القرن الثامن المجدِّدُ العظيم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الذي لم يأتِ الزمان له بنظير في الجمع بين العُلُوم النقلية والعقلية، وقوّة الحجة؛ فنصَرَ مذهبَ السلف على المذاهب الكلامية كلها ببرهانَيِ النقل والعقل. وقد أحيتْ مصر والهند كتبَهُ وكتب تلميذه الأكبر العلامة ابن القيم.

ولكنّ المؤرّخ المقريزي [ت٨٤٥هـ] ذكر في كتابه «الخُطط»[2] بعد أن بيّن حال المذهب الأشعري، وماكان من انتشاره في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي، ومن بعده من ملوك الأيوبيّين، وفي بلاد المغرب على يد «محمد بن تومرت» قال:

فكان هذا هو السبب في اشتهار المذهب الأشعري، وانتشاره في أمصار الإسلام، بحيث نُسِيَ غيرُهُ من المذاهب وجُهل، حتى لم يعد مذهب يخالفه إلاّ أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فإنّهم كانوا على ماكان عليه السلف، لايرون تأويل ماورد في الصفات. إلى أن كان بعد السبعمائة من الهجرة اشتهر بدمشق وأعمالها تقيُّ الدّين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، فتصدّى للانتصار لمذهب السلف، وبالغ في الرّدّ على مذهب الأشاعرة، وصدع بالنكير عليهم، وعلى الرافضة، وعلى الصوفيّة.

---

(١) رسالة التوحيد: للإمام محمد عبده/ ٢٢.

(٢) الخطط المقريزية ج٤/ ١٥٤ـ١٨٥.

وكان فرط تعمّق المتكلمين بالقضايا الكلامية على منهج الفلاسفة، وتصويرهم للنّاس بأنّه مذهب أهل السنّة والجماعة هو الذي جعل شيخ الإسلام ابن تيمية يبالغ في نقده لهم كثيراً حتى يمحو من الأذهان ذلك السلطان الذي خيّم على معظم أقطار الإسلام.

خطأ منهج المتكلمين[1] :

ونتيجة لاستقراء آراء المتكلّمين في المسائل الكلامية فإنّه يتبيّن أنّ منهجهم قد انحصرَ في الطرق التالية:

أولاً: اعتماد منهج إقامة البراهين للعقيدة على الأساس المنطقي.

ثانياً: تجاوز البحث في المحسوس إلى ماوراء المحسوس.

ثالثاً: إعطاء العقل حريّة البحث في كل مايُدْرَك ومالايُدْرَك.

رابعاً: جعل العقل أساساً لفهم القرآن الكريم.

خامساً: جعل خُصُومَةِ الفلاسفة أساسَ دراساتهم.

والذي يتضح من استعراض منهج المتكلمين غير صحيح، وسلوكه لايؤدّي إلى إيجاد الإيمان، ولا إلى تقويته، بل إنّ سلوكه لايؤدي إلى إيجاد التفكير، ولا إلى تقويته، وإنّما يُوجد معرفةً فحسب، والمعرفة غير الإيمان وغير التفكير. وذلك لأنّ التفكير طريق الإيمان لاالمعرفة فحسب.

ووجه الخطأ في هذا المنهج ظاهر من عدّة وجوه:

الوجه الأول: عدم صلاحية الأساس المنطقي برهاناً على صحة العقائد.

إن استقرار منهج المتكلمين على اعتماد الأساس المنطقي في البرهان، وليس الأساس الحسيّ خطأ من ناحيتين:

الأولى: جعل علم المنطق أساساً لقدرة المسلم على إقامة البرهان على وجود الله تعالى. ومعنى ذلك: أنّ من لايعرف المنطق عاجزٌ عن البرهنة على صحة عقيدته. وإذا كان الأمر كذلك فإنّ تعلم المنطق يصبح واجباً على الأمة، أخذاً من القاعدة الشرعية: «مالايتمُّ الواجبُ إلّابه فهو واجب» ولم يثبت في القرآن أو السنّة أو الإجماع دليلٌ يثبت وجوب تعلّم المنطق. مع أنّ الصحابة جميعاً لهم عقيدة الإسلام عن يقين قبل ترجمة

---

(١) الشخصية الإسلامية: للعلامة الشيخ تقي الدين النبهاني ج١/ ٤١ـ٤٨/ بتصرف.

منطق أرسطو بمائة سنة.

الثانية: أنّ الأساس المنطقي مظنّة للخطأ، بخلاف الأساس الحسيّ. فهو بعيد عن احتمال الخطأ، ومايمكن أن يتسرّب إليه الخطأ لايصح أن يكون أساساً للإيمان؛ فمثلاً يُقال منطقياً:

القرآن كلام الله تعالى، وهو مركب من حروف مرتبة متعاقبة في الوجود، وكل كلام مركب من حروف مرتبة متعاقبة في الوجود حادث، فالنتيجة: القرآن حادث ومخلوق [وهذا الذي حَدَا بالمعتزلة إلى القول بخلق القرآن] فهذا الترتيب للقضايا وفق المنطق الأرسطوطاليسي أوصل إلى نتيجة ليست ممّا يقع تحت الحس، فلا سبيل للعقل إلى بحثها أو الحكم عليها، وذلك لأن القرآن كلام الله تعالى المنزّل من السماء.

على أنّه يمكن بواسطة نفس المنطق أن نصل إلى نتيجة تناقض هذه النتيجة، فيُقال: القرآن كلام الله تعالى، وهو صفة لله فهو قديم؛ فالنتيجة: القرآن قديم غير مخلوق. وبذلك برز التناقض في المنطق في قضيّة واحدة.

لذلك فإنّ طريقة المتكلمين في إثبات الإيمان بالمنطق غير صحيحة لاحتمال الخطأ الذي يُؤدّي إلى الضلال في الاعتقاد.[1]

الوجه الثاني: إنّ إفراط المتكلّمين في البحث فيما وراء الطبيعة خطأ محض؛ لأنّ البحث فيما لايصل إليه الحس، لايصل إلى شيء أبداً. فبحثهم في ذات الله تعالى، وفي صفاته بطريقة «قياس الغائب على الشاهد» أي: قياس ذات الله تعالى على الإنسان كما يتصوّره الإنسان في شيء وهو السميع البصير [سورة الشورى١١]، وقال سبحانه: (لاتدركُهُ الأبصارُ وهو يُدرك الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبير) [سورة الأنعام ١٠٣].

وماأوقع المتكلمين في القول في ذات الله وصفاته إلا منهجهم هذا.

الوجه الثالث: مَنْحُ المتكلمين العقلَ الحرّية المطلقة في بحث كل شيء. فلّما بحثوا في ذات الله تعالى قالوا: إنّ الصفة غير الموصوف، ومنهم من قال: الصفة عين الموصوف، ومنهم من قال: الصفة ليست عين الذات ولاغير الذات.

جاء في جوهرة التوحيد

متكلّــمٌ ثــمَّ صفــاتُ الــذّاتِ ليســتْ بغيــرٍ أو بعيــنِ الــذّاتِ

---

(١) انظر «طرق التصديق» في كتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال: لابن رشد/ ٥٥ـ٥٨/ ط دار المعارف بمصر.

وقال ملا عبد الرحمن الجامي في كتاب «الدرة الفاخرة»[1] :

ذهبت الأشاعرة إلى أنّ لله تعالى صفات موجودة قديمة زائدة على ذاته، فهو عالم بعلم قادر بقدرة مريد بإرادة، وعلى هذا القياس. وذهب الحكماء إلى أنّ صفاته تعالى عين ذاته لابمعنى أن هناك ذاتاً وله صفة وهما متحدان حقيقة، بل بمعنى أنّ ذاته تعالى يترتب عليه مايترتب على ذاتٍ وصفةٍ معاً، مثلاً ذاتك ليست كافية في انكشاف الأشياء وظهورها عليك، بل تحتاج في ذلك إلى صفة العلم التي تقوم بك بخلاف ذاته تعالى، فإنّه لايحتاج في انكشاف الأشياء وظهورها عليه إلى صفة تقوم به، بل المفهومات بأسرها منكشفة عليه لأجل ذاته، فذاته بهذا الاعتبار حقيقة العلم، وكذا الحال في القدرة... وعلى هذا تكون الذات والصفات متحدة في الحقيقة متغايرة بالاعتبار والمفهوم.

هكذا منح المتكلمون مع الفلاسفة الحرية للعقل حتى بحث في صفات الله هل هي عين الذات أم خارجة عن الذات؟!!..

ومن المقطوع به أنّ ذات الله تعالى وصفاته لاتقع تحت الحس، ولايمكن إدراكها عقلياً، لذلك يستحيل للعقل أن يصدر حكماً عليها، بل قبل كل شيء لايجوز للعقل البشري أن يبحث في ذات الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ولا تقفُ ماليسَ لك به علم﴾ [سورة الإسراء ٣٦]، وليس لحد علم في ذات الله وصفاته إلا ماجاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ولم يرد فيهما شيء مما تكلم به المتكلمون والفلاسفة المسلمون، بل جاء في السنة النهي عن التفكير في ذات الله تعالى[2] .

---

(١) ملحق كتاب أساس التقديس/٢٠٨/ ط مصطفى البابي الحلبي بمصر.

(٢) روى ابن أبي شيبة في كتاب العرش من حديث سعيد بن جبير عن عباس: (تفكروا في كل شيء، ولاتفكروا في الله) وروى الأصبهاني في ترغيبه وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن سلام يرفعه: (لاتتفكروا في الله، وتفكروا في خلق الله) ولأبي نعيم من حديث ابن عباس: (تفكروا في خلق الله، ولاتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره)، وللطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر مرفوعاً: (تفكروا في آلاءِ الله ولاتفكروا في الله)، وأسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكتسب قوّةً، والمعنى صحيح؛ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: (لايزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلقَ الله الخلقَ، فمن خلق الله؟! فمن وجد من ذلك شيئاً فليقلْ: آمنتُ بالله) المقاصد الحسنة/١٥٩/ للحافظ السخاوي. صحيح مسلم ج١/١١٩/رقم/١٣٤.

ورغم كل ذلك خاض المتكلمون في فرضيات لاتدرك، مثل: «إنّ الله تعالى خلقَ الفعل عند قدرة العبد وإرادته، لابقدرة العبد وإرادته» فهذا التصوّر الخيالي ممّا لاواقع له حسّاً. وأوجبوا الإيمان بهذا التصوّر، وقالوا عنه: إنّه «الكسب والاختيار». ولو جعل المتكلمون عقولهم تبحث في المحسوسات المدركة لما آمنوا بكثيرمن الوهميات والفروض النظرية التي شحنت بها مؤلفاتهم[1].

الوجه الرابع: جعل المتكلمون العقل أساساً لفهم القرآن، ولم يجعلوا القرآن أساساً لإدراك العقل. وقد أدّى بهم إلى أن حكّموا العقل بالآيات التي يبدو في ظاهرها التعارض، فجعلوا العقل هو الفيصل بينِ المتشابهات، وأوّلوا الآيات التي لاتتفق والرأي الذي يذهبون إليه.

حتى صار التأويل طريقة لهم لافرق بين المتكلمين من المعتزلة وأهل السنّة والجبرية.

قال ابن رشد الفيلسوف[2] [ت٥٩٥هـ]: ومن قِبَلِ التأويلات والظنّ بأنّها يجب أن يُصرَّحَ بها في الشرع للجميع، نشأتْ فرقُ الإسلامَ، حتى كفّرَ بعضُهم بعضاً، وبدّع بعضهم بعضاً، وبخاصّة الفاسدة منها. فأوّلت المعتزلة آياتٍ كثيرةً، وأحاديثَ كثيرة، وصرَّحُوا بتأويلهم للجمهور، وكذلك فعلت الأشعريةُ، وإن كانت أقلَّ تأويلاً. فأوقعوا النّاس من قبل ذلك في شنآنٍ وتباغض وحروبٍ، ومزَّقُوا الشرعَ، وفرّقوا النّاس كلَّ التفريق.

هكذا أدّى جعل العقلِ أساساً للقرآن إلى خطأ في البحث ونتائجه..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[3]: إنّك تجد أهلَ الكلام أكثرَ النّاس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع، وجزماً بنقيضه، وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل عدم اليقين. فإنّ الإيمان كما قال فيه «قيصر» لمّا سأل أبا سفيان عمّن أسلم مع النبي ﷺ: هل يرجع أحدٌ منهم عن دينه سخطةً له، بعد أن يدخل فيه؟

---

(١) العقيدة وعلم الكلام: للدكتور محمود الخالدي ص٥٤/ط مكتبة الرسالة الحديثة عمان.

(٢) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال: لأبي الوليد ابن رشد /٦٣/ ط دار المعارف بمصر.

(٣) مجموع الفتاوى ج٤/ ٥٠/.

قال: لا، قال: وكذلك الإيمانُ إذا خالطَ بشاشتُهُ القلوبَ لايسخطه أحد.[1]

ولهذا قال بعضُ السلف ـ عمر بن عبد العزيز أو غيره ـ: «من جعلَ دينَهُ عَرَضاً للخصومات أكثرَ التنقّلَ»!!؟..

وأمّا أهل السنّة والحديث فما يعلم أحدٌ من علمائهم، ولاصالح عامّتهم رجع قط عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم النّاس صبراً على ذلك، وإنِ امتحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقَدمين، كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين.

فالثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنّة أضعاف أضعاف أضعاف ماهو عند أهل الكلام والفلسفة؛ بل المتفلسف أعظم اضطراباً وحيرة في أمره من المتكلّم؛ لأنّ عند المتكلِّم من الحق الذي تلقاه عن الأنبياء ماليس عند المتفلسف، ولهذا تجد مثلَ «أبي الحسين البصري» وأمثاله أثبت مِن مثل «ابن سينا» وأمثاله.[2]

ثم إنّ الإيمانَ بكونِ القرآن كلامَ الله تعالى، وإنْ كان مبنياً على العقل، باعتباره المعجزة الباقية على إثبات صدق نبوّة محمد ﷺ وقد ثبت ذلك بالتحدي؛ فإنّ القرآنَ نفسَهُ بعد أن يتحقق الإيمان به، يُصبح هو الأساس للإيمان والتصديق بما جاء به وليس العقل. إلا أنّ العقل وظيفته الفهم والإدراك، لكنّ المتكلمين لم يفعلوا ذلك، بل جعلوا العقل أساساً في تأويل الآيات والأحاديث المتعلّقة بالصفات.

الوجه الخامس: إنّ المتكلمين جعلوا الفلسفة وعاءً لأفكارهم، بمعنى أنهم أخذوا من الفلسفة قدراً كبيراً للردّ على أصحابها، أي: أخذوا من الفلاسفة ثم ردّوا عليهم منها. وبذلك أُبعدت حُجج الإسلام عن مواجهة الإلحاد والضلال. في حين أنّ الموضوع أساساً هو اعتماد حجج العقيدة الإسلامية لقمع أي فكر إلحادي وإخماده، وليست القضية مع الفلاسفة أو مع سواهم من أهل الكتاب قضية خصومة يلزم منها أن تتحقق الغلبة بأيّ وسيلة كانت.

وبذلك فقدَ المتكلمون الانتصار بالقرآن والسنّة، وخاضوا في ساحة الصراع بأفكار خصومهم، وحوّلوا تبليغ الإسلام وعقيدته وشريعته إلى مناظرات جوفاء ومجادلات خرقاء. فاستُبْعِدَتِ العقيدة من قوّة اليقين وحرارة الإيمان، إلى حالة جدلية ومهنة كلامية

---

(١) البخاري في كتاب بدء الوحي /٦/ والإيمان /٣٨/ والجهاد /١٠٢/ وتفسير سورة ٣/ ومسلم في كتاب الجهاد /٧٣/.

(٢) مجموع الفتاوى ج٤/ ٥٠/.

مع أنّ السلف الصالح من الصحابة والتابعين نشروا عقيدة الإسلام بين الداخلين فيه من الفرس والروم بآيات الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ، ولم يعوزهم ذلك إلى غيرها.

مع أننا لم نسمع عن أحد من غير المسلمين دخل الإسلام بتلك المناظرات الجدلية التي كانوا يعقدونها مع علماء الكلام والمتكلّمين من المسلمين، بل كان أحدهم إذا رأى الحُجّةَ قد قامت عليه، أخذَ يُكابر في ردّها وإبطالها بشتى صنوف الحيل المنطقية والأساليب الفلسفية. وإذا اقتضاه الحال إلى السكوت قام مولياً ظهره للإسلام وهو عازم على إعداد جولة أخرى ليدحض بها حجة خصومه من المتكلمين المسلمين. ناهيك هذا عمّا كان يجري بين أصحاب الفرق الكلامية التي كانت كثيراً من الأوقات والحالات مسرحاً ليشهده غير المسلمين عما يجري بين أهل الإسلام من منازعات وخلافات كلامية، تكون سبباً في زيادة القسوة في قلوبهم في رفض الإسلام والكفر بعقيدته.

هكذا كان الحال أو نحواً منه عند أهل الكلام.. إلى أن جاء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فأخذ على عاتقه حملَ أعباءِ توعية المسلمين من خطورة الخوض في المسائل الكلامية، والقضايا الفلسفية، والمجادلات المنطقية، وصار يدعوهم إلى الرجوع إلى مذهب السلف في العقيدة والإيمان، فكان بذلك أحد المجددين للأمة دينها، بدعوة أبنائها إلى العودة إلى الكتاب والسنّة، فأيقظها من رقادها الطويل التي كادت أن تفقد صلتها بهذين الأصلين الكريمَين المباركَين للإسلام وعقيدته وشريعته!! فجزاهُ الله تعالى خيرَ الجزاء!!..

البحث السادس

لمحات من تاريخ نقض مذاهب الفلاسفة والمنطقيين والمتكلّمين بعد عهد الرازي

١ ـ عصر الهيمنة الفلسفيّة:

لقد ظهر في القرن السابع «نصيرُ الدِّين الطوسي»[ت٦٧٢هـ] في أوساط الفلسفة، وعرفتْهُ حلقات مدارسها ومعاهد تعليمها بـ «المحقّق الطوسي»، وكان العالم الإسلاميّ قد أصابتْهُ دهشة الازدهار الثقافيّ، وأصيب بالذُّهُول في هذا الزمن بهجوم التتر، وسقوط بغداد بأيديهم، وخيّم على العالم الإسلامي كلِّهِ انحطاطٌ علميٌّ عامّ، وقد كان نصير الدِّين الطوسيّ، وهو حاملٍ لواء العلمِ والفلسفة اليونانيّة، وهو من مقرّبي «هولاكو» ومستشاريه!؟ وتولّى تلاميذُهُ أمورَ التَدريس والتأليف، وعلى رأسهم «قطب الدِّين الشيرازي» و «قطب الدِّين الرّازي» وعلى يدهم وجد ذلك المنهج الخاصّ للتعليم السّائد في إيران الذي يحلُّ فيه المنطق والفلسفة محلاً رئيسيّاً، وقد كان نصير الدِّين الطوسيّ يتصل بالمدرسة التي كانت تعتبر «أرسطو» العقلَ الكلَّ؟! وترى في نظراته وتحقيقاته المرجع الأخير، وقد دافع عن فلسفة أرسطو مخالفاً للإمام الرّازي، وكان قد بثّ فيها حيويّة جديدة.

وُلِدَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميّة قبل وفاة الطوسيّ بعشر سنين، وكان للفلسفة والمنطق اليونانيين غلبةٌ وازدهار عظيم، بتأثير نصير الدِّين الطوسي وتلامذته الفلاسفة البارعين، وكان يُعتبر منتهى الذكاء ومقياس الفضل آنذاك أن يكون المَرْءُ ضليعاً بالفلسفة، وعلى الأخص بما عليه الشيرازيِ والرازي، ولم يكن لأحدٍ أن يتجرّأ على القول بإزائهما أو ضدّهما، ولم يكن الحُفّاظ والمحدّثون والفقهاء من فُرْسان هذا الميدان، وجُلُّ ماكان يسعُهم هو أن يُفْتُوا بحرمتها ويُبَيِّنُوا ضَلالَها، إلاّ أنّ هذا السَّيلَ ماكان يَقِفُ بهذا ومثلِهِ من الأعمال، فقد كان العَالَمُ الإسلاميّ كله يعيش تحتَ ضغطهما وهيمنتهما، ولقد كانَ للتشكّك والارتياب جولة في بعض الأوساط التي كانت تتصل بالفلسفة اليُونانية مباشرة، ويُوجد فيها نحو إنكار حقائق الأشياء، أمّا الطبقة التي ابتعدت عنها ولم تتصل بها مباشرة فقد وقعت فريسةَ مركّبِ النقصِ والشعورِ بالعجز.

ولمحاربة هذا الوضع كانت الحاجة ماسّة إلى نقدٍ صريح واستعراضٍ علمّي حرٍّ للفلسفة والمنطق، وإلى إزاحة السّتار عن مواضع ضعفها العلمية، وقد أنجزَ حاجَةَ السّاعة هذه شيخُ الإسلام ابْنُ تيميّة، وقام بنقض الفلسفة اليونانيّة، ومحاسبتها العلمية مؤيّداً بُحُوثَهُ بالدّلائِل والبراهين، ونقَضَ فلسفةَ أرسطو بمناظرات علمية وجهاً لوجهٍ، ذلك الذي كان علماءُ الفلسفةِ يعتبرونَه شخصيةً فوقَ مستوى البشر، وغنيّةً عن النقد أو الردّ، فدكَّ صرح فلسفته المزعومة، وأراح الأُمَّةَ من هيمنة فلسفته، وإلى الأبد!!..

٢ ـ مكانة شيخ الإسلام العلمية بالفلسفة:

ولإدراك عظمة عمل شيخ الإسلام في نقض الفلسفة، ولمعرفة معيار نقده ومحاسبته للفلاسفة، لابُدّ من وقفات مع تقويمه لقضايا الفلسفة، ووجهة نظره نحوها وأسلوب تفكيره في نقضها، وذلك فيما نقتطفه من مؤلفاته ورسائله التي وضعها لهذا الخصوص، تحت هذه العناوين.

٣ ـ بحث الفلاسفة في الطبعيات والرّياضيات:

إن شيخَ الإسلام ابنَ تيمية لمّا قام بنقض الفلسفة، لم ينقضها برمّتها، وذلك لوجود أبحاث لهم لاتُنكر شرعاً، وذلك أنّه فرّق بين البحث في الطَّبعيّات والرياضيات وبين البحث في الإلهيّات، فيعترف بصحة معظم مسائل الطَّبعيّات والرّياضيات، فيقول:

نعم! لهم في الطبعيات كلامٌ غالبُهُ جيّدٌ، وهو كلامٌ كثيرٌ واسعٌ، ولهم عقول عرفوا بها ذلك، وهم قد يقصدون الحقَّ ولايظهر عليهم العِنادا.[١]

كما يعترف لهم بهذا المجال، فيقول:

لكن لهم معرفة جيدة بالأمور الطبعية، وهذا بحر علمهم، وله تفرّغوا، وفيه ضَيّعُوا زمانهم![٢]

كما يصرّح بضرورة علم الرياضيات، فيقول:

فهذه الأمور ـ أي: الرياضيات ـ وأمثالها مما يتكلّم فيه الحساب أمرٌ معقول ممّا يشترك فيه ذَوُو العقول، ومامن أحدٍ من النّاس إلاّ يعرف منه شيئاً؛ فإنه ضروري في

---

(١) الرد على البكري ص/١٤٣.
(٢) تفسير سورة الإخلاص ص/٥٧.

العلم، ضروري في العمل.. ولاريب أنّ قضاياه كليّة واجبة القبول، لاتُنتَقَصُ ألبتّة!.[1]

٤ ـ قضايا الفلاسفة الإلهيّة:

هذا هو الجانب المهم الذي يُعارضه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية في الفلسفة اليونانيّة؛ «جانب الإلهّيات» وينقض مناهجهم فيه، ويُثبتُ عجزَ الفلاسفة جميعاً عن إدراكِ سِرِّ الإلهّيات، ويُثبتُ جهلَهم بذلك وخيبةَ أبحاثهم في قضاياها، وأنّهم بخوضهم في هذا الموضوع إنّما تعدَّوا حدودَهم، ومهدوا الطريقَ لنقدهم وتسفيههم، ولتحقير شأنهم والحكم بضلالهم، فيقول:

للمتفلسفة في الطبعيات خوضٌ وتفصيل تميّزوا به، بخلاف الإلهّيات؛ فإنّهم أجهلُ النّاس بها، وأبعدُهم عن معرفة الحقِّ فيها، وكلام معلّمهم «أرسطو» فيها قليلٌ كثيرُ الخطأ!.[2]

ويقول: وأمّا معرفةُ الله تعالى فحظُّهم منها مبخوسٌ جدّاً، وأمّا ملائكتُهُ وكتبُهُ ورُسلُهُ فلا يعرفون ذلك ألبتّة، ولم يتكلَّمُوا فيه بنفي ولا إثبات، وإنّما تكلّم في ذلك متأخروهم الدَّاخِلُون في المِلَلِ!.[3]

ثمّ يبيّنُ رحمه الله تعالى أنّ الفلاسفة يعترفون بأنّهم لايملكون الوسائل والمبادىء لاكتساب هذا العلم، ولذلك فإنهم يقرّون بأنّهم لم يتوصّلوا في هذا الموضوع إلى اليقين، فيقول:

بل قد صرّحَ أساطين الفلسفة، أنّ العلوم الإلهيّة لاسبيل فيها إلى اليقين؛ إنّما يُتكلَّمُ فيها بالأحرَى والأخلَقِ، فليسَ لهم فيها إلاّ الظّنّ، وإنّ الظّنّ لايُغني مِنَ الحقِّ شيئاً!.[4]

٥ ـ علم الإلّهيات لدَى الفلاسفة وقيمته في الدِّين:

لقد أظهر شيخُ الإسلام ابنُ تيمية عجبه البالغ حينما تناول مباحث العلوم الفلسفيّة في الإلهيات، فيقول معبّراً عن ذلك:

---

(١) الرد على المنطقيين ص١٣٤/ .
(٢) معارج الوصول ص١٨٦/ .
(٣) تفسير سورة الإخلاص ص٥٧/ .
(٤) نقض المنطق ص١٨٧/ .

إذا نُظِرَ في كلام معلمهم الأول ـ أرسطو ـ وتدبّره الفاضلُ العاقل لم يُفِدْهُ إلاّ العلم بأنّهم كانوا من أجهل الخلق بربِّ العالمين، وصار يتعجّب تعجباً لاينقضي ممن يقرن علم هؤلاء بالإلهيات بما جاءتْ به الأنبياء، ويرى أنّ هذا من جنس من يقرن الحَدّادِين بالملائكة، بل من يُقرن دهاقين القرى بملوك العَالَم، فهو أقرب إلى العلم والعدل ممّن يقرن هؤلاء بالأنبياء، فإنّ دهقان القرية متولٍ عليها كتولّي المَلِك على مملكته، فله جزءٌ من المُلْك!؟.[1]

وأمّا ماجاءتْ به الأنبياءُ فلا يعرفه هؤلاء ألبتّة، وليسوا قريبين منه، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهيّة، ولستُ أعني بذلك مااختصَّ الأنبياء بعلمه من الوحي الذي لاينال غيرهم، فإنّ هذا ليس من علمهم ولامن علم غيرهم، وإنّما أعني العلومَ العقلية التي بيّنها الرّسُل للنّاس بالبراهين العقلية في أمر معرفة الربِّ وتوحيده، ومعرفة أسمائه وصفاته، وفي النبوّات والمَعَاد، وماجاؤوا به من مصالح الأعمال التي تُورِث السعادةَ في الاخرة، فإنّ كثيراً من ذلك لم يشمُّوا رائحتَها، ولافي علومِهم مايدلُّ عليها، وأمّا مااختصّتِ الرسلُ بمعرفته وأخبرتْ به من الغيب فذلك أمرٌ أعظم من أن يُذكرَ في ترجيحه على الفلسفة، وإنّما المقصود الكلام في العلوم العقلية دَعْ ماجاءتْ به الأنبياءُ فإنّه مرتبةٌ عاليةٌ!!.[2]

٦ ـ إثبات جهل الفلاسفة بالدِّين والشرع:

ويُبيّن شيخُ الإسلام ابنُ تيمية الأسباب التي جعلت الفلاسفة جاهلين بالعلوم الإلهيّة، وبالحقائق الغيبية، فيقول:

أمّا الغيب الذي تُخبر به الأنبياء والكليات العقلية التي تعمّ الموجودات كلها، وتقسم الموجودات قسمة صحيحة، فلايعرفونها ألبتّة، فإنّ هذا لايكون إلاّ ممّن أحاط بأنواع الموجُودات، وهم لايعرفون إلاّ الحسابَ وبعضَ لوازمها، وهذا معرفة بقليل الموجودات جدّاً، فإنّ مالايشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدراً وصفةً ممّا يشهدونه بكثير، ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ماعرفته الفلاسفة إذا سمعوا إخبارَ الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسي والجنّة والنّار، وهم يظنّون أن لاموجود إلاّ ماعلموه، وهم والفلاسفة يصيرون حائرين متأوّلين لكلام الأنبياء على ماعرفوه،وإن كان هذا لا دليل عليه، وليسَ لهم بهذا النفي علمٌ، فإنّ عدم العلم ليس علماً بالعدم، لكنّ نفيهم هذا

---

(١) الرد على المنطقيين ص/٣٩٤.
(٢) الرد على المنطقيين ص/٣٩٥.

كنفي الطبيبِ للجنّ لأنّه ليس في صناعة الطب مايدلّ على ثبوت الجنّ، وإلاّ فليس في علم الطب ماينفي وجود الجنّ، وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامّة الذين لايعرفونه، فيبقى بجهله نافياً لِما لايعلمه وبنو آدم ضلالُهم فيما جحدُوهُ ونفَوهُ بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتُوه وصدَّقُوا به، قال الله تعالى: ﴿بلْ كذَّبُوا بِما لم يُحِيطُوا بعلمِهِ ولمّا يأتِهِمْ تأوِيلُهُ﴾[1] [سورة يونس/ ٣٩].

٧ ـ الفلاسفة الأقدمون عبّادُ كواكب وأوثان:

يثبتُ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية من خلال سبره غور تاريخ الفلاسفة اليونان القدماء أنّهم كانوا يعبدون الكواكب والأصنام، وأنّهم كانوا يبنون لها الهياكل؛ وقد أثبتتِ الآثارُ اليونانية المكتشفة حديثاً عن وجود أصنام لليونان تمثل الوثنيّة القومية لهم، فلم يعد الآن من شك أنّ فلاسفة اليونانِ القدماء كانوا يرزحون تحت نير الآلهة المزعومة من الكواكب والهياكل، ويقول شيخُ الإسلام في هذا:

أمّا قدماء اليونانِ فكانوا مشركين من أعظم النّاس شركاً وسحراً؛ يعبدون الكواكب والأصنام، ولهذا عَظُمَتْ عنايتُهم بعلم الهيئة والكواكب لأجل عبادتها، وكانوا يبنُون لها الهياكل!؟.[2]

ويقول في موضع آخر:

ولهذا كان رؤوسهم المتقدّمون والمتأخرون يأمرون بالشرك، فالأوّلُون يُسمُّون الكواكبَ الآلهة الصغرى، ويعبدونها بأصناف العبادات، كذلك كانوا في مَلّة الإسلام لاينهون عن الشرك ويُوجِبُون التوحيد، بلْ يُسوِّغُون الشرك ويأمرون به، أو لايُوجبون التوحيد!؟.[3]

٨ ـ مقارنة أرسطو بغيره من الفلاسفة:

لقد أثبت شيخُ الإسلام ابنُ تيمية أنّ أرسطو كان أبعد الفلاسفة عن الحقائق الدينيّة، وذلك فيما يراه من الفارق الذي بينه وبين غيره من الفلاسفة، وهو أنّ المتقدمّين من هؤلاء الفلاسفة اتفقت لهم السياحة في البلدان التي بُعِثَ فيها الأنبياء عليهم السّلام، فتسنّى لهم الاطّلاع على بعض الحقائق الدينيّة، أمّا أرسطو فلم يتفق له ذلك، فيتحدّث

---

(١) تفسير سورة الإخلاص / ٣٥٩ـ٣٦٠/ .
(٢) تفسير سورة الإخلاص ص٣٦٠/ .
(٣) نقض المنطق ص١٧٧/ .

رحمه الله تعالى عن ذلك روايةً عن بعض المؤرخين، فيقول:

وسبب ذلك ماذكرَهُ طائفةٌ ممّن جمعَ أخبارَهم أنّ أساطين الأوائل - كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون - كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام، ويتلقون عن لقمان الحكيم، ومن بعده من أصحاب داود وسليمان، وأنّ أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء، ولم يكن عنده من العلم بأثارة الأنبياء ماعند سلفه، وكان عنده قدرٌ يسير من الصائبيّة الصحيحة، فابتدعَ لهم هذه التعاليم القِيَاسية، وصارت قانُوناً مشى عليه أتباعه.[1]

ومن سُوء الحظ أنّ فلسفة أرسطو هي التي نالَتْ رَواجاً في العَالَمِ الإسلامي، وهي التي اشتهرتْ في العهد الأخير بفلسفة اليونان، يقول شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى:

ولكنّ هذه الفلسفة التي يسلكها الفارابيّ وابنُ سينا، وابن رُشد والسهروردي المقتول، ونحوه، فلسفة المشائين، وهي المنقولة عن أرسطو الذي يُسمُّونه المعلّم الأوّل!؟.[2]

٩ - فكرة الألوهية في الفلسفة اليونانيّة:

لم تكن الفلسفة اليونانية تعتبر قضية الإيمان بوجود الإله إلاّ فكرة ذهنيّة فقط، فيقول شيخ الإسلام في ذلك:

فإذا تصوّرَ العاقِلُ أقوالَهم حقَّ التصوّر تبيّن له أنّ هذا الواحد الذي أثبتوه لايُتَصوَّرُ وجُودُهُ إلاّ في الأذهان، لافي الأعيان!؟.[3]

إنّ أسلوب المبالغة الذي اتخذه الفلاسفة في بيان النفي لأفعال الإله وصفاته، وفي تجريده عن جميع صفات الكمال، يرى شيخ الإسلام أنّ في هذا الاعتقاد الفاسد لهؤلاء الفلاسفة غاية السَّفَهِ والكفر، وفي هذا يقول رحمه الله تعالى:

لقد أحسنَ بعضُ الفضلاء إذْ قال: الصَّفْعُ أحسنُ من توحيد الفلاسفة، بل قصَّر فيما قال!!.[4]

---

(١) نقض المنطق ص١١٣/ .

(٢) الردّ على البكري ص٢٠٦/ .

(٣) تفسير سورة الإخلاص ص٣٧/ .

(٤) الرد على المنطقيين ص٢٢١/ .

١٠ ـ الفلاسفة المتنسبون إلى الإسلام هم مقلّدون لليونان:

وأثبت شيخُ الإسلام أنّ المتأخرين من الفلاسفة الذين يتنسبون إلى الإسلام إنّما هم مقلّدون عُميان لأرسطو وفلسفته، ومن تقليدهم له ونهجهم على فلسفته وقعوا في أخطاء فاحشة وكبيرة، كما وقعوا في تناقض شديد، ويشكُو رحمه الله تعالى تألّمه الشديد، ويُبدي عتابه على هؤلاء الفلاسفة الذين انتسبوا إلى الإسلام وجحدوا نعمةَ هدايته وإرشاده، ولم يستفيدوا من نور هدايته، بل كانوا دائماً يريدون حجب نوره وهدايته!؟ وفي هذا يقول:

إنّ هؤلاء المتفلسفة المتأخرين في الإسلام من أجهل الخلق عندَ أهلِ العلم والإيمان، وفيهم من الضلال والتناقض مالايخفي على الأذكياء الصبيان؛ لأنّهم لمّا التزَمُوا أنْ لايسلكوا إلاّ سبيل سلفهم الضّالّين، وأنْ لايُقِرُّوا إلاّ بما يبنُونه على تلك القوانين [الفلسفيّة] وقد جاءهم من النور والهدى والبيان مامَلأ القلوب والألسِنَةَ والآذانَ، وصاروا بمنزلة مَنْ يُرِيدُ أن يُطفِىءَ نورَ الشمس بالنفخ في الهباء، أو يغطي ضَوْءَها بالعباء!!؟..[1]

١١ ـ جهل شيخ الفلاسفة ابن سينا بالنبوّة:

لقد تناول شيخُ الإسلام ابنُ تيميّة نقدَ الفلاسفة الذين حاولوا شرحَ الحقائق الغيبيّة والعقائد الدينيّة تقليداً لأرسطو واتباعاً لفلسفته، نقداً لاذعاً، حيث بيّنَ أنّهم يحاولون تفهم هذه الحقائق والعقائد وإفهامها لغيرهم على ضوء الفلسفة والاعتماد عليها، وهو ينتقد قبل كل شيء «شيخ الفلاسفة ابن سينا» الذي يُعتبر خليفة أرسطو الكبير وشارح فلسفته العظيم!؟ فيقول:

وعلى هذا بنى ابن سينا أمرَ النبوّة أنّها مِنْ قوَى النّفس، وقوى النفوس متفاوتة، وكل هذا كلامُ مَنْ لايعرف النبوّة، بل هو أجنبيّ عنها!؟ وهو أنقص ممّن أرادَ أن يقرّرَ أنّ في الدنيا فقهاء وأطباء، وهو لم يعرف غيرَ الشعراء!؟ فاستدلّ بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء، بل هذا المثال أقرب؛ فإنّ بُعْدَ النبوّة عن غير الأنبياء أعظم من بُعدِ الفقيه والطبيب عن الشاعر، ولكنّ هؤلاء من أجهلِ النّاس بالنبوّة، ورأوا ذكرَ الأنبياء قد شاعَ فأرادوا تخريجَ ذلك على أُصُولِ قومٍ لم يعرِفُوا الأنبياء!!؟..[2]

---

(١) الرد على البكري ص١٦٨/.
(٢) النبوات ص٤٧/.

وقال في بيان حقيقة الوحي:

وأبعد هؤلاء عن النبوّة المتفلسفة والباطنيّة والملاحدة، فإنّ هؤلاء لم يعرفوا النبوّة إلاّ من جهة القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة، والفارابيّ جعلها من جنس المنامات فقط، ولهذا يُفضِّلُ هو وأمثاله الفيلسوف على النبي [والعياذ بالله] وابن سينا عظَّمَها أكثرَ من ذلك، فجعل للنبي ثلاث خصائص:

أحدها: أن ينال العلم بلا تعلّم، ويُسمّيها القوّة القُدسيّة، وهي القوّة الحدسية عنده. والثاني: أن يتخيّل في نفسه مايعلمه، فيرى في نفسه صوراً نورانيّةً، ويسمع في نفسه أصواتاً، كما يرى النائم في نومه صوراً تُكلِّمه، ويسمع كلامَهُمْ، وذلك موجود في نفسه لافي الخارج، فهكذا عند هؤلاء جميع مايختصُّ به النبي ممّا يراه ويسمعه دون الحاضرين، إنّما يراه في نفسه، ويسمعه في نفسه، وكذلك المَمْرُورُ عندَهم. والثالث: أن يكونَ له قوّة يتصرّف بها في هيولي العَالَم بإحداث أمورٍ غريبة، وهي عندهم آيات الأنبياء، وعندهم ليس في العَالَم حادثٌ إلاّ عن قوّةٍ نفسانيّة، أو ملكية أو طبعيّة، كالنفس الفلكية والإنسانيّة، والأشكال الفلكية والطبائع التي للعناصر الأربعة، والمولدات لايُقرّون بأنّ فوق الفُلْك نفس شيءٍ يفعل، ولايحدث شيئاً فلا يتكلّم ولايتحرّك بوجه من الوجوه، لاملك ولاغير ملك فضلاً عن ربّ العَالَم، والعُقول التي يثبتُونها عندهم ليس فيها تحوّل من حالٍ إلى حال البتّة، لاإرادة ولاقول ولاعمل، ولاغير ذلك.

وكذلك المبدأ الأول،. وهؤلاء عندَهم جميعُ مايحصل في نفوس الأنبياء إنّما هو من فيض العقل الفعال، ثم إنّهم لمّا سمعوا كلامَ الأنبياء أرادوا الجمعَ بينَهُ وبينَ أقوالهم، فصاروا يأخذون ألفاظَ الأنبياء فيضعونها على معانيهم، ويسمون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء، ثم يتكلّمُون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء، فيظنّ من لم يعرف مرادَ الأنبياء ومرادَهم، أنّهم عَنَوْا بها ماعنتْهُ الأنبياء، وضلّ بذلك طوائفُ، وهذا موجودٌ في كلامِ ابن سينا، ومَن أخذَ عنه.(١)

١٢ ـ أثر الفلاسفة على المتكلّمين:

لم يكن شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله تعالى موجّهاً انتقاده الشديد إلى الفلاسفة

(١) النبوات ص٢٧٤ـ٢٧٥/ .

اليونانيين ومقلّديهم من متفلسفي الإسلام فحسب، بل يتعدّاهم إلى أولئك المتكلّمين الذين اتخذوا أساليب الفلسفة ومقدّماتها ومصطلحاتها الناقصة، فذهبوا يُحاولون الدفاع عن الإسلام وحقائقه الدينيّة والغيبيّة، بتلك الأساليب الهزيلة الضعيفة التي لاتقوى على ترسيخ نفسِها، فكيف تقوى على ترسيخ غيرها؟!

والإسلام بجوهره وحقائقه غنيٌ كلّ الغِنىَ عن الفلسفة وأساليبها ومقدّماتها ونتائجها، بل إنّ الفلسفة في مجال علم الإلهيات والبحث فيها مناقضة ومخالفة للإسلام في ذلك، وعلى هذا فلا يصح استخدامها في إثبات العقائد الإسلامية، كما لايصح استعمال مصطلحاتها في التعبير عن مضامينها، ومن هنا جاء نقد شيخ الإسلام للمتكلمين..!؟..

يقول رحمه الله تعالى:

لمّا تكلَّمُوا في إثبات النبوّة صاروا يوردون عليها أسئلةً في غاية القوّة والظهور، ولايجيبون عنها إلاّ بأجوبةٍ ضعيفةٍ كما ذكرنا كلامهم، فصارَ طالب العلم والإيمان والهدى مِنْ عندِهم لاسيما إذا اعتقد أنّهم أنصار الإسلام ونُظّاره، والقائمون ببراهينه وأدلّته، إذا عرف حقيقةَ ماعندَهم لم يجدْ ماذكروه يدلّ على ثبوت نبوّة الأنبياء، بل وجده يقدح في الأنبياء ويُورث الشّك فيها أو الطعن، وأنّها تقدح في الأنبياء وتورث الشّك فيها أو الطعن فيها، وأنّها حُجّة لمكذب الأنبياء أعظم ممّا هي حجّة لمصدّق الأنبياء، فانسدَّ طريق الإيمان والعلم، وانفتح طريق النفاق والجهل لاسيما على من لم يعرف إلاّ ماقالوه!؟..(١)

ثم يقول:

ولهذا لمّا ظهر للغزالي ونحوه ضعف طريق الاستدلال بالمعجزات الذي سلكه شُيُوخه وهو لايعرف غيره، أعرض عنها، وذكر أنّه إنّما علم ثبوتَ النبوّة بقرائن تعجز عنها العبارة، وهي علوم ضروريّة حصلت له على الطول، وجعل الدليل على النبوّة هو العلم بأنّ ماجاء به حق من غير جهته، وهذه طريقٌ صحيحةٌ!!..(٢)

والرازي كلامه في النبوّة متردّد بين نبوّة الفلاسفة، ونبوّة أصحابه هؤلاء.. وليس في واحد من الطريقين إثبات النبوّة التي خصّ الله بها أنبياءه، فلهذا ضعفت معرفة

---

(١) النبوات ص/٣٨٣ .
(٢) النبوات ص/٣٨٤ .

هؤلاء بالأنبياء، وضعف أخذ العلم من طريقهم لاسيما وقد عارضوا كثيراً ممّا جاء عنهم بالعقليات، ودخلوا فيما هو أبعد عن الهدى والعلم من العقليات والذوقيّات، التي مَنْ سلكها ضلّ ضلالاً بعيداً.[1]

١٣ ـ لااعتماد على دلائل المتكلّمين:

ولقد عارض شيخُ الإسلام ابن تيمية المتكلمين فيما يزعمون أنه دلائل يثبتون بها عقائدهم، وقرّر أنها تفيد في بيان فساد أقوال سائر الطوائف وتناقضها، ولاتفيد في معرفة ماجاء به الرسول ﷺ، فيقول:

أكثر الانتفاع بكلام هؤلاء هو فيما يثبتونه من فساد أقوال سائر الطوائف وتناقضها، وكذلك كلام عامة طوائف المتكلمين ينتفع بكلام كل طائفة في بيان فساد قول الطائفة الأخرى، لا في معرفة ماجاء به الرسول، فليس في طوائف أهل الأهواء والبدع من يعرف حقيقة ماجاء به الرسول، ولكن يعرف كلُّ طائفة منه مايعرفه، فليسوا كُفّاراً جاحِدِين فيه، وليسوا عارفين به!!.

ولهذا اعترف الرازي بهذا في آخر مصنفاته حيث قال: ولقد تأملتُ الطرق الكلاميّة والمناهج الفلسفيّة فما رأيتُها تشفي عليلاً ولاتروي غليلاً!!.[2]

١٤ ـ الاستدلال بحجج القرآن أقوى وأحقّ:

لقد أثبت شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في عامّة كتاباته بكل تأكيد أنّ حُجَجَ القرآن الكريم ومنهج أسلوبه في الاستدلال لإثبات الحقائق الغيبيّة والإيمان بها، وتحقيق القضايا الاعتقاديّة أبلغُ وأقوَى وأرسخُ مِن كل الحجج والأساليب التي يستدلّ بها المتكلمون في هذا الخصوص، وأشدُّ تأثيراً في النفس من أيّ استدلال آخر!! وفي هذا يقول:

إنّ ماعندَ أئمةِ النُّظّار ـ أهل الكلام والفلسفة ـ من الدلائل العقلية على المطالب الإلهيّة؛ فقد جاء القرآنُ بما فيها من الحق، وما هو أبلغ وأكمل منها على أحسنِ وجهٍ، مع تنزّهه عن الأغاليط الكبيرة الموجودة عند هؤلاء!!.[3]

ويقول أيضاً:

---

(١) النبوات ص٣٨٤ـ٣٨٥/ .

(٢) النبوات ص٣٨٥/ .

(٣) الرد على المنطقيين ص٣٢١/ .

ولهذا كانت الأقيسة العقلية البرهانيّة المذكورة في القرآن من هذا الباب كما يذكره في دلائل رُبُوبيّته و إلهيّته ووحدانيّته وعلمه وقدرته، وإمكان المعاد، وغير ذلك من المطالب العاليّة السنّية، والمعالم الإلهية التي هي أشرف العلوم، وأعظم ماتكمل به النفوس من المعارف[1] .

ويُبيّن رحمه الله تعالى الفرقَ الأساسي بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته، في حديثه عن الفرق المبدئي بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته، فيقول:

والقرآن أثبتَ الصفات على وجه التفصيل، ونفَى عنها التمثيل، وهي طريقة الرسل؛ جاؤوا بإثباتٍ مفصَّلٍ ونفي مجمل، وأعداؤهم جاؤوا بنفي مفصَّلٍ مجمل!؟. [2]

١٥ ـ أثر نفي الصفات الإلهّية على الحياة البشريّة:

إنّ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية رحمه الله تعالى بيّنَ خطرَ أثر نفي الصفات الإلهية على الحياة البشرية، حين أوضح مايستلزم من نفيها، وقد تقدّم أنّ الفلاسفة يعتبرون الألوهيّة مجرّد فكرة [في الفقرة رقم ٩].

وإنّ التاريخ الفكري للعقل البشري كله شاهد على أنّ الإنسان لايمكن له أن يتصل بذاتٍ مجهولة لايعرف شيئاً عن صفاتها وأفعالها، والإنسان مفطور على أن يكونَ على صلةٍ بخالقه ومُوجده، ولايمكن له ذلك إلاّ بمعرفة صفاته وأفعاله، وممّا لايخفى أنّ الحُبَّ والخوف، والأمل والرجاء، والطلب والسؤال، كلّ ذلك يحتاج إلى الصفات؛ فإذا نُفيتِ الصفاتُ الإلهيةِ أصبح الحبُّ لشيء وهميّ ـ وكذا الرجاء والسؤال، ممّا يحتاج إليه المخلوق من خالقه ـ وذلك يستلزم قطع الصلة بين المخلوق والخالق!؟..

ولقد تكلّم شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألة نفي الصفات فبيّنَ أبعادَها الخطيرة، وآثارَها الرهيبة على العقيدة فقال:

فنفيُ اتّصافه بالصفات يستلزم أن لايكونَ في الوجود شيءٌ يتصف بصفة، ونفيُ فعلهِ وإحداثه يقتضي ألا يكون في الوجود شيء حادث فكان نافوه مستلزماً نهايةَ السفسطة وجحد الحقائق، ولهذا كان من وافق هؤلاء على نفي محبّةِ الله لِما أمرَ به، من الصوفيّة يلزمهم تعطيلُ الأمرِ والنهي، وأن لاينفي إلاّ القَدَرَ والعلمَ، وقد التزمَ ذلك طائفة من

---

(١) الرد على المنطقيين ص١٥٠/ .
(٢) النبوات ص٢٥٢/ .

محققيهم وكان نفي الصفات يستلزم نفي الذات، وأن لايكون موجودان أحدهما واجب قديم خالق، والآخر ممكن أو مُحدَث أو مخلوق، وهكذا التزمه طائفة من محققيهم وهم القائلون بوحدة الوجود، وهم يقولون بكونِ العبد أولاً يشهد الفرقَ بين الطّاعةِ والمعصية، ثم يشهد طاعةً بلا معصية، ثم لاطاعة ولامعصية، بل الوجود واحد.(١)

١٦ ـ نُفاة الصفات لم يكن دينُهم اتباعَ الكتاب والسنّة:

ويُبيّن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أنّ الذين نفوا الصّفات الإلهّية من الجهميّة لم يكن أصلُ دينهم اتباع الكتاب والرسول ﷺ، فيقول:

وأمّا الجهميّة النافية للصفات فلم يكن أصل دينهم اتباع الكتاب والرسول ﷺ، فإنّه ليسَ في الكتاب والسنّة نصٌّ واحد يدلُّ على قولهم، بل نُصوصُ الكتاب والسنّة متظاهرة بخلاف قولهم، وإنّما يَدّعون التّمسك بالرأي المعقول، وقد بُسط القولُ على بيان فساد حججهم العقلية ومايدعيه بعضهم من السمعيات، وبُيّنَ أن المعقول الصريح موافق للمنقول الصحيح في بُطلان قولهم لامخالف له!!.(٢)

١٧ ـ القرآن مصدر أصول الدّين:

لقد أثبت شيخُ الإسلام ابنُ تيمية أنّ أصول الدِّين قد بيّنها القرآن، وأنّه مصدرها الوحيد، وذلك على غير طريقة المتكلمين الذين قسّمُوا قواعد الدين على خمسة عشر أصلاً: الأصل الأول في بيان الحقائق والعلوم.. الأصل الثاني في بيان حدوث العالم.. الأصل الثالث معرفة صانع العالم ومعرفة نعوته الذاتية.. الأصل الرابع بيان الصفات القائمة بالإله سبحانه.. الأصل الخامس بيان أسماء الله عز وجل وأوصافه.. الأصل السادس بيان عدل الصانع وحكمته.. الأصل السابع معرفة الأنبياء.. الأصل الثامن المعجزات والكرامات.. إلى آخر ماذكروه في تقسيمهم لقواعد أصول الدِّين..(٣) وذلك على أساس منهج المتكلمين في البحث والتقسيم.. وشيخُ الإسلام يُبيّن أنّ أصول الدِّين قد بينها القرآن أحسن بيان، فيقول:

إنّ أصول الدِّين الذي بعث الله به رسوله محمداً ﷺ قد بيّنها الله في القرآن أحسن بيان، وبيّن دلائل الربوبيّة والوحدانيّة، ودلائل أسماء الربّ وصفاته، وبيّن دلائل نبوّة

---

(١) النبوات ص١٦٥/.

(٢) النبوات ص١٥٤/ وبسط ذلك في كتابه موافقة صريح المعقول الصحيح المنقول/ط على هامش منهاج السنّة.

(٣) انظر كتاب «أصول الدين للإمام أبي منصور البغدادي/ ط استامبول.

أنبيائه، وبيّن المعَاد بين إمكانه وقدرته عليه في غير موضع، وبيّن وقوعَهُ بالأدلّة السمعيّة والعقليّة، فكان في بيان الله أصول الدِّين الحق، وهو دين الله، وهي أصول ثابتة صحيحة معلومة فتضمّن بيان العلم النافع، والعلم الصالح ودين الحقّ[1].

وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يُخالف ذلك ليس فيما ابتدعوه لاهدى ولادينَ حقّ، فابتدعوا مازعموا أنّه أدلة وبراهين على إثبات الصانع وصدق الرسول، وإمكان المعاد أو وقوعه، وفيما ابتدعوه ماخالفوا به الشرع، وكل ماخالفوه من الشرع فقد خالفوا فيه العقل أيضاً، فإنّ الذي بعث الله به محمداً ﷺ وغيره من الأنبياء هو حقٌّ وصدقٌ، وتدلّ عليه الأدلّة العقلية، فهو ثابت بالسمع والعقل، والذين خالفوا الرسل ليس معهم لاسمع ولاعقل!![2].

إنّ المبتدعين الذين ابتدعوا كلاماً وأصولاً تخالف الكتاب، وهي أيضاً مخالفة للميزان، وهو العدل، فهي مخالفة للسمع والعقل، كما ابتدعوا في إثبات الصانع إثباته بحدوث الأجسام، وأثبتوا حدوث الأجسام بأنّها مستلزمة للأعراض لاتنفك عنها، قالوا: وما لايخلو عن الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لاأوّل لها، فهؤلاء إذا حقق عليهم ماقالوه لم يُوجَدُوا قد أثبتوا العلم بالصانع ولاأثبتوا النبوّة ولاأثبتوا المعاد، وهذه هي أصول الدِّين والإيمان، بل كلامهم في الخلق والبعث والمبدأ والمعاد، وفي إثبات الصانع ليس فيه تحقيق العلم لاعقلاً ولانقلاً، وهم معترفون بذلك كما قال الرّازي: لقد تأملتُ الطرقَ الكلاميّة والمناهجَ الفلسفيّة، فما رأيتُها تشفي عليلاً، ولاتروي غليلاً، ورأيت أقربَ الطرق طريقة القرآن!! ثم قال: ومَنْ جرّبَ مثلَ تجربتي عرفَ مثل معرفتي، وكذلك الغزالي وابن عقيل وغيرهما يقولون مايُشبه هذا...[3]

١٨ ـ نظرة أهل الكلام إلى منهج السلف:

يذكر شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى عن نظرة بعض أهل الكلام إلى منهج السلف في عقيدتهم وأصول دينهم فيقول:

ومن أهل الكلام مَنْ يقول: بل الصحابة كانوا على عقائدهم وأصولهم، لكن لم يتكلّمَوا بذلك لعدم حاجتهم إليه، فهؤلاء جمعوا بين لأمرين بين أنّهم ابتدعوا أقوالاً باطلة

(١) النبوات ص٢٤١/ .
(٢) النبوات ص٢٤١/ .
(٣) النبوات ص٢٤٤/ .

ظنُّوا أنّها هي أصول الدّين، لايكون عالماً بالدِّين إلاّ مَنْ وافقهم عليها، وأنّهم علموا وبيّنوا من الحق مالم يبينه الرسولُ والصحابة، وإذا تدبّر الخبيرُ حقيقةَ ماهم عليه تبيّن له أنّه ليس عندَ القوم فيما ابتدعوه لاعلم ولادين ولاشرع ولاعقل. وآخرون لمّا رأوا ابتداع هؤلاء وأنّ الصّحابة والتّابعين لم يكونوا يقولون مثلَ قولهم ظنُّوا أنّهم كانوا كالعامّة الذين لايعرفون الأدلّة والحجج وأنّهم كانوا لايفهمون مافي القرآن ممّا تشابه على من تشابه عليه، وتوهموا أنّه إذا كان الوقف على قوله: ﴿ومَا يعلمُ تأويلَهُ إلاّ الله﴾ [سورة آل عمران/ ٧] كان المراد أنّه لايفهم معناه إلاّ الله لاالرسول ﷺ ولاالصحابة، فصاروا ينسبون الصحابة، بل والرسولَ إلى عدم العلم بالسمع والعقل، وجعلوهم مثل أنفسهم لايسمعون ولايعقلُون، وظنّوا أنّ هذه طريقة السلف، وهي الجهلُ البسيط التي لايعقل صاحبها ولايسمع، وهذا وصف أهل النّار لاوصف أفضل الخلق بعد الأنبياء.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: مَنْ كان منكم مُستنّاً فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قدْ ماتَ، فإنّ الحيَّ لايُؤْمَنُ عليه الفتنة، أولئك أصحابُ محمد ﷺ أبرُّ هذه الأمّة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلّفاً؛ قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقّهم، وتمسّكوا بهديهم، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم.

وقال أيضاً: إنّ الله نظر في قلوب العباد فوجدَ قلبَ محمد ﷺ خيرَ قلوب العباد فاصطفاه لنفسِه وابتعثَهُ برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ. فوجدَ قلوب أصحابه خيرَ قلوب العباد بعد قلبه، فجعلهم وزراءَ نبيّه ﷺ، يُقاتِلوُن على دينه. وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنّه قال: (خيرُ القُرونِ القرنُ الذي بُعِثْتُ فيهم، ثمّ الّذين يَلُونَهُمْ، ثمّ الّذين يَلُونَهُمْ) وقدْ قال الله تعالى: ﴿والسَّابِقُون الأوّلُونَ مِنَ المهاجِرينَ والأنصارِ والّذينَ اتّبعُوهم بإحسانٍ﴾[سورة التوبة/ ١٠١]، فرضي الله عن السّابقين مطلقاً، ورضي عمن اتبعهم بإحسان، وذلك مُتناوِلٌ لكل مَنِ اتّبعهم إلى يومِ القيامة، كما ذكرَ ذلك أهلُ العلم!!.[1]

١٩ ـ ميّزة الصحابة رضي الله عنهم:

إنّ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية رحمه الله تعالى كان يرى أنّ ماحصلَ للصحابة الكرام رضي الله عنهم، الذين دَرَجُوا في ظلّ النبوّة من معرفةٍ وعلومٍ متكاملةٍ عميقةٍ بدون أن تَشُوبَهم شائبةٌ من التكلّف، كلّ ذلك كان نتيجة التربية الصحيحة التي نالوها في رعاية

---

(١) النبوات ص٢٤٨ـ٢٤٩/ .

النبي ﷺ، ثم إنّه يُوازِن بينَ الصحابة رضي الله عنهم وبينَ المتأخرين من العلماء الذين تأثّروا بالفلسفة وعلم الكلام، فيقول:

وأصحابُ محمد ﷺ كانوا مع أنّهم أكبرُ النّاس علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، أقلَّ النّاس تكلّفاً، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة، أو من المعارف مايهدِي الله بِهِ أُمّةً!! وهذا مِن مِنَنِ الله تعالى على هذه الأمّة، وتجد غيرَهم يحشون الأوراق من التكلّفات والشطحاتَ ماهو من أعظم الفضول المُبتَدَعةِ والآراءِ المُختَرَعَةِ!؟.[1]

٢٠ ـ أهل الكلام يعظّمون أئمّة الاتّحاد والحلول:

إنّ ممّا أخذه شيخ الإسلام على أهل الكلام تعظيمُهُمْ لأئمة الاتحاد والحلول بعد تصريحهم في كتبهم بعبارات الاتحاد، وتكلّفهم لها محاملَ غير ماقصدوه فيقول:

وتجد عامّةَ أهل الكلام ومن أعرض عن جادّة السلف ـ إلاّ مَن عصمَ الله ـ يعظّمون أئمة الاتحاد، بعد تصريحهم في كتبهم بعبارات الاتحاد، ويتكلّفون لها محامِلَ غير ماقصدوه، ولهم في قلوبهم من الإجلال والتعظيم والشهادة بالإمامة والولاية لهم، وأنّهم أهلُ الحقائق، ماالله به عليم!!؟.

ففي فصوص الحكم [المنسوب لابن عربي] أنّ الولاية أعظم من النبوّة، بل أكمل من الرسالة، ومن كلامه:

مقـــامُ النبـــوّة فـــي بـــرزخ
فـــوَيْـــقَ الـــرَّسُـــولِ ودُون الـــولـــيّ

وبعض أصحابه يتأوّل ذلك بأنّ ولاية النبي أفضل من نبوّته، وكذلك ولاية الرسول أفضل من رسالته، أو يجعلون ولايتَهُ حالَهُ مع الله، ورسالتَهُ حالَهُ مع الخلق، وهذا من بليغ الجهل!!.[2]

٢١ ـ نقضُ المنطق اليوناني وهدمُ هيمنته:

لقد تناول شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله تعالى علمَ المنطق الذي كانت تفتخر به اليونان بالنقض بعدما نقض الفلسفة اليونانيّة، وأثبت أنّه لايقوم إلاّ على أساس متضعضع ضعيف. ولقد كان علماء الكلام مأخوذين بسحر المنطق أكثر بالنسبة إلى

---

(١) نقض المنطق ص١١٤/ .
(٢) نقض المنطق ص١٤٠ـ١٤١/ .

الفلسفة. فهذا الإمام الغزالي يقول في كتابه الكبير «المستصفى»[1] عن مقدّمات علم المنطق: هي مقدّمة العُلوم كلها، ومَنْ لايحيط بها فلا ثقةَ بعلومه أصلاً!!؟ ويقول في «مقاصد الفلاسفة»: أمّا المنطقيات فأكثرها على منهج الصَّواب..[2]

فجاء شيخُ الإسلام فنقض هذه المزاعم، كما نقضَ قولَ من قال إنّه من فروض الكفاية، فيقول:

وأمّا المنطق: فمَنْ قال إنّه فرض كفاية، وأنّ مَنْ ليسَ له به خبرة فليس له ثقة بشيء من علومه؛ فهذا القولُ في غاية الفساد من وجوه كثيرة التعداد، مشتمل على أمورٍ فاسدةٍ، ودعاوٍ باطلة كثيرة، لايتسع هذا الموضع لاستقصائها.

بل الواقع قديماً وحديثاً أنّك لاتجد من يلزم نفسه أن ينظر في علومه به، ويُناظر به إلّا وهو فاسد النظر والمناظرة، كثير العجز عن تحقيق علم وبيانه. فأحسنُ مايحمل عليه كلام المتكلّم على هذا، أن يكون قد كان هو وأمثاله في غاية الجهالة والضلالة!.. فلا يصح نسبةُ وجوبه إلى شريعة الإسلام بوجه من الوُجُوه.

ثم يقول: إنّ القولَ بوجُوبه قول غُلاته وجهال أصحابه، ونفس الحُذّاق منهم لايلتزمون قوانينه في كلّ علومهم، بل يعرضون عنها، إمّا لطولها وإمّا لعدم فائدتها، وإمّا لفسادها، وإمّا لعدم تميزها، ومافيها من الإجمال والاشتباه. فإنّ فيه مواضعَ كثيرة هي لحم جمل غَثٌّ على رأس جبلٍ وَعْرٍ، لاسهلَ فيُرتقَى، ولاسمين فيُنتَقَل!!؟.[3]

ولهذا مازال علماء المسلمين وأئمة الدِّين يذمُّونَهُ ويذمُّون أهله، وينهون عنه وعن أهله، حتى رأيتُ للمتأخرين فُتيا فيها خُطوط جماعة من أعيان زمانِهم من أئمة الشافعيّة والحنفيّة وغيرهم، فيها كلام عظيم في تحريمه وعقوبة أهله، حتى إنّ من الحكايات المشهورة التي بلغتنا أنّ الشيخَ أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاعِ مدرسةٍ معروفٍ من أبي الحسن الآمديّ وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا[أي: منَ أيدي الصليبيين] مع أن الآمدي لم يكن أحدٌ في وقته أكثر تبحراً في العلوم الكلاميّة والفلسفة منه. وكان من أحسنهم إسلاماً، وأمثلهم اعتقاداً!؟.[4]

---

(١) المستصفى ج١/ ١٠/.

(٢) مقاصد الفلاسفة ص٣/.

(٣) نقض المنطق ص١٥٥/.

(٤) نقض المنطق ص١٥٦/. وجاء في فتاوى ابن الصلاح «مسألة: ٥٥» ج١/ ٢٠٩: فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة تعليماً وتعلّماً؟ وهل المنطق جملةً وتفصيلاً ممّا أباح الشارع

٢٢ ـ خطر تأثير المنطق على العقل وقوّة البيان:

يرى شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى أنّ المنطق طَالَما جنى على العقل فأفقده نشاطه الطبيعي وسلاسة اللسان والأفكار، ولاشك فإنّ الذين يحافظون على القواعد المنطقية والأسلوب المنطقي يُصَابُون بعجزِ اللسان، وتعقيدِ البيان وتطويل الكلام وزيغٍ في التفكير، وأوضح مثال لذلك مُتون المتأخرين، وكُتب المناهج الدراسية المتقدّمة، فيقول:

ومازال نُظّار المسلمين يعيبون طُرقَ أهل المنطق ويُبيِّنُون مافيها من العِيِّ واللكنة وقصور العقل وعجز المنطق، ويُبيِّنُون أنّها إلى إفساد المنطق العقليّ واللسانيّ أقرب منها إلى تقويم ذلك.(١)

ويقول في موضع آخر:

إذا اتسعتِ العقولُ وتصوّراتُها اتسعتْ عباراتُها، وإذا ضاقتِ العُقولُ والتصوّراتُ بقي صاحبها كأنّه محبوسُ العقل واللسان، كما يُصيب أهل المنطق اليوناني، تجده من أضيق النّاس علماً وبياناً وأعجزهم تصوّراً وتعبيراً، ولهذا مَنْ كان منهم ذكيّاً إذا تصرّف في العلوم وسلك مسلك أهل المنطق طوّل وضيّق، وتكلّف وتعسّف، وغايتُه بيانُ البيّن

تعليمه وتعلّمه؟ أم لا؟ فأجاب: الفلسفة رأس السّفه والإنحلال، ومادّة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسفَ عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيّدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة، ومَن تلبّسَ بها تعليماً وتعلّما قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأيّ فنٍّ أخزى من فنّ يُعمي صاحبه عن نبوّة نبيّنا ﷺ؟! مع انتشار آياته المستبينة ومعجزاته المستنيرة، حتى لقد انتدب بعض العلماء لاستقصائها، فجمع منها ألف معجزة وعددناه مقصّراً، إذ فوق ذلك بأضعاف لاتحصى!!.. وأمّا المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشّرِ شرٌّ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلّمه ممّا أباحه الشرع، ولااستباحه أحدٌ من الصحابة والتّابعين والأئمة المجتهدين والسّلف الصالحين، وسائر مَن يُقتدى به من أعلام الأئمة وسادتها، وأركان الأمّة وقادتها، قد برّأ الله الجميع من معرّة ذلك وأدناسه وطهرهم من أوضاره. وأمّا استعمال الاصطلاحات المنطقيّة في مباحث الأحكام الشرعيّة؛ فمِنَ المنكرات المستبشعة، والرّقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية.

وقال الحافظ الذهبي في «بيان زغل العلم» ص٢٤ [في علم المنطق]: نفعه قليل وضرره وَبِيل، وما هو من علوم الإسلام.

(١) الردّ على المنطقيين ص١٩٤/ .

وإيضاح الواضح مِنَ العِيّ، وقد يُوقعه ذلك في أنواع من السّفسطة التي عافَى الله منها مَن لم يسلك طريقهم!!.[1]

٢٣ ـ انحطاط العلوم العقلية من جراء علم المنطق:

لقد أوضحَ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله تعالى أنّ الأمة إذا أخذت بعلم المنطق في العلوم العقلية أصابها الانحطاط الفكري فلم تقدر على مواكبة الحياة فيما تتطلبه من رُقيّ فكري في العلوم العقلية، وذلك لأن سلوكَ منهجِ المنطق سلوكٌ في التقليد المحض، ولايصلح التقليد في العلوم العقلية، فيذهب إلى:

أنّ هذه العلوم مادامت عقلية مجرّدة [نقصد علم الطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء، وسائر العلوم العقلية] وهي لاتقوم إلاّ على أساس الفكرة والدراسة، فأيّ مسوّغ للتقليد البحث فيها، حتى إن ناقليها لايعتبرونها مبنية على أي وحي أو إلهام إنما يبنونها على العقل، ولذلك فأهل العقل في كلّ عصر يحقّ لهم أن يتناولوها بالنقد والوزن في ميزان العقل، ويرفض كل مايعارض العقل، فيقول ردّاً على قول بعض شيوخ المنطق في كتابه «الردّ على المنطقيين»: «هذه علوم [ويقصد علوم المنطق] قد صقلتها الأذهانُ أكثر من ألف سنة وقَبِلهَا الفضلاء»:

هَبْ أنّ الأمر كذلك؟! فهذه العلوم العقلية محضة ليس فيها تقليد لقائل، وإنّما تُعلم بمجرّد العقل، فلا يجوز أن تصحَّح بالنقل [لأنّ النقل مختص بتصحيح العقيدة والدِّين]، بل لايتكلم فيها إلاّ بالمعقول المجرّد، فإذا دلَّ المعقولُ الصريحُ على بُطلان الباطل منها لم يَجُزْ ردُّهُ، فإنّ أهلها لم يدّعوا أنّها مأخوذة عمّن يجب تصديقهُ، بل عن عقلٍ محضٍ، فيجبُ التّحاكم فيها إلى موجب العقل الصريح!.[2]

فإذا كان لايصحُّ الأخذُ بعلم المنطق في العلوم العقلية المحضة؛ فكيف يصحُّ أخذه في العلوم الشرعية التي مصدرها الوحي المحض؟!!..

وإنّ ممّا لاشكَّ فيه أنّ من أكبر أسباب تأخر المسلمين في العصور المتأخرة في العلوم العقليّة والكونيّة ركون العلماء إلى علم المنطق، إضافة إلى ماكانوا عليه من جمودٍ وتقليد!!؟..

---

(١) الردّ على المنطقيين ص١٦٧/ والسفسطة عند الفلاسفة هي الحكمة المموهة. وعند المنطقيين هي القياس المركب من الوهميات. والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته. المعجم الفلسفي ج١/٦٥٨/ .

(٢) الرد على المنطقيين ص ١٠٨



الفصل السابع

أخطار المناهج المنحرفة

في تفسير القرآن الكريم

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:

التمهيد: رعاية الله تعالى لكتابه سُنّة ثابتة إلى الأبد.

البحث الأول: الكشف عن الاتجاهات المنحرفة في التفسير.

البحث الثاني: تطرّف المنهج الفلسفي في تفسير الآيات المتشابهات.

البحث الثالث: انحراف المنهج الفلسفي الصوفي في التفسير.

البحث الرابع: انحراف أصحاب المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن الكريم.

البحث الخامس: انحراف المتطرفين في التفسير العلمي للقرآن الكريم.

البحث السادس: انحراف مدّعي التجديد في تفسير القرآن الكريم.

البحث السابع: انحراف أصحاب القراءات المعاصرة للقرآن الكريم.

البحث الثامن: معالم الانحراف في فهم القرآن والإسلام.

البحث التاسع: ماذا يعني التجديد في الإسلام؟.

البحث العاشر: التجديد في الإسلام ضمن الثوابت العلمية والضوابط المنهجية.

البحث الحادي عشر: ثوابت العقيدة الإسلامية عصمة من كل ضلال.



التمهيد: رعاية الله تعالى لكتابه سُنّة ثابتة إلى الأبد

هذه أبحاثٌ مركّزةٌ مقتضبةٌ تتعلّق بـ أخطار المناهج المنحرفة في تفسير القرآن الكريم نقدّمها خدمةً واجبةً في مجالِ توعيةِ المسلمينَ، ممّا يجولُ في كثير من الأفكار التي قد تطرقُ مسامِعَهم، أو تتراءى لأبصارِهم، ممّا يسمعونَهُ أو يقرؤونَهُ، ممّا يُهدِّدُ عقيدتَهم، أو يمسُّ بقدسيّةِ قرآنِهم، أو يُشوّهُ شريعتَهم، وممّا يُثيرُهُ أعداء الإسلام في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وهذه الأبحاثُ على اختصارها، تُشكِّلُ حلقةً من تلك الحلْقاتِ التي يعقِدُها المخلِصونَ من العلماءِ، دفاعاً عن الإسلام والمسلمينِ؛ وذلك لإدراكهم العميق أن سلامةَ المسلمينَ تتحقق بسلامةِ إسلامِهم، عقيدةً وشريعةً.. ومنهجاً وتطبيقاً..

وقد ظهرَ في هذا الزمانِ من عواملِ المروقِ من الدِّين، مايُشكِّلَ خطراً جسيماً على المسلمين، من جرّاءِ مايُثارُ حولَ الإسلام وعقيدتهِ وشريعتهِ، وقرآنهِ وسنّةِ نبيّهِ، ومنَ الشُّبهاتِ والافتراءات التي يروّجها أعداؤنا؛ وأنّ بعضَ مَن يدّعي الإسلامَ ويجهلُ حقائقَه، يقومُ بترويجِ وإشاعةِ ونشرِ مايُعتبر طعناً في الدِّين؛ من غير أن يكترثَ لخطورةِ صنيعه وبشاعة جريمتهِ، وهو آمِنٌ من العقوبةِ، بعيدٌ مَنَ المُؤاخذَةِ؛ حتى أصبحت «قضيةُ المَسَاسِ بقدسيّة الإسلام» قضيةً من القضايا المألوفة لدى الجهَلة بالإسلام، بل تكادُ تكونُ رأياً سائداً عندَ ذلكَ القبيلِ منَ الناس!!؟..

كما ظهرتْ في هذا الزمانِ ظواهرُ منكرةٌ في حياةِ المسلمين وبلادهم، وعلى الأخص في ثقافاتهم ومعارفهم؛ حيثُ فشا بين مثقّفيهم الجهلُ بالإسلام وبالقرآن، حتى غدَا الواحد فيهم عالماً بنوافل العلوم الكونية، جاهلاً بالضروريات الدِّينيّة؛ ونجدُ الكثيرَ من هؤلاء عندما يُصادِفون حقيقةً من حقائق الإسلام التي يكتشفها العلم الحديث، قد ملكتهم الدهشة، وبدت على وجوههم أمارات التعجب والاستغراب، كأنّهم يجزمون بأنّ ليس في الإسلام مايمتُ إلى العلم الحديث بصلةٍ، وقد فاتهم أنّ العلمَ الحديث، مهما قطع أشواطاً في المدنيّة والتقنيّة العلمية، فإنه لايمكن بحال أن يبلغ نزراً يسيراً ممّا أشار إليه القرآن الكريم من أسرار الكون، ذلك أنّه فتح للعقول الإنسانية سُبُلَ المعرفة في جميع مجالات الحياة، وماهذا التراث العلمي الخالد لأسلافنا الأماجد إلاّ دليلٌ ناصعٌ على ماذهبنا إليه، والذي اعترف بفضله علماء الغرب قديماً وحديثاً، وبَنَوْا عليه صرح تقدّمهم العلمي ومدنيّتهم الحديثة.

وليسَ منَ المستغربِ أن يَقومَ بينَ المسلمينَ صِنفٌ مِن هذا النوعِ من الجُهّالِ، إنْ

كان ضِعَافُهم يُهرولون وراءَ سرابِ الغرب ينشدُونَهُمُ الرقيَّ والتقدّمَ والحضَارةَ والسَّعادَةَ، وينأون عن دِينِهم، ويُعرِضون عن قرآنِهم.

ولقد زهدَ كثيرون في هذا العصر بالعلمِ الشرعي والثقافةِ الإسلاميةِ، وأعرضُوا عن المنهجيّةِ الإسلاميةِ في ربط الدنيا بالدِّين، ودراسةِ الظواهرِ الكونية في ظلِّ الحقائقِ القرآنيةِ والعقيدةِ الإسلامية؛ فما في القرآن من آيةٍ مِن آيات العقيدةِ والإيمانِ إلاّ مربوطة بآيةٍ من الآياتِ الكونية؛ لتكونَ دَلالَةً واضحةً على أنّ خالِقَ هذا الكونِ هو مُنزِّلُ هذا القرآنِ؛ وبهذا تترابط الآياتُ القرآنيةُ المسطورةُ بالآيات الكونيةِ المنظورةِ!!..

كما أنّنا وجدنا بعضَ مَن يدخل عالَمَ القرآن ممن فقدَ أهليةَ فهم آياتِه وأحكامِه، غيرَ قادرٍ على الوصولِ إلى حقائقِ القرآنِ، فنَرَاهُ يُخطىء كثيراً في استخلاص النتائج والقضايا القرآنيةِ، ويأتي بتفسيراتٍ خاطئةٍ وتأويلات باطلة، ويُقدِّمُ من خلالِ ذلك أبحاثاً تتصف بالسطحيةِ تارةً، وبالنظرة التجارية تارةً أخرى.

وبينَ الحين والحين.. نرى علماءَ أعلاماً ينبرُون لهؤلاءِ مُصَحِّحِينَ لأغاليطهم، مقوّمين لأخطائِهم، وينهضون كاشفِين لشبهاتِهم، مُنبّهين لمخاطرِهم، ناصحينَ ومُرشدينَ لهم وللأمّة؛ يقفُون حُراساً أمناءَ على حُسْنِ الفهم لكتابِ الله تعالى؛ ينفُون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يحملُ هذا العِلْمَ مِن كلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ؛ ينفُون عنه تحريف الغالين، وانتحال المُبْطِلِين، وتأويلَ الجاهلين»!!.

فلم يخل عهدٌ أو زمانٌ إلاّ فيه قائمٌ لله بالقسطِ والعدلِ؛ ليكونَ نبراساً لمن دونه، يقتفي أثَرهُ، ويسلكُ منهجَهُ، ويتبعُ طريقَتَهُ، وتلك نعمةٌ مَنَّ بها الله تعالى على هذه الأمّة أن جعلَ المصلحين خلفاء فيها، يخلفُ بعضهُم بعضاً، كلّما رَحَلَ مصلحٌ خَلَفَهُ آخر، وهكذا إلى أن يتمَّ أمرُ الله، ويرثُ الله الأرضَ ومَن عليها.

وأبحاث هذا الفصل على إيجازِها امتدادٌ لتلك الخلافةِ الراعيةِ لدين الله وكتابِه وسنّة رسولِ ﷺ؛ تظهرُ من خلالِه عظمةُ حفظ الله تعالى لهذا الدِّين الذي تكفّلَ بحفظِهِ ورعايتِه وتخليدِهِ، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُون﴾

البحث الأول

الكشف عن الاتجاهات المنحرفة في التفسير

نشأت إثْرَ الفتن التي أثارها أعداء الإسلام فِرقٌ تأثَرتْ بالشبهات الدخيلة، التي صاحبت ثائرة تلك الفِتن التي عصفت قروناً في ديارِ الإسلام، والتي كانت أكبر عامل على إثارة الفُرقة بين الأمة الواحدة...

ولقد كانت تلك الفِرق الضالّة على خلافات كبيرة فيما بينها، ونتيجةً لانتصارِ كلِّ فِرقة لِما عليه من الضلال؛ نشأت الاتجاهات المنحرفة لتفسير القرآن الكريم، حين سعْت كلُّ فرقة إلى تطويع النصوص القُرآنية والنبوية، وإخضاعها لميولها واتجاهها الضال المنحرف، وبالإضافة إلى ذلك، ذهبت تلك الفِرق المنحرفة إلى اختلاق الأقاويل التي تروج أفكارها؛ ثم الادّعاء أنّها مروّية عن النبي ﷺ أو عن الصحابة، وعلى الأخص سيدنا عليّ كرمّ الله وجهه. وذلك زيادة في التضليل على عامة الناس.

وقد برزَ حول تفسير القرآن الكريم اتجاهان خطيران:

الاتجاه الأول: الانحراف في التفسير والتأويل.

والاتجاه الثاني: الوضع والكذب على رسول الله ﷺ وآله وسلم وأصحابه.

وفي هذا البحث إطلالة موجزة حول الكشف عن الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم.

الانحراف عن النهج الصحيح في تفسير القرآن:

ترجع عوامل الانحراف عن النهج الصحيح في تفسير القرآن الكريم إلى أسباب عِدّة، نجملها فيما يلي:

١ـ النّزاعات الخلافية بينَ الفِرق.

٢ـ الخلافات بين أصحاب المذاهب النحوية.

٣ـ التأويل الباطني للفِرق المنحرفة.

٤ـ الوضع والكذب على النبي ﷺ.

أما السبب الأول:

فإنه يظهر في الإتجاه المنحرف في التفسير للمعتزلة، وذلك لما ظهرت النزاعات الخلافية بين الفِرق، تأثر التفسير بها تأثراً كبيراً، وذلك لانّ القرآن الكريم هو المرجع الأول لجميع المسلمين، فكان من الطبيعي أن يرجع أهل جميع الفِرق إلى القرآن الكريم، ليجدوا فيه حجتهم فيما ذهبوا إليه من الرأي، ولو بطريق إخضاع النص القرآني له، وقسره على موافقة رأيه وهواه، وتأويل مايصادمه من ذلك.

ولقد استفحل الأمر إلى حدٍّ جعل أصحاب المذاهب والأهواء، يسعون إلى حماية مذاهبهم وأهوائهم، والترويج لها في غير محيطهم، بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله تعالى وفق أهوائهم، وبمقتضى نزعاتهم واختلافاتهم.

وكانت فِرقةُ المعتزلة من بين هذه الفِرق التي تأولت كثيراً من آيات القرآن بغير تأويلها، واتجهت بالكثير من نصوصه اتجاهاً منحرفاً، من أجل خدمة مبادئها التي تدين بها.

وإذا ذهبنا نستعرض ماكتبه المفسرون من المعتزلة في تفاسيرهم، خرجنا منها بجملة كثيرة من هذه التأويلات، التي تخدم أصولهم الخمسة التي يُجمعون عليها، وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلين. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي أثاروا حولها مجادلات كلامية، لم تأت للأمة بأيّ خير...

ويكفي أن نعرض هذا المثال من تأويلات، المعتزلة، لتعطينا الصورة الواضحة لحقيقة تكلّفهم في تأويل الآيات التي لاتوافق أفكارهم، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة/ ٢٢-٢٣] فأوّلوا الآية الكريمة بما يتمشى مع مذهبهم الذي ينفي جواز رؤية الله تعالى.

ففي تفسير الزمخشري - وهو من أقطاب المعتزلة - نجد أنّ المعتزلة يُؤوّلون معنى (ناظرة) إلى معنى «التوقع والرجاء» أي: هو من قبيل قول الناس: أنا إلى فلان ناظر مايصنع بي، يريدون معنى التوقُّع والرجاء.

وعلى هذا يكون معنى الآية عندهم. أنّ المؤمنين يوم القيامة، لايتوقعون النعمة والكرامة إلاّ من ربهم، كما كانوا في الدنيا لايخشون ولايرجون إلاّ إياه[١].

---

(١) تفسير الكشاف، ٢/ ٥٠٩.

فالناظر في تأويل المعتزلة لهذه الآية، يرى أنّهم صرفوا معنى الآية الصريح في رؤية المؤمنين الله تبارك وتعالى يوم القيامة في الجنة، والذي وردت الأحاديث النبوية ـ التي رواها أصحاب الصحاح ـ بإثبات معنى الآية الكريمة، صرفوه إلى احتمال غير مقصود من الآية، فإنّ تأويل النظر في الآية بمعنى الانتظار مدفوع، لأنه بهذا المعنى لايتعدى بإلى، بل يتعدّى «أي: الانتظار» بنفسه، ثم إنّه لايُسند إلى الوجه، فلا يُقال: وجه فلان منتظر. وحمل النظر على النعمة والكرامة المتوقعة من الله تعالى تكلّف ظاهر، وهو يُؤدي إلى الانتظار، والانتظار غير النظر، وأخبر الله عزّ وجل عن مراده بلفظ صريح يدل دلالة واضحة لمعنى المراد وأوضحه النبي ﷺ بقوله الثابت في صحيحي البخاري ومسلم: عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فنظرَ إلى القمر ليلةَ البدرِ، وقال: «إنّكم سترون ربّكم عِياناً ـ أي: مُعايَنةً ـ كما ترون هذا القمر، لاتُضَامُون في رؤيته»، أي: لايُصيبكم ضيم في ذلك. وفي حديث صُهيب عند مسلم: في دخول أهل الجنّة الجنّة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة: يقول الله تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وُجوهنا؟ ألم تُدخلْنا الجنّة وتنجيّنامِنَ النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم مِنَ النظر إلى ربّهم»[1].

ونحن في هذا البحث لانريد أن نستقصي ما للمعتزلة من تأويلات منحرفة في القرآن الكريم، ومن يُرِد المزيد من معرفة ذلك، فليقرأ في تفسير الكشاف للزمخشري، وتنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار، ثم ليقارن بينها وبين تفاسير الأئمة، ليقف على مالهم من تأويلات منحرفة، يجب تنزيه كتب التفسير عنها.

وكذلك نجد لدى الشيعة اختلافات منحرفة في تفسير كثير من آيات القرآن الكريم، حملوها على غير محملها وأوّلوها على غير وجهها، لتوافق وماذهبوا إليه من الآراء والاجتهادات الخاطئة، والتي تدور في مجملها حول إثبات العصمة للأئمة من أهل البيت ـ عليهم السلام ـ والعصمة لاتثبت إلا للنبي ﷺ. وكذلك فكرة المهديّة والرجعة، وكذلك فكرة التَقية التي يجعلونها أساس التعامل مع سواهم من المسلمين.

والذي يُظهر انحرافهم في تفسير القرآن الكريم حملُهم آياتٍ كثيرة، نزلت في حق المشركين والكافرين وأهل الكتاب، على أجلاء أصحاب رسول الله ﷺ، كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وسواهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين

(١) رياض الصالحين صفحة ٧٢٣ ط دار المأمون.

وقد أعرضنا عن ذكر الأمثلة فيما تقدم خشية إثارة فتنة الأحقاد والضغائن التي تحملها تلك التأويلات الباطلة، والتفسيرات المزيفة، والتي يجب تطهير كتب التفسير عامة: السنّية والشيعيّة منها، لأنها تبثُّ روحَ الفُرقة بين الأمة الواحدة.

وأمّا السبب الثاني:

فإنه يظهر في الاتجاه المنحرف لبعض أصحاب المذاهب النحوية المتَّبَعة التي التزموها؛ كأن يجدوا في كتاب الله تعالى آيةً تُقرأُ بقراءةٍ ثابتة متواترة عن سيدنا رسول الله ﷺ، وهم يرونها لاتتمشى مع مذهبهم النحوي فينكرون على من يقرأ بها من الأئمة وسائر الأمة.

كما فعل الزمخشري في ردّ قراءة ابن عامر - وهي من السبع المتواترة - في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾[الأنعام / ١٣٧]، وقد ردّ عليه ابن المنير في «الانتصاف» المطبوع مع الكشاف ج١/ ٢٧٢/ .

وأجاد في الردّ عليه أيضاً الإمام ابن حيان في تفسيره[١] .

ومن أسباب الانحراف في التفسير، الجهلُ في اللغة العربية وقواعدها:

فمن الناس فريق ممن يزعم العلمَ والفهمَ، يُفسرون القرآن الكريم، من غير أن تكون لهم دراية تامة بقواعد اللغة العربية وأصولها، ولابمبدأ اشتقاق الكلمات وكيفية تصريفها، ومن هنا كان لهم في تفسير القرآن الكريم اتجاه منحرف، يخرج باللفظ القرآني عن معناه اللغوي الذي وضع له، إلى معنىً آخر غير مراد به حقيقةً أو مجازاً[٢] .

وأما السبب الثالث:

فإنّه يظهر في الاتجاه المنحرف لأصحاب الفِرق الضالّة من الباطنية، كالقرامطة، والخُرّميّة، والبابكية والسبعيّة، والإسماعيلية. والباطنية لقبٌ عام مشترك تندّرجَ تحته مذاهبَ شتى وطوائف كثيرة، والصفة المشتركة بينها، هي تأويل النص الظاهر بالباطن، تأويلاً يذهب به أصحابه وراء المقصود فيما يخالف المراد من النص، ولقد يصل التباين بين التأويل الباطني وبين المراد من النص حدّ التناقض الخالص.

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٣٠.

(٢) انظر الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن للدكتور محمد حسين الذهبي ٣٧-٤٣ .

والتأويل الباطني يعني عند هذه الفِرق الضالّة، أنّ النصوص الدِّينيّة المقدّسة، رُموزٌ وإشارات إلى حقائق خفية وأسرارٍ مكتومة، وأن عامة الشعائر والعبادات والأحكام العملية الأخرى، هي عندهم أيضاً رُموزٌ وأسرار، وأنّ عامّة الناس هم الذين يقنعون بالظواهر والقشور ـ على حدّ زعمهم ـ ولاينفذون الى المعاني الخفيّة المستورة، التي هي من شأن أهل المعرفة عندهم.

نماذج من التأويل الباطني:

قالوا في تأويل قول الله عزّ وجل: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت/ ٦٤]: الآخرة التي يصير الناس إليها بعد الموت إنما هي انتقال الروح من حيوان الى حيوان، حتى يكون آخر مايصيرون إليه من الأبدان السود المحترقة، أو الى الأبدان الصافية النورانية.

وقالوا في تأويل قول الله عزّ وجل: ﴿يَاأَيُّها الإنسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ؟ في أَيِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار/ ٦ـ٨]: إن الله يُركِّبُ الإنسان فيما شاء من صور الحيوان، على قدر مااكتسب من الطاعات والمعاصي.

ولذلك كان الوضعُ والكذب، أثراً بارزاً في الاتجاه المنحرف في تفسير القرآن الكريم، وساعد على هذا تساهل بعض المفسرين كالثعلبي والزمخشري، في ذكر الأحاديث الموضوعة في تفاسيرهم.

فهؤلاء يزعمون أنّ القيامة تكون بخروج الروح من بدنٍ الى بدنٍ، طاهرة وصُور حِسان ولذّات دائمة. ثم لايزالون يتقلون في مراتب الحسن والطهارة واللذات، على قدر نظافتهم حتى يصيروا ملائكة، ويصيروا في أبدان صافية نورّية. وإذا كانت الأرواح عاصية، نقلت الى أبدان نجسة وصُورٍ مشوّهة، وخِلَقٍ مذمومة كالكلاب والقردة والخنازير والحيات والعقارب. وهذا ماذهب إليه أصحاب الفِرقة الباطنية المسماة بـ«الخُرّامية»[1].

والى هذا ذهب سائر الفِرق الباطنية من الاسماعيلية والقرامطة.

وأمّا السبب الرابع:

فإنه يظهر في الاتجاه المنحرف الذي سلكه القصّاصون، الذين كانوا يضعون

---

(١) مذاهب الإسلاميين٢/٤٦ـ ٧٤.

الأحاديث في التفسير والأحكام والمواعظ، وقد كان أكثرهم من الملاحدة والزنادقة والباطنية، كانوا يتصنعون الكلام وينمّقونه، ويجعلونه يُشابه أحاديث النبي ﷺ، ويضعون له الأسانيد المكذوبة، ليوهموا عامة الناس بأنّها مرويّة عن رسول الله ﷺ، وكان هؤلاء يضمنون هذه الأقاويل المكذوبة. مايريدون دسّه على الإسلام، من المعاني الباطلة والعقائد المُضلة، ليصلوا الى مايريدون من إفساد عقيدة المسلمين، وتشويه جمال الإسلام.

قال العلامة المحدث ابن عرّاق الكّناني، في مقدمة كتابه «تنزيه الشريعة» في فصل الوضاعين:

«الوضاعون أصناف«الصنف الأول»: الزنادقة، وهم السابقون الى ذلك، والهاجمون عليه، حملهم على الوضع الاستخفاف بالدين والتلبيس على المسلمين، كعبد الكريم بن أبي العوجاء ـ ربيب حماد بن سلمة ـ ومحمد بن سعيد المصلوب، والحارث الكذاب، الذي ادعى النبوّة في زمن عبد الملك بن مروان، والمغيرة بن سعيد الكوفي، حتى قال حماد بن زيد: وضعت الزنادقة على النبي ﷺ أربعة عشر ألف حديث. وقال ابن عدي: لّما أخذ ابن أبي العوجاء وأتى به محمد بن سليمان بن علي فأمرَ بضرب عنقه، قال: والله لقد وضعت فيكم أربعة عشر ألف حديث أُحرِّم فيها الحلال وأُحلُّ فيها الحرام. «الصنف الثاني: أصحاب الأهواء والبدع، وضعوا أحاديث نصرةً لمذهبهم، أو ثلباً لمخالفيهم. روى ابن أبي حاتم في مقدمة كتاب الجرح والتعديل عن شيخ من الخوارج أنه كان يقول بعدَمَا تَابَ: انظروا عمّن تأخذون دينكم، فإنا كنّا إذا هوينا أمراً صيرنا له حديثاً. وقال الحاكم أبو عبد الله: كان محمد بن القاسم الطالقاني من رؤساء المرجئة، يضع الحديث على مذهبهم. وحكى ابن عدي أنّ محمد بن شجاع الثلجي كان يضع الأحاديث التي ظاهرها التجسيم ـ أي: لذات الله تبارك وتعالى ـ وينسبها الى أهل الحديث، يقصد الشناعة عليهم، لِما بينه وبينهم من العداوة المذهبية. «الصنف الثالث» قوم اتخذوا الوضع صناعةً وتسوقاً. جُرأةً على الله ورسوله، حتى إنّ أحدهم ليسهر عامّة ليلة في وضع الحديث، كأبي البختري وهب بن وهب القاضي، وسليمان بن عمرو النخعي ـ وغيرهم ـ «الصنف الرابع» قوم ينسبون الى الزهد، حملهم التدين الناشىء عن الجهل، على وضع أحاديث في الترغيب والترهيب، ليحثوا الناس على الخير ويزجروهم عن الشر. [وكما فعل بعضهم: كان يضع لكل سورة من القرآن فضائل ينسبها الى النبي ﷺ، ليحث الناس على حفظ القرآن وقراءته]. «الصنف الخامس» أصحاب الأغراض الدنيويّة كالقُصّاص والشحاذين،

وأصحاب الأمراء، وأمثلة ذلك كثيرة».

ولقد تواتر عن سيدنا رسول الله ﷺ، أنّه قال: «من كَذَّبَ عليَّ فلْيتبوَّأْ مقعَدَه مِنَ النار»[1]

(١) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ١/٩ـ١٣.

البحث الثاني

تطرف المنهج الفلسفي في تفسير الآيات المتشابهات

منشأ الانحراف في المنهج الفلسفي الكلامي:

يرجع منشأ الانحراف في المنهج الفلسفي الكلامي، إلى جعل العقل أساساً لفهم النصوص القرآنية المتشابهة، وتأويل الآيات المتشابهات وآيات الصفات على مفهوم العقل للمحسوسات، مع أننا لم نؤمر بتفسير هذه الآيات أو تأويلها، وإنّما أُمرنا بالإيمان بها، مع التسليم بالمراد بها الى مُنَزِّلها وهو الله سبحانه وتعالى.

إن أول مظهر من مظاهر الفلسفة الكلامية، هو التأويل للآيات المتشابهات على أساس العقل، وجعلهم ذلك أساساً لفهم القرآن الكريم، ولم يجعلوا القرآن الكريم أساساً للعقل، أي: لم يُطوّعوا العقل للقرآن، وإنما أرادوا تطويع القرآن للعقل.

ولذلك ذهبوا في تأويل الآيات المتشابهات حسب ادراك عقولهم للمعاني في حدود المحسوسات. وإذا أرادوا جعل آية شاهدةً على أفكارهم، أخذوا في تأويلها بشتى وجوه التأويل ليُطابقوها على مايريدون، ولو خالفوا في ذلك أصول اللغة. وبذلك أصبح التأويل منهجاً ينهجون عليه في تطويع نصوص الكتاب والسنة، فيما يتعارض مع آرائهم وأصول مذهبهم، حتى قالوا: كل آية خلاف مذهبنا منسوخة أو مؤوّلة. فجعلوا ادِّعاء النسخ عند العجز عن التأويل، تهرُّباً من الإقرار بما يخالف آراءهم.

وفي هذا البحث إطلالة موجزة حول هذا الموضوع مع إظهار منهج التطرّف فيه.

تطرّف المنهج الفلسفي الكلامي في التفسير:

لقد أتى القرآن الكريم بالآيات المتشابهات لاختبار إيمان المؤمنين، وامتحان يقينهم، حيث جاءت الآيات المتشابهات على شكل وصفٍ لأشياء محسوسة، ومعانٍ غير محسوسة؛ وصفاً اجمالياً لايقدر سامعها أو قارئها، على ادراك حقيقة ماترمي إليه بمقدار مدلولات ألفاظها، فكان من الطبيعي الوقوفُ عندها والتسليم بحقيقة معانيها ومقاصدها لقائلها ومنزلها، وهو الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابهاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُون ماتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْويلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ الله، وَالرَّاسِخُونَ في الْعِلْم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُل مِنْ عَنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكرُ إلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران/ ٧].

والمتشابه: هو تلك الآيات القرآنية التي استأثر الله تعالى بعلمها، وجعلها سِراً من أسرار كتابه العزيز ولا حظَّ لأحدٍ في علمها ولو كان من الراسخين في العلم. بل إنّ حظّهم منها الإيمان بها وترك الاشتغال بمضمونها. مع التسليم بحقيقتها لله تبارك وتعالى.

وقد ثبت بالاستفاضة. أن جميع الصحابة والتابعين والأئمة والمحدثين والمقرئين. يقفون في التلاوة عند قوله تعالى: ﴿ومَايَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ الله﴾ ثم يبتدئون بالقراءة: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فَي الْعِلْم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُل مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ بياناً لتفويضهم علمَ المتشابه إلى علم الله تعالى، واعترافاً بقصور أفهامهم في إدراك معاني المتشابه الذي جعله الله تعالى من علم أسراره في القرآن العظيم[1].

فكلّ مَن وقفَ مِن المتشابه موقفَ السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين؛ هو من الراسخين في العلم، ومَن خاض فيه فهو مخالف لمنهجهم، يبتغي الفتنة..

وقد ذكر العلماء عن فائدة إنزال الله تعالى للآيات المتشابه فقالوا: هو ابتلاء المؤمنين الراسخين في الغلم بمنعهم عن التفكير بالمتشابه، والوصول الى ماهو غاية مُتَمَنّاهم من العلم بأسراره، فكما أن الجهال مُبتلون بتحصيل ماهو غير مطلوب عندهم، من العلم والإمعان في الطلب؛ كذلك العلماء الراسخون مُبتلون بالوقف، وترك ماهو محبوب عندهم من حب الاطلاع وزيادة المعرفة، وإدراك المقصودمن كل نص؛ إذ ابتلاء كل واحدٍ إنما يكون بما هو خلاف هواه وعكس مُتَمَنّاه[2]

ولقد كان السلف الصالح يقفون من الآيات المتشابهات وآيات الصفات، موقف الإيمان والتصديق والتسليم. قال الإمام ابن تيمية: «فمن سبيلهم ـ أيْ: الصحابة ـ في الاعتقاد الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بهانفسه، وسمّى بها نفسه في

(١) دستور العلماء ج٣/ ٢٠٣ـ٢٠٤/

(٢) دستور العلماء ج٣/ ٢٠٣/ .

كتابه وتنزيله، أو على لسان رسوله ـ الصادق المصدوق ﷺ ـ من غير زيادة عليها ولانقص فيها، ولاتجاوز لها، ولاتفسير لها، ولاتأويل لها، بما يخالف ظاهرها، ولاتشبيه لها بصفات المخلوقين، ولاسِمات المُحْدَثين، بل أمرُّوها كما جاءت، وردّوا علمها الى قائلها، ومعناها المتكلّم بها سبحانه»[1].

وهذا الإمام الأكرم «الشافعي» يقول في شأن آيات الصفات الكريمة، والآيات المتشابهة: «آمنت بما جاء عن الله، وبما جاء عن رسول الله ﷺ؛ على مراد رسول الله».

وسأل الربيعُ بن سليمان، الإمام الشافعي عن صفات الله تعالى، فقال له: «حرامٌ على العقول أن تُمَثِّلَ الله تعالى، وعلى الأوهام أن تُحِدَّه، وعلى الظنون أن تقطع، وعلى النفوس أن تُفَكِّرَ، وعلى الضمائر أن تعمّق، وعلى الخواطر أن تحيط، وعلى العقول أن تعقل؛ إلا ماوصف به نفسه، أو على لسان نبيه ﷺ».

وقال الإمام محمد بن الحسن الشيباني ـ صاحب الامام أبي حنيفة ـ : «اتفق الفقهاء كلُّهم من الشرق والغرب، على الإيمان بالقرآن، وبالأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ، في صفة الربّ عزّ وجلّ، من غير تفسير ولاوصف ولاتشبيه، فمن فسرَّ شيئاً من ذلك، فقد خرج مِما كان عليه النبي ﷺ، وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يُفسِّروا، ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنة، ثم سكتوا، فمن قال بقولِ جَهْمٍ فقد فارق الجماعة»[2].

وقال الامام ابن تيمية: «إنهم ـ أي: الصحابة ـ كانوا إذا رأوا من يسأل عن المتشابه بالغوا في كَفِّه؛ تارةً بالقول العنيف، وتارة بالضرب، وتارة بالإعراض الدال على شدّة الكراهة لمسألته، ولذلك بلغَ عمر رضي الله عنه أنّ «صَبيغاً» يسأل عن المتشابه؛ أعَدَّ له عَراجَينَ النخل، فبينما عمر يخطب، قام فسأله عن قول الله تعالى: ﴿والذَّارِيَات ذَرْوَاً فَالحَامِلات وِقْراً﴾ ومابعدها، فنزل عمر فقال: «لو وجدتُك محلوقاً لضربتُ الذي فيه عيناك بالسيف» ـ يقصد: لو وجده مرتداً ـ ثم أمر به فضُرِبَ ضرباًشديداً، وبعث به إلى البصرة، وامرهم ألا يجالسوه، فكان بها كالبعير الأجرب، لايأتي مجلساً إلا قالوا: «عَزْمَةُ أمير المؤمنين» فتفرقوا عنه، حتى تاب وحلف بالله ما بقي يجد مِمّا كان في نفسه شيئاً، فأذن عمر في مُجالسته، فلّما خرجت الخوارج أُتيَ فقيل له: هذا وقتُكَ؟ فقال:

---

(١) نقض المنطق: لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية/ ٤٠٣.

(٢) نقض المنطق ص٢/.

لا، نَفَعتني موعظةُ العبد الصالح»، يقصد عمر بن الخطاب[1] .

هذا هو مذهب السلف الصالح، من آيات الصفات والآيات المتشابهات، قولاً وإيماناً وفعلاً ومنهجاً.

وعلى هذا كان منهج التابعين، إلى أن هبّت على المسلمين ريحُ الفلسفة اليونانية، وعصفت في ديار الإسلام فكرتُها، على ايدي بعض من استشرف لمعرفتها، فسارع الى ترجمتها نساطرةُ اهل الكتاب، والمنجمون من المجوس من بلاد فارس؛ حتى اختلطت تصوّراتهاالقائمة على البحث والمعرفة في الغيبيّات - فيما وراء الكون والحياة - في عقول الجهميّة والمعتزلة، ومن كان على شاكلتها من أصحاب الفِرق الضالّة فنضحتْ عليهم من أصباغها المختلفة ومفاهيمها العقيمة، وأدخلت عليهم شبهات ضالّة، حتى أثاروا من خلالها جدالات، كان سبباً لضلال الكثيرين من الذين انخدعوا بها، وعاملاً كبيراً من عوامل الخلاف بين الأمة...

فالجهميّةُ: هم أوّل من نادى بالتعطيل ونفي الصفات، وأن القرآن الكريم مخلوق، ومؤسس هذا المذهب الضالّ المنحرف، هو«الجهم بن صفوان» الذي أخذ علومه عن الجعد بن درهم الضالّ المضل، قال المطلي في كتابه «التنبيه»: «إن السُّمْنّية - وهم جماعة من عبدة الأصنام، يقولون بتناسخ الأرواحِ - شكّكُوا الجَهمَ في دينه حتى ترك الصلاة أربعين يوماً، وقال: لاأصلي لمن لاأعْرِفهُ، ثم خرج من عُزلته واشتقَّ هذا الكلام وبنى عليه آراء[2] .

والمعتزلة: هم الذين تكلّموُا في الغيبيات والصفات،وهم الذين ابتدعوا فكرة«هل الصفات عين الذات فلا معنى لها؟ أم هي غير الذات، فهي ذات اخرى مع ذات الله؟ وإذا كانت الصفات ذاتاً؛ فهل هي قديمة والله قديم؟ ولاينبغي أن يكون قديمان؟وإذا كانت حادثة؛ فالله غنيٌّ عن الحادث؟ إذا فما الله؟ وماهو؟ وماصلته بالوجود؟ وماصلة الوجود به؟ وهل هو حال في الوجود؟ أم هو خارج عنه؟» الى غير ذلك من الخوض فيما يُوصل إلى الضلالة والإضلال.

وسبب كل ذلك.. هو الفلسفة اليونانيّة، بعدما تُرجمت ونُقلت إلى العرب ولغتهم...

وذلك لأن الفلسفة، تقوم في أبحاثها في الإلهيّات، على «القياس التمثيلي»الذي

---

(١) نقض المنطق ص٢/ .

(٢) التنبيه والردّ على الأهواء والبدع للإمام المطلي ٩٩ .

يستوي فيه الأصل والفرع، أو على «القياس الشمولي» الذي تستوي فيه أفراده، فالله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ﴾ في صفاته وأسمائه وأفعاله، فلا يجوز البتة أن يمثَّل بغيره[تعالى الله عُلُوّاً كَبيراً] ولايجوز أن يدخل هو ـ سبحانه ـ وغيره تحت قضية كليّة تستوي أفرادها، ولهذا لما سلك طوائف من المعتزلة والمُتكَلّمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية؛ لم يصلوا بها إلى اليقين، بل تناقضت أدلّتهُم، وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب لِما يرونه من فساد أدلتهم[1].

«وقد صرّح أساطين الفلسفة: أن العلوم الإلهية لاسبيل فيها إلى اليقين، وإنّما يُتكلم فيها بالأحرى والأَخْلَق»[2].

هذا، وإن منشأ الانحراف في المنهج الفلسفي الكلامي، إنما يعود إلى جعل هذا المسلك أساس البحث في الإلهيات وتفسير الصفات، وتأويل الآيات المتشابهات. وقد صدق الله العظيم في قوله الحق في هؤلاء: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ،وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاّ الله﴾.

---

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول لابن تيمية على هامش منهاج السنة ١/ ١٤ـ١٥.

(٢) نقض المنطق لابن تيمية ١٧٨.

البحث الثالث

انحراف المنهج الفلسفي الصوفي الباطني في التفسير

ترجعُ نشأةُ الانحراف في المنهج الصوفي الفلسفي الباطني، في تفسير القرآن الكريم، إلى الاعتماد على الفكر الفلسفي اليوناني، وطريقة البحث والفهم والتفكير التي يسلكها هؤلاء في تأويل النصوص المقدّسة تأويلاً رمزياً باطنياً.

وأصحاب الفلسفة الصوفية ذات النزعة الباطنية، فِرقة قائمة على أُسس ومفاهيمَ خاصةٍ بهم، استقوها من مناهج عدّة: كالفيثاغورية، والأفلاطونيّة، والرواقيّة، والغنوصيّة، وجميع هؤلاء يعتمدون على تفسير الظواهر الكونية، والأفكار الميتافيزيقية «علم ما وراء الكون والحياة» على أساس التأويلات الرمزيّة الإشاريّة[1].

وفي هذا البحث كشف موجز لمنهج الصوفية الرمزيّة، التي خرجت بتأويلاتها لآيات القرآن الكريم عن المنهج القويم والصراط المستقيم، وأصبحت في عِداد الفِرق الضالّة المنحرفة.

ولسنا نقصد هنا جميع مناهج التصوف، وانما نقصد في بحثنا هذا الصوفيةَ الباطنية الرمزيّة فحسب..

انحراف المنهج الفلسفي الصوفي الباطني في التفسير:

لقد سلك أصحاب الفلسفة الصوفية النظرية، منهج التفسير الإرشادي الرمزي لآيات القرآن الكريم، لاعتقادهم: «أنّ كلّ آية في القرآن تُخفي وراءها معنىً باطناً مقصوداً لايكشفه الله إلا للخاصة منهم»، «وأنّ المعرفة الحقّة اليقينية لاتُدرك إلا بالتأويل الباطني العميق، والمجاهدة النفسيّة، في حالات الكشف العليا. وأن الوقوف على ظواهر النصوص القرآنية، حجابٌ يمنع من الوصول الي معرفة حقائق الأمور، وأن علم الظاهر يدخله الظنّ والشك، والكشف الباطني يرفع الظّن ويزيل الشك».

ولقد صاحب هذا المسلك الصوفي النظري الرمزي ازدراءُ العلماء من الفقهاء

---

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية؛ ليوسف كرم، بحث التأويل الرمزي ٢٤٨ـ٢٤٩.

والمحدثين والمفسرين، والتنديدُ بالمنهج الشرعي الاجتهادي الذي سلكه الأئمة المجتهدون لاستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، حتى أطلقوا عليهم اسم «علماء الرسوم» أو «علماء الظاهر».

فممّا نسبه هؤلاء إلى الشيخ ابن عربي، في كتابه«الفتوحات المكية»: «أن ماخلق الله أشقَّ ولاأشَّد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته، العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذي منحهم أسراره في خلقه، وفهم معاني كتابه، وإشارات خطابه، فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام»(١) .

ومن الطبيعي أن ينظر هؤلاء الصوفيون الرمزيون، إلى علماء الشريعة المطهرة، الذين جعلهم الله تعالى أمناء الرسل في تبليغ شرعة القويم، هذه النظرة الممتلئة بالكُره والبُغض والعِداء؛ لأنّ هؤلاء العلماء كانوا يقفون في مجابهة تلك الموجات الإلحادية، التي كانت تعصف بين الحين والآخر في عقول العامة من الناس؛ فلهذا كانوا يرونهم كالفراعنة للرسل.

أبرز تفسير للصوفية الباطنيّة:

ومن أشهر التفاسير الصوفية الرمزية الإشارية الباطنية، التفسير المزعوم المنسوب «لابن عربي» الذي وضعه أحد الملاحدة، ونسبه لابن عربي لِيروّجه بين الناس، المعروف «بالقاشاني» الذي خرج بتفسيره هذا عن منهج القرآن والإسلام، فقد جعله مجمعَ الأفكار الفلسفية الغنوصيّة، القائمة على العرفان الحَدسي التجريبي الحاصل عن اتحاد العارف بالمعروف، والتي تهدف الى معرفة الله تبارك وتعالى على هذا النحو، بكل مافي النفس من قوّة حَدسٍ وعاطفة وخيال.

فسلك القاشاني في تفسيره الذي نسبه إلى ابن عربي، منهجَ وحدة الوجود، القائمة على اعتبار أنّ جميع العالم بظواهره ماهو إلاّ مجال لوجود الحق ـ تعالى الله عما يصفون علُوّاً كبيراً ـ فحين يُفسرّ قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيهِ تَبْتِيلاً، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل، ٨ـ٩] قال: «واذكرْ ربّك الذي هو أنت»، أي: اعرف نفسك واذكرها ولاتنسَها فينسيك الله، واجتهدْ لتحصل كما لها بعد معرفة حقيقتها. .«ربُّ المشرق والمغرب» أي: الذي ظهر عليك نوره من أفق وجودك بإيجادك، والمغرب: الذي اختفى بوجودك، «وغرَبَ نورهُ فيك، واحتجبَ بكَ» هكذا

(١) الفتوحات المكية: الباب الرابع والخمسون ٢٧٩.

يصرف الآيات عمّا سيقت له، بهذا الفكر الإلحادي الذي يظهر معنى الآية، وكأنّها لم تنزل على قوم يفهمون مضمونها، ويُدركون مقصدها.

ولولا خشية الإطالة في ذكر الباطل، لأكثرت من ذكر الأباطيل التي حَشَا بها الكتاب، غير أنيّ أُحيل من يُريد الزيادة من الوقوف على مثل هذه الأباطيل التي وردت في هذا الكتاب، فانظرْ مثلاً: ج١ص١٤١ من الطبعة الأميريّة، وج٢ص٢٩١، وج٢ص٢٩٤، وج٢ص٣٥٢، وج٢ص٣٨٠.

وليس من شك في أنّ هذاالتفسير - وحرامٌ علينا تسميتهُ بتفسير - الذي وضعه هذا الملحد «القاشاني» ونسبه لابن عربي، ليُروِّجَهُ بين الناس[١]؛ إنما كان يقصد من خلاله هدم عقيدة الإسلام، إفساد معاني القرآن، والعياذ بالله تبارك وتعالى..

ولقد وضع العلامة ابن عابدين صاحب الحاشية المشهورة، رسالةً في تبرئة الشيخ ابن عربي مِمّا نسب إليه من القول بالحلول والاتحاد، وعقائد الإلحاد[٢].

رسائل إخوان الصفا:

لقد حُشيت هذه الرسائل، التي وضعها جماعة لم يُعلنوا عن أنفسهم، بشتى أنواع التأويل الرمزي الباطني، الذي يميل إلى المنهج الفلسفي الصوفي النظري، فقد جاء في إحدى رسائلهم:

«ينبغي لأخواننا ان يعلموا أنّ ظاهرة الشريعة إنمّا يصلح للعامّةِ، فهو دواء للنفوس المريضة الضعيفة، أمّا العقول القوية فغذاؤها الحكمة العِميقة المستمدّة من الفلسفة»[٣].

وهذه الفكرة هي عقيدة الغنوصيّة، التي تقوم على أساس «أنّ الخلاص يتمّ بالمعرفة، أكثر مِمّا يتمّ بالإيمان والأعمال الخيرّة. وقد قسمت الناس إلى ثلاث طبقات: الغنوصيين، وخلاصهم مضمون، وغير غنوصيين ويمكنهم أن يخلّصوا أنفسهم بالإيمان، ومَنْ عدا هؤلاء وأولئك هالكون»[٤].

---

(١) نسب هذا الكتاب إلى القاشاني، أو الكاشي: المؤرخ حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» ج١ ص٣٣٦، وكذا البغدادي في كتابه «هدية العارفين في أسماء المؤلفين» ج١ ص٥٦٧.

(٢) ذكر ذلك الزركلي في كتابه الأعلام ١/ ١٥٢.

(٣) رسائل إخوان الصفا٤/ ١٤.

(٤) الموسوعة العربية الميسرة٢/ ١٢٥٨.

ويُشير إخوان الصفا إلى أنّ: «للكتب النبويّة تأويلات وتفسيرات غير مايدل عليها ظاهر ألفاظها، يعرفها الراسخون في العلم»، ويشيرون إلى مصادر علومهم ومعارفهم فيقولون: «إنّ علومنا مأخوذة من أربعة كتب: أحدهما الكتب المصنفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة. والآخر: الكتب المنزّلة التي جاء بها الأنبياء والثالث: الكتب الطبيعية التي تشرح تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب. والرابع: الكتب الإلهية التي لايمُسها إلا المطهرون، الملائكة التي هي بأيدي سفَرةٍ كرامٍ بَرَرة، وهي جواهر النفوس، وأجناسها وأنواعها وجزئيّاتها»[1] .

وكثيراً ماتشتمل هذه الرسائل على تأويل الآيات القرآنية تأويلاً رمزياً باطنياً، تصرف الآيات عن معانيها، إلى مالايجوز ولايصح من المعاني المتكلّفة ، الباطلة الضالّة المضلّة. .

انحرافات خطيرة في تفسير الصوفية المعاصرة:

كتاب «رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن» من كلام الشيخ محيي الدين ابن العربي، تأليف «محمود غراب».

ففي ص١٥ج١: قوله في التشنيع على علماء الشريعة الذين يُنكرون على أهل الباطل تأويلاتهم وانحرافاتهم: «إنّه ماخلقَ الله أشقَّ ولاأشدَّ من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته. . الذي منحهم أسراره في خلقه. .» ثم يُعلِّل إشاراتهم بقوله: «فيسمون مايرونه في نفوسهم إشارة؛ ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك، ولايقولوا في ذلك إنّه تفسير، وقايةً لشرّهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه، وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق. .».

فنقول: لماذا كان علماء الشريعة أشداءَ على مَنْ يزعُم أنّهم «أهل الله» إلاّ لأنهم مخالفون لدين الله تعالى، وليس مَنْ يخالف شريعة الله «من أهل الله» فأهل الله هم أهل شرعه ودينه وطاعته. ثم إذا كان هؤلاء هم أهل الله فلِمَ يُحابون الفقيه صاحب الرسوم بإشاراتهم، فأهل الله لايعملون إلاالله ولايخشون إلاالله، فلو كانوا من أهل الله حقاً لما صدرَت منهم تلك المُحابَاة!!.

ثم إن تسمية أحكام الشريعة بـ«الرسوم» غير جائز ولامقبول، فهل الأحكام الشرعية عند من يزعم أنه من أهل الله غير لازمة له؟ أم هو غير مكلَّفٍ بها؟ إن تسمية الأحكام

---

(١) رسائل إخوان الصفا ج٤/ ٤٢/ .

الفقهية الشرعية «رسوماً» من باب الإلحاد في شريعة الله تعالى، والعياذ بالله !!.

وفي ص٢٧ج١: «وأما رحمة الامتنان فهي التي تَنال من غير استحقاق بعمل، وبرحمة الامتنان رحم الله مَنْ وفقه الله للعمل الصّالح الذي أوجب له الرحمة الواجبة، فبها ينال العاصي وأهل النار إزالة العذاب، وإن كان مسكنهم ودارهم جهنّم، وهذه رحمة الامتنان. .» فهذا الكلام لاأصل له في دين الإسلام، ولاتشهد له آيات الله تعالى بل وردت الآيات والأحاديث الصحيحية بإثبات العذاب وعدم إزالته عن أهل النار.

ويتكرر هذا الزعم في ص٣١ج١: بأنّ من استحقَّ غضبَ الله «فيُزيل عنهم العذاب، ويُعطيهم النعيم فيما هم فيه» فكيف يصح إثباتُ النعيم لأهل غضب الله تعالى وهم في العذاب؟؟!!.

وفي ص٤٢ـ٤٣ج١ هذا الزعم الذي يُعدّ من أساطير الخرافة وذلك في قوله عن ﴿الٓمٓ﴾ من أول سورة البقرة: «إنّ الحروف أُمّة من الأمم مخاطبون ومكلّفون، وفيهم رسلٌ من جنسهم، ولهم أسماء من حيث هم، وهم عوالم، ولكل عالم رسول من جنسهم، ولهم شريعة تعبدوا بها، ولهم لطائف وكثائف. . وفيهم عامّة وخاصّة. . وحروف أوائل السور من الخاصّة التي فوق العامّة. .» ثم يقول عن هذه الخرافة: «ولايعرف هذا العلم إلا أولياء الله كشفاً»، فأيُّ أولياءِ هؤلاء الذين خصَّهم بهذه الخرافة؟؟!!.

ويزيد في الوهم والخيال ص٤٤ فيقول: «ملائكة الحروف «٢٨» حرفاً، وهذه الحروف أجساد تلك الملائكة لفظاً لفظاً» وفي ص٤٦ يقول: «ولكل حرف ليلة من الشهر» فربط الحروف بسير القمر، بعد أن جعلها أجساداً للملائكة، فأيُّ وَهْمٍ بلغ به تصوّرهُ إلى هذا الحد من التّخيّل؟!.

وفي ص٦٣ ج/١ زعمه بأن العذاب لأهل النار من «العذوبة» فيقول في ﴿ولهم عذابٌ أليم﴾ آية٧ من سورة البقرة: «. .ومن وجهٍ آخر سُمّي عذاباًمايقع به الآلام بشرىً من الله لعباده، أنّ الذي تتألمون به لابدّ إذا شملتكم الرحمة أن تستعذبوه وأنتم في النّار، كما يستعذب المقرور حرارة النّار والمحرور برودة الزمهرير، ولهذا جمعت جهنّم النّار والزمهرير، لاختلاف المزاج، فما يقع به الألم لمزاج مخصوص يقع به النعيم في مزاج آخر يضادّه، فلا تتعطل الحكمة، ويُبقي الله على أهل جهنم الزمهرير على المحرورين، والنّار على المقرورين في جهنّم، فهم على مزاج لو دخلوا به الجنّة تَعذَّبُوا بها لاعتدالها، فَسُمي العذاب عذاباً لأنّ المال إلى استعذابه لمن قام به بعد

شمول الرحمة، كما يستحلي الجَربُ مَنْ يحكُّهُ..» فأيّ إلحادٍ وزندقةٍ بلغَ بها صاحب هذه الجرأة على آيات الله تعالى، بأن جعلَ العذابَ «عذوبةً» وجهنّمَ دار نعيم للكافرين، وأنهم على مزاجٍ لو دخلوا به الجنّة تعذّبُوا بها لاعتدالها؟!..»

فما الذي يريدُهُ الشيطانُ الرجيمُ أكثرَ من هذا؟! فهذا أحدُ جنوده يحوّلُ له النّار في جهنّم «عذوبةً» يستعذِبُها أهلُهاويجعلُ له الجنّةَ باعتدالها عذاباً؟!.. وهل بعدَ هذا من جَدوى في دعوة النّاسِ والجنِّ الى توحيد الله تعالى وعبادته وطاعته ، واتباع رسله؟!..

ولماذا يعيش أهل الإيمان في حرمان من الشهوات المحرّمات، وأهل الكفر والظلم والطغيان والشرك مساوُون لهم في النعيم المقيم في جهنّم يستعذبون النّار؟!..

إن هذا الزعم الباطل تكذيبٌ لكتاب الله تعالى، وإبطالٌ لرسالته، وهدمٌ لدينه وشرعه، ولأحكام حلاله وحرامه؟!..

وفي ص٥٣١ج٢ يقول في قوله تعالى: ﴿وجَعَلْنَا جهنَّم للكَافرِينَ حَصَيرا﴾ : «إنّ جهنم أعظم المخلوقات، وهي سجن الله في الآخرة.. وهي تحوي على حَرورٍ وزمهرير، ففيها البرد على أقصى درجاته، والحرور على أقصى درجاته، وهي الآن مخلوقة.. وجميع مايُخلق فيها من الآلام التي يجدها الدّاخلون فيها من الغضب الإلهي، ولايكون ذلك إلاّ عند دخول الخلق فيها من الجنّ والإنس متى دخلوها، وأمّا إذا لم يكن فيها أحد من أهلها، فلا ألمَ فيها في نفسها ولافي نفس ملائكتها، بل هي ومَنْ فيها من زبانيّتها في رحمة الله منغمِسُون ملتذون يُسَبِّحُون ولايفترون..» ثم يقول: «وأشدّ الخلق عذاباً في النّار إبليس الذي سنّ الشرك وكلَّ مخالفة، وعذابه بما فيها من الزمهرير ، فإنه يُقابل النّارَ الذي هو أصل نشأة إبليس».

ففي هذا الزعم يدعي أموراً أخرى، وهي «أن الآلام يجدها الداخلون فيها من الغضب الإلهي، ولايكون ذلك إلاّ عند دخول الخلق فيها متى دخلوها» فيجعل العذاب فقط عند دخولها، ثم يزعم أنها تفرغ من أهلها «وأما إذا لم يكن فيها أحد من أهلها، فلا ألمَ فيها في نفسها، ولا في نفس ملائكتها» ثم يزعم أن زبانيتها ملتذُّون فيها: «ومَنْ فيها من زبانيتها في رحمة الله منغمسون ملتذون..».

وهنا نتوجه بالسؤال التالي إلى صاحب هذا الزعم الباطل فنقول: من أين أتيتَ بالقول: أنّ العذاب فقط عندَ دخولها؟ ثم إلى أين يُذْهَبُ بأهل جهنم إذا لم يكن فيها أحدٌ من أهلها؟ ثم من أينَ علمتَ أن إبليس يُوضع في الزمهرير ليُقابل النّار؟ وهل أن

إبليس الذي هو أشدُّ الخلق عذاباً في النّار كما قُلتَ قبلُ؛ هو أشدُّ النّاس في جهنّم عذوبة فيها؛ على ماذكرتَ من أنّه يُوضع في الزمهرير ليُقابل النّار، ليعتدلَ مزاجه بين الحرَوُر والقرَوُر؟ ثم إلى أين يُذْهَبُ به إذا لم يكنْ في جهنّم أحدٌ من أهلها؟

ولئلاّ نُخرجَ صَاحبَ هذه المزاعم بالتّكلّف للكذب أكثر من هذا الذي ذكره، فنكفيه بهذه الإجابة من آيات الله تعالى، ومن أحاديث رسوله ﷺ ، عن النّار وأهلها، ففي سورة البقرة آية ٢٤: ﴿..فَاتّقُوا النّارَ التي وَقُودُها النّاسُ والحجارةُ أعدّت للكافِرين﴾ وفي سورة النساء آية ٥٦: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوفَ نُصليهم ناراً كلما نَضِجَتْ جُلُودُهم بدَلْنَاهم جُلُوداً غيرَهَا لِيَذُوقوا العذابَ﴾ وفي سورة الأعراف آية ٣٨: ﴿قالَ ادْخلوا في أمَمٍ قد خلتْ من قبلِكُم مِنَ الجنّ والإنس في النّارِ كلّما دخلتْ أُمّةٌ لعنتْ أختَها إذا ادّاركُوا فيها جميعاً قالت أُخراَهم لأُولاَهم ربّناَ هؤلاءِ أضَلُّونا فآتِهِم عذاباً ضِعفاً مِنَ النّار قال لكلّ ضِعفٌ ولكِنْ لاتعلَمُون﴾ وفي سورة التوبة آية ٣٥: ﴿يومَ يُحْمىَ عليها في نار جهنّم فتُكْوَى بها جباهُهُم وظُهوُرِهم هذا ماكنزتُم لأنفسِكمْ فذُوقَوا ماكنتُم تكنِزوُن﴾ وفي سورة إبراهيم آية ١٦- ١٧: ﴿مِنْ وَرائِهِ جهنّم ويُسْقَى مِن ماءٍ صَديدٍ. يتجرّعُهُ ولايكادُ يُسيغُهُ ويأتيه الموتُ من كلّ مكانٍ وماهو بميّتٍ ومِنْ وَرائِهِ عذابٌ غليظٌ﴾ وفي سورة الإسراء آية٩٧ : ﴿..ونحشُرهم يومَ القيامة على وجُوهِهِم عُمْياًوبُكماً وصُمّاً مأوَاهُمْ كُلّما خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ وفي سورة الحج آية ١٩-٢٢: ﴿.. فالّذين كفَروا قُطِعَتْ لهم ثِيابٌ من نارٍ يُصَبُّ مِن فوقِ رؤُوسِهِمُ الحَميمُ. يُصْهَرُ به مافي بُطُونِهِم والجلودُ. ولهم مقامعُ مِن حديدٍ. كلّما أرادُوا أن يخرجُوا منها من غمٍّ أُعيدُوا فيها وذُوقُوا عذابَ الحريق﴾ وفي سورة الفرقان آية ١١-١٣: ﴿واعْتَدْنَا لِمَنْ كذَّبَ بالسّاعة سعيراً. إذارَأتْهُم مِنْ مكانٍ بعيدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وزَفِيراً. وإذا أُلقوا منها مكاناً ضيقاً مقرّنين دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ وفي سورة فاطر آية٣٦-٣٧: ﴿والذين كفروا لهم نارُ جهنّمَ لايُقْضَى عليهم فيمُوتوُا ولايُخفّفُ عنهم مِن عذَابِها كذلك نجزي كلَّ كَفُورٍ. وهم يَصْطَرِخُونَ فيها ربّناَ أخرِجْنا نَعْمَلْ صالحاًغيرَ الذي كنّا نعملْ..﴾

وفي سورة الصافات آية٦٢-٦٧: ﴿أذلِكَ خيرٌ نزُلاً أمْ شجرةُ الزّقُوم.إنا جعلناهَا فتنةً للظّالمين. إنّها شجرةٌ تخرجُ في أصلِ الجحيم. طَلْعُها كأنّه رؤوس الشياطين. فإنّهم لآكِلُون منها فمالِئونَ منها البُطونَ. ثم إن لهم عليها لَشوباً من حميمٍ﴾ وفي سورة الزمر آية١٦: ﴿لَهُمْ مِن فوقِهِم ظلَلٌ مِنَ النّارِ ومن تحتِهِم ظُلَلٌ ذلكَ يُخوّفُ الله بِهِ عِبادَهُ ياعبادِ

فاتّقون﴾ وفي سورة الشورى آية٤٥: ﴿..ألا إن الظالمينَ في عذابٍ مُقيم﴾ وفي سورة الزخرف آية٧٧: ﴿ونَادَوْا يَامَالِكُ ليَقْضِ علينَا ربُّكَ قالَ إنّكم مَاكِثُون﴾ وفي سورة التحريم آية٦: ﴿ياأيُّها الذين آمَنوا قُوا أنفسَكُمْ وأهليكُمْ ناراً وَقودُها النّاسُ والحِجَارةُ عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لايَعْصُون الله ماأمَرَهم ويفعَلُون مايُؤمَرُون﴾.

فهذه بعضُ آياتٍ من كتاب الله تبارك وتعالى في وصف جهنّم ـ أجارناالله تعالى منها برحمتِهِ ومغفرتِهِ ـ لاكما يقولُ هذا الأفاكُ الكذّاب الذي يُريد تحويرَ الحقّ إلى باطل، والعذاب عذوبة، والنّار رحمةً، إلى آخر بُهتانه، قال الله تعالى في سورة الأنعام آية٢١ـ٢٤: ﴿ومَنْ أظلمُ مِمَّن افترىَ على الله كذِباً أو كذَّبَ بآياته، إنهُ لايُفْلِحُ الظالِمُون﴾ ﴿انظُر كيفَ كَذَبُوا على أنفسِهم وضَلّ عنهم ماكانوا يفتَرُون﴾ وأمّا ماورد في السنّة الصحيحة من الأحاديث في وصف النّار ـ أجارنا الله تعالى منها.

١ـ ففي الصحيحين /خ٣٢٦٥/م٢٨٤٣/ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نارُكم هذه جزءٌ من سبعينَ جزءاً من نار جهنّم»، قيل: يارسول الله! إن كانت لكافيةً؟ قال: «فإنها فُضِّلتْ عليهنّ بتسعةٍ وستّين جُزْءاً كلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا».

٢ـ وفيهما ايضاً: /خ٦٥٦١و٦٥٦٢/ م٣٦٤/ ٢١٣/ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أهونَ أهلِ النّار عذاباً مَنْ له نَعْلاَنِ وشِرَاكَان من نارٍ يغلِي منها دِمَاغُهُ كما يغلِي المِرجَلُ، مايَرىَ أنّ أحداً أشدُّ منه عذاباً، وإنّه لأهونُهم عذاباً».

٣ـ وفيهما أيضاً:/خ٦٥٥١/ م٢٨٥٢: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مابينَ مَنْكبَيّ الكافر في النارِ مسيرةُ ثلاثةِ أيامٍ للراكب المسرِع». وروى مسلم/ ٢٨٥١ عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ضِرسُ الكافرِ مثلُ أُحُدٍ، وغِلظُ جلدِهِ مسيرةُ ثلاثٍ».

٤ـ وفي سند أحمد ج١/ ٣٠١و٣٣٨/ والترمذي ٢٥٨٥ وقال: حسن الصحيح: قال رسول الله ﷺ:«لو أن قَطْرةً مِنَ الزَّقُوم قَطَرتْ في دار الدنيا لأفسدت على أهلِ الأرض معايِشَهم، فكيفَ بمَنْ يكون طعامُهُ»؟! أجارنا الله تعالى منها، ورزقنا الجنّةَ بفضله ورحمته.

٥ـ وفي سند أحمد ج٣/ ٢٨ـ٨٣/ والترمذي، والحاكم في المستدرك ج٤/ ٦٠١/، بإسناد صحيح عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنّ دَلْواً مِنْ غَسّاقٍ يُهْراقُ في الدنيا لأنْتَنَ أهلُ الدُّنيا» والغسّاق: مايسيل من صديد أهل

النّار- أجارنا الله تعالى منها - ولهذا كان رسول الله ﷺ يُحَذِّرُ أُمّتَهُ من النّار، فيقول: «أنذرتُكُمُ النّارَ، أنذرتُكم النّارَ، أنذرتكم النار» رواه أحمد ج٤/٢٦٨و٢٧٢ والدارسي ج٢/ ٣٣٠/ والبغوي في مصابيح السنة ج٤/١٣/ من الأحاديث الحسان.

فهذا هو حالُ أهلِ النّار كما وصفَ الصّادقُ المصدوقُ ﷺ، لاكما زعم الأفاك الكذّاب، وهناك في كتابه الذي زعمه أنّه«رحمة من الرحمن» في تفسير وإشارات القرآن» جمع«محمود غراب» من كلام الشيخ محيي الدين ابن العربي، من الأباطيل والأخطاء الفاحشة في التفسير والتأويل مايلزمه مجلدٌ بكامله، للردّ عليه، وماذكرناه عنه كافٍ لإثبات أنّ هذا التفسير من التفاسير المنحرفة التي يجبُ التنبيهُ على خطورة القراءة فيها.

وهناك كتاب آخر يُعتبر من كتب التفسير المنحرفة، وهو منسوب «المحمد امين شيخو» جمعه «عبد القادر يحيى» الشهير بالديراني، وأسماه «تأويل جزء عمّ» وقد حوى على أغلاط كثيرة بلغت أكثر من ثلاثمائة أغلوطة في التفسير والتأويل.

ويغلبُ عليه التأويلُ الرمزي المخالف مخالفةً صريحةً لمناهج التأويل المعتبرة لدى أئمة التفسير، مع المخالفة للأحكام الشرعية واصطلاحاتها، وكذلك المخالفة لِما هو ثابت في اللغة العربية. فهو تفسير فاحش الأخطاء، حوى على تأويلات باطلة في عامة سور «جزء عمّ» فنحذّر من القراءة فيه.

ومن انحرافاته وضلالاته: زعمه أن «الشيخ محمد أمين شيخو» رسول أرسله الله، كما في ص٦ [التي أُلزم بحذفها من الكتاب]، وهذه دعوة كفر وإلحاد وزندقة في الدِّين.

تأويل جزء عمّ:

نماذج من انحرافاته:

ص٢٨: قوله في الآية: ﴿ومن شرِّ غاسقٍ إذا وَقَبَ«المراد بالغاسق هنا الشيطان.. والوَقَبَ: هو الحفرة في الصخرة.. والمراد بالوَقَبَ هنا: صَدْرُ الإنسان..» وهذا غير صحيح تفسيراً ولغةً. والصحيح: الغاسق هو الليل، إذا وَقَبَ: إذا أقبل بظلامه.

ص٣٨: قوله في الآية﴿وامرَأتُهُ حمّالة الحطب﴾ «المراد بالحطب هنا: الأعمال التي كانت تقوم بها هذه المرأة...فهذه الأعمال..هي الحطب..» وهذا غير صحيح وهو خلاف ظاهر اللغة. وقوله ص٣٩ ﴿في جيدها حبل من مَسَد﴾ «المراد بكلمة في

جيدهاأي مايحرّ بعنقهامن القول منبعثاً من نفسها وصدرها وجارياً على لسانها. والمراد بكلمة حبل: وصف ذلك القول بالتواصل والاستمرار. والمراد بكلمة من مسد: وصف تلك الحالة النفسية القائمة فيها..» فهذا تكلّف في التأويل، ولادليل عليه، وهو مخالف لأقوال المفسرين.

ص٤٠: قوله في ﴿إذا جَاءَ نَصْرُ الله والفتح﴾ «المراد بنصر الله هنا: معونة الله لرسوله، بأنْ أظهرَ الحقَّ على لسانه..» وص٤١ «والفتح: هو الإظهار بعد غموض.. والمراد بالفتح هنا: تلك الهداية والمعرفة..» وهذا خلاف مائبت من تفسيرها لدى المفسرين قاطبةً!!

من أنّ «نصر الله والفتح» هو نصر الرسولﷺ على قريش، والفتح فتح مكة.

ص٤٣ـ٤٤: قوله في ﴿فَسَبِّحْ بحمدِ ربِّكَ..﴾ «وسبِّح: من سَبَحَ في الأمر، أي أمعَنَ فيه واسترسل، وسَبَحَ في الماء: أي عامَ وانبسَطَ، وسَبَحَ في السّير: أي أبعَدَ.. ويكون المراد من كلمة«سَبِحَ» أي: سَبِّحْ نَفسَكَ في فضل الله، واسترسلْ في تذوّق بِرِه... وسَبِّحْ نفسَكَ في هذا الفضل الذي تفضّلَ به عليك، واسترسل في تذوّق الإحسان الذي ساقَهُ إليك» فهذا التأويل باطل مخالف لمعنى الآية الكريمة، وهو خارج عن منهج المفسرين!!

ففي تفسير الألوسي ج٣٠/٢٥٧: ﴿فَسَبِّحْ بحمدِ ربِّكَ﴾ أي فنزِّهه تعالى بكل ذكر يدلّ على التنزيه، حامداً له جلّ وعلا زيادةً في عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه سبحانه عليك، فالتسبيح: التنزيه.. ﴿واستغفِرْهُ﴾ أي اطلب منه أن يغفر لك.. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: وكان رسول الله ﷺ يُكثر ان يقول في ركوعِهِ وسجودِهِ: سُبْحانَكَ اللّهمَّ وبِحمدكَ اللّهمَّ اغْفِرْ لي، يتأوّل القرآن، تعني هذا مع قوله تعالى: ﴿فسَبِّحْ بحمدِ ربِّكَ واستغفِرْهُ﴾ وكذا في مسند أحمد وصحيح مسلم: «كان رسول اللهﷺ يُكثر في آخر أمره من قول: سبحانَ الله وبِحمدِهِ، أستغفرُ الله وأتوب إليه..» فهذا هو الثابت الصحيح في تأويل الآية الكريمة، وبهذا يظهرُ بطلان مازعمه«الديراني» في تأويله المغلوط؟!..

ص٤٩ـ٥١: قوله في ﴿إنّا أعطيناكَ الكوثر﴾ «الكوثر: هو الكثير، والملتف مع كل شيء.

والكوثر هو المراكم، يُقال: تَكَوْثَرَ الغبار أي تراكم وكثر، والمراد بالكوثر الواردة في هذه الآية: الفضل الإلهي الكبير.. ويكون مانفهمه من آية ﴿إنّا أعطيناكَ الكوثر﴾

أي عبدي أعطيتُكَ قبل أن أخرجكَ لهذه الحياة الدنيا.. ﴿فصلِّ لربِّكَ وانحرْ﴾ الصلاة: هي الصلة بالله.. والنّحْرُ: هو أعلى الصدر.. والنحرُ هو الطعن في أعلى الصدر.. والمراد بكلمة ﴿وانحرْ﴾ هنا: أي ادفَعْ عَدوَّك وهو الشيطان..» فهذا التأويل غير صحيح ولامقبول لمخالفته لِما هو ثابت عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «هل تَدْرُون ما الكوثر» ؟ قالوا: الله ورسولهُ اعلمُ، قال: «هو نهرٌ اعطانِيهِ ربيّ عزَّ وجلَّ في الجنّة تردُ عليه أُمّتي يوم القيامة، آنيتُهُ عدد الكواكب»!! وأما «النّحر» فهو النُسُك الذي يُذبح على اسم الله تعالى وحده لاشريك له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إنّ صلاتي ونُسُكِي ومحيَايَ ومَمَاتِي لله ربِّ العالمين لاشريك له..﴾ كما هو وارد في تفسير ابن الكثير. ص٥٦ـ٦١: قوله في ﴿لإيلَافِ قريشٍ. إيلافهم رحلةَ الشتاءِ والصَّيف﴾ «في مطلع هذه الصورة الكريمة يُريد الله تعالى أن يُبيّن ذلك النظام البديع الذي قام عليه ذلك الكون، ثم هو يُلفت نظرهم ويذكرهم بذلك الترتيب الحكيم الذي جعل المخلوقات متآلفةً... فكلمة قريش: تشملُ كلَّ ماتراه عينك في ترابطه وتماسكه.. ﴿لإيلاف قريش﴾ أي: عبادي انظروا إلى التّرابط الموجود في هذا العالم، ودقّقُوا في إيلاف الأشياء الموجودة في هذا الكون... ﴿رحلةَ الشّتاء والصّيف﴾ ولايقتصرُ المعنى في رحلة الشتاء والصيف على هذين الفصلين.. بل يشمل الفصول الأربعة كلها.. فهذه الآية تُشير إلى إيلاف الأشياء وانسجامها مع تبدّلات الفصول.. فالله سبحانه بما ذكره لنا من إيلاف المخلوقات مع تبدّلات الفصول، يُريد أن يُوجهنا كما رأينا من قبلُ إلى التفكير والتأمل في هذا الكون..﴿فليعبُدُوا ربَّ هذا البيتِ﴾ وكلمةُ البيت: هنا وبحسب سياق الآيات المتقدمة، تشمل هذا الكون كله، السموات ومافيها، والأرض وماعليها. فالكون كله إنّما هو بمثابة بيتٍ لهذا الإنسان.. ويكون مانفهمه من آية ﴿فليعبُدُوا ربَّ هذا البيت﴾ أي إذا ذكرَ عبادي عظمةَ هذا الكون، وتوصَّلُوا منه إلى معرفتي والإيمان بي.. فما عليهم إلاّ الإذعانُ لأمري..» إلى آخر تأويله لهذه السورة القائم على التكلّفِ والتّصنّع، وصرفِ السورة إلى غير المُرادِ منها..

والذي عليه جميعَ المفسرين أنّ هذه السورة الكريمة تذكير لقريش «قبيلة النبي ﷺ» بما فضَّلَ الله تعالى عليهم من نعمة الإيلاف الذي كان لهم في حرم الله في مكة، وماتفضَّلَ عليهم من الأمن في رحلتهم إلى بلاد الشام في الصيف، ورحلتهم إلى بلاد اليمن في الشتاء، ثم نعمة الأمن في البلد الحرام ﴿ومَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً﴾، وربّ البيت: أي ربّ الكعبة و«هي بيتُ الله الحرام» بدليل نصّ القرآن الكريم، كما في سورة المائدة

آية٩٧: ﴿جَعَلَ الله الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناس والشّهرَ الحرامَ..﴾ فصرفُ معنى «البيت» إلى الكون تحريف لمعنى الآية، وهو من الإلحاد في آيات الله ـ والعياذ بالله تعالى.

ص٦٢ـ٦٣: قوله في تحريف الآية: ﴿وأرسلَ عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارةٍ من سجيل﴾ «فالطير الأبابيل: أي ذلك المخلوق الضعيف الذي لاطاقة له بمقاومة عدوٍ.. و«السّجيّل» هو العمل المسجّل المكتوب.. فالحجارة.. مما هو مسّجلٌ عليهم» فهذا غير صحيح ولايثبت في كتب التفسير، ولافي اللغة؛ فالطير الأبابيل: هي الطير التي أرسلها الله على جيش أبرهة الحبشي الذي يريد هدمَ الكعبة، والحجارة من سجيل: هي الكثيرة الشديدة. والسجّيلُ: كل شديد صُلب. كما في تفسير القرطبي وابن الكثير وغيرهما.

ص٨١ـ٨٢: قوله في تحريف الآية: ﴿والعاديات ضبحاً. فالموريات قَدْحاً. فالمغيراتِ صبحاً. فأثَرْنَ به نقعاً﴾ «فهذه الآيات تلفتُ نظرك أيّها الأنسان إلى ذلك النظام البديع، الذي تنزل به الأمطار.. والعاديات هنا: هي الريح.. والموريات هنا: أي الغيوم، والقدحُ: هو الطعن.. والمراد بالموريات قدحاً: الغيوم تحتكُّ ببعضها وتقدّح.. والمغيرات صَبْحاً: الأمطار.. تنصب أصباباً.. ﴿فأثَرْنَ به نقعاً﴾ أثَرَ: بمعنى نقلَ وحفِظَ، ومنه الحديث المأثور.. والنون في كلمة «أثَرْنَ» إنّما يدلّ على صفات الله تعالى من رحمةٍ وإحسانٍ وعطفٍ وحنانٍ وغيرها من صفات الكمال.. ﴿فوسطنَ بهِ جمعاً﴾ والنون في كلمة «فوسطنَ» تعود أيضاً على صفات الله تعالى. والهاء من كلمة «به» ترجع إلى النقع، أي الماء المجتمع. وكلمة «جمعاً» تعني جميع المخلوقات الحيّة من إنسان وحيوان ونبات..» فهذا التأويل باطل، وهو من تحريف الكَلِم عن مواضعه.

والمجمعُ عليه في تفسير الأئمة على خلاف ماذكره، فالله تعالى أقسم في هذه الآيات بـ﴿العادياتِ﴾ وهي الخيل إذا أجريت في سبيله، فعدَتْ وضَبِحَتْ، وهو صِوتها حين تعدُو، ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني اصطكاك حوافرها للصخر، فتقدحُ من النّار، ﴿فالمغيراتِ صُبحاً﴾ يعني الإغارة وقتَ الصّباح، ﴿فأثَرْن به نقعاً﴾ يعني غباراً في مكان معترك الخيول، ﴿فوَسَطْنَ به جمعاً﴾ أي فوسطن بركابِهنَّ العدوَّ. [انظر تفسير الطبري وابن كثير والقرطبي وغيرها من التفاسير المعتبرة].

فانظر إلى الفارق البعيد بين ماهو ثابت في كتب التفسير المعتبرة، وبين ماذهب إليه

صاحب «تأويل جزء عمّ» من التحريف في تفسيرها وتأويلها؟!.

ص٩٧ـ١٠٨: قوله في تحريف سورة ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ حيث أتى في تأويلها بكل غريب عن التفسير واللغة، وبكل عجيب من الأوهام والتخيلات؟!.

فيزعم في تأويل ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ في ليلة القَدْرِ﴾ بعد أن ذكر شتى من التخيّلات: وتلك الليلة العظيمة التي يشهد فيها الإنسان هذه المشاهد النفيسة، ويرى هذه الرؤية الذوقية، وتحصل له بها تلك المعرفة الشهودية، تلك الليلة هي ليلة القدر، أي ليلة رؤية الإنسان عظمة الخالق وتقديره كمال الله.. إنّ تنزيل ماانطوى عليه القرآن الكريم من الحقائق على قلبك إنّما كان في ليلة القدر، أي ليلة مشاهدتك لعظمة ربّك وتقديرك لخالقك..».

ثم يزعم فيقول: «ومتى هي ليلة القدر»؟ فيُجيبُ نفسَهُ: «.. فكلُّ من أعدَّ نفسَهُ الإعداد المطلوب لهذه المشاهدة.. فلابدّ له من الإكرام بهذه المشاهدة والفوز بتلك الليلة.. هنالك ينكشف للنفس عن كمال صاحب الجلال والجمال طَرَفٌ من الستْر، فتشهد مايتناسب مع حالها من جماله وجلاله وعظيم صفاته، وتَرى الكون كله قائماً بإمداده، وتسييره، سابحاً بفضله وإحسانه، مغموراً برحمته وحنانه»، «تلك هي ليلة القدر يشهد فيها العبد عظمةَ ربّه وسامي صفاته، ويتنزل القرآن على قلبه، تلك هي ليلة القدر التي زيّن الله بها شهر رمضان..»، «فليلة القدر أي: العلم والمعرفة والفضيلة والكمال الذي ينطبع في نفس المؤمن في تلك الليلة.. خيرٌ مما يحصل عليه امرؤٌ عاش مائة عام قضى منها الألف شهر في الصيام والدراسة الجادة لاكتساب المعرفة»، فهذا التأويل غير صحيح ولامقبول..

فهذه نماذج من انحرافات «تأويل» الديراني «لجزء عمّ» وهناك كثير من التأويلات المنحرفة وردت فيه، كما في ص١٢١: ﴿وهذا البلدِ الإمين﴾فيقول: «والمراد بالبلد هنا: الكون كله، فهذا لهذا النوع الإنساني بلد أمين فيه كلُّ شيءٍ فليس ينقصه شيء» وهذا خلاف ماذكره جميع المفسرين: أن البلد الأمين: هو مكّة قطعاً!؟.

وكذا حرَّفَ معنى الآية ﴿لاأقسمُ بهذا البلد﴾ ص١٦٧: فيقول: «والبلد: هو المقَر والمقام وعلى هذا بلد كل إنسان مكان إقامته.. وإذا نحن نظرنا هذه النظرة الواسعة رأينا الكونَ كلّه بلداً واحداً، ومقاماً لهذه المخلوقات..» وهذا لم يقلْ به أحدٌ من المفسرين!؟.. وإنما الثابت من تفسيرها هو كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره: هذا قسمٌ من الله تعالى بمكة..﴿وأنتَ حِلٌّ﴾ يامحمد ﴿بهذا البلد﴾ أي: مكة المكرمة

وكذا حرَّفَ معنى الآية ﴿ولايُوثِقَ وثَاقَهُ أحدٌ﴾ ص٢٠٢ فيقول: «..ويكون مانفهمه من هذه الآية أنّه في ذلك اليوم لايشدُّ الوَثَاقَ على ذلك المسكين في النّار أحدٌ، بل هو ذاته يُوثِقُ نفسَهُ بنفسه، إذْ يصبر على ألم الحرق، ويُرغم نفسه على تحملِّ العذاب ليتخَلَّص مّما هو فيه..» فهذا الزعم كذبٌ وافتراءٌ على كتاب الله تعالى، وتحريف لآيات الله تعالى، فيجب التّنبيه هنا أنّ هذا الكتاب الذي جمعه «عبد القادر يحيى الديراني» باسم «تأويل جزء عمّ» قد حوى أخطاءً كثيرة في فهم الآيات، وتحويرها عمّا جاءتْ من أجله من البيان، فهو من كتب التفسير والتأويل المنحرفة المخالفة لمنهج الأئمة المفسرين، التي يُحذَّر من قراءتها والاصطلاح عليها إلاّ لمن كان له القدرة العلمية لنقضه وإبطاله. والله تعالى الموفقُ إلى طاعتهِ ورعايةِ كتابهِ، وصونهِ من تحريف الضّالين وتأويلِ المنحرفين!!..

البحث الرابع

انحراف أصحاب المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن الكريم

ويحمل راية هذه المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن الكريم كلٌّ من جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومَنْ سارَ في فلكهما واتبع طريقتهما ، مِمَّن تتلمذ عليهما ونهج سبيلهما.

وقد أعطت هذه المدرسة الحديثة في تفسير القرآن أبعاداً ثلاثة كانت الأساس لمن جاء من بعدها، وتتلخص فيما يلي:

أولاً: أنّ هذه المدرسة أعطت العقل أكثر من حقّه وكلّفته مالايطيق، ورفعت من قيمته، وضخمت حجمه حتى ساوته بالوحي، بل قدمته عليه، وقدمت مازعمته من أحكامه على أحكام الوحي.

وسعت في هذا السبيل لأجل تضييق حيّز الغيبيّات في مسائل العقيدة الإسلامية.

ثانياً: قامت هذه المدرسة بتأويل حقائق العقائد الإسلامية بما يتمشى مع الأحكام العقلية من جهة، ومكتشفات الغرب ونظريّاته العلمية من جهة أخرى.

وفي سبيل ذلك ايضاً قامت بتأويل المعجزات والخوارق وإنكار بعضها كالمعتزلة في كثير من الغيبيّات كالملائكة والجنّ والسحر، وفي إنكار كثير من الأحاديث الصحيحة التي تخالف عقولهم.

ثالثاً: هذه الفرقة الحديثة تزيد على المعتزلة بالدعوة للتقريب بين المسلمين والكافرين «اليهود والنصارى»، وتبرير الأخذ بالحضارة الغربية ومجاراتها بالأخلاق والآداب والعادات الزائفة.

والتقريب الذي سعت به هذه الفرقة المنحرفة، قرّبت من خلاله المسلمين من الكافرين، في حين لم تقرّب كافراً واحداً من الإسلام!؟..

رابعاً: إنّ الكثير من مفاهيم هذه الفرقة المنحرفة ومبادئها هي السائدة في تفكير

المعاصرين البارزين الذين تعاونوا مع الغرب في فرض سيطرته على البلاد الإسلامية، وطلاب هذه المدرسة العقلية المنحرفة هم الذين روّجوا لأفكار المستشرقين بين المسلمين، التي تحمل قضايا التشكيك بالإسلام؛ عقيدةً وشريعةً ومسلكاً. وهم الذين سعوا إلى إضعاف ثقة المسلمين بتراث سلفهم الفكري والثقافي.

خامساً لم تكن نتيجة ذلك ذات أثر على أفرادالمسلمين فحسب، بل على كثير من الدول الإسلامية التي نبذت العمل بالشريعة الإسلامية، وأقصت قوانين الفقه الإسلامي في الحكم والاقتصاد والسياسة، واستعاضت عنها بالقوانين الغربية الجائرة المارقة من كل قيود الحق والعدل الإلهي.

نماذج من انحراف تفسير أصحاب هذه المدرسة:

١ـ جمال الدين الأفغاني:

يُفَسّر قوله تعالى: في آية تحريم الرِّبا: ﴿ياأيّها الذين آمنوا لاتأكلوا الربَا أضعافاً مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران / ٣٠] بـ« جواز الربا المعقول، الذي لايُثقل كاهل المديون، ولايتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ويصير أضعافاً مضاعفة»[١] . والله تعالى حرّم الرّبا قليله وكثيره على حدٍّ سواء.

ويُفسِّر «جَدُّ ربِّنَا» في قوله تعالى: ﴿وأنه تعالى جَدُّ ربِّنَا﴾ [الجن/ ٣] أنّ «جَدَّ» معرّب «كدّ» ومعناه العرش بالفارسية أو الهندية[٢] .

ويُفسِّر قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أن لا تَعدِلُوا فواحِدةٌ﴾ [النساء/ ٣] بأنّه «قَيّدَ مَنْ خاف أن لايعدل «بالمرأة الواحدة» وترك لمن يخشى أن لايعدل ـ حتى مع الواحدة ـ عدم الزواج وهذا مايستنتجه العقل مادام يحمله العاقل، ويقول به الحق والعدل»[٣] .

ويفسِّر الأمور الغيبيّة من غير نصٍّ، فيقول: ﴿وتَرَى الأرضَ بارزةً﴾ [سورة الكهف/ ٤٧]: «أي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي، وإذا ماحصل ذلك فلا شك يختلف ماعرف من الجهات اليوم، فيصير الغرب شرقاً والجنوب شمالاً، وبذلك الخروج عن النظام الشمسي ومايحدثه من الزلزال العظيم ـ لاشك تتبعثر أجزاء الأرض لبعدهاعن المركز، وتنسف الجبال نسفاً، وتتحول براكين هائلة، وبالنتيجة

---

(١) جمال الدين الأفغاني: لمحمود أبو ريّة ص٩٨/ .
(٢) المصدر المذكور ص١١٠/ .
(٣) المصدر المذكور ص١٠٠/ .

تخرب الكرة الأرضية، ويَعُمُّها الفناء بما فيها من حيوان، وتقوم القيامة»[1].

وهذا التفسير مخالف لنصوص القرآن الكريم التي تحدّثت عن قيام الساعة.

وممّا يُعرف عن الشيخ الأفغاني أنّه كان على صلة وثيقة مع الانكليز، كما كان منتظماً في سلك الماسونية«المنظمة الصهيونية السرية»، وقد بلغ فيها بعد انتسابه إليها بثلاث سنوات «رئيساً للوج كوكب الشرق بتارخ٧ جنايو١٨٧٨م» انظر «كتاب الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ج١، ٩٥ـ١٠٦، مع ذكر المستندات المصّورة والوثائق المخطوطة في خصوص ذلك» [طبع مؤسسة الرسالة ـ بيروت].

ولقد كان للأفغاني أثرٌ بارز على كثير ممّن نبغَ من أهل العلم والفكر والثقافة والسياسة والصحافة، في زمانه ومابعده حتى هذا الوقت، ممّن افتُتِنَ بأفكاره الخطيرة، وكان على رأس أولئك الشيخ محمد عبده.

٢ـ الشيخ محمد عبده:

ولئن كان الشيخ الأفغاني هو المؤسس للمدرسة العقلية التي قامت على أساس تحكيم العقل في نصوص الكتاب الكريم والسنّة النبوية المطهرة، وعلى تمييع المواقف الإسلامية تجاه أهل الفكر «الذّمّيين منهم والحربيين »؛ فإنّ «محمد عبده» هو الذي أقام صروح هذه المدرسة، ودعا إليها ونشرها بين الناس، فكان بحق هو أستاذها وإمامها الأول بعد الأفغاني، بل أصبح له من الشهرة الواسعة والصيت الكبير مالم يكن لشيخه الأفغاني!!؟.

والذي يعنينا هنا عن الشيخ محمد عبده موقفه تجاه تفسير القرآن الكريم، وماتركه من بعده من أثر خطير على مَنْ نهجَ نهجَهُ في التفسير، وهذا ماسنذكره عند الكلام عن «محمد رشيد رضا».

وقدّ تعرّض لتفصيل مواقف «محمدعبده» وصلته بالإنكليز، والماسونية، «الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ج١/ ١٢٤ـ١٦٩، مع ذكر المصادر والوثائق المخطوطة المتعلقة بذلك، فنحن نُحيل القارىء إليها ليقف بنفسه على أشياء لم تنشر في غيره».

ولم يكن الشيخ محمد عبده يميل إلى التأليف أولاً، وإنما كان يملّي أفكاره وآراءه على مريديه فكان بعضهم يكتب ماسمعه منه وكان على رأسهم الشيخ رشيد رضا

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني: لمحمد المخزومي ص١٠٤.

«القلموني» الذي أقام في مصر وأنشأ مجلة «المنار» فيها.

وقد أثر عن الشيخ محمد عبده بعضُ المؤلفات، منها «حاشية عقائدالجلال الدواني» في علم الكلام، وشرح «نهج البلاغة» المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ورسالة في «التوحيد» وهي أهم مؤلفاته وأشهرها على الإطلاق، وطُبعت مراراً، وحازت على قبول كثير من النصارى، فاقترح بعضهم تدريسها في مدارسهم، بعد حذف مبحث «نبّوة محمدﷺ»؟!!؟ وتبرع آخر بتوزيع بعض نسخها، وقرّظها بعضهم بإعجاب شديد، ولم يسمح المؤلف لأحد أن يشرح هذه الرسالة، ولا أن يضع لها حاشيةً، وعلّل هذا تلميذه «رشيد رضا» بأنّه تعمّد الإبهام في بعض المباحث[1].

ولقدأُثِرَ عن الشيخ محمد عبده في بعض رسائله إلى شيخه الأفغاني التي أرسلها إليه وهو في منفاه مايُوجب إعادة النظر في عقيدته[2].

ولقد عاتب الشيخ العلامة «يوسف النبهاني» رحمة الله تعالى الشيخ «رشيد رضا» على صحبته لـ«محمدعبده» وتسميته له بـ«الأستاذ الإمام» مع تركه للحج ولفروض الصلاة، ولاشتراكه في المنظمة الصهيونية السرية «الماسونية» في قصيدة ذكر الدكتور فهد الرومي في كتاب «منهج العقلية الحديثة في التفسير ج١/ ١٥٣ـ١٥٤/.

ولقد كان «محمد عبده» مؤيداً لـ«قاسم أمين» الذي دعاإلى نبذ الحجاب الشرعي، وأن تخرج المرأة سافرة، بل كان مشاركا له في تأليف «تحرير المرأة» يقول «محمد عماره» جامع مقالات محمد عبده ومؤلفاته في كتاب «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده»: «إنّ في هذاالكتاب [يعني كتاب «تحرير المرأة» المنسوب لقاسم أمين] عدّة فصول قد كتبها الأستاذ الإمام وحده، بحيث جاء أسلوبه على نمط واحدٍ هو أقرب إلى أسلوب محمد عبده الأستاذ الإمام وكتاب الله في كفتي الميزان» فيقول: «إنّي أرى الرسالة المستنكرة أي: الفن القصصي في القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله]، وماسبقها في مصر من الأحداث والفتن المماثلة الماسّة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ «محمد عبده».. كلها ناشئة من الأسس التي ابتدعها هذا الشيخ الملقب بـ«الأستاذ الإمام»!!؟..

فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها، من أن تفصل الدعوى مع

---

(١) الدكتور «فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي» منهج العقلية الحديثة في التفسير ج١/ ١٤٥ـ١٤٦ـ نقلاً عن تاريخ الأستاذ الإمام، لرشيد رضا، ج١/ ٧٨٢ـ٧٨٣/.

(٢) المصدر المذكورج١/ ١٥٣ـ١٦٤/.

الإمام دون المُؤتَمِّين.. وكان هذا الواجب قد بقي منذ أمد بعيد على عاتق مصر -حملاً ثقيلاً، وديناً عظيماً غير مَقْضي.. [ولعلّ هذا الوقت الذي تكافح مصر فيه داء «الكوليرا» قدّره الله لمعالجة هذا المرض أيضاً الذي هو وباء أفتك من وباء الكوليرا، بحيث لو ترك على حاله لكان شرّ ميراث للأجيال الآتية يظهر نكسه الفينة بعد الفينة، ويشتد بأسه عليهم حتى يكفي لأن يأتي بنيانهم من القواعد فينهار به في نار جهنم»[1].

ثم يقول: «..جاء الأستاذ الإمام فوضع منهاجاً عجيباً لتأويل النصوص[القرآنية والنبوية] يُمثِّل باسم النهضة الدينية الحركة القهقرية أمام خصوم الإسلام الغربيين المسلَّطين على كتابه، ويُلقي الشك في قلوب المسلمين الذين يعتقدونه كتاباً منزّلاً من عند الله لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه قائلاً: «إنّ وجود شيء في القرآن لايقتضي صحته»!!؟؟ [نعوذ بالله من الكفر بآياته].

وبهذه النهضة المعكوسة والحماسة الضالة المأثورة من الإمام، قال تلميذه الشيخ صاحب المنار فيما كتبه دفاعاً عن كتاب «حياة محمد» لمعالي هيكل باشا: «إنّ المعجزات شبهة لاحجّة»!؟..

وقد ارتكزت فكرة إنكار معجزات الأنبياء في قلوب العلماء الأزهريين من تلامذه الإمام، وفيهم من تولى مشيخة الأزهر!!؟ كما شجعت مقرّرات الإمام في المغيبات إلى نفي وجود الشيطان!!؟..[2]

وتفسير الأستاذ الإمام «محمد عبده» لم يظهر بقلمه، وإنما ظهر بقلم الشيخ «محمد رشيد رضا»، وذلك بأنه اقترح على شيخه «الأستاذ الإمام» أن يلقي درساً في تفسير القرآن الكريم فاستجاب له، فبدأه في الأزهر سنة١٣١٧هـ وانتهى في سنة١٣٢٣هـ عند الآية١٢٥ من سورة النساء، حيث توفي بعد ذلك. فأملاه عنه.

ويصف الشيخ رضا طريقته بعد وفاة أستاذه في التفسير فيقول[3] «هذا وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السّنّة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهدالآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتدّ حاجة المسلمين إلى

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم: لشيخ الإسلام مصطفى صبري ج١/ ٣٤٥ـ٣٤٧/ .
(٢) موقف العقل والعلم والعالم: لشيخ الإسلام مصطفى صبري ج١/ ٣٤٥ـ٣٤٧/ .
(٣) تفسير المنار ج١/١٦/ .

تحقيقها».

وكان يدعو إلى إعادة الخلافة الإسلامية وألف في ذلك كتاباً عنوانه: «الخلافة أو الإمامة العُظمى».

ومن هذا ندرك مدى مخالفة السيد «رشيد رضا» لسيرة أستاذيه: «الأفغاني» و«محمد عبده»، ولم يكن هذا التحوّل فجائياً. بل كان التدرج في سيره واضحاً؛ فقد كان يزداد قرباً إلى منهج السلف كلّما امتدت به الحياة إلى أن توفاه الله تعالى، رحمه الله وطيّب ثراه.

لايعني هذا خروج «الشيخ رضا» من نطاق بحثنا هنا فإنّا لانحاسبه على الجانب أو الجوانب السلفية منه في فكره، فهذه أمور نحمده عليها ونذكرها له. ولكن نعني هنا بالجانب الآخر من فكره، وهو جانب تأثره بالأفغاني ومحمد عبده، الذي بقي أثره معه إلى وفاته، ولم ينفك عنه، وليس هو بالقليل[(١)] منها:

١ـ موافقته في تفسيره للوحي وعلاقته برسول الله ﷺ لشيخه محمد عبده[(٢)]

٢ـ تصديق مدعي تحضير الأرواح، مع ثبوت بطلان هذه الدعوى [(٣)].

٣ـ تشكيكه في وقوع أشراط الساعة الصغرى والكبرى، بعد إقراره بثبوت أخبارها، وهذا جانب غريب منه[(٤)].

٤ـ تفسيره لخبر الدجال بعد إقراره بثبوته، وهو يحكيه عن شيخه محمد عبده؛ أنّه أي «الدجال رمزٌ للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها[(٥)]..»

٥ـ تشكيكه بثبوت خبر طلوع الشمس من مغربها في آخر الزمان؛ بأنه ربّما سمع ذلك أبو هريرة من كعب الأحبار، أو أنها من المتشابه.[(٦)]

وإذا كان إيمانه بما تواترت الأخبار بوروده على هذه الشاكلة، فما بالنا بالتي لم تبلغ حدّ التواتر من الأحاديث الصحاح والحِسَان؟! لاغرو أنه متأثر بمذهب شيخه

---

(١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: للدكتور فهد الرومي ج١/ ١٨٧/.

(٢) الوحي المحمدي ص٣٩، تفسير المنار ج١/ ٢٢٠/ وانظر رسالة التوحيد: لمحمد عبده ص١٠٨/.

(٣) انظر: الروحية الحديثة: للدكتور محمد حسين ص٣٣/.

(٤) تفسير المنار ج٩/ ٤٤٥ـ٤٥٠/ و٤٥١ـ٤٦٠/.

(٥) تفسير المنار ج٩/ ٣١٧/.

(٦) تفسير المنار ج٨/ ٢١١/.

محمد عبده الذي يقول فيه: «ولقد كان الاستاذ الإمام يقول: «إن الإسلام الصحيح هو ماكان عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الفتن» ولم يكن يثق إلاّ بأقلّ القليل ممّا روي في الصحاح من أحاديث الفتن»[1].

٦ـ تقليله من شأن المعجزات التي ذكرهاالله تعالى في القرآن الكريم عن الأنبياء السابقين فيقول: «ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيدّ بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر، واهتداؤهم به أعم وأسرع، لأنّ أساسه قد بُني على العقل.. [يعني القرآن] ثم يقول: وأمّا تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها، وأمثال هذه الأمور [ويقصد معجزات الأنبياء] تقع من أناس كثيرين في كل زمان والمنقول عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهدين: العتيق والجديد، وعن مناقب القديسين، وهي منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر»؟![2].

إذن فالمعجزات عنده: مثارُ شبهات ومثارُ تأويلات في صحتها ودلالتها؟؟!..

٧ـ ويقول الشيخ «رشيد رضا»: «وأمّا ماأكرمه الله تعالى به [أي ﷺ] من الآيات الكونية، فلم يكن لإقامة الحجة على نبوّته ورسالته»؟؟![3]..

٨ـ ويقول: «وقد كان أكثر مَنْ آمن بتلك الآيات إنما خضعت أعناقهم، واستخذت أنفسهم لِما لايعقلون له سبيلاً، وقد انطوت الفطرة على أنّ كلَّ مالا يُعرف له سببٌ فالآتي به مُظهر للخالق سبحانه إن لم يكن هو الخالق نفسه، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين، ولايزالون كذلك»[4] ؟!.

وعلى هذا المسلك من التقليل من شأن المعجزات التي ذكرها الله تعالى عن الأنبياء في القرآن الكريم قد خطا جميعُ المتأثرين بمذهب «محمد عبده» من العلماء والأدباء والكتّاب، أمثال «محمد رشيد رضا» و «محمود شلتوت» و«عبد العزيز جاويش» و «فريد وجدي» صاحب دائرة المعارف والتفسير الميسّر، و «محمدحسين هيكل» صاحب «حياة محمد»ﷺ ومن تأثر بهم...

---

(١) تفسير المنار ج٩/ ٤٦٦/.
(٢) تفسير المنار ج١١/ ١٥٥/ والوحي المحمدي له ص٦٢.
(٣) تفسير المنار ج١١/ ١٥٩/ والوحي المحمدي ص٧٠.
(٤) تفسير المنار ج١١/ ١٦٠/ والوحي المحمدي ص٧١.

يقول الدكتور «فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي»[(١)] : «نخلص من هذا إلى أنّ رجال المدرسة العقلية الحديثة لايحيلون وقوعها [أي: المعجزات] بل هي عندهم «جائزة عقلاً» فلا مانع من وقوعها بقدرة الله تعالى في يد نبي من الأنبياء، ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها. لكنّهم يخصّون هذا بفترة ماقبل رسالة محمد ﷺ ، أمّا في عصره عليه الصلاة والسلام «فانتهى بذلك زمن المعجزات، ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد، فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال كما كان في سنّ الطفوليّة النوعية، بل أرشده الله تعالى بالوحي الأخير «القرآن» إلى استعمال عقله في تحصيل الإيمان بالله وبالوحي»[(٢)] .

ويرى الشيخ عبده أنّ المعجزات إنما هي لأولئك الأقوام الذين لم ترتَقِ عقولهم إلى فهم البرهان، ولايضر الإسلام أن يروي تلك المعجزات، فمجرّد روايته لها لاينفي عنه أن دين العقل مادام لم يرد فيه شيء منها.

يقول الشيخ عبده: «فإنما بما أيّدَ الله تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتقِ عقولهم إلى فهم البرهان لايُنافى كون ديننا هو تقديمه لكتاب «حياة محمد» ﷺ للأستاذ محمد حسين هيكل: «ولم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلاّ في القرآن، وهي معجزة عقلية».

ويردّد هذا الكلام أيضاًالسيّد رشيد رضا: «وأمّا آيته - ﷺ - والتي احتجّ بها على كونه من عند الله تعالى هي القرآن وأمّيّة محمد عليه الصلاة والسلام ، فهي آية علمِيّة تدرك بالعقل والحسّ والوجدان.

وأمّا تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة؛ في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها، وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان، والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد، وعن مناقب القديسين وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر»[(٣)]

ويقول: «هذا وإنّ مارواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة، وبالمرسلة أخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بها رسوله محمداً ﷺ هي أكثر من كل مارواه

---

(١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ج١/ ٥٥٥ـ٥٥٨/ .
(٢) تفسير المنار ج١/ ٣١٥/ :
(٣) تفسير المنار ج١١/ ١٥٥/ .

الإنجيليون، وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين، ولاأمر بتلقينها للناس ذلك بأن الله تعالى جعل نبوّة محمد ﷺ ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها، وفي موضوعها لأن البشر قد بدأوا يدخلون في سِنِ الرشد والاستقلال النوعي الذي لايخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سُنَنِ الكون».

ويقول: «أهمّماينكره الأزهريون.. على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات، وقد حرّرتها في كتاب «الوحي المحمدي» من جميع مناحيها ومطاويها في الفصل الثاني وفي المقصدالثاني من الفصل الخامس، بما أثبتُّ به أنّ القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوّة محمد ﷺ بالذات، ونبوّة غيره من الأنبياء، وآياتهم بشهادته لايمكن في عصرنا إثبات آية إلّا بها، وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لاحجة، لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى، وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل، وبينتُ سببَ هذا الافتتان، والفروق بين مايدخل منها، في عموم السنن الكونية والروحية وغيره»[1].

وهكذا نجد جميع المتأثّرين بمنهج «محمد عبده» وبفكره كيف ينظرون إلى معجزات الأنبياء ومعجزات نبينا ﷺ؟ ولم يقف الأمرُ عندهم إلى هذا الحدّ بل تعدّاه إلى العبث في القول في نبوته ﷺ بأنها «عبقرية».

إن نتيجة تجريد نبوّة محمد ﷺ عن المعجزات هو القول بـ«عبقريته» لدى من يعتقد ذلك.

ولنقرأ قول الأستاذ محمد فريد وجدي وهو يقرّر عبقرية محمد ﷺ ويعدّه كسباً للقائلين بنبوّته، ومارأيتُ خسارةً فادحةً تسمّى «كسباً» عظيماً إلّا بهذا المقياس الذي يقيس به وجدي؛ يقول:

«ربّما يخيّل لمن يطلع على شرطنا إيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمي أنّ جانب الإعجاز فيها سيكابد نقصاً عظيماً، إن لم يغفل إغفالاً تاماً، وإغفال هذاالجانب منها يجعلها أمراً طبيعياً، فتفقد النبوّة صِفتَها المميّزة، وتصبح سيرة النبي ﷺ كسيرة أحد عظماء الرجال، وليكن من الممكن إثبات أنّه أعظمهم فتكون النتيجة سلبية من الناحية الدينيّة؟! نقول: لا، فإننا إن سرنا على شرط العلم في إثبات الحوادث وعزوها إلى عللها القريبة، فإنه سيتألف من جملتها أمرٌ جلل يقف العلم نفسه

---

(١) تفسير المنار ج١١/١٥٩ـ ١٦١/.

أمامه حائراً، لايستطيع تعليل صدوره عن فرد واحد، وسيكون مضطرباً بأن يعترف بأن محمداً ﷺ كان «عبقرياً» من طراز خاصٍّ فاقَ به جُميع العباقرة. وهذا كسب «عظيم» للقائلين بنبوّته؛ لأنّ العبقري في العلم لاتعني ماتعنيه في عرف العامة، هي في العلم ما يُلقي في روع العبقري من علم أو عمل بدون جهد منه، فيجيء فذّاً لاسابقة له، يتَّخذُ مثالاً لغيره، ولايمكن تقليده، فالعبقرية بهذا المعنى العلمي تُقرب معنى النبوّة إلى العقل، وتسوّغهافي العلم»[1].

وهذا الكلام كثر ترديده بين الكتّاب في تلكم الفترة وهم يساومون على نبوّة رسول الله ﷺ، ويكفيهم ثمناً لها الإقرار بعبقريته ويعدّونه كسباً عظيماً!!؟؟ يقول زكي مبارك: «كان محمد ـ ﷺ ـ إنساناً قبل أن يكون نبياً، وذلك من أعظم الحظوظ التي غنمها في التاريخ، فسيأتي يوم قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية، ولكنّهم لايستطيعون أن يثوروا على «عبقرية» محمد ﷺ..[2]

وكثر ترديد هذا الوصف لنبينّا ﷺ حتى ألّف فيه بعضهم كتباً مستقلّة عن عبقرية محمد ﷺ، كما فعل الأستاذ «العقاد» وهو وإن لم يُشاركهم إثبات العبقرية على حساب النبوّة إلاّ أنّه شاركهم في الترويج لهذه الدعوة الهدامة لمعنى «النبوّة والرسالة المحمدية».

ولاتحسبّن أن القوم يدعون إلى العبقرية إضافةً إلى النبوّة فهو من زيادة الثناء والإعجاب، بل هم حين يصفونه عليه الصلاة والسلام بالعبقرية فإنهم يثبتونها على حساب نبوّته ﷺ، وأكبر دليل على ذلك إنكارهم للمعجزات، والمعجزة والنبوّة سيّان في كونها من الأمور الغيبيّة الخارقة لسنن الكون، بل إنّ المعجزة من أدلّة الإثبات للنبوّة، ومَنْ يُنكر المُثبِتَ فهو إلى إنكار المثبَتِ أقرب، وقول وجدي آنف الذكر يُمهد لذلك: «وسيأتي يوم قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبيّة»[3] ؟؟

وهناك لابدّ من ذكر لمحة عن معنى «العبقرية» في الاصطلاحات الحديثة، فيقول صاحب «المعجم الأدبي»[4] :

---

(١) مجلة الأزهر الأول المجلد العاشر محرم ١٣٥٨هـ مقال «السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة»: لمحمد فريد وجدي ص١٥/ .
(٢) مجلة الرسالة العدد٢٩٧ ص٥٠٧/ في ٢٢ محرم ١٣٥٨هـ مقال: «النواحي الإنسانية في الرسول «زكي مبارك».
(٣) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ج١/ ٥٦٥ـ٥٦٦/ .
(٤) المعجم الأدبي: جبور عبد النور ص١٧٠ـ١٧١/ .

«العبقري: كل جليل نفيس فاخر من الرجال والنساء وغيرهم، المتفوّق في الشيء والآتي بما يعجز عن باراته فيه الآخرون..

والعبقري: مبدعٌ يُحقّق آثاراً معجزةً، ولايأتي بمثلها إلاّ سكّان «عبقر» أو من كان هو على اتصال بهم، ويتلقى الوحي منهم»؟!.

ويقول عن «عبقر» أنّها «قرية يسكنها الجنّ، ويُنسب إليها كلُّ فائقٍ جليل. وتوسّع الأدباء في مدلول اللفظة، فأصبحت في مفهومهم كناية عن عالمٍ سِحْري تقطنه مخلوقات عجيبة في خِلْقتها وإدراكها، مُسيطرة على الشعراء والفنانين، مُوحيةً إليهم بما ينطقون أو يُبْدِعون، بحيث يُصبحون حسب هذا المدلول أدوات مُرَدِدَة لما يُوحى إليها، وليست هي في ذاتها مُبتكرة أو خالقة، وبذلك قرب معناه من لفظة «الأُولمب» أو جبل الإلهام عند اليونان، واشْتُقَّ منها عبقريّ وعبقريّة»؟؟

ثم يقول تحت لفظة «عبقرية»: «وذهب بعض المحلّلين النفسيين إلى اعتبار العبقرية نوعاً من العُصَاب، ملاحظين أنّ كثيراً من العباقرة كانوا مَرْضىً مُصابين بالوساوس، أو معرّضين للانفعال السريع بالأهواء الجائحة، أو منفصلين اجتماعياً وشعورياً عن بيئتهم ومجتمعهم، وكلُّ هذا مظهرٌ من أعراض الجنون. وقال آخرون: إن العبقرية في ذاتها قضية نسبيّة..»؟!

هذا بعض معاني العبقرية، وهناك معان أخرى أطلقوها على الفنانين المبدعين، كقول أحدهم: «إنّ عباقرة الفنّ يُنتجون الآثار الفنيّة التي تناسب إعجاب الجميع، على غير قاعدة أو مثال يقتفونه»؟!..

فالقائلون بعبقرية «محمد» ﷺ على أيّ المعاني حملوها؟؟ أو بأيّ اصطلاحاتها قاسوا «النبي ﷺ »عليها؟؟

والله سبحانه وتعالى قد وصفه بأكمل الأوصاف وأجمعها لمعاني الجلال والجمال والبهاء والسمّو والرفعة حين قال «مُحَمّدٌ رَسُولُ الله»!!! ووصفه: «بالنّبيّ الأمي» و«بعبده» ﷺ!!! فهل هؤلاء قد عابهم هذا الوصف؟ أو أنهم وجدوه غير كاف لمقامه الشريف؟ حتى ذهبوا إلى وصفه بالعبقرية؟!؟

إنهم راموا هذا المسلك المنحرف لتقويض معنى معجزات النبي ﷺ التي لم تنسجم مع أمزجة مفكري الغرب، وكأنهم في إنكارهم المعجزات، ونفيها عن الدين الإسلامي، قد خلّصوا الإسلام من عيب يجب تطهيره منه؟؟!.

ولأجل غاية الوصول إلى مواكبة الغرب في مفاهيم المادية في كل شيء فلا هم

قَدَّمُوا خدمةً للقرآن الكريم يبتغون بها الوسيلة عند الله تبارك وتعالى، ولاهم قَدَّمُوا كافراً من كفار الغرب شبراً نحو الإسلام، وإنّما كان الذي قَدَّموه للمسلمين هو التشكيك بمعجزات الأنبياء التي ذكرها الله تعالى، وبمعجزات الرسول ﷺ الثابتة بالأسانيد الموثوقة الصحيحة؛ ولهذا تجرّأوا على مَاوَرَدَ من الروايات الصحيحة في السّنّة النبوية المطهرة لبعض المعجزات، فأبطلوا وتجرّأوا على رواتها فقدحوا فيهم وجرحوهم، ولم يفرّقوا أو أكثرهم بين صحابي أو تابعي، أو سواهم من الأئمة الثقات العدول الذين كانوا الدرع الواقي لجميع هجمات أعداء الإسلام، ودسائسهم؟؟..

فبماذا يفرحون؟؟!..

البحث الخامس

انحراف المتطرفين في التفسير العلمي للقران الكريم

اتجه كثير من العلماء إلى تفسير القرآن، على أساس أنّه قد حوى، إلى جانب العلوم الشرعية والدينيّة، سائرَ علوم الدنيا على اختلاف أنواعها وتعدّد ألوانها، وكان من نتيجة ذلك أن ظهر مَن يُحكمّ الاصطلاحات العلمية في آيات القرآن الكريم وكلماته، كما ذهب بعضهم إلى حمل الآية القرآنية على النظرية العلمية المكتشفة حديثاً، حتى ولو أدّىَ به ذلك إلى إخراج معنى الآية عمّا جاءت من أجله، وتنزيلها على مقتضى النظرية العلمية.

وإذا كان اصحاب هذا الاتجاه العلمي في التفسير، يستندون إلى ما حواه القرآن الكريم، من إشاراته إلى حقائق الكون والحياة، فليس لهم أن ايحملوا الآيات الكونية، ويذهبوا بها إلى مااسْتُحدِثَ اكتشافه من الأمور الكونية، ثم جعلها أساساً لإيضاح معنى الآيات الكونيّة، من غيرإدراك القصدالذي نزلت من أجله، وإنماالواجب عليهم، جعل تلك الآيات الكونية، أساساً لتصديق مااسْتُحدِثَ اكتشافه من هذه الأمور الكونية، وبذلك تكون الآيات القرآنية الكونية أساساً وأصلاً؛ لأنها كلام خالق هذا هو مجمل الأمور، التي جعلت تفسيره يخرج عن المنهج الصحيح لتفسير القرآن الكريم.

فمن الأمثلة التي توضح انحرافه في تفسيره ماقاله في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إن الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً..﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا، كَذَٰلِكَ يُحْيِي الله الْمَوْتَىٰ..﴾ [البقرة، ٦٧-٧٣] فيذكر في تفسيرها من العجائب والغرائب: «علم تحضير الأرواح» فيقول: «وأمّا علم تحضير الأرواح، فإنه من هذه الآية استخراجه، إنّ هذه الآية تُتْلَىَ والمسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً، ثم بسائر أوربا ثانياً» ثم يذكر قصّة ظهور هذا العلم وتطوّره بإسهاب.

وهو في هذا يرمي القرآن بالتناقص، ثم ينسب للأنبياء علوماً مكتسبةً أدّعَوا من

خلالها المعجزات؟.

أما الناحية الأولى: فإنه يزعم أنّ علم تحضير الأرواح مأخوذٌ من هذه الآية، مع أنّ القرآن الكريمَ نفسَهُ ينصُّ على أنّ علم الروح، هو من العلوم التي خصّ الله تعالى نفسه بها، ولم يُطلع أحداً على حقيقتها، وذلك في قوله تعال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء/ ٨٥]؟ فكيف يقول ذلك؟؟...

وأما الناحية الثانية: فإنّه يُوهم أنّ ماأجراه الله تعالى لرسوله موسى عليه السلام، من أمره بذبح البقرة، ثم ضرب القتيل بجزءٍ منها، ثم إحياء الله تعالى ذلك المقتول، بعدما فعلوا ماأمِرُوا به؛ أنّ ذلك من باب تحضير الأرواح المزعوم، وهذا بلا شك باطلٌ لايصح اعتقاده، ولا القول به.

ولستُ أشك أنّ في مثل هذا التفسير خروج بالقرآن عن قصده، وانحراف به عن هدفه، فيجبُ صونُ القرآنِ وتفسيرِهِ عن مثلِ هذا الانحراف، وذلك الشطط.

وبعض الباحثين دفعهم الحماسُ إلى أن يتلمَّسُوا لكل نظرية اشْتُهِرَتْ بين النّاس دليلاً من القرآن، ولو كان ذلك عن طريق التكلّف، بحمل الآية على معنى النظرية، وفي هذا من الخطر مافيه من الوقوع في الإلحاد في آياتِ الله تعالى الذي حرّمه الله تعالى أشدَّ التحريم، وذلك أن النظرية إذا فشلَ ثبوتُها، نُسِبَ مثلُ ذلك إلى الآية. والعياذ بالله تعالى، فإن كلام الله تعالى حقٌّ لامرية فيه، فيجب إجلاله وتعظيمه، وجعله الأصل في البحث والأساس في النظر.

إنّ العلم الحديث يُعتبر مجموعة القواعد والأسس التي تبحث في صحته النظرية أو عدم صحتها، وهذا لاينطبق على كلام الله تعالى، ولهذا لايجوز حمل الآيات القرآنية على النظريات العلمية الحديثة، بل يجب أن تكون النظريات محكومة إليها، فما كان موافقاً للآيات القرآنية حكمنا على النظرية بالصحة، وماخالفها حكمنا عليه بعدم الصحة.

وهنا يجب التنبيهُ والتحذيرُ من خطر التفسير العلمي الخارج عن الأصول والقواعد والضوابط الشرعية والعربية، يقول الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون [ج٢/ ٥٢٢ ـ٥٢٣]

مني الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه بكل مايستطيعون من وسائل الكيد، وطرق الهدم. وكان من أهم الأبواب التي طرقوها ليصلوا منها إلى نواياهم السيئة: تأويلهم للقرآن الكريم الكريم على وجوه غير صحيحة، تتنافى مع ما

في القرآن من هداية، وتناقض ماهو عليه من محجة بيضاء وتهدف إلى ماسولته لهم نفوسهم من نحل خاسرة وأهواء!!...

مني الإسلام بهذا من أيامه الأولى، ومني بمثل هذا في أحدث عصوره، فظهر في هذا العصر أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه إلى مايوافق شهواتهم، ويقضي حاجات في نفوسهم، فأدخلوا في تفسير القرآن آراء سخيفة، ومزاعم منبوذة، تقبلها بعض المخدوعين من العامة وأشباه العامة ورفضها بكل إباء من حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم.

الباعث على هذا اللون من التفسير:

اندفع هؤلاء النفر من المؤولة إلى ماذهبوا إليه من أفهام زائفة في القرآن بعوامل مختلفة، فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله سبب لظهوره وشهرته، فأخذ يثور على قدماء المفسرين ويرميهم جميعاً بالسفه والغفلة ثم طلع على الناس بجديده في تفسير الله... جديد لاتقره لغة القرآن، ولايقوم على أصل من الدين.

ومنهم من تلقى من العلم حظاً يسيراً، ونصيباً قليلاً، لايرقى به إلى مصاف العلماء، ولكنه اغتر بما لديه، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين في العلم، ونسى أنه قَلَّ في علم اللغة نصيبه، وخف في علم الشريعة وزنه، فراح ينظر في كتاب الله نظرة حرة لاتتقيد بأي أصل من أصول التفسير، ثم أخذ يهذي بأفهام فاسدة، تتنافى مع ماقرره أئمة اللغة وأئمة الدين، ولأول نظرة يتضح لمن يطلع عليها أنها لاتستند إلى حجة، ولاتتكىء على دليل.

ومنهم من لم يرسم لنفسه نحلة دينية، ولم يسر على عقيدة معروفة، ولكنه لعبت برأسه الغواية، وتسلطت على قلبه وعقله أفكار وآراء من نحل مختلفة، فانطلق إلى القرآن وهو يحمل في قلبه ورأسه هذه الأمشاج من الآراء، فأخذ يؤوله بما ينفق معها، تأويلاً لايقرره العقل ولا يرضاه الدِّين. [كما هو حال صاحب القراءة المعاصرة في الكتاب والقرآن].

هؤلاء جميعاً خاضوا في القرآن على عماية، فلم يراعوا في فهمه قوانين البلاغة، ولم يدخلوا إلى تفسيره من باب السنة الصحيحة، وحسبوا أنهم أرضوا ضمائرهم، وأنصفوا البحث الحر، والرأي الطليق.

ولولا أن الله قيّضَ لهذا الدِّين رجالاً يدرسونه ببصائر تنفذ إلى لبابه، ويدفعهم الإيمان والإخلاص إلى أن يبعدوا عنه الخبائث، التي يُراد أن تُلصق به أو تنزل في

رحابه... لولا هذا لأصاب المسلمين من هؤلاء المضللين شرٌّ مستطير، ولنتج عن أفكارهم وأهوائهم فتنة في الأرض وفساد كبير.

البحث السادس

انحراف مُدّعي التجديد في التفسير

مُنيَ الإسلام في العصر الحديث بأُناسٍ، حَوَوْا طرفاً مِنَ العلم، لم يبلغوا فيه مبلغه، فخاضوا غمار تفسير القرآن العظيم، وأرادوا أن يخرجوا إلى الناس بتفسيرات مُستجدّة، خالفوا فيها المنهج الصحيح لتفسير القرآن الكريم، وخرجوا فيها عن قواعد التفسير وأصوله وضوابطه.

وكان من أولئك مَنْ يتصف إمّا بالغرور وعظمة التّعَالُم على أهل العلم، وإمّا بالفهم السقيم والأفكار الزائفة، وإمّا بدعوى التجديد، ولو كان فيه مخالفة لمنهج أهل العلم، ومجانبة لطريقة الأئمة المفسرين.

فمن هؤلاء مَن خرج بتفسيره عن أصول التفسير وقواعده وضوابطه. ومنهم مَنْ خالف في تفسيره منهج اللغة العربية، في بيان المعاني وإظهار المقاصد. ومنهم من تجاهل أو كان جاهلاً حقاً في الأحكام الشرعية، فضّمن تفسيره أخطاءً فاحشة كانت ثمرة استنتاجه واجتهاده المنحرف..

وسنختار في هذا البحث، نماذج من مناهج الانحراف، عند مدّعي التجديد في التفسير في هذا العصر نوضح من خلالها منشأالانحراف في تفسيرهم للقرآن الكريم.

نشأة الانحراف عند مدّعي التجديد في التفسير:

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي، رحمه الله تعالى:

«مُنيَ الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه بكل مايستطيعون من وسائل الكيد وطرق الهدم، وكان من أهم الأبواب التي طرقوها ليصلوا بها إلى نواياهم السيئة: تأويلهم للقرآن الكريم على وجوه غير صحيحة، تتنافى مع مافي القرآن من هدايةٍ، وتناقض ماهو عليه من مَحَجّةٍ بيضاء، وتهدف إلى ماسوّلته لهم أنفسهم من نِحَلٍ خاسرة واهواء».

«مُنيَ الإسلام بهذا من أيامه الأولى، ومُنيَ بمثل هذا في احدث عصوره، فظهر في هذاالقرن أشخاص يتأوّلون القرآن على غير تأويله، ويلْوونه إلى مايُوافق شهواتهم،

ويقضي حاجاتٍ في نفوسهم؛ فأدخلوا في تفسير القرآن آراءً سخيفةً، ومزاعم باطلة، تقبلها بعضُ المخدوعين من العامة وأشباه العامّة، ورفضها بكل إباءٍ مَن حفظ الله عليهم دينهم وعقولَهم».

«ولقد اندفع هؤلاء النفر من المضللة، إلى ماذهبوا إليه من أفهام زائفة في القرآن، بعوامل مختلفة؛ فمنهم من حسب أن التجديد، ولو بتحريف كتابِ الله تعالى، سببٌ لظهوره وشهرته في المحيط العلمي، فذهب يُفسر كتاب الله تفسيراً لاتقرّه لغة القرآن، ولايتفق مع قواعد الدين العامّة».

«ومنهم مَن تلقّى من العلم حظاً يسيراً، لايرقى به إلى مستوى العلماء.. ولكنه اغترّ بما لديه، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين في العلم، ونسي أنّه قَلَّ في علم اللغة نصيبهُ، وخفَّ في علم الشريعة وزنه، فراح ينظر في كتاب الله نظرةً حُرّةً لاتتقيّد بأيّ أصل من أصول التفسير، ثم اخذ يهذي بأفكارٍ فاسدةٍ، تتنافىَ مع ما قرّره علماء اللغة وأئمة الدين، ولأول نظرةٍ يتضح لمن يطلعُ عليها انها لاتقوم على حُجّةٍ ولاترتكز على دليل»[1] .

ولو أردنا استقصاء المناهج المنحرفة في تفسير القرآن الكريم في هذا العصر، لوجدناها متعدّدة ذات جوانب متفرعة، وسنقتصر في هذا البحث على ذكر اثنين منها، هي أشدّ انحرافاً من غيرها، وهي للتالية أسماؤهم:

١ـ الدكتور مصطفى محمود: في تفسيراته العصرية للقرآن الكريم.

٢ـ الشيخ أبو زيد الدمنهوري: في كتابه الهداية والعرفان في تفسير القرآن أمّا انحرافات الدكتور مصطفى محمود في تفسيره العصري، فيعود منشؤها إلى النقاط التالية:

أولاً تصويره أن القرآن الكريم، إذا لم يُقدّم للناس علومَ الطب والتشريح والرياضيات والفلك، وأسرار البيولوجيا والإلكترون والذرّة.. فليس صالحاً لزماننا، ولاجديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية، ويقبله منطقنا العصري.. بهذا الشكل يُصور القرآن باسم العصرية، ويُغري الناس بأن يرفضوا فهم القرآن كما فهمه الصحابة في مدرسة النبوّة؛ ليفهموهُ من خلال تفسير عصري متطور.. مشحون بالكثير من بِدَع هذا الزمان..

(١) الاتجاهات المنحرفة في التفسير ٩١.

ثانياً: تفلته من قيود الآداب الإسلامية في التعبير في مجال التفسير، حيث وقع في أسر الانفعال، والرغبة في التعبير المتحلل من الألفاظ الرصينة الهادفة لأسمى المعاني، التي تليق أن يُؤتىَ في تفسير كلام الله تعالى، فلم يُهذّب عبارته بالتأديب مع كلام الله تعالى، كما لم يُهذّب ألفاظه مع علماء الإسلام، فقدح بهم بما نقله عن لسان المتصوفة الرمزيين النظريين..

ثالثاً: تمثله في كِتابته بصورة المتلهف الظمآن إلى آفاق روحيّة حديثة، مندفعة اندفاعَ مَن أتخمه الشبعُ الماديّ.. حتى أحسَّ بثقل أغلاله، فانطلق وراء سرابٍ للخلاص، غير عابىء بأي شيء، فوقع في شطحات الصوفية النظرية الرمزية، كما وقع في تأويلات الباطنيّة.

رابعاً: ومن خلال ضجيجه العصري الرنّان، يُقدّم تفسيره العصري في صورة العجائب والغرائب، التي تبهر أبصار العامة، فلاتعود ترى الرؤية الصحيحة، التي تميزّ بين الحق والباطل، ولاتقدر أن تفصل بين منطق التفكير العلمي الصحيح، وبين جرأة الادعاء...

هذه هي أهم الأسباب التي جعلت رجل العلم العصري، ينحرف نحو اتجاه يسلك به هاويةَ السقطات العلمية الحديثة..

ويجدرُ بنا التنويهُ بالذين وقفوا في مجابهة انحرافات هذا الرجل - رجل العصر والعلم - فوضعوا رُدوداً موفقة، في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل؛ دفاعاًعن كتاب الله العزيز، وهي:

١ـ عبد المتعال محمد جبري: «شطحات مصطفى محمود في تفسيراته العصرية للقرآن الكريم» طبع دار الاعتصام بمصر.

٢ـ الدكتورة بنت الشاطىء: «القرآن الكريم والتفسير العصري» طبع دار المعارف بمصر.

٣ـ مصطفى إسماعيل الزّج: «رَد على محاولة لفهم عصري للقرآن» طبع حلب، سوريا.

فقد قام هؤلاء - جزاهم الله تعالى خيراً - بواجب الدفاع عن القرآن الكريم، فردُّوا عليه مفنّدين مزاعمَه، فاضحين انحرافه، موضحين خطرَه.

وأمّاانحرافات الشيخ أبي زيد الدمنهوري في كتابه: الهداية والعرفان في تفسير القرآن؛ فقد أحدث ضجّةً كبرى في أوساط علماء الأزهر، حيث أنكروا عليه إنكاراً

شديداً، وبيّنوا انحرافه في تفسيره، وقد انتهى الأمر بمصادرة الكتاب ومنع قراءته، والحكم على صاحبه بالزيغ والضلال.

وقد أتى انحراف صاحب هذا التفسير، على أشنع صور التحريف والتزييف لمعاني القرآن الكريم، فهو يخرج بتفسير الآية من القرآن، عن عُرف الشرع ومعاني اللغة.

وقد ذكر المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي، نماذج من انحرافاته وتخرصاته في تفسير القرآن، في كتابه القيم: «الاتجاهات المنحرفة في التفسير» ص٩٤-٩٦، أعرضنا عن ذكرها في هذا الكتاب، مكتفين بما ذكرناه منها في كتابنا «أصول التفسير».

وممن وقع في انحرافات خطيرة في التفسير الشيخ «محمد أديب حسون» في كتابه «التفسير المنير»، ففي ص٢٠ من كتابه هذا، يقول في تفسير الأحرف المقطعة الواردة في أوائل السور: «ومعناها مفهوم عند النبيﷺ وخاصة عباد الله، فهي رمزٌ بينه تعالى وبين خاصّة عباده، كإشارة البرق والبريد»، ففي قوله هذا من الفساد مالايخفى على كل ذي علم وبصيرة؛

اولاً: من أين علم انها مفهومة عند النبي ﷺ ولم يرد عنه ﷺ شيء في خصوصها؟ فهذا رجم بالغيب وتقوّل بغير علم. ثانياً: زعمه أنّ هذه الأحرف مفهومة عند خاصة عباد الله ، وهذا زعم باطل، بدليل أنّ الصحابة ـ الذين كانوا من اخصّ خواصّ عباد الله ـ لم يخوضوا في تأويلها، بل كان إجماعهم على أنها من النوع الذي لايُطْلَبُ تفسيرُهُ، وأنّها «سرُّ الله تعالى في القرآن». ثالثاً: تشبيه الفاسد لهذا السّرّ الإلهي في القرآن بأنّه «رمز بينه تعالى وبين خاصّة عباده، كإشارة البرق والبريد»!!؟ وهذا من أفسد التشبيهات وأسوئها، حيث شبه«الأعلى» بالأدنى، وقاسَ الغائب اللّامعلوم بإشارات البرق والبريد أي: بما يُسمّى بالمواصلات الهاتفية والبريدية ـ وهذا حاصل مع جميع النّاس؛ مؤمنهم وكافرهم، وفاسدهم وصالحهم، فليست إشارات البرق والبريد تخصّ طبقةً مخصوصة من الناس، فهي ميسورة للجميع!!؟ فجعلهُ سِرّ الله تعالى في القرآن العظيم الذي لايعلمه إلا الله سبحانه؛ كإشارات البرق والبريد التي يشترك باستعمالها جميع النّاس؛ تقوّلٌ في آيات الله بغير علم وتجرُّؤ عليها بجهل، وهذا يدل على عدم مهابة كلام الله تبارك وتعالى، وهذا من أشنع الصفات التي تُصيب أهل العلم الغافلين.

كماأن صاحب هذا التفسير قد وقع في تقليد المتقوّلين على الله تعالى من أصحاب المزاعم الباطلة والشطحات المخالفة للشرع، فنقل عن بعضهم في تفسير الآية الرابعة من سورة يوسف في /ص٢٣-٢٤/ من كتابه «التفسير المنير»: وتجلى الله تعالى على المريد الصادق بواسطة شيخه الكامل، غير تجلّيه له بانفراد مهما كان صادقاً، ويتجلى

الله تعالى للشيخ بواسطة مريده الصادق غير تجلّيه بواسطة غيره.

وهذا من المغالطات الشنيعة التي يثيرها أصحاب الرغبة في استزلام النّاس، وجعلهم بين أيديهم كالأزلام يتصرّفون بها كما يشاؤون ويُديرونها كما يُريدون.

وليس في الإسلام هذه المعاني الكهنوتية التي تُعبِّر عن الوساطة بين الخالق والمخلوق، وبين الربّ والمربوب، التي ابتدعها الكّهان والرّهبان في ديانتهم، وتقولوا بها بغير سلطان أتاهم.

ومن شطحاته أيضاً قوله في تفسير الآية الرابعة من سورة يوسف: إن يوسف كان طُوراً ليعقوب يُناجي الله تعالى ويسمع منه بواسطة يوسف، فهو طور يعقوب، كما كان «جبل الطور» محلاً لمناجاة الله تعالى لموسى.

وهذا الشطط من القول مخالف كل المخالفة لمعاني القرآن الكريم وهديه وأحكامه.

ثم هو تقوّل على أنبياء الله تعالى بغير علمٍ ولاهدىً ولابيانٍ منير، فإنْ دلّ هذا التقول على شيء، فإنما يدلّ على استخفاف مقام النبوّة، فإنّ من المعلوم بالضرورة في العقيدة الإسلامية حرمة التقوّل على أيّ نبيّ من الأنبياء، بالرأي والهوى وألاّ نصفهم إلاّ بما وصفهم الله تعالى به، وألاّ نقول فيهم إلاّ ماقاله الله تعالى فيهم .

نسأل الله تعالى العافية، ونعوذ به من التقوّل في دينه وأنبيائه بغير علم ولاهدى.

البحث السابع

انحراف أصحاب القراءة المعاصرة للقرآن الكريم كما وردت فيما أسموه بـ

«الكتالب والقرآن قراءة معاصرة»

تقومُ أبحاثُ هذا الكتاب المزعوم للدكتور محمد شحرور على أساس فلسفي جدلي، قد حُشِدَتْ فيها المغالطات حشداً، بحيثُ تجعلُ الباحثَ الناقدَ يموجُ في متاهاتِها، كما تجعلُ المطلعَ عليها من المثقفين يتيه في ضلالٍ بعيد، وذلك لكثرة الأخطاء والمغالطات والأغلوطات والانحرافات والخرافات التي صوّرها صاحبها بصورة النظريات، وهي لاتعدو عن كونها وهميات سفسطائية.

وحقيقة هذه الأبحاث التي أفرحتْ أصحابها فيما يرمونه من تغيير معالم الإسلام وإبطال ثوابته من خلال الدراسات القرآنية المشبوهة؛ أنّ الباحثَ والدارسَ والفاحصَ فيها يجدُ كل شيءٍ من تصوّرات الأوهامِ وتخيّلات الأباطيل بوفرة كبيرة بحيث يقلُّ حشدُ مثيلاتها في كتب المنحرفين والضالين في القديم؛ من أصحاب الاتجاهات المنحرفة من الأزارقة والجهمية والقدرية والمعتزلة والقرامطة، فهؤلاء على ماهم عليه من الضلال لم يبلغوا القدرَ الذي وصل إليها أصحابُ القراءة المعاصرة «في الكتاب والقرآن»، وكما يندرُ حشدُ مثيلاتها في كتب المستشرقين والمبشّرين الصّليبين!؟..

وقد أصبحت هذه المقولةُ في حق هذا الكتابِ المزعومِ «تجدُ فيه كلَّ شيءٍ من الخطأ، ويندرُ فيه القليلُ من الصّواب» حاشا الآيات القرآنية التي سِيقَتْ في غير مناسباتها، وذُكِرَتْ في غير مقاصدها، بحيث تُقْحَمُ في الاستشهاد بها قَحْماً.

وقديماً كانَ الفلاسفةُ والمناطِقَةُ أجهلَ النّاسِ الإلهيات والنّبوات والشرعيات التي

جاء بها الأنبياء!! وحديثاً الفلاسفةُ هم أبعدُ النّاس عن العلوم الشرعية وثوابتها وضوابطها ومناهجها!! فما ظنُ أهل الحق في مقولة «القراءة المعاصرة» «أن الفلسفةَ أمُّ العلوم قاطبة»؟! فلا غرو أنّ أصحاَب العلوم النظرية والتجريبية لايقبلونها ولايُصدِّقونها ولايرضون بها!!..

ونحن في هذا البحث من الفصل السابع في «أخطار المناهج المنحرفة في تفسير القرآن الكريم» سنذكر جملةً من كبريات الأغلوطات الواردة في هذا الكتاب المزعوم.

وحين نقول «كبريات الأغلوطات» لانستهين بالأغلوطات الصُّغرى الواردة فيه، فالباطلُ باطلٌ إن كانت قضيّته كبرى أم كانت قضيته صُغْرى، لافَرْقَ ألبتّةَ!!..

١ـ أغلوطته: أنّ «الفلسفة أم العلوم»:

زعم صاحب القراءة المعاصرة في ص ٣٢: «فإنه ليس من العبث تسمية الفلسفة بأمِّ العلوم قاطبةً» هذا زعم باطلٌ، فإنّ الفلسفة من حيث «الحكمة» لم تكن أم العلوم، لكونها نتاج تجاربَ حياتية تتفاوت بين فيلسوف وفيلسوف. ومن حيث هي «البحث في الطبعيات» فما كان سائداً في ذلك الوقت من معارف فاليوم غير مسلّم به. ومن حيث هي «البحث في الإلهيات» فهي في هذا الجانب لم تقدّم سوى الوهميات، ولم يكن الفلاسفة فيما مضى على مدى التاريخ متفقين إلى ماذهبوا إليه في حكمٍ على عَالَمِ الغيب أو البحث عن ذات الله الخالق سبحانه وتعالى. ومن الفلاسفة ـ قديماً ـ ذهبَ إلى تقديس الكواكب وعبادتها، وحديثاً من يقدّس «الطبيعة» ويهبها كل الخوارق والمعجزات.

فليست الفلسفة بأم العلوم، بل المقبول منها والصحيح فيها هو من مواليد العلوم.

٢ـ أغلوطته: أنّ «الحضارة الإسلامية لايوجد لها ثمار»:

زعم في قوله ص ٣٤: «إذا نظرنا إلى الحضارة العربية الإسلامية في الوقت الحاضر، نرى فيها عنصر الجذور متوفراً، ولكن لاثمار، لأنّها جفت ونضبت... حتى إنّ أفكار التراث اسْتُهلكت ونضبت».

وهذا الزعم لايصدر إلا من جاهلٍ غارقٍ في جهله فيما تحمله الحضارة الإسلامية من حقائقَ ساميةٍ وأصولٍ راسخةٍ لإغناء الحياة البشرية بالفكر والعطاء والرقي والازدهار والسعادة والهناء والأمن والاستقرار!!..

٣ـ أغلوطته: أنّ «الإسلام في عهد النبوة هو التفاعل والاحتمال الأول للإسلام»:

زعم في ص ٣٦: «أنّ ماحدث في القرن السابع في شبه جزيرة العرب هو تفاعل

الناس في ذلك الزمان والمكان مع الكتاب [أي القرآن] وهذا التفاعل هو الاحتمال الأول للإسلام... وقد كان هذا التفاعل إنسانياً في محتواه «إسلامياً» قومياً في مظهره... وقد قام النبي ﷺ بهذا التفاعل الأول» وفي ص ٣٨: «وقد طبقها النبي ﷺ حسب الظروف الموضوعية لشبه جزيرة العرب، حيث أن التشريع قابل للتطور وقابل للإلغاء والاستبدال ﴿يَمْحُو الله مايَشَاءُ ويُثْبِتُ﴾ [سورة الرعد آية ٣٩].

فهذه الأغلوطة ذات أغاليط كثيرة وفاحشة:

١- لم يكن فهم الإسلام في عهد النبوة هو تفاعل الناس في ذلك الزمان [القرن السابع الميلادي] فهذه المقولة كذبٌ بكذب، بل كان هو الفهم الصحيح الراسخ الثابت، فلم يكن هو الاحتمال الأول للإسلام، وإنّما هو الحقيقة الثابتة والدائمة - رغم أنف أعداء الإسلام - أبد الدهر والحياة!!

٢- لم يكن الإسلام قومياً في مظهره .. بل كان للنّاس كافّةً.

٣- ولن يصح اعتبار ماقام به النبي ﷺ حسب الظروف الموضوعية لشبه جزيرة العرب» فهذه مقالة قد أغرقت بالتّضليل والتّشغيب الذي يُدندن حوله الكثيرون من أهل الغرب «في أنّ الإسلام الذي يفهمه المسلمون في كل زمان ومكان، كان صالحاً للقرن السابع الميلادي ولشبه الجزيرة العربية» أي هو غيرُ مُوَاتٍ وغيرُ صالح للقرن العشرين، فهذه المقولة الخاطئة الظالمة ليست جديدة قد أبدعها صاحب القراءةً المعاصرة، وإنما هي مقولة أعداء الإسلام في هذا الزمان!؟..

٤- عدم الإقرار بما جاء به رسول الله ﷺ من البيانات النبوية لمعاني القرآن وهذا تنكّرٌ فاضح للسّنّة النبوية التي هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم.

٥- الزعم بأنّ التّشريع قابل للتّطوّر وقابل للإلغاء والاستبدال، كذبٌ باطلٌ، والاستشهادُ عليه بالآية الكريمة بُهْتٌ وزُورٌ. ومن له أدنى معرفة بالإسلام لايصدر عنه مثل هذا البُهتان.

٤- أغلوطته: أنّ «الجدل المادي «التطور» في القرآن»:

زعم في ص ٤٠: «أنّ قوانين الجدل المادّي وتغيّر الصيرورة «التّطوّر» هي العمود الفقري لقوانين الوجود في القرآن «النّبوّة».

فهذا غاية الضلال حيث أُقحمت المفاهيمُ الماديّة المتغيّرة والمتبدّلة في كل زمان ومكان، على ثوابت الإسلام في أخص خصائصه في «النبوة» و «القرآن» إقحَاماً بلا

أدنى مسكة من علم أو معرفة بأصول الإسلام!؟..

٥ـ أغلوطته: أن «القرآن مع الفلسفة»:

زعم في ص ٤٣ بقوله: «لايُوحد تناقض بين ماجاء في القرآن وبين الفلسفة التي هي أُم العلوم».

وهذا الزعم في غاية البطلان، وهو أشبه بقول من لايعرف ماهو القرآن، ولايعرف ماهي الفلسفة!! ومتى كان الفلاسفة يتصرون للقرآن؟! إن عامّة ماجاء به الفلاسفة مناقض للقرآن، فهم أجهلُ النّاس بالأنبياء والوحي، فحظّهم من ذلك مبخوسٌ جدّاً، فهم لم يتكلموا عن الملائكة والكتب السماوية والرسل، فهم لايعرفون عن ذلك شيئاً ألبتة، وإنّما تكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في المِلل. وإذا نُظِرَ في كلام معلمهم الأول «أرسطو» وتدبَّرَهُ العاقلُ الفاضلُ لم يُفِدْهُ إلاّ العلم بأنّهم كانوا من أجهل الخلق بربِّ العالمين.

٦ـ أغلوطته: أنّ هناك «كتاب المشي وكتاب النوم وكتاب الصلاة»:

زعم في ص ٥٣ بقوله: «فأعمال الإنسان كلُّها كُتُبٌ: ككتابِ المشي، وكتاب النوم، وكتاب الزواج، وعباداته كتُبٌ: ككتاب الصلاة والحج والزكاة والصوم، وظواهر الطبيعة كلها كتبٌ، ككتاب خلق الكون، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الموت، وكتاب الحياة، وكتاب النصر، وكتاب الهزيمة، وكتاب الزراعة، وكتاب الأنعام..».

فهذا التّصنيف والتّقسيم في غاية السّذاجة العقيمة، وكأنّ هذا الكلام موجّهةٌ إلى العجماوات التي يُراد تثقيفها لتغدو بين مثيلاتها طبقةً متميّزة!؟..

وهل في هذا الكون مَنْ رأى ـ بالطبع غير صاحب هذه المقالة ـ كتاباً هو «كتاب المشي»؟! وكتاباً هو «كتاب النوم»؟؟! وكتاباً هو «كتاب الموت» و «كتاب الهزيمة» و «كتاب الأنعام»؟!.. مَنْ يصدق بهذا الهُرَاءِ؟!..

٧ـ أغلوطته: أنّ «الحق شيء والكتاب شيء آخر»:

زعم في ص ٥٧: «ونلاحظ أنه في سورة «الرعد» عطفَ الحقَّ على الكتاب، فهذا يعني أنّ الحقّ شيءٌ والكتابَ شيء آخر، أو أنّ الحقّ هو جزء من الكتاب، وليس كل الكتاب».

فهذا الزعم الجدلي السفسطائي المراد به إثارة القلق حول قدسية «الكتاب الكريم» وإثارة الشبهات حول بعض قضاياه بداعي أن الحق ليس هو كل الكتاب، وليس الكتاب هو كل الحق، فالنتيجة «الباطلة» أنّ في الكتاب ماليس بحق؟؟!!.. فأيّ انحراف

فكري هذا الذي بلغه هذا المبلغ في جدله الباطل!!؟..

٨ـ **أغلوطته: أنّ «آيات الإرث ليست من كلام الله .. آيات الرسالة ليست حقاً.. الله لايعلم نفسه...»:**

زعم في ص ٣٧ وص ٧٨: «فإذا سأل سائل: هل آية الإرث من القرآن؟ فالجواب: لا، هي ليست من القرآن» وفي ص ٥٨: «.. في الكتاب توجد الآيات المحكمات «آيات الرسالة» وهي ليست حقاً». وفيها: «إن الله مطلق ومعلوماته مطلقة.. والله ليس بحاجة إلى أن يعلم نفسه أو يهدي نفسه»؟!..

فنفي آية الإرث من القرآن في غاية الإلحاد في آيات الله تعالى، والعياذ بالله تعالى من الضلال والإضلال!؟..

وكذلك الزعم «بأنّ آيات الرسالة ليست حقّاً» في غاية «الأبلسة» التي يُوسوس بها إبليس اللعين!!؟..

وكذلك الزعم «بأنّ الله ليس بحاجة إلى أن يُعلِّم نفسَهُ أو يهدي نفسَهُ لأنه مطلقٌ ومعلوماته مطلقة!!؟» هو في غاية الشيطنة الجدلية في ذات الله تعالى، فهل في هذه التسمية المفتعلة المصطنعة سوى التجرّؤ على الله تعالى؟!.. والعياذ بالله من ذلك..

ومثل هذه المزاعم الباطلة مافي الأغلوطة التالية:

٩ـ **أغلوطته: أنّ «الله ليس عربياً ولاتركياً ولا..»:**

زعم في ص ٦٢: «وبما أنّ الله سبحانه وتعالى منزّهٌ عن الجنس فهو ليس عربياً ولاتركياً ولا.. ولكن قد جاء النصّ من الله أن الإنزال عربي. فهذه الصيغة للكتاب التي بين أيدينا وهي صيغة عربية محدثة بلسانٍ إنساني وغير قديمة، وذلك ليذكر بها القرآن من النّاس».

فهذا الزعم السفسطائي على مافيه من تقوّل على الله تعالى بأنه ليس عربياً ولاتركياً ولا.. ولا.. ففيه من الباطل كأمثال الجبال التي تبلغُ قمتُها إلى نفي أن يكون القرآن هو كلام الله تعالى، بزعم أن القرآن عربي فلو كان كلامَ الله لكان الله عربياً؛ فالنتيجة «الباطلة» القرآن ليس كلام الله لأن صيغته عربية وهي صيغة محدثة بلسان إنساني وغير قديم؟! وهنا تساؤلٌ واردٌ على هذه المقدمة الإبليسية ذات النتيجة الشيطانية: مَنْ هو المستفيد من إثارة هذه الأغاليط حول قدسية القرآن العظيم؟ جوابُها واردٌ بديهة في عقل كل مؤمن غيورٍ على كتاب الله تعالى: «المستفيد من إثارة هذه الأباطيل جميعُ الكافرين الذين لايؤمنون بكتاب ولايُصدِّقون بكلماته التي أودعها في قرآنه»!!.

١٠ـ أغلوطته: أنّ «اليهود «بنو إسرائيل» هم أصحاب الصراط المستقيم»:

زعم في ص ٦٦: «لقد ورد في سورة فاتحة الكتاب ﴿اهدنا الصّراطَ المستقيم﴾ [الفاتحة ٤] وحدَّد هذا الصّراط في قوله: ﴿صراطَ الذين أنعمتَ عليهم﴾ فَمَنْ هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، وجاءهم الصراط المستقيم لأول مرّة؟ إنّ النّاسَ الذين أنعم الله عليهم بالصراط المستقيم لأول مرّة هم بنو إسرائيل: .»

فهذا الزعم الباطل الذي يعطي «اليهود» قدسيةً قرآنيةً جاءت في الفاتحة التي يتلوها المسلمون في كل ركعة من صلواتهم ـ والتي لاتصح الصلاة بغيرها ـ من أنها تُعلي من شأن«بني إسرائيل» فيما تحمله من أمر المسلمين أن يكونوا على هُدَاهم فهم أصحاب الصراط المستقيم، والذي يعلمه المسلمون قاطبةً أنّ الذين أنعم الله عليهم في هذه الآية الكريمة من سورة الفاتحة قد بيّنهم الله في قوله سبحانه في سورة (النساء آية ٦٩) ﴿فأولئك مع الذين أنعمَ الله عليهم مِنَ النّبيين والصّدّيقين والشّهداءِ والصّالحين﴾ وفي سورة (المائدة آية ٥٨) ﴿أولئك الذين أنعمَ الله عليهم مِنَ النّبيّين مِنْ ذُرّيَّةِ آدَمَ﴾ فالذين أنعمَ الله عليهم هم هؤلاءِ، فلِمَ تَجَاهلُهُم والانصرافُ إلى أنهم هم بنو إسرائيل؟ والأنبياء كانوا أسبق في الوجود من بني إسرائيل؟

والثابتُ عن رسول الله ﷺ أنّ المغضوب عليهم (في سورة الفاتحة) هم اليهود، واليهود اليوم وقبل اليوم هم الذين يزعمون بأنهم هم بنو إسرائيل مع أنّ أنسابهم قد ضاعت وتلاشت في إباحتهم للزنا، فمن يُصَّدق منهم بأنه إسرائيلي؟! وعلى فرض ثبوت هذا النسب المزعوم؛ هل المطلوب من المسلمين الاهتداء بمن ثبت نسبُهُ أنه من بني إسرائيل؟ لأنّهم هم الذين أنعمَ الله عليهم بالصّراط المستقيم لأول مرّة؟! ومَنْ يقول إن بني إسرائيل كانوا على الصراط المستقيم، والقرآن الكريم أثبتَ كفرهم وطغيانَهم وتَمرّدَهم على أنبيائهم وتحريفَهم لكلام الله، وقتلَهم الأنبياء، وأكلَهم الرّبا والأموالَ بالباطل، وهم اليوم يعيشون في الأرض بغياً وفساداً وضلالاً، فهؤلاء الأشرار الفجّار في نظر «صاحب القراءة المعاصرة» هم أصحاب الصراط المستقيم الذين كانوا أول من أنعمَ الله عليهم؟! ليكونوا القدوة للمسلمين؟؟!!..

فأيُّ بهتان بلغَ به هذا الكَذُوب هذا المبلغ الفاحش من التحريف لكلام الله تعالى؟!!...

١١ـ أغلوطته أن: «الله أحادي في الكيف.. وواحد في الكم..»:

زعم في ص ٧٢: «إنّ الله تعالى أُحاديٌّ في الكيف.. وواحدٌ في الكَمْ.. وأنّ الله

ليس عربياً ولا انكليزياً.. وأنّ الوجود المادّي «الموضوعي» ونواميسه العامّة هي عين كلمات الله، وكلمات الله هي عين الوجود ونواميسه العامّة» كما يزعم في مقدمة هذا الافتِئَات على الله تعالى وعلى كلماته فيقول: «لو كان النّصُّ القرآني المتلو أو المكتوب الموجود بين أيدينا هو عين كلام الله فهذا يعني أنّ الله له جنس وجنسه عربي، وأن كلام الله ككلام الإنسان يقوم على علاقةِ دالٍ ومدلولٍ..» وهذا الزعم المركب ظاهر البُطلان ابتداءً من إطلاق «الأحادي في الكيف والواحد في الكم» على ذات الله تعالى: والله تعالى لايُسَمى إلاّ بما سَمى به نفسه في القرآن، ووصولاً إلى أنّ القرآن ليس كلام الله، فالمقدمة التي دخل بها باطلةٌ، والنتيجةُ التي خرج بها مكذوبة خاطئة، تعالى الله عمّا يصفه المبطلون علواً كبيراً، وتعالى كلامُهُ الحكيم عمّا يصفه الكاذبون علواً كبيراً!!..

١٢ـ **أغلوطته أن: «القرآن الذي أنزل في رمضان ليس هو القرآن المجيد»:**

زعم في ص ٧٣ فقال: «القرآن الحكيم هو القرآن العظيم نفسه، وهو الذي أنزل في رمضان، وليست عبارة «قرآن مجيد» هي بالضرورة (القرآن العظيم) لكنها من جنسه، وتعني جزءاً منه لاكله».

فهذا الزعم قمة السفسطة الجدلية العقيمة القائمة على التوّهم والتّخيّل!!؟..

١٣ـ **أغلوطته أن: «القرآن من قرن القانون العام مع القانون الخاص»:**

زعم في ص ٧٧ بقوله: «وسُمّي [القرآنُ] قرآناً لأنّه قَرَنَ القانون العام للوجود مع القانون الخاص، مع خبط تطوّرٍ سُيِّرَ سيرَ التاريخ الإنساني».

فهذا الزعم أيضاً من عجائب الجدلية الماديّة التي أقحمها صاحب القراءة المعاصرة على القرآن العظيم إقحاماً بلا أدنى مَسْكةٍ من فهم أو أثارةٍ من علم!؟..

أغلوطته أن: «القرآن المجيد هو القوانين العامة الناظمة للوجود»:

زعم في ص ٧٤ في تفسير قول الله تعالى في سورة البروج آية ٥١ـ ٥٢ ﴿بلْ هو قرآنٌ مجيدٌ. في لوحٍ محفوظٍ﴾: أن «هذا الجزء هو القوانين العامّة النّاظمة للوجود كله ابتداءً من خلق الكون (الانفجار الكوني الأول) وفيه قوانين التّطوّر «الموت الحق» وتغيّير الصيرورة «التسبيح».

وفي ص ٧٨: زعم «أنّ كلمات الله هي عين الموجودات ونواميسها العامة والخاصّة حين وقوعها...» وفي ص ٧٤: «إن كلمات الله هي عين الموجودات، أي الأشياء..»

وفي ص ٧٤ عن اللوح المحفوظ: «وفي اللوح المحفوظ يوجد القانون الصارم لهذا الوجود».

فهذه السفسطة العقيمة التي اتخذها صاحب القراءة المعاصرة مدخلاً لتقسيماته وتفريداته يستغني عنها الجهلاء، ويمقتها العلماء، ويكرهها الفُضَلاء، فلِمَ هذا العَبَثُ الغاشم في كتاب الله تعالى وآياته؟!..

١٥ـ أغلوطته أن: «القرآن المتغيّر: الإمام المبين»:

زعم في ص ٧٤ فقال: «الجزؤ المتغيّر من القرآن.. هذا الجزء عبّر عنه بأنّه مأخوذ من إمامٍ مبين.. فالإمام المبين يحتوي على شقين: أحداث وقوانين الطبيعة الجزئية: مثل تصريف الرياح واختلاف الألوان»، «فآيات الله تختصُّ بظواهر الطبيعة.. وهذه الأحداث ليست مبرمجةً سلفاً «أي في الكتاب المبين» وليست قديمة».

والنوع الثاني من الإمام المبين: «أفعال الإنسان الواعية، وهو مانسميه القصص.. وهي تتبع أفعال الإنسان المسجلة عليه بعد وقوعها، يتمُّ في (إمامٍ مبين) ليميّزه عن (لوحٍ محفوظ) وفي ص ٧٦: «القصص وظواهر الطبيعة كتابٌ مبين» «إنّ كليهما أوحي من الإمام المبين، وليست من اللوح المحفوظ».

فهذه المزاعم المتخيَّلةُ المختلقَةُ في القراءة المعاصرة من أوهام الضلالة التي تُغرق صاحبها في أوحال من الأراجيف على القرآن الكريم، وهي ليست غريبةً عن المتفاعلين مع الفلسفة الجدلية الماديّة الذين ينظرون إلى القرآن نظرة ماديّة تجعلهم ينزلقون في التّصوّرات الوهمية والأساطير الخيالية.

والمقصود من هذا السفسطة الجدلية نزع الثوابت عن الحقائق القرآنية ـ وهذا حتماً غير كائن ـ وبالتالي جعل القرآن مادّة ماديّةً قابلة للتطوّر وفق الجدلية المادية، وهذا من المستحيل وجوده.

١٦ـ أغلوطته أن: «الإعجاز في القرآن وليس في أم الكتاب»:

زعم في ص ٧٧ فقال: «نرى أنّ الإعجاز جاء في القرآن فقط، وليس في أم الكتاب، إذ أن أم الكتاب ذاتية..».

وهذا الزعم ظاهر البطلان لنفي الإعجاز عن أم الكتاب، وأم الكتاب هي الآيات المحكمات، كما في قوله تعالى في سورة آل عمران آية ٧: ﴿منه ـ أي القرآن ـ آياتٌ محكمات هنّ أمُّ الكتاب..﴾، فالتفريق بين القرآن وأم الكتاب من السفسطة الباطلة.

١٧ـ أغلوطته أن: «القرآن هو القوانين المطلقة للوجود»:

زعم في ص ٨٩ فقال: «القرآن وفيه كلام الله، قوله الحقُّ، الذي هو القوانين المطلقة للوجود» وفي ص ٩١: «القرآن كتاب الوجود المادّي والتاريخي، لذا فإنه لايحتوي على الأخلاق ولا التقوى».

وبطلان هذا الزعم ظاهر لايعوز الدحض لعدم قيامه على الحقيقة. ومؤدّاه جعل القرآن كتاباً مادّياً، وهذا باطل قطعاً، فالقرآن الكريم كما هو معلوم بالضرورة أنه كلام الله تعالى أتى بحقائق الإسلام والإيمان والعقيدة والشريعة قد أتى أيضاً بالأخلاق والتقوى. وانظر إلى مايلي من مقولات الجدلية المادية في القرآن العظيم:

١٨ـ أغلوطته في: «فصل القرآن عن السلف لكونه كتاب الوجود المادّي»:

زعمَ في ص ٩١ فقال: «القرآن كتاب الوجود المادّي والتاريخي» و «إننا في القرآن والسبع المثاني غير مقيّدين بأيّ شيءٍ قاله السّلفُ».

فظاهره الحقد على السّلف الصّالح رضي الله تعالى عنهم وذلك يفوحُ من هذه الكلمات الخاطئة، وهي ليست غريبة عمن انسلخ عن أصالة الإسلام، وتنكرّ لمن فتح البلاد بعد فتح قلوب العباد بهداية القرآن وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وهم الصحابة الأمجاد وتابعوهم بإحسان.

١٩ـ أغلوطته في : «تحريف معنى العرش والكرسي»:

زعم في ص ١٦٤ ـ ١٦٥ في تفسيره للعرش بأنه «الأمر والنهي» وزعم في قوله تعالى ﴿وكانَ عرشُهُ على الماء﴾ الهيدروجين «مولّد الماء». . كان أمر الله على مولّد الماء. . ؟!. . وزعم في قوله تعالى: ﴿وسع كرسيه السّمٰواتِ والأرضَ﴾ فالكرسيّ هنا من الكرّاسة، لاالكرسي الذي يجلس عليه الإنسان. فهاهنا نفهم ﴿وسع كرسيُّهُ﴾ أي وسع علمه كل الموجودات، وذلك لكي يأمر وينهى». ويُفسّر الكرسي أولاً فيزعم «الكرسي جاء من «كَرَسَ» فتقول: كرستُ وقتي لهذا العمل. . ومن هنا جاءت الكرّاسة والكرسي، والكرّاسة هي مايدوّن عليها معلوماتٌ ما. .».

فهذا التأويل الباطل للعرش والكرسي هو بأم عينه فيما ذهب إليه الجهمية الضّالون قديماً.

فالبحث العلمي يوجب على صاحبه أن لايتقوّل بشيء لاأساس له من الصحة، فهل صاحب القراءة المعاصر قد وقف على حقيقة العرش والكرسي حتى يزعم هذا الزعم؟

أم هو التقول في آيات الله تعالى بغير هدى ولاكتابٍ منيرٍ؟!!..

٢٠ـ أغلوطته أن: «علماء الإسلام لم يقدّموا سوى الوهم»:

زعم في ص ١٨١ فقال: «إنّ هؤلاء العلماء الرّبّانيين ماذا قدموا للناس؟ وبأيّ شيءٍ أفادوا النّاس ؟ الجواب: لاشيء سوى الوهم» هكذا ينظر إلى علماء الإسلام!..

في حين يعظم علماء الغرب فيزعم في قوله: «أمّا العلماء الرّبّانيّون الحقيقيون فقد قدَّمُوا للنّاس البنج والمحرك البخاري والعمليات الجراحية والأدوية ووسائل الاتصال... وكل ماتنعم به الإنسانية من نِعَمٍ من نتاج هؤلاء العلماء الرّبّانيين». وهو يتغافل عمّا قدمه العلماء المسلمون من إبداعات شهد لها جميع العقلاء..

٢١ـ أغلوطته في أن زعمه: «الراسخون في العلم هم علماء الطبيعة والفلاسفة»:

زعم في ص ١٨٣و ١٩٢و ١٩٣و ١٩٤ في تفسير قوله تعالى: ﴿والرّاسِخُون في العلم﴾ (سورة آل عمران آية ٧): «يجب أن نفهم أنّ الراسخين في العلم هم مجموعة كبار الفلاسفة وعلماء الطبيعة وأصل الإنسان وأصل الكون وعلماء الفضاء وعلماء التاريخ مجتمعين..»، «فالراسخون في العلم هم من النّاس الذين يحتلون مكان الصدارة بين العلماء والفلاسفة، وهؤلاء أمثال.. إسحاق نيوتن، أنيشتاين، تشارلز داروين [صاحب نظرية القرد- الإنسان] كَانْتْ، هجيل».

هكذا يذهب في قراءته المعاصرة «في الكتاب والقرآن» إلى تعظيم غير المسلمين، والتنكر لعلماء الإسلام الذين يجهل مكانتهم وماقدموه في سبيل الإسلام ونفع المسلمين كلَّ الجهل، أو هو يتجاهلهم إرضاءً لمن يكرهونهم من أعداءِ الحقّ والعلم والخير والفضيلة.

وفي ختام هذا البحث لابدّ من القول في هذا الكتاب الذي حشده واضعوه وأظهروه باسم المزعوم «محمد شحرور» تحت غطاء «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» المئات من الأغاليط التي زرعوها في صفحاته، وساقوا إليها الآيات القرآنية سوقاً بلا ضابط ولا رابط، فلا تخلو صفحةٌ منه من الأغلوطات الجدلية السفسطائية المعروفة بـ «الحكمة المموهة» ذات المقدمات المغلوطة والنتائج الخاطئة التي تُرْبك المطّلع عليها. ولذا ننصح بعدم قراءته حفاظاً على العقيدة والإيمان من أن تَشُوبَهُمَا شُبهاتُ هذه الضلالات المنشورة على تلك الصفحات التي سُوِّدتْ في التاريخ الأسود للمنحرفين عن طريق المتّقين والصّالحين والصّادقين من العلماء العاملين.

وبهده الإشارات إلى تلك الاغلوطات مع ماقدمته فيما سبق من المقدّمات أكون قدقمتُ باليسير القليلِ في الدفاع عن كتاب الله تبارك وتعالى، فاللّهمَّ اجعله عندك مقبولاً ولعبادك نافعاً وبالله التوفيق لِما يحبه ويرضاه.

البحث الثامن:

معالم الانحراف في فهم القرآن والإسلام

أسباب الانحراف: [1]

إن أسباب الانحراف في فهم الإسلام تأتي من فئتين من الناس هم العلماء والعامة. ولاشك أن الانحراف الذي يتسبب به العلماء أشد خطراً من ذلك الذي يحدثه العامة، لأن انحراف العامة يُصَحّح، أما انحراف العلماء فإنه يُتّبع على أنه هدى ودين. وتحريف اليهودية والنصرانية كان معظمه من الرهبان والأحبار.

وفيما يلي عرض لأهم الأسباب التي نشأ عنها نوع الانحراف الخاص بالإسلام، والذي سيتبين لنا من خلال البحث أنه ليس تحريفاً بالمعنى الصحيح، ولابالطريقة التي وقعت في الأديان الأخرى.

١ـ انحراف العلماء، وهذا الانحراف يأخذ اتجاهين:

أولاً: عدم كفاءة أهل العلم الشرعي، وهذه ناحية علمية بحتة لها مظاهر منها:

أـ ضعف التحصيل العلمي عندهم وعدم زيادته، لقلة القراءة والدراسة، مما أدى إلى تولي أناس غير مؤهلين وغير أكفاء لمناصب التعليم والتدريس الشرعي والخطابة والوعظ، قال ﷺ «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل..»[2]، وقال عليه السلام «لاتقوم الساعة حتى يقبض العلم.»[3].

ب ـ عدم اعتماد المراجع والمصادر الأصلية، فلا يبنون علومهم على الأصلين وهما الكتاب والسنة، وبعضهم يعتمد الفقه والفقه فحسب، وآخرون يأخذون العلم من غير مصادره ابتداءً، فيأخذونه من كتب التاريخ والأدب مثلاً!!

---

(١) معالم الهدى إلى فهم الإسلام ص١٠ـ١٦/ للدكتور مروان إبراهيم القيسي/ ط١/ المكتبة الإسلامية ـ عمان/ بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما/صحيح الجامع الصغير وزيادته/ ٢٢٠٢/.

(٣) أخرجه البخاري وأحمد وابن ماجه/ صحيح الجامع الصغير وزيادته/ ٧٣٠٥/.

ثانياً: الانحراف الناتج عن البواعث والدواعي الفاسدة التي تحمل أصحابها على التأويلات الباطلة للقيم الاسلامية وتشويه التصور الإسلامي الصحيح كما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وفي مقدمة هذه الدواعي:

أ ـ طلب رضاء السلطة السياسية لتحصيل مركز نفوذ أو رفع مستوى مادي.

ب ـ الانتصار لرأي حزب ديني أو جماعة، فيعمد بعض المتسبين للعلم إلى التأويلات الفاسدة للنصوص الدينية لدعم رأي معين.

ولقد أصاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال «يهدم الإسلام زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين»(١).

٢ـ دخول أناس جدد في الإسلام من أمم شتى وأديان مختلفة. وحيث أن الأديان السابقة تظل تمارس تأثيراً أو نفوذاً ما، فإن ذلك قد يمتد تأثيره على الدين الجديد، بأن ينقل الداخلون إليه من تلك الأديان عناصر معينة تحت ضغط التأثير النفسي لاعن قصد سيء، ولذا يجب التنبيه لهؤلاء الداخلين الجدد في الإسلام وصهرهم في بوتقة الدين في أسرع وقت، ولاشك أن القصد السيء، قد يكون من بعضهم فيحاول أن يفسد الدين الذي تظاهر باعتناقه (الإسلام). غير أن هناك أسباباً أخرى عند بعضهم وهي عن غير قصد، منها: الفهم الناقص للإسلام أو التأثير المستمر للدين السابق مما يدفع به إلى محاولة التوفيق بين دينه الأول والإسلام في اوجه معينة، أو أنه يميل لشيء في دينه فيحاول أن يجد له دليلاً في الإسلام ولو من وجه ضعيف.

٣ـ الملائمة بين الفكر الدخيل والاسلام:

فقد تأخر المسلمون بالثقافات الأجنبية الأخرى مما أدى إلى تسرب الفكر الأجنبي: الوثني (الإغريقي أو المصري) والديني الشرقي البوذي، البرهمي، الزرادشتي المانوي، المسيحي، اليهودي، الفلسفي اليوناني. وهذا التسرب خلق ما يأتي:

أـ المذاهب الفلسفية التي منها:

١ـ الاتجاه الفلسفي الطبيعي الذي يمثله أبو بكر الرازي.

٢ـ الاتجاه الفلسفي لما بعد الطبيعة الذي يمثله ابن سينا في المشرق، وابن رشد في المغرب.

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه ج١/ ٧١/وصححه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في المشكاة ج١/ ٨٩/.

٣ـ الاتجاه الفلسفي الاشراقي الذي يمثله السُّهْروَرْدي المقتول.

ب ـ كما ساعد الفكر الأجنبي الدخيل على نشأة:

١ـ التصوف الزهدي الذي يمثله الحارث المحاسبي.

٢ـ التصوف الفلسفي الذي يمثله الغزالي.

٣ـ التصوف الهندي المسيحي الأفلاطوني الحديث الذي يمثله ابن عربي وابن سبعين والحلاج.

لقد ركزت المعتزلة على الفلسفة اليونانية، يقول الأستاذ أنور الجندي بهذا الخصوص «فإنها كانت المحاولة الكبرى لاخراج الإسلام عن جوهره وإذابته ودفعه الى نفوذ الفلسفة اليونانية لتغتاله بعذ أن اغتالت اليهودية والمسيحية من قبل»(١) ويقول المؤلف نفسه في موضع آخر من كتابه: «ولربما اشاد المستشرقون بالمعتزلة من أجل اتصال مذهبهم بالفلسفة اليونانية وكان لهم مطمع ان تأكل الفلسفة اليونانية الإسلام»(٢) .

على أن من أبرز الدوائر الاسلامية التي تأثرت بالثقافات والديانات الأخرى هي دوائر التصوف. فقد قبل التصوف الاسلامي عقائد وأفكاراً ترجع الى المسيحية والافلاطونية الحديثة والبرهمية وبعض الديانات الفارسية القديمة.

٤ـ دعوى الدليل العقلي وتقديس العقل.

وقد سرت هذه النزعة بين الكثير من المسلمين، فظنوا خطأ أنها من الاسلام.

ولاريب أن الإسلام اعطى العقل مكانة مميزة، لكن ليس إلى الحد الذي وصل إليه بعضهم متمثلاً فيما يأتي:

أـ إخضاع الدين للعقل وجعل الأخير مقياساً للدين وحكماً عليه. فما يقبله العقل مقبول وما ينكره العقل مرفوض. بحيث يتم تجريد الاسلام من دليله النقلي وتفريغه في مضمون عقلي فلسفي. فمن هؤلاء قديماًالاشاعرة وكثير غيرهم من المتكلمين قدموا العقل واوّلوا النصوص تبعا له. والمعتزلة لم يكتفوا بذلك ايضاً بل إنهم حاولوا إعلاء العقل وحده وأسرفوا في ذلك حتى كادوا أن يخرجوا عن الاتجاه الإسلامي العام. وقد اتسم ذلك بالغلو في التأويل مما أدى إلى تصورات منحرفة عن الحقائق القرآنية

---

(١) شبهات في الفكر الإسلامي: أنور الجندي/ ص٤٠/ ط دار الإعتصام ـ القاهرة.

(٢) شبهات في الفكر الإسلامي/ ص٤٥/ .

ومخالفة للأصول الصحيحة في الإسلام.

ب ـ جعل العقل أساساً للتشريع وبناء أحكام شرعية جديدة على أساس ما يظن أنه مقصود الشارع ولا شك أن الشارع بيَّن الحكمة أحياناً من بعض الأحكام، لكن الحكمة ليست فقصود الشارع كله، فالعقل غير قادر على الإحاطة المطلقة بالحقائق التي أوردها الدين وأسرارها.

٥ـ التهاون في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ الدعوة.

ويحصل ذلك بأن لاتهتم الأمة في فترة من الزمان بأمر الدين والأخذ بتشريعاته، ويتهاون الناس في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتنشأ بالتدرج عادات وقيم لاتمت للإسلام بصلة، ويزداد الأمر خطورة مع مرور السنين حينما تزداد نسبة هذه العادات غير الإسلامية، حتى يصبح المجتمع في نهاية الأمر ليس له من الإسلام إلاّ اسمه.

وهذا التهاون سببه الأمة كلها، لكنه إهمال له خطورته وضرره البالغ إذا كان من العلماء، ولذا تعظم خطورة مهمتهم في ظل هذه الظروف، قال تعالى: ﴿فلولا كان من القرون من قَبلكُم أولو بقية ينْهَونَ عن الفسادِ في الأرضِ إلا قليلاً ممن أنجينا مِنهم﴾ [هود:١١٦] وقال تعالى: ﴿كانوا لايتناهَونَ عن منكرٍ فَعَلوه لبئسَ ماكانوا يفْعلون﴾ [المائدة:٧٩]

٦ـ الادعاء بأن الدين هو أمر آخر غير العقل بطريقة توهم أن الدين ليس فيه أدلة وبراهين عقلية، وأنه بحاجة لاثبات صدقة إلى أدلة عقلية خارجة عنه. وهذا ما ظهر قديماً ومازال سائراً فيما يظهر من تقسيم الأدلة الى عقلية ونقلية. ومثل هذا التفصيل بدعة وهو فكرة دخلت على المسلمين من اللاهوت المسيحي الذي استعمل العقل اداة لدعم الدين ونصرته، لكن الأمر يختلف في الإسلام، اذ أن القرآن هو المدلول عليه وهو الدليل، وهو المشهود له وهو الشاهد، فالقرآن مليء بالأدلة العقلية التي سماها القرآن امثالاً، قال تعالى: ﴿وتِلْكَ الأمثالُ نضرِبُها للناسِ لَعَلهُم يَتفكَّرُون﴾ [الحشر: ٢١].

اننا ولاشك لانقصد ان نرفض المنهج العقلي، لكننا لانرى أي تناقض بين العقل والنقل، فالمقاييس الشرعية هي أيضاً عقلية. ولهذا كان علماء السلف لايرون أي تناقض بين الأدلة الشرعية والعقلية، وبالعكس فهم يرون ان كل من خالف صحيح المنقول فقد خالف ايضاً صريح المعقول.

فالحجة الشرعية الصحيحة لاتناقض الحجة العقلية الصريحة، ودلالة القرآن عقلية تماماً كما أنها شرعية.

إن الكون خلق الله والقرآن كلام الله فكيف يمكن ان يكون تناقض بين خلق الله وبين كلامه، والمصدر واحد. ولذا فإن مايثار بين الفينة والأخرى من ضرورة تقديم الدين للناس على أساس عقلي بحت وإلا فإن الأجيال المعاصرة سترفضه، إن كان هذا التصور ينطبق على الأديان الأخرى فإنه لاصلة له بالإسلام ولذا فإن الأمر ليس كما يقول محمد حمدان: «إن الاعتقاد التصديقي المتأتي عن الايمان الديني، لم يعد في الزمان الحاضر قادراً على كبت تساؤلات الانساني بسبب مااستجد من نظريات فكرية حديثة اهمها تلك التي تنسف المعتقد الديني من أساسه وتدعوا لأخذ الحقائق من العقل ومما يمليه واقع الانسان الحياتي والتاريخي»[1] ويستمر المؤلف في موضع آخر عارضاً حلولاً لهذه المشكلة التي لاوجود له أصلاً ثم يخلص إلى مايلي:

«وخلاصة القول: إن أحوج مانحتاج إليه هو شرح الدين بطريقة فكرية تتلاءم وثقافة هذا العصر لتقربه من عقول شبابنا المتعلم وتطرحه كعقيدة».

٧ـ الضعف العام في الوعي والتعليم الديني عند عامة الناس. ويعود ذلك إلى انحسار التعليم الديني في العالم الاسلامي، وعدم إقبال الناس عليه نتيجة للإقبال على العلوم التي تَدُرُّ أموالاً ومادة، الشيء الذي نتج عنه جهل واسع النطاق بين أبناء الأمة بالإسلام، والجهل أصلُ كل داءٍ وسبب كل انحراف وخطأ، فتمسك الناس بعادات اجتماعية لاأصل لها في الدين ظنوها مع ذلك من الإسلام، كما تعبدوا الله. بشعائر دينية لاأصل لها في الشريعة.

---

(١) الفلاسفة والفكر الإسلامي: محمد أبو حمدان/ ص٣/ ط دار الكتاب اللبناني ـ بيروت.

البحث التاسع:

ماذا يعني التجديد في الإسلام[1]؟

«يجب التنبيه لجميع المسلمين إلى ضرورة القيام بصيانة الإسلام من الأفكار الأجنبية الدخيلة، ومقاومتها بنشر علوم الكتاب والسّنّة بين المسلمين، وهذه مسؤولية كل مسلم.. قال الله تعالى في سورة البقرة آية ١٤٣: ﴿لِتكُونوا شُهَدَاءَ على النّاسِ ويكونَ الرَّسَولُ عليكُمْ شهيداً﴾!.

ما من شك أن التجديد لايعني التغيير أو التحول عن المبادىء والأهداف، والتبعية لجميع التيارات الفكرية أو المادية أو الذهاب مع الأهواء والشهوات، لأن هذا لايسمى تجديداً بل يسمى انحلالاً وتفككاً وذوباناً وموتاً. لأن جميع الأديان والمذاهب العالمية والأحزاب الكبرى لايمكنها أن تثبت ذاتيتها وتفرض وجودها وتدعم وسائل بقائها إلا إذا كان لها دستور واضح ومبادىء محدودة وأهداف معينة محترمة ومنهاج حاكم لامحكوم.

كما أن التجديد لايعني الإتيان بشيء جديد أو سلوك طريق جديد، فهذا إنما هو خلط بين الإسلام وغيره وتوفيق بين الإسلام ومايناقضه، في حين أن التجديد يعني تنقية الإسلام من العناصر الأجنبية الدخيلة ولايعني التوفيق بينها وبين الإسلام.

والحق أن تجديد الإسلام هو الإتيان به جديداً كما كان، ولايكون ذلك إلا بعد درس بعض معالمه. فالتجديد ارتقاء وتقدم بالأمة لتسلك طريقها مرة أخرى، وهذا لايكون مرة واحدة بل هو ضروري كلما ابتعد المسلمون عن الصحيح الأصيل المتوارث من لدن رسول الله، قال ﷺ: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[2].

---

(١) معالم الهدى إلى فهم الإسلام ص١٠٩ـ١١٢/ للدكتور مروان إبراهيم القيسي/ ط١ المكتبة الإسلامية ـ عمان/ بتصرف يسير.

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود في سننه برقم ٤٢٩١/ وصححه الشيخ محمد ناصر الدين في الجزء الثاني من الأحاديث الصحيحة ج٢/ ١٥٠/.

إن لفظ الحديث يتضمن الأمر والحث على التجديد والتشويق إلى احراز هذه الفضيلة العظيمة. فالحديث كقوله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ [الآية ١٤١ النساء] فالآية خبر بمعنى أنه لم يجعل ذلك شرعاً لنا، ولكنها تفيد النهي أيضاً. ومن هنا فإن تجديد مسؤولية الأمة وهو فرض كفاية، على العلماء أن يقوموا به وإلا انقلب إلى فرض عين وأثمت الأمة كلها بإهماله. قال ﷺ: «ان الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء. قيل: من هم يارسول الله قال: الذين يصلحون اذا فسد الناس»[1] .

غير أنه مما يجب ان يلفت النظر إليه أن التجديد بمعان معينة مرفوض، فالتجديد بمعنى التطوير والتطور، تبعاً لتقدم الزمان والعصر أمر لاتقره الشريعة، فالأحكام الشرعية لاتتغير بتغير الأزمنة، لأن الزمان ليس عامل تغيير بالنسبة للأحكام.

أما تغيير الحكم للمسألة الواحدة بتغيير العلة فهذا ليس تطوراً وتغيراً في الشريعة بل هو أحد أهم خصائصها وهو المرونة. وحتى هذه المرونة لاتتسم بها مبادىء الإسلام كلها. فهناك مبادىء ثابتة لايمكن أن تتغير بتغير الزمان والمكان، ويجب حتماً أن لايلحقها تطّور تشريعي.

فيجب إذن أن نفرق بين الجوهري من الدين وهو أصوله التي تضمنتها نصوصه الصريحة الواضحة مما يعد دستور الاسلام، وبين أحكامه المبنية على علة متبدلة أو عرف متغير أو مصالح اقتضتها الحاجة. فأما ماهو جوهري فإنه خالد باق لا يقبل التغير، وأما ماعداه فإن أحكامه قابلة للتغير لاللتطور، وهذا التغيير محكوم بعلة الحكم، لابحكمة الحكم.

إن الإسلام فكر متكامل كامل قادر ذاتياً على الاستجابة لكل المشاكل المتجددة، فلا حاجة إلى إدخال عناصر غريبة عليه بقصد تطويره، لأن إدخال هذه العناصر يعني أنه غير كامل وغير قادر، هذا إذا كان بحاجة لهذه العناصر، وإن لم يكن بحاجة إليها فلا فائدة منها.

إن تطويع العقيدة أو الشريعة أر أي مظهر منها لدعاوي التطوير الخاطئة هي إدانة للإسلام بأنه غير كامل. هذا إذا افترضنا حسن القصد، أو على أسوأ الأحوال هي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم٢٣٢/ ١٤٥/ بأخصر مما هنا/ انظر الأحاديث الصحيحة رقم١٢٧٣/ .

عملية مقصودة ترمي إلى تشويه الإسلام وتحريف مساره الصحيح وتمييع الثابت منه ليلائم الأهواء البشرية المتبدلة والمتغيرة.

ولاريب أن هناك فجوة بين الإسلام والواقع الذي تعيشه البشرية، وحتى تزول هذه الفجوة: فأمامنا ثلاثة حلول يجب أن نختار منها واحداً؟!

١ـ أن يكيَّف الواقعُ لكي يتلاءم مع الإسلام.

٢ـ أن يكيَّف الإسلام لكي يتلاءم مع الواقع.

٣ـ أن يحدث التكييف بقدر متساوٍ بين الاثنين.

وأنه مما لايحتاج لبرهان أو دليل أن متطلبات الحياة متجددة، وهذا التجدد دائم مستمر. والسؤال الذي يطرح نفسه بهذا الصدد هو: هل تخضع الشريعة لمتطلبات الحياة المتجددة، أم تخضع متطلبات الحياة المتغيرة والمتجددة للشريعة؟ ويمكننا أن نضع السؤال بطريقة أخرى: هل نخضع المتغير للثابت أم نخضع الثابت للمتغير؟. إن الثابت إذا خضع للمتغير لم يعد ثابتاً بل أصبح متغيراً، وبالتالي فإنه لم يعد صالحاً لأن يخضع له المتغير.

وما لاريب فيه أن العقل البشري متفاوت ومختلف، بل العقل الواحد متغير ومتفاوت. ومن غير المعقول ولا المقبول أن يخضع الثابت الإلهي للمتغير البشري، فالمتغير بحاجة دائمة إلى ثابت يرعاه ويضبطه. والثبات لايعني الجمود وعدم القدرة على حل المشاكل، والشريعة جمعت بين العنصرين: الثبات والمرونة، ففي الثبات أصالة وفي المرونة معاصرة، والثاني يخضع للأول وينبثق منه. والأمر يجب أن لاينظر إليه من حيث الثباتُ والجمودُ، فلا يرفض الثابت لأنه ثابت. بل يجب أن ينظر إليه من حيث صلاحيته، فإن كان صالحاً فنعم، وإن لم يكن صالحاً فيرفض، لالكونه ثابتاً بل لكونه غير صالح. الشيء الذي يقال أيضاً عن القديم والجديد، فلا يرفض القديم لقدمه، ولايقبل الجديد لأنه جديد، وإنما ينظر للصلاحية أولاً وأخيراً.

والاعتقاد بصلاحية الإسلام، ـ كما هو ـ لكل زمان ومكان جزء من الاعتقاد بالإسلام أصلاً. فلا يصح إسلام مالم يعتقد ذلك ويجزم به.

مرونة الإسلام ذاتية لاإضافية:

والإسلام صالح لكل زمان ومكان وحده، دون تعديلات إضافية عليه.

ومرونة الإسلام نابعة من ذاته، لاحاجة لأن تضاف إليه عناصر مرونة أجنبية

ودخيلة. ومتى طوّعنا الإسلام للعصر بادخال تعديلات عليه غير نابعة من قواعده وأصوله، فإننا نكون بذلك قد سلكنا مسلك أهل الأديان الأخرى قبل الإسلام.

وحينما نقول: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فإن ذلك لايعني بحال أن الإسلام صالح لكل مجتمع. فصلاحية الإسلام للمجتمعات البشرية مرهونة بتطويع تلك المجتمعات للإسلام وتبنيها الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، لا بتطويع الإسلام وتعاليمه لثقافتها وأسلوب حياتها كما هو.

البحث العاشر:

التجديد في الإسلام ضمن الثوابت العلمية والضوابط المنهجية

العنصر الأساس في التجديد: [1]

مع مرور الأيام والسنين على الإسلام وتقادم العصور عليه يتجمع تراكم من التصورات المخطئة مضافاً إليها عناصر دخيلة، مما يُكَوِّن مع مرور الزمن هوة بين ممارسات المسلمين وبين الإسلام نفسه. فتقضي الضرورة تجديد الإسلام بإعادة الفهم الصحيح لنصوصه، والتطبيق القويم لأحكامه، وتنقيته من العناصر الدخيلة عليه. ولتحقيق هذه الغاية لابد من أمر يعمل على تصفية الشوائب، ولابد أن يكون هذا بدوره نقياً لاشائبة فيه، الشيء الذي لايتوفر إلا في الكتاب والسنة.

الرجوع للكتاب والسنة:

إن الخطوة الأساس في تجديد الإسلام لاتعني أكثر من الرجوع إلى الإسلام الحق الموجود بنظريته السليمة في الكتاب والسنة، وبتطبيقه السليم بأعمال الصحابة والتابعين وتابعيهم. وهذا يعني سلوك طريق أهل السنة والجماعة، وهم الذين اجتمعوا على الأخذ بسنة رسول الله عليه السلام، والعمل بها ظاهراً وباطناً في القول والعمل والاعتقاد.

اما التطبيق العملي لهذا المفهوم فقد عبر عن نفسه عبر التاريخ بالتيار السلفي، ولذا فإن العلاقة بين التجديد وهذا التيار علاقة عضوية لاتنفك، فحيث كانت السلفية كان تجديد الإسلام

والسلف هم الصحابة والتابعون من أهل القرون الثلاثة الأولى الذين شهد لهم رسول الله. فأصبح مذهب السلف علماً على ماكان عليه هؤلاء الصحابة والتابعون وتابعوهم، ومن تبعهم من الأئمة الأربعة والبخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن، الذين اتبعوا طريق الأوائل جيلاً بعد جيل. ثم أصبح اصطلاحاً يطلق على السلف

---

(١) معالم الهدى إلى فهم الإسلام ص١٢١-١٢٣/للدكتور مروان إبراهيم القيسي/ .

ومنهجهم في تلقي الإسلام وفهمه وتطبيقه، فهو ليس محدوداً في فترة زمنية معينة. وهكذا نشأ التيار السلفي منذ زمن بعيد كرد فعل إيجابي لتصحيح الأمور واعادتها إلى نصابها كما كانت في عهد النبوة. وهذا مايميز الدعوة السلفية والعاملين فيها بالرغم من تباين ظروف البيئة الحضارية وتغاير العصور والأزمنة.

والسلفية لاتعني إعطاء السلف أكثر مما يستحقون من مكانة وتقدير، وإنما الأمر كله يعود إلى كون السلف أكثر فهما للشرع من غيرهم.

وعلى الرغم من أننا لسنا معنيين هنا بتفصيلات التيار السلفي والدعوة السلفية، إلا أن المقام يقتضي إشارة الى بعض قواعد المنهج السلفي ومنها:

١ـ تقديم الكتاب والسنة على أي شيء آخر.

٢ـ تقديم الشرع على العقل وإخضاع العقل للنص.

٣ـ القرآن الكريم مصدر للأدلة النقلية والعقلية معا.

٤ـ رفض التأويل الكلامي للصفات الإلهية.

٥ـ رفض منهج المتكلمين والفلاسفة فيما يخص العقيدة الاسلامية.

٦ـ التأكيد على عدم إغلاق باب الاجتهاد.

٧ـ رفض التقليد الأعمى وهو تقليد الإمام لشخصه ودون البحث عن الدليل.

٨ـ رفض تحديد التقليد بالأئمة الأربعة، والدعوة للأتباع.

٩ـ التزكية القلبية.

١٠ـ التأكيد على العلم وأهميته.

إن رجال الإصلاح الديني على اختلاف أعصارهم وبيئاتهم ومكوناتهم الشخصية، قد وردوا جميعاً من معين واحد: (كتاب الله وسنة رسوله)، وتأسوا في طريقة الإصلاح بإمام الهدى محمد ﷺ. ولذا نرى أن منهجهم قبس من منهجه، وأن طريقهم تبع لطريقه، وحظ كل منهم من النجاح مرتبط بمقدار حظه من التوفيق في حسن الأخذ وحسن التطبيق لذلك المنهج.

ولاشك أن الهدى هو ماكان من الله ورسوله، وأن هذا الهدى محصور في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فقط، وليس وراء هذا طريق ثالث للهداية. ولذا فقد كانت دعوة الرسول ﷺ تتركز على أمرين:

١ـ توحيد الله، فهو المعبود وحده.

٢ـ توحيد الطريق إليه، طريق عبادته وطاعته. وهذا لايكون إلا بالتزام الكتاب والسنة.

إنّ الرجوع للكتاب والسنة بفهم السلف الصالح أمر في غاية الضرورة، والحاجة إليه مستمرة، وهو التجديد بعينه، وهوالأصالة بعينها، وهو أساس أي بعث إسلامي مرتقب، وهو الأساس المشترك الذي يمكن أن تتوحد عليه الأمة من جديد.

البحث الحادي عشر

ثوابت العقيدة الإسلامية عصمة من كل ضلال

خطر الانحراف في فهم العقيدة: (١)

إن الانحراف في فهم العقيدة يُعدّ أكثر خطراً من غيره، فالعقيدة هي أساس الإسلام. وماتمتع به المسلمون يوماً ما من قوة كان سببه وضوح تصور العقيدة لديهم أولاً، وتفاعلهم معه ثانياً. ومايعانيه المسلمون الآن من ضعف عام في كافة جوانب حياتهم إنما يعود إلى سوء فهمهم للعقيدة، وبالتالي فلا مجال لتفاعلهم معها، وإن كان هناك من تفاعل فَمَعَ فهم مخطىء.

ولاريب أيضاً أن الانحراف في فهم العقيدة كان اساس كل الانحرافات التي تلت في حياة المسلمين. فقد شغلت المسائل الفلسفية والكلامية - التي اثيرت - المسلمين عن حقيقة العقيدة وأصلها كقوة محررة لهم ولبني البشر الآخرين إلى البحث في مسائل وتفصيلات لاجدوى من البحث فيها، وابتعد المسلمون عن غايتهم.

الأصلية في الأرض وهي نشر الإسلام. فبعد أن كانت حياتهم عملاً وجهاداً وإنقاذاً للبشرية أصبحت جدالاً ونقاشاً في صفات الله وماشابه. فما الذي أحرزه المسلمون من الصراع العقلي والخصومة الجدلية بين الإتجاهات الفكرية للفرق الإسلامية التي غدت مصدر خلاف بين المسلمين في حين أن العقيدة هي مصدر توحيد.

وحينما غاب أوتشوه الفهم الصحيح للعقيدة انتشرت الخرافات. ولاشك أن هذا كان أحد أهم أسباب الانحطاط الروحي والاجتماعي والتدهور العام الذي أصاب حياة المسلمين. ذلك ان العقيدة هي الأصل الذي يطبع طريقة البشر في تفكيرهم وفي سلوكهم. فأصل الكون ومنزلة الانسان فيه وعمله في أبعاده وعلاقة الفرد بغيره وعلاقة المجتمعات فيما بينها كلها منبثقة من العقيدة.

---

(١) معالم الهدى إلى فهم الإسلام ص١٢٥_١٢٧/ للدكتور مروان إبراهيم القيسي/.

ولقد انتشر الإسلام وتقبلته الأمم والشعوب الأخرى بسرعة حينما كان أصيلاً نقياً، ففي أصالته ونقائه سر تقبله واعتناقه. وفي يسره سر قوته.

إن القول: إنه لم يحدث اختلاف بين المسلمين في مسائل معينة أمر لايقره التاريخ، فهذا قد حصل للأسف، وإن كان الله عز وجل قد حفظ الأمة ودينها من مضاعفاته وآثاره كما سيتضح معنا فيما بعد.

ولذا وجب أن يأخذ التجديد في العقيدة أولى أولويات التجديد، وهذا ماكان دائماً، فتصفية العقيدة مما داخلها من ضلال الجاهلية هو أول مايتجه إليه المصلحون.

وإن القول: إنَّ العقيدة الإسلامية في بعض جوانبها جرت فيها محاولات للانحراف بها عن المسار الصحيح، لايمس الإسلام بسوء. فالعقيدة شأنها شأن بقية جوانب الإسلام لم تسلم من محاولات الهدم والإيذاء، وهل يعقل أن يحاول أعداء الدين هدم أجزاء الإسلام الأخرى، دون أن يتنبهوا إلى الانقضاض على أهم أجزائه وعناصره، وهي الأساس الذي تقوم عليه الأجزاء الأخرى وأعني العقيدة.

غير أن القول بأنه قد جرت محاولات للانحراف بالعقيدة لايعني بالضرورة ان تلك المحاولات نجحت إلى الحد الذي أصبحت العقيدة الإسلامية الآن غير تلك العقيدة التي جاء بها رسول الله ﷺ، كما حدث بالنسبة للعقيدة التي جاء بها المسيح عليه السلام وهي عقيدة التوحيد والتي أصبحت بعد مرور أقل من ثلاثمائة عام على رفعه للرفيق الأعلى وكأنها عقيدة اخرى، الشيء الذي يختلف تماماً عما عليه الإسلام، فقد حفظ الله على الأمة معتقدها الصحيح، فنحن على بينة بأن عموم الأمة في الشرق والغرب من ناحية علم أصول الدين غير محتاجة إلى إضافة جديدة، وإنما هو مفتقر إلى التعليم الصحيح وترك مايؤدي للتشكيك. ولذا فإن تجديد العقيدة إنما يكون:

١ـ بتصفيتها مما داخلها من عناصر أجنبية، ومن شوائب البدع.

٢ـ تصحيح فهم المسلمين لها بإبعاد التفسيرات المنحرفة الخاطئة.

٣ـ بلفت النظر والتركيز على دور التوحيد وأهميته وتخليص النفوس من الشرك الخفي.

وهذا لايمكن أن يتم باستقاء العقيدة من منابعها الأصلية ونعني مصدري الإسلام الرئيسين الكتاب والسنة.

إن الله تعالى هو المقرر للعقائد المشرع للأحكام فليس لأحد أن يحتج في أي جانب من جوانب الدين، بما يحدثه من بدع. ولاشيء يخرج المسلمين مما هم فيه

من الإنحلال الديني وضعف العقيدة إلا الرجوع بهم إلى الدين في أصوله الصافية.

وإن العقيدة والإيمان بالغيب مصدرهما الله تبارك وتعالى ولايجوز أبداً لأي مسلم أن يتخذ طريقاً آخر للغيب يتلقى عنه، وهكذا فكل عقيدة تخالف كتاب الله تعالى وسنة رسوله فهي عقيدة باطلة يجب حربها والقضاء عليها.

المنهج الصحيح في فهم العقيدة: (١)

ومن هنا فإن المنهج الصحيح الوحيد في فهم العقيدة هو منهج القرآن والسنة لا منهج علماء الكلام او الفلاسفة المسلمين. وعلى سبيل المثال لاالحصر فان منهج القران في الصفات الإلهية يقتضي إثباتها بلا كيف، ويقضي أيضاً أن يتم الإيمان بصفات الله وأسمائه من غير زيادة ولانقص فيها، ولاتأويل لها بما يخالف ظاهرها، ولاتشبيه لها بصفات المخلوقين، بل بإمرارها كما جاءت في كتاب الله أو على لسان رسوله، ورد علمها إلى قائلها. وهكذا فإن هناك أصولاً ثلاثة لفهم صفات الله عز وجل لابد منها مجتمعة وهي:

١ـ الاثبات: فالواجب فيما يخص صفات الله عز وجل ورسوله أثبتناه. ومانفاه الله ورسوله نفيناه. وفيما يخص الألفاظ والمعاني المستعملة بهذا الخصوص فهي مجموعتان:

الأولى: الألفاظ التي وردت في الكتاب والسنة، فنثبت ماأثبته الله ورسوله في الكتاب والسنة من الألفاظ والمعاني، وننفي مانفته نصوصها من الألفاظ والمعاني.

الثانية: أما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها: فإن كان معنى صحيحاً قبل لكن ينبغي التعبير عنه بالفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة الغامة، إلا عند الحاجة، مثل أن يكون المخاطب أوالسامع غير قادر على استيعاب المعنى الصحيح، ولابد عندها من استعمال قرائن تبين المقصود.

٢ـ التنزيه:

إن اثبات ماأثبته الله تعالى لنفسه، ونفي مانفاه عن نفسه لايكفي، فلابد من التنزيه. فالله سبحانه وتعالى موصوف في القرآن الكريم بصفات الوحدانية، ومنعوت بنعوت الفردانية قال تعالى: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ الإخلاص. فالله تعالى ليس كمثله شيء في صفاته ولا في أسمائه ولا في افعاله، وتنزيه الله يقتضي الأمور التالية:

---

(١) معالم الهدى في فهم الإسلام ص١٢٧ـ١٣١/ للدكتور مروان إبراهيم القيسي.

أـ إن الله تعالى ليس كمثله شيء، لافي ذاته، ولافي صفاته، ولافي أفعاله.

فالله تعالى لايشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله. فأسماء الله تعالى ليست كأسماء غيره، وأفعاله ليست كأفعال غيره، وصفاته ليست كصفات غيره. فالله تعالى وان وُصِفَ بأنه متكلم، لكن لايوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون الانسان بها متكلما.

ب ـ ان خصائص الله تعالى لايوصف بها شيء من المخلوقات، ولايماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته. فلا ريب ان نفي مشابهة شيء من مخلوقاته له مستلزم لنفي مشابهته لشيء من مخلوقاته.

٣ـ الأصل الثالث هو استحالة معرفة كيفية صفات الله عز وجل سئل الإمام أحمد رحمة الله عن كيفية استواء الرحمن على العرش فقال للسائل: قل لي كيف هو أقول لك كيف استوى. وقال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ الاعراف: ٥٣ كيف استوى؟ فقال «الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ومأأراك إلا ضالاً وأمر به أن يخرج من المجلس[١] وهكذا فإنه بالأخذ بهذه الأصول الثلاث يكون الجواب عن السؤال التالي مثلاً حدثني عن بصر الله تعالى؟ لله تعالى بصر (وهذا أخذ بالأصل الأول) وبصره تعالى لايشبه بصر غيره، وبصر غيره لايشبه بصره تعالى (وهذا أخذ بالأصل الثاني وهو التنزيه) ولاأحد يعرف كيفية بصره تعالى (وهذا أخذ بالأصل الثالث).

إن الفضل في الحفاظ على أصالة العقيدة الإسلامية يعود لأمرين:

١ـ الحفاظ على النصوص الدينية المقدسة كما هو دون تحريف، وأعني القرآن والسنة، وهما مصدرا العقيدة الأساسيان. وبذا بقي المصدر الأهم مصوناً محافظاً عليه.

٢ـ الحفاظ على الفهم الصحيح للنصوص العقيدية، وهو فهم الصحابة المستقى من رسول الله مباشرة، والذي انتقل إلينا عبر التابعين وتابعيهم، وهذا عنصر مهم جداً في الفهم الصحيح لتفصيلات العقيدة.

غير ان هناك امراً آخر يجب ألا نغفله وله دوره الإيجابي المهم في هذه القضية، وهو خطر الاجتهاد في أمور العقيدة، فقد حال ذلك دون ان تصير العقيدة الإسلامية

---

(١) البغوي، شرح السنة، ج١، ص١٧١

إلى ماصارت عليه العقيدة النصرانية واليهودية.

تحصل لنا مما سبق نتيجتان:ـ

١ـ لقد جرت محاولات لتحريف الفهم الصحيح للعقيدة، وقد نجحت في بعض الجوانب والمظاهر إلى حد ما، مع بقاء التصور الصحيح مصوناً يعود إليه أصحاب الفهم السيء متى شاؤوا ذلك.

٢ـ إن العقيدة الاسلامية بقيت سليمة مصونة من أي تحريف .

على انه ليس هناك تناقض بين هذين القولين. فالفرق الاسلامية التي أساءت في فهمهالبعض جوانب العقيدة الإسلامية، والتي تمثل في الواقع محاولات الانحراف هذه مقصودة كانت او غير مقصودة، أفرز نشاطها الفكري مجموعة من الآراء لاتمثل في معظمها العقيدة النقية التي جاء بها رسول الله عن ربه.

وإزاء هذه الانحرافات وجد لدينا تراثٌ آخر عكف اصحابه على استقاء العقيدة من النصوص وفهمها كما فهمها الصحابة من رسول الله. وبذا ردت الأمور إلى نصابها، وأصبح لدينا مصدران لدراسة العقيدة الإسلامية:ـ

١ـ المصدر الأصيل الذي يمثل النقاء في العقيدة.

٢ـ المصدر الدخيل الذي يمثل صورة غير أصيلة.

ولكن بقي سؤال هو: مامدى التأثير العملي للمصدر الدخيل على عقائد الأفراد والأجيال عبر التاريخ؟

الحق أنه لايمكن بأي حال تشبيه الانقسام العقدي في الديانات الأخرى بما حدث في الإسلام. فالأمر مختلف تمام الاختلاف من حيث الجوهر والنتائج. ولا يهمنا مناقشة اختلاف الجوهر بمقدار مايهمنا مناقشة الأمر الآخر وهو حصيلة الاختلاف. فالاختلاف الذي حدث في الديانة النصرانية مثلاً لم يندثر بل على العكس فقد برز وتبلور وظهر واضحاً. فهذه الفرق المنتشرة من كاثوليكية وبروتستانتية وأرثوذكسية وغيرها إنما هي جماعات مستقلة ومتميزة عن بعضها بعضاً.

والأمر الأكثر معنى وأهمية أن الانقسام الذي حصل لم يندثر وهذا هو بيت القصيد.

أما الخلاف الذي اخذ مكانه بين المسلمين في فهم أمور العقيدة زال في غالبيته الساحقة. فأين هي تلك الفرق التي تمثل الاتجاه الدخيل في فهم العقيدة؟ أين هم

المعتزلة وأين هم الخوارج والمعطلة والجهمية؟ إن آراءهم تعيش في عقول شذاذ فقط!؟..

إن ماانشق وخرج عن جسم الأمة من مجموعات صغيرة لايمكن الإشارة إليه بأنه يمثل امتداداً لذلك الاختلاف الأول في العقيدة الذي أحدثته الفرق آنفة الذكر.

فالقاديانية والبهائية مثلاً لاتمثل اختلافاً في العقيدة بل تمثل خروجاً كاملاً عن الإسلام. ويجب التفرقة بين مجموعتين مختلفتين مازالتا ضمن نطاق الإسلام كالسنة والشيعة، وبين مجموعتين الأولى مسلمة والأخرى خارجة عن الإسلام بالكلية كالمسلمين عموماً والقاديانيين، فليس هناك مجال للبحث في التوافق والتعارض في الحالة الثانية.

ولقد أخبر رسول الله عَما سيحصل من انقسام في الأمة الإسلامية فقال: «والذي نفس محمد بيده، لتفترقنَّ أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار»[1].

لكن ماحصل فعلاً أن هذا الانقسام لم يستمر فقد بادت هذه الفرق وأتباعها، ولم يبق في الواقع ومنذ زمن بعيد غير التصور الصحيح للعقيدة الصحيحة مسيطراً على الواقع في عقول وقلوب الغالبية الساحقة من أبناء الأمة الذين يمثلون أهل السنة والجماعة عبر أجيال طويلة. فكانت الغلبة للتصور الصحيح والهزيمة الساحقة لبقية التصورات، مع وجود بعض الانحرافات الآن في عقول بعض أفراد الأمة، غير أن ذلك يعود إلى الجهل بصورة رئيسة.

---

(١) حديث صحيح/انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته: للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني برقم٥٠٨٢/١.

المصادر والمراجع لأبحاث الكتاب

الآيات العلمية: عبد الرزاق نوفل ـ ط مكتبة الأنجلو المصرية.

آيات قرآنية في مشكلة العلم: الدكتور يحيى المحجري ـ ط المختار الإسلامي ـ القاهرة.

ابن عربي وتفسير القرآن: حقيقة التفسير المنسوب إليه: الدكتور محمد حسين الذهبي ـ ط مجلة الأزهر ـ القاهرة.

اتجاهات التفسير في العصر الحديث: عبد المجيد عبد المحتسب ـ ط دار الفكر ـ ط١ سنة ١٩٧٣.

اتجاه التفسير في العصر الحديث: مصطفى الطير الحديدي ـ ط مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة.

الاتجاهات المنحرفة في التفسير: الدكتور محمد حسين الذهبي ـ ط دار الاعتصام ـ القاهرة.

الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ـ ط القاهرة.

أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي: الدكتور مساعد مسلم عبد الله آل جعفر ـ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

أثر القرآن الكريم في اللغة العربية:

محمد عبد الوحد حجازي ـ ط القاهرة ـ سلسلة البحوث الإسلامية ـ الأزهر.

أحكام القرآن: لابن العربي ـ ط عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود ـ ط مكتبة الرياض الحديثة.

أساس البلاغة: للزمخشري: ط دار المعرفة بيروت.

الإسرائيليات والموضوعات: الدكتور محمد أبو شهبة ـ ط مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة.

الإسلام في عصر العلم: محمد أحمد الغمراوي ـ ط مصر عام ١٩٧٣م.
الإسلام في عصر العلم: محمد فريد وجدي ط القاهرة ـ ١٩٧٣ .
الإسلام في القرن العشرين: عباس محمود العقاد ـ ط القاهرة/ ١٩٥٤م.
الإسلام والحضارة العربية: محمد كرد علي ـ ط لجنة التأليف والنشر ـ ١٩٥٩ . القاهرة .
الإسلام والحضارة العربية: الدكتور محمد محمد حسين الجواب الإسلامي المعاصر ط الشمال طرابلس لبنان.
الإسلام والحقائق العلمية ـ محمدو القاسم ـ ط دار الهجرة ـ بيروت.
الإسلام والطب الحديث: عبد العزيز إسماعيل ـ ط القاهرة ١٩٥٧
الإسلام والعصر الحديث: وحيد الدين خان ط دار المختار الإسلامي ـ القاهرة.
الإسلام وقوانين الوجود: الدكتور محمد جمال الفندي ـ ط الهيئة المصرية للكتاب.
الإسلام والكون: سلسلة الإسلام وتحديات العصر: الدكتور عبد الغني عبود ـ ط دار الفكر العربي ـ القاهرة.
الإسلام يتحدّى: وحيد الدين خان ط مؤسسة الرسالة بيروت.
الإشارات العلمية في الآيات الكونية في القرآن الكريم: محمد إسماعيل ط دار الدعوة ـ الاسكندرية.
إصلاح الوجوه والنظائر: للدامغاني ـ ط دار العلم للملايين ـ بيروت.
أصول التفسير وقواعده: الشيخ خالد عبد الرحمن العك ـ ط دار النفائس ـ بيروت.
أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف ـ ط دار القلم ـ الكويت.
أصول الفقه: محمد الخضري ـ ط القاهرة.
أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة: عبد الغني الخطيب ـ ط دار الفتح ـ دمشق.
إعجاز القرآن: عبد الكريم الخطيب ـ ط دار الفكر العربي ـ القاهرة.
إعجاز القرآن: للباقلاني ـ ط دار المعارف ـ القاهرة.
إعجاز القرآن في حواس الإنسان: الدكتور محمد كمال عبد العزيز ـ ط دار ابن

سينا القاهرة.
إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: للرافعي - ط الاستقامة.
إعجاز النبات في القرآن الكريم: الدكتور نظمي خليل أبو العطا - ط مكتبة النور - القاهرة.
الإعجاز البياني - الدكتورة عائشة عبد الرحمن - بنت الشاطىء - ط دار المعارف بمصر.
الإعجاز الطبي في القرآن: الدكتور السيد الجميلي - ط دار الهلال - بيروت.
الإعجاز العددي في القرآن الكريم: عبد الرزّاق نوفل - ط دار الكتاب العربي - بيروت.
الإعجاز العلمي في الإسلام: السّنّة النبوية : محمد كامل عبد الصمد ط الدار المصرية اللبنانية.
الإعجاز العلمي في القرآن: الدكتور السيد الجميلي - ط دار الفكر العربي - بيروت.
الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: محمد السيد الأرناؤوط - ط مكتبة مدبولي - القاهرة.
الإعجاز الفكري في القرآن: الدكتور السيد الجميلي - ط دتر ابن زيدون - بيروت.
الأكسير في علوم التفسير: للطوفي - ط مكتبة الآداب - القاهرة.
الله يتجلّى في عصر العلم: جون كلوفر مونسما - ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان.
الألوان في القرآن: عبد المنعم الهاشمي - ط دار ابن حزم - بيروت.
الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير: الدكتور عبد الغفار عبد الرحيم - ط المركز العربي للثقافة والعلوم - القاهرة.
الأمراض الجنسية: الدكتور محمد علي البار ط دار المنارة - جدة.
الإنسان بين العلم والدين: الدكتور شوقي أبو خليل - ط دار الفكر - دمشق.
الإنسان: وجوده وخلافته في ضوء القرآن الكريم: الدكتور عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي - ط مكتبة وهبة - القاهرة.

الإيدز: يسرى عبد الغني البشرى ط مكتبة ابن سينا ـ القاهرة.
الإيمان في القرآن: للدكتور مصطفى عبد الواحد ط دار الرائد العربي ـ بيروت.
بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: للفيروز أبادي ـ ط مجمع البحوث الإسلامية.
بين الدين والعلم: عبد الرزاق نوفل ـ ط دار الكاتب العربي.
بين الطب والإسلام: الدكتور حامد الغوابي ـ ط وزارة الثقافة ـ مصر.
البحر المحيط: أبو حيان ط سنة ١٣٢٨هـ.
البرهان في علوم القرآن: للزركشي ـ ط دار المعرفة ـ بيروت.
تاريخ توثيق نص القرآن الكريم: الشيخ خالد عبد الرحمن العك ـ ط دار الفكر ـ دمشق.
تأويل جزء عم: يحيى عبد القادر ـ ط دار ابن هانيء ـ دمشق.
تأويل مشكل القرآن: لابن قتيبة ـ ط القاهرة سنة ١٩٧٣.
التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور ـ ط الدار التونسية للنشر.
التداوي بالقرآن: محمد إبراهيم سليم ط مكتبة القرآن ـ القاهرة.
تسعة عشر ملكاً: فرية بهائية: حسين ناجي محمد محيي الدين ـ ط الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة.
التصوير الفني في القرآن: لسيد قطب ـ ط دار المعارف ـ القاهرة.
التعليم والتعلّم في القرآن: الدكتور حامد عبده الهوّال ـ ط مكتبة الفلاح ـ الكويت.
تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم: عبد المنعم السيّد عشرى ـ ط الهيئة المصرية للكتاب.
تفسير ابن باديس: عبد الحميد بن باديس ـ ط الكيلاني الصغير.
تفسير جزء عم: محمد عبد ـ ط بولاق.
تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ـ ط دار المعرفة ـ بيروت
تفسير القرآن الكريم «الأجزاء ١ـ١٠ الأولى» الشيخ محمود شلتوت ـ ط دار الشروق ـ جدة.
تفسير المنار: محمد رشيد رضا ـ ط المنار ـ القاهرة.

التفسير الحديث: محمد دروزة ـ ط إحياء الكتب العربية.

التفسير العلمي في الميزان: أحمد عمر أبو حجر. ط دار قتيبة ـ دمشق.

التفسير ورجاله: محمد الفاضل بن عاشور ـ ط مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة.

التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن: حنفي أحمد ـ ط دار المعارف بمصر.

التفسير: معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي ـ ط جماعة الكتاب.

التفسير الموضوعي لآيات التوحيد في القرآن: الدكتور عبد العزيز بن الدردير ـ ط مكتبة القرآن ـ القاهرة.

التفسير والمفسرون: الدكتور محمد حسين الذهبي ـ ط القاهرة.

التنوير في أصول التفسير: المجدوي البركتي ـ ط مطبعة المجيدي.

توحيد الخالق: عبد المجيد الزنداني ط مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت.

جامع البيان في تفسير القرآن: للطبري ـ ط دار المعرفة ـ بيروت.

جواهر القرآن: أبو حامد الغزالي ـ ط مكتبة الجندي ـ القاهرة.

الجانب العلمي في القرآن: الخطاب ـ ط الناشر العربي.

الجواهر في تفسير القرآن الكريم: طنطاوي جوهري ط مصطفى الحلبي ـ القاهرة.

حبر الأمة عبد الله بن عباس ومدرسته في التفسير: الدكتور عبد الله محمد سلقيني ـ ط دار السلام، بيروت.

حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن: محمد علي الصابوني ـ دار القلم ـ دمشق.

حكم المثاني تفسير القرآن الكريم: السيد أحمد خليل ـ ط١ سنة ١٩٦٨.

حول خصائص القرآن: محمد بن علوي المالكي ط سنة ١٤٠١ ـ جدة ـ مكابع سحر.

خصائص القرآن الكريم: الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ـ ط الرياض.

خلق الإنسان بين الطب والقرآن: الدكتور محمد علي البار ـ ط الدار السعودية ـ الرياض.

الخمر بين الطب والفقه: الدكتور محمد علي البار ـ ط دار الشروق ـ جدة.

دراسات في التفسير الموضوعي لقصص القرآني: الدكتور أحمد جمال العمري ـ ط مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

دراسات في القرآن: السيد أحمد خليل ـ ط دار المعارف ـ القاهرة.

دعوة التوحيد: الدكتور محمد خليل الهراي. ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

دلائل الإعجاز: للجرجاني: ط مكتبة القاهرة.

دلائل التوحيد: جمال الدين القاسمي/ ضبط وتعليق وتخريج الشيخ خالد عبد الرحمن العك ـ ط دار النفائس ـ بيروت.

دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث: توفيق محمد عز الدين ط دار السلام ـ القاهرة.

الدّين في مواجهة العلم: وحيد الدين خان ط دار النفائس ـ بيروت

رحلة الإيمان في جسم الإنسان: الدكتور حامد أحمد حامد ـ ط دار القلم دمشق.

رحمة من الرحمن في تفسير إشارات القرآن: «محمود غراب» وعزاه لابن عربي ـ ط دمشق.

رد على محاولة لفهم عصري للقرآن: مصطفى إسماعيل الرج ـ ط مطبعة الأصيل بحلب.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: الألوسي ـ ط دار إحياء التراث العربي. بيروت.

الرياضيات في القرآن الكريم: دكتور خليفة عبد السميع خليفة ـ ط مكتبة النهضة المصرية.

سنن ابن ماجه: ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

سنن أبي داود: ط حمص.

سنن الترمذي: ط أحمد شاكر، القاهرة.

سنن النسائي: ط مصر.

السمع والبصر في القرآن الكريم: الدكتور على محمد سلامة ـ ط جمعية الدعوة ـ ليبيا.

السيرة النبوية مع شرحها «الروض الأنف لابن هشام: ط دار المعرفة ـ بيروت.

شطحاط مصطفى محمود في تفسيراته العصرية: للقرآن الكريم: عبد المتعال

محمد الجبري ـ ط دار الاعتصام ـ القاهرة.
صحيح البخاري ـ مع شرحه: فتح الباري ط المكتبة السلفية ـ القاهرة.
صحيح مسلم: ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
الطب الإسلامي بين العقيدة والإبداع: مختار سالم ـ ط مؤسسة المعارف ـ بيروت.
الطب في القرآن: الدكتور عبد الله عباده ـ ط مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ دار الرفاعي ـ الرياض.
الطب محراب للإيمان: الدكتور خالص كنجو ـ ط مؤسسة الرسالة.
الظاهرة القرآنية ـ ملك بن نبي ـ ترجمة عبد الصبور شاهين ـ ط دار الفكر ـ دمشق.
عجائب العنكبوت في القرآن دراسة في القرآن والتراث والعلم الحديث: الدكتور كارم السيد عنيم ـ ط دار الصحوة للنشر ـ القاهرة.
عظمة القرآن: عبد القادر عطا ـ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.
العقيدة في القرآن: للدكتور عبد السلام التونجي ط جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ـ ليبيا
العلم يدعو إلى الإيمان: كريسي موريسون ـ ترجمة محمود صالح الفلكي ـ ط مكتبة النهضة المصرية.
العلمانية وثمارها الخبيثة: محمد شاكر: ط مكتبة الإيمان ـ الاسكندرية.
العلمانية: نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية ـ الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحولي ـ ط دار مكة للطباعة والنشر ـ مكة المكرمة.
غاية حياة الإنسان كما يصورها الدين والعلم: الشيخ خالد عبد الرحمن العك ط دار الألباب ـ دمشق.
الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية: محمد المبارك ـ ط دار الفكر ـ دمشق. سنة ١٩٧٠.
الفن القصصي في القرآن: محمد أحمد خلف الله ـ ط الأنجلو المصرية. ط٣/ ١٩٦٥. [وقد أنكر العلماء على هذا الكتاب].
الفهرس الموضوعي لآيات القرآن: محمد مصطفى محمد ـ ط دار عمار ـ عمان ـ

دار الجيل ـ بيروت.
في ظلال القرآن: سيد قطب ـ ط دار الشروق ـ جدة.
القراءات في نظر المستشرقين والملحدين: الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي ـ ط مكتبة الدار ـ المدينة المنورة.
القرآن والتفسير العصري: الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ ط دار المعارف بمصر.
القرآن وحقائق العلم الحديث: محمد جعفر محمد ـ ط المشأة العامة للنشر بليبيا.
القرآن دواء وعلاج وشفاء: حبشي فتح الله الحفناوي ـ ط المكتب الجامعي الحديث ـ الإسكندرية.
القرآن والطب: أحمد محمد سليمان ـ ط دار العودة ـ بيروت.
القرآن وعلم الفلك: أحمد جبالية ـ ط الدار العربية للكتاب ـ ليبيا.
القرآن والعلم: أحمد محمد سليمان ـ ط دار العودة ـ بيروت.
القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في كل أقوال المفسرين: محمد الصادق عرجون ـ ط دار القلم دمشق ـ الدرا الشامية ـ بيروت.
القرآن معجزة العصور: د. محمد عبد المنعم خفاجي وزملاؤه د. علي صبح وعبد العزيز شرف وعبد العظيم الشبلي. ط الهيئة المصرية للكتاب القاهرة.
قصة التفسير: أحمد الشرباصي ـ ط المكتبة الثقافية بمصر.
قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار ـ ط مؤسسة الحلبي ـ القاهرة.
القصص القرآني في منطوقه ومفهومه: عبد الكريم الخطيب ـ ط دار المعرفة ـ بيروت.
قوانين الله وليست قوانين الطبيعة: الدكتور محمود سراج الدين عفيفي ـ ط دار الفكر العربي ـ القاهرة.
القول المبين في تفسير المؤمنين ـ محمد علي موزة ـ ط الشركة العامة للكتاب ـ بيروت.
كتاب التوحيد: عبد المجيد الزنداني ط مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت.
كتاب السبعة في القراءات: لابن مجاهد ـ ط ـ دار المعارف.

الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة: الدكتور محمد شحرور ـ ط الأهالي ـ دمشق.
[الذي حشد فيه أكثر من ٢٥٠٠ أغلوطة جدلية].
كشاف الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: الدكتور نبيل عبد السلام هارون ـ ط مكتبة ابن سينا ـ القاهرة.
الكون والإنسان بين العلم والقرآن: بسام دفضع ـ دار الألباب ـ دمشق.
الكون بين الدين والعلم: الدكتور محمد جمال الدين الفندي ـ ط المجلس العلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة.
لباب النقول في أسباب النزول: للسيوطي ـ ط الملاح ـ دمشق.
لماذا حرّم الله هذه الأشياء؟ الدكتور محمد كمال عبد العزيز ـ ط مكتبة القرآن ـ القاهرة.
مباحث في إعجاز القرآن: الدكتور مصطفى مسلم ـ ط دار المنارة ـ جدة.
مباحث في التفسير الموضوعي: الدكتور مصطفى مسلم ـ ط دار القلم ـ دمشق.
مباحث في علوم القرآن: الدكتور صبحي الصالح ـ ط دار العلم للملايين ـ بيروت.
مباحث في علوم القرآن: مناع القطان ـ ط دار المريخ ـ الرياض.
محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي ـ ط عيسى الحلبي ـ القاهرة.
المخدرات الخطر الداهم: الدكتور محمد علي البار ـ ط دار القلم ـ دمشق ودارة العلوم ـ بيروت.
مدخل إلى موقف القرآن من العلم: الدكتور عماد الدين خليل ـ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد ـ ط دار الطباعة والنشر الإسلامية.
المدخل إلى القرآن الكريم: الدكتور محمد عبد الله دراز ـ ط دار القلم ـ دمشق.
مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين: منيرة علي الغاياتي ط مكتبة وهبة ـ القاهرة.
مع الطب في القرآن الكريم: الدكتور ناظم نسيمي: دكتور عبد الحميد دياب ـ دكتور أحمد قرقوز. ط مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق.

مع القرآن في عالمه الرحيب: الدكتور عماد الدين خليل ـ ط دار العلم للملايين.
مع القرآن في الكون: الدكتور محمد جمال الدين الفندي ـ ط الهيئة المصرية للكتاب.
معالم التنزيل ـ البغوي ـ ط دار المعرفة ـ بيروت.
معالم القرآن في عوالم الأكوان: الشيخ أحمد محيي الدِّين العجوز ـ ط دار الندوة الجديدة ـ بيروت.
معاني القرآن: للفراء ـ ط عالم الكتب ـ بيروت.
معترك الأقران في إعجاز القرآن: للسيوطي ـ ط دار الفكر العربي ـ القاهرة.
معجزات في الطب للنبي ﷺ: للطبيب محمد سعيد السيوطي ط مؤسسة الرسالة.
المعجزة القرآنية ـ الإعجاز العلمي الغيبي: الدكتور محمد حسن هيتو ـ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم: صبحي عبد الرؤوف عصر. ط دار الفضيلة القاهرة.
مفاتيح الغيب: التفسير الكبير: للرازي ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.
مقدمة في أصول التفسير: لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ ط دار القرآن ـ القاهرة.
من إعجاز القرآن: وليس الذكر كالأنثى: محمد عثمان الخشة. ط مكتبة القرآن ـ القاهرة.
من روائع الإعجاز في القرآن الكريم: الدكتور محمد جمال الدين الفندي ـ ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة.
من علم الطب القرآني الثوابت العلمية في القرآن الكريم: الدكتور عدنان الشريف. ط دار العلم للملايين.
من علم الفلك القرآني الثوابت العلمية في القرآن الكريم: الدكتور عدنان الشريف ـ دار العم للملايين ـ بيروت.
من علم النفس القرآني: الدكتور عدنان الشريف ـ ط دار العلم للملايين ـ بيروت.
مناهل العرفان في علوم القرآن: للزرقاني ـ ط مصطفى الحلبي ـ القاهرة.
مناهج أهل السنة في تفسير القرآن: الدكتور صبري المتولي ـ ط دار الثقافة ـ

القاهرة.
منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان: الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي ـ ط . .
منهج القرآن في الدعوة إلى التوحيد: أحمد محمد رحومة ط جمعية الدعوة الإسلامية ـ ليبيا.
منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: الدكتور فهد عبد الله بن سليمان الرومي ـ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
موسوعة أخلاق القرآن: للشرباهي ـ ط دار الرائد العربي ـ بيروت.
النبأ العظيم: الدكتور محمد عبد الله دراز ط دار القلم ـ الكويت.
النبوات: لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ ط دار الفكر ـ بيروت.
النظم الفني في القرآن: عبد المتعال الصعيدي ـ ط مكتبة الآداب ـ القاهرة.
نقض مطاعن في القرآن الكريم: محمد أحمد عرفة ـ ط مكتبة الزهراء ـ القاهرة.
هكذا عرفت ربّي: الدكتور عبد الكريم دهنية ـ ط المكتب الثقافي ـ القاهرة.
واقعنا المعاصر: محمد قطب ـ ط مؤسسة المدينة ـ المملكة العربية السعودية.
الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: الدكتور محمد محمود حجازي ـ ط دار الكتب الحديثة ـ القاهرة.
وهناك بعض المراجع يُشار إليها في تعليقات الكتاب.



الفهرس العام للكتاب

الفصل الثاني

المنهج القرآني الفريد في عرض العقيدة وإثبات التوحيد

الفصل الثالث

تاريخ تفسير القرآن العظيم في مراحله الأولى ومنهج الصحابة فيه

الفصل الرابع:

مراحل التفسير العلمي والموضوعي للقرآن العظيم

الفصل الخامس

تاريخ تفسير القرآن العظيم

الفصل السادس

أثر شيخ الإسلام ابن تيمية في علم التفسير وأصوله وفي الكشف عن الفلسفة